مختارات الفكر المسيحي/ ١٠

ملفات الفكر المسيحي

١٩٧١-١٩٩٤

اعداد وتقديم
الاب بيوس عفاص

بيبليا للنشر/ الموصل ٢٠١١

مختارات الفكر المسيحي

سلسلة توثق ما نشرته مجلة الفكر المسيحي، بين الاعوام ١٩٧١-١٩٩٤، سواء في ابوابها الثابتة، ام في اعدادها الخاصة، ام لكتاب تركوا بصماتهم فيها...

صدر منها، اولاً: كتاب وثق تاريخ الكنيسة الشرقية (١٩٧٣)، ومن ثم كتابان وثقا بابين ثابتين، قبل ان تعمد دار بيبليا للنشر، عام ٢٠٠٦ الى مواصلة المشروع، بدءا من الرقم ٢، وهي من اعداد وتقديم الاب بيوس عفاص.

(-) تاريخ الكنيسة الشرقية/ج١ (ركن التاريخ)	الاب البير ابونا ٢١٦ص، الموصل ١٩٧٣	نفد
(١) همسات ابو فادي/ج١ (الزاوية ذاتها)	الاب (المطران) جرجس القس موسى ١٦٨ص، بغداد ١٩٨٥	١٥٠٠ د
(٢) ابت، هذه مشكلتي (الزاوية ذاتها)	الابوان عبدالسلام حلوة ويوسف توما ١٠٠ص، بغداد ٢٠٠٤	٢٠٠٠د
٣. اسئلة واجوبة (صندوق الاسئلة...)	مشترك بين اكثر من ٥٠ كاتبا (١٢٠ اجابة) ٢٢٨ص، الموصل ٢٠٠٦	٢٥٠٠د
٤. افتتاحيات (٢٠٢ افتتاحية)	الابوان بيوس عفاص وجرجس القس موسى ٥٠٠ص، الموصل ٢٠٠٧	٣٥٠٠د
٥. همسات ابو فادي/ج٢ (الزاوية ذاتها)	الاب (المطران) جرجس القس موسى ١٧٨ص، الموصل ٢٠٠٧	٢٠٠٠د
٦. من وحي الانجيل (الزاوية ذاتها)	مشترك بين ٢٥ كاتباً (١١٧ مساهمة) ٢٩٤ص، الموصل ٢٠٠٨	٢٥٠٠د
٧. خواطر وشذرات	١٦٨ خاطرة لكتاب من كل افق ٢٠٨ص، الموصل ٢٠٠٩	٢٠٠٠د
٨. المختار من الأعداد الخاصة	٦٦ مقالة لـ ٢٧ كاتباً من كتاب الفكر المسيحي ٥٠٨ص، الموصل ٢٠١٠	٣٥٠٠د
٩ - كتّاب رحلوا وتركوا اثرا	٣٩ مقالة لـ١٩ كاتباً ٢٩٢ص، الموصل ٢٠١١	٣٠٠٠د
١٠ - ملفات الفكر المسيحي	٥٧ ملفا بقلم ٢٢ كاتباً ٤٨٠ص، الموصل ٢٠١١	٣٥٠٠د

تصميم: ماهر حربي

(سعر خاص للكتب الثلاثة الاخيرة: ٩٠٠٠ د. فقط)

في مجموعات

تتوفر نسخ من اعداد المجلة للأعوام ١٩٧١-١٩٩٤

المجموعة الكاملة ١٩٧١-١٩٩٤ (٢٤ عاماً/محدودة): ٢٥٠,٠٠٠د.

المجموعة الكاملة عدا ١٩٧٥-١٩٧٧ (٢١ عاما): ١٠٠,٠٠٠د.

مجموعة اعداد ١٩٨١-١٩٩٤ (١٤ عاما): ٥٠,٠٠٠د.

مجموعة الاعداد الخاصة للاعوام ١٩٧٨ - ١٩٩٤ (١٦ عدداً/١٢٥٢ص) ٧٠٠٠د.

(ويمكن الحصول مجانا على اعداد متفرقة)

تطلب من مكتبة بيبليا/ كنيسة مار توما-الموصل (العراق)

دار بيبليا للنشر
e-mail: biblilamosul@yahoo.com

منشورات

دار بيبليا للنشر

ملفات الكتاب المقدس

مجلة بيبلية مصورة بقلم اختصاصيين فرنسيين، عمد م.د.ك.، منذ عام ٢٠٠٠، إلى تعريبها ونشرها بوتيرة ٤ ملفات في السنة. ظهر منها ٤٦ ملفا في العهدين القديم والجديد، وعلى مدى ١٢ سنة. ومع عام ٢٠١٢ تبدأ عامها الثالث عشر.

تتوفر منها مجموعات للسنوات الماضية وبأسعار مخفضة:

مجموعة ٦ أعوام (٢٠٠٦ - ٢٠١١)	الملفات ٢٣ - ٤٦	٢٥٠٠٠د.
مجموعة عامين (٢٠٠٨ - ٢٠٠٩)	الملفات ٣١ - ٣٨	١٠٠٠٠د.
مجموعة عامين (٢٠١٠ - ٢٠١١)	الملفات ٣٩ - ٤٦	١٠٠٠٠د.

سعر الملف لعام ٢٠١٢: ١٥٠٠ د.

سلسلة "أبحاث كتابية

كتب بيبلية رصينة تمكّن القراء من الدخول إلى عالم الكتاب المقدس، وفق منهج علمي وراعوي رصين. انطلقت عام ١٩٩٩ بمعدل كتاب أو كتابين في السنة. ظهر منها ١٣ كتابا بقلم كبار البيبليين؛ ولعل أبرزها "المدخل إلى الكتاب المقدس" بأربعة أجزاء (٨٠٠٠د.) مع سعر خاص للجزئين من "قراءة في العهد الجديد" : ٣٠٠٠د. فقط)

سلسلة تفاسير

تظهر منذ عام ٢٠٠٨، ضمن "سلسلة أبحاث كتابية"، سلسلة جديدة بعنوان "تفاسير" تغطي بعشرة أجزاء العهد الجديد برمته. ظهر منها ٦ أجزاء (إنجيل متى، إنجيل يوحنا، رسائل بولس بثلاثة أجزاء، الرسائل الأخيرة). وتظهر الأجزاء الأربعة على مدى العامين ٢٠١٢-٢٠١٣: إنجيل مرقس، إنجيل لوقا، أعمال الرسل، الرؤيا.

تتوفر الكتب كافة - مع سعر خاص لثلاثية رسائل بولس (٧٠٠٠د. عوضا عن ٩٠٠٠د.)

دوريات وكتب مستنسخة

منذ عام ٢٠٠٠، عمد م.د.ك. خدمة لقرائه، إلى تكثير عدد من الدوريات والسلاسل والكتب الرصينة في اللاهوت والكتاب المقدس والروحانيات والتاريخ والقضايا الاجتماعية والتربوية... فإلى جانب "جريدة بيبليا" (٥٤ عددا) و "مجلة بيبليا" و سلسلة "دراسات في الكتاب المقدس"، هناك أكثر من ١٣٠ كتابا في شتى المجالات وبأسعار مدعومة.

تطلب كافة المنشورات من مكتبة بيبليا/ كنيسة مار توما-الموصل (العراق)

... و "الملف" في مجلة الفكر المسيحي، هو المقال الرئيس من كل عدد، وكان قد إتخذ، حجماً ومضموناً، اهمية كبرى في مجمل المقالات التي نسجت منها سنواتها السمان، وشهراً بعد شهر، إلى ان اضطرت إلى الظهور بوتيرة ٤ أعداد، في السنوات العجاف الاربع الاخيرة (١٩٩١ - ١٩٩٤)!

أنْ تجمع "الملفات" في كتاب، فتلك فكرة إبتسمت لكثير من الكتاب والقراء معاً -ولم نقوَ ألا نتواطأ معها! فكان هذا الكتاب الذي اقتصر على عدد من الملفات الدراسية، دون الاعلامية منها، كانت قد تناولت مواضيع ساخنة بقلم كتاب مختارين وضعوا عصارة فكرهم في طروحات ومعالجات كان بعضها سابقاً لزمانه! وفي قضايا إنسانية واجتماعية لم يسبق لمجلة مسيحية ان تناولتها! وفي محاولات لاهوتية وفلسفية وكتابية، في ضوء توجهات المجمع الفاتيكاني الثاني وحركته العارمة في كل المجالات -وقد انطلقت الفكر المسيحي إبان انعقاده في اوائل الستينات، وبوحيه نضجت طروحاتها وتعمقت قناعاتها، وبدفع منه ترجمت انعكاساته في واقع كنيستنا العراقية من اجل تجددها، وعلى أكثر من صعيد...

من كلمة الناشر

ابواب ثابتة اصبحت كتبا

همسات، اسئلة واجوبة، افتتاحيات، من وحي الإنجيل، ملفات الفكر المسيحي

تطلب كافة المنشورات من مكتبة بيبليا ومن مكتبات الكنائس

سعر النسخة: ٣٥٠٠ د.

شركة الديوان للطباعة والنشر
بغداد - العراق

ملفات
الفكر
المسيحي
١٩٧١-١٩٩٤

سلسلة "مختارات الفكر المسيحي" / ١٠

ملفات الفكر المسيحي

١٩٧١-١٩٩٤

اعداد وتقديم
الأب بيوس عفاص

دار بيبليا للنشر
الموصل-العراق
٢٠١١

كلمة الناشر

حين ابتسمت لدار بيبليا، عام ٢٠٠٦، فكرة جمع الاجابات عن الاسئلة في كتاب، لم يكن يُخيَّل إلينا ان كتبا اخرى كثيرة ستليه لتوثق ابوابا اخرى وتحت عنوان" سلسلة مختارات الفكر المسيحي"/ وحين اعطينا لكتاب" اسئلة وجوبة" الرقم ٣، فاتنا آنذاك انه كان ينبغي له ان يتخذ الرقم ٤/ باعتبار ان الاول كان" تاريخ الكنيسة الشرقية" الذي جمع مقالات الاب البير ابونا في كتاب ظهر عام ١٩٧٣ تحت عنوان" منشورات الفكر المسيحي"/ وهكذا تكون ثلاثة كتب ظهرت قبل عام ٢٠٠٦، وبضمنها" همسات ابو فادي/جـ١" (١٩٨٥) و" ابت هذه مشكلتي" (٢٠٠٤)/ وإذا كان كتاب" كتّاب رحلوا وتركوا اثراً" (٢٠١١) قد خلّف اثرا طيبا لدى قراء" الفكر المسيحي"، القدامى والجدد، فسوف يكون الكتاب الذي نضعه بين ايديكم شاهداً بليغا على ما كانت عليه" الملفات" في مسيرة الفكر المسيحي، على ايدي كتّاب تركوا بصماتهم فيها، في زمن التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية...

و" الملف" في مجلة الفكر المسيحي، هو المقال الرئيس من كل عدد، وكان قد اتخذ، حجماً ومضموناً، اهمية كبرى في مجمل المقالات التي نسجت منها سنواتها السمان، وشهرا بعد شهر، إلى ان اضطرت إلى الظهور بوتيرة ٤ أعداد، في السنوات العجاف الاربع الاخيرة (١٩٩١ – ١٩٨٤)/ انْ تُجمع" الملفات" في كتاب، فتلك فكرة ابتسمت لكثيرين من الكتاب والقراء معاً -ولم نقوَ ألاّ نتواطأ معها/ فكان هذا الكتاب الذي اقتصر على عدد من الملفات الدراسية، دون الاعلامية منها، كانت قد تناولت مواضيع ساخنة بقلم كتّاب مختارين وضعوا عصارة فكرهم في طروحات ومعالجات كان بعضها سابقاً لزمانه/ وفي قضايا انسانية واجتماعية لم يسبق لمجلة مسيحية ان تناولتها/ وفي محاولات لاهوتية وفلسفية وكتابية، في ضوء توجهات المجمع الفاتيكاني الثاني وحركته العارمة في كل المجالات - وقد انطلقت الفكر المسيحي ابان انعقاده في اوئل الستينات، وبوحيه نضجت طروحاتها وتعمقت قناعاتها، وبدفع منه تُرجمت انعكاساته في واقع كنيستنا العراقية من اجل تجددها، وعلى اكثر من صعيد...

ففيما نزف إليكم، قراءنا الكرام، هذا الكتاب" الوثائقي" الذي حمل ٥٧ ملفا بقلم ٢٣ كاتبا، نأمل ان يحظى بالانتشار بين قراء واكبوا الفكر المسيحي في مسيرتها الصاعدة على مدى ثلاثين عاماً، كما بين قراء جدد سيرون فيه نافذة إلى اجواء نهاية القرن العشرين، ويجدوا فيه ما يلهمهم لمواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين/

ولكم موعد، عام ٢٠١٢، مع كتابين توأمين يوثقان ما دبجه قلم رائدي الفكر المسيحي على مدى الثلاثين عاماً من مسيرتها (١٩٦٤ – ١٩٩٤).

الموصل في ١٨ ايلول ٢٠١١

مع تحيات دار بيبليا للنشر

في "كتاب رحلوا وتركوا اثرا" (مختارات الفكر المسيحي/٩)، كنت قد وعدت القراء، استجابة لرغبة الكثيرين منهم، أن ألحقه بجزء آخر يُوثق "ملفات الفكر المسيحي"، وهي في حد ذاتها اشبه بموسوعة على مدى ٢٤ عاماً من مسيرة المجلة في الاعوام ١٩٧١ — ١٩٩٤. ومنذ عدت إلى الارشيف حيث صُنفت المقالات والابواب الثابتة، وفي مقدمتها "الملف"، فوجدتني امام كمّ كبير من الملفّات، منها الاعلامية ومنها الدراسية: ١٨١ ملفاً بقلم ٥٠ كاتباً، احتلت مكان القلب من كل عدد، بوتيرة عشرة ملفات في السنة، باستثناء السنوات التي ظهرت فيها اعداد خاصة غطّت شهرين -وكان لنا منها ١٩ عدداً كادت مقالاتها كلها تكون "ملفات"!- باستثناء السنوات الاربع الاخيرة (١٩٩١ — ١٩٩٤) حين اضطرت المجلة إلى الظهور بوتيرة اربعة اعداد فقط في السنة، في اعقاب الهجمة الشرسة على العراق!

وما ان اخذت أتصفح هذه الملفّات "المستلة"، وإذا بي أفاجأ بكثرة الموضوعات المطروحة ودسامتها وعمق مضامينها، فضلاً عن جرأتها وطابعها النقدي والنبوي احياناً، إلى جانب تنوع الكتاب ومستوى كفاءتهم وعمق طروحاتهم... وكان اول ما قمت به عملية فرز الملفات "الدراسية" التي لم تفقد شيئاً من جدّتها وآنيتها، تاركاً الملفات "الاعلامية" -وهي الاخرى ذات قيمة لا تنكر، ولكنها كانت رهن زمانها، وقد تناولت وضع الكنيسة في ٥٣ بلداً في مختلف القارات- ومُسقطا ملفات تناولت احيانا شخصيات بارزة في الكنيسة والمجتمع، او تلك التي استعرضت أحداثاً أو قضايا راهنة...، ناهيك عن تلك الملفات التي عكست نتائج استفتاءات أجريت أو طاولات نُظمت؛ إلا اننا مع ذلك اثبتنا عدداً قليلاً من تلك الملفات "الاعلامية" لأهميتها وفائدتها،

ونخص بالذكر الملفين في المعهدين الاكليريكيين: مار يوحنا الحبيب وشمعون الصفا.

ومع هذا الفرز، وجدتني بازاء حوالي ١٠٠ ملف تتفاوت في مستوى الطرح والمعالجة، بين السنوات الاولى والسنوات الاخيرة، كما يتفاوت كتابها على صعيد المضمون والكفاءة في الإبلاغ... وكان عليّ أولاً أن اسقط ما سبق أن نُشر منها في كتاب "كتاب رحلوا" -وقد اشرت إليها بعلامة(□)- كما كان عليّ أن اجري خياراً يأخذ بعين الاعتبار، بدرجة اولى، الفائدة المرجوّة من نشرها باتجاه قراء جدد، مستبعدا المقالات المترجمة ومهملاً المواضيع التي كثر التركيز عليها او التي تشابهت في مضامينها... وفيما لم تغب عن هذا الفرز الرغبة في ادراج حدّ ادنى من الملفات لكل عام من الاعوام الاربعة والعشرين، والارادة في تنوّع اكبر للاقلام، وتخليداً لعدد منهم ممن كانت له مساهمات كثيرة في ابواب وزوايا اخرى من المجلة... لم تغب ايضا، في الوقت ذاته، الرغبة في الا تتجاوز حصة الكاتب سبعة ملفات!

وهكذا اصبحنا بازاء ٥٧ ملفاً (من اصل ١٨١ ملفاً)، وهي في الواقع ٦٣ ملفاً، إذ انتهجنا خطة دمج كل ملف امتد على جزئين ظهرا في عددين منفصلين! إلا اننا أبينا إلاّ أن نضع فهرس بعناوين الملفات كافة، سنة بعد سنة، واسماء كتابها، مشيرين إلى الملفات المختارة بعلامة (+). وفيما اسقطنا الصور التي كانت ترافق الملف، عمدنا إلى وضع مقدمة لكل ملف كان قد خلا منها، وحدّثنا بعضا من تلك المقدمات التي كانت قد تصدّرت الملفات آنذاك. وكان بودّنا ان ندرج نبذة عن الكتاب، الاحياء منهم والاموات، إلا اننا آثرنا الاكتفاء بحاشية ألحقناها بكل كاتب مع اول ملف له، وضمّنّاها جرداً بعدد مساهماته في "الفكر المسيحي"، سلسلة ومجلة، مشيرين إلى الابواب التي ضمّتها وإلى نسبة الملفات منها، مع ملاحظة ما نشر لبعضهم من مقالات في "المختار من الاعداد الخاصة" (مختارات الفكر المسيحي/٨) او في غيره من سلسلة "مختارات"... وأبينا إلا ان ندرج عناوين الاعداد

الخاصة ضمن السنة التي ظهرت فيها، ونثبت عناوين المقالات التي وثقها "المختار"!

فمن خلال تصفح سريع للمحتوى، يكون هذا الكتاب الجديد في سلسلة "مختارات الفكر المسيحي" -وهو العاشر، وليس الاخير!- قد وثق "ملفات" لـ٢٣ كاتبا، كان قراء الفكر المسيحي، خلال ثلاثة عقود، قد ألفوا اسماءهم واعتادوا على كتاباتهم وتذوقوا طروحاتهم التي انكبت على قضايا لاهوتية وليتورجية وفلسفية وكتابية ومسكونية وروحية ورسولية وراعوية وتربوية واجتماعية... وعالجت معضلات راهنة وبعضها ما زال آنيا وساخنا... ومن بين هؤلاء الكتاب سبعة سبقوا فرحلوا، وبقيت كتاباتهم تشهد لفكرهم وعطائهم. وفيما اثبتنا لستة كتاب خمسة إلى سبعة ملفات (الآباء: افرام سقط، بيوس عفاص، جرجس القس موسى، عبد السلام حلوة، لوسيان جميل، لويس ساكو)، تراوحت ملفات غيرهم من ملف واحد إلى ثلاثة، بينهم من الذين سبقونا إلى بيت الآب وسبق ان نشرنا لبعضهم ملفات (الآباء: بطرس حداد، حبيب باشا، خليل قوجحصارلي، فرنسيس المخلصي، يوسف حبي، و نجيب قاقو).

واترك للقارئ ان يستمتع بما دبجته اقلام هؤلاء الكتاب من "ملفات" كانت وما زالت شاهدة على الافكار والتحليلات والمعالجات التي كانت خبزنا اليومي في السبعينات والثمانينات وحتى اوائل التسعينات، حين كان الغليان على أشده في العراق، على الصعيد الثقافي والاجتماعي/السياسي، وحين كان الفكر الكنسي العراقي قد عرف تحولا مدهشا، وعلى اكثر من صعيد، في اعقاب المجمع الفاتيكاني الثاني وما كان لتوجهاته من اثر بالغ على حياة الكنيسة في المجالات كافة، وفي مجال علاقة الكنيسة بعالم اليوم بنوع خاص. فلقد ترك هؤلاء الكتاب، كلّ من موقعه، ووفق توجهاته، بصمات لا تمحى كان لها مفعولها الطيب في قلب الصراعات والازمات التي اجتاحت الكنيسة والمجتمع آنذاك، ولا سيما على صعيد حقوق الانسان وحرياته

وتطلعاته باتجاه عالم افضل –ولن نغالي إذا قلنا بان الكثير من تلك الطروحات والمعالجات ما زال جديداً وراهناً!

إليكم، إذن، قراءنا القدامى، كتابا يحيي في ذاكرتكم ما سبق ان استمتعتم به وترك لديكم اعمق الاثر... وإليكم قراءنا الجدد -وقد بلغتم سن الشباب حين انسحب رواد الفكر المسيحي الاوائل من الساحة عام ١٩٩٥ ليسلّموا الراية إلى الاباء الدومينيكيين- كتابا يكشف لكم ما كان عليه مستوى الفكر في كنيسة العراق في النصف الاخير من القرن الماضي!

وفيما تتطلع الفكر المسيحي إلى عام ٢٠١٤ للاحتفال باليوبيل الذهبي (١٩٩٤-٢٠١٤) نأمل ان يكون هذا الكتاب حافزا إلى تنشيط الحركة الفكرية في كنيستنا العراقية التي يخشى عليها من النعاس والضياع في زمن الاحتلالات والتواطؤات والمساومات والصراعات المذهبية والطائفية...

ويطيب لي في الختام ان ازف البشرى بكتابين توأمين في سلسلة "مختارات" يظهران في غضون عام ٢٠١٢، ويحملان ما خلفه قلم من قامت "الفكر المسيحي" على كتفيهما، يظهران في غضون عام ٢٠١٢، بمناسبة يوبيلهما الكهنوتي الذهبي! وسيكون لكل منهما حوالي ٩٠ مقالة، عدا المنشورة وفي مقدمتها الافتتاحيات والهمسات، وباستثناء المقابلات التي نعلن عن مشروع كتاب خاص يضمها...

الموصل في ١٠ حزيران ٢٠١١

الاب بيوس عفاص

- وجهة نظر الشباب في الايمان/ استفتاء

كانون الثاني/ ص٢٤-٢٧ الاب جرجس القس موسى[(١)]

- وجهة نظر الشباب في المسيح والانجيل/ استفتاء

شباط/ ص٤٧-٥٢ الاب جرجس القس موسى

- هل مات الله؟

آذار/ ص٨٦-٩١ الاب بيوس عفاص[(٢)]

- كنيسة ايرلندا

نيسان/ ص١١٦-١٢١ الاب جرجس القس موسى

□ عالم كبير ومؤمن مثالي: الاب تيار ده شاردان

ايار/ ص١٤٩-١٥٨ الاب يوسف قوشاقجي(+)[(٣)]

+ منظمة الامم المتحدة

حزيران/ص١٧٩-١٨٥ برناديت عفاص[(٤)]

- ماذا ينتظرون من الكنيسة/ استفتاء

ايلول/ ص٢١٠-٢١٥ الاب جرجس القس موسى

- ماذا ينتظرون من الكاهن/ استفتاء

تشرين الاول/ ص٢٤٢-٢٤٨ الاب جرجس القس موسى

- استراليا، تلك القارة المجهولة

تشرين الثاني/ ص٢٧٤-٢٨٠ الاب بيوس عفاص

+ الجوع والتقدم

كانون الاول/ ص٣٠٩-٣١٤ الاب يوحنا عيسى[(٥)]

---

(١) كان للاب (المطران) جرجس القس موسى ١٣٤ مساهمة (من بينها ٢٩ ملفا)، وبضمنها ٩ أعداد من "السلسلة"، و ٣ اجابات، فضلاً عن "همسات ابو فادي" على مدى سنوات المجلة (وقد جمعت في كتابين: ١٩٨٥، ٢٠٠٧)، وافتتاحيات الاعوام ١٩٧٣-١٩٧٦ (راجع الكتاب في "سلسلة مختارات الفكر المسيحي"، ٢٠٠٧). وقد نشرت له ٧ مقالات في "المختار من الاعداد الخاصة" (٢٠١٠).

(٢) للاب بيوس عفاص ١٤٨ مساهمة (من بينها ٢٥ ملفاً)، وبضمنها ٥ أعداد من "السلسلة" مع بضعة اعداد من "صندوق الاسئلة"، و٢٩ اجابة نشر بعضها في "اسئلة واجوبة" (٢٠٠٦)، فضلا عن كل الافتتاحيات باستثناء الاعوام ١٩٧٣-١٩٧٦ (وقد جمعت في كتاب "الافتتاحيات" عام ٢٠٠٧). ونشرت له ٧ مقالات في "المختار".

(٣) احصينا للاب قوشاقجي (+١٩٩٥) ٣ مساهمات، اثبتنا له هذا الملف في "كتاب رحلوا"(٢٠١١)/ص٢٠٩-٢١٥، وتشير علامة (□) إلى ذلك.

(٤) احصينا للسيدة برناديت ٢١ مساهمة، وبضمنها عدد في "السلسلة"، مع باب "حدث الشهر" على مدى عام ١٩٧٧. وتشير علامة (+) إلى ان الملف ينشر في "مختارات الفكر المسيحي" للمرة الاولى. كانت عضو في هيئة التحرير الاستشارية في بغداد.

(٥) للاب يوحنا عيسى ٦٧ مساهمة (من بينها ١٠ ملفات)، وبضمنها ٥ اجابات نشر بعضها في "اسئلة واجوبة"، و ٨ مشاركات في باب "من وحي الانجيل" نشرت في الكتاب (٢٠٠٨)؛ كما نشرت له ٤ مقالات في "المختار". كان عضوا، على مدى ٣٠ عاماً، في هيئة التحرير الاستشارية بالموصل.

منظمة الامم المتحدة

بعد فشل عصبة الامم في تحقيق الغرض الذي وجدت من اجله وهو استتباب الامن ومنع قيام الحرب في العالم، ظهرت الى الوجود هيئة الامم المتحدة كمنظمة عالمية جديدة تهدف الى تحقيق ما عجزت سالفتها عن تحقيقه.

لقد بدأت الاعمال التحضيرية لانشاء هذه المنظمة بينما كانت الحرب تدر رحاها. ففي ١٢ تموز ١٩٤١ صدر تصريح مشترك لدول الحلفاء يدعو لايجاد تنظيم دولي، أعقبه صدور بيان رسمي سمي بعهد الاطلسي، ثم تصريح موسكو سنة ١٩٤٣. واخيراً في دمبارتن أوكس، تم اتفاق ممثلي الدول الكبرى على مشروع مفصل للمنظمة، وأعقبه مؤتمر سان فرانسيسكو سنة ١٩٤٥، والذي ضم وفود ٥١ دولة، خرج المؤتمرون بعده يبشرون العالم بميلاد تنظيم دولي جديد حين وقعوا شرعة الامم المتحدة في ٢٦ حزيران من السنة عينها.

أهداف ومبادئ الأمم المتحدة

جاء في ديباجة الميثاق "نحن شعوب الامم المتحدة، آلينا على انفسنا ان ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التي في خلال جيل واحد جلبت على الانسانية، مرتين، احزانًا يعجز عنها الوصف". فالهدف الرئيس هو حفظ السلام والسعي الى تحقيقه بين الدول، وفقًا لقواعد القانون الدولي ولمبادئ العدالة. أما الهدف الآخر، فهو "إنماء العلاقات بين الامم على اساس احترام مبدأ المساواة بين الشعوب، وحق كل منها في تقرير مصيره". وتهدف، ثالثًا، الى تقوية العلاقات بين الدول في الميادين الاقتصادية والاجتماعية خدمة لاغراض السلم، اذ ان الازمات الاقتصادية كانت تكمن غالباً وراء إشعال نار الحروب.

وتنطلق الامم المتحدة في عملها من قاعدة المساواة بين الدول، أي ان لكل دولة سيادتها واستقلالها في شؤونها الداخلية. وتقوم على مبدأ فض النزاعات الدولية بالوسائل السلمية، كاللجوء الى التفاوض أو تأليف لجان التحقيق أو قبول الوساطة الدولية.

العضوية في الامم المتحدة:

الانتماء الى الامم المتحدة متاح لجميع الدول المحبة للسلام تتقبل الالتزامات كما يقررها الميثاق، وترى الهيئة انها قادرة على تنفيذ هذه الالتزامات. وعمليًا يخضع قبول الاعضاء الجدد لعوامل سياسية، حسبما تقتضيه مصالح الدول الكبرى التي تستعمل حق الفيتو في رفض الدول عندما يحال الطلب الى مجلس الامن لاقراره.

وهكذا بقي كثير من الدول خارج المنظمة لفترة طويلة: فحتى عام ١٩٥٥ تقدمت أكثر من ٣٠ دولة بطلب الانتماء ولم يقبل منها سوى تسعة. وعندما اتفقت كتلتا الشرق والغرب على التساهل في القبول، اصبح عدد الاعضاء، سنة ١٩٥٨، ٨٢، دولة ثم صار باب القبول يفتح أوسع فاوسع، حيث تم انضمام كافة الدول مع بعض الاستثناءات، خاصة بالنسبة للدول التي جُزئت كفييتنام وكوريا.. ولا زالت الصين الشعبية حتى الان خارج نطاق المنظمة بسبب الفيتو الامريكي. أما عدد الاعضاء الكلي حاليًا ١٢٧ دولة. ومن أهم النتائج التي ترتبت على زيادة عدد الاعضاء هو تضخم الكتلة الافرو- آسيوية والتي صار لها نفوذ كبير في المنظمة.

اجهزة الامم المتحدة:

لما كان مجال عمل الامم المتحدة متسعًا اتساع العلاقات الدولية، كان لزامًا عليها أن تنظم عملها على شكل هيئات. ومن ثم قضى الميثاق بانشاء ست هيئات رئيسية هي: الجمعية العامة، مجلس الامن، المجلس الاقتصادي والاجتماعي، مجلس الوصاية، محكمة العدل الدولية، الامانة العامة.

الجمعية العامة: هي الجهاز الرئيسي للامم المتحدة الذي تدور فيه المناقشات، وتتكون من ممثلين عن جميع الدول الاعضاء في المنظمة. لها سنويًا دورة اعتيادية واحدة تبدأ يوم الثالث من أيلول، ومقر اجتماعاتها نيويورك. اما وظائفها، فقد حددتها المادة العاشرة من الميثاق. لها حق المناقشة وابداء التوصيات في جميع الشؤون التي تدخل في نطاق الميثاق، وكذلك حق مناقشة سلطات جميع الفروع الاخرى. وهي اذ تبدي توصياتها، فانها تهدف الى إنماء التعاون الدولي في الشؤون السياسية والاجتماعية والاقتصادية... ونظرًا لكثرة استعمال حق الفيتو الذي يشل عمل مجلس الامن في مواجهة الاحداث المهددة للسلام، فقد أتخذ قرار سنة ١٩٥٠ يقضي في حالة فشل مجلس الامن، بان تتولى الجمعية الموضوع بنفسها خلال ٢٤ ساعة، في جلسة استثنائية، وتصدر ما تراه من توصيات الى الاعضاء، داعية اياهم الى اتخاذ اجراءات جماعية. وقد استعملت الجمعية هذا الحق عندما دعت اعضاءها الى ارسال قواتها الى كوريا ومصر والكونغو وقبرص.

مجلس الامن: يتالف مجلس الامن حاليًا -وهو الفرع الذي عهدت اليه الدول الاعضاء بالتبعات الرئيسية لحفظ الامن والسلام- من ١٥ عضوًا (بعد ان كان ١١ عضوًا بموجب الميثاق، الى ان تم تعديله سنة ١٩٦٦): خمسة دائميون وهم: الولايات المتحدة، الاتحاد السوفييتي، المملكة المتحدة، فرنسا، والصين الوطنية. وعشرة تنتخبهم الجمعية العامة لفترة أمدها سنتان، ويراعى في اختيارهم مبدأ التوزيع الجغرافي العادل.

لكل عضو في مجلس الامن صوت واحد، وتصدر القرارات في المسائل الاجرائية بموافقة احد الاعضاء التسعة. أما في المسائل الموضوعية، فتحتاج الى تسعة أصوات بشرط ان

يكون بينها اصوات الأعضاء الدائميين الخمسة. ففي هذه الحالة، يكفي لدولة واحدة من الدول التي لها مقعد دائم ان تمنع صدور القرار، وهذا ما يسمى بحق الفيتو، وهذا الحق يجعل المجلس احيانًا كثيرة عاجزًا عن اصدار القرارات الخطيرة التي تريد الامم المتحدة اتخاذها.

يعتبر المجلس الاداة الفعالة لحفظ السلام، فله الحق في بحث أي نزاع وموقف قد يؤدي الى الاحتكاك بين دولتين أو أكثر، وله الحق في التوصية بطرق التسوية السلمية ووسائلها، بل بالشروط الفعلية للتسوية في حالات معينة. أما في حالة وقوع تهديد للسلم أو إخلال به أو أي عمل عدواني، فللمجلس السلطات التي تخوله اتخاذ تدابير تنفيذية لاعادة السلم والأمن الى نصابهما، وتشمل وقف المواصلات والصلات الاقتصادية والدبلوماسية واستخدام القوات البحرية والبرية والجوية اذا دعت الحال.

ويتعهد جميع اعضاء الامم المتحدة بان يضعوا تحت تصرف المجلس، بناء على طلبه، ما يلزم من القوات المسلحة والمعونة والتسهيلات اللازمة لحفظ السلام، كفرق حماية السلام في قبرص مثلاً.

المجلس الاقتصادي والاجتماعي: يهدف هذا المجلس الى بناء عالم أكثر رفاهية واستقرارًا وعدلاً. وهو يضع التقارير والتوصيات في ميادين الاقتصاد والاجتماع والثقافة والصحة، ويعدّ مشروعات اتفاقات عن هذه المواضيع لعرضها على الجمعية العامة، ويدعو كذلك الى عقد مؤتمرات دولية.

يتالف المجلس من ١٨ عضوًا يُنتخبون من قبل الجمعية العامة، وقد بذلت الكتلة الآسيو-أفريقية جهدها لزيادة الاعضاء، وتمت الموافقة سنة ١٩٦٣ على زيادته الى ٢٧ عضوًا. وللمجلس دورتان عاديتان سنويا، تعقد الاولى في نيويورك والثانية في جنيف. ومن أهم واجباته أنه يمثل همزة الوصل بين الوكالات المتخصصة الاربع عشرة وبين الامم المتحدة بموجب اتفاقات.

مجلس الوصاية: وضع نظام الوصاية ليحل محل نظام الانتداب، وانيطت به مهمة الاشراف على بعض الاقاليم التي لا تتمتع بالحكم الذاتي. فالمجلس يقوم بوضع اتفاقات الوصاية، ويقدم تقارير عن الاقاليم المشمولة بالوصاية، ويرسل البعثات للقيام بزيارات دورية لهذه الاقطار، والآن انتهت الوصاية على معظم الأقاليم بسبب استقلالها أو اندماجها بدول اخرى.

محكمة العدل الدولية: هي الفرع القضائي الرئيسي للامم المتحدة ومقرها لاهاي، وتتألف من١٥ قاضيًا، وتقوم بعملها وفق نظام اساسي هو جزء من الميثاق. ومن ثم، فان لكل دولة من الاعضاء حق اللجوء اليها مباشرة، ويتعهد من ثم كل عضو بالالتزام بما تقرره. ولمحكمة العدل اختصاصان: أولهما اصدار الاحكام في المنازعات بين الدول، وثانيهما

ابداء الرأي في المسائل القانونية. وتستند في ممارستها لهذا الواجب الى مبادئ القانون الدولي ومبادئ العدل، وتأخذ بنظر الاعتبار الاتفاقات والعادات الدولية.

الامانة العامة: ان المهام الادارية المتشعبة الاطراف للامم المتحدة، يتولاها الفرع السادس وهو الأمانة العامة.. الها تعمل طوال العام، وتقوم بخدمة الفروع الاخرى وتدير البرامج والسياسات التي تضعها، ويتولى رئاستها الامين العام الذي تعينه الجمعية بناء على توصية مجلس الامن.

في شباط ١٩٤٦ عين تريجنلي اول أمين عام، وخلفه سنة ١٩٥٣ داغ همرشلد، وبعد حادثة سقوط الطائرة التي كانت تقله اثناء تنقلاته في افريقيا لايجاد حل لازمة الكونغو سنة ١٩٦١، تولى المسؤولية يوثانت البورمي الجنسية.

يتكون جهاز الامانة من عدة مكاتب لمختلف الاغراض الاعلامية والادارية والاقتصادية والسياسية. وواجباتها ذات صبغة دولية، لذا فالموظفون العاملون فيها يحملون صفة دولية، ويبلغ عدد هم حوالي ٤٥٠٠ شخص.

الكنيسة والأمم المتحدة

في عام ١٩٦٥ زار قداسة البابا بولس السادس مقر هيئة الامم المتحدة في نيويورك بمناسبة الذكرى العشرين على تأسيسها حيث القى خطابا في السلام. وفي عام ١٩٦٩ زار قداسته مقر منظمة العمل الدولية في جنيف. وفي عام ١٩٧٠ زار مقر منظمة الامم المتحدة للاغذية والزراعة في روما. وحسب الموقع الدستوري في فحوى هذه المنظمة مقر اليونسكو في باريس.

جاء في خطابه في الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة:

«من المستحيل ان تصبحوا اخوة اذا لم تكونوا متواضعين. هي الكبرياء تسبب التوتر والنزاع في سبيل بسط النفوذ، والسيطرة والاستعمار والانانية. فهي التي تكسر اسوار الاخوة.

تعلمون السلام للنفس.. والسلام يبنى بالروح والافكار واعمال السلام. انكم تعملون في هذه المهمة الكبرى، ولكنكم ما زلتم بعد في بدء مساعيكم. لا يمكن لاحد ان يحب ويلبس الاسلحة الهجومية. مهمتكم هي ان تسعوا لكي يتوفر الخبز بوفرة على مائدة البشرية، لا ان ترموا تحديدا مصطنعا للنسل وعقلانيا للعقل بغية تقليل عدد المدعوين الى مائدة الحياة».

اسرة الامم المتحدة (الوكالات المتخصصة):

تشارك الامم المتحدة في معالجة آلاف المشكلات التي تواجه عالمًا يزداد تعقيدًا وترابطاً، مجموعة من الوكالات المتخصصة، لكل منها عضويتها وميزانيتها وجهازها الخاص، وتعمل في مجال محدد من مجالات التعاون الدولي. هناك ١٤ وكالة متخصصة نوجز اهم اغراضها:

١- منظمة العمل الدولية: ILO ١٩١٩

تاسس بموجب معاهدة فرساي ليجتمع في نطاقها ممثلو الحكومات واصحاب الأعمال والنقابات المالية، فيقوموا بعمل مشترك من اجل تحقيق العدالة الاجتماعية، وتعتبر المنظمة الوحيدة التي بقيت من مخلفات عصبة الامم. وفي عام ١٩٤٦ ارتبطت بالامم المتحدة وتوسع نشاطها، فقد اضحى التركيز اليوم على التعليم وتنفيذ المشروعات سيما في مجال التدريب المهني وتنمية الادارة والكفاية الانتاجية والضمان الاجتماعي والثقافة العمالية. مقرها الرئيسي في جنيف (١١٩ دولة).

٢- الوكالة الدولية للطاقة الذرية: IAEA ١٩٥٧

تسعى الى تنمية استخدام الطاقة الذرية للاغراض السلمية بالمعاونة في الأبحاث وتنظيم توريد المواد ووضع قواعد الامن وتطبيق الضمانات التي تكفل عدم تحويل المواد الذرية الى الاغراض الحربية. مقرها الرئيسي في فيينا (٨٩ دولة).

٣- منظمة الامم المتحدة للاغذية والزراعة: FAO ١٩٤٥

تقدم المساعدة للدول لزيادة انتاج المزارع والغابات ومصايد الاسماك ورفع مستوى التوزيع والتسويق والتغذية. وتقوم المنظمة بالتعاون مع الأمم المتحدة بادارة برنامج الغذاء العالمي الذي يوفر الغذاء لاغراض التنمية الاقتصادية والاغاثة. مقرها الرئيسي في روما (١١٣ دولة).

٤- منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة: UNESCO ١٩٤٥

تعمل على توسيع نطاق التعليم في العالم وتوفير ثمار العلم لجميع البلدان وتشجيع التبادل والتقدير الثقافي. وتقدم اليونسكو المساعدة في تخطيط التعليم وتطويره وفي مشروعات محو الامية وفي الدراسات والجهود العلمية لحماية التراث الثقافي لشعوب العالم. مقرها الرئيسي في باريس (١٢٢ دولة).

٥- منظمة الصحة العالمية WHO ١٩٤٨

تقوم بتنسيق الجهود الدولية لتحسين الصحة وتساعد الحكومات على تنفيذ مشروعات الصحة العامة وتضع المواصفات للادوية واللقاحات وتطوير الابحاث. مقرها الرئيسي جنيف (١٢٥ دولة).

٦- البنك الدولي للانشاء والتعمير IBRD ١٩٤٤

يعمل على تدعيم التنمية الاقتصادية لاعضائه بتقديم القروض للمشاريع الانتاجية وتوفير المشورة الفنية. مقره الرئيسي في واشنطن (١١٠ دولة).

٧- مؤسسة التمويل الدولية IFC ١٩٥٦

تساعد على دعم القطاع الخاص في اقتصاديات الدول الاقل تقـدما، بتـوفير رؤوس الاموال والمساعدات في تنمية الاسواق المالية المحلية. مقرها الرئيسي في واشنطن (٩٠ دولة).

٨- هيئة التنمية الدوليةIDA ١٩٦٠

تقدم قروضًا طويلة الاجل بدون فوائد. وهي جهاز تابع للبنك الدولي. مقرها الرئيسي في واشنطن (١٠٢ دولة).

٩- صندوق النقد الدولي IMF ١٩٤٤

يعمل على تدعيم التعاون النقدي الدولي وكفالة الاستقرار للعملات، وبيع العمـلات لمساعدة الاعضاء على مواجهة الصعوبات المؤقتة الخاصة بالمـدفوعات الاجنبيـة. مقـره الرئيسي في واشنطن (١١٢ دولة).

١٠- المنظمة الدولية للطيران المدني ICAO ١٩١٤

تعمل على تدعيم سلامة الطيران المدني الدولي وتحديد مواقع خدمات الملاحة الجويـة. كما تعمل على تبسيط اجراءات الجمارك والهجرة وصياغة القوانين الدولية للطيران. مقرها الرئيسي في مونتريال بكندا (١٢٠ دولة).

١١- اتحاد البريد العالمي U PU ١٨٧٨

يعمل على تنظيم خدمات البريد وتحسينها. ويتعهد كل عضو بتوصيل البريد الخـاص ببقية الأعضاء بأفضل الوسائل المستخدمة في بريده الخاص. مقرها العام في برن بسويـسرا (١٣٠ دولة).

١٢- الاتحاد الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية I T U ١٨٦٥

تأسس في باريس سنة ١٨٦٥ واعيد تنظيمه بشكله الحالي سنة ١٩٣٤. ويعمل علـى تعزيز التعاون الدولي في مجال الاتصالات الاذاعية والتلفزيونية والبرقية والهاتفية وعبر الفضاء الخارجي. وهو اقدم الوكالات المتخصصة. مقره الرئيسي في جنيف (١٢٩ دولة)

١٣ – المنظمة العالمية للأرصاد الجوية WMO ١٨٧٨

تضطلع بتدعيم التعاون الدولي في دراسة الاحوال الجوية والتنبؤ بها، خاصة عن طريـق انشاء شبكة عالمية من محطات الارصاد الجوية والتبادل السريع للمعلومات الجوية. مقرها في جنيف (١١٧ دولة).

١٤ – المنظمة الاستشارية الدولية للملاحة البحرية IMCO ١٩٥٨

تعزز التعاون في المسائل الفنية المتصلة بالملاحة، وتوصي بمعايير الامن والملاحة وتـدعم الجهود لمنع تلوث البحار. مقرها الرئيسي في لندن (٦٧ دولة).

وهناك منظمات اخرى للحالات الطارئة مرتبطة بالامم المتحدة نذكر منها: مفوضيـة الامم المتحدة للاجئين، والانروا أو وكالة اغاثـة الفلـسطينيين، والاونيـسيف لرعايـة الاولاد الخ.

ملف كانون الاول ١٩٧١ .... الاب يوحنا عيسى

الجوع و التقدم

بعد اربعين عامًا على هذا الملف، وبالرغم من كل التقدم الـذي تحقق في العالم لمكافحة الجوع والفقر، ما زال التفاوت صارخًا بين الدول الغنية والدول الفقيرة بسبب سوء التوزيع في خيرات الأرض، وما زال عدد الجائعين الى الحاجات الاساسية في تصاعد دائم، يتناسب في الغالب مع التضخم السكاني، وقد قفز عدد البشر من الثلاث مليارات إلى السبعة!

من الجوع المادي الى الجوع الثقافي... وإلى الجوع الروحي الذي يجب أن يُسَدّ ليصبح سبيلاً إلى معالجة مشكلة الجوع، في اساسها، وهي شعور البشر بمسؤولياتهم المشتركة في السعي إلى قيم الحب والاقتسام والشركة.

الاب يوحنا عيسى –عضو هيئة التحرير الاستشارية في الموصل– بدأ مشواره مع الفكر المسيحي عام ١٩٧١ حين اصبحت مجلة بأبواب ثابتة.

تحاول الانسانية ان تبني عالمًا متقدمًا اقتصاديًا وثقافيًا واجتماعيًا. والغاية من ذلك هـي بناء انسان متقدم. لذا فهي مصممة على المضي قدمًا في تحقيق هذا الهدف بالقـضاء علـى الجوع، لأن في استئصال الجوع يكمن سر التقدم.

فاذا استطاعت الانسانية ان تقضي على الجوع، استطاعت ان تخلق الانسان المتقـدم. ولكن لا ينبغي ان يغرب عن البال جانب هام من قضية الجوع، الا وهو الجانب الروحـي. فالانسان ينساه بسهولة او لا يعيره كبير اهتمام، وهو الاهم في الحقيقة، لأن التقدم المـادي أوالثقافي أو أي تقدم آخر لا يهدف إلا الى هذا التقدم الروحي، وهو الحصول، في المسيح، على نمو جديد وعلى انسانية فائقة.

فالانسانية، اذا ارادت ان تخلق الانسان المتقدم الكامل والشامل، يجب ان تقضي علـى الجوع المادي والثقافي والروحي معًا. لان التقدم يجب الا يقتصر على جزء مـن الانـسان فقط، كأن يكون الانسان متطورًا اقتصاديًا وبائسًا روحيًا! وألا يقتصر على فئة من النـاس دون سواهم، بل يشمل جميع الناس بدون أي استثناء[١]. هذا ما أريد تبيانه في هذا العرض.

١- الجوع المادي:

الجوع المادي ليس بجديد على الانسانية. فقد عرفه القدماء كما نعرفه نحن. ها هو أحد الفراعنة يسمعنا صرخة شعبه الجائع فيقول: "من أعلى عرشي أبكي لهذا الوبـاء. النيـل لم يفض منذ ستة اعوام. الحنطة نادرة والمؤونة ناقصة، الرجال الـذين انقلبـوا الى لـصوص يسرقون جيرانهم. الناس يريدون ان يسيروا ولكنهم لا يستطيعون. الاطفال يبكون والشباب يترجرجون كشيوخ. مجلس الشيوخ عاطل وصناديق الزاد خاوية. كل شيء قد انتهى".

ولكن زمن اكتشاف الجوع كمعضلة انسانية يعود الى النصف الثاني من القرن العشرين، حيث ظهرت شعوب برمتها، فقيرة وجائعة، تتخبط في البؤس أو ما يشبهه. فالدول الفقيرة او المتخلفة حسب الاحصائيات، تربو على مليارين ونصف المليار من البشر. من هذا العدد مليار ونصف يعاني من سوء التغذية، وخمسمئة مليون ينامون جياعًا، وكل سنة يموت جوعًا أربعون مليونًا من الناس. ومن جراء ذلك نصف الذين يولدون لا يصلون الى سن البلوغ، والعمر المتوسط هو ما بين ٣٠ و٤٠ سنة. لا شك ان لهذا الجوع اسبابًا، منها ما يتعلق بوضع هذه الدول الصناعي والزراعي والثقافي، ومنها ما يتعلق بالعالم باسره بسبب ازدياد عدد السكان وبخل وتبذير ولا مبالاة.

وضع الدول الفقيرة الصناعي والزراعي

– **الصناعة**: الصناعة قطاع هام يخدم التقدم. لهذا بدأت هذه الدول تشيد المعامل وتستثمر مواردها الطبيعية والمعدنية.

ولكن هذه الدول لم تؤسس بعد معامل كافية و لم تستثمر كل ثرواتها الباطنية. فالأمل مفتوح لكثير من هذه الدول في ان تصبح يومًا في عداد الدول المنتجة، لأنها تملك ثروات باطنية مخزونة هائلة؛ وبانتظار هذا الأمل، يتحتم على هذه الدول ان تطور معاملها، منذ الآن، وان تحسن انتاجها، فتسد حاجات المواطنين من اقمشة ومواد غذائية ومعدات، دون اللجوء الى الدول الاجنبية.

– **الزراعة**: كثير من الدول الجائعة يملك أراضي شاسعة، ولكنها في أيدي القلة من الناس التي تستثمرها لصالحها، بينما الملايين من الناس عاطلون وجائعون. ففي الهند ٥٥% من المحاصيل يتمتع بها ٢٠% فقط من السكان. وفي كولمبيا ٤٠% من المحاصيل يتمتع بها ٢،٦%. فالحكومة مطالبة بأن توزع هذه المحاصيل على المواطنين لكيما يستثمروها لنفسهم. هذا وان الأراضي المفلوحة تبلغ مساحتها مليار و ٣٥٠ ألف من الهكتارات فقط، بينما هناك ثلاثة مليارات اخرى من الهكتارات بدون زراعة. فلو زرعت، لَكَم سدت من حاجة الجائعين ووفرت العمل للعاطلين!

الأسباب التي تتعلق بالعالم:

ازدياد عدد السكان

يشهد العالم تضخمًا كبيرًا في عدد سكانه، ففي كل يوم يزداد العالم ١٠٠،٠٠٠ نسمة. ويبلغ حاليًا عدد سكان العالم ٣ مليارات و ٣٥٠ مليون نسمة، وسيصل في نهاية القرن الحالي الى سبعة مليارات و ٥٠٠ مليون.

والمشكلة الناتجة عن هذا التضخم هي عدم وفرة الغذاء لكل هؤلاء البشر. لذا عمد البعض الى تحديد النسل بوسائل اصطناعية؛ ولكن الكنيسة، اذ تترك للابوين أن يقررا عدد

الاولاد الذين يريدان انجابهما، لا تقبل أبدًا بهذا العلاج حلاً للمشكلة لانه مخالف للشريعة الطبيعية التي وضعها الله، علاوة على كونه قصير الامد. فالارض تنوء بخيراتها، انما الاحتكار وسوء التوزيع هما اللذان يلتهمان لقمة الجائعين.

البخل والتبذير

اخذت المساعدات التي كانت تقدمها الدول الغنية تنخفض في هذه الآونة الاخيرة. ففيما كان الدخل المخصص من ١٥ دولة يمثل ١،٢٠% من مجموع الدخل، انخفض سنة ١٩٦٦ الى ٠،٨٨ % هذا من جهة، ومن جهة اخرى ما زال التبذير يتفاقم يومًا بعد يوم لدى الدول الغنية، لا سيما في النصف الغربي من الكرة الارضية.

ففرنسا، مثلاً، تزج التفاح والطماطة في السواقي بحجة المحافظة على الاسعار في الاسواق. ومسألة طرح القهوة في البحر، في البرازيل، لئلا يهبط ثمنها، وجه آخر من أوجه اللامسؤولية، وكان الأولى بهما ان تقدما هذه الاثمار للجائعين، في الداخل وفي الخارج. لذا فالبابا لا يخاف من أن ينعت هذا التبذير بجريمة لا تحتمل(٢).

اللامبالاة

كثير من الناس لا يبالون بقضية الجوع، وكأن الجوع قضية الفقراء والجائعين حسب، وليس هو قضية العالم باسره. وبما ان القضية هي قضية العالم باسره، كأفراد وكمجموع، فيجب على الجميع ان يتكاتفوا ويتعاضدوا ويتضامنوا للقضاء على الجوع، فتقدم الدول المساعدات ويساهم الافراد بالمعونات، كل حسب طاقته، فيشعر الجميع بمسؤولياتهم الانسانية، ويهرعوا الى اعانة المنكوبين وعضد الدول النامية في مسيرتها الشاقة، دون المساس بكرامتها القومية أو النيل من سيادتها أو إخضاعها لاستعمار سياسي أو اقتصادي مغلف. فلو فعل العالم هكذا، لكان قضى منذ زمان بعيد على الجوع، ولكان قد ربح أكبر قضية، ألا وهي قضية تقدم الشعوب.

٢- الجوع الثقافي:

تشير الاحصائيات الى ان عدد الاميين في العالم يبلغ حاليًا ٧٠٠ مليون نسمة، وان ٢٥٠ مليون ليس لهم أي حظ في تعلُّم القراءة والكتابة.

ان هذا العدد، إن دل على شيء فانما يدل على مدى انتشار الجهل في العالم، وعلى مدى الجهد الذي ينبغي ان تعالج فيه مشكلة الامية.

فالأمّية عامل رئيس في تخلف شعب ما من الناحية الفكرية والاقتصادية؛ أما الثقافة، فهي اساس التقدم الاقتصادي والاجتماعي، للفرد والمجتمع.

يلاحظ المرء انه اذا كانت الامية متفشية في شعب ما، فيعتبر هذا الشعب نفسه ادنى من شعب آخر ويرى ذاته عاجزًا عن المضي معه في ركب التقدم. أما الاقتصاد الذي ينتهجه، فهو اقتصاد ضعيف، مهلهل، لانه لا يستثمر موارده بطريقة علمية، ولا يعرف ان يستعمل الوسائل والمكائن الحديثة في تطوير اقتصاد البلاد، لذا فتبقى سبله بدائية متأرجحة. نستنتج من كل ما تقدم ان الفرد يحقق، بالثقافة، طموحه الى العلم والى المنصب ومن ثم الى المال؛ والمجتمع المتطور يستثمر موارده على أساس مبني على العلم فينشط اقتصاده ويتسع.

لأجل ذلك اخذت الحكومات في العالم أجمع تكافح الامية بكل ضراوة وتغرس الثقافة بدلاً منها، وذلك بتلقين القراءة والكتابة للمواطنين. و لم تكتفِ الحكومات بهذا فقط، بل اخذت تفتح المدارس العالية والمعاهد والجامعات وتبعث الطلبة الى الخارج ليتخصصوا ويصبحوا اهلاً لخدمة قضية شعبهم.

فالحكومات، اذن، تعتمد على المثقفين في تطوير البلاد، احتماعيًا وثقافيًا واقتصاديًا لأنها مؤمنة ان الثقافة اداة فعالة وعاملٌ في غاية الاهمية للتقدم الاقتصادي ولتنميته.

٣ ـ الجوع الروحي:

ليس كل جوع الانسان جوعه الى الطعام والثقافة، ولا يبني تقدمه على اشباع الجسد والعقل فحسب، فطالما لا نعالج جوع الانسان الروحي، لا يمكننا الاحاطة بجميع احتياجاته، ومن ثم تبقى حلولنا ناقصة، ويبقى الانسان يعاني ويتخبط.

فما هو الجوع الروحي، وكيف يظهر؟

لما كان الانسان مركبًا من جسد وروح، ولما كان الجسد بحاجة الى طعام ولباس ورعاية، وعقله الى ثقافة، فللروح ايضًا مطاليب وطموحات. وان الدول المتقدمة، كالسويد مثلاً او الولايات المتحدة او غيرها من المجتمعات المتطورة، تشهد موجة من الرفاهية المادية قلما حلمت بها، وترفل في مستوى عال من الثقافة والتعليم والتقننة، ومع ذلك يعاني شبابها من الفراغ والضياع، وقد حسبوا ان المخدرات ستملأ الفراغ وتلاشي الضياع. إن جوعهم الحقيقي كامن في الروح. فجوعهم وجوع كل انسان في الدول المتقدمة وفي الدول النامية، جوع كل انسان يتألم ويثور ويعاني ويبحث ويرفض، هو جوع روحي: هو جوع الانسان الى هدف في الحياة والى قيم ثابتة يجسدها في هذه الحياة. وهذا الجوع مشترك بين كل البشر مهما كانت أنظمة بلادهم السياسية او لون بشرتهم او ديانتهم او معتقداتهم.

جوع الناس الأكبر، اليوم، هو الجوع الى المحبة والسلام والعدل والحرية والحقيقة. هذا هو الجوع الذي نوه اليه المسيح: "ليس بالخبز وحده يحيا الانسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله".

ولكن هذه القيم ستبقى مجرد قيم، وإن سمت؛ وسيبقى الانسان على جوعه ما لم يجسدها في علاقته وحياته، وما لم تجسدها الدول والشعوب في علاقاتها المتبادلة. وبما ان

هذه القيم نابعة من صلب الانجيل، فللمسيحيين المسؤولية الكبرى في توطيدها وتقديمها، مجبولة بعرق جهادهم وشهادتهم، غذاء للبشرية. ان العالم الذي يشكو من سوء التغذية الروحية ينتظر من المسيحيين أن يبشروه، بالقول والمثل، ليس بالاله الخرافي الناقم البعيد، بل بالاله الحقيقي، الخالق والاب الذي يبغى رقي الانسان ويريده شريكًا حقيقيًا له في تطوير الخليقة.

يقول المطران هيلدر كامارا: "لو شهد ماركس كنيسة متجسدة ومتممة لتجسد المسيح! لو عاش مع مسيحيين يحبون البشر، بالأقوال والأعمال، بحسب مقتضى الحب الواجب لله! لو عاش في عهد الفاتيكاني الثاني حيث أُقرت ارفع التعاليم اللاهوتية عن الحقائق الدنيوية، لما اعتبر الدين أفيون الشعب والكنيسة مصدر الاختلال والتضليل.

"ان الخبرة ترينا ان الحاجات الاقتصادية ليست أكثر واقعية من العطش الانساني الى القيم العليا: مثل العطش الى الوحدة، الى الحقيقة، الى الجمال والصلاح، الى الأبدية واللانهاية، الى المطلق. وليس هذا كل شيء، فالانسان الذي يحسب نفسه اليوم على قاب قوسين او أدنى من ان يصبح الهًا.. من المُلِحّ ان نذكّره بأن الله، انما صار انسانًا، ليجعل تأله الانسان أمرًا ممكنًا.

"على الكنيسة اذن أن تهتم بالانسان الجديد الذي يتمخض عنه المجتمع، وتعير انتباهها الى التطور الاجتماعي. فالانسان الجديد لا يمكن ان يكون مجرد منتج ضخم او مستهلك كبير، ولا مجرد آلة في التركيب الاجتماعي، وإن توصل الى السيطرة على الطبيعة الخارجية بأسرها. ان الهدف الذي ينبغي الوصول اليه هو تحقيق كائن حر وواع ينعتق تدريجيًا من آلاف أشكال العبودية في الحياة، لكي تنمو حريته الأساسية. هدفنا أن نحقق كائنًا حرًا منعتقًا، يعطي ذاته من ثم للآخرين. وهكذا يتحسن مجتمع البشر الأحرار الذين يهتمون بعطاء ذواتهم للآخرين بتجرد ونزاهة"(٣).

أجل ان العالم جائع، وليس الى الخبز وحده، وليس الى اكتشاف أسرار الكون وأجرامه وحسب. انه جائع الى كلمة الله، وهذه الكلمة لا تأتيه إلا بالمسيح يسوع الذي هو وحده، للعالم ولكل انسان، الطريق والحق والحياة. وإن كان المسيح قد تجسد ويتجسد كل يوم في تلاميذه، فهم المطالَبون، اليوم، بخبز الفقراء وطعام المظلومين وكل الجائعين الى الحق والحياة.

---

(١) رسالة بولس السادس "في تقدم الشعوب".
(٢) المصدر ذاته، العدد ٥٣.
(٣) المطران هيلدر كامارا: "الثورة السلمية".

– مجمع الاساقفة	كانون الثاني/ ص٢٥-٣١	الاب خليل قوجحصارلي(+)[١]
– كنيسة الهند	شباط/ ص٦٥-٧١	الاب يوحنا عيسى
+ التوبة عبر الاجيال/١[*]	اذار/ ص١٠٤-١١١	الاب جاك اسحق[٢]
+ التوبة عبر الاجيال/٢	نيسان/ص١٤٥-١٥١	الاب جاك اسحق
– جاكومو البيريوني، رسول الكلمة	ايار/ ص١٨٨-١٩٣	الاب يوسف حبي(+)[٣]
– رسولة السلام، القديسة كاترينة السيانية	حزيران/ص٢٢٥-٢٣٢	سهيل قاشا[٤]
+ جان رودان	ايلول/ ص٢٥٧-٢٦٧	نجيب قاقو(+)[٥]
+ الاله المجهول	تشرين الاول/ ص٣٠٤-٣١١	سالم اسعد الخياط[٦]
+ المسيحيون وفلسطين/١[**]		الاب جرجس القس موسى
+ المسيحي والسينما	كانون الاول/ص٣٨٤-٣٩٢	الاب فرنسيس فان ستابن(+)[٧]

(*) حين يكون الملف بجزئين موزعين على شهرين، ندمجهما في ملف واحد.

(**) وهكذا الحال حين يكون الجزء الثاني من الملف قد ظهر في عام لاحق، كما في الملف "المسيحيون وفلسطين".

(١) كان للاب خليل قوجحصارلي الدومنيكي (+١٩٩٣) ٢٨ مساهمة (من بينها ٥ ملفات)، وبضمنها ٣ أعداد في "السلسلة" و٣ اجابات و ٩ "من وحي الانجيل". نشرت له ٥ مقالات، بينها ملفان، في "كتاب رحلوا" (٨٩–١٠٤). كان عضوا في هيئة التحرير الاستشارية بالموصل.

(٢) للاب (المطران) جاك اسحق ٨ مساهمات (من بينها ملفان)، وبضمنها ٦ أعداد من "السلسلة".

(٣) كان للاب يوسف حبي (+٢٠٠٠) ٤٧ مساهمة (من بينها ملفان)، بضمنها عدد في "السلسلة" وإجابتان و ٧ "من وحي الانجيل". نشرت له ٦ مقالات في "المختار" و ٥ مقالات في "كتاب رحلوا" (١٦٣–١٦٥).

(٤) للاب سهيل قاشا ٨ مساهمات (من بينها ملف)، وبضمنها اجابة.

(٥) كان لنجيب قاقو (+١٩٩٤) ٥٢ مساهمة (من بينها ١٣ ملفا)، وبضمنها عددان في "السلسلة" واجابتان. نشر له مقالان في "المختار" و ٥ مقالات –بينها ملفان– في "كتاب رحلوا" (١٢٩–١٥٧). كان عضوا في هيئة التحرير الاستشارية بالموصل، على مدى ٣٠ عاماً.

(٦) لسالم اسعد الخياط ٨ مساهمات، بضمنها واحدة في باب "من وحي الانجيل". كان لفترة عضوا في هيئة التحرير الاستشارية بالموصل.

(٧) كان للاب فرنسيس فان ستابن المخلصي (+١٩٩١) ٢٣ مساهمة (من بينها ملف واحد)، بضمنها إجابة و٤ "من وحي الانجيل. نشر له مقال في "المختار" و ٥ مقالات في "كتاب رحلوا" (٥٧–٨٣).

ملف أذار ١٩٧٢ /جـ١ .... الاب جاك اسحق

التوبة عبر الاجيال

الاب (المطران) جاك اسحق -احد كهنة يسوع الملك في أخوة الحياة المشتركة لدى انطلاقتها عام ١٩٦٢- حصل من روما على شهادة الدكتوراه في العلوم الشرقية/ فرع الليتورجيا، عن رسالته في "رتبة الغفران في الطقس الكلداني". والملف الذي امتد على شهرين تناول مفهوم التوبة وما رافق ممارستها طيلة اجيال من تطورات، فقد بعضها صلته بأصالة التوبة ومفاهيمها العميقة.

تناول في جزئه الاول عرضا عن التوبة في الكتاب المقدس، من العهد القديم وإلى العهد الجديد؛ وفي الجزء الثاني تناول تطور ممارسة سر التوبة في الكنيسة، منذ ان كانت التوبة علنية وحتى بلغنا الى "الاعتراف الفردي"...

يجابه ابناء الكنيسة اليوم، وفي مختلف انحاء العالم، أزمة في ممارسة سر التوبة، وكأن الطريقة التقليدية التي نسير عليها في تطبيق هذا السر لم تعد تتجاوب مع المتطلبات الحياتية لمسيحيي اليوم. ألم يحدث ان تساءلنا عن مدى الفائدة التي نتوخى اجتناءها من هذه الخطوة؟ هل تحدث هذه الخطوة في الواقع التغيير الجذري الذي نتمناه في حياتنا؟

ان هناك بلبلة في الافكار والاقوال بشأن الاعتراف، فهناك من ينادي بالاستغناء عن الاعتراف، لأنه لا يلمس فائدة هذه الممارسة، ومنهم من يريد التمسك به في كل الحالات والظروف كشرط أساسي للاقتراب من المائدة المقدسة؛ وغالبًا ما تكون نتيجة هذا الموقف أن يبتعد المؤمن عن تناول جسد المسيح، وبالتالي يحرم نفسه من النعم التي ينطوي عليها التناول. ان المعضلة لا تكمن في التساؤل عن التمسك بالاعتراف ام لا، فالاعتراف ليس التوبة بل مرحلة من عدة مراحل يتضمنها سر التوبة.

في اعتقادي ان السبب الرئيس لهذه الازمة وهذه البلبلة في الافكار هي الفكرة الناقصة أو الخاطئة التي نحملها عن مفهوم سر التوبة وعن مفهوم الخطيئة. فان ممارسة سر التوبة تطورت عبر الاجيال تطورًا، أبعدها احيانًا عن مفهومها الاصيل الذي نجده في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد والذي نراه لدى المسيحيين خلال الاجيال الاولى من تاريخهم.

ولمعالجة هذه الازمة وازالة هذه البلبلة، يقتضي تصحيح مفهوم التوبة الى الينابيع الاصلية. لذا سنحاول في هذا المقال ان نقوم بدراسة موضوعية للتوبة في الكتاب المقدس، وتطور ممارستها عبر الاجيال حتى يومنا هذا.

ممارسة التوبة في الكتاب المقدس

في العهد القديم

ان الخطيئة في العهد القديم لا تقوم على العلاقات الشخصية بين الله والفرد، وانما على علاقات الله مع الشعب اليهودي ككل، لان وصايا الله واوامره هي بمثابة عقد ومعاهدة بين الله وشعبه: "اذا حفظت وصاياي اكون انا إلهك وتكون لي شعبًا".

فالخطيئة هي حين ينقض الشعب كله هذا العهد ويتجاوز احدى هذه الوصايا، كعبادة الاوثان وغيرها، أو حينما يتعدى ابناء الشعب هذه الوصايا، وهكذا يُنقض العهد القائم بين الله وشعبه، لان الشعب بمجموعه قد التزم باتباع ميثاق الله.

١ – التمييز بين الخطايا

ان الشريعة الموسوية تحدد المقياس الذي بموجبه تقاس جسامة الخطيئة، فانها تضع في الميزان قبل كل شيء نية الانسان الخاطيء اكثر من ثقل الخطيئة نفسها:

أ) فاذا ارتكبت الجماعة، او أحد افرادها، خطيئة بتعدي احدى وصايا الرب، عمدًا وعن وعي تام ومعرفة كاملة، فان الخاطيء قد ازدرى بالرب واستهان بكلامه ونقض عهده، لذا فان عقابه هو الموت. واهم الخطايا التي كانت توجب هذا العقاب كانت عبادة الاوثان والقتل والزنى...

ب) اما اذا ارتكب الانسان احدى هذه الخطايا سهوًا، أي عن جهل وعن غير قصد فخطيئته تغفر بواسطة رتب طقسية تتضمن اعترافات وذبائح.

ان هذا التمييز بين الخطايا يتجلى واضحًا في نصوص عديدة، نورد احدها من سفر العدد ١٥:٢٢-٣١

"وإن سهوتم فلم تعملوا بجميع هذه الوصايا التي امر الرب بها موسى... فلتصنع الجماعة كلها عجلا من البقر محرقة، رائحة رضى للرب مع تقدمته وسكيبه بحسب الرسوم، وتيسًا من المعز ذبيحة خطاء. فيكفر الكاهن عن جماعة بني اسرائيل فيغفر لهم، اذ ذلك سهو... وان خطيء انسان واحد سهوًا ، فليقرب عنزًا حولية ذبيحة خطاء، فيكفر الكاهن عن ذلك الانسان الذي سها فخطيء سهوًا امام الرب تكفيرًا عنه فيغفر له...

"واي انسان تعدى عمد يد (أي عمدًا، بكبرياء، وتمام الوعي وكامل المعرفة)... فقد ازدرى بالرب، فيقطع ذلك الانسان من بين شعبه، "أي يقتل"، لأنه استهان بكلام الرب ونقض وصيته، فيقطع ذلك الانسان قطعًا، وزره عليه".

٢ – كيف كانت تغفر الخطايا غير الارادية؟

اذا خطيء الانسان سهوًا واراد ان تغفر خطيئته، كان عليه أولاً ان يقر بخطيئته ويقوم بأعمال التوبة كالصوم والصلاة والصدقة، وبعد ذلك يُحَلّ من خطيئته برتب طقسية.

أ- الاقرار بالخطأ

ان الشرط الاول لغفران الخطايا هو الاعتراف بالخطأ، فالانسان الخاطيء لا يجوز له ان يخفي خطأه، بل عليه ان يقر به:

"قل لبني اسرائيل: أي رجل أو امرأة فعل شيئًا من جميع خطايا البشر، وغدر بالرب، فقد اثم ذلك الانسان؛ **فليعترف** ذلك الانسان بخطيئته التي فعلها" (سفر العدد٥:٧).

طبيعة هذا الاقرار

+ان اعتراف الخاطيء كان يجري احيانًا خارج هيكل اورشليم ومن دون ارتباط بالذبائح والطقوس التوبوية، كما فعل الملك داؤد أمام ناثان النبي:

"فأرسل الرب ناثان الى داؤد فأتاه وقال له: كان رجلان في احدى المدن، احدهما غني وآخر فقير. وكان للغني غنم وبقر كثيرة جدًا. والفقير لم يكن له غير نعجة واحدة قد اشتراها ورباها وكبرت معه ومع بنيه، تأكل من لقمته وتشرب من كأسه وترقد في حضنه، وكانت عنده كابنته. فنزل بالرجل الغني ضيف، فشح ان يأخذ من غنمه وبقره ليهيء للضيف الوافد عليه فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيأها للرجل الوافد عليه. فغضب داؤد على الرجل جداً وقال لناثان: حي الرب، ان الرجل الذي صنع هذا يستوجب الموت، يرد عوض النعجة اربعًا، جزآء انه فعل هذا الامر ولم يشفق. فقال ناثان لداود: انت هو الرجل، هكذا قال الرب:... فلماذا ازدريت كلام الرب وارتكبت القبيح في عينيه. قد قتلت اوريا الحثي بالسيف وأخذت زوجته زوجة لك، وإياه قتلت بسيف بني عمون. والآن فلا يفارق السيف بيتك الى الابد جزآء انك ازدريتني... فقال داود لناثان قد خطئت الى الرب. فقال ناثان لداود ان الرب ايضًا قد"نقل خطيئتك عنك فلا تموت انت..." (٢ملوك١٢:١-١٤).

+ولكن غالبًا ما كان الاقرار مرتبطًا بالذبائح والطقوس التوبوية

- كان الخاطيء يقر بخطاياه الفردية اثناء ذبيحة تكفيرية، واحيانًا كان الاقرار يجري علنًا:

"فان أثم "الانسان" بشيء من ذلك فليعترف بما خطيء به وليأت بذبيحة اثمه للرب عن خطيئته التي خطئها... فيكفر الكاهن عن خطيئته..." (احبار ٥:١-٥).

- وفي يوم التكفير السنوي، كان الشعب كله يعترف بخطاياه بواسطة رئيس الكهنة، فيقر رئيس الكهنة بخطايا الشعب باسطًا يده على رأس التيس قبل تقدمته:

"ويضع هرون يديه على رأسه ويعترف عليه بجميع ذنوب بني اسرائيل ومعاصيهم وخطاياهم ويضعها على رأس التيس..." (احبار١٦:٢١)

كان الشعب يتلو هذه الاعترافات العامة، شخصيًا او بواسطة رئيس الكهنة بصيغة عامة، ولم تكن الخطايا تذكر على انفراد، وذلك على النحو التالي: "ارتكبنا الخطأ أمامك، ظلمنا... إنا خطئنا وأثمنا ونافقنا وتمردنا وزغنا عن وصاياك واحكامك" (دانيال٩:٥-٢٠).

ب- أعمال التوبة الخارجية

كانت التوبة منذ القديم تتضمن، بالاضافة الى الاعتراف، اعمال توبة صارمة ابتغاء مرضاة الله وبرهانًا على نزاهة الاهتداء، وبمثابة دواء لشفاء الخاطي من مرضه الروحي الذي هو الخطيئة. وتدور عادة هذه الاعمال التوبوية حول الامور الثلاثة التالية:

١) الصوم. فلقد صام داود النبي بعد خطيئته: "صام داود وبات مضطجعًا على الارض" (٢ملوك٢:١٦-١٧)؛ كما صام أهل نينوى ليكفروا عن خطاياهم.

٢) لبس ثياب توبوية كالمسح والجلوس على الرماد دلالة على الندامة والتأسف على الخطأ المرتكب. فقد قام دانيال النبي بالاعتراف "بالصوم والمسح والرماد" (دانيال٩:٣). "وأهل نينوى نادوا بالصوم ولبسوا مسوحًا من كبيرهم الى صغيرهم" (يونان٣:٥)، وملكهم جلس على الرماد (الاية٦).

٣) كما أن الخطأة كانوا يلتجئون الى الصلوات والسهر، وذلك لنيل الرحمة والغفران: وعلى سبيل المثال نذكر مرائي ارميا النبي على الخطأة وصلاة موسى النبي من اجل الخطأة (سفر الخروج٣٤:٦).

ج – رتب الغفران والمصالحة

بعدما يكون الانسان الخاطيء قد أظهر ندمه على خطيئته وكفر غنها وبرهن عن نزاهة ندامته بأعمال التوبة الخارجية، كان ينال الغفران في نطاق رتب طقسية تتخللها الذبائح والمحرقات، نذكر اهمها:

١) الرتبة التكفيرية السنوية: كان الشعب كله يجتمع مرة في السنة برئاسة رئيس الكهنة ليقوم برتبة تكفيرية عن خطايا الشعب كلها. وكان يدعى هذا اليوم "يوم كيبور". وكانت هذه الرتبة التكفيرية تتضمن رتبًا دموية يقدمها رئيس الكهنة على عدة مراحل، ولقد وصفها سفر الاحبار ١٦:١١-١٦:

أ – كان رئيس الكهنة يدخل قدس الاقداس ويرش على المذبح من دم العجل ومن دم أحد تيسي الذبيحة، فيكفر على القدس عن خطايا بني اسرائيل ومعاصيهم.

ب – ثم يملأ المجمرة جمر نار ويلقي بخوراً على النار، بين يدي الرب، حتى يغطي غيم البخور الغشاء الذي على الشهادة.

ج – ثم يأخذ التيس الثاني الحي ويضع هرون "رئيس الكهنة" يديه على رأسه معترفًا بجميع ذنوب بني اسرائيل ومعاصيهم وخطاياهم ويضعها على رأس التيس، ثم يرسله بيد رجل معد له الى البرية، فيحمل التيس جميع ذنوبهم الى ارض منقطعة.

٢) وكانت بعض الخطايا الفردية تقتضي ذبيحة وسكب دم على جهات المذبح وقاعدته، كما يقول سفر الاحبار:

"وإن خطيء أحد من عامة الأرض سهوًا وعمل واحدة مما نهى الرب فعله فأثم، ثم نُبِّهَ على خطيئته التي خطيء ويضع على رأس ذبيحة الخطأ، في موضع المحرقة، فليأخذ الكاهن من دمها بأصبعه ويجعل على قرون مذبح المحرقة وسائر دمها يصبه عند اساس المذبح"(٥:٢٧-٣٠).

الخلاصة: بوسعنا ان نستدل من كل هذه الرتب التوبوية مفهوم الخطيئة والتوبة في العهد القديم: **فالخطيئة** هي نقض للعهد القائم بين الله والشعب بتجاوز احدى الوصايا، فيقطع الانسان بذلك أواصر المحبة بينه وبين الله، وبالفعل ذاته بينه وبين الأسرة البشرية: فاما ان يرفع الخاطيء من شعبه، أي يقتل اذا كان الخطأ متعمدًا، أو يحرم عليه الاختلاط بالشعب، ولقد نوه يسوع الى هذا الحرم حينما قال "انهم سيخرجونكم من مجامعهم": (لوقا٤:٢٢). أما التوبة فهي إعادة أواصر المحبة والشركة في الحياة بين الانسان وربه وبينه وبين اخوته.

في العهد الجديد

هناك استمرارية بين العهدين القديم والجديد بشأن مفهوم الخطيئة والتوبة، إلا أن هذا المفهوم يزداد عمقًا وروحانية أكثر فأكثر. فلقد أدخل يسوع أمورًا جديدة في التوبة حيث رفعها الى مرتبة سر من الأسرار السبعة ثم ربطها بسلطان مغفرة الخطايا.

١ – التمييز بين الخطايا:

ان جسامة الخطيئة تقاس في العهد الجديد كما في العهد القديم بحسب نية الخاطيء واستعداده:

أ – فهناك خطايا ترتكب عن جهل وسهو وضعف. يقول كاتب الرسالة الى العبرانيين بأن "رئيس الكهنة يقرب ذبائح عن جهالاته وجهالات الشعب" (عبرانيين٩:٧)، وايضًا:

"ان كل حبر يؤخذ من الناس ويقام لأجل الناس... لكي يقرب تقادم وذبائح عن الخطايا وهو قادر ان يترفق بالجهال والضالين لكونه، هو ايضًا، متلبسًا بالضعف..." (عبرانيين٥:١-٢).

أ) وهناك خطايا ترتكب عمدًا وعن معرفة تامة بارادة الرب وشريعته. فيقول كاتب الرسالة الى العبرانيين: "لأننا، إن خطئنا عن اختيار (أي بكامل وعينا وارادتنا) بعد ان نلنا معرفة الحق، فليس بعد ذبيحة عن الخطايا. بل هناك ما ينتظر من هول الدينونة... لأنه يطأ ابن الله ويعدّ مبتذلاً دم العهد الذي قدس به ويهين روح النعمة" (عبرانيين١٠:٢٦-٣١).

اما عقاب هذه الخطايا فلقد تحول من عقاب جسدي، "القتل في العهد القديم"، الى موت روحي، اعني ان الخاطيء لا يرث ملكوت الله، وملكوت الله هو الاتحاد بالله برباط المحبة. ويقول القديس بولس: "لا تغتروا، فانه لا العاهرون، ولا عبدة الاوثان ولا الزناة... يرثون ملكوت الله" (١قورنتس٦:٩-١٠).

وينتج من انفصال الخاطيء عن الله قطع أواصر المحبة والحياة المشتركة مع اخوته المسيحيين، كما في العهد القديم، حسب قول القديس بولس: "انما كتبت اليكم ان لا يكون لكم علاقة ما مع من يدعى أخًا، وهو فاحش، أو طماع، أو عابد أوثان... حتى ولا ان تؤاكلوا مثل هذا الرجل" (١قورنتس٥:٩-١١).

٢ – سلطان مغفرة الخطايا

ان التحديد الهام الذي أحدثه يسوع في ممارسة التوبة هو انه ربطه بسلطان مغفرة الخطايا، وهذا السلطان يتدرج في العهد الجديد بطريقة منطقية:

١- قبل كل شيء يؤكد العهد القديم بوضوح ومرارًا بأن الله هو الذي يغفر. فالخطيئة هي، قبل كل شيء، نقض لميثاق المحبة بين الله والانسان. فاذا كانت المقاطعة قد صدرت عن أحد الطرفين، فالمصالحة ينبغي ان تكون اتفاقية بين الاثنين. ان المبادرة في المقاطعة تأتي دومًا من الانسان الذي يخالف احدى وصايا الله، الا ان الله مستعد دومًا للغفران وينتظر عودة الخاطيء ليقبله كأب حنون (مثل الابن الشاطر).

٢- لقد منح الله ابنه يسوع المسيح سلطان مغفرة الخطايا، ليس بصفته إلهًا حسب، ولكن بصفته انسانًا ايضًا. ففي معجزة شفاء مخلع كفرناحوم يقول يسوع لليهود: "... لكي تعلموا ان ابن البشر له سلطان على الارض ان يغفر الخطايا..." (متى٩:٦).

٣- لقد منح المسيح كنيسته سلطان مغفرة الخطايا وذلك في مواقف ثلاثة:

أ – منح المسيح هذا السلطان للقديس بطرس حينما اقامه على رأس الكنيسة: "وأنا اقول لك، أنت الصخرة وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي... سأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات. فكل ما **تربطه** على الارض يكون مربوطًا في السماوات، وما **تحله** على الأرض يكون محلولاً في السماوات" (متى١٦:١٨-١٩).

ب- منح يسوع هذا السلطان نفسه للرسل، وبالعبارة نفسها، وربط سلطان مغفرة الخطايا بموهبة الروح القدس، وذلك حينما ظهر لهم بعد قيامته وهم مجتمعون: "ونفخ فيهم وقال لهم: خذوا الروح القدس، فمن **غفرتم** خطاياهم لهم **غفرت** لهم، ومن **امسكتم** خطاياهم **أمسكت**" (يوحنا٢٠:٢١-٢٤).

ج – ان يسوع قد منح للجماعة المسيحية صلاحية إصلاح الخاطيء وغفران خطيئته، وذلك بالعبارة ذاتها التي استعملها حين منح سلطان مغفرة الخطايا للقديس بطرس وللرسل:

• **"اذا خطىء أخوك فاذهب اليه ولُمْهُ بينك وبينه وحده، فان سمع لك، ربحت أخاك، وإن لم يسمع، فخذ معك ايضًا واحدًا او اثنين، لكي يبت في القضية كلها على شهادة اثنين او ثلاثة، فان أبى أن يسمع لهم فقل للكنيسة (إن كلمة كنيسة في اليونانية Ekklesia تعني جماعة الاخوة). وإن أبى ان يسمع للكنيسة ايضًا، فليكن عندك كالوثني والعشار. الحق اقول لكم، ان كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء وكل ما تحلونه على الارض يكن محلولاً في السماء" (متى١٨:١٥-١٨).**

وهكذا فان للتوبة طابعًا جماعيًا كنسيًا. فالقديس يعقوب يطلب منا ان يعترف بعضنا لبعض بخطيئته فيقول: "اعترفوا اذن بعضكم لبعض بزلاتكم، وصلوا بعضكم لأجل بعض حتى تُبرأوا. لان صلاة البار الحارة لها قوة عظيمة... يا اخوتي إن ضل أحدكم عن الحقيقة ورده اليها آخر، فاعلموا أن من رد خاطئاً عن طريق ضلاله، قد خلص نفسه من الموت وستر جمًا من الخطايا" (يعقوب٥:١٦، ١٩-٢٠).

إن للخطيئة طابعًا جماعيًا، اذ اننا جميعًا بمثالنا نبعد بعضنا بعضًا عن الله، وحينما يقع أحدنا في الخطيئة فاننا نستنزف طاقات الكنيسة الروحية ونجعلها أقل قداسة. فالخطيئة اذن ليست قضية فردية لا علاقة لها بالآخرين، لذا فالتوبة ايضًا يجب ان يكون لها طابع جماعي، اذ ينبغي ان نتعاضد على الاهتداء كما تعاضدنا على الابتعاد عن الله.

الرحمة الانجيلية

ان أهم طابع يضفي على التوبة في العهد الجديد رونقها وجمالها هي الرحمة الانجيلية. فموقف يسوع تجاه الخطأة، كله رحمة وتفهم لضعفهم البشري، لانه لم يأت ليدعو الصديقين (متى٩:١٢-١٣). ولقد عبر يسوع عن غيرته في البحث عن الخطأة، اذ شبه نفسه بالراعي الذي لا يني يفتش عن الخروف الضال في الجبال الوعرة حتى يجده. ولقد أورد لنا الانجيل حوادث كثيرة تظهر لنا بجلاء رغبة يسوع في مسامحة الخطأة، كما نرى في حادثة المرأة الزانية (يوحنا٨:٣-١١)، وزكا العشار (لوقا١٩:١-١٠).

شريعة المحبة

وهكذا، هناك استمرارية في مفهوم الخطيئة ومفهوم التوبة بين العهدين القديم والجديد. فالخطيئة هي قطع اواصر المحبة بين الله والانسان حينما يتجاوز الانسان وصايا الله: "من احبني يحفظ وصاياي". والنتيجة المنطقية للقطيعة التي تحدثها الخطيئة بين الانسان والله هي القطيعة مع الاخوة البشر ايضًا. والتوبة هي اعادة هذه العلاقات والاهتداء الى الله والعودة الى حضن الجماعة المسيحية. ولكن شريعة المحبة هي أهم مقياس لجسامة الخطيئة في العهد الجديد. فأعظم الخطايا ليست حتماً الخطايا ضد الوصية الثالثة او السادسة والتاسعة. فحين سئل يسوع عن أعظم الوصايا اجاب: "ان اعظم الوصايا هي ان تحب الرب الهك من كل قلبك وكل نفسك... وقريبك كنفسك". فاذا كانت هاتان الوصيتان هما اعظم الوصايا، كانت اعظم الخطايا تلك التي تنقض هاتين الوصيتين. **(ملف آذار ١٩٧٢/جـ١)**

(تتمة الملف/نيسان ١٩٧٢/جـ٢)

تطور ممارسة سر التوبة في الكنيسة

لقد اسس السيد المسيح سر التوبة ومنح كنيسته سلطان مغفرة الخطايا، غير انه لم يحدد الطريقة التي بها ينبغي ان يتم الاقرار بالخطأ ويمنح الغفران. لقد ترك ذلك لاجتهاد الكنيسة بحسب مقتضيات كل جيل. والكنيسة، اذ هي مؤسسة مؤلفة من كائنات حية، فهي تنبض بالحياة دومًا وتخضع لسنّة التطور. انها، مع حرصها الشديد على تعاليم مؤسسها الالهي، لا تخاف من ان تعدل الاطر الخارجية في تطبيق هذه التعاليم وفق عقلية كل عصر، وبحسب متطلبات حياة الانسان المتطورة. وهذا ما حدث فعلاً بالنسبة الى ممارسة سر التوبة عبر الاجيال، فان "اعتراف التقوى" الذي نعرفه ونمارسه اليوم، والذي يكاد يقتصر على ما نسميه بالخطايا العرضية، لم يكن معروفًا في الاجيال الاولى، و لم يصل الى صيغته العصرية إلا بعد أجيال عديدة من الاختبارات. فاذا اردنا استيعاب مفهوم سر التوبة بكل أبعاده، كي نتمكن، من ثم، ممارسة هذا السر الخلاصي بصورة صحيحة ومفيدة، علينا ان نتتبع تطور ممارسته بموضوعية ونزاهة. وفي هذا الملف سنعرض باقتضاب الخطوط الرئيسة لهذا التطور في الكنيسة الكاثوليكية.

١ - الاجيال الاولى: التوبة العلنية

نود، بادىء ذي بدء، ان نحدد ما معنى عبارة"التوبة العلنية". ان هذه العبارة لا تعني أن الاعتراف كان علنيًا، بل ان اعمال التوبة الخارجية، كالصوم والصلاة والصدقة، كانت تشكل خطوات علنية. فان الاعتراف العلني بالخطايا لم تفرضه الكنيسة، حتى اذا مارسته بعض الجماعات المسيحية في القرون الاولى. فقد كان التائب يقر عادة بخطيئته سرًا للاسقف أو لمن ينوب عنه. ومن جهة أخرى، كان المسيحيون في الاجيال الاولى يحملون مفهومًا ساميًا ومثاليًا عن الحياة المسيحية. فقد كانوا مقتنعين من انه ينبغي عليهم ان يكونوا قديسين اجابة الى دعوة الرب القائل: "كونوا قديسين كما اني انا قدوس" (أحبار١٩: ٢؛ ٢٠: ٧). ألم يحدثوا قطيعة مع حياتهم السالفة، بكل مقوماتها الوثنية وشوائبها، وكرسوا ذواتهم بكليتها لله؟ لذا لم يكن الشك ليتسرب الى الاذهان بان المسيحي قد يعود الى تصرفاته الوثنية السابقة بعدما حرره المسيح من الخطيئة وغفر آثامه في العماذ. ان فكرة القديس بولس واضحة في هذا المجال كما اتتنا في رسائله:

"لاننا متنا عن الخطيئة، فكيف نحيا فيها من بعد؟ أو تجهلون أنّا، وقد اعتمدنا في يسوع المسيح، انما اعتمذنا في موته، فدفنا معه بالمعمودية لنموت فنحيا حياة جديدة... وإنّا نعلم ان انساننا القديم قد صلب معه ليزول هذا البشر الخاطيء. فلا نظل عبيدًا للخطيئة" (رومية ٦: ٢-٨).

كان المسيحيون الاولون يسيرون طبق هذا المنهج الى حد بعيد، فكان من يعتنق المسيح، يعتنقه عن اقتناع وعقيدة مستنيرة، الى درجة يعرّض نفسه للاضطهاد والملاحقة، بل

للموت. هكذا عاش المسيحيون الاولون حتى الجيل الرابع. ومن جراء هذه المثالية العالية والظروف التي كانت تحيط بمسيحيي الاجيال الاولى، كان من يقع منهم في احدى الخطايا الكبار الثلاث، وهي الجحود والقتل والزنى، يقع في الوقت نفسه، في نظر اخوته المسيحيين، من منزلته ويفقد صفته كأحد أبناء الله القديسين. وللعودة الى منزلته الاولى، كان لا بد من ان يمر بمراحل عديدة، لان سقوطه كان يشكل ظاهرة مؤلمة وحدثًا خطيرًا في حياة الجماعة المسيحية. ويمكننا ايجاز المراحل التي كان يمر فيها الخاطيء التائب باربع:

المرحلة الاولى: كانت الجماعة المسيحية تعلن للخاطيء بلسان رئيسها بانه ارتكب فعلاً لا يليق بأحد أعضاء جماعة القديسين، لذا فانه لم يعد أهلاً لأن يكون عضوًا فيها ويحمل اسمها المسيحي: بعبارة اخرى كانت المرحلة الاولى تقضي حرمانه من الاشتراك في حياتهم المسيحية. وهكذا فان الانفصال عن الله الذي احدثته الخطيئة في حياة الانسان ينتج عنه انفصال عن حياة الاخوة. ان هذا الموقف مطابق لما رأيناه في العهدين القديم والجديد، وهو لا يزال موقف الكنيسة اليوم، اذ ان من كان في حالة الخطأ المميت لا يحق له ان يشترك معنا في حياتنا المسيحية، أي انه لا يحق له الاقتراب من المائدة المقدسة مع سائر المؤمنين.

المرحلة الثانية: كان على الخاطي، اذا ما ابتغى التوبة ان يقر بذنبه لرئيس الجماعة المسيحية أو لمن ينوب عنه، ويطلب العودة الى مكانته الاولى في الجماعة. وكان الرئيس يفرض عليه بعض اعمال توبوية، كالصوم والصلاة واعطاء الصدقة، ليس كعقاب له، بل كوسيلة ودواء روحي يشفي مرضه الروحي ويبرهن عن نزاهة اهتدائه.

المرحلة الثالثة: كان التائب يتعهد بالقيام بهذه الاعمال التوبوية، وقد يقتضي تكميلها فترة من الزمن-اسبوعًا أو شهرًا او سنة- بحسب ما تفرضه جسامة خطيئته.

المرحلة الرابعة: بعد انجاز الاعمال التوبوية، كانت تجري رتبة الغفران والمصالحة على النحو التالي: تجتمع الجماعة المسيحية يوم الاحد ويقف التائب، اثناء الذبيحة الالهية، امام المذبح، فترتل رتبة طقسية تتخللها صلوات وأدعية وقراءات من الكتاب المقدس تذكّر التائب برحمة الرب للخطأة وبقبوله التائبين. وفي نهايتها يمنح الاسقف الحلة بوضع يده على راس التائب.

كانت هذه الرتبة التوبوية جماعية. فقد كانت الجماعة المسيحية تجتمع كلها لتضرع الى المولى كي يمنح غفرانه للتائب، وهي بدورها تمنحه غفرانها وتقبله ثانية في حضنها. وكان المسيحيون في القديم يحددون يوم الغفران والمصالحة في نهاية الصوم الكبير، وهو زمن توبوي يقوم خلاله الخاطيء بأعمال التوبة كالصوم والصلاة والصدقة برهانًا على صدق قصده في العودة الى الله. وقد كان اللاتين يحتفلون بيوم الغفران في يوم خميس الفصح، بينما يحتفل به الكلدان والسريان مساء سبت النور.

المسيحي الاعتيادي لا يمارس التوبة العلنية

ان ممارسة التوبة على هذه الصورة لم تكن لتوجد في حياة المسيحي الاعتيادي ذي الحياة المسيحية المستقيمة والخالية من الشكوك والكبائر. فقد كان يكتفي بأن يعترف لله وحده بخطاياه اليومية الصغيرة، هذه الصغائر التي يقع فيها كل انسان عن ضعف. ويورد لنا أوريجانس (الجيل الخامس) عدة طرق لازالة هذه الخطايا، منها الصدقة: "الصدقة تستر جمًا من الخطايا"؛ والمغفرة لمن أخطأ الينا:" فان غفرتم للناس زلاتهم، يغفر لكم أبوكم السماوي" (متى٦:١٤)؛ ومساعدة خاطيء على التوبة:" فاعلموا ان من رد خاطئًا عن طريق ضلاله، قد خلص نفسه من الموت، وستر جمًا من الخطايا" (يعقوب٥:٢٠)؛ ووفرة المحبة كما قال الرب عن المرأة الخاطئة: "ان خطاياها الكثيرة مغفورة لها، بما انها احبت كثيرًا" (لوقا٧:٤٧)؛ وخاصة تناول جسد الرب ودمه الكريم اللذين يغفران الخطايا كما تردد صلواتنا الطقسية في القداس. هذا بالاضافة الى صلوات الحلة العامة التي يتلوها الكاهن لكل الجماعة المسيحية كي يصفح الرب عن خطاياها فتتمكن من الاقتراب من المائدة المقدسة. فلا نستغربن، اذن، إذا قال المؤرخون عن القديس أوغسطينوس انه لم يعترف أبدًا في حياته، فذلك انما يعني انه لم يلجأ الى التوبة العلنية لعدم احتياجه اليها.

زوال التوبة العلنية

في نهاية هذه الفترة برزت ظاهرتان مؤسفتان ساقتا ممارسة التوبة العلنية نحو الزوال وجردتاها من غناها اللاهوتي وأبهتها الطقسية. الظاهرة الاولى كانت مبدأ القائلين بأنه لا يجوز اعطاء سر التوبة الا مرة واحدة في الحياة، على غرار سر العماد، فلا يمكن قبول توبة الخاطيء الا مرة واحدة فقط بعد العماد. واول من نادى بهذا المبدأ هو مؤلف مجهول من الجيل الثاني حرر كتابًا بعنوان "الراعي لهرماس". لقد كان بالامكان تطبيق هذا المبدأ الى حد ما حتى عام ٣١٣، حين كان المسيحيون نخبة صغيرة من المجتمع من جراء الاضطهادات، كما اسلفنا. إلا انه لما اهتدى الامبراطور قسطنطين الى الدين المسيحي وأضحت المسيحية دين الدولة ودخل الناس مئات وآلافًا في الكنيسة، لم يكن بالامكان اعداد هذه الجماهير بسرعة، لا ادبيًا ولا فكريًا، لاعتناق المسيحية وتطبيق مبادئها تطبيقاً كاملاً في حياتهم. اجل لم يكن ممكنًا تغيير حياة هذه الجماهير من حياة وثنية متفسخة الى حياة مسيحية مثالية بين عشية وضحاها. لذا فقد لاقى مبدأ اعطاء سر التوبة مرة واحدة في الحياة صعوبات جمة حدت بالمسؤولين في الكنيسة الى عدم منحه للخاطيء الا قبل وفاته، وذلك ضماناً لعدم عودته الى الخطيئة مرة اخرى. أما الظاهرة الثانية فكانت صرامة الاعمال التوبوية التي كانت تفرض على التائب مثل منع المتزوج من استعمال حقه في الزواج طيلة الحياة، أو فرض القيام بحج الى الاراضي المقدسة. فمن جراء هذين السببين قلت ممارسة سر التوبة من حياة المسيحيين في تلك الحقبة، بل زالت في نهاية الجيل السادس وأضحت مجرد استعداد للموت، ليس إلا.

٢- القرون الوسطى: الاعتراف الفردي

انتقلت الحياة الرهبانية من الشرق الى الغرب في الجيل الرابع، وكان القديس باتريك (٣٧٠-٤٦٠) احد تلامذتها. سيم هذا الراهب اسقفاً وارسل الى ايرلندا حيث نشر المسيحية والحياة الرهبانية معًا. ونظرًا للصلاحيات الواسعة المعطاة له لتنظيم كنيسته الفتية، ونظرًا لكون ايرلندا جزيرة منعزلة عن سائر اجزاء العالم المسيحي، فقد اعتمد القديس باتريك على نفسه وعلى خبرته الرهبانية، فنظم كنيسته وطريقة منح الاسرار فيها. وهذا ما يفسر عدم ممارسة مبشر ايرلندا وتلامذته الكهنة/ الرهبان الذين انتشروا في الجزيرة سر التوبة بحسب الطريقة الكلاسيكية المتبعة في بقية الكنائس، بل بحسب الطريقة الرهبانية التي اعتادوا عليها في الاديرة. وقد كان المبتدئون من الرهبان المتقدمين، يفتحون لهم ضمائرهم ويعترفون بأخطائهم، وكان الرهبان المرشدون يدلونهم على السبل الكفيلة بان تقوِّم اخطاءهم وتتيح لهم التقدم في درب القداسة، وكانوا من ثم يمنحونهم الحلة. لقد طبق القديس باتريك هذه الطريقة في كنيسته، لذا لم تمارس الكنيسة في ايرلندا التوبة العلنية ابدًا، بل الاعتراف الفردي وعلى الطريقة الرهبانية. وكانت تتضمن ممارسة التوبة في ايرلندا الخطوات التالية: ١- الاعتراف الفردي للكاهن بالخطايا الكبيرة، ٢- كان الكاهن يفرض على التائب أعمالاً توبوية واقعية ومطابقة لحالة الخاطيء تساعده على التخلص من خطيئته، ٣- يذهب التائب ويكمل ما فرض عليه، ٤- واخيرًا كان الخاطيء يعود ثانية لينال الحلة. وهكذا حافظت كنيسة ايرلندا منذ القديم على مبدأ تكرار منح سر التوبة و لم تقع في الاخطاء التي وقعت فيها الكنائس الاخرى. ادت هذه الممارسة الجديدة الى انتشار الاعتراف الفردي وازدياد الخطايا التي تخضع للاقرار، واتسع نطاق الاعمال التوبوية المفروضة، وكانت تقوم، في اغلب الاحيان، على الصوم والصلاة والصدقة. ومن أجل مساعدة الكهنة، وضعت كتب توبوية تضم لوائح بالخطايا الشائعة، تقابلها لوائح اخرى بالاعمال التوبوية المناسبة لها. وتسربت هذه الافكار وهذه الطريقة الى اوربا عن طريق المرسلين الايرلنديين، لا سيما القديس كولومبان، وذلك في حوالي سنة ٦٠٠، الا انها لاقت معارضة شديدة في البداية، غير ان الكهنة تبنوا هذه الكتب التوبوية ومارسوا الاسلوب الايرلندي في منح سر التوبة، أي الاعتراف الفردي، بالرغم من المعارضة، بحيث اصبحت التوبة العلنية نادرة جدًا في نحو سنة ٨٠٠.

شريعة الاعتراف السنوي وانتشار الاعتراف التقوي

انبثقت في العصر الوسيط مشكلة جديدة، وهي ان المسؤولين في الكنيسة بدأوا يتساءلون كم مرة يجب على المسيحي ان يعترف في السنة، واختلفت الآراء في الحد الادنى. ففرضوا، أخيرًا الاعتراف بالخطايا الكبيرة قبل الاقتراب من المائدة المقدسة. وفي سنة ٧٦٠ فرض الاسقف كروديكانك من ميتس الاعتراف مرتين في السنة في أبرشيته. وفي سنة ٩٠٠ فرض الاعتراف في فرنسا ثلاث مرات في السنة. وفي سنة ١٢١٥ أعلن المجمع اللاتراني الرابع وجوب الاعتراف مرة في السنة قانونًا وشرعًا. ومنذ ذلك التاريخ، انتشرت

الاعترافات التقوية، وتتضمن الاقرار بالخطايا الصغيرة فقـط، إلى ان اصبح الاعتـراف الفردي، في معظم الاوقات، مجرد استعداد للتناول، وليس خطوة في التوبة والاهتداء، كمـا مارسته الكنيسة في فجر تاريخها.

الاعتراف في صيغته النهائية

كان التائب يقابل الكاهن مرتين اذا ما اراد الاعتراف. في المرة الاولى كـان يأتيـه معترفًا بخطاياه، ثم يذهب ويكمل ما فرض عليه من أعمال توبوية، ثم يعود اليه ثانية لينـال الحلة. ورغبة من الرعاة الكنسيين في تبسيط مراحل التوبة أمام الخاطىء، رأوا ان لا يراجع التائب كاهنه إلا مرة واحدة، فسبّقوا الحلة على تكميل الاعمال التوبوية، ودمجوا مراحـل سر التوبة الثلاث (الاعتراف، فرض الاعمال التوبوية، القانون، الحلة) في مرحلة واحـدة؛ وقد جرى هذا التغيير في نحو عام ١٠٠٠، ولا زالت الكنيسة الكاثوليكية تمارس سر التوبة على هذه الطريقة الى يومنا هذا. اما فيما هو من الاطر الخارجية التي اضيفت الى مراسـيم منح سر التوبة، فلقد أدخل فيما بعد ما نسميه بمنبر الاعتراف، وقد ورد ذكره لاول مرة في المصادر التاريخية في أعمال مجمع اشبيلية المنعقد سنة ١٥١٥، الا ان استعماله ظـل علـى نطاق ضيق حتى المجمع التريدنتيني في الجيل السادس عشر (١٥٤٥-١٥٦٣) وهو الذي اقره وجعل استعماله إلزاميًا.

الخاتمة: لقد استعرضنا في هذا المقال أهم المراحل التي مرت بهـا ممارسـة التوبـة في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ورأينا كيف مارست الكنيسة عبر تاريخها الطويـل هذا السر. ولاحظنا من خلال هذا العرض المقتضب بأن سر التوبة حافظ دومًا على مفهومه الاساسي، ألا وهو الاهتداء الى الله والعودة الى حضن الجماعة المسيحية، بعـد أن كـان الانسان المسيحي قد قطع أواصر المحبة بينه وبين الله، من جهة، وبينه وبين اخوته المسيحيين، من جهة اخرى، بسبب إثم ارتكبه. لا غرابة في ان تكون ممارسة هذا الـسر قـد مـرت بتطورات هامة عبر الاجيال، حسب الظروف الحياتية لكل جيل، لأن المسيح اعطى السلطة لكنيسته كي تقرر الطريقة الملائمة لواجب المسيحي في كل جيل وقطر في ممارسـة سـر التوبة. فقد حثنا المجمع الفاتيكاني الثاني مؤخرًا لنبحث عن السبل التي تلائم عقليتنا العصرية وظروفنا واحتياجاتنا الخاصة، فنمارس سر التوبة عن ايمان واقتناع بحيـث يـصبح لنـا في الحقيقة والواقع وسيلة فعالة لتقريبنا من الله وفرصة مراجعة نزيهة لحياتنا: مراجعة حياة على نور المسيح وانجيله، فيها نبحث عن كل الاخطاء والمواقف السلبية التي تعودنا عليها والـتي تعيق مسيرتنا الى الله.

ونختم مقالنا هذا بتوجيهات المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني الذي يدع الباب مفتوحًا امام البحث في هذا التحديد: "يجب اعادة النظر في رتب سر التوبة وصـيغه بحيـث تعـبر بطريقة اوضح عن طبيعة هذا السر ومفعوله" (دستور الليتورجيا- بند ٧٢).

(ملف نيسان ١٩٧٢/جـ٢)

ملف ايلول ١٩٧٢ .... نجيب قاقو

جان رودان

المنسنيور جان رودان ومنظمة "الاغاثة الكاثوليكية" (Secours Catholique) اسمان لا ينفصلان! فإليه يعود الفضل في تأسيسها عام ١٩٤٦، غداة الحرب العالمية الثانية، وعلى طلب من اساقفة فرنسا. انها المنظمة التي تجندت من اجل الهرع إلى غوث المنكوبين من كل الشعوب، بسبب الحروب او الزلازل او الفيضانات... انها المحبة متجسدة في الرحمة والتضامن تجاه كل اشكال البؤس التي يعاني منها الملايين من البشر في كل الاقطار، ولا سيما تلك التي تشكو من النزاعات والآفات والفقر والامراض...

نجيب قاقو، عضو هيئة التحرير الاستشارية في الموصل، عرّف بها وبمؤسسها في ذكرى مرور ٢٥ عامًا على تأسيسها، وقد دخلت منذ عام ١٩٥٠ ضمن اتحاد " المحبة الدولية " (Caritas Internationalis) -وقد خصّته الفكر المسيحي (عدد ايار) بمقال لدى وفاته عام ١٩٧٧.

ونجيب قاقو الذي كانت له في الفكر المسيحي مساهمات عديدة، توفي عام ١٩٩٤ (انظر ما كتب عنه في "كتّاب رحلوا" مختارات الفكر المسيحي/٩).

"من ثمارهم تعرفونهم"... الرجال تعرف من اعمالها ونتاجاتها. وللتعرف على وجه جان رودان وشخصيته الفذة، يجدر بنا ان نعرف اولاً ماذا عمل وماذا انتج عمله.

جان رودان، او بالاحرى "المنسنيور جان رودان" هو مؤسس "الاغاثة الكاثوليكية"، وهي منظمة خيرية كنسية اسسها بتاريخ ٨ ايلول عام ١٩٤٦ على طلب اساقفة فرنسا. هدفها جمع المساعدات من المحسنين الكاثوليك في فرنسا للاستعانة بها على مجابهة النكبات والويلات، اينما حلت في اصقاع الارض، وللتخفيف من وطأتها، ان لم يكن بالمقدور تداركها وتلافيها. تقدم هذه المؤسسة مساعداتها، المادية منها والروحية، الى كل الشعوب، دونما تمييز في الجنس او اللون او العرق او الدين. واذا ما نزلت بشعب نازلة او كارثة، تبادر هذه المؤسسة الى اغاثة منكوبيها. وخلال ٢٤ او ٤٨ ساعة من وقوع الواقعة يصدر بيان عن مقر المؤسسة بشحن اطنان من الاغطية (البطانيات) والملابس والحليب وغيرها من المواد الغذائية او الطبية الى المنطقة المنكوبة. كما قد ترسل ايضا عند اقتضاء الامر سيارات حمل صغيرة او برمائيات.

لغة الارقام

ولكي نعطي صورة حية لاعمال"الاغاثة الكاثوليكية"، دونما اسهاب، نورد ارقامًا ناطقة تحدثنا عن هذه المؤسسة.

للمؤسسة مقر رئيس في قلب باريس، وهو كامل التجهيز والتكوين. والى جانب مكاتبه، يضم مطعمين احدهما يخدم فيه المرء نفسه بنفسه، من نوع *Self service*، كما فيه ايضا مصلى وباحة للسيارات. وللمقر الرئيس كذلك:

١٠٥ ممثليات ابرشيات موزعة في مختلف ابرشيات فرنسا، ولكل ممثلية لجنة خاصة تدير شؤونها. هذا الى جانب العديد من لجان القطاعات ومسؤولي الخورنيات.

وتدير الاغاثة الكاثوليكية:

- ٦ مدن اغاثة كبيرة موزعة في جهات متعددة من العالم. وفي فرنسا ذاتها مدينة اغاثة تعرف باسم "مدينة بيت لحم" -وهي الوحيدة من نوعها في فرنسا- تقبل بين جدرانها نساء مع اولادهن يقضين فيها الفترة الكافية لهن استعدادًا للعودة الى مجتمعاتهن والاندماج فيها.
- ٣ دور ضيافة وتمريض تستضيف العائلات التي ترافق مرضاها.
- مشروعان يتمتعان بالحماية تتاح فيهما فرصة العمل لاصحاب الحرف اليدوية كما لاصحاب الاعمال الكتابية والعقلية.
- ورشتان تتمتعان كلتاهما بالحماية ايضا. وكل منهما في مدينتين مختلفتين من فرنسا.
- ٢٧٥٠٠ مبادرة متنوعة انجزتها الاغاثة الكاثوليكية في اقطار العالم الثالث. وكل من هذه العمليات والانجازات يتجاوب مع حاجة معينة من حاجات البلد الذي حققت فيه. والكثير منها يعتبر انجازًا نموذجيًا اخذت به السلطات المحلية المدنية.

استطاعت " الاغاثة " ان تضع عددًا كبيرا من الاولاد ذوي المراس الصعبة في اسر غير اسرهم، لمعالجة مشاكلهم النفسية. وتضم الاغاثة الكاثوليكية ٦١٩ موظفًا ومستخدمًا. ورغم هذا العدد الكبير، هنالك عدد كبير من العاملين مجانًا في الاغاثة. واما نسبة المصاريف التي تدفعها الاغاثة، فانها تتراوح ما بين ٣ و٤ % من مجموع المساعدات الموزعة.

ولا بد ان يتساءل المرء من اين المال اللازم لتوفير هذه المساعدات وتغطية مصاريفها؟ وقد يزول تساؤلنا اذا ما عرفنا ان (٩،٥٠٠،٠٠٠) محسنًا يساهمون في تمويل الاغاثة، وان ٤٤ % منهم هم اشخاص لا يمارسون واجباتهم الدينية، ولكنهم يشعرون بانسانيتهم وبآلام اخيهم الانسان المحتاج، ولهم قلب يحس ويرق. واما ما يجمع من تبرعات، فيوزع على الوجه التالي:

٣٠ % من التبرعات الى لجان الابرشيات لتصرف على مشاريعها

٤٠ % من التبرعات الى المقر الوطني للاغاثة

٣٠ % من التبرعات الى مكتب أمانة سر الاساقفة.

ويبلغ ما توزعه الاغاثة سنويًا بضعة ملايين من الفرنكات الفرنسية القديمة. وللاغاثة الكاثوليكية ايضًا مشاريع عديدة في مدينة القدس ولا سيما في "بيت ابراهيم" للاغاثة، إذ تعنى بالعاطلين والمسجونين واللاجئين، كما تعنى بمشاكل الصحة وبكثير من الحوادث التي تقع بين الحين والآخر.

الاغاثة الكاثوليكية والمنظمات الخيرية العالمية

ان الاغاثة الكاثوليكية تحظى باعجاب الكثيرين وان كانت بنظر البعض الاخر دون مستوى شقيقتيها: الكاريتاس الألمانية (CARITES ALLEMENDE) التي تأسست في مدينة فريبورغ (المانيا) عام ١٨٩٧ و"المشروع الامريكي الوطني للاغاثة الكاثوليكية" (N0C0W0C) والتي تشرف عليها السلطات الكنسية الكاثوليكية في الولايات المتحدة - وقد تأسست عام ١٩٤٣، ومركزها الرئيس في مدينة نيويورك. وجان رودان نفسه يعترف بأن الاغاثة الكاثوليكية ليست بالمشروع الضخم. وان ما يهمه هو ان يبدأ المرء بأمور محددة وواضحة وصغيرة في بدايتها، على ان يعاد النظر فيها دائمًا لتجديد تكوينها، في محاولة لتوسيعها وتحسينها باستمرار، على ان يقدم المشروع خدماته اولاً الى من هم أكثر فقرًا وحاجة. هذه نبذة وجيزة عن "الاغاثة الكاثوليكية" التي اسسها جان رودان قبل ٢٥ سنة ولا تزال تمارس نشاطاتها الخيرية حتى اليوم. وقد دخلت عام ١٩٥٠ ضمن اتحاد المحبة (الكاريتاس) الدولية على طلب من الكرسي الرسولي -ويضم اليوم هذا الاتحاد أربعًا وتسعين منظمة خيرية وطنية في أكثر من ثلاثة وسبعين قطرًا من أقطار العالم. "والمحبة الدولية" تتعاون اليوم مع كثير من المنظمات العالمية من مؤسسات الامم المتحدة. فمن هو يا ترى جان رودان وكيف اهتدى الى ضرورة تأسيس"الاغاثة الكاثوليكية"؟

سنون في حياته

يرجع المنسنيور جان رودان في أصله الى منطقة الالزاس واللورين. كان ابوه يدير محل بقالية، وكانت امه معلمة وله اخت راهبة. وقد تجاوز اليوم الحادية والستين من عمره. سيم كاهنًا وهو في الرابعة والعشرين. فعين نائبًا لاسقف مدينة ايبينال وهي المركز الاداري لمقاطعة فوج، وبقي في هذا المنصب خمس سنوات. عين بعدها خوري رعية في احدى القرى، وظل يخدم خورنته الجديدة لمدة خمس سنوات. ولميله الى العمل في حقل الشبيبة العاملة المسيحية (J. O. C.)، ولحبه لهذا العمل، اعيرت خدماته الى أبرشية باريس ليعمل فيها في هذا الحقل لمدة ستة اسابيع غير قابلة للتجديد. ولكن الواقع كان غير ذلك اذ ظل يعمل في خدمة الشبيبة العاملة المسيحية ومن ثم مرشدًا للاتحاد العام الفرنسي مدة خمس سنوات ايضًا. فقام باولى تجربة له في هذا المضمار، اذ حقق عام ١٩٣٦ تجمعًا ضخمًا للشبيبة العاملة المسيحية في المنتزه المعروف باسمه في باريس. وفي عام ١٩٣٩ استدعي الى الخدمة العسكرية، فأسس "دار الجندي"، وأوجد ما يسمى ب "المكتبات الحقائبية" أو المكتبات المتنقلة. اعتقل في المانيا ابان الحرب الثانية، إلا انه هرب. فأوكل إليه الكردينال سوهارد الرئاسة العامة "لجمعية السجناء والمنفيين". وبعد تحرير فرنسا، عني بعودة المرحَّلين الى المانيا. وعلى طلب اساقفة فرنسا، أسس -كما سبقت الاشارة اليه- "الاغاثة الكاثوليكية" في ٨ أيلول ١٩٤٦. وفي عام ١٩٦٦، عين جان رودان رئيسًا لاتحاد المحبة الدولية، يعاونه في ادارة الاتحاد نواب يمثلون كل القارات.

ملامح وخطوط

يصف جوزيه دي بروكر، الصحفي الفرنسي، جان روردان بقوله: "... رزين، لا يضطرب. يداه معقودتان وراء ظهره. نظارته ذات الشعبة الواحدة تعلق باذنه اليمنى، ويحبّ ان يعرّف نفسه بانه جان مروردان الكاهن! ثم يردف فيقول: "... ان هذا الرجل الذي طبع المحبة المسيحية بطابعه الخاص يصعب سبر غور نفسه. وهو، وان لم يكن متعاليًا أو ممن يصعب الوصول اليهم، قد يعطيك موعد لقاء في فترة ينتقل فيها من طائرة الى اخرى ليواصل رحلة الى روما أو كلكتا أو القدس. الا انه قليل الكلام. ميال الى الصمت الذي قد يكون مبعثه الحياء أو الخجل أو التحفظ، أو كلها مجتمعة. ومن حسن الحظ اننا نجد ما يعوض عن بعض هذا السكوت. فهو يكتب من وقت لآخر عن مشاريعه. وكتاباته تكشف لنا جانبًا من شخصيته، ومشاريعه هي التي تتكلم عنه".

كيف يعمل

جان روردان تعجبه البنايات الانيقة والحدائق النظرة بأزهارها المنسقة، كما يعجبه مشروع تكون حساباته منظمة ودقيقة. يسره التخطيط المنسق والاعلان الناجح... الا ان مثل هذه الامور لا يعتبرها جان روردان اساسية وجوهرية، رغم انه لا ينكر اهميتها. أما الامور التي تحظى باهتمامه، فيوليها كل عنايته، وهو في ذلك اشبه برجل الاعمال أو المقاول المتمتع بروحية الفنان ويعمل باسلوب الفنان، فانه لا يؤمن الا بما يستوعب ويدرك بدقة وينفذ بدقة. فلا شيء يزعجه اكثر من الافكار الكثيرة السخية غير الواضحة او الخطب غير المفيدة والمشاكل التي تظل معلقة دون حلول جذرية. يشعر روردان بتقزز شبه طبيعي تجاه الاعمال المائعة المشوشة وغير المتقنة. يزعجه الرجال الذين يفكرون عميقًا، لكنهم يتزاحمون على المناصب والمهام الكبار. لا يضفي روردان صفة الرزانة والجدية الا على العمل المتقن الذي ينجزه صاحب خبرة واختصاص، فهو يتبع مثلنا العربي القائل "اعط القوس باريها" أو المثل الموصلي"اعط العجين بيد عاجنته".

لا يهدف من مشاريعه الى نيل جائزة الاوسكار في ادارة الاعمال ولا الى حل كل مشاكل الفقر والفاقة في بلاد العالم الثالث، لانه رغم وثوقه من نفسه ورغم معالجته الامور بهدوء واتزان، فانه يعلم ان الاغاثة الكاثوليكية لا تستطيع سد كل الحاجات وتضميد كل الجراحات، وعليه فلا بد من الاختيار وتفضيل أمر أو مشروع على سواه... ولهذا نراه يهتم بالدرجة الاولى بان "يحرث الارض" ويقلبها ليبعث اللهب في كثير من الجذوات والفتائل الكامنة في قلوب الصغار. يهمه ان يهيء الناس، الى اقصى ما يمكن، ليتقبلوا الاهتداء الكبير الذي يحتاجه الجميع، وذلك باثارة الاهتداءات الصغيرة اليومية التي نحن بحاجة ماسة اليها ليتحول كل منا نحو قريبه. فهو يقول "ان الاصلاحات الكبيرة تبدأ بالامور الصغيرة". انه يفضل الاعمال الصغيرة على الالفاظ الكبيرة، ويعتمد كثيرًا على المساهمة الفعالة التي يبذلها المسؤولون في "الاغاثة الكاثوليكية" واشتراكهم في التحريات والبحوث التي تجريها الادارات العامة وفي المشاريع التي تنفذها هذه الادارات، فهو نفسه عضو في المجلس الاعلى للادارة الخاصة باصلاح المجرمين. ويدرك روردان جيداً الدور المحفز الذي قامت به "الاغاثة الكاثوليكية" في الخدمات العامة. فكثير من هذه الانجازات الفردية

التي قامت بها الاغاثة مهد الطريق أمام نجاحات هامة. ومن اساليب المنسنيور جان رودان في العمل، انه يسعى الى تحقيق الوقاية الكافية لتحاشي الكوارث، اذ يرى ذلك افضل من تقديم العلاج والمساعدات بعد وقوع الكارثة. فانه يكتب في احدى مقالاته في هذا الصدد فيقول: "لا شك اننا نبادر الى اغاثة ضحايا الويلات من زلازل أرضية أو فيضانات أو أوبئة. الا ان اغاثتنا للضحايا تأتي بعد وقوع الكارثة. ولكن عندما يكون الشر محتمًا، فخير اغاثة نقدمها هي تحاشي وقوع الشر. أي ان عملنا يجب ان يبدأ قبل وقوع الكارثة، وذلك عن طريق التحذيرات التي نستطيع ان نوصلها الى سكان المنطقة المعرضة للخطر". ورودان يورد امثلة كثيرة على ذلك نختار اثنين منها:

- هنالك اولاد يعانون من سوء التغذية. فبدلاً من ان نوزع عليهم الحليب، يكون الأجدى ان نسعى لزيادة أجور والديهم.

- قد يجد بعض المسؤولين في "الاغاثة الكاثوليكية" ان احدى مناطق السكن تفتقر الى بالوعات لتصريف المياه القذرة مثلاً أو ينقصها ماء الشرب أو انها خالية من فسح خضراء. وفقدان مثل هذه المرافق يسيء الى صحة سكان تلك المنطقة. ما العمل؟ يجيء جواب رودان فيقول لهؤلاء المسؤولين "ادخلوا في المجلس البلدي للمدينة التي تشكو بعض احيائها من مثل هذه المشاكل. انضموا الى احدى النقابات. طالبوا المسؤولين وتذرعوا بشتى الوسائل لتحقيق الاصلاحات التي تحتاجها مثل هذه المناطق الموبوءة وغير الصحية".

جان رودان والمنظمات الخيرية

أدار جان رودان كثيراً من الندوات والمناقشات حول فاعلية المنظمات الخيرية والاثر الذي تتركه في المجتمعات. فخرج من نقاشاته وتجاربه بنتيجة واقعية وهي: الاعانات واعمال الرحمة الفردية قلما يكون لها اثر فعال أو تساعد على حلّ المشاكل ذات الجذور العميقة... انه يفضل أعمال الرحمة المنظمة. وكثيرًا ما أبرز في كتاباته وخطبه رأيه صريحاً في المنظمات الخيرية الكنسية التي يعتقد ان وجودها امر طبيعي. ففي موعظة القاها بتاريخ ١٤ تشرين الثاني من عام ١٩٧١ في كنيسة القديس مارتان في مدينة تور في فرنسا، يكشف لنا عن جانب كبير من موقفه تجاه هذه المنظمات فنسمعه يقول: "... هنالك من يقول لي: كنيسة اليوم تزدهر بمشاريعها المتنوعة، التبشيرية منها والخيرية: فيها مشاريع انماء اتخذ له طابعًا دوليًا. هذا صحيح. وهناك ايضًا من يقول، وعلى وجه التحديد عن "المحبة الدولية"، انها تضم ٩٤ منظمة وطنية..."! ويستطرد المنسنيور جان رودان الذي لا يحتمل التفاخر بذلك: "... ان عالم الاعمال وعالم السياحة هما ايضًا، ومنذ أمد بعيد، منظّمان في تكوينهما على الصعيد الدولي".

وأما عن تبنّي منظمة "المحبة الدولية" الاساليب الحديثة والتقنية واستخدامها وسائط النقل العصرية، كالطائرات السريعة لنقل لقاح الكوليرا مثلاً الى أقصى بقاع الكرة الارضية، فاننا نسمعه يقول: "لا نفخرن بذلك، لانه ليس طبيعيًا ان نتخلف عن سوانا". ويذهب المنسنيور رودان في موعظته فيقول: "قد يقول لي البعض ان عطاء الجماهير وسخاءهم في تزايد ونمو. نعم لا شك في ذلك، وانه في الواقع ليدعو الى الاعجاب والاكبار". ان مرد ذلك الى تطور عالم اليوم في تقدم وسائل الاعلام وسرعة انتقال الاخبار من أقاصي كرتنا

الى أقاصيها الاخرى، أكثر مما كانت عليه الحال في الامس". ويشير الى النزوح الهائل الذي رافق قيام دولة باكستان في عام ١٩٤٧: فلقد تبادلت الهند وباكستان ذلك الوقت ١٨ مليون لاجيء توفي منهم ما يقارب ثلاثة او أربعة ملاين نسمة. ويعترف سيادته: " ففي عام ١٩٤٧ لم نعمل شيئًا من اجل هذه الملايين لاننا لم نكن نعرف شيئا عنها". ثم يتابع: "وبعكس ذلك، ففي عام ١٩٧١، وفي باكستان بالذات نزح من باكستان الشرقية الى الهند ٩ ملايين لاجيء... واننا نطّلع على هذه الارقام ساعة فساعة بفضل التلفزيون الذي لم يكن استعماله شائعًا في عام ١٩٤٧. هكذا نرى ان ازدياد العطاء وازدهاره هو نتيجة لازدهار وسائل الاعلام وتقدمها". ويستطرد المنسنيور رودان كلامه فيقول: ولكن ما مقدار هذه المحاولات لتحقيق تقدم وازدهار اذا ما قورنت بأنواع الفقر والفاقة المستفحلة في العالم؟ وهناك انواع من الفقر: مشكلة الجوع ومشكلة الاسكان وايجاد عمل للعاطلين وتثقيف الناس وبعث الايمان في نفوسهم. فعلى هذا السؤال يجيب المونسنيور رودان ويقول: ان الامم الغنية المترفهة تزداد في غناها بينما أمم العالم الثالث تغور اكثر فأكثر في لجج الفقر، وهي اكثر كثافة في السكان من سواها. فهذه المشكلة الاجتماعية اصبحت اليوم عالمية.

رودان وما يربط بين المسيح والفقير

وفي هذه الموعظة ذاتها نسمع المنسنيور رودان يتساءل عن مدى انجيلية محبتنا ومدى ادراكنا السر الذي يربط بين المسيح والفقير. فيبين ان الكتاب المقدس يربط بقوة بين السيد المسيح والفقير. فاشعيا النبي، لما اعلن عن المسيح، نعته بالعوز والفقر المطلق (اشعيا٥٣:١-١٢). ويوحنا المعمذان لما اراد ان يعطي تلاميذه صفة مميزة يتعرفون بها على شخص المسيح، كشف لهم ايضًا عن فقر المسيح وبمجالسته للفقراء والمساكين (لوقا٧:١٨-٣٣). والمسيح ذاته عندما كان يتكلم عن نفسه، كان يركز على فقره: "واما ابن البشر فليس له موضع يسند اليه راسه" (متى٨: ٢٠). ولما كان يتكلم عن الفقراء، لم يحاول الدفاع عنهم وانما أقامهم مقام نفسه، اذ ان كل ما يصنع لهم فله يصنع، وما لا يصنع لهم فله لا يصنع (متى٢٥:٣٥-٤٠). المسيح وحده انتبه والتفت الى فقر تلك الارملة التي لم تضع في خزانة الهيكل غير فلسين. وعندما نرى الجموع تبعد مقعدا عن طريق المسيح، أو عندما يحاول تلاميذه إسكات اعمى، فهو وحده يلتفت الى هذا المقعد او هذا الاعمى ليستجيب لهما. ويقول رودان: "فالكلام عن الفقير في الانجيل ليس، اذن، ارشادات في الاخلاق مهما بلغت من سمو، ولا تعبيرا فياضا غير مجد لطلب الخير، انما هو جزء اصيل من رسالة المسيح التي كشف فيها عن نفسه... وانه، بوّجه التحديد، سر يرتبط ارتباطا مباشرا بالسر الكبير الاسمى الذي "كشف وظل مكتوما منذ الازل" (رومية١٦:٢٥) " فهنالك- يقول رودان- رابطة سرية بين المسيح والفقير. انه ينظر نظرة خاصة الى الباكين والمتالمين. وهذه النظرة الخاصة بالذات هي التي اوجبت التطوبيات وبررت اقتسام الرداء. ولكن هذه النظرة ذاتها تسألنا عن مدى انجيلية محبتنا نحن الذين نعيش عام ١٩٧١ بالذات".

ختام

وفي ختام الحديث عن المنسنيور جان رودان، يطيب لي ان أدرج كلمة رائعة له يقول فيها: "لا كنائس تبنى طالما نستحي من حمل الحجارة. والكنيسة الحية لا تبنى، طالما نستحي من التحدث عن المحبة".

ملف تشرين الاول ١٩٧٢ .... سالم اسعد الخياط

الإله المجهول

هل غاب الله؟

"سؤال، ترغمنا المدنية المعاصرة على إلقائه، لأننا بتنا نعيش في عصر يبني ويهدم دون اللجوء الى غيره، عصر لم يعد يحس بالحاجة الى غيره، وان كان هذا الغير الذات الالهية نفسها التي كان ينسب اليها البارحة كل شيء. فالانسان المعاصر اخذ ينزع عن الله هالة صفاته القديمة، واحدة فواحدة، ويبتعد عنه ليرسم طريقه على هواه ومن دونه، وقد ينجح الى حد ما، مما يزيد اقتناعه بعدم جدواه.. حتى يصل الى نكرانه او يبقى الاثنان غائبين عن بعضهما". بهذه العبارات كان قلم التحرير قد قدم لهذا المقال الذي كان محاولة للاجابة إلى السؤال عن غياب الله، بقلم شاب مسيحي ملتزم من قدامى "الشبيبة الطالبة المسيحية" في الموصل، وهو يؤمن ان الالحاد المعاصر هو لامبالاة اكثر منها جحودًا وإنكارًا..

قد نرى الله والايمان على غير ما هما عليه؛ ومرد ذلك، في اغلب الاحيان، فكرة ناقصة تقبلناها منذ الصغر و لم نتعمق فيها، فيما بعد، لتطويرها بحسب حاجاتنا الفكرية والحياتية واشباع تساؤلاتنا وتطلعاتنا... فينتج عن ذلك غياب الله تدريجيًا عن حياتنا، ويضحي وجوده وكأنه لا يغير شيئًا فينا. ونرسم لله، من جراء هذه القطيعة، صورة مشوهة، فنتخيله وحيدًا، معتصمًا في عليائه، لا يعبأ بأحد، خلق العالم وتركه يتخبط في المشاكل والنكبات، فتبدو لنا الحياة خرقاء لا معنى لها، ونرى في الوجود عبءًا ثقيلاً لم نختره، انما أُقحمنا به قسرًا. وهكذا نفقد ثقتنا بهذا الاله اللا أبالي، ويتبخر ما تبقى لنا من إيمان هامشي لا اثر له في حياتنا اليومية، ونتدرج في نسيان مرحلي، حتى استغناء تام عن إله لا يفيد ولا يضر، ونتخذ منه موقفًا محايدًا -اذا لم نشأ نكرانه- ونعقد معه هدنة بعدم المساس بحقيقة وجوده مقابل عدم تدخله في شؤوننا الشخصية، هذا اذا لم نحسبه مجرد أثر قديم وكفى!

وقد نذهب الى ابعد من ذلك كي نبرر سبب غيابه عن حياتنا، فنعلن ان وجوده نكسة لوجودنا، وان جبروته تحقير للانسان، فنجابهه بالتحدي ونرفضه من الاساس، وكأننا بذلك ننقذ الانسان وحريته من إله طاغية يتربص بنا من علو سمائه، وقد يؤول ذلك بالانسان الى ان "يخلق" له الهًا جديدًا من ذاته واهوائها. ويا له من طاغية هذا الاله الجديد!

حاجة الانسان الى المطلق... الى الله

ولكن هيهات للانسان ان يستغني عن الله مهما كانت نظرته اليه. فالذي يحدث، إن هو ألَّهَ ذاته بجانب الاله الحقيقي وفقد مقياس العلاقات بينه وبين الله، هو انه ينشطر على

ذاته في انفصام سافر وازدواجية تفصل بين ايمانه المبدئي الراكد وما يحسبه روح العلم والعصر، فيعيش في تناقض مستمر، سرعان ما يقوده الى اللامعقول.

ان ما يحتاج اليه انسان اليوم هو تجديد مفهوم الله لديه واكتشاف حقيقته الاصيلة وتنقية ايمانه باستمرار من الشوائب والقشور؛ إذ ان رفضه المزعوم ليس رفضًا دومًا للاله الحقيقي؛ انما للصنم الذي نحتته تصوراتنا وخيالاتنا، وهو نبذ للاقنعة التي وارت وجهه الصحيح على مر الايام! وهذا الرفض نفسه ما هو إلا برهان جديد على ما يحمله الانسان في أعماقه من توق الى المطلق والأكمل: فالانسان لا يكفي ذاته بذاته، انه بحاجة الى هدف يتجاوز حاجاته الغريزية. وهذه الرغبة في التطور نحو الاكمل والافضل وعدم رضا الانسان بوضع معين، ما هما الا امتداد في ثنايا الذات الى الله، سواء اطلقوا عليه اسم الكمال او المطلق او الشمول او الخالق او المستقبل الافضل. فان صورة مجتمع افضل او انسان اكمل، في ذهنية المرء، ما هي إلا انعكاس لهذه النزعة الطبيعية في تجاوز الذات، يحملها في طياته هذا الميل العفوي الى المطلق الذي زرعه الله فينا والذي نتحسسه بالايمان.

فالايمان، اذن، هو النظرة الواعية الى الكون، وهي تأبى التوقف والاستكان الى الحالات المتغيرة، بل هو هذه النظرة التي تفسر هدف تلك الحالات والوقائع. انها نظرة شمول ووعي لمعنى التطلب في الانسان. فنقف فيها على الرغبة التي نجدها في معظم العقائد في الالتقاء بالله ، تحت ستار التطلب والتجاوز نحو الاكمل، عن طريق عمليات تفوّق دائمة لتحقيق انسانية اكمل، بالرغم من ان الهدف الاساسي لهذا التفوق قد يغيب عن التفكير المباشر للانسان احيانًا، في خضم الظروف الصاخبة للحياة، تلك هي نظرة الايمان.. نظرة الحب والامل في ادراك كنه الاشياء. وخارجًا عن هذه النظرة تضيع الحياة في غياهب اللا معنى، انها موت إن خلت من هذا الامل في الترقي. يقول الفيلسوف الوجودي المسيحي كابرييل مارسيل: "اني اكاد اؤمن ان الامل من الروح الانسانية هو كالتنفس من الكائن الحي".

وهكذا لا يستكين الانسان الى وضع تاريخي او اجتماعي معين، بل يتطلع الى التجاوز دومًا، لشعوره بنسبية هذا الوضع. يقول الاب كوتيه: "أليس وعي الانسان لعدم اكتماله... علامة انفتاحه الى لا نهاية كيانية متعالية!" (كوستي بندلي: اله الالحاد المعاصر). "انه شوق نحو الشيء المتمم" بحسب الفيلسوف برادين (المصدر نفسه). فسعي الجميع اذن الى اللامتناهي، إن هو الا تطلّب لوجود وحياة حقيقيين لا يمكن ان يتحققا الا في الله الذي يملأنا من وجوده، لان "وجود الذات، على حد قول الفيلسوف كيركيغارد، هو ضرورة دائمة هدفها وامنيتها تحقيق اللامتناهي"، "والانسان، كما يقول باسكال، يتجاوز الانسان لا نهائيًا" (المصدر نفسه).

زحمة الحياة... من عوامل غياب الله

ومن جهة اخرى، قد ينشغل الانسان خارج ذاته، في ما تتطلبه الحياة العصرية من كفاح، ويشعر بالاكتفاء الذاتي حين يرى ثمرة اتعابه وجهوده في المنجزات العظيمة التي حققها العلم، فهل هو بحاجة الى التفكير بامر يتجاوز الارض الى ألـ ما وراء؟

– ولكن هل يا ترى، يمكن للانسان ان يستمر في تغنيه بأعماله واعجابه بتقدمه، وهل تكفي لتشغل كل تفكيره مشاكل الحياة ومتطلباتها المتعددة أو التزاماته الاجتماعية والسياسية؟ – كلا ثم كلا، فالانسان مطالَب بموقف داخلي، ولا يني يعود الى ذاته فيراوده السؤال الازلي عن مصيره: من انا؟ من اين اتيت؟ والى اين أذهب؟ هذا السؤال الذي خلده الفنان الفرنسي جوجان في لوحته الشهيرة "من اين اتينا، ومن نكون، والى اين مضي؟" (زكريا ابراهيم: مشكلة الانسان). فالاستغراق في دينامية العمل لا يكفي لاشباع فضوله، وإن صرفه وقتًا في الاستفسار عن معنى الحياة والوجود. ان الهرب من الذات والاستسلام الى "التعايش" مع الحياة، ما هو الا افيون نخدر به اعصابنا حين ينتابنا الجزع ونحن امام ذواتنا وجهًا لوجه؛ أو هو ارجاء لتساؤلاتنا فلا يعتم ان ينتابنا القلق ونشعر بفقدان صلتنا بالاشخاص والاشياء والشعور بعبثية الحياة، ويقودنا ذلك الى "السأم" الذي تكلم عنه البرتو مورافيا.

الله حاضر في التاريخ...

ولكن عودة الانسان الى ذاته لا يفترض مطلقًا خروجه من المجتمع، ولا ان يرى من الاخرين تهديدًا لحريته، كما يدعي سارتر حين يقول "بان الجحيم هو الغير" (زكريا ابراهيم: مشكلة الانسان)، لان الانسان يستطيع ان يكمل ذاته ويؤكد وجوده دون ان ينقطع عن الغير، وإن كان هذا الغير الله نفسه، لا بل لا يستطيع تحقيق ذاته وتأكيد وجوده إلا بما له من "صلات غيرية" وبعودته الى الله الذي هو فينا ومعنا"، مع بقائه المتعالي الاسمى.

ولكن هذا الاله المتعالي ربط السماوي بالارضي وقدس المادة نفسها من دون ما تشتت او مساس بوحدانيته، ونفذ الى صميم المادة فروّضها وأخضعها لسنة التطور والتنوع والتشعب في قفزات متتالية لتحقيق اشكال ارقى وأرقى، فجعل الكون يقوم على نظام يسيّر المنظورات من دون بلبلة أو اضطراب، وذلك لغاية مقصودة منه. فالله ليس غائبًا عنا انما يُظهر ذاته، ليس في الطبيعة وحسب، بل في الانسان وأعماله أيضًا. وقد أبدع الاب العالم تيار دي شاردان في تحليل هذا التجلي واستكشاف حضوره البيّن في الكون؛ فقد أظهر تفهمًا نادرًا لتاريخ الكون، بحيث اكتشف ان طاقة إلهية تسيّر الكون بحركة منظمة وتقوده الى الله كما الى هدفه الحتمي.

الله وراء التطور

ان الكون، منذ نشأته وفي سائر أطواره، كان وما انفك يخضع لقانون تطور كبير. قد يخيل للمرء انه لا يتحرك، بينما هو في الواقع يتقلص ويتمدد ويتفتق وينتشر وينمو ويتسع ويبني ذاته، فيبتدع ويخلق ويواصل أبدًا تكميل نفسه. ويمضي الاب شاردان محللاً: فالمادة تبني وتنظم ذاتها بطرق شتى، فتجمع ذاتها وتعمل على وحدتها، منتقلة من ذرة الى جزيئة ثم الى صخور بلورية واخيرًا الى جرم. ثم تتجسد الحياة في كائنات متشعبة وتوجد في وحدات بيولوجية اكثر تشعبًا من الكائنات المادية. وكلما نما الجهاز العصبي والدماغي ازدادت درجات الوعي والوجدان والحساسية والشخصانية. فيستمر التطور التحويلي في نظام خط ورسم نحو التقدم المتواصل، الى ان تهيأت الحياة للقفزة الكبرى حينما دخل الانسان بغتة الوجود وتطورات الحياة البشرية باطراد متواصل ايضًا، فيدخل الى الخليقة مع الانسان الوعي والاختراع والتفلسف والحرية والحقيقة والجمال والعدل والحب. فالانسان ليس سوى التطور عينه الذي "تَوَجْدنَ". والتطور لا يتوقف على صعيد الفسلجة، بل يستمر على الصعيد الاجتماعي، فتسير البشرية نحو الرشد والبلوغ في وحدة وشركة لن تتلاشى الحريات فيها. وشركة الضمائر البشرية هذه تفترض وجود كائن مطلق سام متعال. منه تنحدر وتتخذ كيانها وانسجامها وكمالها سائر الكائنات، وإلا لكانت الفوضى. وهذا الاله هو مرتكز التاريخ، لا يمكن ان يكون مثلا اعلى فقط وإلا لخلا من القوة والدفء والمحبة؛ انه شخص ذو ذاتية مستقلة يهيمن على الكون، لانه ألفه وياؤه، وهو الذي وضع قوة الروح في المادة وجعلها تتطور وتتحول وتتشعب وتتعدد ثم تعود وتتجمع وتتوحد لترجع اليه. ولكي يتهيأ للكون ان يتوحد بالله ظهر المسيح في التاريخ ضمن مخطط الله، فتجسد جامعًا الالوهية والبشرية، فتقدس كل شيء وتبارك كل عمل: المسيح الكلمة المتجسدة المحاط بالزمان والمكان الذي "به كون كل شيء وبغيره لم يكن شيء مما كون. فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس" (انجيل يوحنا).

(انظر بولس الياس: يسوع المسيح، ص١٦٠). "فالتجسد بنظر المسيحي حقق ملء اندماجنا بالمطلق" (كوستي بندلي: إله الالحاد المعاصر).

... وقد ظهر لنا بالمسيح

أجل ان الله لم يشأ ان يكون منعزلاً غريبًا صامتًا، انما تغلغل في حياة الناس وكشف عن ذاته بيسوع المسيح، فاتخذ جسدًا كجسدنا واعتنق حياتنا وشارك الناس افراحهم وحزن على اصدقائه وذاق بنفسه حياة الجماهير وهموم الكادحين اذ عاش في وسطهم كواحد منهم، ولطالما احبوه يلقي عليهم تعاليمه. لقد أحبوه لنظرته الواقعية الى الحياة ومحبته للانسان أيًا كانت منزلته الاجتماعية، فكانت رسالته واضحة للعلماء والبسطاء على حد سواء، بالرغم من سموها، لأنه جالس كل الفئات والعقليات. فلم يكن ناسكًا ولا

متزمتًا، انما عاش في قلب الجماهير، واعجب بجمال الطبيعة، وتأمل شروق الشمس وغروبها على بحيرة طبرية، واستمد مثاله من واقع بلاده وجاب القرى والمدن ولبى مطاليب الناس وسما بالانسان معلنًا حربًا شعواء على التزلف والرياء والتمسك بحرف الدين دون روحه، فنبذ "القبور المجصصة" ودعا الى العبادة الحقة والسجود بالروح لله، "فالله روح والذين يسجدون له بالروح والحق يجب أن يسجدوا".

لقد كان كالينبوع المتدفق لكل ظامىء: "ان عطش احد فليأت إلي ويشرب" لانه هو "ينبوع الماء الحي"؛ وبقوة حدسه لميلنا الى المحسوس والملموس دعانا الى البحث عن الله في خلائقه، وجعل من محبة الانسان للانسان قاعدة وتعبيرًا عن محبته لله: "مهما فعلتم بأحد هؤلاء الصغار بي تفعلون". وجاء باعلانه العظيم "المحبة" شرعة جديدة للانسانية، وقد جسد تعليمه في الواقع العملي، اذ لم يعلم شيئًا مما لم يعمل، وهكذا نصب نفسه مثالاً حيًا للبذل والمحبة حتى لاشاه الحب على الصليب ففدى الانسان وأشركه في حياة الله. فلقد هتف رينان الملحد "... لقد وطد (يسوع) أساس العبادة النقية التي تتسامى فوق الازمان والاوطان والتي سوف تتمرس بها النفوس الرفيعة الى منتهى الدهر".

جدة الحياة والكون في المسيح

لسنا، اذن، امام اله طاغية او دين جاء نتيجة وضع اجتماعي معين. ان دينًا كهذا يزول بزوال ذلك الوضع وتبدله، ولكن هل لأمل الانسان في الاخاء والمحبة والسلام وتطلعه الى المطلق ان يزول؟ وما ظهور المسيح في التاريخ وواقع حياته الا تعبير عن تطلب الانسان من حيث يدري او لا يدري. فالمسيح حلقة وصل بين تطلع الكون والبشرية الى الاكمل وبين الله، وهو الذي اعطى المعنى الصحيح للحياة والتاريخ. لقد بث في المجتمع روحًا جديدًا ودعا الى نبذ الانسان القديم وخلعه ولبس الانسان الجديد، انسان الحب المتصل مباشرة مع الله؛ وهكذا كان للبشرية "آدمها الجديد"، فلا بد له من بشرية جديدة (٢قورنتس:١٧)، وكل انسان يستمد حياته من الينبوع الحقيقي ويطلب "الطريق والحق والحياة" يمهد الطريق لهذه الخليقة الجديدة. وديناميكية هذا الروح هي التي دفعت الرسل في فجر المسيحية الى وجوب الارض، واختراق صفوف الوثنية لايصال البشرى السارة الى الناس، واعلان "تحرير الانسان عن طريق الثورة الحقيقية" من كل اشكال الاستغلال والتأخر والجهل. وبهذا التحرر وحده يتحقق المجتمع الأفضل الذي تمهد له القيم المسيحية المستقاة من منهل الانجيل. فليس الدين في جوهره بنودًا مشرعة نقيس بواسطتها قداستنا او نقسم بموجبها حياتنا الى شطرين، الواحد يقع في حقل الفضيلة والآخر في حقل الخطيئة، فيضيع التطلب الحقيقي للحياة في زحمة هذا التفكير العاجز. ان حصر الدين في هذا الاطار، إن هو الا تشويه له واستغراق في دقائق الامور وعوارض مسيرتنا نحو المسيح وما يصحبها من عثرات، من دون الالتفات الى الاحداث العظيمة التي يجب ان نحيا بروحها كالتجسد والفداء، بحيث تغشى على الرؤية الصحيحة سحابة وضباب، فتغيب الغاية عنا، بينما ينغي ان لا ينحجب شوقنا

الى المطلق امام نسبية بعض التصورات الدينية الثانوية التي قد تساهم في "غياب الله" عنا ان نحن استعضنا عن الجوهر بها، فنتصور الدين مجموعة قيود ومثاليات وطقوس وممارسات.

وهكذا بوسعنا ان نقول ان الاله الحب اتى بالدين- الحياة للسمو بالانسان من حالة العبودية الخائفة الى حياة الحرية التي للابناء، إذ ثمة رابط واقعي بين الله والانسان. فليس التاريخ صدفة بل له غائية ينجذب نحوها باطراد، وعلى الانسان ان يساهم في التشييد النهائي للخليقة ويخترق كثافة المادة ليكشف غوامضها ويعي معنى كدحه اليومي وقيمته: "لان تعب الناس في نظر المسيحي يساهم في خلق العالم الفائق الطبيعة الذي لا يني غير مكتمل الى ان نبلغ، كلنا معًا، الى تكوين ذلك الانسان الكامل الذي يتكلم عنه القديس بولس: الانسان الذي يحقق ملء المسيح" (في تقدم الشعوب).

الالتزام بالانسان والعالم.. حضور الله

ان هذه النظرة المسيحية الى الكون والى الله الموجود فيه حيًا عاملاً تلزم المؤمن بالانخراط في الواقع والعمل على تطويره وتجسيد هذا المفهوم في حياته. فكما تجسدت الحقيقة على الارض بالمسيح، هكذا يجب ان تتجسد الحقيقة في المسيحي، فيكون انتماؤه الى "ملكوت الله" فعليًا، ويكون بحق تجسيدًا للمسيح وتعبيرًا عنه وامتدادًا له عبر الزمان والمكان، وإلا لعدنا الى المثاليات الجوفاء. فالحياة المسيحية تعني حربًا على الانغلاق والتقوقع ورغبة عارمة في بناء الكون؛ انها استبدال للمسؤولية الخارجية الناتجة عن الروح الفريسية المرائية باخرى داخلية اصيلة تبتسم لغد الانسان، فنعلن "عدم غياب الله" فعلاً وقولاً، وهكذا لن يكون الايمان من بعد مخدرًا يجعل من الانسان مخلوقًا فقد شخصيته، بل محفزًا للعمل والابداع واكتشافًا للذات يعبر به الانسان عن نفسه تعبيرًا صريحًا لأنه يجعله باستمرار ازاء ذات لا متناهية لا تني تدعوه الى اللامتناهي والمطلق.

ان قيامة المسيح تدعونا في كل لحظة الى تحقيق شخصيتنا بقيامة حقيقية عن وعي وادراك تامين، والى اختراق الجماهير، كالمسيح، لتحسس الواقع بحلوه ومره، وعدم الاعتصام بالروح العاجية، فنلمس حاجات الناس ومسؤولياتنا تجاههم. أيكفي القول "انما الايمان علاقة شخصية الخالق والناطق؟ أليس الأولى ان يقال ان الايمان صلة ذاتية وموضوعية بين الانسان والانسان، زيادة على كونه صلة دينية وعالمية- خاصة وعامة- بين الاله والبشر، افرادًا وجموعًا؟ (خليل رامز سركيس: "مصير").

ان الايمان بالمسيح ليس استعبادًا، بل يبقى، على مر العصور، مبعث يقظة للبشرية كما يقول رينان نفسه: "سوف تبقى (أيها المسيح) حجر الزاوية من البشرية بحيث يستحيل محو اسمك من العالم دون ان يتزعزع الكون وينهار". ونسير نعانق الشمس ونتحسس الارض ونكمل عمل الله في الخليقة التي اؤتمنا عليها، حتى يعمر قلبنا بمحبة الانسان وبالفرح باشياء الارض، فيتجلى الله في حياتنا ولا يكون من بعد غائبًا، بل سيغمر حضوره كل شيء.

ملف تشرين الثاني ١٩٧٢/جـ١ .... الاب جرجس القس موسى

المسيحيون وفلسطين

عقدت في لندن من ١١ – ١٦ أيلول الماضي الندوة العالمية الثانية للمسيحيين من اجل فلسطين لدراسة هذه المشكلة المستعصية على ضوء التاريخ والوقائع، وإيقاظ الضمير المسيحي وتحريكه عالميا لنصرة شعب تشرد وطرد من أراضيه عنوة وظلما. وقد اشترك في هذا المؤتمر زهاء ١٧٠ شخصية مسيحية عالمية من رجال دين وعلم وفكر بالإضافة إلى مراقبين ومندوبين عن المقاومة، وقد وردتنا دعوة شخصية لحضور هذا المؤتمر العالمي.

هذا ويجدر بالإشارة إلى أن أصحاب المبادرة هم قبضة من أصدقاء فلسطين من محرري صحيفة "الشهادة المسيحية" الأسبوعية الفرنسية المعروفة بمواقفها المؤيدة لقضايانا، وهم الذين نظموا، بالتعاون مع مسيحيين من الشرق، الدورة العالمية الأولى التي عقدت في بيروت عام ١٩٧٠.

"لماذا نحن المسيحيين نهتم بهذه القضية، وانطلاقا من أي أساس؟"

هذا هو السؤال الكبير الذي ألقته ندوة بيروت و استكملت مناقشته ندوة لندن لتنطلق إلى مبادرات جديدة في توضيح ابعاد القضية في الأوساط المسيحية وخارجها ، وهذا ما نريد الإسهام فيه في هذا "الملف"، شعورا منا بواجبنا القومي والمسيحي معا تجاه أخينا الفلسطيني "المنفي" وأرضنا المقدسة المغتصبة .

المقدمة التي كانت قد تصدّرت هذا الملف الدسم، نقرأها اليوم وكأن شيئا لم يتغير بعد مضي ٤٠ عامًا! ونبقى في انتظار الحلول التي نخشى ان تصبّ في صالح "التصفية"!

في الشهر الماضي أعلن راديو اسرائيل، وبهدوء تام، بدء الاحتفالات بمرور ٢٥ عاما على قيام دولة إسرائيل، ولكن كيف نشأت هذه "الدولة" ومن أي خام بنيت؟

- في فجر القرن العشرين، كانت فلسطين قطرا عربيا يشمل الجزء الجنوبي الغربي من ولاية سوريا التابعة للإمبراطورية العثمانية. لغة أبنائها العربية: ٨٠% مسلمون و ١٠% مسيحيون من مختلف الطوائف و ١٠ % من اليهود. وكان هؤلاء الاخيرون يملكون ٦٥ ألف هكتار من الأرض على مسافة تبلغ ٢٦٣٢٣٠٢ هكتارا. وفي ٢٣ ت١ ١٩٢٢ قامت سلطات الانتداب البريطاني بأول عملية إحصاء وكشفت عن ان سكان فلسطين قد بلغ عددهم ٧٥٢١٤٨ : ٧٧١٧ من جنسيات مختلفة، ٦٦٠٦٤١من العرب، أما اليهود فكانوا ٨٣٧٩٠. وعشية التقسيم الذي أقرته هيئة الأمم المتحدة في ٢٩ ت٢ ١٩٤٧ والقاضي بإقامة دولتين في فلسطين، أحداهما عربية والأخرى يهودية، كان سكان فلسطين زهاء ٢١١٥٠٠٠، منهم ١٣١٠٠٠٠ مسلما و ٧٠٠٠٠٠ يهوديا و ٣٥٠٠٠ مسيحيا. وكانت أملاك اليهود تساوي ٥٦% من المساحة الكلية.

وهكذا ذهب عدد اليهود في تزايد مطرد، لا لازدياد في الولادات، وإنما بسبب الهجرات المتعاقبة المنظمة من أوربا وأميركا وبعض الدول العربية التي خيرت رعاياها اليهود سنه ١٩٤٧ بين البقاء والرحيل. وتوسعت أملاكهم اضعافا مضاعفة، بالشراء المغري في الأسعار فضلاً عن الخديعة والاستيلاء، بينما تضاءل عدد العرب حتى أصبحوا أقلية لا تتعدى الثلاثمائة الف بعد الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٤٨ وهجرة النازحين.

إننا لا نبغي كتابة تاريخ مفصل للقضية الفلسطينية، وإلا للزمنا كتاب كامـــل، إنمـــا سنكتفي بسرد الوقائع الهامة التي آلت بنا إلى هذه الكارثة، وتحليل الملابـــسات التاريخيـــة والدينية والعرقية التي رافقت هذا النزاع الذي بدا صامتا ولكن مبيّتا ومصمما تصميما محكما من قبل الصهيونية العالمية، منذ القرن الماضي، قبل أن ينتبه العرب إلى خطورته، فكان ما كان!

وعد بلفور

وزارة الخارجية- ٢ ت٢ ١٩١٧

ان حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف الى تأسيس وطف قـــومي (Home) للـــشعب اليهودي في فلسطين. وستبذل جهودها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على ان يفهم جليا انه لـــن يـــؤتى بعمل من شأنه ان يغير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوئف غير اليهوديـــة المقيمـــة الان في فلسطين، ولا الحقوق او الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الاخرى...

ارثر جيمس بلفور

١٩٤٧: الأمم المتحدة تقرر التقسيم على طلب من بريطانيا في ٢٩ ت٢، وللدولـــة اليهودية ٥٦% من مساحة فلسطين، وللدولة العربية ٤٢ %، ومنطقة القدس الدولية ٢%. رفض الطرفان التقسيم واشتبكا في حرب ضارية اشترك فيها ٦٤ ألفا من الهاغانا بين مسلح ومقاتل وجاسوس و٤٠٠٠ من الايرغون و ٣٠٠ من الشتيرن، وكلهم ممتهنو حرب مـــن الجيوش الاوروبية والأميركية، يساندهم الدعم الغربي المعنوي والسياسي والمادي والعسكري المبطن. أما العرب، فتقدموا إلى الحرب بجيوش حديثة التكوين، قليلة السلاح؛ وبالرغم مـــن إبلائهم البلاء الحسن؛ كانت الحصيلة مذابح دير ياسين وكفر قاسم والقـــدس... وبـــضعة آلاف من القتلى والجرحى والقرى المحروقة و٣٠٠ ألف مشرد فلـــسطيني. وفي ١٥ أيـــار ١٩٤٨، وعوض أن يعلن عن قيام دولتين في فلسطين، أعلن دافيد بن غوريون قيام دولـــة إسرائيل؛ وفي اليوم نفسه أعلنت روسيا والولايات المتحدة اعترافا بإسرائيل كـــأمر واقـــع. ووقعت الهدنة، وجاءت حرب ١٩٦٧ وتشريد ٧٥٠ ألف عـــربي، مـــسلم ومـــسيحي، واحتلال غزة وسيناء والضفة الغربية والجولان —وحلم الصهيونية أن تمتد من الفرات إلى النيل!

لماذا نحن المسيحيين نجابه القضية

لقد نشأت إسرائيل من مفارقة تاريخية كبرى وهي محو الفي سنة من التاريخ وتـــوطين قوم في فلسطين، عنوة واغتصابا، لا صلة لهم بالأرض. لقد أتوا من روسيا وأوربا وأميركـــا حيث تقلبوا في مختلف المناصب وانتموا، كسائر مواطنيهم، إلى جميع الطبقات الاجتماعية. هكذا كان حلمهم منذ عهد الجاليات اليهودية العرق أو المهتدية إلى اليهودية قبل المسيح في بلاد فارس وما بين النهرين وأعالي الأناضول واسيا الصغرى واليونان ومصر وليبيا وايطاليا واسبانيا وكريت والجزيرة العربية (اعمال١:٨-١١).

وإذا بيهود العالم يقررون "العودة" -كما يّدعون- إلى فلسطين، وكأنهم خرجوا منها البارحة. وحجتهم في ذلك ان فلسطين ارض ابائهم، إذن بلادهم، ارض الميعاد التي وهبها الله لهم، وما كانوا إلى الآن إلا عائشين في المنفى! ولإقامة "دولتهم" في هذه "الأرض"، تُعتبر كل الوسائل مشروعة، وعلى دول العالم ان تساندهم في إقامتها. ولكن لنتوقف لكي نحلل الأسباب التي آلت بنا إلى هذا المنطق والنتائج التي نجمت وقد تنجم عنه:

في منتصف أواخر القرن الماضي، قامت حركة مناوئة لليهود في روسيا على اثر التحولات الاقتصادية التي شهدتها البلاد -وكان لليهود شان في الحياة الاقتصادية- أُستغل فيها شعور عدائي تقليدي بين المسيحيين واليهود لا صلة له بسماحة الإنجيل. فشهدت فلسطين، على اثر ذلك، الموجة الكبرى الأولى من المستوطنين اليهود(١٨٦٧). وشهدت أوربا الغربية الحركة ذاتها، فنشأت طلائع مقاومة سلمية وانبرى بعض المفكرين والكتاب اليهود للدعوة إلى "تجمع" يهودي في بقعة من الأرض، وكانت هذه البقعة "فلسطين" بالذات، كما اقرها مؤتمر بال الصهيوني (١٨٩٧)، لما لليهود بها من صلات روحية. ولكن الموجة العدائية الكبرى لليهود فجرتها النازية الهتلرية عندما نادت بتفوق العرق الجرماني وطاردت اليهود وأبادت منهم أكثر من ستة ملايين، لا لشيء إلا لكونهم يهودا، وهادنتها بصمتها بعض الدول الأوربية. وهذا هو ما يدعى باللاسامية.

إن ضميرنا المسيحي يشجب هذه الجرائم التي يندى لها جبين الإنسانية، ولكنه يشجب في الوقت نفسه أن يداوى الظلم بالظلم. لقد كان تنكر الغرب لمفاهيم الإنجيل سببا في هضم حقوق اليهود في بلادهم الأصلية وقتلهم الجماعي؛ وكان على هذه الدول التي ثقلت ضمائرها بتلك الجريمة أن تعوض عنها باحتضان مواطنيها اليهود من جديد بكامل حقوقهم. إلا أنها أسكتت ضميرها بان عاونتهم على اقتلاع مليون عربي مسيحي ومسلم من بيوتهم. لقد ادعوا أنهم "يهبونهم" أرضا بلا شعب، فإذا بهم يجعلون منهم شعبا بلا ارض! وتتكرر المأساة وتتضخم في حزيران ١٩٦٧ بحيث يصبح اللاجئون والمشردون والمبعدون مليوني نسمة! فسؤالنا الذي يفرضه ضميرنا المسيحي هو: لماذا لا يتفهم أولئك الذين عطفوا على مأساة اليهود في ألمانيا وأوربا، لماذا لا يتفهمون مأساة الفلسطينيين المشردين من ديارهم والممتهنة كرامتهم منذ ربع قرن؟ لقد طالب الصهاينة ونالوا أرضا سكن فيها بعض ابائهم قبل ألفي سنة بحجة العودة إلى بلاد ابائهم واعترفوا بشرعية هذه "الحجة"، بينما يرفضون حق مليوني فلسطيني في العودة إلى بيوتهم وحقولهم التي طردوا منها قسرا قبل ٢٥ عاما فقط. هذا ولو سلمنا جدلا بالنظرية الصهيونية في "الحصار التاريخي" المزعوم، لأخذنا عليهم عدم تطبيقها الشامل لأنها تقودنا إلى احداث تغيرات جذرية على خارطة العالم، ولوجب أن يعود العرب المسلمون إلى اسبانيا، والرومان والايطاليين إلى فرنسا وسواحل سوريا وفلسطين، ولوجب طرد الانكليز من بلادهم، أما سكان الولايات المتحدة واستراليا، فاجهل أين يجب ترحيلهم؛ أم أن هذه النظرية جائرة إلا إذا خدمت مطامع الصهيونية.

اجل، لولا مساندة الاستعمار العالمي لما صار ما صار. إن هذا الاستعمار مرتبط ارتباطا عضويا بالحركة الصهيونية العالمية لأنها رأس حربه، كما صرحت غولدا مائير نفسها

منذ ١٩٢٥: "لن يختار الانكليز العربَ لاستعمار فلسطين، نحن الذي سيختارون". وهذا ما تم فعلا فقد عاشت إسرائيل طفولتها في حضانة بريطانيا، ثم اتجهت بعد الحرب العالمية الثانية إلى الولايات المتحدة حيث توجد أضخم جالية يهودية متنفذة، بينما أغدقت عليها ألمانيا الغربية ولا تزال الأموال لشراء سكوتها بحجة التعويض عن الأضرار النازية بحق اليهود. وهكذا تحافظ إسرائيل على بقاء نفوذ الاستعمار الاقتصادي والعسكري في المنطقة لقاء الحفاظ على وجودها وإمدادها بالسلاح والدعم السياسي.

وبفضل هذا التواطؤ، لا زالت إسرائيل تخطط في السر وتهدد في العلن أنها غير مستعدة للتراجع، ولا حتى إلى حدود ١٩٤٨. فقد صرح موشي دايان يوم ١٩٦٨/٧/١٥: "إن اباءنا قد توصلوا إلى حدود أقرت مشروع التقسيم، واما جيلنا فقد وصل إلى حدود ١٩٤٨، واما جيل الأيام الستة، فقد وصل إلى السويس والاردن وهضبة الجولان. وهذه ليست النهاية، فبعد خطوط وقف إطلاق النار الحالية، ستأتي خطوط جديدة لكنها ستمتد، عبر الأردن، ربما إلى لبنان والى سوريا الوسطى".

لا يستطيع دايان أن يقول خلاف ذلك، فهو منطقي مع ذاته، لان هدف الصهيونية الأبعد هو إسكان الاثني عشر مليون يهودي المنتشرين في القارات الخمس في ارض مساحتها ٥٨٩٣ ميلا مربعا (مساحة الدولة اليهودية بحسب مشروع التقسيم)، فلا بد إذن من التوسع وغزو أراضٍ جديدة: هذا ما تفعله إسرائيل بتخطيط وعزم، متحدية، بطريقة لم يسبق لها مثيل في التاريخ الحديث، والعالم كله، وتضرب عرض الحائط إدانات الأمم المتحدة ومجلس الأمن وشجب المحافل الدولية. إن اسرائيل تعمل وتهدم وتتجاهل كما لو كانت سيدة العالم "وتخلق أوضاعا واقعية" جديدة لحمل الكل على الرضوخ لها، بينما نحن نكتفي بالتهديد والبكاء والوعيد والخصام. إننا لا نريد استخدام وسائلها الجائرة لانتزاع حقوقنا، ولكننا من جهة أخرى لم ولن نقبل بمنطق القوة المتفوقة.

قد تكون إسرائيل، لأسباب لا يجهلها احد، متفوقة عسكريا وتقنيا: "غير أن الايديولوجية التي تقوم عليها والتي توحد بين الدين والشعب والعرق، كما يقول الدكتور قسطنطين زريق في كلمته في الندوة العالمية الأولى للمسيحيين من اجل فلسطين، إنما هي رجوع إلى مفهوم مضى عليه الزمن... إن ما يعرضه الفلسطينيون العرب ويحاربون من اجله هو إقامة دولة فلسطينية علمانية ديمقراطية وتقدمية، يعيش فيها المسيحيون والمسلمون واليهود بسلام، ويتمتعون بحقوق متساوية. وهنا تقوم الطريق إلى المستقبل، وليس في الصهيونية العنصرية المنغلقة".

"الصهيونية العنصرية المنغلقة": تلك ليست كلمة أطلقت جزافا، فالصهيونية مذ نشأت انتهجت سياسة عرقية مكشوفة، وإسرائيل اليوم هي نازية جديدة تنادي بعزل اليهودي عن سائر الناس، وتنصب نفسها وصية على يهود العالم، لا بل تذهب إلى ابعد إذ تحسب جميع يهود العالم مواطنين لها؛ بينما تتنكر لأصحاب الأرض الشرعيين، لا بل تعتبر فئة من مواطنيها أنفسهم غرباء أو مواطنين من الدرجة الثانية، لا لشيء إلا لأنهم مسيحيون أو مسلمون أو دروز، بالرغم من كونهم في فلسطين قبل مجيء دايان ومائير بآلاف السنين!

لقد ذكر الأب غوتييه، وهو كاهن فرنسي قضى عدة سنوات في إسرائيل يشتغل عاملا في الناصرة مع العمال العرب، قبل حرب ٦٧، ذكر حوارا جرى له مع أبراهام بن ياكوب مندوب الهستدروت حول وضع العرب، فقد أعلن له الأب: "إنكم تتصرفون بالضبط كتصرف هتلر، وتطبقون ذات الأسلوب، إلا إنكم غيرتم الإشارة الجبرية. فحيث كان هتلر يضع علامة (-)، قاصدا إبادة اليهود، وضعتم انتم علامة (+) قاصدين إنقاذ جميع اليهود، وفي كلتا الحالتين بقيت العرقية بدون تغيير: ظل اليهود ولا شيء إلا اليهود". وقصة رفض الحكومة الإسرائيلية عام ١٩٦٢ منح الجنسية الإسرائيلية للأب دانيال، الراهب الكرملي اليهودي الأبوين، لكونه تنصر، ومنحها لأولاد العقيد شاليت -وهو يهودي متزوج بامرأة يهودية ملحدة- قصة معروفة.

لقد أعلنت الكنائس المسيحية في الغرب بيانات عديدة تشجب اللاسامية، والمجمع المسكوني الفاتيكاني نفسه اصدر بيانا يعرض مسلكية العلاقات الصحيحة بين المسيحيين وأصحاب الديانات الأخرى بما فيها اليهودية -والإسلام- ومرمى ذلك ديني انساني بحت، ولا يعني البتة، لا من قريب ولا من بعيد، الاعتراف "بدولة إسرائيل". فالفاتيكان أصر منذ ٢٥ عاما على إلا يمنح مثل هذا الاعتراف أبدا، إلا إن الصهاينة هجموا على القرار في الداخل لمجيئه اقل مما كانوا يتمنون، واستغلوه سياسيا في الخارج. فالقضية المطروحة اليوم على الضمير المسيحي هي التمييز بين الشعب اليهودي ودولة إسرائيل، وبين اليهودية والصهيونية.

فالشعب اليهودي واقع بشري يتكون من بقايا الجماعات اليهودية المنتشرة في ارجاء العالم منذ ما قبل المسيح لأسباب شتى. ودولة إسرائيل كيان سياسي استعماري غرس في فلسطين بالقوة عام ١٩٤٨، يغلف ايديولوجيته الامبريالية بغشاء من الدين. أما اليهودية، فديانة تنظم علاقة الإنسان بالله بحسب شريعة موسى وتعده لقبول المسيح المخلص. وفعلا انتشرت تعاليم المسيح، في فلسطين وخارجها، في الأوساط اليهودية، بادئ ذي بدء، وتنصر قسم كبير منهم. أما الصهيونية، فهي حركة عنصرية لا دينية لا تمت إلى الدين اليهودي إلا بكونها جردته من روحانيته وأحالت اليهودية إلى قومية مميزة. فالصهيونية الملحدة - وتشجبها اليهودية الأرثوذكسية الرسمية- تعتبر اليهودية مجرد مرحلة من تاريخ العبرانيين، وعليها أن تتجاوزها فتصبح امة سياسية وقوة اقتصادية تسيطر على العالم. أما الكتاب المقدس، فلا يعود "توراة" مقدسة وصوت الله إلى البشر، بل كتابا تراثيا مجردا من أية روحانية، يحمل شيئا من أخبار "الأقدمين" وآدابهم، كتاب حكم وقصص وأساطير، تماما كأحد كتب الميثولوجية التي كانت تجسد الروح القومية لدى اليونان والرومان والبابليين.

وبدعة اليهود الكبرى، ومفارقة أخرى من مفارقاتها، هي استغلال التوراة حرفيا وتفسير أقوال الأنبياء تفسيرا سياسيا: فباسمها تدّعي "العودة" إلى ارض الميعاد وجمع شمل "شعب الله المختار" من جديد في الأرض التي وهبه إياها الله "ارثا مؤبدا"!

إن هذه إلا تبجحات وادعاءات مراوغة! فأنّ يكون الله أبا الشعب اليهودي فقط، تشويه صارخ لصورة الله الذي يعز عليه كل إنسان مهما كان لونه أو عرقه؛ وان كان اليهود قد دعوا يوما "شعب الله المختار"، فلأن الله اختارهم ليحملوا رسالة التوحيد إلى العالم، ونظرا إلى الرجاء الذي كان مزمعا أن يتحقق للبشرية عن طريقهم بالمسيح يسوع ، وهذا هو معنى قوله تعالى لإبراهيم: "بك تتبارك جميع الأمم". فالشعب المختار حقا لا يقوم على مميزات عنصرية أو عرقية أو حضارية: "لا يخطر ببالكم أن تقولوا في نفوسكم ان ابانا إبراهيم، لأني أقول لكم: إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم" (متى٣:٩). وقد نادى الأنبياء أنفسهم وناشدوا بني إسرائيل ألا يركضوا وراء كيان سياسي فيحصروا دعوتهم الروحية في انطوائية عرقية ضيقة. إن رسل المسيح أنفسهم كانوا سجناء هذه الفكرة، وكم عمل المسيح في روحنة نظرتهم إليه والى ملكوت الله الروحي.

إن إيماننا المسيحي يوجب علينا قراءة العهد القديم في ضوء الإنجيل، وما هو، إذن، سوى مسيرة وارتقاء تدريجي نحو المسيح.

ومثل هذه الدول الدينية المستمدة سلطتها من الله مباشرة، مسيحية كانت أم إسلامية أم يهودية، قد عفا عليها الزمن، من جهة، ومن جهة أخرى كم حشرت الله في عنصريات بغيضة كانت السبب في الحروب الدينية والمذابح وصنوف البربرية.

فالصراع، إذن، في فلسطين، مهما غلفته الدعايات المتباكية على مصالح اليهود، ليس مطلقا صراعا دينيا بين اليهود والمسلمين أو المسيحيين، إنما هو مجابهة سياسية بين محتل عسكري لا يقيم أي وزن لحق شرعي، ويضارب على كرامة الإنسان، وبين شعب يفرض عليه الصمت.

من اجل هذا ومن اجل "الدفاع، باسم التعليم الإلهي المبني على العدالة والمحبة، عن حقوق الإنسان وحقوق الله بوجه تفسير الكلام المقدس تفسيرا سياسيا وعنصريا، كما قال الأستاذ شارل حلو، الرئيس اللبناني السابق، في خطابه الافتتاحي للندوة المسيحية، هذا التفسير الذي يجعل من ملكوت الله، لا ملكوت نور ونعمة، بل عالم عتمة وظلمات، والذي يجعل منه إمبراطورية دنيوية قائمة على العنف المتواصل" نرفع صوتنا كمسيحيين! لان المسالة تهم الإنسان، ولانها قضية عدل وحق مصلوب، لا يمكن لضميرنا المسيحي الا يتحرك، ولا يمكن لأحد أن يتهمنا بالتطفل على السياسة!

لاجل هذا كله نجابه القضية، نحن المسيحيين! **(ملف ت٢ ١٩٧٢ /جـ١)**

بوسعنا أن نوجز الأساليب المطروحة لمعالجة قضية فلسطين في ثلاث نقـــاط وهـــي: الدبلوماسية والمقاومة الفلسطينية ووسائل الإعلام.

● الدبلوماسية

منذ أن وقعت مصر الهدنة الأولى مع إسرائيل في ٢٤ شباط ١٩٤٩ وتلتها سائر الدول العربية باستثناء العراق، راحت الدول العربية تبذل قصارى حصافتها الدبلوماســية لحـــل المشكلة المستعصية، وجعلت من معضلة فلسطين قضيتها الكبرى. وكان من أهداف الجامعة العربية الرئيسية منذ تأسيسها (١٩٤٥) التحرير الكامل لفلسطين. وفي كل بيان مشترك أو زيارة رسمية أو مباحثات بين دولة عربية ودولة صديقة، يكون لقـــضية فلـــسطين حـــصة مرموقة؛ وكم من بعثة دبلوماسية عربية وفلسطينية جابت بلادا وعقدت مباحثات مع كبار الشخصيات السياسية العالمية والعربية بشان فلسطين.

إلا أن "قصر البلور" في نيويورك هو أكثر من سمع وشهد عن المساعي الدبلوماسية التي بذلها العرب وأصدقاؤهم من دول العالم على اختلاف انظمتـــها الاشـــتراكية والـــشيوعية والرأسمالية ودول العالم الثالث. فلو جمع كل ما قيل والقي من الكلمات واتخذ من قرارات، منذ ٢٥ عاما، في قضية فلسطين في المنظمة العالمية، لملأ عدة مجلدات، ناهيك عن مـــساعي الجامعة العربية ومؤتمرات القمة العربية والوزراء العرب والقيادات. يكفـــي أن نعـــرف ان إسرائيل تلقت من الأمم المتحدة ٦٢٢٦١ إدانة، فقط لاعتداءاقما على الدول العربية وخرق الهدنات بين ١٩٤٩ و ١٩٦٤. أما منذ حرب ٦٧، فالله اعلم من الأرقام.

وتضاعفت الجهود الدبلوماسية للخروج من هذا المأزق، لاسيما بعـــد حـــرب ٦٧، حيث رمت دول صديقة جديدة بثقلها ومنها فرنسا، وتحرك العرب وأصـــدقاء فلـــسطين وأبناؤها في البلاد العربية وفي المهجر، مع سائر إخوانهم العرب المغتربين، وكثير منهم يحتـــل مراكز حساسة، لشرح القضية وابعادها وتنوير الغرب على النوايا التوســعية لمخططـــات إسرائيل. وقد نجحت هذه الحملات والمساعي بما يبعث الى الأمل، بدلالة ازديـــاد تفهـــم وتعاطف العالم معنا، حكومات وشعوبا وهيئات. وقد قطعت بعض الدول علاقتـــها مـــع إسرائيل أو حدت من تعاقدها، وخسرت اسرائيل كثيرا من هيبتها السابقة. ولـــذلك دوره الكبير في تعجيل عودة الحق إلى أصحابه.

● المقاومة والثورة

كان العالم الخارجي يرى -لاسيما قبل ٦٧- في قضيتنا قضية نزاع علـــى الحـــدود واشتباكات بين الجيران، لربما مردها عداء ديني عريق أو تعصب عرقي. وكانت إسرائيل في الداخل وفي الخارج، تعلن بألف طريقة وطريقة بانها دولة مسالمة، إنما تطالب بحق الحياة. أما نحن، فنعرف أنها قضية شعب طرد من أرضه عنوة واستبيحت كرامته. وهذه الحقيقة الفاقعة

نفسها تحولت، بفضل دعاية الصهيونية العالمية وقصر نظر العرب، إلى مشكلة "لاجئين" بحاجة إلى خيمة وطعام ولباس. فيلجأوا إلى المؤسسات الخيرية وتنتهي مشكلتهم!

ولئلا تبقى القضية "قضية لاجئين" وعرضة بين المساومين، قامت حركات التحرر والمقاومة من ابناء فلسطين نفسها ونشطت عملياتها بعد ٦٧، وهي تشكل طلائع ثورة تريد ان تأخذ مقدرات شعب فلسطين بيدها. وقد شرح سبب قيامها الشهيد كمال ناصر، الناطق الرسمي باسم القيادة الموحدة والثورة الفلسطينية في الندوة العالمية للمسيحيين من اجل فلسطين (بيروت – أيار ١٩٧٠): "نحن الشعب الفلسطيني ننطلق من قناعة عقلية وجدانية عميقة أن عملية الاعتداء هذه استهدفت، من خلال خطة كبيرة ، اقتلاعنا من جذورنا ليستوطن أرضنا قوم آخرون جيء بهم من أقاصي المعمورة لاغتصاب وطننا وإقامة دولة عرقية تعصبية منغلقة ... نحب أن نعلن للعالم بأسره بأننا رفضنا في الماضي وسنرفض دوما هذا الواقع ونؤكد حقنا الطبيعي المشروع في العودة إلى منازلنا وحقولنا ومتاجرنا واسترجاع كل ما ضاع منا، بالأسلوب الذي نختاره، سبيل الكفاح المسلح وحرب التحرير الشعبية، و لم يكن لنا أي مناص في هذا الاختيار: فقد غضت أنظمة العالم المختلفة طرفها عن الجريمة النكراء التي مارستها الصهيونية على أرضنا... إننا لا نقاتل من اجل القتال ولا نحارب من اجل الحرب، فثمة أشياء أجمل واحلى يجب أن ينجزها الإنسان في هذه الحياة، بعيدا عن العنف والحرب". ويستطرد: "ثم جاء الخامس من حزيران ليعطي الدليل القاطع للمترددين في إدانة الصهيونية كحركة توسعية، وإبراز الشخصية الفلسطينية... نحن بكل بساطة نمارس حقا ولا نمارس حقدا. ونحن، كل الناس، نحرص على تعبئة جماهيرنا ومقاتلينا بهذه الأفكار، لأننا نعلم أن حقدنا سيرتد علينا بنفس الامراض التي تعاني منها الصهيونية لو مارسنا الحقد فنحن في سبيل جيل صحي لا يكره ولا يبغض". لذا كان أي عمل تخريبي من قبل المقاومة ضد العزل من السلاح، لاسيما خارج فلسطين، ينسف جهودنا.

ولكي نلم بكل أبعاد الثورة الفلسطينية، علينا أن نربطها بحركة التحرر العربي العام، لا بل هي جزء من ثورة العالم الثالث. فإسرائيل في وضعها العقائدي والعسكري الحالي لا يمكنها أن تستقر في مئة عام. قد تمهد الأوضاع بضغوط مصلحية من الدول الاستعمارية، ولكن إن اعتبر العدو الركود نصرا، فهو "نصر" قصير الأمد، أما على المدى البعيد ، فأنا شخصيا مقتنع من ان النصر سيكون لشعب فلسطين، إذ لا يمكن أن يستتب السلام إلا باستتباب الحق، فالثورات لا تنطفئ بانطفاء رجالها، وان سكت هؤلاء فلن يسكت أولادهم. الثورة فكرة، والفكرة لها نفس الأجيال فالمقاومة رمز انبعاث جديد وصرخة بعدم الرضوخ والاستسلام، ورجال المقاومة، لأنهم فدائيون، يموتون ليحيا غيرهم، نحترمهم ونكبر أهدافهم وإيمانهم بقضيتهم، وسيأتي اليوم الذي سيضطر العدو إلى التحدث إليهم.

والذي ترمي إليه المقاومة، وقد أعلنته أكثر من مرة، هو إقامة دولة ديمقراطية علمانية حرة على ارض فلسطين يتعايش ويتضامن ويتمتع فيها جميع سكانها الأصليين من مسلمين ويهود ومسيحيين، بالحق والواجبات نفسها دولة تجتث منها كل تفرقة دينية أو عرقية أو عنصرية. وهذا لن يتم إلا باستئصال الكيان السياسي الصهيوني العنصري التوسعي.

- **الإعلام**

بقي أن نعلم أن الدبلوماسية مهما نشطت واتسعت، والمقاومة مهما اشتدت وتكثفت، فلا بد من غطاء إعلامي ذكي مدروس وشامل يدعمها، لا في العالم العربي وحسب، بل بالخصوص باتجاه العالم الخارجي، لاسيما الغربي. وان يكون الإعلام ذكيا، معناه أن نطلع على نفسية من نخاطب وندرس الاتجاهات الفكرية والسياسية والمؤثرات التاريخية والدينية، الداخلية والخارجية، للمجتمعات التي نريد كسبها إلى جانبنا ومعرفة ما مدى ارتباطها الاقتصادي والاستراتيجي ببلادنا، لكي نعرف كيف نوجه إعلامنا، فنخاطب هذه المجتمعات بمنطقها ولغاتها وأساليب تفكيرها وعلى أعمدة صحفها ووسائل إعلامها نفسها. ولنسع جهدنا لمخاطبتها بلسان صحفييها ومثقفيها ومفكريها "فطالما لا نجعل الشعوب الأخرى تشهد لنا، كما يقول أمين معلوف، فان قضيتنا لا تتجاوز الاستعراض الصحفي". والذي نرمي إليه نحن هو تغيير العقليات، ومن ثم نيل التزامها بقضيتنا، كما التزمت من قبل بقضايا فيتنام والجزائر وافريقيا... وللوصول إلى هذا الالتزام من قبل أصدقائنا ومناصرينا، علينا تقديم معلومات حقيقية واضحة وجدية مدعومة بالأرقام والتواريخ والتحليلات العلمية الموضوعية، باعتدال، بعيدا عن السطحية والعاطفية والثرثرة والغلو. لذا توجب علينا أيضا معرفة كل شيء عن عدونا وأساليبه الدعائية وتضليلاته وما يقال في العالم عنا وعنه.

تملك الصهيونية، بحسب إحصائية نشرتها جريدة "الرسالة" الموصلية (٧٢/١٠/٣): ١٠٣٦ صحيفة دورية مسجلة رسميا على أنها صهيونية خالصة؛ وفي الولايات المتحدة ٢١٨ صحيفة يهودية بالعبرية و ١٤٦ جريدة يومية أو أسبوعية أو شهرية بالانكليزية، ناهيك عن محطات الإذاعة والتلفزيون والسينما الصهيونية أو المتعاطفة معها. أما في أوربا الغربية فتملك الصهيونية ١٥٨ صحيفة دورية، وفي افريقيا واسيا تسيطر على أكثر من ٢٢٠ نشرة. ومحطة راديو إسرائيل تذيع بجميع اللغات الرئيسية، وقد اقترح ايغال الون مؤخرا، بحسب صحيفة "معاريف" الإسرائيلية (٧٣/٢/١٦) ، تمديد البث بالعربية ٢٤ ساعة.

إزاء هذا الغطاء الإعلامي الصهيوني الكثيف، أين نحن؟

إننا لا زلنا في البداية، ويلزمنا "عقلنة" إعلامنا ومضاعفة دراستنا واعتماد عرب المهجر وأنصار فلسطين من غير العرب ، وحتى من اليهود أنفسهم، خارج إسرائيل وداخلها، الذين يزداد عددهم. ونكتفي من هؤلاء بذكر اسم الدكتور شاهاك الأستاذ في جامعة القدس الإسرائيلية وعضو رابطة حقوق الإنسان في إسرائيل، احد مناوئي الصهيونية، وقد أعلن في حديث له في لندن ، منددا: "إن إسرائيل من دون دستور منذ تأسيسها، وهذا دليل على أنها ليست مكتفية بالمناطق المحتلة، بل تترك الباب مفتوحا لتوسيع أراضيها".

كما وان هناك وثائق تكشف الحقائق يجب إبرازها، وقد أشار كلود بوريه كلمته أمام الندوة المسيحية العالمية من اجل فلسطين في بيروت إلى بعضها مثل كتاب دافيس، احد مندوبي الأمم المتحدة لدى وكالة الغوث، وكتاب الجنرال فان هورن رئيس بعثة الأمم المتحدة، وكتاب: "انهيار اليهودية" لموشي مناحيم، وكتاب "العرب في إسرائيل" للمحامي

المسيحي العربي صبري جريس -وقد نشره في حيفا بالعبرية عام ١٩٦٦. يضاف إلى هذه العناوين اعمال الندوة المسيحية الآنفة الذكر وقد أشاد بوريه بمركز الدراسات الفلسطينية في بيروت الذي اخذ على عاتقه ترجمة ونشر الكتب والوثائق وتحليلات كبار المفكرين والشهادات والمستندات المتعلقة بالقضية. وقال:

"الوثائق المهمة قد تغير الرأي العام العالمي وتؤثر على ذوي الضمائر الحية المضللين، حتى بين اليهود أنفسهم. وقد آن الأوان ليدرك المسؤولون العرب والفلسطينيون أهمية هذه الكتب إلى جانب الوسائل الإعلامية الواقعية، إذ الها تتمتع بنفس أهمية السلاح الحربي، لا بل فاعليتها اقوى الف مرة من الدعاية العاطفية التي لا تؤثر إلا على الذين كان لديهم استعداد مسبق لفهم القضية".

وهكذا بوسعنا أن نقول بأنه، عبر هذه المسالك الثلاثة مجتمعة، الدبلوماسية والمقاومة والإعلام، سيتمكن شعب فلسطين أن يستعيد حقه وأرضه. إلا انه من نافل القول ان اي تسوية للقضية تتجاهل الحق الشرعي للشعب الفلسطيني في تقرير مصيره بنفسه ستكون تسوية منحازة وفوقية، إذن فاشلة.

مبادرات المسيحيين في القضية

إننا لن نناقش هنا المنطلقات الفكرية والإيمانية التي تدعو المسيحيين إلى الوقوف بجانب الحق الفلسطيني -وإن كان هؤلاء المسيحيون عربا أو مرتبطين بالعرب ثقافيا أو تاريخيا أو جغرافيا، كالسريان والأرمن والأكراد، فالقضية قضيتهم لا اقل من إخوالهم المسلمين، وفلسطين فلسطينهم أكثر من سواهم- إنما نتطرق إلى المبادرات المسيحية التي تساهم في معالجة القضية، وذلك على ثلاثة اصعدة: الرسمي والشعبي والفدائي.

- **المواقف الكنسية الرسمية**

يبقى الفاتيكان من الدول القلائل التي رفضت الاعتراف بإسرائيل كيانا ودولة -وقد اعترفت بها غير واحدة من الدول الإسلامية نفسها- وذلك بالرغم من الضغوط الصهيونية، بينما له علاقات دبلوماسية مع عديد من الدول العربية كالعراق ومصر ولبنان وسورية وتونس والجزائر والكويت. وقد أكد غير مرة على ثبات موقفه، كان آخرها لدى الزيارة الفاشلة التي قامت بها غولدا مائير لبولس السادس بالرغم مما حاكته إسرائيل من تلفيق للحقائق. وقد أذاع المكتب الصحفي للفاتيكان اثر الزيارة بيانا جاء فيه: "لقد أجاب البابا طلب غولدا مائير لأنه رأى من واجبه الا يترك أي فرصة تفوته كي يعمل لصالح السلام... وفي المكانة الأولى مصالح لاجئي فلسطين". واستنكر البيان كذلك تهويد القدس وجعلها عاصمة إسرائيل (الأسبوع العربي ٢٢ ك٢ ٧٣).

والبابا بصفته رئيس دولة الفاتيكان، والرئيس الأعلى للكنيسة الكاثوليكية، وارفع سلطة أدبية وروحية في العالم، لا يدع فرصة أو خطوة ايجابية إلا ويبذل قصارى تأثيره لإحقاق الحق ونصرة الشعب الفلسطيني. ولطالما أشغلت القضية تفكير وخطابات بيوس الثاني عشر ويوحنا الثالث والعشرين ولاسيما بولس السادس، وظهرت في لقاءاتهم مع رؤساء الدول والحكومات والهيئات العالمية المختصة والشخصيات العالمية، المدنية والدينية.

وتحمل باستمرار إذاعة الفاتيكان وصحفه، بشتى اللغات، مثل الاوسرفاتوري رومانو والاوسرفاتوري ديلا دومنيكا ونشرة الإذاعة بالعربية، احتجاجات البابا والأساقفة للانتهاكات الإسرائيلية وطرد العرب. وقد كان موقف بولس السادس واضحا ولاسيما إبان زيارته التاريخية للأراضي المقدسة (ك١ ٦٣) إذ أتاها حاجا، متجاهلا الحدود السياسية، عن تعمد. ولكن الصهاينة يستغلون كل شيء سياسيا كما فعلوا مع التصريح المجمعي في علاقات الكنيسة مع الديانات الأخرى الذي جاء دينيا بحتا يوضح مسلكية العلاقات الصحيحة بين المسيحيين وأصحاب الديانات الأخرى، ولم يبرّئ اليهود قط من دم المسيح، كما زعموا، وكان التصريح قد اخضع قبل إقراره للجامعة العربية.

وكم سعى البابا دون وقوع حرب ٦٧. وحين وقوعها تكاتفت معه جميع هيئات الغوث والكنائس لإرسال الإعانات لضحايا الحرب من العرب. هذا ومنذ ١٩٤٨ تعمل "البعثة البابوية لفلسطين" ومنظمة "الغوث الكاثوليكي" ومنظمة "المحبة الدولية" وغيرها من الهيئات المسيحية في خدمة اللاجئين العرب في سوريا ولبنان والأردن وغزة.

ومن جهة أخرى، عقدت لقاءات على مستويات أساقفة ومندوبين رسميين عن الكنائس المسيحية في الشرق والغرب، لدعم الفلسطينيين واللاجئين. وقد دافع أكثر من بطريرك وأسقف، في الشرق والغرب، عن حقنا المغتصب. فمواقف بطريرك الروم الكاثوليك مكسيموس حكيم لا يجهلها احد، وقد لخصها بكلمة وجهها إلى الرئيس اللبناني يوم انتخابه بطريركا (ت٢ ١٩٦٧):

"... **بينما نحن رأينا أن نخدم أولادنا عرب فلسطين (كان غبطته قبلا مطران أبرشية الجليل) الذين بقوا في بلادهم وتعرضوا فيها لكثير من وجوه الضغط والإساءة والسلب، فكنا في داخل المعمعة وفي خط الدفاع الأول، معتزين بعروبتنا، ندافع عن المبدأ الصحيح ونسمع صوتنا عاليا في الداخل والخارج، في سبيل إحقاق العدل... ولئن كنا مع قداسة البابا بولس السادس، نردد اننا لا نريد الحرب بعد الآن، إلا أن هذا لا يعني اننا نرضى بان تحل الحرب لغيرنا مشاكله وحدوده...**".

ولم تكن مواقف سلفه **مكسيموس صائغ** اقل وضوحا وجرأة، لاسيما إبان حرب ٦٧، إذ أعلن مرارا وقوفه وشعبه "بجميع الطاقات إلى جانب البلدان العربية لتحرير الوطن العربي المحتل ظلما".

وفي بغداد أقيم، اثر العدوان، قداس مسكوني عن أرواح شهداء الوطن، تمثلت فيه الدولة وتحدث فيه غبطة البطريرك الكلداني **بولس الثاني شيخو** عن واجب حشد الطاقات الروحية والمادية في العراق والبلدان العربية لمواصلة المعركة حتى الحل العادل السوي.

وفي الضفة الغربية نشر الزعماء المسيحيون والمسلمون بيانا مشتركا في جريدة الدستور الأردنية (١٦/٨/٩٦٧) نددوا فيها بالتشريعات الصهيونية غير الشرعية ورفضوا الاحتلال وأكدوا على عروبة القدس.

وفي حادثة حرق المسجد الأقصى (أيلول ٦٩) انضمت **البطريركية المسكونية الأرثوذكسية** إلى سائر الكنائس وأعلنت في بيان رسمي ان هذا الاعتداء يعد "اهانة لا فقط للدين الإسلامي، بل للضمير الديني والحرية والحضارة بأقدس ما لها وبحقوق الإنسان".

وفي سوريا نشر **البطاركة الشرقيون** ورؤساء الطوائف المسيحية "نداء إلى الوجدان المسيحي" سلم إلى الرئيس نيكسون وبعض رؤساء الدول الغربية حول قضيتنا ومطامع إسرائيل في القدس.

وفي الجزائر تحرك **الكاردينال دوفال** وتحدث أكثر من مرة عن حقنا في أراضينا.

وفي الأرض المحتلة قاد **المطران يوسف ريا** مقاومة باسلة ضد قوات الاحتلال التي اغتصبت أراضي قريتي أقرت وكفر برعم عام ١٩٤٨، وسار على رأس مظاهرة احتجاجية بعد أن كان الأهالي قد تحصنوا في الكنيسة. وتضامنا معهم، قرعت أجراس كنائس لبنان وألقى الكهنة كلمات تفضح التعسف الصهيوني.

وغيرها من المبادرات التي لا يمكن حصرها جميعا في هذه العجالة.

● المواقف المسيحية الشعبية والمبادرات الشخصية

بعد حرب ١٩٦٧، فرضت القضية الفلسطينية ذاتها على الرأي العام العالمي. وبينما كانت من قبل، في الكنيسة ، تستأثر انتباه السلطة في الدرجة الأولى، فقد نزلت بعد٦٧ إلى صفوف الشعب واستأثرت بقطعات جديدة من المؤمنين والرعاة، على صعيدين فردي وتنظيمي، وفي ما يلي نستعرض بعض هذه المبادرات:

❖ لعل أهم التنظيمات المسيحية التي نشأت بعد ٦٧ هي **"الندوة العالمية للمسيحيين من اجل فلسطين"**، بهمة عدد من أصدقاء فلسطين، من المسيحيين العرب والغربيين، وقد أوضحت أهدافها في مقدمة الكتاب الذي نشرته عقب دورتها الأولى المنعقدة في بيروت من ٧ – ١٠ من أيار ١٩٧٠، وهي خلق توعية مسيحية مسكونية فعالة للقضية الفلسطينية، والخروج بخطة مشتركة لأجل القيام بحملة إعلامية ، لاسيما تجاه المسيحيين في الغرب. لذا كان للندوة سكرتاريتان، أحداهما في بيروت والأخرى في باريس. ومما جعل دراسات الندوة صريحة وموضوعية كون المشتركين غير مرتبطين بمواقف رسمية مسبقة وغير ممثلين لهيئات حكومية أو كنسية. أما الدورة الثانية للندوة، فقد عقدت في لندن في ١١ – ١٥ من أيلول ١٩٧٢. وتنشر "الندوة" أبحاثا عديدة في القضية الفلسطينية:

➤ نشر فريق من **"لاهوتيي الشرق الأوسط"** في بيروت في ك١ ١٩٦٧ "مذكرة في مستلزمات الإيمان المسيحي إزاء المعضلة الفلسطينية".

➤ قررت اللجنة التنفيذية للاتحاد العالمي للطلبة المسيحيين بالإجماع، في جنيف في ٢٢ تموز ١٩٧٠، تبني مشروع **"الضمير المسيحي والقضية الفلسطينية"** وهدفه توعية الضمير المسيحي العالمي وإبراز معطيات القضية الإنسانية واللاهوتية؟

- في الجزائر عقد ٣٠٠ مسيحي اجتماع توعية في مركز بن اقنوب في ٥ ك١ ١٩٧٠ لدراسة القضية الفلسطينية من وجهات النظر القانونية والاقتصادية والاجتماعية.
- في ٤ – ٨ أيلول ١٩٧٢ نظم "المكتب المسكوني للشرق الأوسط للاستعلامات والتفسير" اجتماعا للاهوتيين كاثوليك وبروتستنت وأرثوذكس، من الشرق والغرب، في دير ايلسفور بانكلترا لدراسة معطيات القضية على ضوء العهد القديم وعلاقة الكنيسة المسيحية باليهودية.
- عقدت لجنة حقوق الإنسان التابعة "للندوة العالمية" من ٦ – ٩ أيلول ١٩٧٢ اجتماعا في ويستمنستر لدراسة حقوق الفلسطينيين قس فلسطين
- ومن **الشخصيات المسيحية** البارزة التي تهتم بالقضية على صعيد الفكر والتوعية – وكثير منهم مرجع في الدراسات المؤتمرات الفلسطينية، المسيحية والعالمية:

- **جورج مونتارون** (فرنسا) سكرتير الندوة العالمية للمسيحيين من اجل فلسطين في باريس ورئيس تحرير مجلة "الشهادة المسيحية" الباريسية.
- **الأب جان كوربون** (لبنان) صاحب عدة بحوث لنصرة القضية.
- **المطران جورج خضر** (لبنان) صاحب عدة كتب ومقالات ومحاضرات عن فلسطين، منها كتاب "فلسطين المستعادة".
- **ميشيل شيحا** (لبنان) مفكر قدير دافع دوما عن حقوق الفلسطينيين.
- **الأب جورج ديمون** (الأردن) شاهد عيان للمأساة إذ عاش طويلا في العقبة.
- **أنطوان عطا الله** (فلسطين) صاحب دراسة قيمة عن مشكلة " القدس".
- **الأب بول غوتييه** (فرنسا) وقد اختبر الظلم الإسرائيلي إذ عاش طويلا مع عمال الناصرة العرب. صاحب كتاب "القدس ودم الفقراء".
- **السيد غرانغو** (الجزائر) يعمل في توعية مسيحية في بلاده عن القضية.
- **آن ماري ابلمتز** (بلجيكا) من لجنة التضامن مع المقاومة الفلسطينية والشعب العربي.
- **دومنيك فون بورج** (سويسرا) صحفي.
- **خوسيه اوسكا (كوبا) ألقى كلمة بليغة عن التلاحم مع القضية في "الندوة العالمية".**
- الدكتور افريل م . **مخلوف** (الولايات المتحدة) من أصل عربي وغيرهم...

وهناك **الصحافة المسيحية** التي تعمق الوعي المسيحي، أكثر فأكثر، في الأبعاد الحقيقية للقضية. ومن أهم ما يصل الينا منها:

- **"الشهادة المسيحية"** الأسبوعية الفرنسية المؤيدة للقضايا العربية وبصورة خاصة قضية فلسطين. وقد زار رئيس تحريرها والمسؤول فيها عن الشؤون العربية بغداد في العالم الماضي، وقد نشرت جريدة "الجمهورية" مقابلة معهما (١٥/٥/١٩٧٢).
- **"المسرة"** الشهرية اللبنانية التي لو جمعت أبحاثها عن القضية الفلسطينية لألفت مجلدا ضخما يحيط بالقضية من كل جوانبها.
- **"المنتدى"** وهي نشرة إعلامية مسكونية تصدر في بيروت بالعربية والفرنسية والانكليزية تنشر كل ما يكتب أو يقال عن قضية العرب الكبرى، لاسيما في الأوساط المسيحية.

- "**النشرة**" يصدرها القسم العربي في إذاعة الفاتيكان وهي تنشر كل ما يصدر عن الكرسي الرسولي والأساقفة بخصوص فلسطين وقضاياها.
- "**الفكر المسيحي**" التي تعلن تأييدها دوما للقضية العربية وعودة إخواننا الفلسطينيين إلى ديارهم وتقرير مصيرهم بأنفسهم.

ولا تخلو أية منشورة مسيحية عربية دورية من مواقف تؤيد القضية العادلة.

الفدائيون المسيحيون

بقي أن نقول كلمة في اشتراك المسيحيين في العمل الفدائي والمقاومة. وندع الكلمة للشهيد كمال ناصر، أعلنها هادرة في قاعة اليونسكو ببيروت في أيار ١٩٧٠، أمام زهاء ثلاثة آلاف مستمع، في الندوة العالمية للمسيحيين من اجل فلسطين.

"إن العربي المسيحي يدرك تماما أن المسيحية ثورة إنسانية ملتهبة عارمة مستمرة في المجتمع، وقد ألهبها السيد المسيح وهو أعظم ثائر أنجبته الإنسانية؛ فالمسيحية ثورة في وجه الظلم والعدوان والاغتصاب والعنصرية... وبهذه المناسبة أرى لزاما علي أن أؤكد اننا، نحن المسيحيين العرب، ملتحمون التحاما عضويا بالمجتمع الذي أسهمنا في بنائه وتكوينه... مؤكدين أيضا بأننا على الصعيدين العلماني والكنسي لا نقل ضراوة وشراسة في محاربة الصهيونية عن احد ابناء امتنا، قيادة وقاعدة واحدة في وجه كل غزوة أرادت أن تنال من أرضنا وكرامتنا وعزتنا".

لقد برهن هذا الفدائي المسيحي على أقواله بدمه إذ استشهد من اجل فلسطين في الغارة الإسرائيلية على بيروت في ١٠ نيسان ١٩٧٣. وليس **كمال بطرس ناصر**، ابن بلدة بيرزيت الفلسطينية، الشهيد المسيحي الوحيد الذي يموت لتحيا فلسطين.

وهناك أسماء مسيحية أخرى يحتل بعضها مراكز قيادية، فكرية أو قتالية، أمثال **نايف حواتمة**: الأمين العام للجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين، **وجورج حبش**: رئيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، **وجاكلين خوري**: ممثلة فلسطين في مؤتمر المرأة الافريقي الاسيوي في الصين (٧٢/٨/١٣)، **والفدائيتان تيريز اسحق هلسة وريما عيسى طنوس** اللتان أجبرتا طائرة بلجيكية على النزول في مطار اللد (٨ أيار ٩٧٢) وقد حكم عليهما بالاشغال الشاقة المؤبدة. وغيرهم كثيرون ...

أما الأكثرية منهم، فسيبقون مجهولين، لأنهم اختاروا الالتحام الصامت الخفي بفصائل الكفاح، جنودا مجهولين لتحرير الأرض المقدسة وفدائها.

●

يعزى إلى موشي دايان هذا القول: "الذي سيهزم العرب أخيرا جنرال اسمه الملل". انه مخطئ وإنما خطأ. فأصحاب الحق هبوا ولن يستكنوا إلى أن يعودوا، وتكلموا ولن يسكتوا بعد، ورفعوا أصواتهم ولن يهداوا إلا وهم في بيوتهم. لقد حملوا سلاح الأمل والصمود ولن يملوا من الصمود والرجاء لان النصر للصامدين.

(ملف حزيران ١٩٧٣ / ج٢).

المسيحي والسينما

الاب فرنسيس فان ستابن راهب بلجيكي يشرف على البرامج السينمائية التي تعرض في مركز القديس يوسف الديني للشباب في بغداد، ويدير النقاشات النقدية التي تعقب عرض الافلام، لبناء رأي شخصي لدى الشباب في الافلام وتقييمها فنيًا وأخلاقيًا ومسيحيًا. وصدر عن هذه النقاشات باشرافه نشرة نقدية دورية عن الافلام المعروضة هناك.

ان للسينما دورًا هامًا ومتزايدًا في حياة الناس، فهي أداة تثقيف جماهيري وتسلية في الوقت نفسه، وهي تزرع في المشاهدين، دون علمهم، ذهنية خاصة وتؤثر في اخلاقيتهم وأحكامهم. لذا توجهت "الفكر المسيحي" الى الاب فان ستابن، لما له من خبرة واختصاص، وطلبت اليه ان يوافي قراءنا بدراسة موضوعية عن موقف المسيحي ازاء السينما، وقد لبى طلبنا مشكورًا.

نثبت هذه المقدمة التي كانت قد تصدّرت مقال الاب فرنسيس الذي رقد عام ١٩٩١ (انظر ما كتب عنه في كتاب "كتاب رحلوا" (مختارات الفكر المسيحي/ ٩).

اننا باختيارنا هذا العنوان نحدد الموضوع تحديدًا ملحوظًا.

لا شك ان السينما فن، وفن له خصائصه. انه يعيد الحركة والحدث بصورة جمالية، مستعينًا بتعابير فنية اخرى، كالصورة والموسيقى. وللسينما جانب تجاري ايضًا، بالغ الاهمية، لان انتاج فيلم ما يتطلب أموالاً طائلة، يجب ان تعود الى منتجه مع ربح.

ولكن لندع ذلك جانبًا، ولنحلل موقف مسيحي يقصد فيلمًا لمجرد ان ذلك يستهويه، ويصرح بعفوية تامة ان لا صلة لهذا الفيلم بايمانه، اللهم إلا اذا احتوى على مشاهد مثيرة. تفكير خاطئ، لأن للفيلم تأثيرًا، حتى اذا لم يحتو على مشاهد مثيرة. والافكار التالية، انما تهدف الى توضيح ذلك. هذا وأخاف ألا تكون تلك الاراء وليدة عقلية تحتفظ بالايمان للساعات التي تقضى داخل الكنيسة، او وليدة لا مبالاة سافرة تجاه الحياة المسيحية. وكلتا العقليتان تناقضان الحياة المسيحية السليمة. ان المسيح لا يرضى بأتباع فاترين، وقد صرح بذلك في الانجيل، كما وانه يرفض القائلين: "يارب، يارب" ولا يحيون بمنطق هذا القول. فالمسيحي الذي يذهب لمشاهدة فيلم، يشاهده بصفته مسيحيًا. الأمر واضح. فالسؤال المطروح هو هذا: هل هذا الفيلم يدعه لامباليًا بالنسبة الى ايمانه، أم يجعله أفضل او أسوأ مما كان؟

في ظني ان الخطوة الاولى لتوجيه المسيحي الى تقييم الأفلام، لم تتم بعد في العراق، وقد بات لزامًا علينا التفكير بذلك. والى ان نبلغ هذه المرحلة، فكل شيء متروك لضمير المسيحي العراقي ولذوقه السليم الذي عليه ان يحدد ما اذا كان الفيلم مناسبًا له ام لا. واعرض هنا بعض المبادئ لصوغ فكرة مسيحية شخصية عن قيمة فيلم ما.

الموقف الأدبي حيال الفيلم

١ - الافلام في مضمونها الادبي:

اننا نقصد فيلمًا لتغيير أفكارنا وقضاء بعض الساعات الهنيئة. هذا صحيح، بل ان الفيلم مهيأ بصورة خاصة لذلك؛ كل الانوار تطفأ في القاعة وكأنها تقول لنا: انسوا الآن حياتكم وهمومكم، استرخوا وتابعوا القصة التي سنعرضها عليكم. وهكذا، ومن دون جهد يذكر، ترون انفسكم في عالم آخر.

أجل، ولكن هذا العالم يمس عالمكم الخاص الذي تعيشون فيه في الواقع، وليس من الصعب البرهان على ذلك: خذوا هذا المشاهد الذي ترك القاعة بعد مشاهدة فيلم "سيسي" وهو يقول: "عندما يشاهد المرء ذلك يرى نفسه مستعدًا للصفح عن جميع اخطاء القريب". لقد تأثر بالفيلم ايجابيًا. ومن جهة اخرى، كم من فتى ترك قاعة السينما وقد ارتبك ضميره بصورة جدية لأنه رأى مشاهد مثيرة.

فلهذه التسلية التي تشغل بعض الوقت، اذن، تأثير ادبي؛ وبوسع المسيحي ان يحاط لهذا التأثير المخرب بواسطة روح نقدية صحيحة، وعليه ان يقرر هو بنفسه، حتى وإن كان ذهابه الى السينما لمجرد التسلية، ما اذا كانت القيم المعروضة على الشاشة صحيحة أم خاطئة.

٢- المواضيع التي تعالجها السينما

يصعب علينا ذكر موضوع لم تتطرق اليه السينما. ففيها الغدر، والجريمة، والاغتصاب، والخيانة، والبخل، والزنا، والبغاء، والشذوذ الجنسي، والحقد، والظلم، ومشاكل التربية، والدين الخ...

وغني عن القول ان جميع هذه المواضيع لا تناسب الجميع. ولكن هل منعت الكنيسة يومًا بحث هذه المواضيع؟ كلا، فلا رسائل البابوات الكبرى التي تحدثت عن السينما، ولا توجيهات بيوس الثاني عشر العديدة، ولا المجمع الفاتيكاني منع معالجة موضوع ما بصفته موضوعًا للدراسة، إنما الذي يرغبونه هو التقييم الادبي؛ بكلمة اخرى ما ينبغي التوصل اليه هو معرفة كيف عولج الموضوع، ومع أية فئة من الناس يتناسب. ويركزون أيضًا على ان هذا التقييم قد يختلف بين بلد واخر، لأن حساسية كل بلد تختلف عن الآخر أمام الحدث الواحد. لذا كان من غير الممكن اصدار تقييم يطبق على الكنيسة جمعاء. فالمجمع الفاتيكاني طلب ان تقام في كل بلد لجان مسيحية تقيّم الافلام أدبيًا، وبوسع هذه اللجان الوطنية ان تطبق الأسس العامة التي تعتمدها الكنيسة مع مراعاة حاجات شعوبها وحساسيتها.

ان فيلم "ايروتيسيمو" يقدم لنا مثالاً بارزًا لهذا التباين. فالفيلم يبحث بصورة ساخرة الموجة الجنسية في اوربا، ويسخّف التهافت المفرط على الجنس. فالمشاهد الاوربي قد يتأثر ايجابيًا بهذا الفيلم حيث يكتشف الدور المفرط الذي تحتله الامور الجنسية في مجتمعه. أما في العراق، فالعكس هو الصحيح، لان المشاهد العراقي لا يفهم شيئا من ماجريات الفيلم، لان

مجتمعه لم يغرق بعد في موجة الجنس السافر. فالخطر هو، اذن، ان لا يلاحظ من الفيلم إلا سلسلة من المشاهد السمجة، دون ان يفطن الى الصلة بينها. لذا كان ينبغي الاحتياط من هذا الفيلم في العراق اكثر مما في اوربا.

فلا يجوز، اذن، إصدار حكم على فيلم ما لمجرد الموضوع الذي يعالجه، انما ينبغي ان يحكم على الفيلم نظرًا الى طريقة بحثه الموضوع، والروح التي تهيمن عليه، ذلك لان المشاهد سيتأثر بهذه الروح، اكثر مما بالموضوع المطروح.

٣- طريقة بحث المواضيع

انه من الاهمية بمكان، عندما نصدر حكمنا في فيلم، ان نميز بين الجو العام للفيلم وبين بعض المواقف المنفردة التي تتخلله، اذ لا يمكن شجب فيلم بكامله من جراء هذه المواقف المنفردة، مثال ذلك فيلم "بيكيت" حيث يقف الملك الانكليزي، في احد المشاهد، موقفا متحررا الى حد ما مع نساء فرنسا.

قد لا نستطيع ابداء الاستنتاجات نفسها، وبالوضوح نفسه، لافلام اخرى، لا سيما اذا ضمت عددا كبيرا من "المواقف المنفردة"، بحيث تطغو على بقية الفيلم، مما يستدعي اخذها بعين الاعتبار، وبجدية، انذاك.

والفيلم الذي يقتضي تطبيق هذين المبدأين عليه -وأعني بهما: ١) عدم الحكم على الفيلم من خلال بعض المواقف المنفردة، و ٢) ما اذا كان يبالغ في "المواقف المنفردة"- هو فيلم "حسناء النهار": موضوع الفيلم يدور حول مرض نفساني لامرأة شابة ترفض الحياة الجنسية مع زوجها، لانها حرمت حقوقها منذ حداثتها. وزوجها الذي يجهل الامر يعاملها بلطف، بينما يظهر ان المرأة الشابة كانت تحتاج الى مزيد من العنف لكي تقطع مع ماضيها، ولما لم تجده عند زوجها، بحثت عنه في ماخور. فعندما يشاهد المرء الفيلم بتمعن يستطيع ان يتابع التطور النفساني للمرأة الشابة ويستنتج انه كان بامكان الصراحة الحقيقية بين الزوجين ان توفر على الزوجة الشابة الاكراه الانساني الذي فرضته على نفسها في اختيار هذا الحل الاهوج. فالفيلم يحتوي، اذن، في موضوعه بالذات، على جو شهواني؛ والخطر هو ألا يصل الكثيرون الى النضوج التقييمي، ليلتقطوا المعنى الحيقيقي للفيلم، فيتوقفون، من ثم، عند المواقف الجنسية العديدة المنثورة في الفيلم. لقد كان يلزم ان يحفظ الفيلم لبالغين، بل للبالغين القادرين على متابعة الموضوع، وهذا التقدير صحيح بالنسبة للعراق حيث لم تتعرض البيئة بعد لهذا الفساد، وحيث يقل وقوع هذه الحالات مما في اوربا.

هذه المواضيع تقودنا الى السؤال التالي: كيف تبحث السينما موضوع الخطيئة؟ (تحت جميع اشكالها: الكبرياء، الجريمة، الخيانة الزوجية...). لنأخذ مثلا خطيئة القتل: كثير من الافلام البوليسية، لا سيما افلام رعاة البقر الايطالية، تجعل القتل يتكرر بالعشرات، والحال ان القتل خطيئة. بينما تقدمه هذه الافلام كشيء عادي بالنسبة الى بطل الفيلم. انه غير كاف ان يهلك المجرم في نهاية الفيلم لكي يكتسب الفيلم جانبا اخلاقيا، بل عليه ان يعكس الاحترام الواجب للحياة البشرية؛ واذا هو لم يعكس ذلك، فيجب اعتباره مضرا.

وقد يظهر هذا الاحترام من وجهة نظر سلبية كردة فعل مناوئة. ففي فيلم "القطة والاسرار التسعة"، مثلا، ترتكب جرائم القتل بصورة مؤسفة. اجل، يبقى القتل مظهرًا من مظاهر العنف -مما يدع الباب مفتوحا للنظر اليه بمنظار مغاير- الا انه يعكس جسامة الجريمة ويثير لدى المشاهد مشاعر الاستنكار ضد المجرم. ان عنف جرائم القتل نفسها تجعلك تشعر بان المجرم اقدم على ارتكاب خطيئة، وبان هذه الخطيئة هي عمل انساني! لذا فمثل هذه الافلام تفضل على الافلام "الكانكستر" التي تكدّس القتلى دون اثارة اية ردة فعل... لا لشيء الا لان القتل امر طبيعي لدى هؤلاء الاشقياء.

وكذلك الامر بالنسبة الى سائر الخطايا، اذ يجب على المشاهد ان يتساءل موضوعيا ما اذا كان تصرف بطل الفيلم صحيحا من الناحية الاخلاقية، فلا يجوز ان ينساق مع ميله نحو هذا البطل.

٤- جرثومة القيم المغلوطة

ان اخطر ما تبطنه الافلام هو المفهوم الخاطئ الذي تقدمه عن الحياة الواقعية. فمن شأن الفيلم ان يعكس شيئًا من الحياة حسبما يحياها بطله. فعلى المشاهد أن يرى اذا كان تصرف هذا البطل يشكل قيمة صحيحة حقًا. فمشاهدة فيلم لمجرد القصة، ما هي إلا طريقة صبيانية لمشاهدة فيلم ما، والفيلم الذي لا يقدم سوى قصة مجمعة من الجهات الاربع هو فيلم فاشل. ان الفيلم اليوم يعكس دومًا قيمًا انسانية عميقة. صحيح ان هناك افلامًا قيمة لا تلقى تشجيعًا لدى الجمهور لانها تحتوي على "تسلية" كبيرة، ولكن، إن صح الذهاب الى السينما لمجرد نسيان "جدية" الحياة، فصحيح ايضا ان المرء بوسعه ان "يتسلى" بطرق شتى. فالفنان يشعر باللذة امام قطعة فنية، بينما يستسمج الاعمال الجوفاء التي تخلق فيه شعورًا بعدم الارتياح عوض عن أن تسليه. وكثير من الافلام التي لا تجني "إلا دمعة وضحكة" تزجنا في الملل اكثر مما في شعور من الراحة.ولكن لنعد الى الجانب الاخلاقي والانساني للتسلية التي ننالها بمشاهدتنا فيلمًا.

بامكاننا ان نفهم ان فيلما كفيلم "بيكيت"-حيث نشهد صراع قديس من اجل شرف الله- يقدم للمشاهد المسيحي تسلية حقيقية، انه يرتاح امام فيلم من هذه الخامة، لانه يرى مسيحيا مثاليا، ولان هذا المسيحي يضع علامة استفهام امام حياتنا الشخصية نفسها ويهزنا قليلا، لانه يؤنبنا على لا مبالاتنا. الا ان هذه الهزة هي في صالحنا: فهل يحق لأحد ان يلقي السلاح في جهاده من اجل حياة دينية اكثر عمقا؟ انه لموت للمسيحية ان يكتفي المسيحي بحياة خاملة ذات مستوى ديني واطئ. لقد قال أحدهم: ان فيلما جيدا يساوي رياضة روحية. وهذا ما حدث بالفعل: فالهزة التي شعر بها مشاهدو فيلم "بيكيت" لم تمنعهم من استحسان الفيلم. لنلق نظرة على القيم الخاطئة:

أ- **العنف**: القتل من دون مبرر، من اجل "شرف" لا يمت الى الشرف بصلة، او لان الضحايا كانت تزعج البطل العزيز: هذا ما يحدث خاصة في افلام "الاشقياء" الاميركية (الكانكستر) ورعاة البقر الايطالية.

ان اقل ما يمكن قوله في هذه الافلام هو ان ابطالها يعيشون في عالم اناني، حيث لا حق لغيرهم في الحياة، الا بمدى بعدهم عن طرقهم. فهذه الافلام تخلق عالما خياليا تملك فيه شريعة الاقوى.

ب- **الانسياق العاطفي وراء حياة لذيذة وملتوية:** لقد درجت العادة ان ينتهي الفيلم بنهاية حسنة، لكي يشعر المشاهد بالارتياح اخيرا، ويسترسل الى التخدير اللذيذ الذي يتذوقه المواطن "الشريف". هذا ما يحدث عادة بالرغم من محاولة بعض المخرجين، في السنين الاخيرة، في الابتعاد عن التقليد، دون ان ينجحوا دوما. فبحسب هذا المنطق يجب معاقبة الشر، ولا بد من حل لمشاكل العائلات المجزأة، الا ان هذه النهايات قد تحتاج الى مناقشات، لان تقديمها بهذا الشكل بعيد عن الواقع. واكثر من ذلك هو ان هذا التعويض "المعقول" الذي يدفعه المخرج لرأي الجمهور يتم في شبه معجزة: فالاسر تجتمع على اثر حادثة اصطدام، في نهاية الفيلم، فيها يلقى الخصم حتفه، ويزج الزوج المخطئ مضرجا بدمائه في المستشفى حيث تأتي زوجته لزيارته فيدرك الرجل من جديد اية زوجة يملك! ويكون بكاء وتكون مصالحة! وسؤالنا هو: أما كان بالامكان أن تتم المصالحة بفعل تحليل ذهني لدى المشاهد دون اللجوء الى حادثة سيارة؟

ان غالبية الافلام المصرية التي تعرض على شاشة التلفزيون تقع في هذا الخطأ. والخطأ الآخر الذي لا يقل جسامة بشأن هذه المصالحة المفروضة فرضًا، هو الطلاق السهل الذي يقدم كحل طبيعي. فالفيلم يرسم للزوجة صورة امرأة لا تطاق، ويضفي كل العذوبة على منافستها؛ لذا كان من الطبيعي العيش بجانب المرأة التي تريد لنا كل الخير. ولكن مثل هذه الافلام لا تعكس الا صورة سطحية لطبائع المرأتين، ففي الواقع ليست الاولى شريرة الى تلك الدرجة، ولا الثانية لطيفة الى هذا الحد. فقد كان بوسع الاتفاق ان يتم، في معظم الاحيان، لو امتلك الاثنان قسطًا من بعد النظر والاقتناع بعدم انحلال الزواج.

ج- **تقديم الخطأ وكأنه آت من المجتمع، ولا موضع للمسؤولية الشخصية فيه:** في هذا النوع من الافلام، يحاول المخرجون التقليل من جسامة الخطأ الشخصي والالقاء به على عاتق المجتمع أو "العقلية المعاصرة". ونجد ذلك في الافلام التي تعالج الجريمة لدى القاصرين، حيث تلقى التبعة على الوالدين أو المجتمع عامة، وقد عبر الفتيان عن رفضهم اياه بتمردهم.

ولكن الخطأ يبقى خطأ شخصيًا، ويمكن مناهضة المجتمع دون اللجوء الى تحطيم الزجاج!

د- **ماذا عن الجنس في الافلام العصرية؟** هل يجب وضع الجنس أيضًا مع القيم الخاطئة؟ أجل، والى حد كبير، ذلك لان افلامًا كثيرة تضع الجنس في مقام لا يملكه مطلقًا في الحياة الواقعية، لذا كان قيمة خاطئة. وهناك افلام اخرى تقحم مشاهد جنسية في قصصها، لا لشيء الا لمداعبة اذواق الناس، ولجعل الفيلم صفقة تجاربة. ان هذه الافلام تستغل الغرائز الانسانية، لا أكثر ولا أقل، ولا تعطي للجنس معناه، لذا كانت خاطئة.

أجل، ان للجنس دورًا مهما في الحياة، وليس من الطبيعي أن ننكره، أو نتجاهله بجعله "موضوعًا ممنوعًا". فالعقلية المعاصرة (وليست الافلام سوى تعبير عنها) حطمت هذا المنـــع، وسقطت في الوقت نفسه، وبصورة لا مرد منها تقريبا، في خطر وضع الجنس في كل مكان.

لنأخذ هذه الاسس ونرى ان كان الجنس في السينما يشكل "قيمـــة خاطئـــة" أم لا: عندما يبالغ الفيلم بتقديم الجنس على الشاشة بمثابة القيمة الصحيحة الوحيدة في واقع الحياة، فهو خاطئ بالتأكيد. واذا اضيفت مشاهد جنسية لا علاقة لها بالقصة، فبوسعنا ان نلقـــي بالتبعة على المبالغات الرجعية التي يستغلها تجار السينما لمنفعتـــهم الشخـــصية، واعتبارهـــا إقحامًا، ليس الا، شريطة أن يبقي المخرج على معاني الاحترام. الا ان هناك افلاما تستعرض المشاهد الجنسية، لان موضوع الفيلم يتطلب ذلك، بينما كان موضوع مشابه يدرس قبـــل عشرين عاما من دونها. ولكن هل كان ذلك أفضل؟ لقد كانت الحالة كذلك لان عقليـــة الحشمة المفرطة كانت تستسمج هذه المشاهد، أما مجتمع اليوم -لا سيما في اوربا واميركـــا من حيث تأتينا معظم الافلام- فقد تخطى هذه الحشمة المفرطة، وأعلن قبولـــه للمـــشاهد المرفوضة قبل عشرين عامًا، لذا صورت الافلام مع تلك المشاهد.

ولكي يُبَتّ في فيلم، يجب النظر الى موضوعه العام، وليس فقط الى بعـــض مـــشاهد جنسية. فاذا توقف مشاهد بالغ لدى هذه المشاهد المنفردة الى درجة اهمال الموضوع العام، فهو بعد في مرحلة الحشمة المفتعلة، ولا اظن ذلك في صالح حياة انسانية صحيحة، بـــل ولا في صالح حياة ايمانية صحيحة، لان في هذه الحشمة المفتعلة خطر الفصل بين حياة الايمـــان والحياة الواقعية التي "تلامس كثيرًا خطيئة الدنس"، بحسب ادعائهم. والحال ان الجنس ليس دنسًا في حد ذاته، أي انه لا يشكل خطيئة في حد ذاته، فقد اخطأ مـــن وضـــع الجـــنس والخطيئة في زنبيل واحد. لنأخذ، إذن، الطريق الوسط بين الحشمة المفرطة والافراط.

حالة السينما في العراق:

في العراق ٧٠ صالة سينما، ٢٥ منها في بغداد، يضاف اليها الصالات التي لا تعمـــل الا صيفا. ويجدر بالاشارة الى ان محافظة كربلاء لا تملك صالة سينما.

يستورد العراق في كل سنة ٣٥٠ فيلما، معظمها من ايطاليا، ثم تأتي بعدها فرنـــسا، فمصر، فالهند وانكلترا؛ إلى جانب الافلام التي تأتي من لبنان وتركيـــا وروســـيا واليونـــان واسبانيا. اما روسيا ومصر (وانكلترا ايضا)، فتقدم الافلام التاريخية بنوع خـــاص. افـــلام التجسس تأتينا من ايطاليا وفرنسا واسبانيا. بينما تأتي الافلام البوليسية من انكلترا وفرنـــسا وايطاليا. اما افلام رعاة البقر (الكاوبوي)، فمن ايطاليا وفرنسا واسبانيا؛ وافرام الرعب من انكلترا وفرنسا، وافلام الفكاهة من انكلترا وايطاليا ومصر ولبنان والهند. وفي بغداد وحدها يدخل قاعات السينما كل يوم ٣٠ الف مشاهد، ويقدر عددهم في كافـــة انحـــاء القطـــر العراقي بمئة الف مشاهد كل يوم.

ولكن ماذا يقدم لهؤلاء المئة الف مشاهد يومي، لكي يبنوا لهم فكـــرة صـــادقة عمـــا يشاهدون؟ شيء ضئيل جدًا. لاننا لا نستطيع القول ان صحفًا "كالموعد" أو "الـــسينما" أو "الكواكب" أو "الشبكة" تحمل قيمة تثقيفية سينمائية، لانها تتم بالدرجـــة الاولى باخبـــار الممثلين الشخصية، بما فيها من مآخذ وظلال، واننا لا نستطيع ان نثق باستقامتها الاخلاقية. وعلى علمي ان مجلة "المسرح والسينما" هي الوحيدة في العراق التي تحمل قيمة ادبية في هذا المضمار، إلا انها لا تظهر إلا أربع مرات في السنة، وتمر من دون ان ينتبه اليها احد. إلا انه من دواعي السرور ان تقارير نقدية عن الافلام تظهر بصورة اكثـــر تـــواترًا في الـــصحف اليومية: فعلى الفيلم العراقي "الظامئون" تجد مقـــالا في جريـــدة الجمهوريـــة، في عـــددي ١٩٧٢/٩/٣ و ١٩٧٢/١٠/٢، وفي جريـــدة التـــآخي، في عـــددي ١٩٧٢/٩/٢٧ و ١٩٧٢/١٠/١٢ (وفي "الرسالة" الموصلية وغيرها). ان هذه المقالات ذات اهمية كبيرة، لانها تعكس رأي شخص فكر قبل ان يحرر نقده، وحتى ان لم نتفق معه في الـــرأي، فـــصاحب المقال يدفعنا، على الاقل، الى اتخاذ موقف شخصي. وبالاضافة الى ذلك، كنـــا نـــتمنى ان تحمل الصحف في بدء كل اسبوع صفحة كاملة عن الافلام المعروضة مؤخرًا، انها لواســـطة فعالة للثقافة العامة.اما بالنسبة الى الثقافة المختصة، فقد أخذت بعض المدارس، وخـــصوصًا بعض النوادي التربوية، تهتم جديًا باعطاء ثقافة سينمائية بعرضها افلامًا يعقبها نقاش.

ولكن الاعلام المسيحي عندنا في هذا المضمار معدوم، مع الاسف، والسبب الرئيسي هو افتقارنا الى نشرة يومية، وحتى اسبوعية مسيحية عن الشؤون السينمائية في بلدنا. نشير بان في لبنان مجلة "السينما في اسبوع". وفي مصر صحيفة اسبوعية مسيحية تدعى "لمساجيه" (الرسول) تحمل في كل عدد تحقيقا عن فيلم واحد، على الاقل.

الخاتمة: ولكن ماذا بوسعنا ان نعمل الان؟ ان الخطـــوة الاولى هـــي في اقامـــة نقاشات سينمائية مع الشبيبة. واذا لم يكن المعنيون يملكون بعد ثقافة كافية لمناقشة مواضيع سينمائية من الناحية الفنية، فبوسعهم ان يناقشوها من الناحية الانسانية والادبيـــة. ويمكـــن تحقيق ذلك بصورة خاصة في صفوف الشباب المسيحي في الاخويات وكذلك في المـــدارس التي تأخذ المبادرة الحميدة في مشاهدة الافلام سوية ومناقشتها جماعيـــا. واذا توصـــلنا الى اطلاق هذه المبادرة وتوسيعها، فلسنا بعيدين عن ثقافة سينمائية اكثر اتساعا بين الجماهير. فحيث يتحقق شيء، تأتي المبادرات الجديدة من ذاتها، ففي بغداد، مثلا، ننشر كراسا شهريا في مركز القديس يوسف يحتوي على مقالات حول الافلام المعروضة في المركز، والـــشباب يناقشون هذا الكراس ويبدون اراءهم فيه ويحاولون تطويره. لا شك اننا لا زلنـــا في طـــور حبة الحنطة المطمورة في التراب؛ ولكن إذا كان ثمة مزيد من هذه الحبوب، لنمـــا الـــزرع اكثر واثمر!

- كنيسة فرنسا

كانون الثاني/ ص٢٥-٣١ الاب جان فيليب لاشيز[1]

- قضية الوحدة المسيحية في نظر احد اقطابها

شباط/ ص٦٨-٧٥ الاب دوبري

- كنيسة سيرالنكا

اذار/ص١١٣-١٢٠ نجيب فاقو

+ معهد مار يوحنا الحبيب

نيسان/ص١٥٨- ١٦٥ الأب افرام سقط[2]
والأب جرجس القس موسى

+ هل نحتاج بعد إلى راهبات

ايار/ ص٢٠٣ - ٢٠٩ الاب خليل قوجحصارلي

+ المسيحيون وفلسطين/ ٢[*]

حزيران/ ص٢٤٧ — ٢٥٧ الاب جرجس القس موسى

- استطلاع في الزواج/١

ايلول/ ص٢٩٤ - ٣٠١ نجيب فاقو

- استطلاع في الزواج/٢

تشرين الاول/ ص٣٣٧ - ٣٤٤ نجيب فاقو

- كاهني، هكذا أراه وهكذا أريده

تشرين الثاني/ ص٣٨١ - ٣٨٧ الاب جرجس القس موسى

+ مفهوم الثورة في الفكر المسيحي المعاصر

كانون الاول/ ص٤٢٤ - ٤٣٠ الاب عبد السلام حلوة(+)[3]

(*) الجزء الثاني من الملف دمج مع الجزء الاول: ت٢ ١٩٧٢.

(١) للاب جان فيليب لاشيز الدومنيكي ٦ مساهمات من بينها هذا الملف، وبضمنها إجابة.

(٢) هذا الملف هو اولى مساهمات الاب افرام سقط الدومنيكي، وقد بلغت ٤٩ مساهمة (من بينها ٧ ملفات)، وبضمنها ٥ إجابات و١٠ "من وحي الانجيل"؛ وقد نشرت له ٤ مقالات في "المختار".

(٣) كان للاب عبد السلام حلوة الدومنيكي (+١٩٨٣) ٦٠ مساهمة (من بينها ١٠ ملفات)، وبضمنها إجابة واحدة، و٣٣ في باب "ابت هذه مشكلتي" على مدى ٤ سنوات (وقد جمعت في كتاب بالعنوان ذاته عام ٢٠٠٤)؛ نشرت له ٣ مقالات في "المختار" و ٥ مقالات في "كتاب رحلوا" (١٧–٥١). كان في مقدمة اعضاء هيئة التحرير الاستشارية في بغداد.

معهد مار يوحنا الحبيب

"في الموصل معهد اكليريكي لإعداد الكهنة، عمره ٩٥ عاما، قدم للكنيستين الكلدانية والسريانية زهاء مئتي كاهن. ومن تلامذته بطاركة واساقفة رعوا كنائسهم في أدق مراحلها، وبثوا فيها الحياة والطموح وبنوا أمجادها بعلمهم وإدارتهم وبعد نظرهم وفضيلتهم... والمع هؤلاء التلاميذ الذين يفتخر بهم، المثلثا الرحمات البطريركان مار يوسف السابع غنيمة بطريرك بابل على الكلدان من ١٩٤٩- ١٩٥٨، (ولد في الموصل عام ١٨٨١وسيم كاهنا عام ١٩٠٤ وأسقفا عام ١٩٢٥)، والكردينال جبرائيل الأول تبوني بطريرك السريان الإنطاكي من ١٩٢٩- ١٩٦٨، (ولد في الموصل عام ١٨٧٩ وسيم كاهنا عام ١٩٠٢ وأسقفا عام ١٩١٢ وكردينالا عام ١٩٣٥)".

بهذه الكلمات قدم آنذاك هذا المعهد الكهنوتي السرياني- الكلداني، بادارة الاباء الدومينيكيين؛ وقد برز في الادارة الاب يوسف اومي قرابة ٤٠ عامًا وتخرج على يده العديد من الكهنة... ورقد عام ١٩٧٤ في كنيسة الاباء بالموصل -وقد خصّته الفكر المسيحي بمقال (آب- ايلول ١٩٨٩).

• نظرة تاريخية

يرقى تأسيس معهد مار يوحنا الحبيب الكهنوتي إلى عهد مجيء الآباء الدومينيكيين الفرنسيين إلى الموصل عام ١٨٥٠.

ولما تسلم الأب دوفال الرسالة الدومينيكية، فاتح قداسة البابا بيوس التاسع، في مقابلة له معه عام ١٨٧٣، بهذا المشروع. وبعد أربع سنين من هذه المقابلة، أعلن الأب دوفال في ٢٧ من كانون الأول سنة ١٨٧٧ عن قراره بفتح معهد اكليريكي لطلبة المعهد البطريركي الكلداني الذي تأسس عام ١٨٦٦ وتوقف في الفترة من ١٨٧٣-١٨٨٢. وافتتح المعهد المذكور في العاشر من كانون الثاني ١٧٧٨ واستقبل أربعة تلامذة عهدت تربيتهم إلى الأب كورماشتيك، وبذلك أصبح أول مدير للمعهد.

لقد جاء تأسيس المعهد، كما أدلى الأب الو الدومينيكي في مقال عن المعهد (نشره عام ١٩٠٤ في مجلة "السنة الدومينيكية")، تلبية لحاجة كنيسة العراق الى كهنة ينهضون بها ويبثون فيها العمق الديني والوعي. وقد ساند الكرسي الرسولي هذا المعهد منذ مراحله الأولى، كما جاء في رسالة قداسة البابا لاون الثالث عشر إلى رئيس مدارس الشرق في غروب القرن الماضي، جاء فيها:

إننا واثقون من أن أية امة، وبصورة خاصة الأمم الشرقية التي تحاول إعادة أمجادها الأولى، لن تعيدها ما لم يسر الاكليروس في رأس القطيع. إننا نريد أن يتطور المعهد الذي أنشاه الآباء الدومينيكيون في الموصل لكي يستقي الاكليروس من منهله التقوى والعلم حسب حاجات العصر والمكان. ورغم العبء الذي يثقل على كاهل الكرسي الرسولي، فإننا نساند هذا المشروع ماديا لكي تتحقق هذه الأمنية" (١٨٨٢)

وسرعان ما تفرعت النواة الأولى حيث ارتفع عدد الطلبة عـــام ١٨٨٠ إلى عـــشرين طالبا ينتمون إلى أبرشيات مختلفة، ١٣ كلدانيا و ٧ سريان، أي بنسبة ثلثين للطلبة الكلدان وثلث للسريان؛ وسوف يحافظ المعهد على هذه النسبة، نظرا لتفوق الكنيسة الكلدانيـــة في العراق من حيث العدد والمناطق على شقيقتها السريانية. وقد قدم المعهد، باكورة ثماره، ستة طلبة إلى الرسامة الكهنوتية سنة ١٨٨٩، خمسة منهم كلدان وهـــم: المطـــران أدي شـــير (شقلاوة) مطران سعرد – تركيا، والقس ايليا عيسى (الجزيرة - تركيا) -وقد استـــشهدا كلاهما سوية عام ١٩١٥- والخوري يوسف طويل (الموصل) + ١٩١٩، والخوري يوسف (همزية- العمادية) +١٩٤٣، والخوري افرام اسطيفان (تلكيف) + ١٩٥٤، وواحد سرياني هو القس ابلحد هنام (بعشيقة) + ١٩٠٧.

ولكن سرعان ما ظهر شبح الحرب العالمية الأولى التي عبثت بالبلاد، فاضـــطر الآبـــاء الدومينيكيون على مغادرة الموصل عام ١٩١٤ وأغلق المعهد. إلا أن الطلبة الاكليريكيين لم يتشتتوا؛ فقد استقبلت البطريركية الكلدانية الاكليريكيين الكلدان في معهدها الانف الذكر وتابعت تثقيفهم، بينما توجه الاكليريكيون السريان إلى دير مار هنام الشهيد لاســـتكمال دراستهم. وبالرغم من هذه الفترة المضطربة، فقد ارتقى عشرة اكليريكـــيين إلى الدرجـــة الكهنوتية بين ١٩١٤ و ١٩٢٣.

وابان الحرب، استشهد اثنا عشر من تلامذة المعهد القدامى على يد الأتـــراك، بينـــهم مطران سعرد الشهير ادي شير وعشرة كهنة وطالب اكليريكي. وبعد الحرب، افتتح المعهد أبوابه من جديد في العاشر من أيلول سنة ١٩٢٣، وكان عدد الطلبة بعدد الرســـل الاثـــني عشر. وارتقى اكليريكيان إلى الدرجة الكهنوتية في أول رسامة كهنوتية بعد الحرب ســـنة ١٩٣٥. ومنذ هذا التاريخ، خطى المعهد خطوة حاسمة في تاريخه وبـــدأ مرحلتـــه الذهبيـــة بتخطيط وهمة. فسنت القوانين والأنظمة التي كفلت التربية الواعية للتلاميذ والإعداد العلمي والروحي واللاهوتي المتطور، وأمست مدة الدراسة تمتد على اثنتي عشرة سنة، ست منها في الاكليريكية الصغرى للعلوم الإنسانية واللغات، وست في الاكليريكيـــة الكـــبرى، اثنتـــان لدراسة الفلسفة وأربع للدراسة اللاهوتية.

• معهد "سيرو - كلداني"

ليس من الصدف أن يضم المعهد، منذ تأسيسه، تلامذة مـــن الطـــائفتين الكلدانيـــة والسريانية، إنما تم ذلك عن قصد ووعي لطبيعة العمل الرسولي والحياة المسيحية في العـــراق ورغبة في عدم بعثرة الطاقات عبثا. لقد أُنشئ المعهد، كما أراده الكرسي الرسولي وبُناتـــه الأولون لترسيخ التلاحم والتعاون بين الاكليريكيين وتوجيهها نحو بناء المسيحية الواحـــدة. وانه لغنى عظيم لكنيستنا أن تتكامل بفضل طاقات الطائفتين وثرواتهما الروحيـــة والعلميـــة والبشرية. إلا أن هذا التوحيد لم يهمل يوما الشخصية المميزة لكل كنيسة، فقد عمل المعهد منذ تأسيسه على إعطاء كل فئة الثقافة الليتورجية والكنسية الخاصة بها. ويؤمّن خدمة المعهد

الطقسية كاهن دائم لكل طائفة، ويقضي الفريقان الصلاة الفرضية كل حسب طقسه، أما القداس فيتناوب عليه الطقسان ويشترك الجميع به سوية. وغني عن القول ما في ذلك من غنى متبادل وانفتاح فريد على تراث الكنيستين الشقيقتين وتحسس بالقضايا الرسولية الواحدة.

وقد أعرب رؤساء الكنيستين المتعاقبين عن امتنانهم وتأييدهم للمعهد. ونورد هنا للتاريخ رسالة غبطة البطريرك اودو إلى مدبر الرسالة الدومينيكية عام ١٨٧٨ لدى تأسيس المعهد هذا نصها:

"يطيب لنا منذ علمنا بتأسيسكم معهدا في ديركم في الموصل أن نعرب لكم عن ارتياحنا وسرورنا إذ أن هذا المشروع قد خلق فينا الرجاء بالخدمات الجلى التي يقدمها. إننا نأمل ان هذا المشروع سيصبح معهد حضارة ومنهلا للعلم ومدرسة للفضيلة المسيحية، إذ سيتخرج منه كهنة مثقفون في اللغات والعلوم الكنسية. إننا نبارك قلبيا هذا المشروع ونهنئكم، إذ اننا على أمل من أن هذه الغرسة التي زرعتموها في أرضنا سرعان ما ستنمو وتعطي ثمرا يانعا. كونوا واثقين، أيها الأب المحترم، بأننا فخورون بهذا المشروع وسوف يخلد تاريخ العراق اسمكم" (١٨٧٨)

وهذه مقتطفات أخرى من رسالة الأب نفسه، وفي السنة عينها، للمطران بهنام بني رئيس أساقفة الموصل للسريان الكاثوليك (البطريرك بني فيما بعد):

"إن المشروع الذي صار في حيز الوجود سوف يقابله بارتياح جميع أساقفة المنطقة وسيصبح موضوع شكر الجميع. تقبلوا تهاني وشكري العميقين لمشروعكم العظيم الذي أباركه من صميم القلب والذي من اجله استمطر النعم الإلهية".

• التنشئة العلمية واللاهوتية

لقد اخذ المعهد على عاتقه إعطاء تلامذته ثقافة إنسانية وروحية ولاهوتية متطورة مع حاجات كنيستنا وعقليات مجتمعنا. وفي سنة ١٩٦٤ صار تحول واسع في المواد المدروسة وفي أسلوب التدريس نفسه تمشيا مع روح وتوجيهات المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني. ففي الاكليريكية الصغرى صار التلامذة يتبعون الدراسة المتوسطة في المعهد على أساتذة اختصاصيين، توافق عليهم مديرية تربية المحافظة، ويقدمون الامتحانات الرسمية لنيل الشهادة المتوسطة، ويتلقون التربية الاكليريكية والدينية واللغات إلى جانبها. أما في الاكليريكية الكبرى، فقد استحدثت سنة تحضيرية للفلسفة واللاهوت تكون بمثابة مقدمة يبسط فيها سر الخلاص ويوجَّه التلاميذ إلى توطيد حياتهم الإيمانية وإنعاشها وتغذية دعوتهم بالوعي والفرح والشعور بالمسؤولية، كما أن الدراسة اللاهوتية والكتابية تتسم بالانفتاح والتجدد، لاسيما في السنوات الأخيرة.

• ... والرسولية

لا تقتصر مهمة الكاهن على "توزيع" الأسرار و "إقامة" القداس، بل هو يسير جنبا إلى جنب مع النفوس. فعلى الكاهن أن يكون المرشد والصديق والأب الروحي للنفوس، لذا

فقد اهتم المعهد دوما وبصورة خاصة في تنشئة الاكليريكيين تنشئة رعائية عميقة. فالمعهد يحاول ان ينمي في الطلبة المؤهلات الضرورية لإقامة الحوار مع الناس، كالقدرة على الإصغاء والانفتاح، بروح المحبة والتواضع وبُعد النظر، على أوضاع العلاقات البشرية المتنوعة. لذا، ولئلا تكون الدروس مجرد نظريات مثالية، يتوجه التلاميذ منذ حداثتهم إلى المساهمة في الحقول الرسولية إبان دراستهم أو خلال العطل الصيفية كالتعليم المسيحي وإلقاء المحاضرات الدينية والنشاطات الراعوية وحتى الرياضية والترفيهية.

وفي السنوات الأخيرة انطلق التلاميذ الكبار، بموافقة السلطات الكنسية، في زيارات منتظمة رسوليه للأسر المسيحية في بعض إحياء الموصل الجانبية، دون تمييز بين طائفة وأخرى. وهم بذلك يشاركون إخوهم الكهنة، وبالتعاون معهم، في إيصال بشرى الإنجيل إلى المسيحيين في دورهم. إن هذه الرسالة لتبعث النشاط والحيوية في قلوب الاكليريكيين، إذ تجعلهم في يقظة مستمرة على مشاكل مجتمعهم وعلى معرفة بالقضايا التي تنتظرهم في ما بعد، وتخلق صداقات كثيرة وثقة متبادلة، والصداقة والثقة أساسان ولا ارسخ للرسالة. وقد قاموا في هذه الأحياء بسهرات إنجيلية وساهموا في التعليم المسيحي وإعداد الأحداث للتناول الأول، كما كان قد عمل إخوهم في السابق في التثقيف الديني للأيتام وبعض الشبان في أخوية مار يوسف العامل.

عدد الكهنة تلامذة المعهد

سنة	كلدان		سريان	المجموع
١٨٧٧-١٩٢٣	٦٣		٣٢	٩٥
١٩٢٣-١٩٧٢	٤٧		٣١	٧٨
		لاتيني	١	١٧٣
الاساقفة	١١		٤	١٥
البطاركة	١		١	٢

والى المعهد يعود الفضل في إطلاق مبادرة تنظيم أسبوع الصلاة من اجل وحدة المسيحيين سنة ١٩٥٨ في العراق، انطلاقا من مدينة الموصل، فطبعت صلوات وكراريس بالمناسبة.

ولم تقتصر اهتمامات المعهد الرسولية والروحية على التلامذة الدارسين فقط، بل ظلّ في اتصال عائلي مع تلامذته القدامى، فنظم عدة رياضات كهنوتية صيفا كان يشترك فيها عدد كبير من الكهنة والأساقفة.

ومما أولاه مسؤولو المعهد الاهتمام الكبير، لا سيما منذ الأربعينات، هو نشل الكهنة الشباب من العزلة. فاهتموا بإنشاء صداقة كهنوتية ترمي إلى خلق المزيد من التعاون والألفة بينهم وتبادل الخبرات الراعوية، وتغذي حياتهم الكهنوتية من النواحي الروحية والرسولية والإنسانية (١٩٤٣). وقد واصل قسم من هؤلاء الكهنة هذه المرحلة وألّفوا ترابطا كهنوتيا

دعوه باسم "كهنة يسوع الملك" -وقد باشرت النواة الأولى حياتها المشتركة تحت سقف واحد سنة ١٩٦٢ في كنيسة مار توما بالموصل، وكان قوامها أربعة كهنة من الكنيستين الكلدانية والسريانية. واليوم يبلغ عدد كهنة يسوع الملك اثني عشر كاهنا من الطائفتين، منهم في الحياة المشتركة ومنهم في الخورنيات أو في مراكز عملهم المختلفة.

• النشاطات الأدبية والفنية

ليس الكاهن ناسكا يعيش في صومعته، منعزلا عن العالم، بل هو إنسان يعيش في عجنة العالم ويتحسس نبضاته ويقيم وزنا لكل ما هو انساني من طموح ونشاطات فكرية وأدبية وفنية، -وليست من فضائل الكاهن الأقل ضرورة! لذا فقد رعى المعهد هذه الناحية التربوية الكبرى رعاية خاصة. فالنشاطات المسرحية والموسيقية والرياضية كانت دوما في مكانة مرموقة في المعهد. وقد قدم التلاميذ أكثر من مسرحية ناجحة بالعربية أو الفرنسية على مسرح المعهد أو خارجه. ولا تخلو مناسبة إلا وابتكرت مقطوعات غنائية وموسيقية جديدة، لا بل تردد تقليد عريق في أن لا تتكرر أنشودة أو لحن في مناسبتين! ولقد نشطت الحركة الموسيقية والفنية في السنين الأخيرة، ولقيت هذه القابليات دعما وتشجيعا من الإدارة. ودأب المعهد سنين طوالا في إقامة مهرجان رياضي سنوي ومنازلة فرق رياضية في أو خارج الموصل.

أما السفرات، فحدث ولا حرج. فالطالب الاكليريكي يتعشق حب بلاده ويتعرف إلى وطنه من خلال الرحلات العديدة التي ينظمها المعهد، لاسيما في عطل الفصح، ومدتها ١٥ يومًا، كان يقضيها التلامذة في إحدى مناطق الشمال الجميل-وكان التلامذة في السابق يتقاسمون عطلتهم الصيفية بين ذويهم ودير مار ياقو بجوار دهوك.

أما النشاط الأدبي، فهو الآخر يلقى رعاية خاصة في المعهد، ولا يندر "الشعراء" بين التلامذة، بالسريانية والفرنسية ولا سيما العربية التي حظيت دوما بمكانة مرموقة في المعهد، وأُوليت دراستها اهتماما خاصا.

وكان المعهد قد اصدر مجلة فصلية باسم **"النشرة"** ضمت أخبار التلامذة القدامى والعالم المسيحي وكنيسة العراق، بالإضافة إلى مقالات روحية وكتابية بأقلام الأساتذة. وسميت هذه النشرة في سنة ١٩٣٩ "نشرة المعهد السرياني الكلداني"، وصدرت باللغة الفرنسية، واستمرت بالظهور كل شهرين حتى عام ١٩٥٨.

• نحو المستقبل

بذلت في السنين الأخيرة محاولات عدة، على ضوء توجيهات المجمع والواقع العراقي المتجدد، لتطوير تنشئة الكهنة في المعهد، أسفرت أخيرا، في ما أسفرت، عن فصل الاكليريكية الكبرى عن الصغرى، مبنى وإدارة.

وقد جاء هذا الفصل لإفساح المجال أمام تنشئة واعية مستقلة ومتكافئة للطلبة المتقدمين، وتمشيا مع حاجاتهم المتطورة بتطور مجتمعنا الكنسي والمدني المتحول. واننا لنلمس عن كثب الإصلاحات العديدة التي جرت على المعهد ونحن نتنسم نفحة التجديد تهيمن على روح المعهد في شقيه. فرؤساء الاكليريكيتين اللتين ما زالتا مترابطتين، يحاولون الانطلاق والسير بروح المجمع الفاتيكاني الذي يدعو في قراره في التنشئة الكهنوتية إلى أن تتميز التنشئة بالروح الرعائية الرسولية والعلمية اليقظة.

ولتحقيق هذا الهدف، انفتحت أمام الاكليريكيين آفاق جديدة يبحثون فيها عن الفضائل الإنسانية ويعتبرون العلوم، دينية كانت أم كتابية أم تربوية أم اجتماعية، لا كوسيلة للثقافة الشخصية فحسب، بل جسرا للحوار مع الناس، ليتدرب الاكليريكي منذ سني الدراسة على البناء والانفتاح المسكوني. وإذ تقوم التنشئة، قبل كل شيء، على القيم الروحية فلا زال المعهد يعطي تلك القيم الإنسانية بحيث يبقى منهلا للفضائل الإنسانية والمسيحية. إن هذه الحياة تتغذى بالالتزامات الروحية، والحياة بحسب الإنجيل على خطى يسوع المسيح.

فإذا طالب المجمع بإعادة النظر في برامج الدروس، فلكي يشدد على الثقافة العامة، أدبية كانت أم علمية، وتنشئة كهنة الغد بحسب حاجات العصر الروحية والاجتماعية، فلا يفقد الاكليريكي معنى الحياة الواقعية ويحشى رأسه بالمعلومات حشوا من دون أن يهضمها، أو لا يكون لها صلة بحياته وحياة الرعية في المستقبل... إن المعهد سائر، في خطة جديدة، بحسب هذا المنهج الذي يبعث الأمل، ولكنه لا زال في فترة البحث، والدلائل مشجعة.

ملف ايار ١٩٧٣ .... الاب خليل قوجحصارلي الدومنيكي

هل نحتاج بعد إلى راهبات؟

ترقى اولى مساهمات الاب خليل قوجحصارلي في المجلة الى عام ١٩٧٢ حين انضم الى هيئة التحرير الاستشارية في الموصل ورافق مسيرتها طيلة اعوام، ومدّها بمقالات قيمة حتى مغادرته الى بلجيكا عام ١٩٨٣، ووفاته فيها عام ١٩٩٣ (انظر ما كتب عنه في "كتّاب رحلوا" -مختارات الفكر المسيحي/٩).

وهذا الملف عن الراهبات يعكس اهتمامه الكبير منذ ان انيط به عام ١٩٦٦ إرشاد الراهبات الدومينيكيات للقديسة كاترينة... وفيه تناول حقيقة الراهبة اليوم بين نظرة المجتمع إليها التي يشوبها التشويه احيانًا، وبين الصورة التي للكنيسة عنها، ولها هي عن ذاتها. وستبقى الكنيسة بحاجة الى راهبات يعكسن الفرح الداخلي الذي يغمرهن عبر لقائهن مع الله، كما يعكسن روح الله في البذل والعطاء والتضامن مع كل انسان خلق على صورة الله...

تدور اليوم عدة تساؤت حول الراهبة وكأنها لغز للمجتمع: من هي، ما اهدافها، ما أعمالها، وما البواعث التي حملتها على اعتناق طريقة في الحياة تميزها عن سائر الفتيات وتتركها ظاهريًا في عزلة عن الغير وكأنها على هامش المجتمع!

انطلاقًا من هذا الجهل للحقيقة او تجاهلها، رسم الكثيرون وجهًا مصطنعًا للراهبة، بعيدًا كل البعد عن الواقع. قيل بانها انسان ناقص لا يقوى على تحمل متطلبات الانسانية في ابعادها الكاملة، فالتجأت الى عزلة الدير خوفًا من مجابهة الحياة. وقيل بأنها انسان يائس، فشل في الحصول على وظيفة مرموقة او زواج سعيد او مورد عيش مضمون فهجرت المجتمع لتعيش في واحة آمنة بعيدة عن الانظار والاحكام؛ او انها يتيمة الابوين فقدت العطف البيتي وارتمت امام عتبة الدير ملتمسة الدفء الانساني والقوت اليومي. وقيل بانها انسان شاذ في مزاجه وعاطفته واحساسه، لا يتذوق طيبة الحياة ولا يدرك متعة الزواج ومكاسب الامومة، حيث تنسجم امنيات كل فتاة متزنة طبيعية. قيل الكثير والكثير... وهناك ما دعم هذه الآراء السلبية غير الموضوعية بقصص كتبت، كانت الراهبة فيها محورًا للروايات الغرامية والصراعات العاطفية والحالات الاجتماعية البائسة، نتيجة اجواء التخلف الانساني والانحراف الادبي. وقد استغلت الشاشة السينمائية مثل هذه الروايات، فرعت هذه النظرة المغلوطة عن الراهبة لدى الكثيرين، اذ سرعان ما تعتبر عامة الشعب ان المكتوب والمصور وكأنه حقيقة لا شك فيها ولا جدال!

ان النزاهة والموضوعية تدعواننا الى توضيح اللبس، سيما اذا كان الانسان هو موضوع هذا اللبس. فالجو العلمي للحياة العصرية لا يتحمل بعد الغموض والملابسات والافكار المسبقة عن الغير. ان استقصاء الحقيقة واجب يعزز حرمة الفرد وينظم العلاقات الانسانية على اساس الاعتراف بالواقع واحترام القيم. فما حقيقة الراهبة؟

الراهبة لقاء مع الله

الراهبة امرأة مترهبة متخشعة امام العزة الالهية، تسجد للخالق الصمد في صمت ديرها وتسبحه، فرديا وجماعيا، وتشيد بكمالاته وقدرته وعنايته الابوية. تصلي الراهبة باسمها وباسم كل الذين يرفضون رفع الحاظهم الى العلاء. تصلي من اجل البشرية ومعضلاتها ومآسيها وآلامها. هي الواقفة امام الله تتشفع، مقدمة ذاتها ضحية وكفارة عن الخطأة. هي صلاة حية، لا يغيب الله عنها اذ هي هيكل الله، ولا تغيب عن الله، اذ تكرست لتمجيده واعلان اسمه. الدير بيت صلاة، يضمن للراهبة البيئة الملائمة والجو الهادئ لتستطيع الانصراف الى العيش الواعي مع الله بفرح واغتباط. ففي الدير تجد الراهبة قداسها اليومي وصلواتها الجماعية المشتركة وانكبابها على قراءة الكتاب المقدس والتأمل بالانجيل ومطالعة الكتب والمراجع الدينية.

وفي مجتمعنا العصري الصاخب الضائع، تمسي الراهبة ايمانًا ناطقًا بالله وباولوية الروح ومطلقية الحب الاكبر الذي اجتذبها وحملها على التخلي عن خيرات كثيرة عظمى، ولكن زائلة. هي الشاهدة الجريئة بان الله محبة، وقد احب البشر رغم شرورهم؛ من يرى راهبة في عنفوان الشباب قبلت طوعًا ان تحيا من اجل الله كليا، إلاّ ويتحسس ان كائنا متفوقا يسكن جنانها وقد امتلكها تمامًا حتى لم تعد تعرف للوجود معنى الا فيه ومن اجله؟ لا غرابة، بعد، إذا رأينا بعض الراهبات يحتبسن في اديرتهن في عبادة الله. انها ازهار البشرية تعيش في الخفاء لتلطف، امام نظر الله، ما في البشرية بحاجة الى مثل هذه الطلائع المقدسة!

الراهبة لقاء مع الانسان

تكتشف الراهبة، على نور الله، حقيقة الانسان وقيمته. تراه على "صورة الله ومثاله" وقد خلقه عن محبة، مستحسنا ما صنع، وفداه بابنه بحب عظيم، اذ اراده منذ البدء اليفًا له وفي نعيمه. وهوذا الانسان، على الارض، تتنازعه قوى الخير والشر، يشق طريقه نحو السعادة بجهد كبير. يسير ثم ينحرف، وقد يقف خائر القوى. هل تراه يصل وفي طريقه مغريات عنيفة تستعبد ضميره وقواه الروحية والانسانية، فيستسلم لها متواطئًا مع عناصر الشر المجسمة في الكذب والظلم والحسد والفسق والبخل. فما هو مصيره الحالي والابدي؟

تتفهم الراهبة وضع البشرية تمامًا وتشعر، بقوة، تضامنها مع كل انسان في كل مكان، وتعي بان رسالتها هي ان تكون اختًا للجميع، دون تمييز ديني أو عنصري او قومي. انها للكل، باسم الله الذي يحب الكل.

فالراهبة لا تعتبر ديرها "دار استراحة" لتعفي نفسها من متاعب الحياة والتزاماتها، ولا حصن امان كي تنجو من المكاره والمخاطر. ليس الدير لينمي في الراهبة روح الانعزالية والاتكالية الممقوتة والتخلي عن مسؤولياتها تجاه المجتمع، فتعيش على حساب الغير، متوهمة بانها حاصلة على امتيازات وحقوق وارصدة في المجتمع بحجة التعبد والتزهد.. كلا. الراهبة

تعي كل الوعي ما في هذه المواقف من انحرافات لا تتلائم والانسانية الشريفة، ولا تتفق والانجيل المقدس، فتمسخ وجه الحياة الرهبانية الأصيل! الراهبة عطاء، لا انطواء.

إعداد الراهبة

ان مقتضيات الحياة الرهبانية ومتطلباتها مهامها وأهدافها الدينية والانسانية تفترض في الراهبة صفات انسانية اساسية، بالاضافة الى الفضائل الدينية. فالفتاة لا تستطيع الدخول الى الدير والثبات في الحياة الرهبانية إلا اذا اتّصفت بصحة جيدة، جسمًا وعقلاً، وكانت متزنة القلب والانفعالات، شجاعة لمجابهة متاعب الخدمة، انيسة المزاج... ترتاح الى الحياة الاجتماعية، ضمن اخوّة شاملة، وتدرك معنى الحب فتميز ما يعظمه ويقدسه مما يفسده ويشوهه، مستعدة للعطاء والاقتسام والخدمة، دون الالتفات الى المنفعة الذاتية بل الى ما يبني الخير في الغير، قنوعة في عيش زهيد وسلوك متواضع يؤهلها لتكون قريبة من الصغار والفقراء والمهملين. ولكي لا تكون الراهبة جزيرة بل جسرًا وقناة، تزود الرهبانيات اديارها بوسائل الاعلام المختلفة من صحف ومجلات وراديو وتلفزيون لتتابع العالم في مسيرته وتطوره، فتبقى متأصلة في المجتمع، وتطلع على احواله وحاجاته.

فالراهبة، إذن، بخلاف ما يرتأي بعضهم، انسان واع، لا يعاني أي مركب نقص في نفسيته، سعيد في الحرية الروحية التي اختارها ويحياها، بالرغم من القوانين والاطر الخارجية التي لا بد منها في كل مجتمع منظم. ان حريتها منبثقة من قلب نال قسطا وافرا من التجرد والسمو، فاصبح متفتحا لعبادة الله وخدمة الانسان بسلام ووضوح.

رسالة الراهبة

ان تنشأ الراهبة في هذه العقلية، تصبح طاقة روحية دينامية وتضحي مهيأة للالتقاء بالانسان حيثما كان، لتقاسمه ما نالت من قيم دينية وثروة انسانية، وتساهم مع الاجهزة المحلية الخيرة المختلفة في رفع المستويات الاجتماعية والعلمية والدينية والتربوية والصحية للبلد وفي مكافحة العلل التي تشله وتضعضع مسيرته.

انها مع الانسان في كفاحه اليومي لتسانده وتنير طريقه وتحيي فيه الرجاء في الظروف القاسية. انها تحتضن اليتيم الشارد وتبتسم لمن فقد ابتسامة الأم وحنانها. انها تحنو على المرضى والسقماء، وحين تعالج اجسامهم الواهنة، تعزز معنوياتهم وتشجعهم على الصبر والثقة. انها مع الاطفال في خطواتهم الاولى، تساعدهم، بذكاء وكفاءة، على ان يثقوا بانفسهم ويصدقوا في اقوالهم ويرفقوا بالاخرين. وهي تكتشف مواهبهم وتسعى في تنميتها واستثمارها بصبر واناة. انها مع الفتيات، في المدارس والجامعات والمعامل، اخت وصديقة، تزور العائلات وتحمل الى البيوت كلمة السلام والفرح، فتصالح المتشاجرين وتؤلّف بين المتنافرين، وتساند المتألمين وتساعد الفقراء والمعوزين بصمت. فالعجوز الضريرة المهملة في غرفة عتمة ترتعش فرحًا بزيارة الراهبة... وتتجلى اقصى درجات التضحية في راهبات

تخصصن للعناية بالايتام او البرص وذوي العاهات على اختلاف انواعها، والاهتمام بالسجينات والفتيات الشاردات اللواتي هن في اغلب الاحيان ضحية مجتمع اناني، والعيش مع أفقر طبقات المجتمع في الاحياء المعدومة ومع القبائل النائية في اكواخ او تحت الخيم...

معنى النذور الرهبانية

بعد مراحل التدريب والاختبار الطويلة والتعرف على التزامات الحياة الرهبانية، وبعد اطلاعها على استعداداتها الشخصية، تعاهد الراهبة الله رسميًا امام اخواتها واقاربها واصدقائها بتكريس وجودها له تعالى ولخدمة البشر، باعلان النذور الرهبانية الثلاثة:

نذر الطاعة:

تتنازل الراهبة، وبملء وعيها وحريتها، عن حق الانسان في السيادة الذاتية، وتعد بالطاعة لرئيستها وانظمة رهبنتها.

ليست طاعة الراهبة هذه طاعة الخادم لسيده، ولا طاعة الجندي لقائده، ولا الموظف لمديره، انها طاعة مبنية على الاخوة العميقة في جو من التلقائية والفرح والتعاون للوصول سوية الى الخير العام. لا استبداد في الرهبنة وليس الحكم لفرد منعزل، بل لشخص منتخب، وخاضع لمجلس شورى ولنظام محدد.

ان الطاعة الرهبانية تحرر من خطر النزعة الانانية والاتجاه المنحرف، كما تخلق في الراهبة الاستعداد الدائم لتأدية الخدمة والواجب. فليست، إذن، تحطيمًا للشخصية، وتنفي نزع روح المبادرة والابداع لدى الراهبة، بل ترعاها، فالرهبنة تشجب الطاعة الآلية الجامدة. ان طاعة الراهبة لا تتحقق تمامًا الا ضمن فكر واع وارادة قوية في العمل والتحام بالخير. وتراعى نفسية الراهبة الخاصة وتحاط شخصيتها بالثقة والاحترام، مما يخلق فرحًا واندفاعًا في العمل وارتياحًا. ان الراهبة، اذا كانت طاعتها منورة، تشعر بعظمة الحرية التي تتمتع بها وبدورها في تعزيز تربية الفرد والمجتمع، عن طريق الخضوع للارادة الالهية والنواميس السليمة والشعور بالمسؤولية... وهنا السبيل الامين لتجنب الفوضى والتفريط في حقوق الانسان.

نذر العفة:

خلق الله الانسان رجلاً وامرأة، وامرهما ان يكوّنا العائلة، الخلية الاساسية للمجتمع، ويتكاثرا حرصًا على الجنس البشري. وقد بنى الانسانية التامة على الرجل والمرأة مجتمعين ليتكاملا ويبقيا مترابطين بقوة حب طبيعي يؤلف بينهما، فيمكنهما من تحمل المسؤولية المشتركة في الانجاب وتربية الاطفال وتحقيق مقتضيات حياتهما الزوجية والوالدية. فالزواج هو، إذن، مقدس، وقد باركه المسيح فأغناه بحضوره وحباه برسالة روحية لتقديس الزوجين بالمحبة والامانة الكاملة.

والراهبة لا تجهل منزلة الزواج ولا تتنكر لقيمته ومقامه وكونه المحيط الطبيعي الاساسي حيث ينتعش الفرد ويتكون بصورة سليمة. غير ان المسيح، بمثله وتعاليمه، فتح للحب آفاقا أوسع وأبعد من الحب الثنائي والارتباط الرحمي، مجتذبًا اليه أشخاصًا ربطهم به وافعم قلبهم من الحب الالهي، فضحوا بمكاسب الارض في سبيله، لا احتقارًا وتجاهلاً، بل تفضيلاً وسموًا في العطاء. فبنذر العفة الرهبانية، تتنازل الراهبة اراديًا وبملء وعيها عن حقها في تكوين عائلة والتمتع بافراحها. ومن ثم تمارس التزهد والتسامي عن النزوات الحسية. ان الصراع ليس بسهل في عالم تجتاحه موجة من الاباحية الجنسية والعروض الخلاعية، لذا تسعى الراهبة جهدها كي تبقى الشاهدة الحية على سمو الروح ومطلقية الحب لله، وتنطلق في ذلك من حياة الصلاة والعيش البسيط، في جو صاف من الاخوة الرهبانية الحقة والتربية الاولية لقيادة الذات.

ان الراهبة، بعفتها، تعي انها راهبة من اجل اسعاد الغير، وهي قادرة على التقرب من الجميع بنوايا خالصة، كي تكون للجميع دعوة الى الفضيلة والاخلاق الحميدة وتقدير معنى الحياة الموهوبة من أجل الاخرين. ولا يخفى ان عفة الراهبة وبتوليتها تحققان لها حرية عمل وتنقّل اكبر، وتسديان لها طاقة تضحية وتحمل وخدمة يصعب على المتزوجين المرتبطين بالتزامات اسرة معينة من ممارستها.

نذر الفقر:

لقد اقتحم المال حياة الانسان وسيطر على فكره وضميره بحيث كاد يضحي صنمًا يعبده ويقرر مواقفه من ذاته ومن غيره. فالمال اصبح محور العلاقات بين الشعوب، من اجله تشن الحروب وتقوم الخلافات بين الدول والفئات والافراد، وما اكثر العائلات التي تفككت بسببه. أليس هو في اصل مظالم كثيرة وتعديات عنيفة تقضي على العدل والمحبة والسلام؟

الراهبة تستنكر نفوذ المال بهذا الشكل. فهي، بنذر الفقر، تعمل بنداء المسيح الذي دعا الى التجرد والفقر بعد ان اختاره لذاته وعاشه. بهذا النذر، تلتزم الراهبة بالخروج من روح الاحتكار المالي وعالم التضخم والسيطرة والمتاجرة، وتتنازل عن حق التملك والتصرف الشخصي بالمال لمنافعها الخاصة، حرصًا منها على حريتها الروحية والقيم الانجيلية والفضائل الانسانية. انها اختارت الحياة الكادحة حيث عليها ان تعمل وتكد وتتعب اسوة بالطبقة العاملة لتعيش من ثمرة عملها وجهدها، علما بان الموارد الناتجة عن خدمتها واشغالها لا تحتفظ بها كملك خاص بها، بل تدخل الى الصندوق المشترك في الدير الذي يسهر على حاجات كل فرد.

ان روح الفقر يوحي الى الراهبة بالنزاهة في الخدمة والتغلغل بحرية بين كافة طبقات المجتمع، اذ ليس هناك ما يقيد "الكلمة" او يلجم لسانها من اعلان الحق البناء.

خاتمة

قد تكون الصورة المرسومة في هذه الوحة مثالية وصعبة التحقيق في الواقع، وقد لا تتفق دوما مع الوجه الملموس للراهبة كما تهيأ لنا ان نلقاه. وقد تجد الراهبة نفسها ذاتها في جهاد مستمر لمطابقة حياتها مع هذا المثال الذي رسمته لها وابتغت تحقيقه بانخراطها في صفوف الرهبنة. لا شك في ذلك. فالراهبة، ككل مسيحي، وكل انسان، اذ لا زالت تحتفظ بطبيعتها، بضعفها وطموحاتها، لا تني تعمل لبلوغ الهدف الذي اعتنقته ومن اجله تكرست لله وللبشر. وما لا يستطيع الفرد ان يكمله لوحده، نظرًا لحدوده، يحققه المجتمع بتضافر الجهود وبحكم قانون التكامل. فلا مجال للشك بان الرهبنات في الكنيسة تمثل الجزء الحي والواعي، وهي بمثابة مقياس عن مدى حيوية الكنيسة. انها طاقات رسولية قوية تساهم مساهمة فعالة في تخمير العجنة كلها والحفاظ على نور الايمان ساطعًا ابدا. ولما كانت طاقة، إلا انها ليست الوحيدة في الكنيسة. ففي الكنيسة الاف الرهبانيات التي تجاوب إلى جميع الامزجة والحاجات المادية والروحية والثقافية للمجتمع. الحياة الرهبانية دعوة خاصة يقصدها من يرغب فيها، عن وعي وحرية، ويبقى فيها من يرغب الاستمرار، عن وعي وحرية ايضًا. لا يكون احد راهبا او راهبة عن قسر.

فالكنيسة، بل البشرية، ومجتمعنا بالذات، بحاجة الى هؤلاء الفتيات، يجسدن بيننا اولوية الروح في عالم المادة، وحنان الله تجاه آلام البشرية، ويعبّقن طرقاتنا بعبير الطهر وسخاء الحب المعطاء الباذل ابدًا.

مفهوم الثورة في الفكر المسيحي المعاصر

"الاب عبد السلام حلوة راهب دومينيكي شاب، استهوته الاهداف الكبرى منذ شبابه، فعمل في الرسالة العلمانية ردحًا، وبعد انهائه دراسته في معهد الهندسة العالي ببغداد سنة ١٩٦٦-١٩٦٧ انخرط في رهبانية الاباء الدومينيكيين في ايلول ١٩٦٧ حيث انكب على الدراسات اللاهوتية والكتابية في العراق، ومن ثم في فرنسا؛ ورسم كاهنًا في العاشر من حزيران ١٩٧٣، عاد على اثرها الى بغداد حيث عمل مهندسًا في وزارة البلديات العراقية بالاضافة الى نشاطاته الرسولية والكهنوتية الكثيرة..."

بهذه العبارات قدّمت "الفكر المسيحي" اولى مساهمات الاب حلوة فيها، وقد استمر يرفدها بمقالات اتسمت بالروح الثورية والتجديدية على الصعيدين الانساني والمسيحي، ولا سيما بعد انضمامه الى هيئة التحرير الاستشارية في بغداد، الى ان وضع الموت المبكر حدًا لعطائه وديناميكيته (انظر ما كتب عنه في "كتّاب رحلوا" -مختارات الفكر المسيحي/٩).

الثورة، او التحول الثوري وحركات التحرر هي من صميم الواقع التاريخي للمجتمع العالمي والعراقي، اليوم، وليس هناك من يجهل ان معظم سكان العالم النامي، وحتى سكان الدول الاوربية، والكثير من المواطنين الواعين، يضعون آمالهم اليوم في المستقبل، المستقبل الذي يريدونه واقعًا اكثر عدالة وانسانية من حاضرهم، لذا التزموا ويلتزمون بالوسائل العلمية لبناء هذا المستقبل.

و "خدمات الاغاثة الكاثوليكية" و "خدمات الكنيسة العالمية" (وتدعمها معظم المؤسسات البروتستنتية الكبرى)، "كالاتحاد اللوثري الاعلامي" و "الاتحاد المعمذاني الجنوبي" و "اللجنة المركزية للميثوديست" و "مؤسسة الشرق الاوسط"، وكذلك البعثة الحبرية لفلسطين-وان كانت بعثة دولية تابعة للفاتيكان، الا ان الكاثوليك الامريكان هم الذين يمولونها، ويديرها كاهن امريكي. كما ان هناك ايضًا عددًا من المنظمات العربية الامريكية تساهم في هذه النشاطات.

يرى الكثيرون من المسيحيين الامريكان ان الحركة المسكونية قد عقّدت القضية الفلسطينية. فبعض منهم -محاولة منهم ليعطوا شهادة عن روح المجمع المسكوني تجاه اليهود في الولايات المتحدة- تخطوا روح المجمع، بحيث تجاهلوا المعضلات الخطيرة الناجمة عن مناصرة اليهود الامريكان للصهيونية. اما المسيحيون الامريكان، لا سيما ممن هم اكثر تحررا، فقد عارضوا جهرا مثل هذه المناصرة وساندوا العرب في قضيتهم. هذه المساندة

تضاءلت بشكل ملموس اثر اعمال الارهاب التي قام بها الفلسطينيون. وفي انتخابات الرئاسة الاخيرة، انضم بعض المسيحيين المحافظين الى اليهود في مناصرتهم لنيكسون الذي ساند جهرا اسرائيل، اما الراديكاليون والاحرار من الكاثوليك فقد أيّدوا ماك كوفرن الذي اظهر -اقله في بداية الحملة الانتخابية- انه مع العرب اكثر بكثير مما مع سواهم.

هناك حاجة كبيرة الى توفير المزيد من المعلومات واعطاء المسيحيين الامريكان مقدارا اكبر من التثقيف حول كل ما يتعلق بقضية فلسطين. وقد خصص العديد من الجامعات الامريكية الكبرى اقسامًا خاصة بدراسات الشرق الاوسط. وجل الطلاب في هذه الاقسام هم مسيحيون امريكان وعرب. انها لبادرة طيبة لها دلالاتها الحسنة، لكنها لا تحل المشكلة ما لم تنقل الينا وسائل الاعلام اخبار الشرق الاوسط بامانة اكبر وتحيز اقل.

في الولايات المتحدة الامريكية تقليد وطني قوي هو نصرة المظلوم في أي نزاع لا يرجى له حل. فمعظم الدعم الذي يقدمه الامريكان للصهيونية مبعثه وسائل الاعلام التي تظهر اسرائيل بمظهر المظلوم المغلوب على امره، الذي لا سند له وسط ملايين العرب المحيطة به من كل صوب. فعندما تصحح هذه الصورة المشوهة ويتاح للامريكان ان يروا ان الشعب الفلسطيني هو المظلوم حقيقة وانه الضحية في الوضع الذي هو فيه الآن، حينئذ يصبح من المحتمل جدا ان يتحولوا بمساعداتهم لنصرة شعب فلسطين، من مسيحيين ومسلمين، ليسترجعوا وطنهم.

والمسيحي، كأي انسان، وجد نفسه بحكم ظروفه الحياتية، في قلب هذه الثورة وتلك الحركات التحررية، ووجد ان هناك سؤالاً لا بد من طرحه على ضميره، وعلى ضمير الكنيسة اجمع، إذا ما أراد ان يكون انسانا واقعيًا ملتزمًا بواقعه وواقع شعبه، لا إنسانا يعيش ايمانه كهروب من هذا الواقع او كمخدر يتهادن مع الفروق الطبقية وما ينتج عنها من استغلال اواستبعاد. وهذا السؤال هو:

هل ترى ثمة للثورة -وما تصبو الى خلقه من مجتمع أفضل اكثر عدالة واكثر انسانية- علاقة بالخلاص الذي فتح المسيح ابوابه امام البشرية، بموته على الصليب وقيامته من بين الاموات؟ ام أن لا علاقة لهذا الخلاص بتاريخ البشرية وما يتضمه من احداث تتحكم في حياة الانسان ومستقبله. بكلمة، هل ان الخلاص المسيحي واقع يمس هذا العالم المحسوس؟ وبمعنى آخر، هل ان عيش هذا الواقع الثوري والمساهمة به يشكل معنى للانسان المسيحي، واي معنى؟ هل بامكان الانسان المسيحي ان يفصل بين ايمانه بان المسيح هو مخلص البشرية من الخطيئة -وما الخطيئة سوى استغلال البشر واستعبادهم وقتلهم بعضهم البعض، وذلك لفقدهم محبة الله- وبين هذا الواقع الثوري الذي ما هو إلا طريقة واعية وعلمية لتخليص الانسان من انانيته وانانية اخوته البشر؟

هذه الاسئلة، وعشرات غيرها، تُطرح اليوم على مسيحيي العالم أجمع، لا سيما مسيحيي العالم النامي الذين يعانون اكثر من غيرهم من سيطرة الاقتصاد الرأسمالي، ويعيشون

في ظل أنظمة اجتماعية جوهرها الاستغلال والمصالح الفردية. كما تُطرح على اولئك الذين يعيشون في فترات تحول ثورية، وهم في طريقهم الى بناء مجتمع حر يستند الى مبادئ اكثر انسانية وعدلاً، كشعوب اميركا اللاتينية والدول العربية.

ان هذا الواقع هو الذي جعل الفكر اللاهوتي يتجه نحو قراءة هذه الاحداث على ضوء معطيات الانجيل ومفاهيم الايمان بالمسيح كمخلص لهذا الانسان.

وقبل محاولة اعطاء الخطوط العريضة للاجابة على هذه الاسئلة، يجدر بنا توضيح ما تتضمنه بعض المصطلحات التي ستتردد في هذا المقال كالتحرر مثلا، هذا المصطلح الغني الذي يمكن ان يعبر عن الواقع الثوري بأكمله، وهو بمثابة المفتاح لاستيعاب علاقة تلك الافكار بالواقع.

بوسعنا ان نميز في هذا المصطلح مستويات ثلاثة، نظرًا الى المعنى الذي يحمله:

- مستوى العلوم الاجتماعية التي تحلل وتشرح الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.
- مستوى العلوم الفلسفية التي تحلل وتشرح معنى الوجود الانساني وحركة التاريخ.
- مستوى العلوم اللاهوتية التي تضيء الغاية النهاية للوجود وحركة التاريخ هذه،على نور العمل الخلاصي الذي قام به المسيح، أي تجسده وموته وقيامته.

فباستطاعتنا، اذن، القول بأن المعنى الذي تعبر عنه كلمة "تحرر" هو ملتقى هذه المستويات الثلاثة، ولا يمكننا فهم هذه الكلمة من دون التعمق بمحتواها في كل مستوى. إلا أنه لا ينبغي التركيز على الواحد دون الاخر، وإلا وقعنا في جزئية التفكير وفرّطنا بشموليته، وسقطنا، بالتالي، في لا واقعية الافكار التي نطرحها.

- **المستوى الاول: على صعيد العلوم الاجتماعية** التي تحلل وتشرح الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لأي مجتمع، وتهيء "مستقبلا" اكثر عدالة وانسانية: ان مصطلح "التحرر" هنا، يعبر عن مشروع علمي ثوري يعمل على تحقيق تغيير جذري للمجتمع، بقصد تحريره من الانظمة الاقتصادية المرتبطة بالرأسمالية العالمية ومن الطبقات المستغِلة التي تخدم هذه الانظمة، ومن ثم خلق علاقات اجتماعية جديدة مبنية على مفاهيم صحيحة للعدالة، أي بأعطاء الحقوق الكاملة لكل منتجي العمل الفعليين والعاملين الحقيقيين في ميدان التطور -وهم عادة من افراد الطبقات المستغَلة.

- **المستوى الثاني: على الصعيد الفلسفي**، وبالاخص فلسفة الانسان وفلسفة التاريخ. فان التزام حركات التحرر وإحداث التغييرات الاجتماعية يحتوي على معنى يتخطى الصعيد الفكري والعلمي الى قصة الوجود الانساني نفسه، منذ ان اخذ يعمل على تحقيق انسانيته وخلق حريته. فتاريخ الشعوب والمدنيات يزخر بالامثلة على رغبة

الانسان في ان تصبح حياته افضل مما عرفها آباؤه. ان كلمة "تحرر" في هذا الميل نحو المستقبل وهذه الرغبة في ان تصبح حياة الانسان دومًا أفضل، تعبر، هنا، عن امكانية واقعية امام الانسان ليجد معنى عميقًا لوجوده وسعادة حقيقية في تحقيق هذا الوجود. وهذه الامكانية تحرره من كل ما من شأنه ان يزجه في عبثية هذا الوجود، وتخلصه من اليأس الناتج عن هذه العبثية، وبالتالي تربطه بعلاقات بنّاءَة مع الاخرين. ان هذا الوعي ليس على الصعيد الفردي حسب، بل هو وعي جماعي، أي ان الشعب باكمله يجب ان يعمل على تحقيق وجوده كشعب حر يؤمن بمستقبله.

- **المستوى الثالث والاخير: على الصعيد اللاهوتي**، أي قراءة هذه الاحداث التحررية وهذا الواقع الثوري وتفسيرهما على ضوء الايمان الانجيلي. فبالنسبة للانسان المؤمن، تأخذ كلمة "تحرر" معنى اعمق، فتعبر عن الظرف الذي يتيح للانسان المسيحي ان يعمل على تحقيق مواعيد الخلاص ومواصلة العمل الخلاصي الوحيد الذي حققه المسيح.

اذا ما وصلنا الى هذا المستوى، فالسؤال الوحيد الذي علينا طرحه الان هو: هل ثمة مبادئ كشف عنها الانجيل تُمكّننا من ربط واقع الخلاص المسيحي بحركات التحرر التاريخية والثورة –وبالثورة الاشتراكية بالذات– وتفتح بوجهنا مصراع النقد الذاتي لحياة الايمان التي تمارسها الكنيسة كجماعة مؤمنين عليهم ان يكونوا علامة حقيقية وحية لهذا الخلاص؟

سنحاول ذكر بعض هذه المبادئ الانجيلية التي نراها اساسية في تحديد اخلاقيتنا ومواقفنا من هذا الواقع الثوري:

الدعوة الى تغيير الحياة:

"توبوا فقد اقترب ملكوت الرب"! بهذه الكلمات تفتتح الاناجيل؛ توبوا، أي غيّروا حياتكم، فقد اقترب منكم المستقبل، والمسيح هو الذي فتح ابواب هذا المستقبل بموته عن البشرية كلها؛ وبقيامته وانتصاره على الموت ازال من امامها الحدود وأعطاها الامال العظام بامكانية بناء هذا المستقبل منذ الان، وعلّمها بان تتجاوز حاضرها ابدًا، سيما إذا كان هذا الحاضر متخلفًا، تسيطر عليه التفرقة والأنانية.

ان الدعوة الى تغيير الحياة اصبحت بمثابة شعار ثوري ينادي به جميع الذين يعون مشاكل واقعهم الاجتماعية، وحافز يدفعهم الى العمل بصدق وأمانة لروح الانجيل على تطوير هذا الواقع نحو الافضل. هذا المستقبل علينا بناؤه منذ الان: ففكرة احتقار هذا العالم والتذرع بانتظار عالم آت بصورة جامدة وسلبية تجعلنا نقبل بصبر وخنوع تعاسة التعساء وشقاء

المستغلين (بفتح الغين) وكأنهما حكمة الهية لا يمكن تغييرها. لا نتعجب، اذ ذاك، حين نسمع من يقول بان "الدين" يبعد الانسان عن واقعه وعن انسانيته الحقيقية ويثير فيه سذاجة بدائية تجعله سهل الاستعباد والاستغلال من قبل الذين تقتضي مصالحهم إستغلال اخوتهم البشر. لنعلم بان مثل تلك الاعتقادات، انما وجدت لخدمة الطبقات الغنية المستغلة (بكسر الغين).

والان، اذا ما اقتنعنا من ان **جوهر الوجود الانجيلي هو تغيير الحياة والايمان** بالمستقبل، وأن هذا المستقبل يجب بناؤه منذ الان، أصبح بديهيًا الاعتقاد بان **الخلاص المسيحي يتم من خلال الاحداث التاريخية الواقعية**، لان هذا الخلاص نفسه حدث تاريخي مرتبط بالواقع، وإن تعدت حقيقته الكاملة جميع المفاهيم العلمية والفلسفية التي يمكن أن يتوصل اليها إنسان.

ان كل ذي منطق سليم، اليوم، يعتبر ان الحركات التحررية والتحول الاشتراكي هي من الاحداث التاريخية والواقعية. لذا، لا بد من قراءة كوامن هذه الاحداث وربطها بواقع الخلاص المسيحي الذي نؤمن به. وعلينا من ثم، ان نتخذ موقفا صريحًا تجاهها، ونكتشف في اعماقها "العلامات" التي تعبر عما نؤمن به، أي ان المستقبل بالنسبة لنا هو كل ما يتصل بشخص المسيح من عمق وأمل لا متناه، وهبنا إياه بقيامته وانتصاره على الموت (الموت، هذه النهاية غير المعقولة للوجود البشري)، وأن هذا المستقبل من الممكن تحقيقه، وأن في استطاعة الانسان ان يكون حرًا سعيدًا الى آخر حد. هذا الامل هو الباعث الاقوى والاعمق الذي يضفي روحانية خاصة على نضال المسيحي الثوري من اجل تغيير الحياة، أي تغيير الواقع الاجتماعي نحو واقع اكثر عدالة وانسانية.

ان ايماننا هذا لا يفسح مكانا للاإنتمائية والعبثية، بل ان صوره الوجودية هي العدل والالتزام.

السعادة للفقراء:

"طوبى لكم ايها الفقراء، فان ملكوت الرب هو لكم" (لو٦:٢٦)

ومعنى ذلك ان السعادة لكم انتم ايها الفقراء والمظلومون، ايها المستغلون والمبعدون (بفتح الغين والعين)، انتم يا من رفضكم مجتمع الاغنياء. يا من وُضعتم على هامش الحياة وجُعلتم احتياطًا للمساومة.. السعادة لكم انتم ايها الجياع الى العدالة.. السعادة لكم انتم

الذين افقدكم الاستغلال والاستعباد انسانيتكم.. السعادة لكم، فان المستقبل الذي يريده الرب هو لكم.

ان اختيار المسيح للفقراء لواضح وضوح الشمس، فهو نفسه ولد ونشأ في هذه الطبقة، والخلاص هو لهؤلاء الفقراء، وتحقيقه يتم بواسطة الفقراء. ومهما حاول اللاهوت المسيحي، عبر الاجيال، ولأسباب تاريخية وسياسية معينة، إبعاد هذه الحقيقة عن واقعها ومحاولة تمييعها بوضعها في اطار روحي محض -ولربما كان ذلك لتبرير غنى الكنيسة وانتماء رجالها الى البورجوازية واعتناقهم ايديولوجية هذه الطبقة وما تتميز به من تشجيع على الحياة الفردية والتركيز على ان المسيحية هي قضية شخصية- فان الروح الجماعية كانت الحقيقة الاولى التي اكتشفها اوائل المؤمنين، كما نستدل من الصلاة مع الاخرين، والعمل مع الاخرين، بحسب كتاب اعمال الرسل.

وهؤلاء الفقراء هم الذين قال عنهم المسيح:

- "تعالوا يا من باركهم ابي، رثوا الملك المعد لكم منذ انشاء العالم: لاني جعت فأطعمتموني، وعطشت فسقيتموني، وكنت غريبا فآويتموني، وعريانا فكسوتموني، ومريضا فافتقدتموني، وسجينا فزرتموني. فيجيبه الابرار: ربنا متى رأيناك جائعًا فأطعمناك او عطشانَ فسقيناك؟ ومتى رأيناك غريبًا فآويناك او عريانا فكسوناك، ومتى رأيناك مريضًا او محبوسًا فزرناك؟ فيجيبهم: الحق اقول لكم، كلما فعلتم شيئًا من ذلك لواحد من اخوتي هؤلاء الصغار فلي قد صنعتموه" (متى ٢٥:٣٤-٤٠).

والسؤال الذي يبقى الان هو هذا: أو ليس من حق المسيحي ان يبحث عن انجع الوسائل العلمية لتحقيق هذه السعادة لهذه الطبقة من البشرية **-وهذه الوسائل لا يمكن ايجادها الا في صميم وجود هذه الطبقة وحياتها-** والا لوقعنا في طوبائية مثالية لا تجدي نفعًا.

وهكذا نرى، ازاء جميع القيم الانجيلية التي نحاول تحقيقها في عالم البشرية الخاضع للتطور التاريخي، وتحليل الوسائل الفعالة بحسب المستويات الثلاثة التي ذكرناها في مدخل هذا المقال، ان ما سنتوصل اليه ما هو الا الدعوة الى العمل بصورة جدية والتزام وواقعية، مع جميع الذين يؤمنون معنا بضرورة تغيير المجتمع وتحقيق مستقبل اكثر انسانية وعدالة.

في هذا المقال اعترف باني لم ابحث سوى في جزء ضئيل من الاسـئلة الـتي بوسـعنا طرحها في مثل هذا البحث، وقد اعود الى التوغل فيها، لذا اكتفي بترديد كلمات القديس يوحنا في رسالته الاولى، وهي بمثابة خلاصة لكل ما جاء: "اذا قال احـد اني احـب الله، ويكره اخاه، فهو كاذب".

- الوحدة المسيحية، امنية الجميع/طاولة

كانون الثاني/ ص٢٩ - ٣٥ ماهر حربي[١]

+ المسيحية والقيم الاشتراكية

شباط/ ص٧٢ - ٧٧ الاب لوسيان جميل[٢]

+ مشكلة الاجهاض في المجتمع العصري

آذار/ ص١١٧ - ١٢٣ الاب يوسف عتيشا[٣]

+ العنف الثوري

نيسان/ ص١٦٨ - ١٧٢ الاب عبد السلام حلوة

+ معهد شمعون الصفا الكهنوتي البطريركي الكلداني

ايار/ ص٢١٢ - ٢١٨ الاب بطرس حداد(+)[٤]

- المسيحية والثورة في اميركا اللاتينية

حزيران/ ص٢٥٧ - ٢٦٣ الاب جرجس القس موسى

- نحن واولادنا المراهقون[*]

ايلول/ ص٣٠١ - ٣٠٨ نجيب فاقو

• عدد خاص: المسيحي في مجتمعه[**]

ت١ — ت٢/ ص٣١٧ - ٤١٢

- المسيحية في اليابان

كانون الاول/ ص٤٤٦ - ٤٥٣ آساكو ساعور[٥]

(*) نشر هذا الملف في "كتاب رحلوا"/ص١٣٠ – ١٣٤.

(**) العدد الخاص هو في حد ذاته مجموعة "ملفات"! وظهر "المختار من الاعداد الخاصة" (٢٠١٠) ليوثق مجموعة من مقالات كل عدد خاص؛ وقد نشرنا ٤ مقالات في اول عدد خاص لعام ١٩٧٤: هل من مفهوم جديد للايمان؟ (أ. يوسف حبي)، حول الخطيئة وحرية ابناء الله (أ. البير ابونا)، مفهوم السلطة الكنسية (أ. لوسيان جميل)، الصحافة المسيحية: رسالتها ومقوماتها (أ. بيوس عفاص).

(١) للفنان ماهر حربي ٢٨ مساهمة (من بينها ٣ ملفات)، بضمنها إجابة، فضلاً عن باب "من جعبتي" على مدى ١٤ عاماً (١٩٨١ – ١٩٩٤). نشر له مقالان في "المختار". كان عضوا على مدى الثلاثين سنة في هيئة التحرير الاستشارية بالموصل.

(٢) احصينا للاب لوسيان جميل ٥٣ مساهمة (من بينها ٩ ملفات)، وبضمنها ٣ إجابات و ٨ "من وحي الانجيل". نشرت له ٤ مقالات في "المختار". كان عضوا على مدى ٣٠ عاما في هيئة التحرير الاستشارية بالموصل.

(٣) للاب يوسف عتيشا الدومنيكي ٣٥ مساهمة (من بينها ملفان)، وبضمنها إجابة. نشر له مقالان في "المختار".

(٤) كان للاب بطرس حداد (+٢٠١٠) ٥ مساهمات، احداها الملف المنشور هنا.

(٥) ليس لها سوى هذا الملف.

ملف شباط ١٩٧٤ .... الاب لوسيان جميل

المسيحية والقيم الاشتراكية

منذ ان اصبحت الفكر المسيحي، عام ١٩٧١، مجلة جامعة، كانت مقالات الاب لوسيان جميل -عضو هيئة التحرير الاستشارية في الموصل- إسهامًا جادًا في تحريك المياه في الفكر التقليدي وتنشيط حركة التجدد التي اطلق شرارتها المجمع الفاتيكاني الثاني... لقد أحدثت مقالاته احيانا ردود فعل عنيفة، إلا انها اتسمت دوما بالقدرة على نفض الغبار عن متراكمات في تقليد الكنيسة والتخلي عن لغة الادانة والتحريم وفتح صفحة الحوار مع العالم المعاصر في قيمه وتوجهاته...

والملف في القيم الاشتراكية وإمكانية انسجامها مع التوجهات الاصيلة للايمان المسيحي يسهم في تبني نظرة ايجابية متفائلة تجاه الاشتراكية، ليس لكونها قيمة علمية وانسانية حسب، بل لأنها تحمل في طياتها ابعادًا صوفية...

اذا كانت الاشتراكية تطبيقًا علميا للنظرية الديالكتيكية في مجال علاقات الانسان الاقتصادية والاجتماعية، فانه مما لا شك فيه، بحسب هذه النظرية ذاتها، ان قيما جديدة تفرض نفسها نتيجة هذا التطبيق، فتشكل البناء الفوقي للتغيير الذي طرأ على وسائل الانتاج والعلاقات الاقتصادية، او ما يسمى بالبناء السفلي.

وبما ان الاشتراكية مرحلة معاصرة من تاريخ البشر، كان يتحتم القول منطقيا بوجود تعارض بين القيم المسيحية التي اتى بها المسيح قبل الفي عام، وبين القيم الحديثة الناتجة عن المرحلة الاشتراكية.

ان هذا الاستنتاج المنطقي كان يمكنه ان يكون صحيحا، لو كان بالامكان حصر المسيحية بدعوة زمنية واعتبارها البناء الفوقي لمرحلة من مراحل تاريخ البشر فقط، او فلسفة هذه المرحلة لا غير.

ولكن من حسن حظ المسيحية انها ليست كذلك، اقله بالنسبة للمؤمنين بها جديا. وعليه يستطيع المؤمن المتعمق ان يجد في مسيحيته مبدأ للثورة الدائمة، رغم ظواهر البطء في خلعها اثوابها القديمة لاسباب لا تمت الى جوهرها بصلة.

ان المسيحية دعوة روحية بالدرجة الاولى، لكنها ليست دعوة اثيرية غير مجسدة، ومفصولة عن حياة الانسان. ففي الحقيقة، ليس عالم الروح مفصولا عن عالم المادة بالقدر الذي يظن البعض، بل هو مكمل له، وبهذا المعنى تكون الدعوة المسيحية، رغم روحانيتها، دعوة انسانية موجهة لكل الانسان. وفي الواقع، بالرغم من تأكيد السيد المسيح لروحانية دعوته "اعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله" (متى ٢٢:٢٢)، فقد كانت دعوته الروحية هذه

نداء للثورة في كل مكان؛ وقد تجاوبت اصداء هذا النداء في العالم كله ففجر اطر العالم الاقتصادية والاجتماعية والانسانية، ونشل الانسان من حتمية الشقاء الذي كان فيه، لانه جعله **يعي امكانية التغيير والتغلب على القدر والسيطرة على المستقبل.**

وتتلخص دعوة المسيح الروحية في تأكيده على بنوّة الانسان لله، ومعنى ذلك ان الانسان يُرفع الى أعلى من ذاته، ويُنقل من المحدود الى اللامحدود، ومعنى قولنا أيضًا ان الانسان يتجاوز انسانيته فينفتح على الآفاق الفائقة الطبيعة ويدخلها.

من هذه البنوة الالهية انبثقت قيم كثيرة دعا اليها المسيح، وحرض عليها الرسل وآباء المسيحية ومعلموها. وهذه القيم على درجات متفاوتة من الديمومة والأهمية بحسب قوة علاقتها بالقيمة الاولى او أصالتها في كيان البشر.

ويهمنا هنا ان نؤكد ان المسيح قد احترم الطبيعة البشرية احترامًا كبيرًا، فلم يخترع قيمًا للانسان و لم يجلب له قيمًا من العالم الاخر، اللهم إلا القيمة الاولى التي هي بنوة الانسان لله وما يتعلق بها بشكل مباشر، مثل المحبة المسيحية التي تعني محبة الله ومحبة الانسان "كما احبنا المسيح نفسه"، أي بمحبة الهية، اضافة الى المحبة البشرية. أما القيم الاخرى، فهي نابعة من كيان الانسان نفسه ومن المجتمع البشري الذي يعيش فيه، وليست مفروضة عليه من الخارج، إلا اذا تكلمنا عن هذا الخارج كعلة أولية، وهذا أمر له شأن آخر. فالمسيح، اذن، لم يفعل اكثر من اكتشاف القيم الانسانية وميّزها عن قيم الفريسيين البالية بروح منفتحة. وجميع هذه القيم التي تبناها، رغم انها تسمى الآن "قيمًا مسيحية"، هي في الواقع قيم انسانية تبناها المسيح لانسانيتها، أي لانها تخدم الانسان وترفع من شأنه وتجعله اكثر انسانية، وبالتالي اكثر جدارة بدعوته في البنوّة الالهية.

وبما ان القيم التي تبناها المسيح هي في أصالتها قيم انسانية، فهي بالتأكيد عرضة للتطور على مر الاجيال، لأن الانسان نفسه كائن متطور، فما كان يصلح له قبل الف او الفي عام قد لا ينفعه اليوم او قد يضره أيضًا؛ وما كان في الماضي يساعده على التحرر، قد يقيده اليوم ويجعله عرضة للاستلاب والضياع ويحرمه بالتالي من أسباب العيش كابن لله.

ينتج مما تقدم ان تطور القيم لا يؤثر بشيء على الدين المسيحي، **لأن القيم هي التي تتغير وليس الدين.** فالدين المسيحي عندما تبنى القيم الانسانية، فقد تبناها كما كانت عليه قبل الفي عام، أي في أوج صلاحيتها للانسان، و لم يكن ببال المسيح ان يرشد اتباعه الى كل ما سيحدث بعد الاف السنين. ولو فعل ذلك لكان امرا غريبًا حقا وبعيدا عن واقعية المسيح، ولما كنا بحاجة الى وعد الروح القدس وعمله، هذا الروح الذي قال المسيح عنه: "وانا أسأل ابي فيهب لكم مؤيدا اخر يبقى معكم الى الابد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم ان يتلقاه لانه لا يراه ولا يعرفه، اما انتم فتعرفونه لانه يقيم معكم وهو فيكم" (يوحنا١٤: ١٦-١٧)، و "متى جاء روح الحق ارشدكم الى الحق كله" (يوحنا١٦: ١٣). اننا بواسطة هذا الروح، نكتشف كل يوم ارادة الله من خلال حياة الانسان وتطور هذه

الحياة وعلاقتها بالواقع والتطبيق اليومي. ان الدين المسيحي ليس دينًا مقررا، جملة وتفصيلا، مبدأ وتطبيقا، منذ مجيء المسيح وحتى انتهاء العالم؛ والانجيل ليس دستورا او قانونا للمسيحيي، بل هو دليل روحانيتهم ونموذج يجب الدخول الى جوهره قبل تطبيقه على الحياة الواقعية.

فاذا وجد، إذن، أي تناقض بين القيم المسيحية والقيم المعاصرة، فذلك من صنع العقليات المحافظة، لان المحافظة في كل الامور، كما تدل التسمية على مضمونها، ليست سوى تجميد لما كان حقيقة حية قابلة للتطور. وفي هذا التجميد يكمن الضلال، فيبتعد الانسان عن الحقيقة بتشبثه بأطلالها واثارها. والمحافظة في امور الدين ليست مستثناة من هذه القاعدة، لا بل ان المحافظة في الدين اكثر خطرًا مما هي عليه في الشؤون الاخرى، لانها توجه الانسان نحو امور شكلية وزائفة، معتبرة اياها امورا حيوية وجوهرية، في الوقت الذي لم تعد كذلك. وهكذا يبتعد الانسان عن واقعه ليعيش في الخيال ويتعامل مع قضايا خيالية على مثال دونكيشوث تماما، او على مثال الفريسيين في عهد السيد المسيح، وكل ذلك باسم الدين طبعا. فهل من اساءة اكبر الى حياة الانسان والى الدين من مثل **المحافظة في الدين؟**

وبما اننا نتكلم عن المسيحية والقيم الاشتراكية، بنوع خاص، يمكننا ان نؤكد وبدون تردد انه ليس ثمة تناقضا بينهما فحسب، بل هناك انسجام وتوافق ظلا خافيين على كثيرين مدة طويلة، لاسباب تتعلق بالتطبيق الاشتراكي نفسه من جهة، وبعقلية محترفي الدين وبيئتهم الاجتماعية وغياب دور المسيحيين العلمانيين، او ما يمكن ان نسميهم بالقاعدة، من جهة اخرى. اما سبب الانسجام هذا، فهو كون القيم الاشتراكية قيما انسانية تنبثق من مرحلة تاريخية، اقتصادية واجتماعية، معاصرة وتقدمية. وان المسيحية تسعى بطبيعتها الى القيم الانسانية. واليوم نشاهد قطاعات من المسيحيين، تزداد يوما بعد يوم، مقتنعة بانسانية المبدأ الاشتراكي وضرورة تبني المسيحية له، كما فعلت سابقا مع غيره من المبادئ والقيم الانسانية، اذا ارادت ان تكون واقعية وعلمية ومنسجمة مع دعوتها في خدمة الانسان وتحريره ورفعه، **هذا الانسان الذي تؤمن المسيحية انه ابن الله، والذي يجب عليه ان يكون انسانا حقا كي يكون اهلا للبنوة الالهية كما قلنا من قبل.**

ولكن سبب الانسجام بين الاشتراكية والمسيحية لا يكمن فقط في كون الاشتراكية قيمة علمية وانسانية، بل لكونها ايضا قيمة صوفية[1] قريبة من الصوفية المسيحية. فالاشتراكية لا تعني فقط التوزيع العادل والغاء الملكية، بل تعني بالاخص الحرية او التحرر. ان هذا التحرر قائم في النظام الاقتصادي الذي عليه يبنى النظام الاجتماعي. فالاشتراكية تدعو الى تحرر طبقي عن طريق الغاء الطبقات وامتلاك الدولة للراسمال ولوسائل الانتاج. ومن هذا التحرر الطبقي، ينتج تحرر انساني، اذ تعود الى الانسان انسانيته المسلوبة ويسود الاخاء والمحبة بين الناس وينتشر العدل والقناعة. اما الصوفية المسيحية، فمبنية في اساسها، كما اسلفنا، على البشرى السارة الكبرى التي اتى بها المسيح واعني بها بشرى بنوة الانسان لله. ومن هذه البشرى، اكتشف المؤمن بالمسيح **اخوّة البشر الشاملة وما يترتب على هذه**

الاخوة من التزامات المحبة والمساواة والعدل والسلام. كما اكتشف المؤمن بصورة خاصة قيمة الانسان الالهي، هذا الانسان الذي هو فوق كل شيء لانه ابن الله. فهو فوق المال والجاه والقوة وكل ما من شأنه ان ينال من عظمته. ان هذا الاكتشاف قد تم على يد المسيح نفسه، فالمسيح دعانا لنسمي الله ابانا: "فصلوا انتم هذه الصلاة: ابانا الذي في السماوات" (متى٦:٩)، وقد دعا المسيح الى التقليل من شان المال وحذر من مخاطره: "لا تكنزوا لكم كنوزا في الارض" متى٦:١٩، "الحق اقول لكم: يعسر على الغني ان يدخل ملكوت السماوات. واقول لكم: ان يدخل الجمل في سم الابرة ايسر من ان يدخل الغني ملكوت السماوات" (متى١٩:٢٣-٢٤).

لم يتكلم المسيح بشكل علمي عن المجتمع البشري كما فعل كارل ماركس، لكنه لم يكن اقل وضوحا واقل جذرية منه في هذه الامور. وفي الواقع لم يعطنا المسيح محاضرات عن الزهد والغنى، ولم يتكلم عن المال بشكل نظري، بل تكلم عنه كما عرفه هو وعرفه مستمعوه، اعني عن المال بيد طبقة، هذا المال الذي كان عنصرا اساسيا في تقييم الانسان واحترامه واحتقاره، المال الذي كان سببا للتناحر والحروب ولجميع اشكال التسلط والقهر والاستبداد، المال الذي قسم ابناء الله الى سادة وعبيد، اناس لهم الكرامة والمهابة والسطوة، واناس هم لا شيء. والمسيح لم يكن ضد رفاهية الانسان وتقدمه الاقتصادي وسعيه من اجل هذه الرفاهية، ولكنه **كان ضد التخريب الانساني الذي يفعله المال في الظروف** الطبقية التي تكلمنا عنها، هذه الظروف التي كانت الاطار الموضوعي لحياة الانسان في عهد المسيح، وما بعد هذا العهد؛ واذا دعا المسيح الى الزهد، فما ذاك الا كوسيلة **للاحتجاج** على زيف الحياة المبنية على المال وعلى العبودية الناتجة عنه.

ان الاخوة الشاملة التي علمها المسيح لتلاميذه هي التي دفعتهم الى ممارسة شكل من اشكال الاشتراكية في بدء عهد المسيحية، وان لم تدم طويلا: "وكانوا مواظبين على تعليم الرسل، والشركة، وكسر الخبز، والصلوات. ووقع الخوف على كل نفس. لان عجائب وايات كثيرة قد جرت على ايدي الرسل. وكان جميع المؤمنين يعيشون معًا، وكان كل شيء مشتركًا فيما بينهم. وكانوا يبيعون املاكهم ومقتنياتهم ويوزعون اثمانها على الجميع بحسب حاجة كل واحد منهم" (اعمال٢:٤٢-٤٥)، وايضا: "وكان لجمهور المؤمنين قلب واحد نفس واحدة، ولم يكن احد يقول عن شيء يملكه، انه له، بل كان كل شيء مشتركا في ما بينهم. وكان الرسل، بقوة عظيمة، يؤدون الشهادة بقيامة الرب يسوع، وكانت عليهم جميعًا نعمة عظيمة، ولم يكن فيهم محتاج، لان جميع الذين كانوا يملكون حقولا وبيوتا، كانوا يبيعونها، ويأتون باثمان المبيعات ويلقونها عند اقدام الرسل،وكانوا يوزعون منها لكل واحد على حسب احتياجه" (اعمال٤:٣٢-٣٥).

من كل ذلك نستنتج ان الاشتراكية الحديثة (الاشتراكية العلمية) قد خلقت مناخا اكثر ملاءمة للحياة المسيحية من المناخ الذي تخلقه الرأسمالية، **شرط ان يتسم التطبيق الاشتراكي بالديمقراطية الحقة والمشاركة الفعلية للشعب في تسيير حياته وباحترام كامل لكل انسان.** وبديهي انني حين اتكلم عن الديمقراطية، لا اقصد هنا الديمقراطية البرجوازية الغربية التي

اعتبرها مسخًا للديمقراطية؛ كما اني لست ضد ما يسمى بالديمقراطية الموجهة، شرط الا يكون هذا التوجيه بديلا للمشاركة الشعبية التي هي اساس كل ديمقراطية.

في ختام هذه المقال يمكننا ان نقول بان الصوفية الاشتراكية تسعى الى تمجيد الانسان، والمسيحية تسعى الى تأليهه، وهذا التأليه يتحقق ويكتمل بتمجيد الانسان، واذا كان للمسيحية طريقتها الخاصة في تأليه الانسان، أي يسوع المسيح الاله المتجسد، الا انها تعتمد على الطرق الانسانية للوصول الى ذلك. فالاختلاف، إذن، بين الانسان الاشتراكي والمسيحي ليس في الاشتراكية والقيم الانسانية المنبثقة عنها، ولا في نوعية الاشتراكية التي يتبناها كل من الاشتراكي والمسيحي، لان الاشتراكية العلمية هي واحدة للجميع لكونها علمية، بل الاختلاف هو في الانسان بتمامه. فاننا نعتقد ان الانسان المسيحي هو "ما وراء الانسان الاشتراكي[٢]" وإن كان يتضمنه.

(١) الصوفية هي نزعة الانسان الروحية للاتصال بالله. ومن باب التوسع تعني القيم الصوفية ما له علاقة بمثل الانسان العليا.

(٢) تعبير فلسفي نعني به ان للمسيحي ابعادًا تفوق الابعاد الانسانية المحضة.

مشكلة الاجهاض في المجتمع العصري

كان ولما زال صوت الكنيسة، بلسان احبارها العظام، يرتفع عاليا، دفاعا عن قدسية الحياة منذ لحظة تكوينها في الجنين. والكنيسة تستنكر عمليات الاجهاض التي تجري، في العلن او الخفاء، وبذرائع كثيرة وحجج مختلفة.

موضوع الاجهاض كان في السبعينات موضوع مجادلات طويلة في اغلب الدول، وقد كانت ايطاليا تمضي بالتشريع الى اباحته وادرجته في تعديلات قانونية... وهذا الملف نقدمه من وجهة نظر انسانية تنسجم مع النظرة المسيحية من اجل صيانة الحياة واحترامها، ومن اجل كرامة المرأة وحقوقها كذلك.

والاب يوسف عنيشا راعي ومدير "الفكر المسيحي" في الموصل، له مقالات عديدة في قضايا راعوية وتربوية ولاهوتية.

ان مشكلة الاجهاض باتت اليوم، لا سيما في المجتمع الغربي، من اكثر المواضيع اثارة للجدل، فانقسمت الاراء حولها وتجندت وسائل الاعلام لنقل كل شاردة واردة عنها. وفي غمرة هذه الضجة، جاهرت الكنيسة برأيها الصريح. اجل ان المشكلة اجتماعية واقتصادية وأدبية، بالاضافة الى جوانبها الانسانية. لذا وجب ان تدرس على ضوء العلوم الحديثة. وان تتضافر القوانين المدنية والشرائع الدينية في ايجاد حل انساني سوي لها، سيما وان هناك عمليات اجهاض خفية تجري، واكثر مما نتصور —وليست مجتمعاتنا العربية، والمجتمع العراقي بالذات، بعيدة عن هذا الواقع المر. وكم من مأساة وراء هذا التستر! لنأت الى صلب الموضوع.

اولا: احترام الطفل، وهو انسان مستقل:

تولي المسيحية الكرامة والشرف الانسانيين أهمية رئيسة. فالانسان مخلوق على صورة الله ومدعو للاشتراك في سر قيامة الرب يسوع، لكي يشاركه في الحياة الدائمة بصفته ابن الله ويحصل على كمال الحياة والحب الالهي والاتحاد به وباخوته البشر.

ان حياة الانسان، في جوهرها، شيء مقدس، وهي الانسان نفسه يسير نحو الاتحاد السامي مع الله. اما وجود الانسان على الارض، فيمر في حقبات زمنية تنيله النضج والبلوغ. فكل محاولة تسعى للقضاء على الحياة، في اية مرحلة من مراحلها، تعني منعها من تحقيق هذا النضوج لتكون اهلا للدعوة الالهية؛ ومن ثم تعني ارتكاب جريمة ضد العدالة. ان احترام حياة القريب قاعدة اساسية للعمل في المجتمع الانساني. فالله محبة، وعلينا ان نحب بعضنا بعضا، **والحب دعوة الى الحياة**. ان وصية "لا تقتل" ليست طبعا قمة الانجيل ، الا ان الرب جعلها شرطا ضروريا للمحبة ومفتاح التزاماتها. ان منطق الحب يقود الانسان الى

التمثل بيسوع الذي قدم نفسه ذبيحة من اجل الاخرين: "ما من حب اعظم من هذا ان يبذل الانسان نفسه عن احبائه" (يوحنا١٥:١٣). ولكن هذا العطاء السخي، ثمرة المحبة، يختلف عن غيره من التضحيات، لا سيما اذا حركتها انانية تافهة.

والكنيسة التي هي امتداد للمسيح تعلن دوما ان الحياة الانسانية ثمينة جدًا، وان المحافظة عليها امانة بعنق الانسان.

الا ان هناك حالات تكون فيها حياة الام وحياة جنينها معرضتين للخطر -وهذه الحالات اصبحت نادرة نسبيا نظرًا لتقدم الطب. فالكنيسة تسمح اذ ذاك، باجراء عملية جراحية حتى إذا ما نتج عنها، بصورة غير مباشرة، فقدان احدهما بالرغم من الجهود المبذولة لنجاته. فثمة مبدأ اخلاقي يقول: **اذا كانت حياتان مرتبطتين في مصير واحد، فلتبذل الجهود، قدر المستطاع، لتخليصهما كليهما معا، واذا لم يكن ذلك ممكنا، فلتبذل الجهود لتخليص واحد منهما على الاقل، فلا يهلك كلاهما.** فاذا لم يكن مباحًا إهلاك حياة كائن بريء مباشرة وبتعمد، حتى اذا كانت حياة الاخر مهددة بسببه، فكم بالاحرى لا يجوز القيام بالاجهاض بحجة سلامة الصحة، او التوزان النفسي، او التفاهم بين الزوجين، او اذا تذرعا بحجج اقتصادية او اجتماعية واهية؛ فلا يجوز ان ينظر الى الجنين وكأنه يسلب حقوق الام، ومن ثم يجب حذفه.

ثانيا- تعليم العقل:

لقد حقق عصرنا تقدما عظيما في شتى الميادين، وذلك يسرنا، ولكننا نشجب في الوقت ذاته كل ما يشين حقوق الانسان ويستعبده او يهدد حياته: الحروب والعنف وسوء التغذية والامراض وغيرها من الاسباب التي تهلك البشر.

اننا نطالب باحترام حقوق الانسان في وقت تبذل فيه الجهود للقضاء على التمييز العنصري، وكسر الفروق بين الطبقات. **فهل نقبل، يا ترى، مذلة الانسان باسم قانون يبيح الاجهاض؟** ان الامم المتحدة ترفض قبول ارتكاب هذا الجرم، وقد اتفق اعضاؤها باجماع الاصوات، فأعلنوا: "ان الطفل يحتاج الى عناية خاصة قبل الولادة وبعدها، نظرا الى نقص في نضوجه الطبيعي" (حقوق الانسان: الامم المتحدة، تشرين الثاني سنة ١٩٥٩).

ثالثًا- الجنين كائن انساني منذ الحبل به:

في محاولة للتنصل من مطاليب الاخلاق والحق، يلقي البعض الشك في الصفة الانسانية للجنين في المراحل الاولى من الحمل؛ ولكن التعليم الكنسي يعلن: لا يجوز إلحاق الاذى بهذا الكائن الحي حتى اذا ما افتُرضت بشأنه، جدلا، بعض الشكوك، **لان الجنين، حتى في لحظات تكوينه الاولى، هو كائن انساني في طريقه الى نيل البلوغ، وليس ثمة أي برهان**

علمي يقدر ان ينكر الصفة الانسانية للجنين. وهؤلاء الذين ينفون صفة الانسانية عند الجنين، عاجزون عن ان يوضحوا متى تبدأ الحالة الانسانية بالضبط.

قبل التلقيح، توجد خليتان، ذكرية وانثوية، تنبعثان من حياة الرجل والمرأة، ومصيرهما الموت بعد لحظات كغيرهما من الخلايا الا اذا اتحدتا؛ ومن جراء هذا اللقاء يتم الاخصاب فيصبحان خلية واحدة بداخلها حيوية خاصة؛ وفي جوهرها حياة ذاهبة نحو النمو لتكوين فرد مستقل وشخص انساني لن ينتهي الا بالموت. والبويضة الملقحة تحتوي منذ بدايتها على منهاج الكائن الجديد.

ويقف علماء الحياة لدى حدود علمهم واختبارهم، ولا يمكنهم ان يبدوا رأيهم حول الشخصية؛ ولكنهم يعترفون ان الشخص البالغ مرتبط مباشرة بهذا التركيب الاول المكون من خلية الاب والام، ومنهما تكونت خلية جديدة مختلفة عن الخليتين السابقتين تتطلع نحو الحياة والاكتمال في خط انساني واضح. هذا التأكيد يُفرض علينا على صعيد علمي وفلسفي. وقد اثبتت الاستنتاجات العلمية، انه لا يوجد فصل بين ما هو انساني ولا انساني في مراحل الجنين الاولى، وان كل مرحلة تحتاج الى الاخرى، **ولا يوجد مرحلة اكثر اهمية من الاخرى، وكلها ضرورية لحياة الكائن الجديد.** ومن جهة اخرى، فان كافة مراحل الكائن الانساني: التلقيح، الاستقرار في الرحم، نمو البويضة، الجنين خلال تسعة اشهر، الولادة، مراحل حياة الطفل بعد الولادة وحتى البلوغ النهائي، كلها مراحل لكائن واحد. وقد تحدث عوارض طبيعية غير متوقعة على حياة هذا الكائن وهو في طريقه نحو النضوج، غير انه ليس للانسان ان يضع بنفسه حدا لهذه الحياة او يقضي على نمو الطفل، سواء كان ذلك قبل ولادته ام بعدها.

رابعا- الطفل قبل الولادة مزمع ان يصبح شخصا مستقلا:

وثمة من يرى ان تكوين العلاقات الشخصية يعود الى الوالدين فيقول: هل ان الجنين انسان حقا قبل قبوله والاعتراف به، واعطاء اسم له من قبل والديه واندماجه في عضوية العائلة وفي المجتمع؟ ونتيجة هذا التفكير "التملكي"، ترفَض له الشخصية في الولادة كنتيجة منطقية! ودعاة هذه النظرية الخرقاء سخروا وسائل الاعلام وبثوا الدعاية لجعل الاجهاض عملا غير مرتبط بقوانين ادبية واجتماعية وشرعية، وكأنه من اختصاص علم الطب وحده فقط، في زعمهم. وقد احرز الطب في بعض البلدان تسهيلات كبيرة. **فاصبح الاجهاض جنازة مجتمع تسلطت عليه المادة،** وابيح لأتفه الاسباب. ومن الاسباب الادبية المطروحة ما يحتاج حقا الى مناقشة، منها:

١-قرار بعض العائلات الامتناع التام عن الانجاب. ومثل هؤلاء الازواج يفصلون كليا بين الحياة الجنسية والانجاب، ولمجرد هذا القرار يقدمون على الاجهاض اذا ما اعترضهم، لان الطفل القادم غير مرغوب فيه، فيكون الاجهاض اذ ذاك كوسيلة لمنع النسل.

٢-اعطاء الاهمية الكبرى لدور الابوة والامومة المسؤولة، فالطفل غير المرغـوب فيـه رهن هذه المسؤولية.

٣-المفهوم الخاطئ عن الحرية المبني على اساس التملك او الرفض، فتكون الحريـة في نظر هؤلاء حقا غير مقيد بشرائع، وله ان يتصرف في الحياة كيف يشاء، ويجهل هـؤلاء ان حرية الانسان منوطة بشرائع معينة وامانة للحق. والحرية الشخصية تقف عند حق الاخرين.

٤-النظرية القائلة بان الانسان- الجنين ملك الذين اخصبوه، وللابوين كل الحـق. ان هذا الادعاء هو ضد العدالة، وهو جزء من مظالم المجتمع العصري حيث كثير من البـشر لا يُعترف بحقوقهم . فهذا الجنين قد اقتبل الحياة ويجب اعطاؤه حقوقًا كاملة.

ان كل هذه الادعاءات واباحة الاجهاض بهذه السهولة تشكل تشويـشا في مفهـوم الانسان ومسؤوليته ودعوته، والانجيل لا يمكنه ان يسكت عن اذلال الانسان.

وراء هذه الاراء سفسطة لا بد من اظهار بطلانها، وهي انه لا يمكن معاملة كـائن لم تبرز بعد حريته الى حيز الوجود كفرد بشري له استقلاله وشخصيته المميزة، فهو عاجز عن التفكير الذاتي واتخاذ المسؤولية في هذه المرحلة. لا شك ان حب الوالدين للطفل المنتظر يخلق عندهم روابط جديدة تجاه الولد، وجوًّا ملائما لاستقباله، وهذاعنصر مهم ومفيـد لنمـو الطفل في المستقبل. ولكن هذه العلاقة لا تعتبر مصدرا لقيمة الشخص، ولا اساسًـا لمـس حقوقه الانسانية، بل بالعكس، **فالشخصية المفتوحة للنمو عند الجنين هي مصدر لواجبات الوالدين والمجتمع ازاء الطفل القادم**؛ والوالدون الذين لا يمنحون أطفالهم الغذاء والتربيـة والحنان، يعتبرون غير أهلٍ لابوّتهم؛ واذا رفضوا ان يحبوهم، فانهم يُلحقـون بهـم ضـررًا جسيمًا؛ واذا وصلت بهم عدم رغبتهم بولدهم ورفضهم الاعتراف به الى استئصاله، فهـم يرتكبون جرما، جرم القتل. الا انهم في حالة عدم تمكنهم من اعالة الطفل، يمكنهم ايداعـه عند غيرهم او في احدى دور الحضانة المختصة للقيام بتربيته. وهناك طريقة اخـرى هـي افضل بكثير من الاجهاض للولد وللوالدين، هي جال التبني. ان شرعة حقـوق الانـسان تطالب بحماية الطفل الذي لا ينطق ولا يستطيع الدفاع عن نفسه.

خامساً: حقوق المرأة:

لا بد من الاعتراف ان الاجهاض يضر بالمرأة ضررًا جسيمًا من النـاحيتين الـصحية والنفسية، بالرغم من مزاعم بعض الدعايات التي تقلل من هذه المـضرة. فقـد اظهـرت استفتاءات نشرت في البلدان التي يمارس فيها الاجهاض المسموح به قانونيا من قبل السلطة المدنية، وكذلك العمليات التي اجريت في مستشفيات خاصة، ان الاجهاض يلحـق أذيـة جسيمة بصحة المرأة، وله تأثير سيء على حالة الحمل الذي يتبع، ويضر ايـضا بالاطفـال الذين يولدون بعد هذا الاجهاض. والاخصائيون في علم النفس يتحدثون عن الآثار العميقة في الضمير اللاواعي لاولاء النساء؛ وتظهر النتائج السلبية في ازمات مختلفة حـين تـصاب

القيم الادبية لديها بخلل، ليس لكونها كانت مسرحا لخرق كان ممنوعا، بل لان ثمة جريمة اقترفت بحق كائن حي، وذلك مما يخالف كيان المرأة اساسا ودعوتها كمربية. ذلك ان في طبيعة الانثى تناقضًا مع كل ما يضاد الحقوق ويحترم الحياة، ومعظم النساء اللواتي خضعن لهذه التجربة القاسية يظهرن كراهيتهن لهذا الحل اللا انساني.

ان دعاة الاجهاض الذين يعتبرونه تحررا للمرأة، يجدون انفسهم امام نتيجة عكسية، اذ ان الاجهاض استعباد للمرأة نفسها لا غير. فمثل هذا التساهل يجعل من جنس الذكور الذين يسيئون التصرف يعاملون المرأة كاداة متعة، ولا ينظرون اليها كشخص له كرامته، ولا يحترمون طبيعتها وضعفها ومواسم خصوبتها، فيلجأون الى التخلص من المسؤولية، والقائها كلها على المرأة. **افليس قتل الكائن الحي الذي يحيا في احشائها انتقاصا من دورها في الامومة ونسفًا لحريتها ونهضتها في المجتمع؟**

ان هذا التدهور في القيم صادر عن الفكرة الخاطئة عن الامور الجنسية، حيث ان اشباع الرغبة الجنسية في حد ذاته يعتبره البعض قيمة شرعية يمكن البحث عنها دون قيد او شرط في كافة مظاهرها.

إلا ان العمل الجنسي لا يعتبر صالحا إلا اذا اكمل حسب الشرائع الادبية وفي الشركة الزوجية بين الرجل والمرأة، وليس حسب الرغبات المنحطة؛ **فالعمل الجنسي يصبح ابتذالاً وانحطاطًا عندما تمليه الانانية**؛ والانانية نقيض الحب الذي هو ركيزة العمل الجنسي السليم.

اما الحرية الحقيقية عند المرأة، تلك التي تمارس فيها مسؤوليتها، فهي التي تحياها في قرار مسبق للحمل. هذه الحرية تقتضي احتراما متبادلا بين الزوجين وضبطًا للنفس، وفهم معنى الالتزام والامانة والحب الطاهر. فالمرأة التي اعطي لها ان تكون حارسة للحياة لن تجد حريتها الحقيقية الشرعية الا متى مارست دورها الكامل كأم ومربية للحب. والرجل، بما انه شريك الحياة، لا يقل دوره المسؤول، وعليه ايضا ان يبذل جهده لحماية الحياة التي هو ايضا مصدرها كأب.

نكرر القول، بان الاجهاض ليس حلا نهائيًا للمشاكل، واننا نقر ونعترف بوجود حالات اجتماعية وصحية يظهر فيها الاجهاض وكأنه الملجأ الأخير. ولكننا نكرر، باسم الحياة والعدالة، بانه ليس حالة مهما بلغت من المأسوية تبرر القضاء على شخص بشري أعزل وهو في حالة تكوينه.

اننا نوجه نداءنا الى النساء اللواتي يجدن انفسهن في حالة تعيسة لأن الجنين الذي في احشائهن غير مرغوب فيه، أن يلجأن الى التفكير والوعي قبل الاقدام على مثل هذا القرار الذي يمس ضمير الوالدين ومسؤولياهم مباشرة. ولهذا نطالب بتربية الضمائر تربية واعية مسؤولة لدى المقبلين على الزواج. ومن جهة اخرى، نهنئ الوالدين الذين يعتنون بالأولاد المرضى والمشوهين، أو يتبنون اطفالا حرموا من عاطفة ابويهم، فان عملهم هذا ومثالهم البطولي يستحق الثناء والبركة من الله.

ملف نيسان ١٩٧٤ .... الاب عبد السلام حلوة

العنف الثوري

الاراء التي تطرحها مقالات الاب حلوة في الثورة والعنف الثوري والقيم الاشتراكية... ليست نظريات مكتملة ولا هي اجوبة جاهزة تدّعي اعطاء الحلول النهائية للقضايا المطروحة. كما وانها، من جهة اخرى، ليست من السذاجة بحيث يخال وكأنها تقحم الفكر المسيحي في اجواء ليست اجواءه او هو متطفل عليها. فمن حق المسيحي، بل من واجبه، ان يتساءل عما يجري حواليه وفي العالم من افكار وتيارات. ومن طبيعة الفكر المسيحي الحي ان يتفاعل ويتحاور.

هذه الابحاث، اذن، هي "دراسات" لفهم دور المسيحية في قضايا الحياة والمجتمع الذي نحن افراده، وهدفها المباشر هو طرح القضية وايقاظ الوعي لئلا نبقى نعيش في الاغتراب الفكري والوجودي، وبذلك نفقد حتى مسيحيتنا. وامنية "مجلة الفكر المسيحي" هي ان "تلد" هذه الدراسات حوارًا يوضح رؤانا ورؤى غيرنا علينا ويكثّف وعينا، فنساهم كلنا سوية في تعميق ايماننا واكتشاف التزاماته.

قضية العنف الثوري من القضايا التي تستحوذ على اهتمام الكثيرين، وتعتبر مركز المشاكل التي تطرح على الضمير الانساني اليوم، وغالبا ما استغلت هذه المشكلة من قبل ذوي المصالح لتكوين الاساس الاول لرفض عملية التغيير الثوري ومحاولة التأثير على ضمير الانسان المسيحي، مستغلة بذلك حساسيته الانجيلية تجاه كل ما هو عنف، وبالتالي كسبه الى خدمة مصالحها الفردية.

لماذا كل هذه الاهمية لقضية العنف الثوري؟

ان مجرد التفكير بمشكلة العنف الثوري يثير تلقائيا داخل كل انسان تساؤلات عديدة، وهذا ما يشير الى ان ثمة قضايا انسانية بالغة الاهمية والخطورة وذات علاقة مباشرة مع مشكلة العنف الثوري على الصعيد الفكري وعلى صعيد العمل الفعلي الملموس.

ان التحليلات العلمية للمشكلة تثبت هذا الانطباع التلقائي عند الانسان وتوجه الانظار الى نقطتين رئيستين:

١-**قضية العنف الثوري** لا تأخذ ابعادها الكاملة الا اذا وضعناها في علاقة ضيقة مع العالم الجديد الذي يحاول البعض بناءه بواسطة هذا العنف، او بمعنى اخر نستطيع فهم هذه القضية عند مقارنتها بعملية الولادة الانسانية، أي بمعنى انه لا يمكننا فهم آلام وعنف المخاض من دون ايجاد العلاقة بينها وبين الانسان الجديد الذي يشق طريقه لرؤية النور.

٢-**يولد العنف الثوري** في نظام يعيش هو نفسه على العنف كوسيلة لاستمراريته. فلكي نفهم الاسباب التي من اجلها يضطر الثوريون في العالم الى استخدام العنف الثوري

لتغيير الانظمة الرجعية، علينا ان نفهم اولاً ان ثورة الانسان المستغل (بفتح الغين) ما هي الا نتيجة عنف واستغلال الطبقات البرجوازية المستغلة (بكسر الغين) من اجل الحفاظ على مصالحها الخاصة. وهكذا لا نستطيع الحكم على شرعية العنف الثوري اولا شرعيته من دون وضعه في علاقة جدلية (ديالكتيكية) مباشرة مع النظام الذي يعمل على تغييره. فاذا ما نظرنا الى مشكلة العنف الثوري من هذه الزاوية بالذات لرأيناها تتسع وتتعقد، لذا وجب علينا الحكم موضوعيًا على العالم الحاضر واعداد مشروع عالم جديد في آن واحد.

ازاء مثل هذا الواقع، يصبح من الضروري ان يحدد المرء موقفه شخصيا قبل ابداء رفضه او قبوله للعنف الثوري.

لقد كانت ولا تزال هذه القضية موضوع نقاش وجدال طويلين بين المؤمنين وغير المؤمنين، لا سيما بين المسيحيين والماركسيين؛ وغالبًا ما طرحت هذه القضية بصورة مبسطة انطلاقًا من الافتراض التالي:

هناك طريقتان لتغيير العالم:

١- الطريقة الماركسية عن طريق استعمال العنف[1].

٢- الطريقة المسيحية عن طريق الحب الانجيلي.

ونتساءل من جديد الى أية درجة يعتبر هذا الافتراض صحيحًا؟ هل يشكل العنف الثوري عقبة جوهرية امام العمل المشترك بين المسيحي وسائر الفئات الثورية؟

يقابل الثوريون بدهشة موقف المسيحيين الذين يدافعون بحرارة عن مبدأ الحرب العادلة، والذين عملوا اثناء انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني على تجنب ادانة الحرب ادانة كاملة بجميع اشكالها، هم انفسهم اليوم يدينون ويرفضون بصورة مطلقة العنف الثوري. فهل الحرب من أجل قضايا عادلة، تختلف عن النضال الثوري العنيف الناتج عن رفض نظام اجتماعي قائم على الاستغلال واللاعدالة؟ سؤال يبقى مطروحًا على ضمير المسيحيين الذين يرفضون عملية التغيير الثوري بحجة انه يقوم أحيانًا عن طريق العنف الذي لا يتفق ومبادئ الحب الانجيلي.

• الحب الانجيلي والعنف الثوري:

الانجيل هو حب. لا يختلف في ذلك اثنان: "اوصيكم وصية جديدة: أحبوا بعضكم بعضا". وقد قيل الكلام الكثير في هذا الحب وفي محتواه وتغنّى به الشعراء، وتعمق في معانيه الفلاسفة والمفكرون، وأعطى له لاهوتيو الكنيسة صبغة مقدسة ورفعوه الى مستوى المثاليات. فالمسيحي يتكلم عن هذا الحب ويتغنى به ويحلم بالعالم المثالي الذي تتحقق فيه متطلبات هذا الحب حيث يستطيع البشر ان يحبوا بعضهم بعضًا على الدوام.

فالحب الانجيلي حب شامل للبشرية جمعاء.

ولكن عندما نجابه الواقع وجهًا لوجه والظلم المتفشي فيه، وعند اكتشافنا انظمة تعيش على الاستغلال والمصالح الفردية وعلى العنف، لا يتعذر علينا اكتشاف واقع العالم اليوم، وهو ابعد ما يكون عن العالم الذي طالما تغنينا وحلمنا به.

فالمشاكل الواقعية لا تُحَلّ مثاليا، بمجرد ابراز فكرة الايمان بها، أي ان مجرد بناء العالم المثالي في افكارنا لا يجعله واقعًا ملموسًا، ولا يجوز لنا تحديد مواقفنا المثالية تجاه القضايا الواقعية انطلاقًا من هذا الوهم، فنرفض العنف الثوري على اساس انه يناهض فكرة هذا العالم المثالي الذي اعددناه نظريًا.

انما المشاكل الواقعية تبدأ بالحل عندما يعمل الانسان فعليًا على تحقيق مشاريعه العلمية الواقعية بصورة تدريجية، مرحلة غايتها إحداث تغييرات جذرية للواقع الحاضر ليجيب على امال الانسان واحلامه بخلق العالم الذي يستطيع الانسان فيه ان يحب أخاه الانسان من دون عقبة.

بمعنى اخر يبدأ بناء هذا الواقع عند التزام الانسان الواقع بكل متناقضاته، وقبوله الصراع والعنف الذي لا بد منه من اجل تغيير هذا الواقع الى الافضل.

من هذا المنطلق يصبح الحب الانجيلي هذا الصراع وهذا العنف الثوري نفسه، ويكف عن ان يكون ذلك الحب الطوبائي المستسلم الساذج: كل شيء جيد وما على الانسان الا ان يحب.

- **عالم جديد وأرض جديدة**

يعتبر الثوريون أن العنف الثوري هو الطريق الى خلق ارض جديدة، عالم جديد للبشر. لنحلل، إذن، هذا المثال الاعلى الذي يسعى الثوريون الى تحقيقه كي نستطيع ان نحكم بصورة منطقية وواقعية على قضية العنف الثوري، فتكون لنا رؤية واضحة، الى حد ما، لابعاد هذه القضية.

علينا اولا الانطلاق من واقع اليوم الذي يمكن اعتباره في حالة مخاض طويل وصعب، تصاحبه الآلام، ومن ميزاته الوجودية العنف. هذا المخاض نحياه جميعا ونصطدم بوجوهه العديدة خلال حياتنا اليومية، اذا ما اردنا الحياة فعلا، واذا ما رفضنا، بكل ما نملكه من قوة، جميع اشكال الهروب من هذا الواقع.

كل شيء يتغير داخل عالمنا اليوم وبسرعة، وعملية التغييرهذه لا يمكن ان تتم من دون أزمات وصراع متواصلين، والانسان يكتشف وهو في حالة ذهول تام أمام هذا التغيير، بأن له قدرة عظيمة على تغيير كل شيء في العالم: الطبيعة، القيم البشرية الخ...

فالتقدم العلمي والتقني (كالصعود الى القمر واختراع الالات الالكترونية) وكذلك التغييرات التي حدثت في الانظمة الاجتماعية والاقتصادية (كالثورات الاشتراكية) وغيرها

من الاحداث جعلت الانسان ينتقل من صورة جامدة للواقع الى صورة ديناميكـة للعـالم؛ فالعالم يجب بناؤه، خلقه، تصوره، أي ان هناك مسؤوليات جديدة امام الانسان المعاصـر، حيث تتحتم عليه المساهمة في تصوير وخلق وبناء العالم.

هذا الوعي العميق امام المستقبل يحيا بصورة رئيسية على الامل الفعال الـذي يـراود قلوب الكثيرين من الذين يعملون اليوم على انجاز عالم لائـق بالانـسان، عـالم جديـد وأرض جديدة.

• ما هي مكونات هذا العالم الجديد؟

من العبث اعطاء وصف شامل ودقيق للعالم في المستقبل، فهذا وصف سيكون حتمـًا وصفًا لعالم اسطوري، ولكن من الممكن اعطاء بعض الاشارات الاساسـية الـتي يمكـن تلخيصها بما يلي:

- **انجاز عالم جديد يستطيع فيه كل انسان ان يحقق آماله العميقة وطاقاته العظيمـة، ويعيش، من ثم، انسانيته بصورة خلاقة وبأصالة خاصة به بصفته انسانًا.**
- بناء أرض جديدة مستوحاة من الرغبة العميقة الكائنة لدى كل واحد منا بان يكون حرا ومتحررًا من كل استلاب (Aliénation) مهما كان نوعها.
- التحرر من سيطرة الطبيعة ومن استغلال اخيه الانسان، لتكون لـه روح المبـادرة التاريخية وحرية التعبير والخلق في المجالات الثقافية والحياتية.

اذا ما وضعنا العنف الثوري بعلاقة مباشرة مع الامل بتحقيق هذا العالم الجديد وهـذه الارض الجديدة، نفهم عند ذلك ان انجاز مثل هذا المثال لا يتم بمجرد الحلم به، وانما يصبح واقعيًا عندما نرفض الانظمة التي لا تسمح بتحقيقه، وعندما نقبـل الـصراع والتنـاقض والعنف، أي عند عبورنا الى مرحلة العمل والنضال من اجل قيام انظمة جديـدة تعطـي امكانيات افضل للانسان كي يكون كائنًا اكثر انسانية.

"ورأيت سماء جديدة وارض جديدة لان السماء الاولى والارض الاولى قد مـضتا ولا يوجد البحر من بعد. وانا يوحنا رايت مدينة القدس الجديدة منحدرة من السماء من عند الله، مهيأة كمثل عروس مزينة لرجلها. وسمعت صوتًا عظيمًا يقول: ها هوذا مسكن الله مع الناس هو يسكن معهم وهم يكونون له شعبا والله نفسه معهم يكون لهم الهـا ولا يكون موت بعد ولا نوح ولا صراخ ولا يكون مرض من بعد لان كل ما كان قديما قد مضى. وقال الجالس على الكرسي: ها انا اجعل كل شيء جديدا" (رؤيا ٢١:١-٥).

يمثل هذا الوعد، أي ان الله سيسكن مع البشر ويكون لهم إلاهًا، وهم سيكونون لـه شعبًا، **يعمل** الانسان الانجيلي **ويأمل ويعيش** ايمانه مع اخوته البشر الاخرين علـى تحقيـق العالم الذي نحس بوجود الله فيه، أي عالم كله حب وكله انسانية، حتى ولو اضـطر الى أن يثور بعنف على واقعه اللا انساني.

(١) هناك بعض الماركسيين لا يعتقدون بضرورة العنف لتغيير العالم.

معهد شمعون الصفا الكهنوتي البطريركي الكلداني

كان قلم التحرير قد كتب في صدر الملف هذه الديباجة:

"في شهر نيسان ١٩٧٣ نشرنا "ملفًا" عن معهد مار يوحنا الحبيب الكهنوتي في الموصل، ووعدنا القراء بتحقيق مماثل عن معهد شمعون الصفا الكهنوتي البطريركي الكلداني، وذلك رغبة منا في التعريف بمعالم كنيستنا في العراق، وها نحن نبر بوعدنا، شاكرين الزميل الاب بطرس حداد، احد تلامذة هذا المعهد الكلداني، على مساهمته".

وفيما ننشر هذا الملف للاب بطرس حداد الذي وافته المنية في بغداد في ٢٦ت٢ ٢٠١٠، نكبر فيه روح المثابرة في البحث عن تاريخ كنائسنا وتقاليدها وتراثها... وقد كانت له كتب عديدة قيمة تشهد على عطائه الثر.

اهتمت الكنيسة المقدسة دائمًا بتهذيب الشباب المقبلين على خدمة المذبح، واعدادهم للقيام باعباء رسالتهم الخلاصية خير اعداد، ولذا فقد شددت في مجامعها المختلفة على تأسيس المعاهد الاكليريكية والاعتناء بها ودعمها.

كانت الكنيسة في العراق، والكنيسة الكلدانية بنوع خاص، تعتمد على الاديرة حيث يعيش الرهبان، فتنتخب منهم من تجده اهلاً للخدمة الكهنوتية، او تقدم بعض الشمامسة المتزوجين الذين تتوسم فيهم اقبالا على خدمة الرب، فترسمهم كهنة لخدمة النفوس. ولما كانت الحياة الرهبانية تختلف عن الحياة الرسولية في وسط الجماعة المسيحية، فقد فكرت الكنيسة واهتمت بانشاء معاهد دينية مختصة، ومنها معهد شمعون الصفا الذي نحن بصدده.

• التأسيس

لقد راودت البطريرك نيقولاوس زيا (+١٨٤٧) فكرة تأسيس معهد اكليريكي، لكن الظروف لم تساعده. ولما خلفه البطريرك السعيد الذكر مار يوسف اودو (١٨٤٨-١٨٧٨) اهتم اهتمامًا بالغًا بهذا الموضوع[1]. وبالرغم من الظروف الحياتية والاجتماعية الصعبة، فقد تمكن من اقناع ابناء الطائفة، والموصليين منهم بنوع خاص، فتح معهد صغير في الدير الملاصق لكنيسة مار اشعيا (القوناغ) في الموصل نحو سنة ١٨٦٠ وعهد ادارته الى القس (المطران) بطرس- ميخائيل برتتر.

فرح ابناء الطائفة بهذا المشروع، وشعروا باهميته، فراحوا يشجعونه بالدعم المعنوي والمادي. في تلك الاثناء كانت الاجواء قد بدأت تتكهرب بسبب نشوب "المعركة

المبارية"-التي لا يسمح لنا المجال الخوض في شرح اسبابها ونتائجها- فكان المعهد من بعض ضحاياها. فغلق ابوابه بعد حياة قصيرة اعطى خلالها الطائفة خمسة كهنة.

لكن الله الذي يسهر على شؤون كنيسته، لم يهمل الطائفة. ففي خضم الاحداث، اذا براهب كلداني- لعازري من ابناء ديار بكر، هو الاخ **روفائيل- انطون ابن القس بطرس مقدسي آل مازجي**، يظهر ليلعب دورًا في التاريخ، ويسجل لاسمه البقاء المجيد.

كان الاخ (ثم الشماس) روفائيل قد ورث عن ذويه اموالاً طائلة، فقرر تسخيرها لمنفعة مواطنيه وابناء طائفته، ففكر في اول الامر بتأسيس معهد ديني واقامة مطبعة في مسقط رأسه، فاشترى معدات الطباعة من باريس -حيث كان راهبًا- وقفل راجعًا الى بلاده. وبعد اتصالات بالبطريركية، اقتنع بوجهة نظر السيد البطريرك، وهي ان يحقق تلك المشاريع في الموصل، لتعم فائدتها الطائفة كلها. فقدم الى ام الربيعين في منتصف عام ١٨٦٤، واشترى البيوت المقابلة لكنيسة شمعون الصفا، فنصب فيها مطبعته[٢] ثم اشترى البيوت الملاصقة للكنيسة ذاتها، فجددها وأعدها لتكون مقر المعهد الجديد. وبينما كان العمل سائرًا على قدم وساق، تفشى في الموصل مرض الكوليرا (الهواء الاصفر)، فكان الشماس روفائيل من ضحاياه، فتوفي في غرة حزيران سنة ١٨٦٦[٣].

لم يتوقف مشروع اليازجي بموته، فقد تبنته البطريركية وأكملته، وفتح المعهد في اواخر سنة ١٨٦٨ محتضنًا ستة طلاب، وعهدت ادارته الى المطران كوركيس عبديشوع خياط المعاون البطريركي انذاك (+١٨٩٩). لقد سار بانتظام، ثم اخذ يتعثر في مسيرته بسبب الاحوال الداخلية في الكنيسة التي كانت في غليان، وعرفت فيما بعد باسم شعبي وهو "الندابي والبياسي".

ان اول من تخرج من المعهد هو **القس روفائيل تفنكجي** الامدي، فقد رسم سنة ١٨٧٢، والقس فيلبس الراهب (ثم المطران يعقوب اوراهام) الذي استشهد في الحرب العالمية الاولى.

اضطرت البطريركية الى غلق المعهد سنة ١٨٧٣ حتى سنة ١٨٨٢ عندما اعاد فتحه البطريرك **مار ايليا الثاني عشر عبو اليونان** (١٨٧٩-١٨٩٤). واناط ادارته بالقس يوسف توما (البطريرك عمانوئيل فيما بعد) فواصل المعهد سيره قدمًا في طريق الفضيلة والعلم. وتخرج منه في تلك الفترة كهنة افاضل، واصبح المعهد رمزًا لوحدة الطائفة التي كانت متفرقة على اثر الاضطرابات السابقة، فزال الانقسام، واستتب السلام. وفي تلك الفترة، فتح المعهد فرعًا خاصًا (١٨٩١) لاعداد الكهنة المرسلين الى الجبال للعمل في وسط النساطرة. ودامت الحالة هذه حتى اواخر عهد البطريرك **كيوركيس عبد يشوع الخامس خياط** (١٨٩٥-١٨٩٩)، حين حاول هذا العالم الجليل ادخال اصلاحات جذرية الى المعهد، وهي اصلاحات مفيدة، لكن التلاميذ استصعبوها، فرفضتها اكثريتهم، ولذا تبدد شملهم. وفي تلك الاثناء، انتقل البطريرك الى جوار ربه. وكان المعهد يتأرجح بين البقاء والزوال:

فالاصلاح، وقلة ذات اليد، وتبدل مستمر بالرؤساء، ووفاة البطريرك من جهة اخرى، اسباب عديدة تراكمت مهددة استمرارية المعهد ووجوده.

وفي سنة ١٩٠٠ اعتلى السدة البطريركية **مار يوسف عمانوئيل الثاني توما** (+١٩٤٧)، فاهتم حالا بتذليل الصعوبات وازالة العراقيل المادية والمعنوية من طريق المعهد، وسعى الى توسيع بنائه ليضم اكبر عدد من خدام المذبح، وامر بان يسكن الكهنة بصورة دائمية في المعهد، ليتتبعوا عن قرب شؤون التلاميذ ومصالحهم الروحية والعلمية؛ فسار المعهد بانتظام، وتخرجت منه جوقات من الكهنة الافاضل.

لكن غيومًا سوداء اخذت تتلبد في الافق: فقد نشبت الحرب العالمية الاولى، معلنة الويل والثبور لعباد الله، فعمت البطالة وانتشر الجوع والتشرد؛ وفي هذه الاثناء اغلق **معهد مار يوحنا الحبيب**[٤] حين اضطر الآباء الدومينيكيون على الخروج من العراق، فاحتضن المعهد البطركي تلامذة المعهد الشقيق حرصًا على الدعوات الكهنوتية. وكان البطريرك يقاوم بكل طاقته محاولا المستحيل من اجل ابقاء معهدها، لكنه في اخر الامر، اضطر الى غلقه، وقد كتب البطريرك في مذكراته بتاريخ ١٩١٨/٤/١: "التزمنا ان نغلق المدرسة الاكليريكية التي كانت موضوع افراحنا وذلك، لانه ما بقي في البيت مؤونة ولا غرش ولا يوجد من يقرض... ان هذه الامور تجرح قلبنا عميقًا، فلتكن ارادتك يا رب! يا رب ارحم وفرج!" ثم يضيف بتاريخ ١٩١٨/٤/١٦: "ان قلبي أمَرُّ من العلقم لكون بطل اليوم تمامًا مطبخ المدرسة الاكليريكية. اسفي ثم اسفي عليها! ربنا يعطينا الصبر".

بعد ان زال شبح الحرب، قرر البطريرك اعادة فتح المعهد. وراح يلمّ شعث الطلبة المتبددين، ودعا **القس عمانوئيل رسام** الى ادارته. فقام خير قيام بهذه المهمة طيلة سبعة عشر عامًا. وتعد فترة رئاسة هذا الكاهن الفاضل من اجمل مراحل حياة المعهد واكثرها خصوبة وعطاء، حسب شهادة التلامذة المعاصرين.

ومنذ ذلك الحين، وحتى نهاية عهد البطريرك عمانوئيل (+١٩٤٧)، سار المعهد بانتظام[٥] واعطى للطائفة عشرات الكهنة الذين خدموا كنيسة الله، ومنهم من ترقى في المراتب الكنسية العالمية.

وقد سار البطريرك **مار يوسف السابع غنيمة** (١٩٤٧-١٩٥٨) على خطى سلفه الطيب الذكر، فكان يتتبع عن كثب خطوات معهده بحب ابوي، ولا يبخل عليه بشيء.

وفي عهد غبطة البطريرك **مار بولس الثاني شيخو** الكلي الطوبى، انتقل المعهد الى بغداد (١٩٦٠). وسعى غبطته الى تشييد عمارة لائقة تلبي متطلبات الحياة الاكليريكية، فقام في منطقة الدورة بناء فخم يتألف من طابقين، في الطابق الارضي: المصلى والمكتبة وقاعات المحاضرات وغرف الاستقبال وصالة الطعام والمطبخ، وفي الطابق الاعلى غرف النوم -وكان تشييد المعهد على نفقة مجمع الكنائس الشرقية المقدس.

وكان غبطته قد عهد ادارة المعهد الى الاباء الكرمليين الملباريين، ثم الاباء اليسوعيين، رغبة منه بان يتفرغ كهنة الطائفة لخدمة النفوس. ثم عاد واسترجع المعهد وأناط ادارته بكهنة الطائفة.

• الدراسة

كانت مدة الدراسة في المعهد، في بدء تأسيسه، نحو سنتين ثم اصبحت ثلاث سنوات، وامتدت الى اربع. وحددها البطريرك عمانوئيل في مطلع هذا القرن لست سنوات او سبع، وذلك حسب ظروف التلاميذ واستعدادهم. وكان طالب ذلك العهد يصرف سنتين في الدراسة التمهيدية- الانسانية، واربع سنوات للدراسة الفلسفية واللاهوتية. وبعد الحرب العالمية الاولى، اصبحت هذه الدراسة عشر سنوات: اربعة اعوام للدراسة المنهجية (الثانوية) ثم سنتين للفلسفة واربع للاهوت.

اما مستوى الدراسة، فقد كان يصعد تارة ويخبو تارة اخرى، وذلك بقدر وجود كهنة اساتذة اكفاء. وكانت الدراسة بصورة عامة انسانية- ادبية، موجهة توجيهًا روحيًا وتاريخيًا، فتلميذ المعهد البطريركي يتشبع بحب تراثه الكلداني.

يضم المعهد حاليًا نحو ٦٠ تلميذًا، يداوم كلهم على الدراسة حسب المناهج الرسمية العراقية. ويدرس نحو ٢٥ منهم الدراسة الفلسفية، وهي موزعة على سنوات الدراسة الثانوية. كما يدخل المنتهون من الدراسة الاعدادية الى الكليات العراقية المختلفة، ويا ليت لو تحقق امل-يطيب لنا ان نقترحه في هذه العجالة- وهو ان يؤسس هذا المعهد كلية للفقه المسيحي تكون كفرع لجامعة بغداد!

ان عدد المتخرجين من المعهد البطريركي ينيف على المئتي كاهن. وقد تدرج بعضهم في الرتب الدينية، فكان منهم بطريرك واحد هو غبطة مار بولس الثاني شيخو الكلي الطوبى، وخمسة وعشرون اسقفًا وسبعة رؤساء عامون على اديرة الكلدان.

• دور المعهد البطريركي في حياة كنيسة العراق

بامكاننا ان ننظر الى دور المعهد البطريركي في حياة الكنيسة في العراق، وخاصة الكنيسة الكلدانية، من زوايا وابعاد مختلفة: الروحية والثقافية والقانونية والطقسية.

لقد حاول المعهد اعطاء تلامذته عمقًا روحيًا، لكي، بعد ان يتشبعوا بروح المسيح، يفيضوا على المؤمنين مما غرفوا. ونشر المعهد حياة التبتل بين الاكليروس، وشجع خريجوه العبادات والاخويات التي انعشت الايمان بين المسيحيين منذ مطلع هذا القرن. وانطلق تلامذته الى الخدمة الرسولية في الجبال، في عهد كان الاحبار الاعظمون يشجعون حركة الوعظ والرسالة بين النساطرة، وقام بعضهم بفتح مراكز كنسية جديدة (الشام، الاهواز، البصرة، العشار، العمارة، الكوت..) واخيرًا، نذكر بفخر واعتزاز، ان بعضهم استشهد حبًا بالمسيح كالمطران يعقوب اوراهام والقس حنا يغمور والقس كيوركيس توما.

كما اعطى المعهد تلامذته ثقافة انسانية ولاهوتية وتاريخية شرقية. وانطلاقًا من هــذا الاستعداد بادر بعضهم الى التأليف، واشتهر منهم المطران يعقوب اوجين منا والمطران حنــا قريو، والمطران سليمان الصائغ (ونكتفي بذكر المتوفين). واصدر بعضهم المجلات والنشرات الدينية- الثقافية (مجلة النجم ومجلة النور)، وطرز كثيرون منهم المقالات الضافية واللاهوتية والروحية والتاريخية. وعُرف تلامذة المعهــد البطريركــي بحبــهم لطقــسهم الكلــداني واختصاصهم بالتراتيل الدينية واعتزازهم بالتراث الشرقي (المطران اسرائيل اودو، المطــران يعقوب منا، القس داود عيسى، الخوري يوسف كادو، القس بطــرس جمعــة، المطــران قرياقوس موسيس، المطران يوسف بابانا)؛ واشتهر بعضهم باتقانهم فــن الخــط الكلــدني (الخوري عبد الكريم نعامة، القس ايليا هومو...).

اخيرًا لا بد ان ننوه الى مكسب آخر مهم حققه المعهــد البطريركــي، انــه وحّــد الاكليروس وشده حول الرئاسة الكنسية ونشر فيه النظام الكنسي.

هذه نبذة مختصرة عن اقدم معهد ديني مسيحي في العراق. لقد كان ولا يــزال رمــز الحيوية في الطائف الكلدانية. خدم كنيسة الله في وطننا وفي الاقطار المجاورة. املنا انه يكمل المسيرة، محققا الامال العريضة التي وضعها فيها مؤسّسوه.

---

(١) كانت اولى المحاولات فتح معهد في دير مار كوركيس، وتم اعداد الدير وتأثيثه، لكن المعهد لم يفتح.

(٢) اخرجت المطبعة المازجية في حياة مؤسسها، كتابًا طقسيًا واحدًا هو كتاب المــزامير (١٨٦٦). وبعــد وفــاة المازجي، تمّ في المطبعة طبع كتب دينية ومدرسية عديدة، وذلك باجتهاد المطران كوركيس خياط. وفي اعتقادنا ان المازجي هو اول من ادخل الحروف الكلدانية الى العراق.

(٣) دفن الشماس رفائيل داخل كنيسة شمعون الصفا، وقبره معروف الى اليوم.

(٤) كان قد تأسس سنة ١٨٧٨ بادارة الاباء الدومينيكيين في الموصل ولا يزال قائما الى اليوم، وهو يحتضن التلامذة الاكليريكيين من ابناء الكنيستين الكلدانية والسريانية (الفكر المسيحي، انظر ملف نيسان١٩٧٣).

(٥) بعد الحرب الكونية الاولى، وفي سنة ١٩٣٧، حاول مجمع الكنائس الشرقية المقدس -وكرر المحاولة في بدايــة الخمسينات- لتوحيد المعهد البطريركي مع معهد مار يوحنا الحبيب. ووضعت اكثر من خطة لتحقيــق هــذه الفكرة. لكن البطريركية رفضت هذا الاقتراح. ثم قبلت، بشرط ان يبقى المعهد بطريركيًا، نظــرًا لاندماجــه الكياني بالكرسي البطريركي، وهو واجهة الطائفة وقلبها النابض.

ملفات ١٩٧٥

- مجمع الشباب في تيزيه
كانون الثاني/ ص٣٣ - ٤١ الاب يوسف توما[١]

- حول قضية المرأة/ طاولة
شباط/ ص٨١ - ٨٨ فريال اسماعيل توزي[٢]

+ المرأة في العهد الجديد
آذار/ ص١٢٧ - ١٣٤ الاخت ماريان- ابراهيم[٣]

+ مفهوم الخطيئة الاصلية وتطوره في الفكر المسيحي
نيسان/ ص١٧٦ - ١٨٤ الاب لوسيان جميل

+ الكهنوت اليوم: حيرة وتطلع[*]
ايار/ ص٢٢٠ - ٢٣١ الاب حبيب باشا البولسي(+) [٤]

+ التثقيف المسيحي في العراق، إلى اين؟/١
حزيران/ ص٢٧٠ — ٢٨٠[**] الاب جرجس القس موسى

- كلمات مبعثرة في العلمانيين ودرهم في الكنيسة
ايلول/ ص٣٢٤ - ٣٣٦ الاب عبد السلام حلوة

+ التثقيف المسيحي في العراق، إلى اين؟/٢
تشرين الاول/ ص٣٦٩ - ٣٧٨ الاب جرجس القس موسى

+ الصراع الطبقي واثره على فكر الكنيسة ووحدتها/١
تشرين الثاني/ ص٤١٧ - ٤٢٣ الاب لوسيان جميل

+ الصراع الطبقي واثره على فكر الكنيسة ووحدتها/٢
كانون الاول/ ص٤٦٨ - ٤٧٢ الاب لوسيان جميل

(*) ادرجنا تتمة الملف التي نشرت في عدد حزيران ١٩٧٥ بعنوان "سبل التجدد".

(**) ادرجنا مع هذا الملف تتمته المنشورة في ملف تشرين الأول.

(١) احصينا للاب يوسف توما الدومنيكي ١٠٢ مساهمة (من بينها ٥ ملفات)، وبضمنها ٣ إجابات و ١٧ "من وحي الانجيل" و ٥٩ في باب "ابت هذه مشكلتي" على مدى ١٠ سنوات (انظر الكتاب بالعنوان ذاته).

(٢) احصيت لها ٤ مساهمات (من بينها ملف) وبضمنها إجابة.

(٣) احصيت للاخت ماريان كوفويل الدومنيكية البلجيكية ٢١ مساهمة (من بينها ٣ ملفات)، بضمنها باب "ايقونة العدد" على مدى عام ١٩٧٩. نشرت لها مقالة في "المختار".

(٤) كان للاب (المطران) حبيب باشا البولسي متروبوليت بيروت للروم الكاثوليك (+١٩٩٩) ٤ مساهمات (من بينها هذا الملف)، وبضمنها عددان من "السلسلة" لعام ١٩٦٧.

المرأة في العهد الجديد

كان هذا الملف اولى مساهمات الاخت ماريان- ابـراهيم كوفويـل الدومينيكية في "الفكر المسيحي" -ولها فيها باب "الايقونة" على مدى عـام ١٩٧٩، وسبقه ملف عن الايقونة (ايار ١٩٧٨)- بمناسبة سنة المرأة عـام ١٩٧٥، فكان استعراضا لما يقوله الكتاب المقدس بشأن المرأة، بدءا بالعهد القديم الذي تعكس اولى صفحاته المساواة الاساسية بين الرجل والمرأة، وقد خُلقا على صورة الله ومثاله؛ ويأتي العهد الجديد ليضفي على هذه الـصورة قيمة وَبُعدًا وكرامة، إذ يقدس الزواج ويبرز وحدته وعدم انحلاله ويكـرّم البتولية... وتبقى مريم نموذجًا للمرأة وللأم، وبالتـالي نموذجًـا للكنيـسة! وبالرغم مما يُتَّهَم به القديس بولس تجاه المرأة، فالكنيسة كانت الى جانـب المرأة، وتجسد ذلك في مشاركتها في الرسالة منذ بدء الكنيـسة، وراحـت هذه المشاركة تزداد وتتسع على مر الاجيال.

اختي المرأة، لا بد انك تتساءَلين عن حقيقة مصيرك. لمعرفة ذلك عليك ان تكتشفي ابعاد طبيعتك الخاصة وقصد الله تجاهك، فلنسأل العهد القديم ماذا يقول في ذلك:

- العهد القديم

- **"خلق الله الانسان، ذكرا وانثى خلقهما"**

ان مكانة المرأة الحقيقية، في كامل ابعادها، لم تظهر إلا بمجيء المسيح، غير اننـا نجـد المساواة بين الرجل والمرأة منذ البداية، لانهما كلاهما سوية، وليس الواحـد دون الاخـر، اساس الطبيعة الانسانية. فبين الرجل والمرأة قرابة سامية وتوافق كامل: فالرجل يعرف ذاته من خلالها، وباعطائه اسمًا لها يحدد ذاته. المرأة تشترك مع ادم في الطبيعة نفسها لانها اخذت من حميمية كيانه، وبذلك تُتمّ الرجل. ولقد عبر عن هذه الحقيقة تعبيرا رائعًا اقدم النصوص التي بلغت الينا عن الخلقة (تكوين٢:١٨).

- **على صورة الله**

لا ينظر الكتاب المقدس الى الرجل والمرأة إلا من منظار علاقتهما بالله الذي هما علـى صورته، وهما على صورة الله باتحادهما غير المنفصم. انهما اكثر الكائنات الحية كمالا، بـل هما الحياة التي كللت سائر المخلوقات. فالزوجان يمثلان كمال الوحدة طالما يحافظان علـى علاقتهما بالله الذي هما على صورته.

يذكر لنا سفر التكوين بان الرجل والمرأة كانا عريانين دون ان يخجل احـدهما مـن الاخر، ومعنى ذلك ان الالفة مع الله لا زالت كاملة ومشعة بالفرح، وبان العلاقـة في مـا بينهما ما برحت صافية، وان علاقة الانسان بالله لا يشوبها خوف. ولكن في اللحظة الـتي

يرفض الرجل المرأة هذه العلاقة او يتجاهلاها او يحطمانها، تحدث القطيعة بينهما؛ فيكتشف الرجل عريه، وهذا العري يمسي رمزًا الى الانفصال الذي تم بين الكائنات، بحيث لم يعد الرجل والمرأة يشعران بتضامنهما، فيأخذ الرجل باتهام امرأته: وكانت العزلة والضعف والقلق. وهكذا يعلن لهما الله بان علاقتهما الثنائية ستتحرك منذ الان بدافع من القوة الغريزية، بدءًا من تعلق المرأة العاطفي بزوجها، وتسلط الرجل على امرأته وحتى آلام الولادة. فالوحدة الزوجية منيت بتصدع سيترك اثره على نجاحهما، ولن تكون لهما قدرة على اعادة التوازن والتكامل بذاتهما. ومع ذلك فالطبيعة التي خرجت من يد الخالق تبقى حية في الانسان (اشعيا١١:٦-٩) والرجاء لم يمت (رومية٨: ٢٠)، والانسان، اذا تجدد على مثال المسيح، فسيكون بوسعه ان يعود من جديد على صورة الله.

- العهد الجديد

ان المسيح، بتحقيقه مخطط الخلاص على هذه الارض، يصبح الصورة الجديدة التي تنشل الزوجين من بؤسهما. ولمعرفة موقف المسيح ومفهومه عن المرأة، يجدر بنا ان نستطلع تعليمه كما ورد في الاناجيل. ولكن لا نتوقعن من الاناجيل عرضًا مسهبا ودقيقًا عن موقفها من المرأة، لانها انما تعكس الاهتمامات المباشرة والافكار التي عاشها المسيح والانجيليون الذين كانوا رجال عصرهم قبل كل شيء. غير انه بالرغم من ان عنصر الرجال كان متفوقًا في المجتمع الذي عاش فيه الانجيليون، فهم لا يترددون من التحدث عن النساء اللواتي اصبحن معروفات لدينا مذاك. هذا ويجدر بالملاحظة ان الانجيل موجه الى كل الناس، دون تمييز في الجنس، وبذلك يعطي للمرأة قيمة كالتي يعطيها للرجل.

• المسيح في بيئته

لقد عاش المسيح بين ذويه، وقد غمره شعور طبيعي بالاسرة والالفة العائلية. لقد تحدث وأعلن بشرى الخلاص واتخذ له تلاميذ وشفى المرضى وحقق اعمالا باهرة، وفي كل هذه المجالات لم يكن نصيب المرأة قليلا.

لم يتردد المسيح من جعل المرأة محورًا لشرح امثاله، وذلك بالرغم من عقلية مواطنيه، وقد تحدث عن ابعاد البتولية والزواج والخصوبة والعقم والحياة العملية والتأملية، وقدم المرأة مرارًا بمثابة مثال الايمان الحي الصادق. فالمرأة موجودة، إذن، في كل مواقع الحياة وفي كافة الطبقات الاجتماعية، الفقيرة والغنية، المتدينة والخاطئة، وقد شفى المسيح نساء كثيرات. وهكذا نجد الانسان يسوع يتصرف تصرفًا متسمًا بالحرية التامة والمحبة والغفران.

لنر الان، بشيء من التفصيل، حياة المرأة كما يقدمها لنا بصورها المختلفة:

• الزواج

لقد قدس المسيح العائلة بعيشه في الناصرة ضمن اسرة؛ وبولادته من امرأة حقق رغبة المرأة في الخصوبة. كما اكد على خاصية الزواج المطلقة في عدم الانحلال، وبذلك عاد الى مخطط الله البدائي حسبما يعكسه سفر التكوين. ان النظام الطبيعي لا بد من ان يحترم..

فالطلاق يناقض قصد الخالق الذي خلق الرجل والمرأة في البدء: "انه بسبب قساوة قلوبكم أذن لكم موسى ان تطلقوا نساءكم، ولكن في البدء لم يكن الامر كذلك" (متى١٩:٨).

فالرجل والمرأة هما بالنسبة لله جسد واحد، وبعودة العالم الى كماله الاولي، يصبح الطلاق امرًا غريبًا عن ملكوت الله. فالله يوحد الرجل والمرأة وفقًا لاختيارهما الحر بمنحهما تكريسًا وبركة تفوقان قواهما الذاتية. لقد ارعب هذا الموقف الرسل انفسهم فهتفوا: "اذا كانت هذه حالة الرجل مع امرأته فالاولى له ان لا يتزوج" (متى١٩:١٠). ولكن المسيح خفف من حدة هذه الشريعة الجديدة بتفهمه العميق للطبيعة البشرية، إذ ان رحمته تحتضن الخطأة. ألم يلتقِ بالزواني وبأناس لم يخلصوا لمثالية الحب (لوقا٧:٣٧؛ يوحنا٤:١٨؛ ٨:٣؛ متى٢١:٣١). ان قبول المسيح لهؤلاء لا يعني تأييدا لسلوكهم، وانما هو اشارة ضمنية الى خيانتهم (يوحنا ٨:١١).

اما الامومة، فمرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالزواج. فالله وحده هو الذي وضع في قلب المرأة رغبة الامومة. والمرأة تتدخل في تاريخ الحياة ليس بامومتها فحسب، بل باثارتها زوجها ايضا الى التعلق بها تعلقًا اوثق.

• البتولية

بينما سادت في العهد القديم فكرة الخصوبة (الانجاب) التي اعتُبرت الواجب الاول لانماء شعب الله وادامته، نجد شكلين من الحياة في العهد الجديد: الزواج والبتولية المكرسة. والعهد الجديد، اذ يقدم هذا الاسلوب الجديد من الحياة، لا يحتقر الزواج البتة، وانما يعترف بشرعية الرغبة في البتولية، وقد كانت البتولية في السابق امرًا مُستَهجَنًا، شبيهًا بالعقم؛ فالعهد الجديد يعطي للبتولية معناها الديني الاصيل، والمسيح شجع على اعتناق البتولية الاردابة (متى١٩:١٢)

والبتولية ليست وصية، بل دعوة شخصية من الله، انها موهبة.

ان الزواج مرتبط بالزمن الحاضر، الا ان صورة هذا العالم لن تدوم. اما البتولية، فعلامة ثابتة تشير الى امتداد الكنيسة في الحياة العتيدة.

• مريم

للتحدث عن مريم، كان لا بد من الاشارة الى هاتين الحالتين، فمريم حققت ابعادهما في كامل اتساعها.

لقد انتسب المسيح منذ مجيئه على الارض الى امرأة -مريم-؛ وان عدم انتسابه الى اب بشري يشير الى انقلاب عظيم في العلاقات. اما مريم، فكانت خاضعة للشريعة كسائر نساء شعبها، وبولادتها للمسيح جسّدت في ذاتها طموح المرأة إلى الامومة، ويسوع نفسه اعطى المعنى الحقيقي لخصوبتها، دون ان يؤثر على دعوتها في الخصوبة. ومن جهة اخرى يوضح

حدث البشارة بجلاء بان هذه الامومة ارادية. غير اننا نشهد عند مريم تناقضا ظاهريًا بين خصوبتها الجسدية وامومتها البتولية، هي التي ولدت بقوة الروح القدس.

ان بتولية مريم هي فعل عطاء حبي كامل للرب، فالى مريم باح المسيح بسره حين قال: "طوبى لمن يسمع كلام الله ويحفظه" (لوقا ١١:٢٨). فستبقى مريم بامومتها البتولية مثالا لسائر من يدفعهم ايمانهم الى الاتحاد بالرب وحده دون تحفظ.

• مريم والكنيسة

ان قصة الخلقة توضح لنا ان الله، اذ اراد ان يخلق البشرية على صورته، خلق الرجل والمرأة. والتجسد نفسه -وهو دخول الله في البشرية- يتحقق بمساهمة المرأة. فمن دون المرأة، لما كان تجسد، ولما كانت كنيسة، وهكذا كانت مساهمتها ولا زالت اساسية.

ان مريم، وان كانت اول من آمن، فهي خاضعة لظلمات الايمان والتلمس، كأبسط المؤمنين، وذلك بالرغم من شعورها بان الحياة التي تتحرك في احشائها هي حياة المسيح المنتظر. وقد وعت دورها كمؤمنة وكأم لتلاميذه، بشكل تدريجي. وعندما قال يسوع للتلميذ الذي كان يحبه: "هذه امك"، جعل امومتها تمتد الى كل البشر والى كل الاحياء. ففي العنصرة، حين ولدت الكنيسة، شاركت مريم الرسل في صلاتهم وانتظارهم للروح القدس (اعمال ١:١٤).

ان خاصيات الامومة لدى مريم تنعكس في خصوبة الكنيسة، فما هي علاقة مريم بالكنيسة؟

عند مريم والكنيسة، نجد البتولية والامومة والبنوة تجاه المسيح واخوته. فبمريم يصبح يسوع اخا لجميع الناس وعروة الوصل في ما بينهم، ومن جهة اخرى ندرك المسيح بواسطة الكنيسة.

لقد اعلن المجمع الفاتيكاني الثاني مريم أمًا للكنيسة، وبالفعل ذاته اكد على ان المرأة اتمت دورها الاولي والاساسي بعد المسيح في ولادة الكنيسة، وبأنها ستواصل مهمتها في انماء الكنيسة. فأمومة مريم للكنيسة أوسع من ان تقتصر على عواطف بنوية وحسب، بل تتعداها الى تدخل مريم في تكوين ونمو الجماعة المسيحية، إذ على يدها اعتلنت قدرة المسيح الخلاصية، اول مرة، في قانا، مثلا. فمريم، اذ تمثل جميع النساء، توليهن بعدا جديدا، وفيها يتجلى مصيرهن، لان الله وضع فيها قدرات الانوثة كاملة. فاذا كان الامر كذلك، أليس من حق المرأة ان تساهم في تطوير المجتمع؟

ولكي تحقق المرأة دعوتها، ليس من الضروري ان تصبح زوجة وأما. وبامكانها ايضا ان تبقى عذراء، قلبًا وجسدًا. معنى ذلك ان المرأة في الزواج لا تشارك في عملية التطور ككائن منتقص بل ككائن مكتمل الشخصية. فلا يجوز، والحالة هذه، ان نستغني، في عمل الخلاص وبناء الكنيسة، عن مساهمة المرأة والرجل معا وسوية، فهذا التضامن ميزة جوهرية في التكوين البشري.

• القديس بولس والمرأة

يتكلم القديس بولس عن مساواة الزوجين في وحدانية الزواج -رجل واحد وامرأة واحدة- ويشير الى هذه المساواة حتى في مسؤولية الخيانة الزوجية وفي الزنى وفي استعدادهما المتبادل للعلاقات الجنسية، وفي حق كل منهما في اختيار العزوبة..

وعندما يقول بولس بان الرجل رأس المجتمع الزوجي، فلا ينبغي اخذ ذلك بمعنى اللامساواة، لان الزواج يتضمن وظائف متنوعة نظرا الى اختلاف طبيعة ونفسية الواحد عن الاخر. الزوجان، كل منهما، يعطي ويأخذ بطريقة مختلفة. فللزوج خدمة الادارة والمسؤولية، لا السيطرة القمعية. "ولكن ليس المرأة من دون الرجل، ولا الرجل من دون المرأة في الرب".

واذا كانت مواقف بولس تبدو احيانا وكأنها تنتقص من كرامة المرأة، نظرا الى بيئته الثقافية، ولكن يغلب عليها مع ذلك الطابع الايجابي بدليل دفاعه عن الحقوق الاساسية للطرفين في الزواج.

• موقف الكنيسة من المرأة

منذ نشأة الكنيسة، نلاحظ مكانة مميزة لنساء كثيرات ورد ذكرهن (اعمال١:١٤؛ ٩:٣٦-٤١؛١٢:١٢؛ ١٦:١٤)، وكن مدعوات مذّاك الى المساهمة الفعلية في عمل الكنيسة.

لقد اكد المجمع الفاتيكاني مرارًا على كرامة المرأة التي ينبغي ان نرى فيها كائنا حرًا وشخصًا يقرر مصيره بكامل حريته. ولقد ذكر مثالا على ذلك، وحدة الرجل والمرأة في العائلة. فمنذ ان يتصل الكائن بغيره، يحيا وتتفتح قابلياته. كما يدعو المجمع الزوجين الى تعميق وحدتهما باستمرار، تلك الوحدة التي يزدادان وعيا لها كلما ازداد تعاونهما وتوثق اتحادهما الحميمي، الشخصي والعملي. وتبرز هذه الوحدة في كمال الحب الذي يكنه احدهما للاخر ضمن المساواة في الكرامة الشخصية. فعطاؤهما الحر المتبادل يتجسد في تعابير ومبادرات ودية تسم حياتهما بأسرها وتجاوز كثيرًا الميل الجنسي المحض.

ويذهب المجمع الى القول بان الحياة الزوجية ليست فقط للانجاب، بل يؤكد على ان الزواج عهد لا تنفصم عراه، يعمل على توثيق الامانة بين الزوجين لنموهما وتفتحهما.

اخيرا يعترف المجمع علانية باهمية مشاركة المرأة في مختلف نشاطات الكنيسة، كما هو الامر في المجتمع المدني حيث تحتل النساء مكانة اكبر، يوما فيوما.

الخلاصة

كل ما ذكر يقودنا الى تأكيد مساواة الرجل والمرأة ضمن اختلافهما بالذات. فلا يمكن ان نكون "واحدًا" إلا اذا وجدت علاقة بين اثنين. فعلى صعيد المرأة نفسها تتحقق غائية انثى كاملة، سواء كانت زوجة او أمًا او عذراء.

ان الحضارات التي هي في معظم الاحيان حضارات رجالية، يجب ان يُبحث عن اساليب كفيلة بان تضم القيم النسائية اليها، فتصبح حضارات انسانية حقًا. فالرجولة الحقة لا توجد الا في التأثير المتبادل ما بين الذكر والانثى، إذ ان الرجل والمرأة يكوّنان، باتحادهما، شركة حياتية خلاقة لا تحصر امكاناتها. لذا ينبغي العودة الى اسس الحياة المشتركة وادخال المرأة في عالم الرجل كمكملة للوجود، لان المرأة هي نصف هذا الوجود. والمرأة لن تكون اذ ذاك هي التي تعمل بذاتها، بل يقترن عملها بالرجل الذي يحرك العالم، والرجل نفسه لن يثمر إلا بتدخل المرأة. فكأني بالمرأة تؤمّن مساهمة نصف البشرية.

بيد انه لا يجوز الضغط على المرأة كي تتبنى نفس مواقف الرجل، لانها لن تتفتح بصورة عفوية إلا اذا ألقى عليها نظرة حب؛ وبقدر ما يشعر بانه موضوع حبها، بقدر ذلك يحقق ذاته. وكذلك القول عن الجماعات -رهبانية كانت ام مدنية- فهي لن تكون مجتمعات حقيقية مكتملة إلا اذا احتمع فيها الرجل والمرأة معًا للعمل. فالجماعة المتكونة من رجال فقط او من نساء فقط ليست سوى صورة مشوهة لكمالية الكون.

علينا، إذن، ان نعطي وجها جديدا لمفهوم الرجل والمرأة، مفهوما اساسه الطبيعة الواحدة والنفسيات المختلفة التي تتلاقى في الزواج وفي الصداقة وفي العمل وفي حياة الروح. وعلى الرجل والمرأة ان يجدا موقعهما الشخصي وازاء بعضهما البعض.

فيا ليتنا نُصاب قليلا بعدوى حرية المسيح الذي قلب، في عصره، النظرة الى الانسان والى المجتمع، وأعلن عن قيام علاقات جديدة بين الانسان والانسان، بين الرجل والمرأة.

ان الحرية -عدوة جمودنا- ستكشف لنا عن وجه الله الصحيح.

ملف نيسان ١٩٧٥ .... الاب لوسيان جميل

مفهوم الخطيئة الأصلية وتطوره في الفكر المسيحي

طرق الاب لوسيان موضوعًا حام حوله الجدل طيلة اجيال بين اللاهوتيين وآباء الكنيسة... فلقد عرف هذا المفهوم تطورًا على صعيد اللاهوت في تاريخ الفكر المسيحي، ولا سيما على صعيد الدراسات العلمية والنقدية في الكتاب المقدس. فمن مرحلة التفسير الحرفي الذي يأخذ نص الخلقة في سفر التكوين، بحرفيته، ليخلص الى غضب الله بسبب خطيئة الانسان والى ضرورة وسيط يقوم بتهدئته(١)؛ مرورًا بمرحلة الاجتهادات العلمية الناقصة التي اعتمدت "الفنون الادبية" في اكتشاف المعنى الذي تتضمنه النصوص، وإصرار اللاهوت على اعتبار الخطيئة الاصلية حدثًا تاريخيًا مؤكدًا؛ وصولا الى مرحلة التفسير العلمي العميق الذي توصل الى تطهير النص الكتابي من الوجه الاسطوري والتعامل معه بما يحمله من معنى ومغزى... وهكذا نجدنا بالتالي ازاء خلاص من الخطيئة الاصلية يعني خلاصًا من الظلم والاستبداد والقلق...

ان قصة الخطيئة الاصلية، او السقطة الاولى، واردة ضمن الفصول الاولى من سفر التكوين، وهي كقصة تشكل وحدة متجانسة مع الاحد عشر فصلا الاولى من هذا الكتاب. ومن المعلوم ان هذا السفر كان خير عون للعلماء للابتعاد عن التفسير الحرفي للكتاب المقدس واكتشاف الاسس العلمية للتفسير الناضج الصحيح. فقد اصطدمت معطيات هذا السفر سريعا بالنظريات العلمية التي انتشرت في كل الاوساط، مما مهد الطريق الى اعادة النظر في طريقة التفسير التقليدية.

وفي الواقع نلاحظ ان مفهوم الخطيئة الاصلية كان مرتبطا دوما، والى حد بعيد، بتطور الفكر المسيحي في فهم الكتاب المقدس واعتماد النقد العلمي للتعمق في هذا الفهم؛ كما كان مرتبطا، من جهة اخرى، بعلم اللاهوت الخاص بالمسيح (Christologie)، علما بان هذا العلم يتأثر بدورة بالنقد العلمي للكتاب المقدس. وعليه، فبامكاننا ان نميز ثلاث مراحل واضحة في تطور مفهوم الخطيئة الاصلية، موازية لمراحل تطور علم الكتاب المقدس.

١- مرحلة التفسير الحرفي

بما ان النقد العلمي كان غائبا في هذه المرحلة، فان كل شيء كان مقبولا كما جاء في الكتاب المقدس حرفيًا؛ ولقد كانت قدرة الله وصدقه مفتاح كل تفسير، وكان الكتاب المقدس كله يعد تاريخا اكيدا وعلما حقيقيا، على اساس انه مكتوب بالهام من الله الذي هو حر في جميع تصرفاته وقادر على كل شيء وحتى على الغرائب. وهكذا نرى في هذه المرحلة ان الخطيئة الاصلية اعتُبرت حدثا حقيقيًا وتاريخيًا قام به اشخاص معروفون، هم آدم وحواء، في ظروف معينة وفي مكان معين هو جنة عدن. فلم يكن يبقى حينئذ على الباحثين والمفسرين سوى ان يفتشوا عن موقع الجنة المذكورة كما كانوا يفتشون عن سفينة نوح.

اما مفهوم الخلاص الذي يتعلق بشكل مباشر بمفهوم الخطيئة الاصلية، فقد جاء اسطوريا[1] مثل التفسير الاسطوري والحرفي للخطيئة الاصلية. فبما ان الشيطان الذي تقمص الحية هو احد عناصر القصة فقد كان من الطبيعي في هذا الجو الفكري ان يعتقد الاباء بان الشيطان الذي اغوى الابوين الاولين قد اوقعهما تحت سيطرته وسلطانه، ومعهما كل الجنس البشري، وقد ذهب بعض الاباء الى ان الشيطان كان قد حصل على صك بهذه السيطرة على الانسان؛ وبما ان المسيح جاء مخلصا، فقد مات من اجل الانسان فمزق ذلك الصك وخلص البشرية. الا ان اباء اخرين رفضوا مسألة الصك هذه واستبدلوها باخرى اكثر قبولا، فقالوا بان الله هو الذي كان غاضبا على الانسان بسبب خطيئته ومعصيته. وبما ان هذا الغضب هو غير متناه لانه غضب الله، فقد كان المطلوب ان يقوم شخص الهي بتهدئة هذا الغضب أي ان يقوم بدور الوسيط والفادي، وهذا الشخص هو يسوع المسيح.

سفر التكوين

"واخذ الرب الاله الانسان وجعله في جنة عدن ليفلحها ويحرسها، وامر الرب الاله الانسان قائلا: من جميع شجر الجنة تاكل واما شجرة معرفة الخير والشر فلا تاكل منها، فانك يوم تاكل منها تموت موتا.

وكانت الحية أحيل جميع حيوان البرية التي صنعه الرب الاله. فقالت للمرأة: ايقينًا قال الله لا تاكلا من جميع شجرة الجنة. فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة تاكل، واما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تاكلا منه ولا تمساه كيلا تموتا. فقالت الحية للمرأة لن تموتا. انما الله عالم انكما في يوم تأكلان منه تنفتح اعينكما وتصيران كالآلهة، عارفي الخير والشر. ورأت المرأة ان الشجرة طيبة للمأكل وبهية للعيون وأن الشجرة منية للعقل، فاخذت من ثمرها وأكلت واعطت بعلها ايضًا معها فأكل. فانفتحت اعينهما فعلما انهما عريانان... فسمعا صوت الرب الاله فاختبأ ادم وامرأته من وجه الرب الاله..."

(٢: ١٥-١٧؛ ٣: ١-٨)

٢- مرحلة الاجتهادات العلمية الناقصة

في هذه المرحلة وعلى اثر المبادرات البروتستنتية، سار النقد العلمي للكتاب المقدس خطوات الى الامام، واهم الاكتشافات في هذا المجال كانت "الفنون الادبية"[2]. وبهذا الاكتشاف اصبح ممكنا التميز بين المحتوى والاطار، بين التاريخ والقصة، بين العلم والنظرات البدائية الى الكون والانسان الخ... وفي هذه الفترة بدأ العلماء يحددون، بشكل عميق، معنى الالهام في الكتاب المقدس. **فاصبح الملهم كل ما يخدم اكتشاف الانسان لله وتعميق الايمان في قلبه، بغضّ النظر عن صحته العلمية والتاريخية. الملهم هو المعنى الاخير الذي يقصده الكاتب ضمن الاطار الادبي الخاص، او يبرز لنا من خلال ومن وراء قصته او اسطورته او ملحمته او نظرته الى العالم والانسان والاحداث.**

لقد تأكد لدى العلماء في هذه المرحلة بان الفصول الاولى من سفر التكوين قصص ونظرات بدائية، في محاولة لفهم الكون والمجتمع والانسان، وبذلك تقترب جدًا من الاساطير

التي كانت متداولة في بلاد ما بين النهرين[٣]. فالانسان القديم لم يكن يعبر عن طريق العلم عن افكاره ومشاهداته، لانه لم يكن يمتلك العلم، فكان يفعل ذلك بطريقته الخاصة المليئة بالخيال، وكان هذا التعبير يرضي فكره البدائي ارضاء كاملا. ولا غرابة ان تكون الالهة هي العنصر الاساسي غالبا في الاساطير، لان الالهة التي يفترض فيها الها قوية وعالمة وقادرة على كل شيء، تصبح بسهولة مفتاح كل تفسير حين ينعدم التفسير العلمي. وعندما دخلت القصة او الاسطورة الى الكتاب المقدس، لم تفقد شيئًا من عناصرها الاسطورية، أي من الخيال الرائع الذي ينسجها وينسقها، ومن الادعاء بتفسير الكون والانسان والاحداث. بل بالعكس، فقد اكتسبت بعدا جديدا واصبحت عاملا مهما في محاولة الانسان لاكتشاف الله وعمله في الاحداث، وان كان هذا الاكتشاف هو الاخر في اول الطريق. وبهذا المعنى تصبح القصة والاسطورة وغير ذلك من الفنون الادبية صالحة للانسان، وبالتالي صالحة للالهام، ويبقى ان لا يقبلها الانسان المعاصر وكأنها حتمًا حقيقة موضوعية وتاريخية بحرفيتها، اعني ان لا يأخذها حتمًا كأحداث وقعت في زمان ومكان معينين.

في الفصول الاولى من سفر التكوين عدة قصص واساطير من النوع الذي تكلمنا عنه، وهي بالتتابع: قصة الخلقة، السقطة الاولى، قصة قائين وهابيل، شجرة سلالات آدم وحواء، الطوفان، شجرة سلالات الاباء بعد الطوفان. فقصة السقطة الاولى تقع ضمن هذه المجموعة من القصص، الا ان اللاهوت في هذه المرحلة اصر على اعتبار الخطيئة الاصلية تاريخا اكيدا. لكن علماء هذه المرحلة ميزوا بين الواقع التاريخي للخطيئة الاصلية، أي كونها حدثت فعلا، وبين الاسلوب الانشائي الذي عبر به الكاتب الملهم عن هذا الواقع والذي لم يكن سوى اطار له، وهذا معناه في نظرهم ان القصة لم تحدث كما هي واردة في الكتاب المقدس. اما الخطيئة نفسها، فقد حدثت فعلا بشكل ما. وهكذا اصبحت الحية وجنة عدن وغير ذلك مما ورد في القصة عناصر تتألف منها قصة تريد ان تقدم حدثا، اضافة الى كونها وفي اغلبها رموزا تزيد في عمق القصة وجمالها.

وكان السبب الاساسي في اصرار اللاهوت في هذه الحقبة على اعتبار الخطيئة الاصلية واقعا تاريخيا، هو التشبث بمفهوم تقليدي عن الخلاص اضافة الى عدم نضوج علم الكتاب المقدس بعد. وتلاشى مفهوم الخلاص الاجتماعي[٤] سريعا بعد الاجيال الاولى للمسيحية، وحل محله مفهوم روحي ما ورائي يتقلب بين الصوفية[٥] والاسطورية[٦]. فقد اصبح المسيح للبعض، وبمنظور سلبي ضيق، مخلصا من الخطيئة الاصلية التي كانت سبب هلاك الانسان بعد الموت، وحرمانه من السعادة الابدية؛ اما بالنسبة للمتصوفين، فقد اصبح المسيح، بعد انتصاره على الخطيئة والموت، عاملا اساسيًا لتطهير الانسان ورفعه الى المقام الالهي ليندمج مع الله بعد ان صار بواسطة التجسد ابنا حقيقيا له. وهكذا قضي تماما على فكرة يسوع الذي جاء لينير كل انسان، ويريه علاقته الحقيقية مع الله وكرامته الانسانية المبنية اصلا على هذه العلاقة، ويفتح امامه الباب على مصراعيه ليوجه ويغير مصيره بيده بعد ان كان قدرا محتوما عليه.

القديس بولس

"كما بانسان واحد دخلت الخطيئة الى العالم، وبالخطيئة الموت، وهكذا اجتاز الموت الى جميع الناس، لان جميعهم قد خطئوا... غير ان امر الموهبة ليس كامر الزلة، فلئن كان بزلة واحد قد مات الكثيرون فكم بالاحرى نعمة الله وموهبته قد وفرتا للكثيرين بنعمة الانسان الواحد، يسوع المسيح. فاذن كما انه بزلة واحدة كان القضاء على جميع الناس، كذلك بِرّ واحد، يكون لجميع الناس تبرير الحياة، لانه كما جعل الكثيرون خطاة بمعصية انسان واحد، كذلك بطاعة واحد يُجعل الكثيرون ابرارًا". (رومية٥:١٢-١٩).

٣-مرحلة التفسير العلمي العميق

تبدأ هذه المرحلة قبل المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني لتأخذ ابعادها ابان المجمع المذكور وبعده خاصة، ولا زال اللاهوتيون وعلماء الكتاب المقدس يواصلون ابحاثهم رغم كل محاولات العناصر التقليدية للمحافظة على الفكر القديم. وان من ايجابيات هذه المرحلة اعتماد العلم بشكل منطقي سليم وجريء في التحليل والاستنتاج والوصول الى نهاية الشوط في الكشف عن الفنون الادبية الواردة في الكتاب المقدس. في هذه المرحلة اخذ العلماء يقيّمون هذه الفنون الادبية كما هي تماما، وفي كل المسائل، دون ان يحمّلوها ما لا تعنيه مطلقا؛ واصبح كل شيء يسمى باسمه، وقد اتفق العلماء على تسمية هذا التقييم démythologisation ويعني ذلك حرفيا تطهير الكتاب المقدس من الاسطورة، وبالحقيقة يعني هذا الاصطلاح كشف المعاني الحقيقية للفنون الادبية الواردة في الكتاب المقدس: الرواية، القصة، الاسطورة، العلم البدائي الخ... والتمييز في ما بينها وبين الجوهر، واعتماد هذه المعاني دون تحميلها معاني احداث تاريخية وواقعية وعلمية ليست فيها الا حرفيا وظاهريا فقط، دون ان تنفي طبعًا عن بعضها سمة التاريخ او الحدث.

ويظهر ان مسألة الخطيئة الاصلية قد شملتها هذه العملية التطهيرية. فبعد ان عرف المفكرون المعنى العميق والتاريخي للخلاص، لم يعودوا بحاجة الى استثناء قصة الخطيئة الاصلية من عملية التطهير من مظاهر الاسطورة الواضحة؛ فاكتفوا بالمعاني البديعة التي تبرز من وراء القصة دون تحميلها أي بعد "حدثي"، وهكذا اصبحت الخطيئة الاصلية تُفهم على انها تعبير عن حالة واقعية وليست حدثا ارتكبه شخص ما. وبذا عادت هذه القصة الى واقعها الاصيل.

ان حالة الخطيئة هذه قد تكلم عنها جميع الانبياء نتيجة مشاهدتهم الضعف والشقاء والنقص الذي كان يتخبط فيه العالم والانسان. وقد عبروا عن مشاهدتهم هذه باشكال مختلفة، واحدها قصة السقطة الاولى، سواء كانت هذه القصة من تأليف احدهم او من تأليف مجتمعهم، او احد المجتمعات القديمة. وبديهي انه لم يكن بامكان الانبياء ان ينسبوا هذه الحالة الى الله، لان فكرهم عن كمال الله لم تكن تسمح لهم بذلك، فنسبوها الى الانسان نفسه، أي الى ذنب ارتكبه، وقد عبروا عن هذا الذنب بالقصة المعروفة.

واذا القينا نظرة فاحصة الى العالم والمجتمع، سنصطدم نحن ايضا بحقيقة الشر وكل اشكال النقص والضعف اللذين يظهران بوضوح في كل مكان. يكفينا ان ننظر حوالينا قليلا

او ننصت الى جهاز الراديو ربع ساعة او نتعامل مع الناس والمجتمع، ليتأكد لنا سريعا ان النقص هو في اصل وجذور المجتمع والانسان والطبيعة... هذا النقص هو خطيئة الانسان "الاصلية" التي لم يرتكبها ابدا كحدث تاريخي جغرافي، ولكنه مدعو للنضال الدائم ضدها، اذ ان في نجاح هذا النضال خلاص الانسان الحقيقي.

هذه النظرة ليست تشاؤمية ولكنها واقعية. فالخطيئة هي عامل طبيعي للطبيعة والانسان. واذا كانت الطبيعة والانسان يسيران في خط تصاعدي، فهذا معناه ان النقص مستمر ودائم. اوليس صراع الاضداد وما يتمخض عنه، بالالم والموت، من قفزات جديدة الى الامام، خير دليل على ما في الطبيعة وقوانينها من اثم وضعف؟

فالخلاص من الخطيئة الاصلية يعني في الواقع، إذن، الخلاص من الضعف والنقص والشر. انه يعني القضاء على الظلم والاستبداد وعلى الخوف والقلق وكل ما يعكر صفو الانسان. ويعني ايضا الخلاص من الجهل والمرض وحتى من الموت بشكل ما؛ ويعني ارجاع كرامة الانسان وحقوقه ورفع مستواه المعاشي، كما يعني السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لخدمة الانسان. واخيرا يعني هذا الخلاص التحرر من الاوهام في المسائل الدينية باكتشاف الوجه الحقيقي لله والتعمق في هذا الاكتشاف، والتحرر الروحي من كل ما يعيق حرية الانسان الروحية من أي مصدر كانت هذه الاعاقة.

والايمان المسيحي يضع شخص المسيح الذي يطلق عليه هذا الايمان اسم المخلص، في مكان الصدارة. صحيح ان المسيح لم يقض بمجيئه ورسالته وموته على شرور البشرية، الا انه مع ذلك كشف عن اسس الخلاص الانساني. والمسيح لم يستلب دور الانسان في صنع خلاصه ولكنه اراه امكانية هذا الخلاص وحمّله مسؤوليته واعطاه الامل بالطاقة الداخلية التي وضعها فيه في التحرر والمساهمة الفعلية في خلاصه؛ وقد دعم يسوع، بثقل شخصيته الالهية وبشهادة موته على الصليب، صحة دعوته الخلاصية، وطمأن الانسان على انه يسير في طريق الخلاص الأمين.

(١) الاسطورة هي القصة او الحكاية التي فيها مزيج من مبتدعات الخيال والتقاليد الشعبية، وقد لا تخلو من نواة تاريخية في نشأتها؛ تتناقلها الاجيال، وقد تضيف اليها جماليات وجوانب لم تكن في الاصل. غايتها الاشادة ببطولة ما او تقديم تفسير ملون -شعبي او بدائي- لتساؤلات الانسان ومعاناياته الباطنية، او تجسيد رمزي لمثالية يطمح اليها. وهي بذلك غير الخرافة.

فالخرافة تركيب لا قياسي وحديث او قصة باطلة مطلقًا، لا صحة فيها، لا معنى ولا مبنى، بينما الاسطورة هي من عالم المثال والتصوير الذي ينطوي على حقيقة او عبرة او بعد يتعدى الكلمات.

بهذا المعنى تؤخذ الاسطورة حين تطلق كصفة في هذا البحث لقصة الخطيئة الاصلية. وهذا المعنى يدخلنا الى الطبيعة الكتابية الحقيقية لواقع القصة (الفكر المسيحي).

(٢) المقصود "بالفنون الادبية" الاساليب الادبية المختلفة التي يستخدمها المؤلفون في الكتاب المقدس، كالاسلوب التاريخي (ملوك- اعمال الرسل) والاسلوب القصصي (استير) والاسلوب الشعري (نشيد الاناشيد) والاسلوب الملحمي (دانيال- رؤيا يوحنا) والاسلوب الحكمي (الحكمة- امثال) والاسلوب النبوي (انبياء) واسلوب المثل (ايوب- مثال الانجيل)الخ.،. (الفكر المسيحي).

(٣) كقصة كلكامش لمحاولة تفسير الخلود (الفكر المسيحي).

(٤) المقصود بالخلاص الاجتماعي هنا هو الابعاد الاجتماعية والتحرر من كافة الاستلابات الخارجية والداخلية المفروضة على الانسان- كالظلم والعبودية والفقر والتخلف والخوف...- ليس فقط على الصعيد الفردي، بل على الصعيد الجماعي ايضا (الفكر المسيحي).

(٥) المراد بالصوفية هنا الخبرة الروحية التي تسند وتتحكم بعلاقة الانسان بالله (الفكر المسيحي).

(٦) انظر هامش (١) في اول المقال (الفكر المسيحي).

الكهنوت اليوم

الاب حبيب باشا الرئيس العام لجمعية الاباء البولسيين حائز على شهادات عالية في العلوم الكنسية [illegible]

[illegible]

[illegible] (١٩٣١-١٩٩٩) كان [illegible] رئيس اساقفة بيروت للروم الكاثوليك [illegible] منذ عام ١٩٧٥ حتى [illegible] ١٩٩٩ [illegible]

الكهنوت: حيرة وتطلع

من اظهر ظاهرات حقبة ما بعد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، ازمة الكهنوت. ذلك واقع لا يخفى الا على غافل او متغافل. وقد لا يرى البعض فائدة البحث في موضوع اصبح منتجع الاقلام ومقصدا من مقاصد رواد الفكر، فقالهم وشردهم.

ورب مؤمن بات يشفق على الكهنوت من موجة الاستفهام الضاربة في اركان الكنيسة، تزعزع بنيانها وتهدد كيانها، فيكون احوج ما نحتاج اليه اليوم -في نظرهم- الاقلاع عن البحث ومتاهاته، والاسراع في سد الثغر وملء الحفر.

كثير من كهنة اليوم يتساءلون، ليس فقط عن غرض رسالتهم ومعنى نشاطهم، بل عن هويتهم، وطبيعة دعوتهم، ومنزلتهم في عالم اليوم.

اسئلة مطروحة ومعضلات قائمة نجد اعراضها في تصرفات الكاهن واقواله، وفي ما يقال عنه وينشر. غرضنا، بعد وصف هذه الاعراض وتحليلها، الكشف عن طبيعة هذه الازمة: هل نتناول جوهر الكهنوت ام طريقة ممارسته؟ وجهان، ولا شك، مرتبطان ولكنهما متميزان. ورب نزوع عندنا اليوم الى الانتقال بيسر من معضلة عملية الى معضلة جذرية. فان كانت ممارسة الكهنوت تستدعي اعادة النظر، فذلك لا يفرض التشكيك في ماهية الكهنوت وجوهر كيانه.

١ - وجه الكاهن الجديد

ليس في المجتمع الانساني شخص اشد تقيدا بشخصيته من الكاهن. فما ان ينطلق الفتى في طريق التأهب للكهنوت، حتى يُفرض عليه نمط حياة يطالب به في اسرته ومحيطه وبيئته.

فاذا صار كاهنا، فعليه ن يخضع له ويتلبسه، والا تعرض لفشل رسالته، إما بالاصطدام مع محيطه واما بالانزواء عنه.

ولا غرو، من ثم، ان يتبدل وجه الكاهن، مع تطور المجتمع، ويتسم بسمات البيئة التي ينتمي اليها. فالكهنوت وإن كان صامدا في جوهره، فهو متنوع في ممارسته، يصطبغ باصباغ الازمان والحضارات، ويعكس حياة المجتمع في طرائق فكره ونظامه ونوعية علاقاته بالله.

فمن الطبيعي، والحالة هذه، ان يتأثر وجه الكهنوت بالانقلابات الاجتماعية، يتبدل بتبدّل البنيات والانظمة. فما كان يبدو فيه راسخا منتظما، يمسي عرضة للنقد واعادة للنظر.

والواقع ان اجيالا من الحضارة المسيحية، في الشرق كما في الغرب، قد اضفت على الكاهن صورة الانسان المعتزل، ممثل القيم الخالدة الثابتة، شهيد الله وكفيل النظام القائم. وحتى الذين لا يركنون الى كهنوته، ولا يؤمنون برسالته، يتوسمون فيه الصخرة الرأسية والمفزع الذي يخلد إليه في الساعات المترجرجة. هذه النظرة فرضت على الكاهن ان يتنحى، اجتماعيا وسياسيا، عن مصطرعات العالم، وان يسلك روحيا مسلك الراهب ورجل الله.

ثمة مجال للتساؤل: هل فكرة الكهنوت هذه تنطبق على الرؤية المسيحية؟ الواقع ان هذه الفكرة انما هي حصيلة اجلاب مختلفة. فهي انعكاس مجتمع متراتب متفاوت، حيث الخدمة كانت تكافأ بالفرز والامتياز. وهي ايضا راسبة من رواسب الكهنوت العتيق، يهودية ووثنية، في العهد الجديد، كل المؤمنين اضحوا "كهنوتا ملوكيا" (١بطرس ٢:٩)، بينما الكهنوت، في العهد القديم، ظل محصورا في عشيرة بني لاوي. ولكن، مع الايام، استعاد الكاهن المسيحي، في نظر الكثيرين ونظره، ملامح الكاهن اللاوي، بل وحتى الكاهن الوثني، صاحب السلطة القدسية وحارس الهيكل.

عندما يتحول المجتمع، يتحول معه نموذج الكاهن الذي ابتدعه. والواقع ان الذي تبدل ليس الكاهن، بل نمط علاقاتنا الاجتماعية وطبيعة نظرتنا الى الاشياء. اصبحنا اليوم لا نعتد كثيرا بالالقاب التي كان يكافأ بها كهنة الامس، اقرارًا بخدماتهم وتقديرا لجهودهم ومآثرهم. نؤثر الخدمة على اللقب، والكفاءة على الرتبة. وكل امتياز لا يرتكز على قيمة، يعتبر مهزلة وهروبا من الواقع وسخافة؛ وظاهرات التجدد التي غزت الكنيسة على صعيد الزي الكنسي والليترجيا وتلبس الاوضاع العمالية ومشاركة الناس معضلاتهم السياسية والاجتماعية، لم تكن مجرد انتفاضة طائشة، بل انعكاس تحولات باطنة ورغبة صميمة في التطور. ولقد جارى المجمع المسكوني هذا التيار فاضفى على كاهن اليوم من الملامح ما يباين صورته المستقرة حتى اليوم في الاذهان.

ومن اهم معالم ذاك التبدل، الاستعاضة عن صورة الكاهن المفروز عن بيئته بنموذج الكاهن المنصرف للخدمة الاخوية، ولا يعني ذلك ان الكاهن امسى اليوم منتدب الشعب وبديله في اقامة الخدم المقدسة. فالكهنوت يبقى علامة حضور المسيح وواسطة الخلاص الذي يحققه المسيح في الناس. بيد ان هذا الكهنوت الذي يأتيه من فوق عليه أن يمارسه "في

وضع رعائي وانساني عرضة للتقلب في الغالب"[١] "فالكهنة بين جميع المعمدين اخوة بين اخوتهم، وكلهم اعضاء جسد المسيح الواحد الذي انيط امر بنيانه بهم جميعا"[٢].

مثل هذه العبارات المجمعية تعكس، بلا مراء، نموذجًا للكاهن الجديد، ودعوة الى ممارسة الكهنوت بوجه جديد.

ولتحقيق هذا النموذج، لا بد من صفات تلائمه، "تلك التي يؤثرها الناس بحق في العلاقات البشرية، كالوداعة والخلوص ورباطة الجأش والصبر وحب العدالة، والرقة وصفات اخرى يوصي بها الرسول بولس بقوله: كل ما هو حق وعدل ونقاوة ولطف وشرف وكل ما هو فضيلة وكل ما يمتدح، كل هذا فليكن محط افكاركم" (فيلبي٤:٨)[٣]

هذا التركيز على الصفات الانسانية في الكاهن تقع عليه ايضا، حيث يتناول المجمع المسكوني قضية التنشئة الكهنوتية: "وليدأب الطلاب الى ترويض طباعهم... وتقدير لكل الفضائل التي يعتبرها الناس اعتبار جما والتي تجعل خادم المسيح محترما، كالصدق والاهتمام المستمر بالعدالة والامانة للالتزامات والتصرفات المهذبة والتواضع المقرون بالمحبة في الكلام"[٤]

لقد انقضى وقت كان فيه الكاهن في نظر المؤمنين محاطًا بهالة من القدسية؛ اما اليوم فاحترام الكاهن يرتكز على نوعية حياته وقيمة شمائله الانسانية.

هذا التبدل في نمط ممارسة الكهنوت، انما هو ظاهرة جزئية في رؤية شاملة توختها الكنيسة يوم التئامها مجمعا مسكونيًا. فهي لم تعد في نظر ذاتها هيئة متراتبة وحسب، بل "شعب الله الاوحد لجميع شعوب الارض. فجميع الناس مدعوون الى هذه الوحدة الشاملة في شعب الله[٥]..."

الخدمة الكهوتية، وان لم تتبدل في جوهرها، فهي خاضعة في ممارستها لتطور الزمان والبيئة. ثمة نموذج كهنوتي جديد بدأ ينشأ ويتكون. والمهم، في هذه التحولات السريعة والتي لا بد منها، ان يميز القائمون بها بين الجوهري والعرضي، فلا يخشوا التحديث والابداع، ولا ينقادوا لهوس التأخر والتخلف. فالخوف، في كلا الحالتين، يغشي على البصيرة ويزيف الهدف ويحول دون المبتغى. فهناك يقين واحد وهو حنان الاب الذي تجلى في المسيح ويستمر في الكنيسة. وهذا اليقين هو الذي يرشدنا في تخير المسالك الجديدة، من غير ان نضفي عليها صفة المطلقية ومن غير ان نزيف كهنوت المسيح.

٢- معالم الازمة

حركة التطور هذه لا تسير سيرا متسقًا ولا تخضع لنهج منتظم. بل تتحقق، ككل شيء في تاريخ الانسان، في اللبس والغموض وتصارع الاهواء والاغراض وتجابه المواقف والعقليات، فينجم عن ذلك توزع الاكليروس المعاصر الى فئات: فئة المنتصرين المبوقين بغلبتهم، وفئة الحائرين الذين اعيتهم الحيلة، وبين هؤلاء واولئك فئة القانطين الذين امسى كهنوتهم بل ايمانهم على شفا الهاوية.

هذه الازمة قد استفاض العصر في وصفها وتحليلها. وليس غرضنا استعراضها كرة اخرى، بل الاجتزء بمعالمها الاساسية. فأزمة الكاهن انما هي ازمة الانسان المعاصر وازمة الايمان في حياته الباطنة.

هناك أصباغ قاتمة، قد يضطرنا الواقع الى اثباتها في هذه اللوحة المقتضبة. الا انه من الخطل بل من الجور ان نعزل هذه الظلال عن سائر الوان اللوحة وملاحظها المشرقة وعناصرها الايجابية. فهذا الوصف لا يصيب قسطه من الصحة الا اذا اندمج في اطار عمل الروح في الكنيسة ويقين القيامة وفرح الرجاء.

١) ازمة الانسان في الكاهن

كل انسان يعيش في اطار وينتمي الى بيئة، ويشعر وكأنه مهدد في كيانه وفي توازنه الانساني اذا انتزع من بيئته وسلخ عن اسرته وأزيل عن مهنته. ويخيل الى كاهن اليوم انه في مثل هذا الوضع.

لقد كان، حتى الان، يتدرج في مجموعة من النظم والاطر تتعهده وتحميه وتعده لاهداف معينة وتكفل له العدة الكافية والتوازن اللازم لمواجهة عالم، وُكِلَ اليه امر انقاذه وتقريبه من الله.

كان الكاهن، ولا شك -كغيره من الناس- معرضا للزلل ولاثارة الشكوك والمعاثر. ولكن المعثرة، في حياته، كانت كبوة معارضة، سرعان ما يرتد منها الى سراطه المألوف ينعم ثانية بحمايته ويستند الى ركائزه القوية.

اما اليوم، فالبنيات امست مصدعة والنظم مفككة، ولم يعد الكاهن معرضا لبعض الازمات الطارئة والمزالق العابرة فحسب، بل اضحى مهددا في طاقاته الانسانية وركائز حياته.

"مهنته" الكهنوتية لم تعد، كسابق عهده بها، توليه شعورا انسانيا عميقا بتلبية حاجة واحتلال مكانة اجتماعية. لقد تخلخل النظام المجتمعي حيث كان للكاهن محل محفوظ، وحرمة مكفولة، ولم يبق له الا خصاله الشخصية وقيمته الانسانية، فأضحى بذلك شبه قائد ازيلت عنه شاراته وجردت سلطته من هيبة القانون. حاجاته العاطفية، كان بالامس يعالجها ويملأها بتلك الابوة الروحية التي كان يمارسها؛ واما اليوم فقد امسى العالم وكأنه لم يعد بحاجة اليه. ولذا يحس الكاهن نفسه انسانا وحيدا يتمسك بوظيفة لم يعد لها اندراج واضح في مجتمع انساني انحجبت فيه معالم الدين وتقلصت فيه مشاعر الايمان.

لقد كثر اليوم الكلام في اختلالات الكاهن العاطفية وضعف نضجه النفساني وقلة درايته بالواقع. مثل هذه الماخذ كانت ملحوظة من قبل، ولكن ظروف الحياة كانت تلطفها بعض الشيء، واما اليوم فالحياة تذرّ الانسان لشأنه فتفضح عيوبه ونقائصه فضحا سافرا. فلا عجب، من ثم، ان يصبح الجنس في حياته، كما في حياة اهل هذا العصر، معضلة شائكة. فالناس، اذا تركوا لشأنهم لا يثبت منهم الا الاشداء، واما الاخرون، فهم عرضة للتضعضع ولعبة في يد النزوات الطائشة والغرائز المتحكمة.

والى ذلك، فالكاهن يرى نفسه حائرا مضعضعا حيال عالم في تحول وتطور. لا شك ان من مهامه معالجة الوضع ومواكبة حركة التطور، لانه انما جعل لخدمة العالم؛ بيد انه بسبب ارتباطه بشخصيته الموروثة، يصعب عليه الاندماج في الحركة التي تنطلق بالدنيا شطر المستقبل. تنشئته تلفته الى الماضي، بينما الاجيال الصاعدة ترنو الى الجديد والمستحدث، وتألف التغير، وترضى بالنسبي وتترقب الازمنة الجديدة، ولا تأبه للاجيال الحادرة وما ينتابها من قلق حيال التحولات الاجتماعية والتطورات اللاهوتية والكنسية.

ويتبين الكاهن ان حركة التطور لم تعد محصورة في جزء من العالم، بل قد انفلشت في المدينة كلها، في جميع مرافقها ومظاهرها، بحيث لم يعد بالامكان التحكم في مصيرها وضبط حدودها.

منذ خمس عشرة سنة، كان بامكان الكاهن ان يحلم بحل مشكلة انعزاله عن العالم، بالانخراط في بيئة العمل مثلا او في بيئة الشباب. واما اليوم، فقد اصبح هذا الحل جزئيا، عاجزًا من ثم عن الاحاطة بمشكلات مدنية تخطت باتساعها حدود معضلة معينة، وشملت الانسان كله.

ولئن كان من الكهنة من يطالب بمزاولة مهنة او بالعلمنة او بالزواج، فذلك بغية الاتصال بعالم بات يجهل لغته، وامسى فيه وكأنه رسول اعجمي او كأنه رب اسرة اقفل باب الحوار بينه وبين بنيه لانهم اخذوا يتلقنون الاشياء والعلوم عبر لغة وبموجب اعراف لم يألفها عهد فتوته.

ويلقى الكاهن نفسه معقدا حيال اصحاب التقنية من مهندسين او عمال او خبراء. فلقد تلقن، ابان تنشئته، نظريات ومفاهيم تبدو له اليوم شاحبة غامضة في عالم مغرم بالدقة والوضوح. ويرى نفسه ذليلا بالا يكون بين يديه مهنة تمكنه من السيطرة على المادة، وتعفيه من الشعور بانه يعيش على هوى الصدف، من غير سابق تخطيط، وعلى غير قاعدة علمية.

ولانه ليس له معاش مكفول، بل كثيرا ما تضطره الظروف الى التحايل في سبيل لقمة العيش، فهو يتوق الى كسب رزقه كباقي الناس، فيعرف قيمة المال، ويقلع عن حياة طفيلية تؤمنها له حسنات المؤمنين.

هذه المأساة يعيشها الكاهن امام الملأ، لان الكاهن –شاء ام ابى– هو ملك جميع الناس، وجميع الناس –وان تركوه لعزلته– لهم فيه رأي ويطالبونه بكل شيء. فان تكلم او اقلع عن الكلام فهو في كلا الحالتين، معرض للتخطيء او اقله للمحاكمة. وما يطالبه الناس به انما هو عنوان التناقض. وحسبك استطلاع تجريه في مختلف الاوساط لمعرفة ما يتوقعه الناس من الكاهن، حتى تجتمع لك اجوبة غاية في التضارب وكأنك في مجتمع من الصم. حيال هذه المطاليب المتناقضة، ليس للكاهن من حيلة سوى ان يذكّر اخوته البشر بانه بشر مثلهم، وان ليس له على هذه الفانية سوى حياة واحدة يحياها.

هذه الازمة لا تشتد وطأتها على الكاهن –بشريا– الا لانها تتناول القيم التي ارتكزت عليها حياته، وبذل لها كيانه. العلماني الذي يواجه، كالكاهن، ازمة التطور، يجد في مهنته

واسرته عامل توازن وانتعاش. واما الكاهن، فبيئته الطبيعية التي توفر له التوازن الانساني انما هي كهنوته. فلا عجب، والحالة هذه، ان يشعر وكأنه امام جدار صفيق. فالعالم حياله امسى يعيش وينمو ويتطور مكتفيا بذاته، مستقلا، لا يحفل بالكاهن ذاك الغريب. ومع هذا فالعالم يبقى في نظر الكاهن قويا جذابا يصعب التفلت من اغراءاته. ولكن كيف السبيل اليه وقد قام حاجز بينهما؟ وكيف لا يرقى الى قلبه الجزع والتساؤل؟

٢) ازمة الايمان في الكاهن

هكذا، من جرى الاحداث، تتحول تلك الازمة في حياة الكاهن -وهي في المنطلق ازمة الانسان المعاصر عموما- الى ازمة ايمان. فالانزلاقات التي كانت تعتريه، قبلا، بسبب ضعفه البشري، امست اليوم نتيجة هلع اساسي ناجم عن تضعضع ايمانه وتصدعه.

وتنطلق الازمة من شعوره بالعجز والقصور. فالتنشئة التي اخذها لم تُعدُّه -على ما يرى- لتلبس الاوضاع ومتابعة الاهداف التي يبغي اليها انسان اليوم، ويتهيأ له ان التعليم الفردي -على ما ينطوي عليه من قيم راهنة صلحت لعالم آخذ في الزوال- يقذفه اعزل في معترك المعضلات الجديدة. فكيف السبيل الى الانسان، لا الانسان المثالي الذي يتصوره، بل ذاك الذي يحتك به كل يوم؟

ويتضح له بغتة ان الاساليب التصويرية والانماط التعبيرية التي كان يستعملها للاعراب عن مضامين ايمانه وحياته الروحية، امست متخلفة، لا تفي بالغرض. لقد ظن فترة ان تجدد العلوم الكتابية والطقوس الليترجية سوف يشرّع له سبيلا الى العالم المعاصر، ولكنه سرعان ما تبين له ان هذه المحاولات لم تفلح في رفع الحواجز القائمة بين الكنيسة والناس، وقد بات العصر يشكك في كل شيء حتى في الوهية المسيح. فأمسى الكلام عنه امرا نادرا يُؤثَر عليه التماس ما في الانجيل من عبر وتعاليم اجتماعية تنسجم وحاجات العصر. ويشعر الكاهن ان النيات الطيبة والمشاعر السخية لم تعد تستميل ابناء عصر يهوى العلاقات الواضحة والانجازات الملموسة.

حيال هذا العالم المتسرع الذي اصبح يعاف المماحكات الكلامية والنظريات المعقدة، يلقى الكاهن نفسه معرقلا ومكبلا بمجموعة شاخ عهدها من التقاليد والممارسات ويتساءل: كيف يجب ان يكون كاهن اليوم والغد، وبأي لغة يجب ان يكلم العالم عن المسيح والكنيسة، وبأي وسيلة يحقق عمل التقديس وقد اضحى المؤمنون لا يفقهون كثيرا فاعلية الاسرار، ولا يأبهون لعلاقتها الصميمة بحياتهم الروحية؛ واذا اقبلوا على مارسة بعضها كالاحتفال بالزواج او بالعماد، او بالمناولة الاولى، فلانها في نظرهم، سانحة لقاء عيلي او ظاهرة من ظاهرات المجتمع المسيحي.

ويضاف الى ذلك تضاؤل عدد المتطوعين للكهنوت، وتهرب الجيل الجديد من الانخراط في سلك الكهنوت والتزام وظيفة يؤثرون عليهما خدمة الكهنوت ضمن الحياة العلمانية؛ ولقد نادى المجمع المسكوني بمكانة العلمانيين في الكنيسة؛ فهبّ هؤلاء يطالبون ويمارسون فيها من وظائف التعليم والادارة والتنظيم، ما تؤهلهم لها مزاياهم العملية وخبرتهم التقنية.

بالامس كان العلماني في الكنيسة يأتمر باوامر الاكليروس ويتجه بتوجيهاته؛ فاذا تخطى حيز الخضوع والاسترشاد، فلمشورة تطلب منه على سبيل التأدب والمراعاة. واما اليوم فقد اصبح له في الكنيسة محل محفوظ، ومهمة جوهرية في تطوير الحياة المسيحية وتوضيح معالم ممارستها.

لا شك ان على الكاهن ان يغتبط بهذه المؤازرة العلمانية ويقدرها حق قدرها. بيد ان هذه الظاهرة الجديدة قد تضغط عليه احيانا فيتساءل: هل له الكلمة الفصل في نطاق وظيفته، وهل يبقى له مهمة خاصة وطابع مميز خارج حرم الكنيسة والنطاق الكهنوتي الصرف الذي امست اهميته، في نظر اهل العصر، على تضاؤل مستمر. افلا يخشى يوم يصبح فيه الكاهن "ذاك الولي الغريب عن شؤون الدنيا"، يُحتَرَم ولكن لا يعتقد كثيرًا بفاعليته وفائدته؟

ويا ليت الكاهن يصادف في محنته ما يفتقر اليه من مؤازرة رؤسائه ومساندة اخوته في الكهنوت. فهو غالبا ما يغشاه الشعور بانه الجندي المتروك وحده في الجبهة، لا يدري ما يدبر له قادته. ولكم من الشوائب الادارية تتبين له مضارها بحكم احتكاكه بالواقع ومباشرته لشؤون الحياة، ولا يقوى على معالجتها لانه معزول او شبه معزول عن مواطن الادراة وتصريف الامور، ويتساءل وهو في الاربعين او في الخمسين من عمره، كما كان شأنه عند تخرجه من الاكليريكية: اين المصير؟

في تلك الساعات العصيبة يتمنى الكاهن اتصالا اخويا بقادته، ولكنه يتصور انه لن يصيب منهم سوى اوامر جازمة او كلمات موعظة وحض على المثابرة. ويتساءل، بحق او ببطل، من زاويته الصغيرة، هل يتفهم الرؤساء وضعه ويقفون على مأساته؟ فهم تارة يسرفون في مراعاة جانبه لئلا ينفجر تشكيًا وتذمرا، وتارة يركمون عليه الاعباء اشعارا له بعظيم ثقتهم به، فيرضى بحمل ما لا يطيق حمله، ولا يعود يعرف المخرج من دوامته والمنفذ من حومة عمله. ويتضح له ان اللوم في ذلك لا يقع على الساسة بل على النظام الذي امسى فيه واياهم ضحية منقادة.

كثير من الكهنة اصابوا املا جديدا في المجتمع وقراراته. ولكن هذه القرارات استحالت، في الواقع، الى كثرة متكاثرة من التخطيطات والندوات والمؤتمرات والدراسات والاستطلاعات وكأن الهيئة الكهنوتية، في حاجتها الملحة الى التنظيم، باتت تأتكل لوضع نظم المستقبل، بينما الكاهن، على صعيد مهامه اليومية، لا يزال رهن التريّب والتريث.

فالكنيسة، في مجموعها، لم تعد توفر له ما كان يجد فيها من ضمان. فهي في تطور عارم مترددة وسط انتفاضتها، واذا به في جو ضاغط من التساؤل والتذبذب.

ثمة اشياء كان منذ عشرين عاما يجلها ويحلها محل الركائز الثابتة والنظم الراسخة، واذا بها اليوم تتحول وتنقلب بسرعة تكاد تقطع عليه انفاسه، فيما يراها البعض بطيئة مكبلة.

وتسقط اجهزة وانظمة ومهمات كانت لها مناعة التراث وحرمة التقليد. وتنشأ اختلافات ونزاعات مرة في مسائل باتت في نظر السلف أسسا لا تتزعزع وقلاعا لا تمس.

امام هذه الدنيا الاخذة في الانهيار، كثيرون يتوهمون، من الهلع، ان لن يبقى شيء، ولا غرو، فانه من الصعب اصابة الحد الفاصل بين الدائم والعابر، بين الجوهري والعرضي، كما انه ليس من السهل الفصل بين الشخص وشخصيته. اذا هَمَّ المرء باقتلاع الزؤان، افلا يخشى تلف الحنطة ايضا؟.. ولكم سمعنا كهنة -لا هم من المتحجرين ولا من المتخلفين- يتساءلون: اذا ما تهاوت الركائز التي استند اليها ايمان كهنة الامس، فعلى أي شيء يقوم ايمان كهنة الغد؟

في وسط هذا التضعضع، ربما وجد الكاهن في منتجعات حياته الروحية ما يساند به ايمانه، ولكن الازمة قد تسربت الى هذا القطاع ايضا، والشك راح يعمل فيه معوله. فرب ممارسات كانت تعتبر في الامس من اسس الحياة الروحية امست اليوم موضوع نظر وسؤال. كيف لا وقد باتت في نظر الكثيرين عوائق تعرقل العمل الرعائي، وتركم فوق منكب الكاهن التزامات مرهقة لم يعد يشعر بفاعليتها بل بضغطها، وهكذا فالتوازن الذي يحاول البعض التزامه بين وظيفتهم وصلاتهم، يبدو لهم ظالمًا مهددا. يتحسسون الحاجة الى حياة شخصية راهنة، ولكنهم امسوا يجهلون وسيلتها وما هي بالضبط، لكثرة ما يقال فيها.

بل ثمة اعمق من ذلك: فتلك الازمة، انما هي معاناة اقدم البعض على تسميتها "بخبرة الخيبة": خيبة الكاهن ازاء "عجز الله". فان نعمة الله تبدو قاصرة عن ان تغير حياته، واوهى من ان يؤثر في حياة الاخرين. لقد تنحى عنه اصدقاء ومناضلون كان قد اناط بهم جل امله وثقته، فاذا به بين جدران تطوق عزمه، وبازاء اسئلة تزعزع يقينه وتهدد قيما ومثلا كان قد بنى عليها مصيره... يقاوم الشك، ولكنه لم يعد يقوى على الاعتقاد بان الكاهن يمكن ان يصيب فرح الحياة. ويرهف فيه هذا الاحساس ما يراه او يسمع به من تبرم بعض الكهنة بكهنوتهم وترك التزاماتهم والنكوص عن عهودهم التي قطعوها مع الله والكنيسة...

ويظل الكاهن في مثل هذا الوجل الى يوم يتم له الغوص الى اعماق كيانه فيصادف المسيح الحي في قلبه، والذي بدمه سقطت الحواجز...

لا شك ان هذا العرض لما يمكن ان يعانيه الكاهن من ازمة مزدوجة: ازمة الانسان وازمة الايمان، اذا طبق جميعه على كاهن فرد، فهو ولا شك وصف خاطئ. وحتى اذا نظرنا الى تلك اللوحة بجميع جوانبها، فهي اقرب الى الصورة الكاركاتورية منها الى الواقع. فكهنة اليوم لا يزالون، في معظمهم، محتفظين بشعلة كهنوتهم وحرارة حبهم للمسيح؛ كثيرون منهم سعداء في حياتهم لا يحتاجون الى التفلت من واقعهم والتملص من التزاماتهم، ولكن الجذوة التي تضطرم في الكاهن في بعض الآناء المحظوظة لم تعد تضيء ارجاء حياته العادية، والعواصف الهادرة من حوله تهددها بالانطفاء. ومن ثم فلا بد له من ان يستعيد في ذاته وحدة كيانه وصميم ايمانه.

(ملف ايار ١٩٧٥)

تتمة الملف/ حزيران ١٩٧٥/جـ٢

الكهنوت اليوم: سبل التجدد

لتصفية الازمة التي تلم بالكاهن في اعماق ايمانه وصميم وجوده الانساني، لا يغني شيئا التماس علاج سطحي: يجب البحث عن حل جذري يمكنه من جمع شتات كيانه والتأصل في ايمانه.

الخطر يكمن هنا في محاولة الترميم بسرعة تحت وطأة الخوف. فعندما ينهار سد، يسارع الناس في التحوط لخطر السيل باقامة الحواجز المتيسرة. ولكن سرعان ما تنهار هذه الحواجز... مثلها الحلول المرتجلة بحافز الهلع وفي جو من التضعضع. فلقد بات كثير من كهنة اليوم يبثون في النفوس، ولا سيما في الاوساط الاكليريكية، دعاوة التهافت والقنوط والقلق، ويشلون الهمم بتعتيم لوحة الكنيسة في حاضرها ومصيرها، ويوهمون الناس ان المؤسسة الكنسية لم تعد تنهض باعبائها و لم يعد بامكانها ان تواجه مسؤولياتها مواجهة سليمة، وذلك بسبب شوائب اجهزتها الادراية والثغرات الملحوظة في تنشئة رجالاتها والمؤتمنين على مقدراتها. وذلك، لعمري، اصلح وسيلة لخلق العقد وتعقيد المعضلات.

واخطر ما في هذه الحلول المستعجلة المرتجلة انها جيدة في ذاتها، ومستوحاة من الانجيل ومن توجيهات البابوات والمجامع. وحسبنا استعراض ما بذل منذ عشرين سنة لمساعدة الكاهن في استعادة معنى حياته الكهنوتية. فاذا به كله جيد وحميد: فهناك العودة الى الينابيع الكتابية والتحديد الليترجي، والعمل الكاثوليكي، وتنظيم الاجهزة والوسائل الرعائية، وبعث الحياة الروحية، والاستعانة بالعلمانيين، واقامة الحوار...

وفي السنين المقبلة سوف تُكتشَف وسائل اخرى لا تقل فائدة وجدوى.

إلا ان ما يهدد فعالية هذه الوسائل، انما هو الطريقة المطلقة التي بها يحققونها. ان ما يزعج في بعض الاوساط الكنسية هو طابعها التحيزي المغلق. فكأنما انت بازاء قطاعات مقفلة لا يدخلها الا المفقهون. مثل هذه الانحرافات، تجدها في جميع الاوساط البشرية، ولكنها مستغربة عند الذين يعتنقون الانجيل. ولعلها ظاهرة من ظاهرات علة دفينة تظهر في الكنيسة في كل منعطف من منعطفات تاريخها.

الا اذا كان سبب ذلك هو الخوف من الاخفاق وقلة الثقة بالذات والرغبة في تجنيد جميع الطاقات لتحقيق النجاح الفوري بأي ثمن وباسرع وقت. فانه يحدث احيانا ان الانسان اذا استقطبته ارادة هدف، فهو لا يعود يرى سوى جانب من جوانب المعضلة، وتفوته الملاحظ الاخرى. انه لا بد من الاشارة الى ان خطر المطلقية هذا لا تظهر اعراضه في الشؤون التي لا نحفل بها كثيرا، بل في المهمات التي تستقطب اهتمامنا وتستغرق نشاطنا وتستترف جهودنا، ولان هذه المهمات لها في حياتنا مثل هذا المقام، فنحن نذود عنها كما نذود عن انفسنا ونضفي عليها صفة المطلقية ولا نعود نفطن لنسبيتها.

ما هو السبيل، إذن، الى تحقيق الاهداف المتوخاة والتطويرات المقتضاة، ولكن بالطريقة المحكمة الحكيمة؟

هذه الطريقة قد ارشدنا اليها البابا بولس السادس، في اعقاب المجمع المسكوني، في حديثه الى هيئة الامم المتحدة عن "الطريقة الجديدة للنظر في الانسان"، قال قداسته: "ها قد اتت الساعة لما لا بد منه من توقف وتخشع وتفكير بل وشبه تضرع". وقد افصح عن فكرته بتعبير اوضح، بعد بضعة ايام، في الجلسة الختامية للمجمع: "لقد خشعت الكنيسة في اعماق ضميرها الروحي لكي تصيب في ذاتها كلمة المسيح الحية والعاملة بالروح القدس، وتنظر بتمعن اكثر في سر هيمنة الله عليها، وتذكي في ذاتها جذوة الايمان، كفيل ضمانتها وحكمتها".

لا بد، إذن، من الانكفاء في "خلوة الضمير"، لا للتراجع والهروب من الواقع، بل لكي نعيش، في سر القلب وعمق الروح، المأساة التي تجري في ذواتنا وفي العالم. هذا العالم الذي اتوهمه خارج ذاتي، انما يعيش فيّ برغباته وصبواته واوهامه وصغائره. ما يجب ان ابحث فيه انما هو الانسان جميعه: أي انا والاخرون، ولكن لا للانزلاق في مهاوي التمرد والقنوط. فانه حيث ينقض عليّ السؤال، يهبط عليّ الجواب ايضا، وهو جواب الروح الساكن فينا "الذي يملأ كل شيء، والذي لا يزال يحيي الكنيسة".

المقترح ههنا ليس حلا معينا -قد يكون صالحا في ذاته، ولكن معرضا دائما للمراجعة والاستدراك- بل اختبارًا روحيا شاملا ينفي الخوف ويمكّن من العمل بحرية. امكانات العمل كثيرة، ومسالكها لا تحصى: ذاك ما يشهد به واقع الكنيسة عبر تاريخها. وأما ما يشهد لأعمالنا بانها صادرة من الروح، انما هو طريقة تحقيقها. فاذا ما انبثقت من الحب، وتحققت في جو من "الحزم والوداعة" وانتهت الى الوحدة، فهي تحمل، لا محالة، طابع الروح.

فما نحن بحاجة اليه، في هذه الساعات المترجرجة المبهمة، انما هو نعمة التمييز. فهي تحسر الخوف الذي يتستر بستار الخير، وتكشف الاغراض المطوية، وترشدنا الى التعرف بآيات الزمان وتكفل لنا التوازن في العمل.

فقبل ان نحمل على المؤسسات ونثور على التراث، علينا ان ننمي في ذواتنا الحس الداخلي الذي يمكّننا من اسقاط الاجهزة الهرمة وابتداع المستقبلة، والاقدام على هذا وذاك بغير وجل. هذه الخشعة في الذات وفي الايمان تحفظ للحلول المنتقاة طابعها النسبي. فاذا أقرت بلا تشدد ولا تعنف، فهي تتحقق في الحرية وتتكيف بغير تصلب وتظل محتفظة بمرونة الروح، ويؤمّن عليها من خطر التهرم الذي يترصد اعمالنا.

الكنيسة، في وضعها الراهن، بحاجة الى رجال اهل لهذا التمييز. اننا نجهل نموذج كاهن الغد، ولكن الخلاقين وحدهم يمكنهم ان يعيشوا المغامرة التي تترقب الكنيسة: نفوس بوسعها الانتظار طويلا والتقرير سريعا: صلبة في الالتزام، لينة في التحقيق، ترضى بالانتقاد واعادة النظر وتحليل الاوضاع حتى وان صدر ذلك عن تشاؤم ورغبة في التفنيد واختلال في التوازن

الانساني والروحي. لا تنثني امام العقبات بل تستوي فوق المشكلات المفتعلة وفوق الحلول المستنبطة من وراء المكاتب. لا تستكين لاي نظرية ولا تتقيد باي شعار حتى شعار التجدد. تحكم على الشجرة من ثمارها وتعلم يقينا ان العمل لا يكون مخصبا الا اذا تم في وحدة الكيان وفي قوة الحب.

ولكن ألسنا الان في دائرة مفرغة؟ نطلب تجدد الروح لتجديد البنيات والمؤسسات، ولكن تجديد البنيات والمؤسسات ضروري ايضا لتجدد الروح...

لا شك ان هذه الاصلاحات ضرورية لا بد منها، ولاجلها التأم المجمع المسكوني ولا تزال تعقد المؤتمرات والندوات، ولكننا لا نستطيع ان ننتظر منها كل شيء؛ فلئن ساعدت في اصلاح الانسان، فهي بحاجة الى انسان صالح يحققها. الانسان والمؤسسة: وجهان متكاملان. فمن دون رجال الروح هؤلاء، كيف تستطيع البنيات القائمة ان تتطور شطر الروح؟ وكيف تستطيع المؤسسات -بعد تجددها- ان تحتفظ بعزم انطلاقتها اذا لم يتجدد القائمون على مقدراتها؟ وهذا ما يتبين لنا من الخبرة: مؤسسات ناشطة نفحها اصحابها بنفحة الروح وعزمة الحياة، ما عتمت ان تقلصت وتجمدت بين ايدي الجيل الثاني. فهي ابدا مهددة بالتدني والتدهور، ولا تعيش الا اذا قيض لها رجال يلتزمونها من غير فرض، فتتمكن اذ ذاك من التطور من الداخل تطورا حكيما يحترم الافراد وينفي التجمد والتحجر.

فالمعضلة هي، اذن، اولا واخيرا معضلة الانسان.

كذلك نجيب ايضا على الذين يعترضون باننا نلجأ الى علاج الايمان لحل مشكلة الايمان في حياة الكاهن. فالكاهن مصاب في ايمانه، فكيف نعرض عليه علاجا روحيا بينما المفروض ان نصلح له ولغيره من اهل هذا العصر ما يكفل له مرتكزات ايمانه؟

جوابنا ان ما نقترحه ليس هو بالمنهج العقلاني او التحليلي، ولا يفترض مقدمات وسوابق. بل هو يتناول الكاهن في الدرب، في حالته الراهنة وفي نمط حياته الواقعية. نداؤنا اليه ان: استمر في اصلاح المؤسسات وفي تأصيل ايمانك في آن واحد. في وسط هذه الوقائع الانسانية التي يرتبط بها نشاطك، كن ذاك الكائن الحر الذي تبغي اليه. تقبل تلك التوترات الحيوية التي تصادفها في عملك، واجعلها منطلق تقدم ورقي. فاذا تقبلتها فسوف ترى انها تسعى بك في طريق الايمان.

ان المسعى الذي كلامنا فيه له علاقة بالكيان قبل ان تكون له علاقة بالعمل. او قل انه يتناول الحياة والعمل معا، لكي نكتمل في الكيان ضمن نطاق الحياة والعمل. الخطر، في فترات التجديد هذه، ان نهدم كل ما هو قائم وننطلق من الصفر. اما اقتراحنا فهو ان ننصهر في تيار الحياة، ونستمر في مواكبة عمل لم يبدأ معنا ولن ينتهي معنا، وندأب في البحث، ضمن استمرارية كياننا وكيان العالم وكيان الكنيسة، لكي نجدد ذاتنا انطلاقا مما يجري ومما يعمل. هذا التجدد لا بد ان يتم في الاعماق ومع اليقين بانه، عبر هذا المجهود، سوف تبعث انسانيتنا وكهنوتنا وايماننا.

وجملة القول اننا مدعوون الى السير ضمن الواقع الانساني الذي نعيش فيه. فالكاهن الذي يتساءل عن معنى كهنوته وقيمة اختياره، نقول له: استمر في السير ولكن بطريقة اخرى.

ان المجمع المسكوني، عندما ازمع دفع الكنيسة في دروب التجدد، طلب منها اولا ان تتجدد من الداخل. لقد انشأ في البحث نمطا فذا، لم يُعهَد به الى خبراء يكبون على دراساتهم وتقاريرهم، ويخططون لوضع اسس مجتمع جديد، بل الى مؤمنين يرجعون الى ينابيع الحياة وينصتون الى صوت الروح الهامس في اعماقهم. لا بد ان نتلبس نحن ايضا مثل هذا الوضع لكي يولد ثانية نموذج الكاهن الذي يترقبه العالم المتطور. ازمة الكاهن لا يمكن ان تنحل الا بالعودة الى دعائم الحياة الانسانية والايمان.

التجدد الذي نترقبه لا يمكن ان يتم الا عبر اختبار انساني وروحي مستمد دوما من واقع ما نعيشه اليوم. هذا الاختبار، اذا استمر، يفسح المجال لتجدد شامل -تجدد الانسان في جميع ابعاده- عبر حلول دائما جزئية ودائما مفتقرة الى التجدد.

(عدد حزيران ١٩٧٥)

(١) اعمال المجمع الفاتيكاني الثاني: خدمة الكهنة وحياتهم ١

(٢) نفس المرجع ٩

(٣) نفس المرجع ٣

(٤) التنشئة الكهنوتية

(٥) الكنيسة ١٣

ملف حزيران ١٩٧٥/جـ١ .... الاب جرجس القس موسى

التثقيف المسيحي في العراق.. الى اين؟

في هذا الملف الذي يحتوي على عنصرين كتبه الاب جرجس القس موسى [illegible] [illegible] في القسم الاول [illegible] [illegible] [illegible] كالاصوليات [illegible] التي شككت [illegible] كما اشار الى [illegible] التثقيف المسيحي [illegible] [illegible]

وفي القسم الثاني [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] والوطن والكنيسة. ومن هذا المنطلق [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

التثقيف المسيحي في العراق: موضوع شائك ومتشعب الجوانـــب، ولـــولا خطـــورة الموضوع الذي أصبح معضلة لاقتصرت على مسالة "التعليم المسيحي". ولكن مسالة التعليم المسيحي جزء من قضية التثقيف المسيحي الذي يطمح إلى أن يطال كافة قطاعات المسيحين.

لماذا يطمح التثقيف المسيحي أن يطال جميع المسيحيين؟

للإجابة على هذا السؤال يجب أن نعرف ما المقصود بالتثقيف المسيحي هنا: عمليـــة إدراك أسس وجوانب العقيدة المسيحية والإحاطة بمتطلبات الإيمان المـــسيحي. هـــذا مـــن الوجهة النظرية، أما من الوجهة العملية، فهو تخطي العقيدة إلى الحياة والممارســـة الفعليـــة. فالتثقيف المسيحي، إذن، بكلمة واحدة، هو التعليم الحي المعاش، ومن دون الحياة والممارسة يصبح مجرد تجميع معلومات سرعان ما تتبدد كذكريات الصبا. وهذا التثقيف يـــستند إلى شخص يسوع المسيح الحي وتعاليمه التي تنحلي لنا في احداث الإنجيل، والى الإيمان به الذي يعطي المعنى الحقيقي للوحي والأبعاد الحقيقية لبنوتنا لله، ويُنقل الينا عبر وضـــمن الجماعـــة المسيحية أي الكنيسة. إلا أن الهدف ليس مجرد إعطاء قاعدة خارجية من التعليم الصحيح ، ولا مجرد نقل "وديعة " يجب الحفاظ عليها —حتى وان كانت وديعة الإيمان— إنما قبول هذه القاعدة مبدأ حوار مع الإنسان في ظروفه الروحية والمادية المتبادلة، وشرط التزام شخـــصي، حر وواع، بالحياة بكل زخمها وطوحاتها الفكرية والزمنية. فتثقيفنا المسيحي ليس مجرد تعليم ديني نظري، إنما يعانق أيضا حياة الأمة التي نحن جزء منها ويتفاعل مع طموحات الـــوطن وقضاياه المصيرية والتحررية ويكون عنصرا فعالا في بناء غده وتحوله الثوري. إيمان يعـــانق الإنسان كله ، ولا يكون مجرد ظاهرة آنية في وجوده أو مفـــصولا عـــن حياتـــه العاديـــة واهتماماته الرئيسية وتطوره... هذا ما يطمح أن يقدمه التثقيف المسيحي. أفلا يحق لـــه أن يطمح أن ينال جميع المسيحيين؟ اوليس من حق جميع المسيحيين أن يتـــزودوا بمثـــل هـــذا

الإيمان؟ بل أليس من دواعي تقهقره وفقره أن يجرد من آفاقه تلك فيصبح في أعين الكثيرين أشبه بأقراص منومة أو بسندات لا رصيد لها لاكتساب الآخرة ؟ !

أنْ نعطي ناشئتنا وشبابنا روح المحافظة على "وديعة الإيمان" دون إعطائهم مفتاح تطويرها وروح "الاقتسام" و "الشهادة"، فمعناه اننا أخفقنا مسبقا، لان الحياة في تطور حتمي وليس في الحفاظ على الوضع القائم ، لان الوضع القائم سرعان ما يصبح متخلفا في حركة الحياة ومسيرتها الدائمة ، إذن رجعيا ، إذن ناقصا ومضرا!

فأين نحن ؟

• الوضع الحالي

سنستعرض هنا الخطوات الايجابية والمبادرات الكنسية والرسمية والمحلية الموجودة حاليا والتي تساهم من قريب أو بعيد في عملية التثقيف المسيحي لمختلف فئات المؤمنين وأعمارهم أو مراحلهم الدراسية أو الثقافية. وسنورد بشيء من الإيجاز، للإحاطة بجوانب القضية، المبادرات التي توارت وقد كان لها شان في مهمة التثقيف المسيحي. ومن ثم نقيم هذه المبادرات وموقف السلطة الكنسية والشعب المسيحي منها، قبل أن ننتقل، في مقال قادم، إلى الخطوات اللازمة والاقتراحات العملية.

١) التثقيف المسيحي للطلبة في المدارس:

في عرف الكثيرين، تعتبر المدارس المسيحية قنوات التثقيف المسيحي الطبيعية. وفي العراق اليوم ثلاث فئات من المدارس بوسعنا أن نطلق عليها صفة "المسيحية"، بتحفظ ومجازا -والتحفظ ناتج عن انه، بعد إلحاق المدارس الأهلية الخاصة بوزارة التربية، لم يعد هناك مدارس مسيحية بالمعنى التقليدي- وما يهمنا نحن في هذا البحث هو وضع التثقيف المسيحي فيها. هذه المدارس هي:

***المدارس الطائفية الرسمية**: ومعظمها ابتدائية، وهي التي انشأتها الطوائف المسيحية في ظل كنائسها. وتعتبر هذه المدارس رسمية وتتبع مناهج الدولة وتوجيهاتها والانفاق عليها. أما الامتياز الذي تتمتع به، فهو أنها تؤمّن التثقيف المسيحي لطلابها المسيحيين ويكون مديرها وقسم مهم من ملاكها مسيحيا، إذ إن أكثرية طلابها مسيحيون، ومعظم هذه المدارس يتواجد في المدن الكبرى.

***المدارس الرسمية التي أكثرية طلابها مسيحيون**: وتتواجد بصورة رئيسية في القرى المسيحية في المنطقة الشمالية وفي محافظة نينوى وبعض مناطق العاصمة حيث يكثر عدد المسيحيين. وتتمتع هذه المدارس بامتيازات الفئة الأولى ، وبصورة خاصة بتامين التعليم المسيحي ضمن المناهج الرسمية.

***أما الفئة الثالثة فهي المدارس الأهلية الملغاة**: ومعظمها بإدارة الراهبات أو الطوائف المسيحية المعنية. وتشمل هذه المدارس روضات وابتدائيات ومتوسطات وثانويات للبنين

والبنات أو مختلطة للمراحل الابتدائية. تتواجد هذه المدارس بكثافة نسبية في بغداد ثم تليها الموصل وكركوك والبصرة وسائر المدن والقرى المسيحية أو التي تضم نسبة مهمة من المسيحيين. ونظام هذه المدارس، حتى تاريخ إلحاقها بوزارة التربية وشمولها بقرار مجانية التعليم، كان أن تتعهد الجمعية الرهبانية أو الكنسية إدارة المدرسة والإنفاق عليها. وكانت تعطل الدراسة يومي الأحد والجمعة بالإضافة إلى العطل الرسمية المدنية والدينية، وكانت تتقيد بمناهج الدولة إلى جانب توفيرها التربية المسيحية لطلابها. وبعد إلحاق هذه المدارس بوزارة التربية صدرت تعليمات تقضي بان تبقى على أنظمتها السابقة في ما يخص تدريس الدين المسيحي واللغة القومية وعطلة يوم الأحد.

وهكذا، بعد قرار إلغاء المدارس الأهلية، بقي القاسم المشترك الأعظم بين الفئات الثلاث أنها تضم أكثرية مسيحية من الطلاب مما يخولها أن تنعم بتطبيق القانون الذي أصدرته قيادة ثورة ١٧ تموز المظفرة والقاضي بتدريس الدين المسيحي في المدارس التي أكثرية طلابها مسيحيون. وقد شمل هذا القانون أيضا المدارس المتوسطة والثانوية المتواجدة في القرى المسيحية والمدارس الأهلية الملغاة، وعددها زهاء ١٥.

إن قرارات مجانية التعليم وشمول جميع المدارس العراقية برعاية رسمية واحدة وتقديم فرص متكافئة لجميع المواطنين على اختلاف حجم مواردهم وجذورهم الاجتماعية، ونشر روح المساواة والمواطنة الواعية الملتزمة، لقرارات صائبة لا يختلف في تقدميتها اثنان، وقد ألحقتها ثورة ١٧ تموز المباركة بمأثرة أخرى وهي إقرار منهاج موحد للتعليم الدين المسيحي، وشكلت لجنة مشتركة من الطوائف المسيحية في بغداد وضعت منهاجا موحدا للصفوف الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة الابتدائية طبعتها وزارة التربية على نفقتها ووزعتها مجانا على الطلبة في المدارس الابتدائية الخاضعة لإلزامية التعليم المسيحي، ويبلغ عددها في أنحاء القطر أكثر من ٦٠ مدرسة.

٢) التثقيف المسيحي للطلبة خارج المدارس:

لا تضم المدارس -وحتى التي معظم طلابها مسيحيون- سوى جزء صغير من الطلاب المسيحيين، قد تصل نسبتهم في المدارس الابتدائية الأهلية الملغاة وفي القرى المسيحية على احسن تقدير حوالي ٥٠% من مجموع الطلبة المسيحيين، في المرحلة الابتدائية. ولكن ماذا من الـ ٥٠% الأخرى ومن تلامذة المتوسطات والثانويات الذين يرتادون المدارس الرسمية الأخرى حيث يشكلون أقلية لا تحظى بالتدريس الديني المسيحي ضمن منهاجها؟

في الستينات وما قبلها كانت درجة الدين تحتسب بصورة رسمية لكافة الطلبة المسلمين والمسيحيين. وفي ذلك الحين كانت الكنيسة قد نظمت التعليم المسيحي لطلبة **المتوسطات والثانويات** (حيث يشكل المسيحيون أقلية) على شكل دروس تعطى أيام الجمع في مراكز تابعة للكنائس. وكانت لجنة التعليم المسيحي في الموصل قد نشرت مناهج خاصة لهاتين المرحلتين. إلا أن هذا القانون كان عرضة للمد والجزر بحسب مزاج وقناعات بعض المسؤولين من العهود السابقة. فقد الغي وأعيد عدة مرات إلى أن جاءت ثورة ١٧ تموز

بالقانون القاضي بتعليم الدين المسيحي للطلاب المسيحيين في كافة المدارس التي أكثريتها مسيحيون. فعاد الكهنة إذ ذاك إلى إعطاء دروس التعليم المسيحي لطلبة المتوسطات والثانويات المسيحيين كالسابق. وكان هذا الأسلوب قد فقد كثيرا من فاعليته بسبب حذف درجة الدين رسميا، ولكنه لم يفقد شيئا من ضرورته وأصالة هدفه، إلا وهو الاستمرار في إعطاء طلبتنا ثقافة مسيحية متطورة؛ غير أن التجربة توقفت في بداية السبعينات، وكانت التجربة تقتصر على محافظة نينوى ولربما في بعض المناطق الشمالية الأخرى. أما في بغداد والبصرة والمدن الأخرى، فكان طلبة المتوسطات والثانويات -ولا زالوا- لا يعرفون اية محاولة في هذا الاتجاه، ما خلا تجارب محدودة وضيقة في مدينة بغداد.

أما طلاب المدارس الابتدائية الرسمية حيث المسيحيون أقلية، فكان حظهم -ولا زال- اقل بالعناية الدينية من سواهم، ويقتصر على بعض الدورات الصيفية التي يقيمها هنا وهناك -وأحيانا لإعدادهم للتناول الأول فقط- بعض التلامذة الاكليريكيين أو شباب الاخويات أو الراهبات وبعض الكهنة. مثل هذه التجربة تحمل قيمة لا باس بها مضافا إلى سواها، ولكنها كالجزر الضئيلة الضائعة.

في هذا المضمار، تجب الإشارة إلى بعض تجارب بغداد حيث نشأت هناك -بين مد وجزر أيضا- لجنة أو لجان للتعليم المسيحي كان بعضها ذا صبغة طائفية لم يعمر طويلا، ولا زالت هناك بقية باقية تتلقى تثقيفا دينيا وكتابيا روحيا جديا حول بعض الكهنة، ومن ثم تقدم خدماتها للخورنيات المختلفة. وكثيرا ما كان هؤلاء الشباب اليد اليمنى للكهنة في إعداد الفتيان للتناول الأول.

٣) التثقيف المسيحي لطلبة المعاهد والجامعات:

كي يبقى الإيمان موردا روحيا للحياة، يجب أن يتغذى ويتحرك. وإذا أُريد للدين، أي دين، أن يخدم الإنسان، عليه أن يكتشف حاجات الإنسان ويطور سبل النهوض بالإنسان شطر التقدم والاكتمال، تاركا ما يبلى من الطرائق ليعتنق فقط ما يعطي ويجدي ويلائم متطلبات مراحل الحياة. فكان لا بد للكنيسة أن تهتم بأبنائها شباب الدراسات العليا وتقدم لهم ثقافة دينية مسيحية تتلاءم ومستواهم العلمي والفكري المتطور.

ومنذ ظهور الجامعة في بغداد، بذل بعض الكهنة محاولات جذبت نفرا من الطلاب ذوي الرغبة الأصيلة في تطوير ثقافتهم المسيحية. مثل هذه المحاولات لا زالت تجد اهتماما في بعض الكنائس من قبل كهنة رعايا وآباء كرمليين ومخلصيين ودومنيكيين. إلا أنها -هذه وتلك- على الأغلب منفردة وينقصها التنسيق والمثابرة. هذا وقد ساهم مركز القديس يوسف للآباء الكرمليين في بغداد مساهمة رئيسية في نشر الوعي المسيحي وإتاحة الفرصة لندوات ثقافية مختلفة ونشاطات دينية ومحاضرات حول الحقائق الإيمانية والإنجيل المقدس لم تقتصر على الطلبة الجامعيين، بل كانت مفتوحة لكل طالب ثقافة مسيحية، لا سيما من رواد المركز المذكور.

أما في الموصل، فمنذ بداية الستينات ظهرت الندوات الدينية بصورة أكثر انتظاما وتنسيقا في عدة كنائس للطلبة الجامعيين والمعاهد والخريجين، هدفها التثقيف الديني المسيحي وإقامة جو من الثقة بين الطلبة والكنيسة وقضايا الإيمان والحياة والمساهمة في خلق جيل مسيحي مستنير الإيمان، واع لمتطلباته، يتفاعل مع تطلعات الوطن ويلتزم بالمساهمة في بنائه التزاما حيويا.

استمرت هذه الندوات في أجواء طبيعية حتى نهاية العام الدراسي ١٩٧٢ — ١٩٧٣ حين قهرتها ظروف استثنائية خارجة عنها إلى التوقف. هذا وقد شكل بعض الطلبة الجامعيين ندوة مسيحية في منتصف هذا العام (١٩٧٥) مقرها نادي بين النهرين للناطقين بالسريانية كمحاولة لاستعادة ما كانت تقدمه الندوات السابقة من فوائد دينية واجتماعية.

على غرار هذه الندوات أقيمت ندوات دينية أخرى خارج الموصل. ولكنها كلها تأثرت من قريب أو بعيد بما لاقته الرسالة في الموصل.

٤) التثقيف المسيحي للبالغين:

نقصد بالبالغين هنا جميع الذين اجتازوا مرحلة الدراسة والعمال والأسرة المسيحية.

فإلى جانب الندوات الدينية للجامعيين، وبالأهداف نفسها، عملت **ندوتان أخريان للموظفين والعمال** في الموصل، وان على نطاق أضيق. إلا أنها هي الأخرى توقفت.

إلى جانب ذلك، عمد بعض الكهنة إلى توجيه التثقيف المسيحي إلى الأسر المسيحية عن طريق **السهرات الانجيلية**. وهي عبارة عن سهرات عائلية بسيطة يقضيها احد الكهنة في بيت مسيحي تجتمع فيه بعض الأسر الصديقة الجارة حول نص من الإنجيل يكون أساسا للحديث عن أمور الإيمان وجوانب الحياة المسيحية ، وقد نجحت تجربة السهرات الإنجيلية في الموصل والقرى المسيحية المجاورة وفي مناطق أخرى.

وإذا كان الكتاب المقدس قد احتل مكانا مرموقا في السهرات الإنجيلية، وقد اعتمده بعض الآباء المهتمين بتثقيف البالغين أساسا **لدروس التعليم المسيحي** والكتاب المقدس بالمراسلة؛ هذه الطريقة لاقت في حينها رواجا وإشعاعا كان يحمل صدى نجاحها وفائدتها.

وشهدت الموصل مبادرة أخرى في صيفي ١٩٧١ و ١٩٧٢ وهي **"الدورة اللاهوتية للعلمانيين"** في مواضيع لاهوتية وكتابية وكنسية. وفي بغداد بعض محاولات محدودة شبيهة تهدف إلى تزويد الشباب المسيحي بوعي اكبر على قضايا الإيمان والكتاب المقدس.

وهكذا يكاد لا يكون للتثقيف المسيحي للبالغين ذكر الآن في العراق، ويقتصر اليوم على بعض ندوات متباعدة، نصف دينية نصف ثقافية، تعقدها بعض نوادي الناطقين بالسريانية، وعلى المواعظ المتفاوتة القيمة والأثر التي تلقى أو تقرا في الكنائس في المواسم والأعياد.

٥) الصحافة والنشر:

وهذا يسوقنا إلى ذكر المحاولات الصحافية والنشر في عملية التثقيف المسيحي في قطرنا، فهناك مكتبة الآباء الدومنيكيين في الموصل التي ساهمت بصورة فعالة منذ سنين طويلة في نشر الكتاب المقدس في أنحاء القطر، وكذلك بعض المكتبات الدينية الصغيرة الملحقة بالكنيسة في بغداد وكركوك وقرة قوش وتلكيف. وقد نشر عدد من الكتب المسيحية لمؤلفين أو مترجمين عراقيين. أما في مجال الصحافة، فنضيف ما تضطلع به "**مجلة الفكر المسيحي**" في إشاعة الوعي والتثقيف المسيحي منذ ظهورها سنة ١٩٦٤. هذا وهناك نشرة دينية دورية بأربع صفحات تصدر بعنوان "**الكنيسة**" عن بطريركية بابل للكلدان.

٦) الأخويات الرسالية:

المسيحية تبلغ أصالتها لدى المؤمن يوم يشعر بان إيمانه ليس ملكا وقفا عليه، بل وزنة يفلحها وطاقة للمشاركة، وبشرى سارة تحمل إلى الناس. هذه هي المنابع الأصيلة التي دعت إلى قيام الحركات الإرسالية في الكنيسة ومن ضمنها الأخويات الرسالية وقد عرفنا منها عندنا الأخوية المريمية والأخوية الطلابية المسيحية. هذه الأخويات لا تقتصر على إعطاء أعضائها ثقافة مسيحية وعمقا روحيا فحسب، بل تدعوهم إلى مزاولة الرسالة الإنجيلية كل في محيط عمله أو دراسته أو أسرته. ولطالما ساهم أعضاؤها في خدمة الكنائس وإلقاء التعليم المسيحي للاحداث وإعداد الأولاد للتناول الأول ونشر روح الصلاة وحب الإنجيل والسخاء.

هذه الرسالة العلمانية قهرها ظروف أليمة وتوارت عن مسرح كنيسة الموصل قبل سنتين بعد أن قدم هؤلاء الشباب اعز طاقاته لخدمة الإنجيل وتجسيده في محيطاهم بإخلاص وعطاء وفرح وبذل.

- **تقييم وتساؤلات**

لقد استعرضنا الجوانب والمبادرات التي ساهمت في حركة التثقيف المسيحي منذ بداية الستينات؛ وبوسعنا، بالرغم من قربنا من هذه الفترة الزمنية وقصرها -مما يجعل عملية التقييم الكاملة سابقة لأوانها- وبالرغم من محدودية هذه المبادرات ، بوسعنا أن نرى فيها بوادر استفاقة لتحريك حياة الكنيسة عندنا ومد مسيحيتنا بزخم الشباب. إلا إن مواقف السلبية أو التجاهل أو الجمود أو اللا أبالية -وأحيانا من حيث كان يلزم أن يأتي التشجيع والدعم والمساندة- بالإضافة إلى بعض الصعوبات والضعف اللذين يرافقان كل حياة تتحرك، كل ذلك ساهم في أفول بعض المبادرات أو انتكاسها، وبقائنا في دوامة النقد الذاتي دون الاجتياز إلى العمل.

نوجز مبادرات التثقيف المسيحي القائمة اليوم في العراق كالاتي:

١ – التعليم المسيحي في المدارس التي أكثريتها مسيحيون
٢ – بعض محاولات منفردة وضئيلة جدا تجاه الشباب
٣ – بعض دورات صيفية قصيرة لأطفال المدارس لا تنال ١% من الأولاد واقل للبنات
٤ – الأخوية المريمية التي تقلصت جدا
٥ – مجلة "الفكر المسيحي" ونشرة "الكنيسة"
٦ – الحياة الليتورجية الطقسية التقليدية التي تتراجع شعبيتها يوما بعد يوم لاسيما عند الشبيبة، بسبب جمودها ولغتها وبعدها عن أي تطور، بحيث بدت للكثيرين، عرضا مسرحيا يعاد كل مرة بالإخراج نفسه أمام جمهور يقتصر دوره على المشاهدة والانصراف! وما خلا ذلك، لا شيء يذكر سوى تشكي الأهل والأسر المسيحية والشباب من قلة الثقافة المسيحية وإلقاء التبعة كلها على الكهنة –ولربما على الراهبات أيضا– وهؤلاء بدورهم يلقون التبعة على الأساقفة، والكل يشتكون من سوء الحال. وتدور الأيام ونحن حقا من سيء إلى أسوا. قد يحلل بعض المسؤولين الكنسيين القضية في دواوينهم ويستخلصون إلى أن زمام الأمور لم يعد بأيديهم، فيعلنون استسلامهم للواقع –وان كان مريرا. والغريب في أمرنا اننا قلصنا قضية التثقيف المسيحي إلى بعض دروس سطحية تعطى للصغار في بعض المدارس.

لا شك إن للمدارس دورا هاما ورئيسا في العملية التربوية. ولقد كانت مبادرة مشكورة وسعيدة واعترافا بحق مشروع أن تقر الدولة إلزامية التعليم المسيحي في المدارس التي أكثريتها مسيحيون، ولفتة رائعة أن توزع كتب مادة الدين المسيحي مجانا عملا بالقرار الثوري في مجانية التعليم. كما واننا نثمّن الفرصة التاريخية التي اتاحتها ثورة ١٧ تموز التقدمية لكنيسة العراق، على اختلاف طوائفها، ان تضع منهاجا موحدا في الدين المسيحي لكافة الطلبة في المدارس الابتدائية المشمولة بالقرار المذكور، وقد وضعته لجنة رسمية مشتركة من الكهنة. إلا أن هذه المناهج المتداولة جاءت، برأينا، هزيلة وكأنها كتبت على عجل. فقد كانت فرصة ثمينة للكنيسة أن تركز جهودها وتستفيد من ذوي الكفاءات والاختصاص والخبرة من كهنة وعلمانيين ليس من بغداد وحسب، بل من كل أنحاء القطر، لا سيما حيث الخبرة أوسع وأقدم. فبالإمكان العمل بهذه الفكرة وإعادة النظر في المنهج الحالي في الطبعة القادمة ولدى وضع مناهج المدارس المتوسطة والثانوية الخاضعة للقرار، وهذه المناهج ضرورة ملحة، سيما وان أساتذة مادة الدين المسيحي ليسوا دوما أكفاء.

أما قرار تدريس الدين المسيحي للطلاب المسيحيين في المدارس التي أكثريتها مسيحيون فيحتاج، برأينا، إلى تطوير ليأتي منسجما مع مبدأ المساواة التي يقرها الدستور لجميع المواطنين على اختلاف أديانهم، ومبدأ تكافؤ الفرص الذي أطلقته ثورتنا التقدمية منذ فجرها أمام جميع المواطنين لخدمة أمتهم بأقصى ما أوتوا من قوة وزخم، وليشعروا جميعا بأنهم مواطنون على قدم المساواة، وميزان مواطنتهم حجم عطائهم. واقتراحنا في هذا التطوير هو أن تضيف السلطة الثورية مأثرة أخرى مما عودتنا عليه فتعمم التعليم الديني لجميع الطلاب المسيحيين في القطر، حتى في المدارس التي لا يشكلون فيها الأكثرية، أسوة بزملائهم الطلبة المسلمين، ونهيب بالسادة الأساقفة الإجلاء أن يتحركوا سوية بهذا الاتجاه. واننا لواثقون من

أن قيادتنا الوطنية تولي اذنا صاغية لكل ما من شأنه ترسيخ الوحدة الوطنية والحرية واشتراك الجميع في خيرات البلد وبناء غده الأفضل.

للمرء بعض الحق أن يرفع يديه مستسلما ويلقي اللوم على غيره، إن هو عمل كل ما بوسعه و لم يفلح، فهل عملنا حقا، نحن ابناء ورعاة الكنيسة، كل ما بوسعنا؟ وإذا لا نتوقع أن نفلح كليا، فلماذا لا نعمل لعلنا نفلح جزئيا؟

إننا، ويا للاسف! لسنا دوما في مستوى المسؤولية. فما خلا بعض الانتباه المبدئي إلى قضية التعليم المسيحي للصغار، لا نعير أي تحسس لحاجة الكبار إلى التثقيف المسيحي. فأين الاهتمام بالعمال والكسبة، أين الاهتمام بالأسر المسيحية، أين الاهتمام بجيل المفكرين والتقنيين، أين الاهتمام بعالم الشبيبة الواسع الذي هو أحوج القطاعات المسيحية إلى الثقافة الدينية وتطوير نظرته إلى الإيمان، أين الاهتمام بوسائل الإعلام لخدمة الإنجيل وأبعاد مبادئه في حياة الإنسان... إننا ننتبه إلى تجميل كنائسنا وتجديد أبنيتها ووارداقا أكثر من انتباهنا إلى تجميل مسيحيتنا وتجديد طاقاقا، أسوة ببقية كنائس الله، ودمج عطائها في حركة التطور الفكري والحضاري الذي يعيشه قطرنا.

الم ننظر نظرة هامشية، إن لم نقل محبطة، إلى كافة المبادرات المسيحية والكهنوتية ودور العلمانيين في الكنيسة... وكأنها لا تمت إلى حياة كنيستنا بصلة.. وكأنها ليست من صلب شهادتنا المسيحية.

مثل هذا الموقف اللامسؤول والقصير المدى، نلمسه أيضا عند المؤمنين أنفسهم. فتجاوب الأهل والأولاد تجاه مبادرات التثقيف المسيحي التي ظهرت ودروس التعليم المسيحي –أيام الجمع سابقا– والدورات الصيفية مثلا، لم يكن مشجعا..

إننا لا نبغي هنا مجرد سرد السلبيات، بل زرع التساؤل الايجابي الذي يسبق العمل ويستدعيه:

هل حقا نعد مسيحية سنة ٢٠٠٠ ، وكيف؟

اجل إن ما ينقصنا حقا هو النظرة المستقبلية وديناميــة الخلق والعمل والمثابرة. ومسؤولية التثقيف المسيحي وبعث المسيحية الجديدة الملتزمة هو شاننا جميعا، هو عمل الجميع قمة وقاعدة، سلطة ومؤمنين، كهنة وشبابا...

(ملف حزيران ١٩٧٥/جـ١)

تتمة الملف/ تشرين الاول ١٩٧٥/جـ٢

- **إزاء التحولات الاجتماعية والفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية.. يتحتم التحرك والالتزام**

يوم كنا صغارا، كنّا نجلس القرفصاء في فيء المدرسة أو بين أنقاض كنيسة قديمة مجاورة، ونردد بعد "أستاذنا" الشماس أسئلة وأجوبة التعليم المسيحي، ونتعلمها على ظهر القلب دون استفسار أو تساؤل، ونعود إلى البيت مكتّفي الأذرع كما يليق بالأولاد المهذبين، حسبما كان يوصينا "الأستاذ". جو البيت أو القرية كان مشبعا بالبساطة والتدين، ومحور الأيام يدور برتابة حول الأعياد والمواسم الدينية، وكانت الكنيسة، برنّات أجراسها المتكررة، ملتقى الكبار والصغار، ليس فقط أيام الآحاد، بل حتى في بحر الأسبوع. وكانت الحفلات والصلوات، وان كنا لا نفهم من لغتها شيئا، وقطعات البخور التي تعطر الهيكل وتغلف الحاضرين، واشتراكنا الرمزي في تلك السن بالطقوس، بأثوابنا البيضاء وزنانيرها الحمراء والخضراء والزرقاء.. كان كل ذلك يسند إيماننا دون مشاكل كما سبق وسند، أجيالا، إيمان ابائنا وأجدادنا.

وما خلا ذلك، لم يكن ما ينافس بصورة جدية هذه التأثيرات على حياة الإيمان وممارساته، لا على الصعيد الفكري ولا على الصعيد الاجتماعي أو الاقتصادي أو العلمي. كان والدي ببساطته وطيبة قلبه يقول لي ونحن ندرس تاريخ الإنسان القديم: كل ما في كتاب التاريخ خرافات، ولكن ادرسه للامتحان فقط؛ أما القصة الحقيقية فهي قصة ادم وحواء في التوراة!

و لم يكن جو المدينة يختلف كثيرا عن جو القرية إلى بضع سنين خلت. فعملية التسرب الفكري شبه معدومة و لم يكن للمؤثرات الخارجية دور حاسم في تغيير القناعات لاسيما الدينية والتربوية. وفجأة اخذ كل شيء يتبدل، لا سيما منذ ثورة ١٧ تموز ١٩٥٨، بطيئا، وبتأرجح أولا.. وثم منذ ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨، بسرعة وتخطيط وبرمجة وفكر قيادي؛ ونحن اليوم نعاصر مرحلة تحولات نوعية واسعة وجذرية في قطرنا، عمودية وأفقية، في الفكر والاقتصاد والسياسة والثقافة وفي استخدام العلم والتكنولوجيا للتقدم، وفي كل فنون الحياة والتعبير والعلاقات.

فمن مجتمع زراعي بدائي ومهني محدود ومقفل، انتقلنا إلى مجتمع متمكن ومتطور تشكل فيه الخطط الانفجارية والمشاريع التنموية والعمرانية العامة والخاصة تحولا اقتصاديا هائلا: وهكذا وجدنا أنفسنا فجأة في مجتمع استهلاكي عانى الضنا طويلا، ثم لما فتحت أمامه أبواب الرفاهية، تهافت كالجائع المحروم على كل جديد وأنيق في الملبس والمسكن والمأكل وحتى المركب، حتى أصبحت كماليات الأمس ضروريات اليوم. ولا يخفى ما يتطلب كل ذلك من عمل دؤوب وجهاد مستميت لزيادة الدخل ومطاردة الرزق حيث يوجد؛ وبالتالي التخلي عن الأساليب التقليدية في الحياة والكسب وهجر البيئة الأولى

ومسقط الرأس وحب الاستقلال. أما على الصعيد الفكري والثقافي، فقد طرأت تحولات نوعية وكمية واسعة. وقد تفطنت السلطة إلى نواحي تخلفنا الأساسية وأخذت ترسم، الخطة تلو الخطة، لإيقاف التخلف وحرق مراحل الزمن للحاق بالحياة وبناء العراق الجديد على أسس علمية وموضوعية جديدة... فخططت لإشاعة التعليم الإلزامي في كل مناطق العراق، ففتحت مئات المدارس وأنشأت المعاهد والكليات العديدة بالإضافة إلى الايفادات التاهيلية والدراسات الواسعة إلى الخارج لإعداد كوادر هذه النهضة، وفتحت مراكز محو الأمية الإلزامي في العديد من مناطق القطر، وجعلت من ديمقراطية التعليم أداة وهدفا لبناء المجتمع المتكافئ. والدولة سائرة قدما وبعزم في تطبيق سياسة تربوية مبرمجة وموحدة وفي خط عقائدي اشتراكي وقومي واضح، وتولي اهتماما كبيرا بالثقافة الجماهيرية وتوعية البالغين المستمرة وعلى كل المستويات العمالية والوظيفية والنسائية والفتوة والشباب، وذلك عن طريق المنظمات والنقابات والجمعيات والاتحادات المختصة ومختلف وسائل الإعلام، والاتصال كالصحافة والبرامج الإذاعية والتلفزيونية والندوات والدورات...

إلى كل ذلك نضيف زحمة التيارات الفكرية والثقافية والسياسية التي تتقدم بدعوتها إلى مجتمعنا النامي لا سيما الشبيبة التي لها حساسية اشد تجاه قضايا المجتمع الآنية وتجاه النضال المباشر والالتزام بالواقع المحسوس، ولا تعير كبير اهتمام بالقضايا الفائقة الطبيعة، بل تعتبرها غبية وعديمة الفائدة. وهكذا بتنا نشهد نزعة، صريحة أحيانا، وغير معلنة أحيانا أخرى -إلا أنها موجودة دائما- إلى فقدان الأبعاد الروحية في الحياة وفرض نوع من الانسحاب الجزئي أو الكلي إلى الخطوط الخلفية على العامل الديني عموما. وأخذت من يد الكنيسة المبادرات التربوية والخيرية والتثقيفية التقليدية التي كانت بحوزتها كالمدارس والمياتم وحتى جزئيا المعاهد الكهنوتية. وحيال كل هذه التغيرات، لم نلق دوما انتباها ايجابيا إلى قراءة علامات الأزمنة وحمل المسؤولية الوطنية والكنسية من قبل رجال الكنيسة، وفي كثير من الأحداث المهمة قوميا ومسيحيا، كان صوت الكنيسة غائبا. وكان خليق بنا أن نستلهم كنائس العالم الثالث وأميركا اللاتينية ومواقف إخوتنا في الإيمان فيها الذين نماثلهم إلى حد كبير في ظروفنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والذين، إلى جانب جهودهم في تجديد كنائسهم داخليا، لا يتنصلون من دورهم الطليعي في تطوير بلادهم والمساهمة مساهمة فعالة ومباشرة في تحريرها الكامل.

إننا، هنا، في استعراضنا لبعض أوجه الواقع الذي نعيشه، دينيا ومدنيا، وذكر بعض التحولات التي أصبحت من مكونات واقعنا في قطرنا، واستقراء ما نحن مقدمون عليه من بنيات جديدة، لا ينبغي مطلقا أخذه مأخذ الذم أو الانتقاد أو الإطراء، فنحن إنما نورده كملاحظات باحث اجتماعي محايد -وان كان هذا اللقب كبيرا على محاولتنا الوضيعة- يقرا النتائج من مسبباتها ويستلهم الواقع لرسم صورة المستقبل.

إن كل ما ذكرناه وما نلمسه كل يوم في الممارسة، على الصعيد الفكري والعملي، خلخل العلائق القديمة في مجتمعنا، ففضح المتهرئ والهزيل منها، وخلق، على كل حال،

أسسا جديدة تفرض منطلقات جديدة وممارسات، منها ما تفرضه هذه التحولات بالذات، ومنها ما تفرضه سنّة التطور والحياة، بغض النظر عن أي ضغط خارجي.

فإزاء كل هذه التحولات السريعة وكل الانتظارات والتساؤلات، وإزاء ظاهرة عدم الاكتراث الآخذة بالتزايد بالبنيات التقليدية للكنيسة، يتحتم علينا التحرك وتحمل المسؤولية تحت طائلة الموت؛ وبدرجة أعلى يتحتم الالتزام الفوري بتثقيف جيل مسيحي واع وملتزم بكل ما تعنيه هذه المقولات من أبعاد وعمق.

- **تثقيفنا المسيحي ليس مجرد تعليم ديني مثالي: التزام بحياة الأمة والوطن والكنيسة**

– ولكن ما هو مضمون هذا التثقيف المسيحي الذي تدعون إليه؟

هذا كان سؤال احد الشباب في ندوة عقدت في مركز القديس يوسف ببغداد قبل ثلاثة أشهر حول الموضوع الذي نحن بصدده، وذلك انطلاقا من القسم الأول من بحثنا المنشور في ملف حزيران. وهذا السؤال مطروح علينا بصورة جدية؛ وعلى الإجابة الصريحة عليه تتوقف أمور مصيرية كثيرة في وجودنا المسيحي في هذه البلاد وفي تأدية دورنا كاملا في حياة الكنيسة الجامعة وفي تحديد الرسالة الإنجيلية وجوهر المسيحية الحية التي ندعو إليها. هذا ما يجب أن تفهمه كنيستنا في العراق، قمة وقاعدة، إذا أرادت للمسيحية أن تحيا وتحيي في هذه البلاد.

ونقصد بعبارة "المسيحية" هنا لا المجموعة البشرية التي تدين بالمسيحية فحسب، ولا الدين المسيحي بوصفه ظاهرة اجتماعية وعنصرا حضاريا فقط، فهذا وتلك يمكن بقاؤهما طويلا حتى بعد نزع الروح عنهما، كما وهج الشمس يبقى طويلا بعد غيابها؛ إنما نقصد بالدرجة الأولى هذه الروح بالذات، اعني بها أصالة الدين المسيحي الذي نتنسمه في الإنجيل وتسلمناه من الرسل بكل ما فيه من دينامية والهام للحياة... هذا الايمان الذي يكشف للإنسان بنوته الإلهية، ومن هذه البنوة الإلهية تنبثق دعوته إلى الالتزام والتحرر على خطى المسيح المحرر الأعظم للإنسان –التحرر من الخوف والخطيئة وكل الاستلابات–؛ هذا الإيمان الثوري الذي تحدث عنه كاميلو توريس وهلدر كامارا وجوليوس نيريري وروجيه غارودي، وكشف عنه المجمع المسكوني الأخير؛ الإيمان الذي هو طاقة خلاقة لا تنضب في الإنسان؛ الإيمان الذي يضع في قلب الإنسان طموحات وإمكانيات لا حد لها للاخوة والمساواة والتعاون البناء؛ الإيمان الذي يوحد الحياة بوجهيها الزمني والروحي، فإذا هو شحنة التزام جريء، لا ركود مخدر!

مثل هذا الإيمان الواعي هو ما نبحث عنه قاعدة لتثقيفنا المسيحي للنشء الجديد والشبيبة الطالعة، لبناء عراق جديد مؤمن خلاق وكنيسة جديدة ملتزمة وجريئة.

المقصود بالتثقيف المسيحي الذي ندعو إليه "عملية إدراك أسس وجوانب العقيدة المسيحية والإحاطة بمتطلبات الإيمان المسيحي، وهذا من الوجهة النظرية؛ أما من الوجهة العملية، فيعني تخطي العقيدة إلى الحياة والممارسة الفعلية... ومن دون الحياة والممارسة يصبح

مجرد تجميع معلومات سرعان ما تتبدد.. "ويستند هذا التثقيف إلى شخص يسوع المسيح الحي وتعاليمه... وينقل الينا عبر وضمن الجماعة المسيحية أي الكنيسة".

فتثقيفنا المسيحي، إذن، ليس مجرد تعليم ديني مثالي لا يمس الحياة؛ وان كان كذلك لكان تنكرا للإنجيل الذي دخل في لحمة الحياة وسداها ولصاحب الإنجيل وللإنسان الذي جاء ليخدمه. فالدين لخدمة الإنسان في مسيرته نحو الله وحافز خير وتطهير ذاتي ولبناء المجتمع الإنساني الحاضر. والدين المسيحي باجلى بيان ما كان إلا وحيا وإلهاما على مر العصور لرقي الإنسان وتحرره وزخما عقائديا لثوراته على الظلم والاستبداد والخمول، فلا خوف منه إن هو ساهم في عملية البناء والتجديد التي يشهدها قطرنا، لا بل ذلك حق عليه، ولا خوف عليه إن هو أدى رسالته هذه وكان عنصر حركة وخلق وتطور نحو الأفضل.

- **دراسة وتخطيط.. ولكل مراحل الحياة، وبكل وسائل التعليم**

إن معظم المتعلقين بالكنيسة من البالغين تتراوح أعمارهم بين الأربعين والستين، وكثير منهم يغلب على إيمانهم طابع التقليد والركود الفكري والاكتفاء بالذات المجاور للأنانية، وفلسفتهم فلسفة جيلهم: "كل مؤمن لنفسه!".. ولكن حتى هؤلاء سيتوارون غدا ويبقى شباب اليوم ونشء اليوم والغد الذين تطبعهم الأفكار التقدمية والعلمية والانفتاح وتهمهم المبادئ الممتزجة بالحياة. غدا ماذا سيكون مصير إيمانهم.. هل فكرنا.. هل اعددنا لهم شيئا ؟

وإذا كانت عملية نقل الإيمان وتسليمه من السلف إلى الخلف امرًا طبيعيا وسهلا في السابق، فهي اليوم، وللأسباب والعوامل المار ذكرها، عملية تحتاج إلى جهود استثنائية تستدعي منا دراسة ميدانية جادة للواقع والمتوقع والإمكانيات والممكنات، ومن ثم التخطيط العلمي البعيد المدى ووضع برامج وأساليب متنوعة للتثقيف المسيحي قد تدعو إلى تغيير جذري للأساليب التقليدية. هذا التغيير وارد، ويجب أن يخضع باستمرار للعوامل الزمنية والمكانية والنفسية. ومن جهة أخرى، لا ينبغي أن نحصر التثقيف المسيحي، كأي تثقيف في أي موضوع آخر، لا ينبغي أن نحصره في أسلوب واحد وفئة واحدة، بل يجب أن نضعه في متناول جميع شرائح المجتمع وعلى كل مراحل الحياة، ونجد له "كل وسائل التعليم" حسب عبارة القديس بولس، وكل وسائل الإيضاح والاتصال والتقنية التي يضعها العلم تحت تصرفنا، كالصورة والصوت المسجل والاسطوانة والشريط السينمائي والإذاعة والنشر... أضيف إلى كل ذلك وسائل الاتصال المباشر كالتعليم المسيحي في المدارس او خارجها، الوعظ والإرشاد في الكنائس، الندوات الدينية ودروس الدين للكبار، السهرات الإنجيلية الخ...

صحيح ان بعض هذه الوسائل غير متوفرة لدينا أو لم يعد في أيدينا كليا، ولكن هل استفدنا من كل الوسائل التي بحوزتنا أو التي لا زالت مفتوحة أمامنا أو التي يمكن أن نطرقها

مع قليل من روح المبادرة والابتكار والتضحية؟ لقد تضاءلت فرص إعطاء التعليم المسيحي في المدارس، ولكنها لا زالت قائمة، فهل اعددنا الكوادر اللازمة والمناهج الملائمة؟ وهل اتبعنا الطرق التربوية والنفسية الحديثة في إيصال الثقافة المسيحية إلى هؤلاء الفتيان؟ وهب أن لا يكون ثمة أي تعليم ديني رسمي في المدارس، افنبقى مكتوفي الأيدي نتباكى؟ هناك بلاد، ومنها فرنسا، لا تدخل في مدارسها الرسمية مادة الدين، ولكن الكنيسة أوجدت طرقا لتنظيم التثقيف المسيحي خارج المدارس، في الكنائس، وفي الأسر، وفي الدورات وفي مراكز التعليم المسيحي، وبمناسبة المناولات الاحتفالية؛ واستخدمت كثير من البلدان كافة وسائل الإيضاح من صور متحركة واسطوانات وكراريس وقصص الإنجيل ومجلات مختصة، افليس من الضروري أن نفكر في الاستفادة من خبرة غيرنا؟

قد يكون تثقيف البالغين -من طلاب وعمال وموظفين- أصعب وأكثر تعقيدا ويستوجب تحمل مسؤولية اكبر، ولكن ألا تستحق خطورة القضية وأبعادها تحمل هذه المسؤولية واسترخاص الجهود كلها؟ الشباب عموما، لا سيما طلبة الجامعات، وغدا سيكون ثلثا شبابنا في الجامعات، لا يلقون من الكنيسة لا تفهما ولا دعما ويشعرون بأنفسهم فيها غرباء. أفنعد الأمر طبيعيا؟ أفلا نحتاج إلى أن نتذكر ما أعلنه المجمع الفاتيكاني الثاني في وثيقة "التربية المسيحية" رقم ٢: "**... كي يغدو المعمذون أشدّ وعيا لهبة الإيمان التي اقتبلوها وخاصة الشباب الذين هم أمل الكنيسة...**"؛ وفي رقم ١٠ يقول أيضا: "**وبما أن مصير المجتمع والكنيسة نفسها يرتبط ارتباطا وثيقا بتقدم الشباب الذين يتابعون دروسهم العالية، فعلى رؤساء الكنيسة ألا يألوا جهدا في الاهتمام بحياة طلاب الجامعات...**"

من جهة أخرى، أفلا يكون مناسبا أن تستغل بعض المناسبات المهمة في حياة المؤمن، بصورة ذكية ومبسطة، لتصبح فرصة تثقيف طبيعية كحفلة العماذ والتناول الأول وتجديد مواعيد المعموذية وفترة الإعداد للزواج والمناسبات الطقسية والليتورجية. لم لا تُطوَّر بعض الحفلات الكنسية ويشترك فيها الشعب لتصبح صلاة وتثقيفا حقيقيا؟ ألا يمكن التفكير الجدي في إقامة قداديس خاصة، من وقت لآخر، للصغار، مثلا، أو للشباب أو في البيوت وفي بعض مناسبات خاصة، لتكون بمثابة قداديس نموذجية بتنظيمها ونصوصها، وتطوير مشاركة الشعب والجوقات في القداديس الاحتفالية والعامة؟ لغة الموعظة وأسلوب إلقائها نفسه يحتاج إلى تطوير ليكون اقل "استعراضا" وأكثر "قربا" من مفاهيم المؤمنين واهتماماتهم. أما الأسرة، فيلزم أن تستقطب اهتمام الكنيسة لكونها الأرضية الطبيعية والأولية التي منها ينطلق الشعور الديني، ويمكن أن يكون لها شان اكبر بكثير مما لها في عملية التثقيف المسيحي. فيجب إعداد الأهل وتوجيههم على أنهم هم أول المربين المسيحيين لأولادهم، وان دورهم اكبر وأفضل من دور المدارس ويسبقه. فإذا فهم الأهل ذلك وعملوا به نكون قد حللنا نصف المعضلة: هناك في بعض البلدان أمهات وفتيات وشباب يجمعون أولاد الحي في منزلهم ويلقنونهم التعليم المسيحي في أوقات فراغهم. كما إن للسهرات

الإنجيلية الأثر الكبير على الأسر المسيحية في إعطاء وتقوية الثقافة المسيحية وإفساح المجال أمام الصغار والكبار أن يلقوا الأسئلة ويتحاوروا بعفوية حول الإنجيل وأمور الدين.

وماذا نقول عن الإعلام المسيحي والنشر في خدمة التثقيف المسيحي؟ أليس هذا القطاع، على اهميته، مهملا في كنيسة العراق؟ ونحن لا تعوزنا العناصر الشابة الغنية بالفكر والقابليات، علمانية وكهنوتية، إنما قد نفتقر إلى التشجيع والثقة والدعم.

فإزاء المحاولات الوضيعة والجزئية في مجال النشر والإعلام المسيحي التي ظهرت أو لا زالت قائمة عندنا —ونعتبر مجلة الفكر المسيحي إحدى هذه المحاولات— ماذا كان موقف المسؤولين الكنسيين منها، وماذا كان حجم مساهمتهم فيها؟

- **تعاون فعلي وتنسيق المسؤوليات**

ولكن في الحقيقة إن كانت عملية التثقيف المسيحي متعددة الجوانب وتستدعي استخدام وسائل وطرائق متعددة ومتنوعة، فهي عملية جماعية ومسؤولية مشتركة، وانه يخطئ من يظن ان التخطيط التربوي عملية فوقية لا شان للمسيحي العادي فيها. وقد تكون الاحتكارية الكنسية والرهبانية لكل المبادرة في هذا الشأن هي احد أسباب ضعف وتقهقر التثقيف المسيحي الآن في بلدنا.

لقد وصلنا إلى منعطف تدعونا خطورته إلى إرساء قواعد تعاون فعلي ومدروس لعملية التثقيف المسيحي بين الأساقفة والكهنة والراهبات والعلمانيين، من شباب وفتيات ونساء، وإلا لبقيت محاولاتنا كلها ناقصة وهزيلة. قد يكون من المفيد أن نذكر الدور الكبير الذي كان لأصدقاء الرسل ومعاونيهم العلمانيين، من رجال ونساء، في التبشير بالإنجيل في الكنيسة الأولى (انظر كتاب أعمال الرسل ورسائل مار بولس). إن الوقت قد حان لإعادة الثقة بالجماهير المسيحية وإشراك العلمانيين في حياة الكنيسة الروحية والليتورجية والثقافية والإدارية والرسالية، فليس الكاهن أو الأسقف كل شيء، ولا يحق لهما أن يكونا كل شيء. ودعونا، ولو مرة واحدة، أن نخاطب بمحبة وجزيل احترام، ولكن بصراحة، آباءَنا السادة الأساقفة الأجلاء أن يتحملوا مسؤوليتهم القيادية الروحية **لتحريك ركودنا ودعم مبادرات الحياة في كنيستنا العراقية وقيادة "الاجيورنا منتو" أي التجديد الكنسي** الذي دعا إليه البابا يوحنا الثالث والعشرون. "فالأسقف، كما قال احدهم ليس فقط حارس الحدود لئلا يتخطاه احد ويسقط. هو من يفتح الآفاق والأبواب، هو من يسمع ويثير الحديث...".

وعليه، ندعو إلى تنسيق المسؤوليات والعمل بين الاكليروس والعلمانيين، فالعمل الجماعي مكتوب له الديمومة حتما أكثر من العمل الفردي. كما ندعو إلى تنمية وتشجيع الاختصاصات والاستفادة من الكفاءات لتطوير أساليب التثقيف المسيحي. في كنيستنا العراقية كهنة وشباب كثيرون ذوو كفاءات، منهم من اكتسبوا خبرة واختصاصا في ميادين

العمل الرسولي مع الشباب أو الأسر المسيحية أو التربية أو الصحافة والنشر، ومنهم من حصلوا على شهادات عالية أو لا زال بعضهم على مقاعد الدراسة في اختصاصات كنسية وعلمية وكتابية في جامعات كنسية ومدنية في الخارج... فهل تستفيد كنيسة العراق منهم وتشجعهم على وضع اختصاصاتهم في خدمة الإنجيل والتثقيف المسيحي بصورة صحيحة؟

- **خلاصة واقتراحات**

الخلاصة من كل ذلك هي أن قضية التثقيف المسيحي في العراق باتت من الخطورة بحيث لم يعد السكوت ممكنا، وإلا لأدركنا الموت! وان معالجتها معالجة سليمة وبعيدة المدى تتطلب دراسة ميدانية وموضوعية جادة تستند على واقع بلادنا ومسيرتها الفكرية والحضارية وتستلهم خبرة الكنيسة الجامعة؛ وان هذه الدراسة يجب أن يعقبها تخطيط يشترك في وضعه الاكليروس والعلمانيون معا؛ وان هذا التخطيط وتلك الدراسة يجب أن يتجسدا في التنفيذ الفعلي من قبل كنيستنا العراقية، برجالها ونسائها، بشبابها وشاباتها، بكهنتها وأساقفتها، برهبانها وراهباتها، متكاتفين، متواثقين، مسؤولين!

ونختم بثلاثة اقتراحات:

الاقتراح الأول: إنشاء مركز التعليم الديني لإعداد مدرسي التعليم المسيحي؛ وإعطاء التثقيف المسيحي، قد يتفرع إلى مراكز ثانوية، أو يصبح تدريجيا معهدا للتثقيف المسيحي للعلمانيين. وكخطوة أولى نقترح إقامة دورات تاهيلية لمدرسي ومدرسات التعليم المسيحي على غرار دورات الانكليزية والرياضيات الحديثة التي تنظمه مديريات التربية في المحافظات.

الاقتراح الثاني: تشكيل لجنة عليا على صعيد القطر ولجان فرعية محلية لشؤون الرسالة والتثقيف المسيحي. وتتكون كل واحدة برئاسة أسقف، من كهنة وراهبات وعلمانيين من كلا الجنسين. وتهتم كل لجنة أيضا بالدراسات والتخطيط والتنسيق والمتابعة في اختصاصها. ويكون من نتائجها أن يكون كل أسقف مسؤولا عن قطاع رسولي: هذا عن التثقيف المسيحي للبالغين، وذاك عن الكتاب المقدس، والآخر عن الإعلام والنشر، وغيره عن الوحدة المسيحية الخ...، كما هو جار في مصر مثلا.

الاقتراح الثالث: تشكيل لجنة أو هيئة وطنية مؤلفة من أساقفة ومن كهنة وعلمانيين ومن جميع الطوائف المسيحية لشؤون علاقات الكنيسة والدولة.

عسى هذه الاقتراحات والأفكار المبعثرة التي نرفعها إلى آباء كنيستنا الإجلاء وأبنائها وبناتها الغيارى تخدم قضية الإنجيل والمسيحية في بلادنا وتجعلنا أكثر حساسية لمتطلبات إيماننا.

وعساها تلقى صدى في دراسات اجتماع الأساقفة القادم!

(ملف تشرين الاول ١٩٧٥/جـ٢)

الصراع الطبقي وأثره على فكر الكنيسة ووحدتها

على مدى عددين متتالين كان الاب لوسيان جميل قد طرق موضوعًا هو محط مجالات فكرية بين تيارين: الرأسمالية مع الطبقية التي تفرزها، والماركسية التي تسعى الى مجتمع تزول فيه الطبقات. ما هو فحوى الصراع بين الطبقات؟ ما هي خلفياته؟ ما هو وقعه على حياة المجتمعات؟ ما هو موقف الكنيسة منه؟ أي اثر تركه ويتركه في فكر الكنيسة ووحدتها؟

وذهب الاب لوسيان، كعادته، في استكشاف جذور هذا الصراع الطبقي منذ عهد المسيح والرسل، والى عصرنا الحاضر، مرورًا بنهاية القرون الوسطى مع حركة الاصلاح اللوثري، لينتهي به المطاف الى الصراع في اوساط الكنيسة، على الصعيد الفكري، وهو في نظره صراع انتروبولوجي، باحثا عن معناه واثره في حياة الكنيسة ووحدتها.

الصراع الطبقي قائم في العالم أجمع على قدم وساق، وكل يوم يزداد حدة بقدر ما يزداد شعور المحرومين في الدنيا بحقوقهم وقوتهم، وهذا يعني ان الصراع قائم بين أبناء الكنيسة انفسهم لكونهم أبناء مجتمعات متناحرة، ولا يفيد ان يكون ابناء الكنيسة هؤلاء منتمين الى كنيسة واحدة لالغاء الصراع فيما بينهم، وان كان هذا الانتماء أحيانًا ذا جدوى في تخفيف شدة الصراع على حساب المظلومين والمستغَلين. ان الصراع الطبقي حقيقة أكيدة تعمل فعلها في الاحداث والتاريخ، ولها أثرها الواضح على فكر الكنيسة ووحدتها على مر الزمن.

على عهد المسيح والرسل:

في الماضي، على عهد المسيح والرسل، أُعلن بوضوح عن هذا الصراع، على المستوى الفكري الذي كان ينحصر في ذلك الزمان بالدين واصول الحياة. والانجيل في غالبية صفحاته يعبر بجلاء عن هذا الصراع وعن التغيير الخلاصي الذي جاء به المسيح، فكان سببًا في نقمة رؤساء اليهود والفريسيين عليه، كما كان سببًا في محبة الشعب البسيط له؛ وفي ذلك الزمن أُزيل التناقض المسبب للصراع بالانشقاق. فبدء المسيحية كان بالانشقاق عن اليهودية وبالانسلاخ عنها رغم تصريح المسيح عن رغبته في الوحدة: "ما جئت لأنقض بل لأكمل". وقد كان سبب الانشقاق إصرار اليهود على رفض "النور الذي جاء الى العالم"، ليغير مفهوم الانسان عن ربه وعن نفسه، وبذلك يتحرر فكره وتتحرر علاقاته الروحية والاجتماعية. وفي زمن التبشير الاول، توجه الرسل في البدء الى اليهود بشكل طبيعي، الا إنهم ما لبثوا ان يئسوا من هذا "الشعب الغليظ الرقاب"، بحسب تعبير القديس اسطيفانوس شهيد المسيحية الاول على يد اليهود، فقصدوا الشعوب الوثنية وعرضوا عليهم البشرى السعيدة بتحرير الانسان وخلاصه.

في هذه المرحلة كانت وحدة الكنيسة الاساسية كاملة، بعد ان حل التناقض بالانشقاق عن اليهودية وبعد تبني المفهوم الجديد عن الحياة وعن الله وعن الانسان. فقد كان الاخوة "قلبًا واحدًا ونفسًا واحدة" (أعمال الرسل ٤:٣٢)، يسود الجميع شعور بالهم "جيل مختار وامة مقدسة". وتدلنا رسائل بولس الرسول على ان غالبية المسيحيين الاوائل كانوا من طبقة واحدة متكونة من العبيد والفقراء والكادحين والذين لا حول لهم ولا قوة ولا حسب ولا نسب في هذا العالم؛ وهكذا كان قد زال التناقض داخل الكنيسة، لا على صعيد الفكر وحسب بل على صعيد الطبقات الاجتماعية التي انتمت الى هذا الفكر.

وبديهي ان نجد بين المسيحيين الاوائل قلة من الاغنياء والمتنفذين كما يظهر ذلك من اعمال الرسل ورسائل بولس، إلا ان انتماء هؤلاء كان حصلية رؤية جديدة غلبت جميع المعوقات، وقد أدت هذه الرؤية الجديدة، او ما يدعى بالايمان حسب التعبير المسيحي، بهؤلاء الاغنياء الى التنكر نوعًا ما لطبقتهم والى الانتساب الى الطبقة الجديدة حاملة المستقبل والقيم السامية، والتي دخلت باب النضال بعد ان وعت قيمتها عن طريق التبشير المسيحي. والجدير بالذكر ان تأثير المسيحية في ذلك الزمن كان في البنى الفوقية، أي في الفكر والقيم اكثر منه في "البنى التحتية" أي الاقتصاد، ولذا فالحفاظ على الوحدة ولا سيما ابان النضال السلبي، حسب التعبير السياسي، كان أمرًا اقل مشقة من أيامنا هذه.

في نهاية القرون الوسطى

بدأ التناقض الطبقي في المجتمع الاوربي يبرز ويتبلور مع انتهاء القرون الوسطى وبداية عصر النهضة بقيادة الطبقة البرجوازية الجديدة التي شعرت انها مرشحة لقيادة ذلك المجتمع. ومن الناحية الفكرية، اتسم ذلك العصر بظهور فكر جديد سمي بالفكر "الانساني" الذي مهد للفلسفات الحديثة. وقد دعي هذا الفكر بالانساني لانه تجاوز فكر القرون الوسطى الذي كان دينيًا، وركز على العلوم والقيم الانسانية مقتبسًا من الفكر اليوناني القديم؛ وقد كان هذا الفكر الجديد حصيلة تطورت اقتصادية حدثت في اوربا منذ بدء العصر الحديث، وقادت الى سلسلة الثورات والتغييرات والتي من ابرزها الثورة الفرنسية بشعاراتها الثلاثة المعروفة: حرية- مساواة- إخاء.

أما في الكنيسة، فقد كانت حركة لوثر محاولة موازية للفكر الانساني من جهة، وللثورة الفرنسية من جهة ثانية. فعلى صعيد الفكر اللاهوتي، كانت "الحرية" أبرز مطاليب لوثر. الحرية في تفسير الكتاب المقدس وقراءاته، والحرية تجاه الكنيسة ونظمها، والحرية تجاه الشريعة حيث استعاض عنها بمبدأ الايمان للخلاص. ويظهر لنا اليوم ان كثيرًا من فكر الاصلاح اللوثري قد تجاوزه الزمن، الا اننا نفهم لماذا انساق وراء حركة لوثر ملايين من الناس الذين شعروا ان زعيم الاصلاح يمثل القيم والمثل الجديدة.

وحسم لوثر الصراع داخل الكنيسة بالانشقاق ايضًا، حيث انقسم العالم الغربي في القرن السادس عشر الى قسمين كبيرين: البروتستانت والكاثوليك، ونحن لا نقول ان هذا

الانشقاق كان حتميًا، الا ان التناقض الفكري في الكنيسة كان بدرجة لا تتحمل بعد التعايش ضمن نظام واحد هو الكنيسة كما كانت في ذلك العصر.

اما الانشقاقات الاخرى داخل المسيحية بين القرن الرابع والسادس والتي اصبحت مجرد انشقاقات أثرية متحجرة لا معنى لها، فلقد كان لها جميعها اسس وجذور طبقية بواجهة قومية طغت على الصراع الطبقي، مثل الانشقاق النسطوري والمونوفيزيتي (جماعة الطبيعة الواحدة)، وهكذا يمكننا ان نقول عن الانشقاق الشرقي الارثوذكسي الكبير الذي تم عام (١٠٥٤).

في عصرنا

من الوضح اننا نمر اليوم بمرحلة شبيهة بمرحلة الانشقاق اللوثري. فقد بلغ التناقض أوجه في كل مكان وانقسم العالم الى معسكرين كبيرين متخاصمين. واذا كان المعسكران قد رأيا ان من مصلحتهما التوقيع على اتفاقيات تمنع التصادم بينهما، فان الحرب الباردة مع ذلك قائمة بينهما لا تهدأ. أما الثورات التي يشهدها العالم الثالث، فليست سوى تعبير عن ارادة الشعوب في التحرر والاستقلال والخلاص من الاستغلال على الصعيد العالمي، وازاحة الطبقات الحاكمة المستغلة على الصعيد الوطني وبناء المجتمع الاشتراكي الجديد.

وبديهي ان الدول الرأسمالية المتقدمة لا تُستثنى من هذا الصراع. فهي وان تمكنت من استيعاب المعارضة وشدها الى عجلة النظام بواسطة الديمقراطية الغربية التي تعتمد على الانتخابات والتي رضخت لها غالبية الاحزاب التقدمية، الا ان الصراع قائم مع ذلك في شتى المجالات. فمن يتذكر حركة ايار الطلابية في فرنسا عام ١٩٦٨ والحركات المماثلة في كثير من انحاء اوربا واليابان، يفهم ما يجري فعلا على تلك الساحات. اما في المجالات العمالية والتي تعتبر خير مكان للنضال الطبقي، فقد اصبحت قوة لا تقهر وازداد الوعي الطبقي لديها بشكل ملحوظ، كما ازداد العمال تماسكًا وتقربًا الى بعضهم رغم الاختلافات المبدئية التي كانت تفرقهم في السابق. اما في اميركا اللاتينية والعالم الثالث، فان الصراع الطبقي هو في صلب الانتفاضات والثورات وحروب التحرير هناك، كما انه السبب الاولي الباشر للانقلابات المضادة التي نسمع بها من وقت لآخر في تلك الاقطار.

في اوساط الكنيسة:

وانتقل الصراع هذه المرة ايضا الى اوساط الكنيسة، ليس لكون المتصارعين من بين أبنائها وحسب، بل بسبب تأثير هذا الصراع ايضًا على الفكر المسيحي والكنسي نفسه. ان الكنيسة تضم في الوقت الحاضر العامل والفلاح الى جانب الرأسمالي والاقطاعي أي انها تضم المستغَلين والمستغِلين. ويظهر ان جهود الاكليروس والمنظّرين المسيحيين لاقرار الوفاق والتآلف والتعايش الطبقي والتآخي قد باءت بالفشل، حتى اضطر كثير من رجال الفكر

المسيحيين الى الاعتراف بواقعية الصراع الطبقي في العالم، وبالتالي داخل الكنيسة التي هي جزء من العالم. وقد اصبح المسيحيون اليوم مبعثرين في تنظيمات واحزاب مختلفة، كل فئة منهم تسعى الى تحقيق مصالحها الطبقية دون أي اعتبار آخر. اما المنظمات المسيحية، فهي الاخرى تبنت غالبيتها طريق الصراع الطبقي والتضامن الكفاحي كسبيل مشروع لنيل حقوقها. كما ان بعضها تبنى بكل وضوح التحليل الماركسي للمجتمع ولحركة التاريخ، وفي قلب هذا التحليل الصراع الطبقي كما هو معروف. وقد استقلت هذه المنظمات في غالبيتها عن السلطة الكنسية ورفضت اشراف هذه السلطة؛ وحدث في حالات كثيرة ان المشرفين الكنسيين هم الذين قطعوا صلتهم بهذه المنظمات بعد ان يئسوا من توجيهها الوجهة التي كانوا يريدونها. إلا ان بعض رجال الدين وحتى من المسؤولين أبدوا تفهما لمسيرة المنظمات الاستقلالية على اساس احترام اختيارات ابناء الكنيسة في شؤونهم الخاصة. كما ان بعض رجال الدين أيدوا الاتجاه التقدمي لهذه المنظمات، عن قناعة بهذا الاتجاه وعن مشاركة في الايديولوجية.

الصراع داخل الكنيسة على الصعيد الفكري:

كان انعقاد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني نقطة تحول جذرية في حياة ابناء الكنيسة ومفكريها، لا سيما اولئك الذين لا يتمتعون داخلها بوظائف رسمية مرموقة. فقد كان من نتائج المجمع غير المباشرة انه اطلق الطاقات المسيحية الحية من عقالها، ورد الجرأة والشجاعة الى نفوس الجماعة المسيحية، فنطقت بعدما كان الصمت قد خيم عليها لقرون عديدة، اذ انه من المعروف ان احدًا لم يكن يجرأ ان يقول شيئًا قبل ذلك الوقت الا ما ترضى عنه السلطات الكنسية الرسمية وتباركه ولا سيما السلطة البابوية.

وهذا النطق قاد الجماعة المسيحية الى الرفض في امور كثيرة والى احتجاج ثم الى سعي وتفتيش عن فكر جديد ومفاهيم ونظم جديدة بحسب العصر الذي نعيش فيه. فكل يوم تنقل الينا الاخبار المسيحية تصريحًا جريئًا لهذا وذاك من المفكرين المسيحيين والعاملين في حقل الرسالة المسيحية، سواء كانوا من الاكليروس او غيرهم من ابناء الجماعة المسيحية. وكل يوم نسمع عن تجربة جديدة في الحياة المسيحية؛ كما نسمع ايضًا خبرًا عن استنكار لهذا او ذاك من المسؤولين الكنسيين لما يصدر عن الاكليروس والجماعة المسيحية التقدميين من افكار واعمال. واصبح من الشائع جدا ان ينتظم هنا وهناك، حول احد الكهنة التقدميين والمهتمين بتحرير الانسان، بعض من الجماعة المسيحية ليفكروا معا ويعملوا سوية على اكتشاف القيم والمفاهيم المحررة لهم ولاخوتهم البشر، على الصعيد الروحي والاجتماعي والسياسي. وقد اطلق في الغرب على هذه الجماعات اسم "جماعة القاعدة" للتدليل على انها لم تنبثق عن السلطة الكنسية الرسمية؛ وغالبا ما تصطدم هذه الجماعات مع المسؤولين الكنسيين لانها تملك رؤية للحياة مغايرة لتلك التي تسيّر السلوك المسيحي للجماعات التقليدية. وفي اعتقادي ان السبب الرئيسي لترك عدد كبير من الكهنة وظائفهم

الكهنوتية يكمن في "انقلابية النظرة" الى الامور عند هؤلاء الكهنة وفي يأسهم من امكانية العيش بحسب نظرتهم الجديدة في جو تسيطر عليه العناصر التقليدية وتنعدم فيه المقدرة على التأثير في الاحداث. فالخلاف بين النظرة التقليدية والنظرة الجديدة ليس سطحيًا ولا ثانويًا كي يسمح بالتعددية في الفكر والحياة او بما يمكن ان يسمى "التعايش السلمي"، اذ ان هذا التعايش معناه احتواء للجماعات الجديدة في النظام والاطر القديمة، أو كما قال المسيح يومًا هو: "وضع خرقة جديدة على ثوب قديم". أضف ان الجماعات التقليدية ليس من طبعها القبول بالتعددية والسماح بالتجدد ولا سيما عندما تكون ممسكة بزمام الامور ومهيمنة على مراكز النفوذ المباشر.

ان هذه الحالة تسود الكنيسة جمعاء بكافة طوائفها ومذاهبها، بما فيها كنائسنا الشرقية ومنها كنائس العالم العربي وكنيسة العراق.

اوجه الخلاف:

أما اوجه الخلاف بين الجماعات التقليدية والجماعات المجدِّدة، فكثيرة، وهي تشمل مجمل الفكر اللاهوتي وتفسير الكتاب المقدس والتنظيم الكنسي والطقوس والحياة المسيحية. الا ان مركز الخلاف الحقيقي في نظري هو الانسان. انه خلاف انتروبولوجي[1] ، قبل كل شيء، حتى عندما يأخذ صبغة خلاف عقائدي أو كنسي او ما شابه ذلك؛ وبما ان الخلاف يدور حول الانسان سرًا وعلنًا، فلا يمكن ان يكون من نوع "الجدالات البيزنطية" لكنه خلاف جدي لا أحد يعرف كيف سينتهي. فالانسان وحده يمكنه ان يستقطب اهتمام الناس وحماسهم ويعي طاقات البشر للنضال من اجل الاحسن. ومما يحسن ذكره ان يقظة الجماعات المسيحية في السنوات الاخيرة، سلبًا وايجابًا، واهتمامها بشكل أو بآخر بامور الكنيسة، ليس من باب الصدفة او من قبيل ازدياد الايمان، بل لأن مسيرة التاريخ طرحت مصلحة الانسان بشكل جدي في زماننا هذا، ليس على الصعيد الزمني فحسب بل على صعيد الروح ايضًا، أو بعبارة واحدة على صعيد الحياة.

(ملف تشرين الثاني /١٩٧٥/جـ١)

تتمة الملف/ كانون الاول ١٩٧٥ /جـ٢

معنى الخلاف الانتروبولوجي داخل الكنيسة:

ان الانسان ولا شك هو محور الاديان في نهاية الامر. فالعقائد الدينية عن الله تمسي نظرية وبدون معنى اذا لم يكن الانسان غاية كشفها، واذا لم تساعد هذ الانسان على تحرير عقله من ظلام الجهل بربه وبنفسه معا. ان الفكرة التي يكونها الانسان عن الله وعن علاقته بالانسان تؤثر تأثيرا كبيرا على معرفة الانسان لنفسه وعلى حياته برمتها. ففكرة الله السيد المشرع، مثلا، تخلق فكرة الانسان العبد الملتزم بالشريعة كاساس للعلاقة مع الله؛ وفكرة الله الاب تخلق فكرة الانسان الابن الحر المحب. اما فكرة الله المهيمن على كل شيء بشكل مباشر، فتخلق الانسان الاتكالي الذي لا يعتقد ان بامكانه ان يعمل شيئا الا ما قُدِّر له وكأنه مجرد آلة بيد الله. بينما تخلق فكرة الله المتسامي على الطبيعة الانسان العلمي الذي يقول باستقلال العلوم، ويعتبر قوانين الطبيعة هي السبب الوحيد لكل ما يجري في هذه الطبيعة ومن ضمنها الانسان والمجتمع.

بهذا المعنى، إذن، تكون الخلافات حول الله وحول المسيح خلافات حول الانسان بالفعل ذاته، كما تؤدي الخلافات حول الانسان والتعمق في معرفة ماهيته الى التعمق في فهم المبادئ الدينية والى الاختلاف في الاجتهاد.

اسس الخلاف الانتروبولوجي في الكنيسة:

ان اسس الخلاف حول الانسان في الكنيسة تكمن في "النظرة" اليه. فالتقليديون ينظرون الى الانسان نظرة بدائية قدسية وميتولوجية مع شيء من الفلسفة الارسطوطاليسية التي صار لها مكان مرموق في الكنيسة عن طريق القديس توما الاكويني احد لاهوتيي الكنيسة الكبار. فالانسان عند التقليديين كائن لا معنى له ولا غاية الا بربطه بمبدأه الاول: الله. اما حياته الارضية، فليست سوى جسر يعبر من خلاله الى العالم الاخر: عالم السعادة والنعيم اذا كان اهلا به، أي اذا كان قد ارضى ربه بالعبادة والاعمال الصالحة؛ او عالم الشقاء في جهنم اذا كان عاصيا اوامر ربه، مهملا واجباته الدينية والاجتماعية. فجوهر حياة المسيحي في قيمتها وغايتها "خارج" هذا العالم الذي لا يملك الا قيمة ثانوية جدًا مرتبطة بالقيمة الاولى. ان اهم شيء للمسيحي ان يكسب خلاصه الابدي ويحققه، وما سوى ذلك عبث أو مجرد وسيلة لنيل هذا الخلاص. واذا استثنينا حالة بعض المتصوفين، فان روحانية المحبة نفسها التي تعتبر ركيزة المسيحية قد تحولت الى مجرد وسيلة لارضاء الله والتقرب منه للوصول الى الخلاص. والخلاص في نظر التقليديين ليس متاحًا لكل انسان بشكل طبيعي، لأن الانسان عندهم خليقة ساقطة بسبب معصيته الاولى التي عمت الجنس البشري؛ وقد كان محكومًا عليه بالهلاك لولا تداركته رحمة الله وافتدته بيسوع المسيح.

فخلاص الانسان، اذن، اضافة الى كونه خارج هذا العالم، مرتبط بعمل المسيح الفدائي عن طريق الوسائل التي جُعلت لتحقيق هذا الخلاص، وأهمها، كما هو معروف، اسرار الكنيسة السبعة ووصايا الله والكنيسة.

وبديهي ان يؤدي مثل هذا الفهم للانسان المسيحي وللمسيحية الى اتجاهات غريبة عن فكر المسيح تمامًا، واخطرها كان تجريد الانجيل من محتواه التاريخي النضالي مع الانسان ومن اجل الانسان وكرامته، ليصبح مجرد "طريقة" من الطرق التي تؤمّن وصول الانسان الى سعادة العالم الآخر. وهذا يعني بكل بساطة تغريب الانجيل عن الانسان وتغريب الانسان عن الانجيل؛ ويلي هذا التغريب في الخطورة تحكيم الشريعة في الحياة المسيحية وسيطرة الافعال الميكانيكية التي لا روح فيها، مع نزعة التجارة مع الله: اعطيك تعطيني.

أما فيما يخص السلوك المسيحي، فان النظرة القدسية الى الحياة والطبيعة وظواهرها هي المعتمدة في تحديد هذا السلوك، الى جانب الفلسفة الارسطوطاليسية التي هي تكريس بشكل ما للترعة القدسية؛ ونعني بالنظرة القدسية النظرة التي ترى في الحياة والطبيعة وظواهرها وكأنها انبثاق من فكر الله وارادته بشكل مستمر ومباشر. ان هذه النظرة تميل الى تجاهل ارتباط الطبيعة والانسان بقوانين تتحكم بكل شيء فيهما لتجعل من الله وعلمه وقدرته قانون كل شيء، ليس على صعيد العلة الاولى وحسب بل على صعيد العلل الثانوية أيضًا، أي المخلوقات وقوانينها او الطبيعة وقوانينها. ان النظرة القدسية تميل أيضًا الى اعتبار كل شيء طبيعة ثابتة غير قابلة للتبديل ولا للتطور، وبذا تقترب كثيرًا من النظرة الارسطوطليسية التي هي في جوهرها فلسفة الطبيعة بمعنى الجوهر والماهية. فالفلسفة الارسطوطاليسية التي تبناها توما الاكويني كأساس لعلم اللاهوت، انما تعرّف كل شيء بماهيته وجوهره أو بطبيعته، وما سوى ذلك يسمى "الأعراض"، والانسان يخضع هو الآخر لهذا التعريف، فيقال مثلاً ان الانسان كائن مركب من نفس وجسد او انه حيوان ناطق أو حيوان اجتماعي الخ... ووفق هذا التعريف الارسطوطاليسي ووفق النظرة القدسية أيضًا، يتحدد سلوك الانسان، اذ عليه ان يسلك بحسب ما تقتضيه طبيعته الخاصة؛ واذ يكون أمينًا لهذه الطبيعة يكون أمينًا لارادة الله الذي خلق طبيعته. وليس التعريف الشامل للانسان هو الذي يخضع للنظرة القدسية والارسطوطاليسية حسب، لكن جميع ظواهر المجتمع وتفاصيل حياة الانسان، ولا سيما تلك التي لها علاقة وطيدة بالحياة كالحب والجنس والانجاب وغير ذلك. فالتقليديون يربطون كل هذه الامور بغاياتها حسب طبيعة الانسان ويعطونها صفة قدسية. ومما يجب ذكره ان هذه الطبيعة إنما هي غالبًا الطبيعة البدائية "الخام" قبل ان يعمل فيها الفكر الانساني صقلاً وترتيبًا وتحسينًا، وبمعزل عن هذا العمل الفكري.

أما نظرة المجددين الانتروبولوجية، فهي نظرة علمانية في أساسها؛ وكلمتا العلمية والعلمانية هنا مترادفتان تقريبًا. والنظرة العلمية والعلمانية لا تعني الالحاد دومًا كما هو شائع، لأن الالحاد في أساسه فلسفة وليس علمًا. إن النظرة العلمية تعني الاعتراف باستقلال جميع العلوم وخضوعها لقوانينها الخاصة بما في ذلك علم الانسان والأخلاق. وهذا يعني

أيضًا رفض أي إشراف وهيمنة للفكر الفلسفي او الديني على هذه العلوم. هذه النظرة العلمية تسمى ايضًا علمانية لأنها تعني استقلال "العالم" وعلمنته، عوضًا عن إلحاقه بالفكر اللاهوتي الذي يصبح فكرًا غيبيًا في المجال العلمي خارج اختصاصه.

وكنتيجة لهذه النظرة العلمية العلمانية، ركز المجددون على شخصية يسوع التاريخية كما تبدو في الاناجيل حسب تفسيرها العلمي العميق، فرأوا فيه ثائرًا ومحررًا انسانيًا شاملاً، وهكذا وصلوا الى المعنى التاريخي الانساني: الروحي والاجتماعي والسياسي للخلاص، عوضًا عن المعنى البدائي الماورائي.

ان هذه النظرة الى شخصية يسوع غيرت تمامًا معنى العلاقة بالله ومعنى المسيحية التقليدية. كما ألقت ضوءًا جديدًا على مفهوم الكنيسة والوحدة المسيحية وغير ذلك من المسائل، مثل الصلاة والاسرار والعبادات. ومن المسائل التي اثارت جدلاً في الكنيسة، في السنوات الاخيرة، مسألة الحب والجنس وعلاقتهما بالاخلاق المسيحية، ومسألة تحديد النسل التي كانت في الواقع محكًا للسلطة البابوية ومدى شمولية هذه السلطة. اما قضية الديمقراطية في الكنيسة، فقد طرحت على نطاق واسع جدًا ولقيت تأييدًا على مختلف المستويات. وفي المجالات السياسية، كان ولا زال الخلاف يدور حول فصل الكنيسة فكرًا وتنظيمًا عن الطبقات الحاكمة، وتبني قضية الفقراء بشكل علمي جدي، واعلان الثورة على الظلم وكل ما يستعبد الانسان. وقد دعي المجددون الى تفهم اكبر للحركات الثورية ولمطاليب العالم الثالث وسائر الكادحين ومن ضمنها شرعية استعمال العنف الثوري كوسية لتحقيق هذه المطاليب.

مصير وحدة الكنيسة:

بقي ان نسأل الآن عن مصير وحدة الكنيسة الفكرية والتنظيمية وهي تجتاز هذه الايام العصيبة. هل سيحسم الصراع بانشقاق جديد كما حدث في الماضي، أم ستعرف الكنيسة ان تتلافى هذا الانشقاق بحرص وتدابير فطنة ومعقولة؟ ان غالبية الدلائل تشير الى ان الانشقاق الرسمي المعلن لن يقع هذه المرة لأسباب أهمها:

١-ضعف الاهتمام الديني لدى الشعوب المسيحية والشعور السائد بعدم جدوى الدين في إسعاد الانسان عند الكثيرين.

٢-ظهور مفهوم جديد للكنيسة اقل مركزية وسيطرة وأكثر قبولاً للتعددية من السابق، في الفكر والتنظيم، وبديهي ان تستمر العناصر التقليدية في ضغطها على المجددين، في محاولة لتطويقهم وايقافهم عند حدهم بشتى الوسائل، ومن ضمنها استخدام السلطة التي لا زالت بيدهم. إلا أن المجددين لم يعودوا يشعرون بعد بضرورة تقديس السلطة والالتزام التقليدي بكل رغباتها ويرفضون الخضوع لرؤية ليس لها من المسيحية سوى الادعاء، لأنها لا تتعدى ان تكون أكثر من رؤية أفراد

أو مدرسة فكرية أو جيل انتهى زمانه. وهكذا حلّت المبادرات الشخصية والاجتهادات محل الارتباط الأعمى بالسلطات الكنسية الذي كان من نتائجه إلغاء دور الجماعة المسيحية وشل مواهبها.

ويعتقد المجددون ان وحدة الكنيسة ليست في صيغة دوغمائية نهائية ثابتة بل هي تخضع لقانون البناء المستمر والتطور. أي انها وحده ديناميكية ديالكتيكية. فمن خلال الصراع والنضال، يحسم التناقض وتبنى الوحدة عبر التاريخ. إن المجددين، بتجديدهم ليسوا في الواقع أكثر ابتعادًا عن الوحدة من التقليديين المصرين على الوقوف والبقاء في تقليدهم. إلا أنهم اكثر حاجة الى تثبيت مواقع أقدامهم لازاحة الفكر التقليدي وإبداله بالفكر الجديد باني الوحدة الجديدة.

٣-محدودية الوعي الطبقي والنظرة الانقلابية لدى الجماهير المسيحية من الناحية العددية، سواء في العالم الثالث ام في الدول المتقدمة، حيث يصعب حدوث انشقاق معلن ان لم تدعمه الجموع الغفيرة المستاءة واليائسة.

٤-شروع العناصر الاصلاحية المعتدلة داخل الكنيسة الرسمية وبين الجماعة المسيحية باحتلال مركز الصدارة في مسيرة الكنيسة، مما يخفف حدة التوتر ويمهد السبيل الى نوع من التعايش. وفي رأيي ان المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني نفسه كان محاولة للاصلاح بحسب رؤية العناصر المسماه بالمعتدلة. ولذا فقد دعي المجددون الى تجاوز المجمع فكرًا وعملاً، بينما سعى التقليديون الى عرقلته بكل الوسائل والى تجاهله تمامًا كما حدث في كنيسة العراق الرسمية وفي كنائس اخرى.

الامل في المستقبل

ان من يؤمن بمسيرة التاريخ ينظر الى المستقبل نظرة تفاؤل وأمل. فكنيسة الغد لن تكون مثل كنيسة اليوم في المفهوم والفكر والتنظيم لأنها ستحمل ملامح تكون حصيلة صراع اليوم في البنى التحتية والفوقية، ولا تستثنى من هذا الصراع لكونها كنيسة هذا العالم الذي يتبدل ويسير باستمرار نحو الاحسن. الا ان الغد يعتمد بكل تأكيد على وعي انسان اليوم ونضاله لبناء عالم افضل وكنيسة افضل.

(ملف كانون الاول ١٩٧٥/جـ٢)

(١) انتربولوجي كلمة يونانية ومعناها هنا كل ما له صلة بالانسان.

- اخر تطورات التعاون المسكوني
كانون الثاني/ ص٣٢-٣٨ الاب ميخائيل جميل[١]

+ الثنائية وابعادها في الفكر/١
شباط/ ص٨٠-٨٧ الاب عبد السلام حلوة

+ الثنائية وابعادها في الفكر/٢
آذار/ ص١٣١-١٣٦ الاب عبد السلام حلوة

_ (لم يتضمن عدد نيسان ملفاً)

- المراة في السينما
ايار/ ص٢٢١-٢٢٦ إنعام كجه جي[٢]

- اخوات يسوع الصغيرات، من هن؟
حزيران/ص٢٦٨-٢٧٤ اخوات يسوع الصغيرات

□ البعد الجماعي للاوخارستيا
ايلول/ ص٣١٩ - ٣٢٨ الاب ميشيل الكرملي (+)[٣]

● عدد خاص: قضايا الجيل الجديد[*]
ت١ — ت٢/ ص٣٣٩ - ٤٣٥

+ دور الاسرة في التثقيف المسيحي
كانون الاول/ ص٤٨٠ - ٤٨٧ الاخت ماركريت صنا[٤]

(*) البتنا في "المختار من الاعداد الخاصة" المقالات التالية من هذا العدد الخاص: المسيحية وتطلعات الشباب (أ.لوسيان جميل)، آفاق الجيلية في الالتزام السياسي (أ. عبد السلام حلوة)، المرأة في الفكر المسيحي: واقع وطموح(أ. جان – ماري اوبيرت).

(١) للاب (المطران) ميخائيل الجميل ١٨ مساهمة (من بينها ملف)، وبضمنها عددان من "السلسلة" و١١ إجابة. نشر له مقال في "المختار".

(٢) للسيدة إنعام كجه جي مساهمتان احداهما هذا الملف. كانت لفترة عضواً في هيئة التحرير الاستشارية في بغداد.

(٣) كان للاب ميشيل دي ميتار الكرملي البلجيكي (+٢٠٠٤) ٥ مساهمات (من بينها الملف الذي نشر في "كتّاب رحلوا")، وبضمنها ٤ "من وحي الانجيل".

(٤) للاخت ماركريت صنا مساهمة واحدة، وهي الملف المنشور في هذا الكتاب.

الثنائية وابعادها في الفكر

كان الاب عبد السلام حلوة، وعلى مدى عددين متتاليين، قد انكبّ على موضوع "الثنائية" في توجهها الانفصالي ذي الوجهين بشأن الانسان والحياة، حيث يُصار الى فصل بين الروحي والزمني، وحيث يتم احيانا شبه انقسام وقطيعة ويسفر عن صراع هو اشبه بصراع على البقاء.

نحن بصدد رؤية معينة لها مردوداتها على مفهوم الحياة المسيحية وعلى العمل الكنسي، وقد يفضي احيانًا الى اغتراب يعاني منه المسيحي في سعيه الى عيش الانجيل في خضم التحولات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية...

في القسم الاول من المقال، تمّ تحليل واقع الفكر الثنائي في جذوره البعيدة، على الصعيدين الفلسفي واللاهوتي، بين الزمني والابدي، بين الطبيعي والفائق الطبيعية، بين الجسدي والروحي، بين العالم والكنيسة. وفي القسم الثاني، كانت محاولة لرسم بعض الخطوط عن نموذج بديل ينطلق من الحقيقة الانجيلية بصفتها نقدًا للواقع الانساني وخلقا للحياة الانسانية الحقة.

نعود في هذه الدراسة الى معضلة اساسية أشرنا اليها بايجاز في مقال سابق(١) وهي الفصل بين كل ما هو روحي وكل ما هو زمني. هذا الفصل الذي كان في الاساس من نظرة معينة الى الحياة المسيحية والممرسات الكنسية، خلق نموذجًا فكريًا يواجه اليوم نقدًا شديدًا، وتعارضه الاكتشافات المعاصرة والخبرات الحياتية التي تعيشها جماعات من المؤمنين اكثر فاكثر. في هذا الملف سنحاول تحليل هذا النموذج والكشف عن اصل تكوينه في المسيحية، وفي مقال قادم سنقوم بمحاولة متواضعة لاعطاء بعض الخطوط العريضة، تصلح، ولو بصورة مؤقتة، لايجاد نموذج بديل لما يجابَه بالانتقاد اليوم.

لقد تعرضت النظريات اللاهوتية التقليدية الى نقد جذري من قبل عدد من المفكرين المعاصرين. فماركس يقيّم المسيحية (وهي دين الغالبية في الغرب) على انها "افيون الشعوب"، ووصفها نيتشه بانها "افلاطونية مثالية للشعب"، وجعل منها فرويد "نوعًا من الهوس المرضي للانسانية"! لقد دفع هذا النقد اللاهوتيين الى التساؤل عن مدى قابلية وصلاحية النظريات التقليدية على التعبير عن واقع الايمان وعن الحقائق التي تعتبر جوهرية، في الخبرة الانجيلية. فاضطر قسم منها مثل كارل بارث وبونهوفر(٢) الى التمييز بين الايمان والدين من جهة، وبين الانجيل والرؤيا الميتافيزيقية للعالم من جهة اخرى. و لم تكن ردة فعل الكنيسة اقل اهمية تجاه المعضلات المعاصرة؛ فقد قام قسم من اللاهوتيين الكبار -مثل كونكار وشنو-(٣) بتقديم وجوه جديدة للمسيحية في محاولة اصلاحية لاهوت التقليدي. ويعتبر المجمع الفاتيكاني الثاني تعبيرًا واضحًا عن هذا الخط الاصلاحي في الكنيسة.

ولكن هذه المحاولات لا زالت تعتبر عاجزة عن التعبير عن ايمان العالم الحديث وعن آماله وطموحاته، ولذا لا زال الباب مفتوحًا امام الابحاث الهادفة الى اعادة الديناميـة الى الانجيل ليلعب دوره الطبيعي في معالجة ازمات الواقع من اجل تغييره ودفعه نحو الامام.

الفصل بين الروحي والزمني ثنائية، ما اصلها؟

- على الصعيد الفلسفي:

ان المسألة الاساسية في الفلسفة، كما يعتقد البعض، هي حل الاشكال الناتج عن تصور المثالية والمادية في الواقع. فالفلسفة تنقسم، حسب تصورهم، الى قسمين اساسيين: المثالية، وهي أسبقية وجود الروح او الفكر والشعور على المادة؛ وعكسها، المادية، وهي الانطلاق من المادة المحسوسة لتحليل الوجود؛ وكلا القسمين يشكلان نموذجين متكاملين من المفاهيم. فاعتناق احدهما يقود بالضرورة الى رفض الآخر. المثاليون كالماديين، على حد سواء، يدعون بان التمييز بين هذين المبدأين مسألة حتمية لا يمكن التخلي عنها، والا لما كان ثمة فلسفة. فإما يكون الانسان مثاليًا ينطلق من مفهومه للعالم من الروح والشعور والفكر، ومن ثم يتصور المادة كتابع مدين في تطوره للقابلية التطورية التي يتصف بها الروح نوعيًا، وإما يكون ماديًا ينطلق من المادة -والمادة تعني في نظره اذ ذاك الطبيعة- ومن مدى قابليتها للتعبير والتطور؛ وينتج عن هذه النظرة ان الفكر والروح ليسا الا انعكاسًا لهذه المادة(٤).

عندما طرحت قضية الانسان وعلاقته بالعالم في هذا الاطار الفلسفي، نتج ان المثالية اعتبرته **نفسًا وجسدًا**، وكانت المشكلة التي جابهت الفلاسفة، امثال افلاطون وافلوطين، هي كيفية اتحاد هذه النفس بالجسد. فالنظرية الافلاطونية التي تبحث في اسبقية الوجود الروحي وسقوط النفوس في سجن الاجساد وبالتالي ضرورة تحررها، وجدت معالجة اكثر تعمقًا لدى افلوطين اذ تصور النفس قد تعرضت للعقاب نتيجة زهوها بذاتها، مماجعلها انانية وادّى بها الى الارتباط بمادة غير قابلة للانقسام. وعلى هذ الاسس أيضًا فهمت علاقة الانسان بالعالم، **فالانسان- الجسد** وعلاقته بعالم المادة الملموس، والانسان- النفس وعلاقته بعالم المثال والروح(٥).

ان هذه المعطيات الفلسفية لعبت دورها في عملية التعبير الفكري للمسيحية منذ اول عصورها، وخليق بنا ان نشير منذ الآن بان هذه المعطيات لا علاقة لها بالانجيل، إذ انها معطيات ترتبط بعالم حضاري وديني معين. فعندما حاول مفكرو المسيحية الاوائل التعبير عن حقيقة المسيح وكرازته الانجيلية وعن علاقة الانسان بالمسيح وبالله والروح القدس، وعن مفهوم الله والعالم، لم يجدوا أفضل من هذه المعطيات للتعبير عن حقائق الايمان، فحدثت عملية استعارة كان لا بد منها. فليس هناك فلسفة مسيحية بحصر المعنى. فالمسيح لم يكن فيلسوفًا ولا صاحب نظرية فلسفية محددة، انما انسانًا عاش تجربة حياته الى اقصى الحدود(٦)، فهو، من ثم، بذاته، بشرى سعيدة الى البشرية جمعاء.

ان حاجة الانسان الى تحويل خبراته الحياتية وتفاعله مع الواقع الى "نظرية" هو الذي قاده الى استنباط الاسس ووضع المقاييس للتعبير عن هذه الخبرات بلغة منطقية، ولكن علينا ان نفهم بان اية نظرية، مهما كانت شاملة، عاجزة عن ان تعبر بصورة كاملة عن خبرة حياتية واقعية ما.

وهكذا عندما جرت عملية "تنصير" المعطيات الافلاطونية في الشرق او المعطيات الارسطوطاليسية في الغرب، من اجل الحصول على نظريات فلسفية وصفت "بمسيحية"، لم تخل هذه العلمليات من اشكالات، لان الخبرة الانجيلية ليسوع المسيح تتجاوز هذه النظريات التي تبقى نسبية وقابلة للنقد والتغيير باستمرار.

- **مفهوم العلاقة بين الانسان والعالم والله في "النموذج المثالي":**

بالنسبة "للمثالية"، فان الله كائن بعيد جدًا، يسكن في الاماكن المقدسة، يفرض ذاته على الانسان من خلال قوته غير المحدودة، وبالقدر الذي وضعه في حياة البشر، إذ بيده مفاتيح الكون ونظامه؛ وكلما ضعف الانسان وبرزت قوة هذا الاله الذي يجب الانصياع اليه، واذا ما أراد الانسان ان يثبت حريته عليه ان يتمرد ضد الاله(٧).

من هذه الرؤيا نستنتج بان حاجة الانسان الى اله تنطلق من ضعفه وبؤسه وتجاربه الفاشلة ازاء رغبته في الحصول على السعادة والخلود ومجابهة قوى الموت والطبيعة؛ لذا كانت الآلام، من ثم، هي الطريق الاول نحو كذا اله. وهكذا نلاحظ انه كلما تضاءلت النواحي الانسانية في الوجود البشري، ازدادت الحاجة الى اله يملأ بقدراته الفائقة هذا العجز. ولقد بحث ذلك فويرباخ(٨) ، بتفصيل، في نظرياته عن الله والانسان، واستند عليه ماركس عندما بحث ظاهرة الدين في المجتمعات.

مثل هذا المفهوم منتشر جدًا، وبنسب مختلفة، حتى عند الكثير من المسيحيين، وقد يدفعهم هذا المفهوم الى احتقار انفسهم وإذلال اجسادهم باسم التواضع والعبادة والإماتة او الى حذف أنفسهم من الوجود باسم التضحية. وقد جرّت هذه النظرة الخاطئة الى اعتبار المحبة الانجيلية وكأنها كراهية للانسان (إذ لا يكون تحمله وحبه إلا عن طريق الله!).

ان احتقار الواقع الانساني وعدم الاعتراف بالحقائق والفعاليات العالمية (نسبة الى العالم) -أي نبذ الفعالية والتزام الواقع- نتيجة للإشكال الذي تضعنا فيه المعضلة التي نحن بصددها، ألا وهي الفصل الاساسي بين ما هو **زمني** (وقتي) وبين **الابدي** (الخالد)، او بين **الطبيعي والفائق الطبيعة**، او بين **الجسدي** و **الروحي**، وفي الاجتهاد اللاهوتي بين حقيقة **التجسد والفداء**. بكلمة اخرى ان البناء الفكري للمسيحية يرتكز، في هذا النموذج الى حد بعيد، على هذه الثنائية المفتعلة نظريًا والمستعارة من معطيات الخبرة الايمانية سابقة للانجيل. ان هذه الثنائية تفسد الحياة الانسانية الواقعية وتعمل على استلاب البشر عالمهم الواقعي!

- **الزمني والابدي**

في منطق هذا الفصل والتمييز بين ما هو زمني وما هو ابدي، يجري التركيز على الابدية على انها هي الحياة الحقيقية، وان الحياة التي يعيشها الانسان على هذه الارض، في الزمان والمكان، ما هي الا فترة وقتية يقضيها في "وادي الدموع"، فهو في حالة مرور

(ترانزيت) على الارض! لذا كان ما يقوم به الانسان في الزمان لا قيمة له بذاته ما لم يكن ذا علاقة بالحياة الحقيقية (الابدية) الموجودة خارج العالم وخارج التاريخ البشري. ان هذا الفصل يعبر ضمنيًا عن عدم الاعتراف بالانسانية وبمستقبلها، ويقود الانسان الى موقف الاختيار الحتمي بين حياته الواقعية وبين حياته الابدية.

كان كل ما يقود الانسان الانجيلي الى مثل هذه المواقف الحتمية يجب استئصاله من الفكر المسيحي لانه خيانة للانجيل وللانسان معًا، وهو من العوامل التي تستعبد الانسان وتبعده عن الحرية التي يدعو اليها الانجيل.

- **الطبيعي والفائق الطبيعة**

ازدواجية لاوتية اخرى.

ان البعد الفائق الطبيعة في الانسان لم يفهم دومًا على انه **عطاء الروح بواسطة المسيح**، عطاء يسمح لنا ان نعيش انسانيتنا ونطورها وننمي قيمها الاصيلة، عطاء يتحول في حياتنا الى عطاء متبادل بين الانسان واخيه الانسان من اجل مستقبل البشرية في المسيح. ولكن هذا "الفائق الطبيعة" فُهم على انه النظام الذي يجب ان يترك جانبًا طبيعتنا الفاسدة ، هذا المفهوم المنتشر جدًا والذي رفضه حتى الفكر التقليدي المتمثل في القديس توما الاكويني. فللاّهوتي الدومنيكي كلمات مشهورة بهذا الخصوص حيث قال: "ان النعمة لا ترفض الطبيعة، بل تسير بها نحو الكمال"

"Gratia non tollit naturam, sed perficit eam". فالفائق الطبيعة في نظر اولئك، هو ذاك "العنصر المقدس" الذي سيغطي الوجود الانساني بغطاء القداسة ويخفي فساده الى حين الاندماج النهائي بالمطلق، أي الانعتاق من فساد الانسانية والهروب الى خارج العالم. هذا ما جعل الكثيرين يتكلمون عن "الطبيعة الانسانية الفاسدة" ويفقدون الثقة بها وينتظرون "الخلاص". فصيغت النظريات في عمل المسيح الخلاصي (الفداء)، ونسي بان هذا المسيح نفسه قد تجسد (التحسد) في هذه الطبيعة نفسها التي يعتبرونها فاسدة ومن دون مستقبل، وعاش ظروفها وآلامها وسعادتها.. وهكذا تُترك جانبًا **انسانية المسيح**، وكأنها غلطة أُجبر المسيح على ارتكابها ، ويتم من ثم، التركيز على الوهيته وكأنها الفاعل الوحيد للفداء. والحال ان اية نظرية سليمة لا يجوز لها ان تفصل بين حقيقة التجسد، أي حياة المسيح الانسانية، وبين حقيقة عمله الفدائي الذي يتخطى هذه الانسانية. فاذا ما فهمنا بان تجسد المسيح هو حجر الاساس لمفاهيمنا المسيحية، سنفهم بانه لا يجوز لنا ان نحتقر الانسان والانسانية أبدًا. فالانسانية لو كانت غير صالحة ومن دون مستقبل ولا ذات معنى، لما تجسد فيها كلمة الله. بكلمة اخرى، التجسد، بحد ذاته، هو الثقة المعطاة للانسانية والامل بمستقبلها.

لذا لا يمكن استيعاب عمق المسيح الفدائي الا متحدًا اتحادًا جوهريًا وغير قابل للفصل مع تجسده في الانسانية. **فالتجسد والفداء عمل واحد متكامل لا معنى للواحد من دون الاخر، ولا يمكن فصلهما ابدًا في تجربتنا الانجيلية.**

• **الجسدي والروحي**

في هذا الوجه الآخر من المعضلة، نجد تناقضًا مماثلا ولد في صميم الحياة الانسانية نتيجة الفصل بين الانسان -الجسد والانسان- الروح والنفس، فأصبح الخلاص، بالتالي، **خلاص النفوس لا خلاص الانسان بكامله**، أي بكامل مقوماته الوجودية المتكونة من مجموع علاقاته الاجتماعية التي هي جوهر حياته الفعلية. مفهوم كهذا يناقض الرؤيا الكتابية عن "الروحي". فالحياة حسب الروح، في مفهوم الكتاب المقدس، تعني الحياة باستلهام روح الله، أي حياة لانسان بكامله (بجسده وبروحه) تحركها ديناميكية الروح من اجل تحقيق "ارض جديدة". فتقسيم الانسان الى روح وجسد متناقضين، منفصلين في المصير، لا وجود له في الاسفار المقدسة، ولا حتى في فكر مار بولس المتأثر بالفلسفة اليونانية، خلافًا لما قد يعتقد البعض[٩].

لقد اتاح هذا التمييز بين الجسدي والروحي للكثير من المسيحيين نوعًا من التعايش السلمي بين ان يكونوا أتقياء متدينين، وفي الوقت نفسه فاقدين كل حساسية تجاه المظالم الاجتماعية والقضايا الاقتصادية والسياسية، وكأن ذلك لا يعني حياة الروح بشيء. بل يذهب البعض الى ابعد، حين يمارسون اعمال الرحمة ومساعدة الفقراء بدافع من تدينهم ومن دون حرج، وفي الوقت نفسه قد يكونون هم انفسهم قد "انتجوا" هؤلاء الفقراء. الفقراء ليسوا كذلك "بتصميم" الهي، كما كان يعتقد قسم من لاهوتيي القرون الوسطى القائلين "بان الله خلق الفقراء ليتيح للاغنياء ممارسة الرحمة والصدقة تجاههم"!!!

• **العالم والكنيسة**

ثنائية اخرى..

كثيرًا ما نتكلم عن الكنيسة والعالم (لا سيما بعد المجمع الفاتيكاني الثاني)، وهذا وحده يعبر ضمنيًا عن الفصل. فهناك القسم "المُعَمَّذ" من قبل الكنيسة، اعني ما تعتبره الكنيسة **قيمة مسيحية** وما تعتبره وثنيًا، أي القيم العالمية (نسبة الى العالم)، وبهذا المعنى تحدثوا عن **الثقافة المسيحية** تمييزًا لها عن **الثقافة الوثنية**، وعن السياسة المسيحية الخ.... من هذا المنطلق أيضًا كانت الاولوية للقسم "المسيحي" الحائز على المعنى الحقيقي بحسب وجهة نظر الكنيسة؛ وأما القسم الآخر، "الوثني"، فخال من المعنى. وبمنطق هذا التمييز في قيم الوجود الانساني والكوني، عملت الكنيسة جاهدة لاحتواء الواقع الانساني بكامله، من اجل تقديسه وتكريسه ومن اجل ان يحصل على الخلاص، ومن هنا جاءت العبارة الشهيرة "**لا خلاص خارج الكنيسة**".

ان "واو" الفصل في المفهوم الدارج لعبارة "الكنيسة والعالم" تعني بان هناك العالم المعروف وعالم اخر مواز له، او نموذجان متميزان للعالم. ومثل هذا المفهوم لا يجد تبريرًا في الانجيل ولا في الخبرة العملية للايمان. فالكنيسة موجودة في العالم، وهي جزء منه، ولا يمكن فصلها عنه وعما يعيشه من احداث وازمات وطموحات أبدًا، والازمة الحالية التي تعيشها الكنيسة اليوم، مثلا، هي جزء من الازمة التي يعيشها العالم كله.

الكنيسة وجدت لتكون علامة لانجيل ذاك الذي حرر البشرية جمعاء بموته عنها وبقيامته من اجلها، ولا يمكنها ان تكون تلك العلامة ما لم تكن **في العالم وفي صميم البشرية جمعاء**.

(ملف شباط ١٩٧٦/جـ١)

تتمة الملف/ اذار ١٩٧٦/جـ٢

لقد آن الاوان كي نسأل انفسنا من جديد عما اذا كان الاطار الفلسفي الذي عرضناه في مطلع هذه الدراسة، أي تقسيم العالم الى مثالي ومادي، هو فعلا قضية حتمية، وعما اذا كان على كل انسان ان يحدد موقفه من العالم انطلاقًا من هذا التقسيم، والا فهو في ضياع وتيه. اما يستطيع الانسان المعاصر اليوم تجاوز هذا الاطار النظري؟

اما حان الوقت كي نخرج من هذه الدائرة المغلقة والنظرية البحتة وهي: أسبقية الوجود، لمن تكون للروح أم للمادة؟ هذه المعضلة الشبيهة الى حد كبير بمعضلة اسبقية الدجاجة على البيضة!

فاذا استطعنا فعلا ان نتحرر من هذا الاطار ونبدأ تفكيرنا الفلسفي، انطلاقًا من الانسان كوحدة حياتية اجتماعية لا يمكن تقسيمها ابدًا، فالطبيعة وكل ما يحدث فيها وعملية تغييرها تستند اذ ذاك على مبادرة الانسان وعلى ما يريد تحقيقه من مستقبل انساني له ولها. فالدعوة الاساية للبشرية جمعاء هي ان يصبح الانسان فعلا كائنًا يستحق هذا الاسم، لذا لزم ان تكون هناك مبادرة مستمرة من قبل الانسان للنقد وتغيير كل شيء في الطبيعة: البنى الاقتصادية، والاجتماعية، والانظمة السياسية... ليتمكن من الرد على هذه الدعوة. ولهذا كل ما هو إنساني هو واقعي، له استقلاله وله قيمته العميقة ومعناه الاصيل. فواقعيًا لا يمكننا الفصل بين الانسان- الجسد او المادة وعن الانسان- النفس او الروح، لذا علينا رفض هذه المثالية التي اثبت التاريخ عدم جدواها. فحضارتنا الانسانية المعاصرة مرتكزة على الانسان وعلاقاته الاجتماعية وعلاقاته مع الطبيعة او مع أي كائن آخر، ولا نستطيع فهم لغة اخرى لا تنطلق من هذا الواقع.

ان هذا التغيير النوعي في المفاهيم الحاصل في داخل الحياة الانسانية، قاد الفكر الفلسفي الى اعتبار العالم حقيقة يجب بناؤها. **فهو في حالة صيرورة** باتجاه الغاية الانسانية التي وجد من اجلها، بدلا من الاعتقاد السابق بأن العالم هو حقيقة متكاملة ثابتة على الانسان تأملها من اجل التعرف على اسرارها العميقة.

نستنتج مما تقدم بأن هناك تغييرًا حصل في القاعدة الانسانية للحياة الانجيلية. فبعد ان كان اللاهوت المسيحي يعتقد، ولفترة طويلة، بأن لا وجود لقيم انسانية من دون الانجيل والدين المسيحي، اكتشف بذهول بأن هناك الكثير من هذه القيم موجودة فعلا بمعزل عن الانجيل! فاكتشف مثلا بأن للانسان قابلية على المحبة والاخلاص والبحث عن العدالة من دون ان يكون هذا الانسان بالضرورة انجيليًا، ووجد ايضًا بأن للعلوم الانسانية (الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس) امكانية واسعة لمعرفة وتحليل الواقع اكثر من امكانية العلوم الميتافيزيقية التي تعتمد التأمل العقلي لهذا الواقع. فالاكتشافات الحاصلة في هذا المضمار قادت هذا اللاهوت الى الاعتراف بأن للانسان ولصالحه الانساني استقلالاً خاصًا به ولا حاجة بالضرورة للمعطيات الدينية إلى تفسير وفهم هذا العالم، وبهذا انتقل اللاهوت

المسيحي من كونه واسطة لتفسير وشرح العالم على ضوء الايمان الى مشاركة ذات صفة نوعية اصيلة لكونها تعتمد الخبرة الانجيلية في هذا الموضوع.

والان، بعدما وصلنا الى هذه المرحلة من الدراسة، أي فضح عدم جدوى المثالية وما ينشأ عنها من ثنائية قاتلة، واعتبار العالم كحقيقة واحدة غير قابلة للتجزئة، وفي حالة صيرورة نحو الانساني، واعتبار الانسان نقطة الانطلاق في تفكيرنا هذا... فالسؤال الذي يفرض نفسه هو: كيف نستطيع ان نعبر عما اوحي لنا من حقيقة انجيلية نعتبرها بالايمان ذات **ضرورة حياتية بالنسبة للانسان،** كي يصبح فعلاً انسانًا منطلقًا، له روح المبادرة التاريخية في كل ما يحدث في العالم؟

سنحاول الان الاجابة على هذا السؤال، عالمين بأن اجابتنا محدودة جدًا وقاصرة حتمًا عن الوصول الى مستوى هذا التساؤل.

نقطة الانطلاق هي كون الحقيقة الانجيلية جديدة دائمًا ومعاصرة.

"فبُهتوا كلهم حتى سأل بعضهم البعض قائلين ما هذا الامر، ما هو هذا التعليم الجديد"؟ (مرقس ١:٢٧)

"ما نطق إنسان قط مثل هذا الرجل" (يوحنا ٧:٤٨)

على الحقيقة الانجيلية، انطلاقًا من طبيعتها النوعية الخاصة بها، ان تكون جديدة ومعاصرة. فمنذ البدء، شعر الذين سمعوا هذه الحقيقة بأنها ذات واقع خاص جديد في الاطار الذي كانوا يعيشون فيه، وهذا ما جعلهم يتعجبون ويتساءلون عن ماهية هذه الحقيقة وعن الانسان الذي ينطق بها: "اخذ يسوع يعلم في المجمع وكثيرون كانوا يسمعون ويتعجبون قائلين من أين لهذا هذه الاشياء وما هذه الحكمة التي اعطيها وهذه القوات الكائنة على يديه؟" (مرقس ٦، ٢-٣)

وهذا ما اختبره الرسل أيضًا، أي ان الحقيقة التي سمعوها قادهم الى التعجب والى التساؤل لكونها حقيقة جديدة لم يسمعوا بها من قبل، أحدثت فيهم امورًا جديدة عجيبة تستحق اهتمامًا عميقًا (راجع اعمال الرسل ٢، ٦-٧). كما ان بولس الرسول عاش هذه الحقيقة بصورة خاصة، وعبر عن خبرته هذه بان هذه الحقيقة هي الخلقة الجديدة للبشرية، وتحتوي على الدعوة الى الدخول والبدء بحياة جديدة من نوع مختلف عما كان يعيشه البشر آنذاك: "فاذا كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة وقد مضت الاشياء القديمة، ها كل شيء يتجدد" (٢ قورنتس ٥، ١٧)، وقوله ايضًا: "لأنه بيسوع المسيح ليس الختان بشيء، ولا الغرلة بل الخليقة الجديدة" (غلاطية ٦/١٥).

ان هذه النقطة الاساسية في كل فكر انجيلي سليم يجب ان تكون دائما حجر الزاوية في كل منطلقاتنا العلمية والفكرية، وإلا وقعنا في دوامات عديدة تبعدنا تدريجيًا عن المحور

الاساسي الذي يجب ان تدور حوله حياتنا الانجيلية، ألا وهو المسيح يسوع، الوجه الاصيل للحقيقة الانجيلية التي تنادي بها. وسنحاول الآن ان نبين كيفية استمرار فعالية هذه الحقيقة في الواقع الموضوعي للعالم ومحافظتها على طبيعتها النوعية الجديدة والمعاصرة دائمًا، وهذا يجعلنا نتصورها دائمًا في حالة حركة جدلية في داخل هذا العالم ونستطيع ان نميز في هذه الحركة أبعادًا ثلاثة:

١-الحقيقة الانجيلية نقد للواقع الموضوعي للانسانية:

نقصد بالحقيقة الانجيلية تلك الخبرة الحياتية الخاصة التي قام بها يسوع المسيح. وبذلك تحتوي هذه الحقيقة على الابعاد العميقة التي تخص هذه الشخصية الفريدة من نوعها والمتميزة بطابعها الشمولي، المستوعب للحياة الانسانية بكاملها ومستقبل هذه الحياة الفعلي في الله.

ان هذه الحقيقة الانجيلية غزت الحياة الانسانية بذاتها ونقدتها بصميمها؛ وهكذا نجد انها نقد للأخلاق والقيم المعتاد عليها، ونقد مستمر للقيم المعترف بها من قبل الجميع على انها قيم اساسية. فمنطق هذه الحقيقة يختلف بصورة جذرية عن المنطق الاعتيادي، وبهذا يدخل مع المنطق الانساني في علاقات جدلية من نقد وبناء ما هو "جنون عند البشر وحكمة عند الله" (١قورنتس١).

ان هذا النقد الجذري المستمر يعتبر ضرورة ملازمة لعملية التطور الانساني؛ فكما ان الانسان لا يستطيع ان يكتشف ميزاته الخاصة به ويعي انسانيته من دون الدخول في علاقات مع آخرين يختلفون عنه –وبذلك يحس بأنه ذو شخصية متميزة عن هؤلاء الآخرين ويشعر أيضًا بما يشترك معهم من طموحات مشتركة– كذلك نجد ان الحياة الانسانية لا تستطيع ان تكتشف مميزاتها الخاصة وأبعادها الاساسية إلا بوضعها في علاقة عميقة وحياتية مع آخر؛ وهنا بوسع الحقيقة الانجيلية ان تلعب هذا الدور عن طريق نقدها للحياة الانسانية بصورة مستمرة لتستطيع بلوغ اهدافها في الكمال الانساني وبناء مستقبل يستطيع فيه الانسان ان يكون، بالفعل، كائنًا حرًا وسعيدًا وخلاقًا. وهذا الدور الأصيل لا يمكن ان تلعبه اية حقيقة كانت من دون ان تكون لها صفة التجديد والمعاصرة الدائمة كالحقيقة الانجيلية.

٢- الحقيقة الانجيلية تجاوز للواقع الموضوعي للانسانية[١٠]:

"انا هو الحق والطريق والحياة، من آمن بي لن يموت ابدًا".

"قبل ان يكون ابراهيم كنت انا".

هناك الكثير من النصوص الانجيلية، التي تكشف لنا عن حقيقة التجربة الحياتية للمسيح وابعادها الخاصة والتي تتخطى تجاربنا الانسانية بمراحل. هذه النصوص تجعلنا نشعر بعمق بأننا امام حقيقة لا يمكن حصرها او تحديدها بحدود وأطر نضعها نحن لها، فكما وضعناها

في إطار انساني مرتبط بالزمان والمكان (وهذا شيء ضروري بالنسبة لنا نحن البشر) نجدها متجاوزة هذا الاطار بأبعادها، وبهذا التجاوز تعبر مرة أخرى عن كونها حقيقة جديدة دائمًا. وهذا التجاوز هو الذي يمكنها من نقد الواقع الموضوعي للانسانية حيث لا يمكن ان ننقد شيئا ما بصورة جذرية وبنّاءة، من دون ان نتجاوز الاطر القديمة ونشعر تجاهها بحرية لها جذور عميقة في المعنى الاساسي للوجود بالنسبة للانسان. فالحقيقة الانجيلية هي امامنا دائمًا، تقودنا الى ان نترك مواقعنا القديمة ونتحرك باتجاه المستقبل، متحملين مسؤولية هذا التحرك كاملة تجاه الوجود الانساني، وهكذا **تصبح الحياة المسيحية حركة وانتقالا دائمين نحو المستقبل**، فالجمود والمحافظة على ما هو موجود لا يمكن ان يكون من روحانية الانجيل. فاذا ما آمنا بأن الانجيل يتخطى واقعنا، فعلينا، إذن، ان نتغير وننتقل ونتحرك، أي بكلمة واحدة أن **نثور** للوصول الى ما يدعونا اليه الانجيل من صفات أصيلة في الحياة الانسانية.

٣- الحقيقة الانجيلية خلق للحياة الانسانية(١):

"وبه أيضًا خُلق العالم" (عبرانيين ١:٣)
"الذي هو صورة الله غير المنظورة وبكر جميع الخلائق" (قولسي ١:١٥)
"وقد خلعتم الانسان القديم ولبستم الانسان الجديد الذي يتجدد حسب صورة خالقه" (قولسي ٣:١٠)

يواجه الانسان مسألة أساسية، وهي حياته الانسانية وأبعادها غير المعروفة بعد؛ فالانسان ليس فقط انسان الماضي والحاضر ولكنه ايضا **انسان المستقبل**، أي انه كائن ذو طموحات وآمال وأبعاد عليه ان يخلقها من اجل ان يصل الى الانسانية التي تراود مخيلته. هناك مسؤولية تقع على عاتق كل واحد منا وعلينا جماعيًا، الا وهي: خلق المستقبل لحياتنا الانسانية. وهذا يفترض اولاً نقد وتجاوز الحاضر حتى تكون لنا جدية المبادرة في البحث عن ابعاد انسانية جديدة، اكثر تطورًا نحو الافضل. والشعراء والفنانون يحسون عادة بهذه الصفة الاساسية للانسان، صفة الخلق لحياتهم الانسانية، بصورة اعمق من غيرهم، ولولا هذه الصفة الاصيلة للانسان لما كان لحياتهم معنى، ولسقطوا في عبثية وجودية قاتلة تشل كافة فعالياتهم الحياتية...

فالخلق يعتبر دائمًا تجاوزًا للحدود الكائنة والانتصار على كل العوامل المقيدة والخانقة للانسان ولطموحاته، فهو الحياة المنتصرة على الموت وقوته، والتي تحاول ان تجر الانسانية الى الخلف والى اليأس. وعلى هذا الصعيد بالذات يأتي دور الحقيقة الانجيلية التي صميمها **انتصار المسيح على الموت بالقيامة**، أي الحدث الذي يتفجر منه الامل والحياة، فهذه القيامة هي قوة الخلق الانساني وامكانياته غير المحدودة باتجاه المستقبل..

(ملف آذار ١٩٧٦)

(١) انظر الفكر المسيحي: عدد ايلول ١٩٧٥ ص٣٢٤.

(٢) كارل بارث، لاهوتي بروتستنتي سويسري ولد في بال سنة ١٨٨٦ وتوفي سنة ١٩٦٨، له كتب عديدة اهمها:

KARL BARTH:
Esquisse d'une dogmatique – Ed . de la Chaux et Niestle, Paris 1960

بونهوفر: لاهوتي الماني ذو شأن، قاوم النازية فأعدمه هتلر سنة ١٩٤٥ وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، اهم مؤلفاته:

DIETRICH BONHOEFFER
Le prix de la grâce – Ed. de la chaux et Niestle, Paris 1967

(٣) كونكار: لاهوتي كاثوليكي معاصر من الاباء الدومنيكيين، ابحاث عديدة حول الكنيسة والحياة المسيحية بصورة عامة، وفي ما يخص بحثنا يمكن العودة الى:

Y. M. J. CONGAR; Sacerdoce et laicat, Cerf, Paris 1962 (p. 357-377)
Y. M. J. CONGAR: Jalons pour une théologie du laicat, Cerf, Paris 1953 (p. 115, 547)

شنو: لاهوتي ومؤرخ كنسي معاصر وهو من الآباء الدومنيكيين ايضًا، يمكن مراجعة كتابه التالي عن الايمان:

M. D. CHENU: La foi dans l'intelligence, Cerf, Paris 1964 (chap. 4)

(٤) جورج وليتزر، المادية والمثالية في الفلسفة، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، انظر خاصة ص١٤-٢٨.

(٥) J. M. BLOND: Le paradoxe de l'homme- in Action populaire, No Juillet- Aout 1963- p. 187

(٦) يوحنا ١٣: ١-١٧

(٧) سارتر: مسرحية الذباب التي يعبر فيها عن هذه المشكلة بالذات.

(٨) Marcel XHAUFELAIRE: Feuerbach et la Théologie de la sécularisation, Cerf, Paris 1970

(٩) Claude TRESMONTANT: Essai sur la pensée hébraique, Cerf, Paris 1953- p. 87-115

(١٠) La Théologie du Renouveau, Ed, du Cerf, Paris 1968, p. 180-191.

(١١) Bernard Rey, Créés dans le Christ- Jésus, Ed. du Cerf, Paris1966

دور الاسرة في التثقيف المسيحي

دور الاسرة في الثقيف المسيحي يزداد خطورة واهمية يوما بعد يوم، لا سيما بعد ان تضاءل او تغير نمط اسلوب التعليم المسيحي في المدارس والكنائس. والاسرة المسيحية مدعوة الى ان تعي هذه الخطورة وتتحمل مسؤوليتها التاريخية.

الاخت ماركريت صنا، من راهبات القلب الاقدس، تتحدث عن هذه "المسؤولية"، وحديثها تدعمه بخبرتها الغنية كمعلمة دين في مدرسة بابل للبنات، وعضو في لجنة التثقيف المسيحي في الموصل، وقد اشتركت او أحيت دورات عديدة للتثقيف المسيحي للصغار في الموصل وخارجها.

من محاور المقال: التربية المسيحية مسؤولية الاهل؛ العماذ زرع بذرة يجب ان تُرعى؛ والدون يضطلعون بدورهم التربوي، مهمة كنسية مشتركة.

● التربية المسيحية مهمة انجيلية: الاهل مسؤولون عنها منذ الطفولة المبكرة

عندما يأتي الاولاد الى المدرسة، وحتى في مرحلة الروضة، يكونون قد بلغوا شوطًا كبيرًا من الادراك والانتباه، ويكون عالمهم الطفولي زاخرا بالصور والمعلومات والملاحظات الشخصية والانفتاح الى السؤال والاستماع. صحيح انهم لا زالوا "خاما" يتقولب بسهولة وكالصفحة الشمعية التي تتيح للمربي ان يطبع عليها ما يشاء؛ وصحيح ايضا ان للمدرسة (الابتدائية) والروضة (ان ارتادها الطفل) تأثيرا بليغا على التكوين النفسي والفكري والمستقبلي لدى الطفل، الا ان البيت الابوي يبقى العامل الاهم والرئيسي في بنيان الطفل وصقل طباعه وتوجيه شخصيته وترسيخ قناعاته. قد تكون المدرسة بمثابة فرشاة الفنان التي تضع الخطوط العريضة وتوزع الالوان والاضواء على زوايا اللوحة، اذا صح التشبيه، وبمثابة العين التي تكتشف الاطار المرغوب لابراز الصورة، غير ان الاسرة هي التي تثبت الالوان بطلائها الخاص وتجري الرتوشات الجمالية الاخيرة، ولولاها لا يتاح للوحة ان تبرز او ان تعرض. واذا اتخذنا تشبيها اخر، فالاسرة تبقى التربة الطبيعية والمناخ الاعتيادي اللذين فيهما تنمو وتنتعش وتتفتح شخصية الطفل.

من هنا الدور الرئيس والاول الذي يعود الى الاسرة المسيحية في عملية التربية والتثقيف المسيحيين، منذ الطفولة المبكرة لدى الاولاد. وهذا الدور، بالاضافة الى خطورته الموضوعية، فهو مهمة انجيلية؛ وقد أشاد البيان المجمعي في التربية المسيحية بهذا الدور الجوهري حيث قال:

"يعتبر الوالدون المربين الاولين لأبنائهم وأهمهم، وعليهم يقع الالتزام الخطير في تربيتهم لأنهم هم الذين أعطوهم الحياة. وهذا الدور التربوي هو من الاهمية بمكان، حتى اذا ما

أضلوا فيه صعب جدًا ان يعوض. وعلى الوالدين ان يخلقوا جوًا عائليًا تحييه المحبة والاحترام لله وللبشر، جوًا يساعد على تربية ابنائهم الكاملة، الشخصية والاجتماعية. فالعيلة، اذن، هي المدرسة الاولى. هناك يختبرون لأول مرة الكنيسة والمجتمع الانساني الصحيح، وأخيرًا يدخلون رويدا رويدا في الجماعة البشرية في شعب الله"(١).

• من قاعدة ايمانكم اقتبل اولادكم العماذ. بذرة القيتموها يجب ان ترعوها

ان المهمة التي يوكلها الله الى الوالدين بالانجاب لا تنتهي بمنح الحياة وبايصالها الى النور. انها تستمر حتى يصبح الانسان الجديد قادرا على ان يندمج اندماجا نشطا في الجماعات التي تؤلف المجتمع الانساني، وينفتح على الحوار مع الغير ويسهم اسهاما جديا لتحقيق الخير العام.

فيا ايها الوالدون، لقد فرضتم على اولادكم الحياة الطبيعية في ولادتهم الاولى. اما في الولادة الجديدة التي نالوها بالمعموذية، فيعرض عليهم الرب ان يحيوا به ومن اجله، وان يحررهم من عزلتهم ويدخلهم في عالم الاخرين. والحوار مع هذا الكون هو بذاته فعل ايمان يعتمد في بروزه الى الوجود على قاعدة ايمانكم انتم، ولولا هذه القاعدة، أي لولا ارضية ايمانكم انتم، لما جاز ان يقتبل اولادكم العماذ. فايمانكم ضمان ضمني لنمو بذرة ايمانهم، يوما فيوما، وتعهد علني برعاية وتغذية وتطوير حياة الايمان فيهم، لئلا يبقى مجرد بذرة مطمورة.

العماذ هو العلاقة الاولى التي تدل على وجود المسيح في حياتهم، يدخلون بها في الكنيسة، وبذلك يلبسون الانسان الجديد.

وعملية التثقيف هذه يجب ان تسير وفقا لمدارك الطفل وتطور انتباهه ونمو فضوله في المعرفة والاطلاع؛ ومن الطبيعي ان يستغل المربون الاحداث البسيطة ومناسبات الحياة لفتح وعي اولادهم تدريجيا واعطائهم الغذاء لقمة لقمة. ففي مناسبة سفرة في الطبيعة يمكن ان يحدثوهم عن مخلوقات الله باسلوب بسيط وشيق. حضور الاولاد حفلة عماذ، مثلا، يمكن ان يكون فرصة ملائمة جدا لشرح معاني العماذ والتثبيت اللذين اخذوهما في طفولتهم دون ادراك.

مرور مُستعطٍ على الباب، لقاء فقير في الشارع او في المدرسة او في المحلة، او مشاهدة مآسي العالم وصورَ الجوع والظلم والمشردين على شاشة التلفزيون... يمكن ان تكون فرصة ثمينة يستغلها الاهل لبضع كلمات عن محبة الله لجميع البشر، واخلاص المسيح للفقراء والمغلوبين، وانفتاح المسيحي الى محبة واحترام الغير. وكم يكون مثل هذا الكلام نافذًا في حساسية الطفل اذا كان صدى لسلوكية الوالدين انفسهم. ان المثال الصالح يسبق الكلام بتأثيره، وهو خير وسيلة لتربية الاولاد. ان الولد ينظر دائمًا الى والديه ويلاحظهما دائمًا في حركاتهما وكلامهما ويعتقد بأن كل ما يقولانه صائب وكل ما يعملانه كامل؛ وعين الولد امهر مما نظن في اكتشاف التناقض بين اقوالنا وأعمالنا، وهو يحكم من أعمالنا على جدية أقوالنا ونصائحنا.

كنت مدعوة للغداء في بيت احد الاصدقاء، وعند الطعام جلس معنا على المائدة طفلهم البكر البالغ من العمر اربع سنوات. فطلبت اليه ان يرسم علامة الصليب ثم يأكل. أجابني: "ما اريد. بابا ما صلى، أنا هم ما أصلي!".

الولد يقلد دائما اباه في اقواله واعماله.

من جهة اخرى يمكن ان نجعل من الاعياد والمواسم فرصة جيدة للقاء المسيح والكنيسة، وجعل الطفل يشعر بان العيد، بالاضافة الى كونه فرصة فرح ومتعة، فهو ايضا فرصة للالتقاء بالاخرين، من اهل واقرباء واخوة مسيحيين نجتمع معا كأسرة واحدة متحابة في الكنيسة. بامكاننا ان نوقظ وعيه الى ان العيد هو حضور المسيح من جديد بيننا. فكل مرة يأتي الينا عيد جديد، نحتفل بمجيء المسيح الينا، وما احتفالاتنا في الاعياد الا لقاء المسيح الحي، القائم من القبر. لانه في ما بيننا ونحن سعداء به ونعيد معه فرحين؛ وهكذا يكون الاحتفال بالعيد مناسبة تربوية ليقظة الايمان وتفتحنا الانساني ووعينا بمعاني وابعاد انتمائنا الى المسيح.

ولكن هل ان الاسرة المسيحية تعي كل ذلك؟ حتى في حالة وعيها شيئا من ذلك، هل تؤدي ما عليها من دور خطير في عملية التنشئة المسيحية؟

نظرة بسيطة الى الواقع تعكس لنا كم ان اسرنا المسيحية لا زالت مقصرة في هذا الواجب، وكم تتنصل من المسؤولية التربوية المسيحية، هذا اذا لم تلقها بكاملها على الكنيسة والمدرسة:

حدثتني احدى التلميذات، قالت: "طلبت من والدتي ان تعطيني كتاب الانجيل لأقرأ فيه، الا ان ماما قالت لي: "تعالي اشتغلي، لا تتفلسفي علينا".

- "نعم ماما أعمل ما تريدين، ولكن بعد أن أنهي عملي، إسمحي لي أن أقرأ في الانجيل".

وتستطرد الفتاة قصتها وتقول: "انهيت شغلي وقرأت. ثم مساء، ونحن مجتمعون للعشاء، طلبت من ماما ان نصلي سوية قبل الأكل حتى يبارك يسوع اتعابنا جميعًا. فقالت ماما: "اسكتي، اراك اليوم قد صرت قديسة على رأسنا".

لقد تأثرت الطفلة جدًا من معاملة والدتها، فسألتني وهي حائرة: "هل أعمل بما تقولين، أم اعمل بما تطلبه أمي؟".

لماذا هذه اللامبالاة؟ كنت أظن اننا سنلقى تشجيعًا وتعاونًا من قبل الاهل تجاه النشاطات الدينية التي يشارك فيها ابناؤهم، ولكنني لقيت صمتًا او لا مبالاة لا تنبيء بالخير من قبل كثير من اولياء الامر في حقل عملي، سواء في المدرسة او في الدورات الصيفية أو ابان اعداد الاولاد للتناول الاول. وطيلة فترة التعليم الاعدادي للتناول الاول، قلما نرى أولياء الاولاد، وهم بالكاد اذا اتصلوا بنا، فللسؤال فقط على نوع الملابس والقضايا المادية الاخرى المتعلقة بالحفلة. والانكى من ذلك، هناك قسم لا يحضرون حتى الاحتفال في الكنيسة مع اولادهم. لماذا؟ لأنهم مشغولون في البيت في اعداد الطعام والاستقبالات!

نتمسك بالقشور ونترك الجوهر. مع ان مشاركة الاهل أولادهم في تناولهم وفرحتهم، في الكنيسة، اهم من انشغالات البيت. فحضور الاب والام ضروري جدًا في القداس، وكم

يستحسن ان يتناولا مع ولدهم يوم تناوله الاول، وبذلك يشعر بأن التناول الاول له قيمة عند الجميع، وليس لديه فقط.

● تربية الأهل

من كل ما سبق يبدو جليًا ان مهمة الوالدين التربوية ليست عملية سهلة، ولا هي ترك متعمّد او لا ابالي للغرسة ان تنمو كما تشاء الرياح والتقلبات. الاب المربي، أو الام المربية، ليس من يدعي ان الايام كفيلة بأن تقوّم الاعوجاجات، فيبرز عدم اهتمامه ولا مبالاته، ولا هو من يحكم المراقبة والضغط على الاولاد بحيث يفقدون شخصيتهم وعفويتهم، بل هو من يرعى دون تكلف، ومن يحب دون تملك ولا تزمت؛ هو من يرى بقلبه ويسمع بحسه ما في نفسيات أولاده، ويكتشف، من ثم، الكلمة والاسلوب والموقف الملائم.

تلك رسالة شاقة تتطلب من الوالدين انتباها مستمرا واحتراما فائقا وحبا عميقا يتسم بالتضحية والانفتاح، لان الولد يولد صفحة بيضاء مجهزة بكل الامكانات والطاقات وقابلة لمختلف الانطباعات الجيدة والسيئة؛ والاهل هم أول من يرسم شيئا على هذه الصفحة العذراء. انها بذرة صغيرة تحتاج الى العناية التامة كي تنمو وتورق وتصبح شجرة باسقة ثم تعطي ثمرًا. وذلك يحتاج الى استعداد جدي من قبل الاهل من جميع النواحي الادبية والعلمية والتربوية؛ بالدرجة الاولى تحتاج العملية التربوية الى صفات قلبية وانسانية عالية. وعملية التثقيف المسيحي بالذات تستدعي معرفة دينية جيدة وأرضية مسيحية جادة، فلا يمكن للأب ان يتكلم أمام أولاده عن الله وعن المسيح كلامًا مفيدًا ما لم يكن غنيًا بالايمان الحي، وقلبه عامر بالمحبة، اذ ان "من فضلة القلب يتكلم اللسان".

من اجل ذلك يصبح من الضروري ان يطالع الاهل الكتب الاجتماعية والدينية والمجلات المسيحية، وبخاصة الانجيل المقدس الذي من خلال احداثه يمكن شرح مختلف جوانب الحياة المسيحية والتعرف الى شخصية المسيح. فكيف ترى يستطيع اب ان يقوم بمهمته التربوية المسيحية بصورة لائقة اذا كان هو نفسه يجهل أمور دينه؟ بكلمة اخرى، يحتاج الاهل الى اعادة تربيتهم هم أنفسهم والى ان يطلعوا، على قدر الامكان، على الاساليب الحديثة للتربية ويجتهدوا في تفهم اولادهم وفق متطلبات عمرهم ومداركهم والمعلومات المستجدة التي يتلقونها في المدارس ووسائل الاتصال، وهي تدخل في البيوت عن طريق الراديو والمجلة والجريدة والتلفزيون والملصق وحتى الحفلات الكنسية... فاذا ازدادت ثقافة الولد على ثقافة والديه، فكيف يستطيعون ان يوجهوه:

بعد ان انهيت شرح موضوع (المخلص) للاولاد طلبت اليهم واجبًا بيتيًا وقلت:

- اذا كنت لا تعرف جيدًا من هو مخلصنا، فاسأل أهلك في البيت.

بعد اسبوع طالبت الاولاد بالواجب، -وكانت النتيجة: من مجموع ٧٥ بنتًا وولدًا، لم يكمل النشاط المطلوب سوى ولد واحد وبنت واحدة. استفسرت عن السبب، فأجاب أحدهم:

- "من أسأل؟ أمي لا تعرف شيئًا، أنا اعرف اكثر منها، أبي لا يجاوبني مطلقًا، بل يزجرني ويسكتني، لأني سألته سابقا اسئلة عديدة، فلم أجد جوابًا لأي سؤال، وهذا يدل على ان والدي لا يعرف الاجابة، ولهذا لا أسأله بعد شيئًا".

وأيده كثير من الاولاد. وقال غيره:

- "أهمل مثل هذا الواجب لأني لا أرى أي اهتمام من أهلي، سواء تعلمت أم لم أتعلم. لا احد يحاسبني في البيت عن درس الدين، عكس سائر المواد. فاذا أهملت واجبي في التاريخ أو الحساب عاقبوني، أما هناى فلا احد يسألني اذا ما تعلمت أم لا.."

فما هو موقفكم ايها الوالدون والمسؤولون عن تربية اولادكم وعن اعطائهم نور الايمان؟ ان العملية التربوية تتطلب منكم جهدًا ونكران ذات من اجل من تحبوهم وتبذلون الغالي والرخيص في سبيل تأمين مستقبلهم وتسهيل تحصيلهم العلمي، ولا تبخلون عليهم حتى بالمدرسين الخصوصيين، وتدفعون بطيبة خاطر لدورات التقوية وللنشاطات، فلو اهتممتم بالتثقيف المسيحي لأولادكم بقدر ١٠ بالمئة مما تبذلونه لسائر نشاطاهم ودراساهم، لما كنا أمام هذا التناقض بين الواقع والمرغوب في قضية الوعي المسيحي لدى الجيل الجديد.

- **مهمة التثقيف المسيحي مهمة كنسية جماعية مشتركة، وان انطلقت من الاسرة**

ان هذه المهمة امانة في عنق الاسرة المسيحية، لا سيما في غياب المدارس المسيحية وتقلص فرص التثقيف المسيحي المباشر وتعقد الحياة المعاصرة وبعد المسافات؛ ولكنها في الوقت ذاته مهمة جماعية مشتركة تخص الكنيسة كلها، وقد أكد على ذلك البيان المجمعي في التربية المسيحية -رقم٣- حيث جاء:

"... وتتعلق المهمات التربوية بصفة خاصة بالكنيسة، ويجب الاعتراف لها باهميتها في حقل التربية، لا من حيث الها مجتمع بشري فحسب، بل بنوع خاص لان عليها تقع مهمة تبشير الناس واعطاء المؤمنين حياة المسيح ومساعدقم بعناية متواصلة الى بلوغ الانفتاح الكلي على حياة المسيح هذه. فالكنيسة ملزمة، اذن، بان تؤمّن، كأم لاولادها، التربية التي تنفح حياقم كلها بروح المسيح... لترفع الشخص البشري نحو ملء كماله، وتؤمّن خير المجتمع الدنيوي وبنيان عالم دوما اكثر انسانية".

ومن القضايا المهمة في نجاح العملية التربوية، الاتفاق والتعاون بين المسؤولين عن التربية. لان عدم الاتفاق يوقع الولد في حيرة ويترك فيه أثرًا سيئًا، والأسوأ من ذلك ان الولد ينتهز فرصة هذا الخلاف ليتبع هواه.

فالجماعة المسيحية باسرها معنية بالتثقيف المسيحي، واذا كانت كل اسرة تقوم بما عليها، تكون قد ساهمت في الجهد العام، وبالتالي ساهمت في بناء مجتمع جديد سليم، دينيا ومدنيا.

(١) الوثائق المجمعية- ترجمة اليسوعيين- بيروت- الجزء الاول- بيان في التربية المسيحية رقم ٣ ص٢٤١.

- شيلي، شعب صامد وكنيسة تتحرك

كانون الثاني/ص٣٠ - ٣٧ امير حراق[١]

+ العنصرية

شباط/ ص٧٨ - ٨٥ الاب عبد السلام حلوة

- تنزانيا، تجربة اشتراكية افريقية

اذار/ ص١٢٦ - ١٣٣ نجيب قاقو

- المشاركة في القداس/ استفتاء

نيسان/ص١٧٣ - ١٨١ الاخت سانت انبين[٢]
ونوئيل طباخ[٣]

- البرازيل: نظام العنف وكنيسة التحرير

ايار/ ص٢٢٢ - ٢٢٩ امير حراق

- جماعات القاعدة في الكنيسة

حزيران/ ص٢٦٨ - ٢٧٧ الاب بيوس عفاص

● عدد خاص: كنيسة العراق[*]

ايلول/ ص٢٨٩ - ٣٧٢

- جنوب افريقيا ازاء يقظة السود

تشرين الاول/ ص٣٩٨ - ٤٠٨ الاب يوسف عتيشا

- ماذا تقرأ؟ ماذا تسمع؟ ماذا تشاهد؟/ استفتاء

تشرين الثاني/ ص٤٤٧ - ٤٥٤ ماهر حربي

+ الخلاص او التحرير بيسوع المسيح

كانون الاول/ ص٤٩٥ - ٥٠٤ الاب لوسيان جميل

(*) اثبتنا في "المختار من الاعداد الخاصة" المقالات التالية: كنيسة ما بعد المجمع (أ. خليل قوجحصارلي)، هل سيكون لنا كهنة بعد اليوم؟ لماذا؟ وكيف؟ (أ.جرجس القس موسى)، الكنيسة في الواقع العربي: دعوة إلى الالتزام (أ. ميخائيل جميل).

(١) للاستاذ الدكتور امير حراق ١٠ مساهمات (من بينها ملفان).

(٢) للاخت سانت انبين الدومنيكية ٣٢ مساهمة، وبضمنها صفحة "شخصيات" على مدى عام ١٩٧٧، فضلاً عن مشاركتها في باب "ركن الاسرة". كانت طيلة ٣٠ عاما عضوا في هيئة التحرير الاستشارية بالموصل.

(٣) للسيد نوئيل طباخ ٣ مساهمات (من بينها ملف). كان لفترة عضوا في هيئة التحرير الاستشارية بالموصل.

العنصرية

قطع العالم أشواطا كبيرة من التقدم على الصعيد العلمي والتقني والثقافي، واخذ الانسان يتطلع بامل الى حياة اكثر انسانية وأكثر عدالة والى علاقات انسانية اكثر اخوة.. ومع ذلك فلا زالت هناك زوايا قاتمة في الوجود وقضايا هي على النقيض من تلك التطلعات.

ولعل قضية العنصرية والتمييز العنصري هي من اكبر هذه القضايا لكونها تشكل عقبة في طريق الحوار بين البشر في سعيهم نحو عالم تسوده الاخوة. هذه المعضلة كان الاب عبد السلام حلوة قد تناولها بالبحث في محاولة للكشف عن جوانبها ولفضح أبعادها الوخيمة على مستقبل الانسانية.

منذ ان اصدر الكاتب الفرنسي الكونت دي جوبينو كتابه "دراسة في عدم تساوي الاجناس" عام ١٨٥٣، أخذ الفكر العنصري يرسخ مبادءه ويدعم ادعاءاته. فجوبيتو يرجع اسباب التفاوت بين الحضارات الانسانية الى العوامل العرقية لا غير، وقد ذهب في نظرته الى تصنيف الاجناس البشرية الى اجناس ممتازة قادرة على التقدم، واجناس منحطة محكوم عليها بالتخلف الدائم[١].

وان كثيرًا من علماء الانتروبولوجيا في القرن التاسع عشر، وعلى رأسهم تايلور، اخذوا بالنظرية القائلة بأن الانسان بلغ الحضارة عن طريق التدرج التاريخي (Evolutionnisme) وعلى مراحل ثلاث: من الوحشية الى البربرية، وحتى الحضارة! فهذه النظرة القاصرة الى الانسان كانت في الاساس من المفاهيم العنصرية الحديثة.

وقبل ان نعطي تعريفًا كاملا للعنصرية ونستعرض مختلف اشكالها ومظاهرها، لا بد لنا ان نتساءل: من هو الانسان؟ ما هو سر وجوده؟ وما هي طموحاته في الوجود؟ ان الجواب الى هذه التساؤلات الاساسية سيعطينا رؤية واضحة عن العنصرية بصفتها مفهومًا عن الانسان متخلفًا وعقيمًا. لن نبحث عن العنصرية من المنطلق البيولوجي، لاعتقادنا ان هذا المنطلق يبعدنا عن قلب المعضلة. انما سنتناولها بالبحث من منطلق ثقافي- حضاري على ضوء علم الانتروبولوجيا.

العنصرية نظرة منتقصة الى الانسان

يقول علماء الانتروبولوجيا الحضارية ان الانسان كائن اجتماعي يعيش ضمن عوائل او قبائل أو أُمم مختلفة، تمتاز كل منها بصفات ثقافية وسمات حضارية خاصة، وانه حين

يلتقي ويتفاعل مع اخيه الانسان الذي ينتمي هو الاخر الى بيئة ثقافية وحضارية مختلفة، يبدآن كلاهما بالتساؤل عن ما هية الانسان، فيخلصان الى هذه الصيغة من التساؤل: "اذا كنت أنا أنسانًا وكان هذا الاخر انسانًا أيضًا، بالرغم من الاختلافات بيننا، فمن يكون الانسان يا ترى؟

من هذا المنطلق لا عجب ان نرى كثيرًا من الحضارات القديمة تطلق صفة الانسانية على شعوبها وتنفيها عن الشعوب الغريبة، معتبرة اياها شعوبًا متوحشة لا صلة لها بالانسانية! ولقد لعبت هذه الظاهرة التي يسميها العلماء "الاتنوسنترسم" (Ethnocentrisme)[٢] دورًا كبيرًا في عملية التعصب العنصري على أساس العرق، ومن نفس المنطلق نشأ التمييز العنصري على اساس الاختلاف في لون البشرة بين الشعوب: فالبيض كانوا يعتبرون انهم هم وحدهم بشر دون غيرهم من السود أو الصفر، والعكس بالعكس! فحين اكتشف كريستوف كولومبس القارة الامريكية والتقى بالهنود الحمر، تساءل عما اذا كان هؤلاء بشرًا، وبقي النزاع قائمًا الى ان قرر البابا بولس الثالث عام ١٥٢٧ انهم ينتمون الى الجنس البشري طالما كانوا قادرين على اعتناق المسيحية!!

ان جذور العنصرية كامنة في ان الانسان، كي يثبت وجوده، يلجأ الى التفكير بالمكونات الاساسية التي تطبع وجوده ووجود سائر البشر، من خلال انتمائه وانتمائهم الى امة معينة أو قوم معين او ثقافة معينة أو دين معين الخ... فيبدأ يختص لنفسه بكل الايجابيات التي يراها في نفسه وفي الآخرين، ويلقي بكافة السلبيات التي يرغب ان يستأصلها من وجوده على "الآخر"، فيصفه بالمتوحش والبربري والجاهل والكافر والعديم الاخلاق واللا إنساني... هكذا ينشأ الشعور بالتمييز بين البشر ،سواء على اساس العنصر ام العرق أم الثقافة أم اللون أم الدين... فالعنصرية تتلخص، على حد تعبير البير مامي، بعملية "التقييم والتعميم الكامل للاختلافات الحقيقية او الخيالية، التي يقوم بها الداعي الى العنصرية، في ادانة ضحيته، بغية تبرير الامتيازات الخاصة به (الاقتصادية والاجتماعية والسياسية) وتبرير عملية الاستغلال والاعتداء التي يمارسها على الضحية نفسها"[٣].

العنصرية ايديولوجية متخلفة

ان العنصرية ايديولوجية ترى في الاختلافات بين البشر، على كافة اشكالها، مبررًا للادعاء بتفوق جماعة بشرية على اخرى، وحجة لابراز السمات التي تتصف بها جماعة ونفيها عن سائر الجماعات، ومنطلقًا للاستغلال تمارسه الجماعة "المتفوقة" بحق الجماعات "المتخلفة"! هذا التقييم والتعميم الذي تكلم عن البير مامي ينطلق من مفهوم يقوم على الادعاء، سواء بتفوق جنس على غيره من الاجناس على أساس فيزيقي يتعلق بالتكوين الجسمي، ام على أساس التفوق الحضاري- الثقافي، ام التكنولوجي، ام الاقتصادي ام الاجتماعي..

وبالتالي فالعنصرية مرض عضال ينخر في قلب المجتمع، وقد ينمو الشعور العنصري بين الافراد والجماعات بشكل عفوي ومن دون وعي. ومن ثم يمكن تجاوزه عن طريق تربية انسانية تقوم على احترام الغير **ليس بالرغم من اختلافه وحسب بل بسبب اختلافه**، لكون هذا الاختلاف ميزة ذاتية وقيمة انسانية في حد ذاته. غير ان الخطورة تكمن حين يتخذ هذا الشعور العنصري شكلاً واعيًا ويتجسد بشكل تعليم نظري ايديولوجي، لغرض استيعابي، ويتسم باحتقار الغير واستغلاله وسلب حقوقه الانسانية.

فعلى ضوء ظاهرة الاتنوسنترسم نستعرض أبرز أشكال العنصرية:

١) على صعيد الحضارات الانسانية

٢) على صعيد المجتمع الدولي

٣) على صعيد المجتمع المحلي

١) على صعيد الحضارات الانسانية:

انطلاقًا من مفهوم عنصري للحضارة، ذهبت بعض الشعوب في الاعتقاد بأن حضارتها تفوق وتنفي حضارة غيرها. وقد توهمت الشعوب المتقدمة صناعيًا وتقنيًا واقتصاديًا بأن هذا التقدم هو المقياس الحضاري، بينما الحضارة مجموعة من القيم تعبر عن عبقرية الشعوب وخبرتها الطويلة بالحياة البشرية في كافة مظاهرها. والأنكى من ذلك هو ان بعض البلدان "المتقدمة" اتخذت من هذا "التفوق" حجة لفرض صيغ حضارتها على البلدان "المتخلفة"، وهذا ما فعلته الحضارة الغربية -وكم فيها من الظاهرات اللاانسانية- تجاه الحضارات الافريقية أو الآسيوية أو العربية، اعتقادًا منها بأن لا حضارة خارجًا عنها، وان على الحضارات الاخرى ان تذوب وتضمحل فيها!

فمن منطلق التفوق الحضاري، تنكرت الحضارة الاوربية لحضارة الشعوب التي لم تواكب النموذج الحضاري الغربي وعملت على طمس تراث تلك الشعوب، مما افقدها هويتها الحضارية الأصيلة.

٢) العنصرية على الصعيد الدولي

وحين تتخذ العنصرية شكلا ايديولوجيًا تصبح امبريالية تدعم المطامع التوسعية والاستعمارية لدى الدول المتقدمة التي تقدم عملية الاستعمار بشكل خدمة تقوم بها من اجل رفع مستوى الدول "المتخلفة"، وهكذا تبرر استغلالها لهذه البلدان وتفرض عليها تبعية اقتصادية- سياسية في مسيرتها نحو النمو. ويقول السيد يسين بأن "صعود الفكر العنصري صاحبَ نشوء واتساع النظام الامبريالي العالمي الذي قام على استعمار ونهب شعوب العالم الثالث، وكان لا بد له حتى ينجز مهمته ان يجد المبرر لذلك، وهكذا ظهرت دعاوى "عبء الرجل الابيض" في تمدين الشعوب المتخلفة وغيرها من الصيغ العنصرية التي قصد بها ايجاد السند الفكري للعملية الاستعمارية.[٤]

هكذا نجد الصلة الوثيقة بين العنصرية والاستعمار، ذلك لان الاستعمار يقوم على مفهوم عنصري اذ ينظر الى الشعوب النامية وكأنها شعوب متوحشة لا تكاد تصح فيها صفة الانسانية، ومن ثم فهي بحاجة الى وصاية! وهكذا تستمر عملية الاستغلال بين الدول الى ما شاء!!

مؤتمر عالمي لمحاربة العنصرية

قررت الجمعية العامة للامم المتحدة في ١٣ ك١ ١٩٧٦ عقد مؤتمر عالمي في اكرا (غانا) عام ١٩٧٨ لمحاربة العنصرية، وقد صوتت لهذا القرار ١١٠ دول وعارضته كندا واسرائيل، وامتنعت عن التصويت ١٦ دولة، وقد عينت ١٦ دولة في عضوية اللجنة التحضيرية الفرعية للمؤتمر ومن بينها العراق.

(عن مركز الامم المتحدة للاعلام في العراق).

٣) العنصرية على صعيد المجتمع المحلي

وللعنصرية جذور داخل المجتمع الواحد تقوم في التمييز بين افراده على اساس الاختلافات الطبقية التي هي الاخرى نتيجة نظام اجتماعي واقتصادي وسياسي معين. وتبرز العنصرية حين يحاول افراد الطبقة البرجوازية تحديد مفهوم للانسانية من منطلق تفوقهم على افراد سائر الطبقات، ذلك لأن قياسهم للانسانية هو نموذجهم البرجوازي. فلو حاولنا تحليل ردود فعلهم التلقائية تجاه الذين هم أقل مترلة او ثروة –ولا سيما تجاه الذين يقومون بخدمتهم– لوجدنا ان ظاهرة العنصرية عميقة الجذور في تفكيرهم وسلوكيتهم، ولفهمنا لماذا تثور الطبقات المستغَلة على هذا الوضع اللا إنساني وتنادي بتغيير البنى الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع، وعلى سبيل المثال نذكر الاوضاع المزرية التي يقاسيها العمال العرب في اوربا.

والى جانب هذه الظاهرة، هناك ظواهر للعنصرية ليست اقل خطورة وتقوم على اشكال كثيرة من التمييز بين افراد المجتمع الواحد على أساس القومية أو اللون أو الاصل او الثقافة او الدين الخ...

بعض مظاهر العنصرية في العالم

ولا بد لنا من أن نورد بعض النماذج للظاهرة العنصرية كما تجسدت، او لا زالت تتجسد في بعض البلدان او المجتمعات:

- **عنصرية هتلر**: كانت من أحط مظاهر العنصرية في التاريخ الحديث، كونها انطلقت من مفهوم بيولوجي روجت له الايديولوجية النازية بادعائها بتفوق الجنس الآري على كافة الأجناس البشرية. فذهب ضحيتها ٦ ملايين يهودي لمجرد كونهم ساميين.

- **عنصرية الولايات المتحدة:** عرفت الولايات المتحدة بادئ بدء عنصرية الأسياد التي تقوم على استغلال الزنوج وسلبهم أبسط حقوقهم الانسانية على أساس انهم أدنى مرتبة من البيض. غير انها تشهد اليوم عنصرية تقوم على ردود الفعل السلبية تجاه العمال المهاجرين الذين يرى فيهم الامريكان منافسين لهم وخطرًا يهدد مستقبل الامة!

- **عنصرية روديسيا وجنوب افريقيا:** وتقوم على استئثار الاقلية الحاكمة من البيض بالسلطة على حساب الاغلبية السوداء، وهذه السياسة العنصرية ينص عليها دستور هذين البلدين. ومن الجدير بالذكر ان البيض في روديسيا يشكلون ١٩٪ من السكان مقابل ٦٨٪ من السود. اما في جنوب افريقيا فيبلغ عدد البيض ٢٧٠ ألف مقابل ٧ ملايين من السود، وقد أدانت الجمعية العامة للامم المتحدة سياسة التفرقة العنصرية التي تمارسها حكومة جنوب افريقيا بقرار نال تأييد ١٣ صوتًا مقابل صوت واحد (اسرائيل)!

- **عنصرية اسرائيل:** انطلقت الصهيونية من مفهوم عنصري يقوم على مبدأ هرتزل في "**اعطاء أرض بلا شعب لشعب بلا ارض**" وهو مبدأ استعماري استيطاني، إذ ينكر الوجود على كل من ليس يهوديًا. في فلسطين المحتلة، كما جاء في تصريح بن غوريون عام ١٩٥٤: "ليس في بلادنا مكان إلا لليهود. اننا سنقول للعرب: ابتعدوا، فاذا لم يوافقوا واذا قاوموا فسنبعدهم بالقوة"! ويجد مبدأ الاستيطان هذا مبررًا له في فكرة "شعب الله المختار" التي تقوم على مفهوم قَبَلي للدين، كما يقول روجيه غارودي: "ان الاساس الديني للصهيونية يتضمن تصورًا قبليًا للدين. فان المطالبة "بالحقوق التاريخية" لليهود في فلسطين تستند الى تعمية وتزييف تاريخيين"[٥]. فجاء قرار الامم المتحدة في ١٠ ت٢ ١٩٧٥ يؤكد بان "الصهيونية شكل من اشكال العنصرية والتمييز العنصري".

ياسر عرفات

في مقر هيئة الامم المتحدة

"ان ثورتا لا تنطلق من مواقف عنصرية او دينية، فهي ليست موجهة ضد الانسان اليهودي بصفته يهوديًا بل ضد الصهيونية العنصرية والعدوان. فنحن نناضل حتى يستطيع اليهودي والمسيحي والمسلم ان يعيشوا معًا على قدم المساواة دون أي تمييز عنصري او ديني"

(خطابه في ١٣ ت٢ ١٩٧٤)

المسيحية والعنصرية

لما كان نمو الفكر العنصري قد رافق نشوء واتساع الامبريالية العالمية، ولما كانت معظم الدول الاستعمارية تدين بالمسيحية آنذاك، اخذ بعض رجال الكنيسة يدعون الى

"مسؤولية المسيحي" في هداية الشعوب المستعمرة والتي كانت على الوثنية او على الديانات القديمة، وذلك في انسجام مع دعوى "عبء الرجل الابيض" في تمدين الشعوب المتخلفة؛ وهكذا التصقت في ذهن هذه الشعوب صورة مسيحية حليفة للاستعمار. وقد نجد لدى بعض المرسلين هنا وهناك "مواقف عنصرية"، غير انها لم تكن مستوحاة البتة من المبادئ المسيحية، انما من ايديولوجية الدول التي كانوا ينتمون اليها. هذا الواقع لا يمكنه ان ينسينا بأن المرسلين، انطلاقا من مبادئ الانجيل في المساواة بين البشر ومن شمولية الخلاص، كانوا من رواد الانتروبولوجيا اذ عكفوا على دراسة المظاهر الحضارية لدى تلك الشعوب وعملوا على ابراز وتقييم تراثها الحضاري.

ولا بد لنا ان نقر بأن بعض مظاهر العنصرية -وتجسدت في الماضي بالحروب الدينية- لا زال قائمًا في الولايات المتحدة حيث هناك كنائس لا تسمح للسود بالانتماء الى صفوفها! وفي جنوب افريقيا حيث ينتمي ٩٨% من المسيحيين البيض الى الكنيسة الاصلاحية الهولندية التي ساندت سياسة التمييز العنصري. وجدير بالذكر انه بالرغم من كون الاغلبية من المسيحيين في روديسيا وجوب افريقيا هم من السود، فلا زالت معظم الكنائس يديرها قسس من البيض، ولا زال الكثير من المفاهيم العنصرية يتقاسمها المسيحيون البيض، وذلك بحكم تشريعات هذين البلدين العنصرية. غير ان السنوات الاخيرة اخذت تشهد يقظة ووعيًا متزايدين بين صفوف المسيحيين -من السود والبيض- في فضح السياسة العنصرية والمطالبة بازالة التفرقة العنصرية كونها مضادة لمبادئ الانجيل، يساندهم في حركات التحرر أساقفة وكهنة من كاثوليك وبروتستنت، وإن تعرضوا لسياسة القمع التي تنتهجها السلطات الحاكمة.

اثناء الانتخابات الاميركية الاخيرة قدم ٤ من الزنوج طلبًا للانتماء الى الكنيسة المعمدانية التي ينتمي اليها جيمي كارتر، ورفض طلبهم باسم القرار الذي كانت قد اتخذته هذه الكنيسة عام ١٩٦٥ بعدم قبول السود في صفوفها!

العنصرية على ضوء الانجيل

الانجيل، وهو البشرى السارة المعلنة لكل ذوي الارادة الصالحة، يتنكر لكل تمييز بين البشر على اساس العرق او القومية او اللون او اللغة... ذلك لأنه "العهد الجديد" بين الله والبشر، المختوم بدم المسيح "الذي جعل من الشعبين (الامم واليهود) واحدًا، إذ نقض الحائط الحاجز بينهما..." (افسس ٢:١٤). انجيل يسوع المسيح يعلمنا بأن البشر جميعًا هم ابناء الله وانهم اخوة فيما بينهم، وعلى الاخوة ان يتحابوا.

لقد أظهر المسيح من خلال مواقفه العديدة ان رسالته شاملة لا حدود لها، لذا نراه يحطم ادعاءات اليهود بأنهم هم وحدهم "شعب الله"، ويبدد أوهامهم في مسألة الخلاص إذ يقول: "وسيأتون من المشرق والمغرب ومن الشمال والجنوب ويتكئون في ملكوت الله" (لوقا٣:٢٩)

وعلى هذا المنوال سارت الكنيسة منذ ايامها الاولى في قبول الأمم بين صفوفها. فهوذا بطرس يعلن: "أنتم تعلمون انه محظور على اليهودي أن يخالط أجنبيًا أو يدنو اليه، أما أنـــا فقد أراني الله ان لا أقول عن احد انه نجس او دنس" (اعمال١٠:٢٨). وبولس رسول الأمم يؤكد مرارًا انه"ليس بعد يهودي ولا يوناني، لا ختان ولا قلف، لا اعجمي ولا إسكوتي، لا عبد ولا حر" (قولسي٣:١١).

ويطول بنا الحديث اذا أردنا ان نستعرض مواقف الكنيسة من العنـــصرية، فنكتفـــي بالقول انها ما فتئت تدعو الشعوب الى نبذ كل اشكال التفرقة العنصرية وتناشد الـــدول الى احترام حقوق الانسان والعمل على بناء عالم تسوده العدالة والمساواة. فانجيل المسيح هـــو نداء الى التحرر من كل اشكال العبودية ودعوة الى الاخوة بين افراد الاسرة البشرية.

(١) راجع السيد يسين: الصهيونية ايديولوجية عنصرية- آفاق عربية، ك٢ ١٩٧٧ ص١٣

(٢) هو الانغلاق على الذات الذي تقوم به مجموعة بشرية ذات صفات عرقية خاصة، اذ تجعل من نفـــسها محـــورًا ومقياسًا للحضارة.

(٣) راجع: اجوبة مسيحية لمعضلات اليوم- No. 12-13, 1968, p. 6

(٤) السيد يسين: المصدر نفسه

(٥) روجيه جارودي: عن الذرائع الدينية والتاريخية للصهيونية – آفاق عربية، ك٢ ١٩٧٧، ص٢٣.

الخلاص او التحرير بيسوع المسيح

مفهوم الخلاص ملتصق بمفهوم "ملكوت الله"، ملكوت الحق والحرية والعدالة، ورؤية المسيح لهذا الملكوت تكمن في ابوة الله وفي بنوة الانسان. فالخلاص اكتشاف لمعنى هذه الحقيقة الانسانية في الانجيل وفهم عميق لكل ابعادها الروحية والانسانية في عملية [illegible]

انه الانقلاب الجذري والتحول العميق الذي احدثه يسوع في كيان الانسان حين دعاه الى معرفة ذاته، وجعله المعرفة للذاته [illegible] على معرفة الله ويدفعه الى التضامن مع اخوته البشر، في السعي [illegible] التحرر من كافة اشكال الاستعباد.

الى اكتشاف مفهوم "انجيلي" للخلاص كما يظهر في [illegible] وعلى ضوء رؤية للمضمون الانجيلي دعا الاب لوسيان جميل في هذا المقال -وكان له امتداد في ملف نيسان ١٩٧٨ بعنوان "الخلاص في العالم المعاصر"- وقد سعى الى بيان كيفية تجسيد الخلاص في عالمنا المعاصر.

مما لا شك فيه ان موضوع الخلاص كان له دوما اهمية كبرى في المسيحية، وان طرأت عليه تغييرات مهمة عبر الزمن. وفي اعتقادي ان مصير البشرية رهن بامكانية الوصـــول الى مفهوم نظري وعملي صحيح للخلاص، كي يظل بشرى حقيقية للانسان كما كان في الماضي.

الخلاص مفهوم لاهوتي وانجيلي

ويتبين من دراسة بسيطة ان مفهوم الخلاص "لاهوتي" في صيغته، "انجيلي" في جذوره. وهذا يعني ان تعبير الخلاص "كمصطلح"، وكما نعرفه اليوم، استنتاج فكري قام به الرســـل ومن سبقهم في العهد القديم ومن لحقهم من علماء وملافنة؛ وهذا ما يجعل هذا المفهوم قابلا للتأويل والاجتهاد والتعمق فيه. أما جذور الخلاص، فهي انجيلية تمتد الى العهد القديم، وهذا يعني ان المسيح ليس غريبا عن هذا المفهوم بل هو في أساسه ومحوره، وذلك ما يـــدعونا الى الاستمرار في الكشف عن اصالته من اجل اعتماده في الحياة المسيحية.

المفهوم الانجيلي للخلاص

نتعلم من دراسة الكتاب المقدس وأساليبه الانشائية أنه لا يمكن تحديـــد مفهـــوم الخـــلاص بوضوح استنادا الى المعاني والكلمات الحرفية الواردة في النصوص فقط. فهنـــاك نـــصوص عديدة ترد فيها عبارة الخلاص او ما يشابهها، الا ان التباين في معنى هذه النصوص يحـــذرنا من التسرع في تحديد مفهومها، وينهانا من اعتماد مفهوم لاهوتي تقليدي عن الخلاص؛ ولذا أصبح لزاما علينا ان نستعين بمجمل فكر يسوع من خلال حياته وأقواله ومواقفـــه، كمـــا تسردها لنا الاناجيل وعلى ضوء الدراسات العلمية، وبعد هذا يمكننا فهـــم عمـــق المعـــاني للعبارات الواردة هنا وهناك في الانجيل.

فاذا ما اعتمدنا هذه الطريقة العلمية في تفسير معطيات الانجيل، سيظهر لنا بوضوح ان الخلاص مساو تماما لعبارتي "ملكوت الله" و "رسالة يسوع". فالبشارة بحلول ملكوت الله وتدشينه هي رسالة يسوع الاساسية، مع ما نالت من توضيحات عملية، وهي كذلك الخلاص الذي يقدمه الله للانسان بفم يسوع. فلنحاول، اذن، توضيح مفهوم ملكوت الله كي نصل في الوقت ذاته الى معنى رسالة يسوع والبشرى الخلاصية التي أعلنها للبشر.

مفهوم ملكوت الله

لقد بات واضحا ان ملكوت الله لا يعني العالم الاخر، بل حالة من الحياة يحققها الله للبشر، يعيش فيها الانسان بسعادة وهناء ويتخلص من الظلم والاستعباد ومن متاعب الحياة وكافة الوان الشقاء، وذلك بعد ان يحصل على "قلب جديد" في "عالم جديد". وفكرة ملكوت الله لم يبتكرها يسوع، ولكنها كانت حلما مستقبليا يحلم به انسان "العهد القديم" وانبياؤه. وفي عهد يسوع كان الفكر اليهودي يتصور ملكوت الله بحسب عقليته وحاجاته، وكان يحصر مفهومه بفكرة مجيء ملك يحكم باسم الله ويخلص الشعب من الاستعمار الروماني ويقيم العدالة وينشر سلطانه على جميع الامم. اما عند الانبياء، فقد كان مفهوم ملكوت الله أكثر عمقا وشمولا، فكان يحوي نواحي عديدة من الحياة البشرية التي يجب ان تتجدد وتتخلص من سلبياتها تحت رعاية الله في ظل عهد جديد.

وتعكس لنا الاناجيل فكر الانبياء عن ملكوت الله او "الخلاص" عندما تستعير منهم بعض النصوص عن ملكوت الله لتقول لنا ان هذه النصوص تحققت بمجيء يسوع. فهذا صوت اشعيا ينقله لنا لوقا الانجيلي: "صوت مناد في البرية: اعدوا طريق الرب واجعلوا سبله قويمة. كل واد فليمتلئ، وكل جبل وتل فلينخفض، والطرق المعوجة تُقوَّم، والوعرة تسهَّل، وكل بشر يرى الخلاص الآتي من لدن الله" (لوقا ٣:٤-٦). لماذا هذا الاستعداد الجذري العميق؟ لان الرب سيفتقد الانسان ويفتديه كما وعد بلسان انبيائه الاطهار (لوقا ١:٦٨-٧٠)، ولان الرب سينقذ الانسان من ايدي اعدائه ومبغضيه، ليعبده البشر بالتقوى والبر غير خائفين طوال ايام الحياة (لوقا ١:٧١-٧٥). ولنا في موعظة يسوع على الجبل (متى ٥:١-١٢ ولوقا ٦:٢٠-٢٣)، وكذلك في النشيد الذي وضعه لوقا الانجيلي على لسان مريم في قصة الزيارة (لوقا١:٤٦-٥٥) -وهو مقتبس كله من الانبياء- خير تعريف بملكوت الله وبالخلاص. ففي هذين النصين يظهر جليا ان ملكوت الله هو انقلاب حقيقي جاء يسوع يبشر به. فالطوبى هي للفقراء والضعفاء والمتواضعين والجياع إلى البر، لان هؤلاء سيشبعون ويرتفعون ويرثون الارض. والويل هو للاغنياء والشباعى والضاحكين لانهم سيجوعون ويبكون. ان الله سيحقق هذا الانقلاب في العالم وليس في العالم الآخر، هذا هو المعنى

الواضح لهذه العبارات: "وسيشتت الله بساعده ذوي القلوب المستكبرة ويضع الاعزاء عن العروش ويرفع الاذلاء. سيشبع الجياع من الخيرات ويصرف الاغنياء فارغين".

ان اقتباس الانجيليين نصوصا من الانبياء يدل على ان بشارة يسوع كانت هي الاخرى في خط الانبياء. لقد رفض يسوع الانجراف في التيار المشيحاني(١) اليهودي رغم الحاح الشعب عليه كي لا يحصر نفسه ضمن افقه الاحادي الجانب.

ولكننا نخطئ اذا قلنا، مع المفكرين التقليديين، ان ملكوت الله الذي نادى به يسوع كان روحيا بحجة انه قال يوما لبيلاطس: "مملكتي ليست من هذا العالم" (يوحنا ١٨:٣٦)! فاننا نعرف ان مصطلح "العالم"، لا سيما عند القديس يوحنا الانجيلي، انما يعني عالم اليهود القديم والبائد، العالم الذي رفض يسوع وتعليمه الخلاصي. لنقرأ ما اقتبسه لوقا الانجيلي من اشعيا النبي عن ملكوت الله: "روح الرب نازل علي لانه مسحني وارسلني لابشر الفقراء وابلّغ المأسورين اطلاق سبيلهم والعميان عودة البصر اليهم، وافرج عن المظلومين، واعلن سنة مرضية لدى الرب" (لوقا ٤:١٨-١٩). ان هذه الفقرة من لوقا، مثل كل ما ورد في الاناجيل، تدل على ان مفهوم يسوع لملكوت الله لم يكن روحيا صرفا، كما لم يكن في خط المشيحانية اليهودية. لقد كان مفهوما نبويا ذا دلالات انسانية وروحية شاملة ستجد تجسيدا لها في مواقف وبشارة يسوع اللاحقة.

تجسيد ملكوت الله الخلاصي

بالرغم من كون الاعلان عن ملكوت الله وحلول الخلاص عاما ونبويا، الا انه كان في الوقت عينه اساسا لرسالة يسوع ومنطلقا هاما في تجسيد هذه الرسالة. فالرمزية النبوية في بشرى ملكوت الله لم تخف واقعية البشرى وجذريتها وتماسها مع حياة الناس المتطلعين دوما الى الخلاص من كافة الشقاءات التي يرمز اليها بالفقر والاسر والعمى والظلم. ان الرمز النبوي هنا هو من نوع الرموز التي تستمد من الواقع نفسه. لذا لم تخشَ الرمزية في اعلان بشرى الخلاص المفهوم الطبقي لهذه البشرى، كونها موجهة الى طبقة "الفقراء" الذين كانوا يشكلون غالبية الشعب المبشَّر، المقهور والمغلوب على أمره، والذي كان ينتظر الفرج من الله على ما تذكر لنا قصة سمعان الشيخ مثلا (لوقا ٢:٢٥-٣٢). لقد كان هؤلاء الفقراء والصغار في نظر يسوع أمل البشرية ومستقبلها وأمل الله في تشكيل "ملكوته"، لان دخول الاغنياء ملكوت الله كان في الواقع اصعب من "دخول الجمل في ثقب الابرة"!

وبديهي ان يسوع لم يكتف بالاعلان النبوي عن حلول ملكوت الله، وانما سعى الى توضيح محتوى هذا الاعلان وتجسيده لتقريبه من الانسان بشكل يتلاشى معه الغموض الذي يكتنف مثل هذه الاعلانات النبوية عادة، ويزول الالتباس الحاصل بسبب المفهوم الشعبي السائد آنذاك بين الناس عن ملكوت الله.

ويظهر لنا من مجمل الانجيل ان ملكوت الله او الخلاص يرتكز في نظر يسوع على رؤية دينية- انتروبولوجية[٢] موحدة، مفتاحها الاساسي هو ابوة الله وبنوة الانسان. فخلاص الانسان هو في استيعاب معنى هذه الحقيقة وابعادها الروحية والانسانية. وفي رأيي، ان ثورة يسوع الحقيقية تكمن في هذا الكشف عن وجه الله الحقيقي الذي يجر وراءه كشفا عن حقيقة الانسان. فاذا كان الله ابا، فالانسان يكون ابنا، والبشر فيما بينهم اخوة.

لقد تحرر الانسان، اذن، من الوجه القديم لله، فتحررت في الوقت ذاته نظرته الى ذاته ومعرفته لنفسه: فأن يتحول الانسان الى وعي انساني جديد، هنا يكمن الخلاص، في نظري. فالخلاص ليس تحريرا من مشكلة معينة او وعدا بهذا التحرير، ولا هو غلبة على جملة مشاكل وان كانت كبيرة، كالخطيئة والموت والعبودية والاستعمار. وقد تكون هذه الامور احد اوجه الخلاص، ولكنها ليست الخلاص، وانما نتيجة له. فالخلاص هو التحول الجذري في كيان الانسان حتى يصبح انسانا جديدا، انسانًا آخر. ولكي يكون هناك خلاص حقيقي، يجب ان يكون مقابله هلاك حقيقي. والهلاك، كالخلاص، هو في نظرة الانسان الى نفسه، حين يكمن في هذه النظرة خطأ جوهري كياني يحمل الانسان الى التصدي للنور والحقيقة ومن ثم الى التنكر لانسانيته، وهذا ما عبر عنه الانجيل وخاصة انجيل يوحنا بالخطيئة: "لو لم آت واكلمهم لما كتبت عليهم خطيئة. ان خطيئة العالم هي ان النور جاء الى العالم فآثر الناس الظلام على النور" (يوحنا ٣:١٩). فالناس لم يعرفوا الله وبالتالي لم يعرفوا انفسهم. في هذه الحالة يكون الخلاص في تغيير هذه النظرة وفي وعي الانسان لماهيته الحقيقية، وهذا الوعي يمكنه من تغيير كافة السلبيات في حياته وفي مجتمعه.

من هذا المنطلق نفهم تماما معنى دعوة الانجيل الى الاهتداء والتوبة: "توبوا فقد اقترب ملكوت الله"، وفي نص آخر: "توبوا فقد حل ملكوت الله". فعندما يكون مفهوم الخطيئة العميق هو الجهل، جهل الله والذات بالنتيجة، فان مفهوم التوبة سيكون ايضا المعرفة والوعي والتصرف بحسبهما. ان التوبة أو الاهتداء تعني في الانجيل التحول إلى المفهوم الجديد لله والانسان، وهذا المفهوم الجديد يتطلب بدوره عملا جديدا وتصرفا جديدا أو أخلاقية جديدة بتعبير آخر.

قضايا تحررية مهمة

اذا كان الخلاص وعيا جديدا بكيان الانسان، كما رأينا، فهو ليس شيئا اثيريا لا يمكن تجسيده. فان وعي الانسان ومعرفته لذاته لا يتحققان بشكل منعزل عن الحياة ومسيرة المجتمع، بل ضمن هذه الحياة وهذه المسيرة؛ وهذا يعني ان الخلاص يتجسد في قضايا ملموسة لها اهميتها في حياة الانسان، وقد تأخذ في نظره أهمية قصوى او مطلقة حسب المكان والزمان. ارجو ان لا ينتظر مني القارئ ان اسرد له كل القضايا، فذلك يعني وجوب

تقديم الانجيل بكامله مع سائر كتب العهد الجديد نظرا للتغيير الذي شمل الحياة المسيحية برمتها! لقد كان الرسل في بدء البشارة الانجيلية مستمرين على الصلاة في المجامع اليهودية. الا ان هذه العادة ما لبثت ان انقطعت بسبب وعي الرسل للخلاف الجوهري والقائم بين نظرتهم الدينية الحياتية وبين نظرة اليهود. والحقيقة هي انه رغم تصريح يسوع بانه لم يات "لينقض بل ليكمل"، الا ان الاناجيل توحي بأن هذا التكميل كان بدرجة من العمق والجذرية بحيث يعتبر ثورة حقيقية وتغييرا اساسيًا، وعليه اراني مضطرا الى الاكتفاء ببعض القضايا الجوهرية التي تجسد فيها الوعي المسيحي الجديد ومنها:

١ - كرامة الانسان:

لقد كان الوعي بكرامة الانسان على درجة كبيرة من الاهمية، نظرا لفقدان هذه الكرامة في المجتمع اليهودي الذي بشر فيه يسوع، وفي المجتمع الروماني الذي بشر فيه الرسل من بعد. فقد كان تقييم الانسان في كلا المجتمعين يستند الى الحسب والنسب والجاه والقوة والمال. فمن كان يملك هذه المقومات فهو انسان له مكانته في المجتمع ويكتسب قيمة في نظر ذاته بقدر ما يملك من تلك المقومات؛ اما من لا يملك شيئا منها، فليس له من حقوق الانسان شيء يذكر. وقد كان المعدمون يشكلون الغالبية العظمى للسكان في فلسطين. فالعبد ليس محروما من مكانته الاجتماعية والسياسية حسب، بل هو محروم من انسانيته ذاتها، محروم من ثمرة اتعابه ومن حقه في الحب وتكوين العائلة بشكل حر، وهو محروم حتى من حقه في الحياة. ان رذائل المجتمع الطبقي في فترة انحلاله قد ظهرت بابشع صورها في عهد يسوع والمبشرين الاوائل. فهل نفهم ابعاد ثورة يسوع باعلانه بنوة الانسان لله؟ وهل نقيس ابعاد هذا الاعلان الخلاصي في نفوس الصغار والفقراء والمنبوذين والعبيد؟

٢ - حرية الانسان:

تأتي مسألة الحرية ضمن كرامة الانسان وكوجه من اوجهها. وقد فهم المسيحيون الاوائل قضية الحرية بشكل مغاير للحرية السياسية القومية التي كان يحلم بها اليهود في زمن يسوع. فقد تجاوزت المسيحية المفهوم القومي بسرعة وركزت، نتيجة لهذا التجاوز، على الانسان، أي ان المسيحية تعرضت لمبدأ الحرية نفسه الذي يمكن تطبيقه بأشكال متباينة ومختلفة بحسب الزمان والمكان.

والاناجيل، على عادتها، تتكلم عن الحرية بشكل سريع ومقتضب. الا انها، في الوقت عينه، تضع الاسس الدينية والانتروبولوجية لهذا المفهوم، حين تربط بين الحرية والحق أي بين الحرية والمعرفة، معرفة وجه الله الابوي الحقيقي الذي هو اساس بشارة يسوع: تعرفون الحق والحق يحرركم... واذا حرركم الابن صرتم احرار حقا (يوحنا ٨:٣٢ و ٣٦).

اما كتابات الرسل، لا سيما رسائل القديس بولس، فتتناول مسالة الحرية من جوانب عديدة تستند كلها، في الواقع، الى الاسس الاولية للحرية في الاناجيل وهي اسس البنوة الالهية. ويهمنا في هذا المقال ان نكشف عن الوجه التحرري الخلاصي للحرية: ان شعور الانسان بكرامته الانسانية المبنية على الكرامة الالهية، كان له التأثير الاول في التوعية بالحرية. والحرية، كما نعلم، تعني امتلاك الذات قبل كل شيء؛ فهي بهذا المعنى الاساسي نقيض الاستلاب. فالانتساب الى الله هو الذي حرر الانسان ورد له ذاته، فلم يعد ملكا لأحد سوى لله الذي يقيم مع الانسان علاقة ابوية وليس علاقة عبودية. نلاحظ، اذن، كم كان عظيما هذا التحرر الاساسي، وكم كان جليلا في وسط القيود الظاهرية التي كانت تكبل المؤمنين الاولين. بهذا المنظار يمكننا، برايي، فهم بعض اقوال القديس بولس وتوجيهاته للعبيد: "ايها العبيد اطيعوا سادتكم... كطاعتكم للمسيح" (افسس ٦:٥) حيث كان يركز على الحرية الداخلية اكثر من تركيزه على الحرية الاجتماعية.

لقد برزت الحرية في العهد المسيحي الاول بوجهين متكاملين: الحرية في المسائل الدينية، والحرية في المسائل الاجتماعية.

الحرية الدينية

كانت تعني التخلص من الجمود وتحجر الشريعة الموسوية وحرفيتها. وقد حصلت هذه الحرية على يد يسوع اولا عندما هاجم عقلية الفريسيين والكتبة الحرفية والضيقة؛ ومن ثم جاء القديس بولس ليقضي تماما على هذه العقلية ببنائه الفكري المنظم المستند الى حجج دامغة. وتأتي اهمية هذا التحرر من نقيضه: فكما كان الشعب في حالة "انسحاق" في القضايا الاجتماعية، هكذا كان ايضا في علاقته مع الله. فلقد كان، اضافة الى ذلك، فريسة للاجتهادات الضيقة الميكانيكية ووصاية رجال الدين الذين كانوا، بحسب قول يسوع، "يحمّلون احمالا ثقيلة وهم لا يمسونها باصبعهم" (متى ٢٣:٤). فكانت الشريعة اذن قد اصبحت شكلا حقيقيا من العبودية ونيرا ثقيلا لم يتمكن من حملها معاصرو يسوع ولا آباؤهم من قبلهم، على حد تعبير زعيم الرسل في مجمع اورشليم (اعمال الرسل ١٥:١٠).

الا ان المسيحية التي حررت الانسان من اعتباطية الشريعة وجمودها وتسلطها الفوقي، لم تعف المؤمن من كل التزام، لان المؤمن قد ارتبط من تلقاء ذاته ونتيجة لايمانه بقانون الحب الذي له التزاماته الذاتية الخاصة؛ وقد نظرت المسيحية الى هذه الالتزامات كافعال ومواقف تحررية: فالمؤمن مدعو للتحرر من قيود عديدة مثل الخوف والقلق وعبادة المال والقوة والخطيئة بكافة اشكالها، ومعنى هذا ان المسيحية بنت سلوكية جديدة اعتبرتها محررة للانسان.

اما الحرية الاجتماعية

فقد كانت في قلب المؤمنين كهدف ودعوة ونداء للعالم ضد العبودية والفقر والاستغلال وغير ذلك من الآفات الاجتماعية. وكانت هذه الحرية مندمجة مع مجمل البشارة بيسوع التي كانت تنتقل بين الناس مثل النار في الهشيم. ومن الناحية النفسية كانت الحرية تعني ذلك التكتل الطليعي وذلك الشعور بالتفرد الخلاصي حيث كان المؤمنون مقتنعين بانهم ينتمون الى عالم جديد مغاير لكل ما يحيط بهم، وكأنهم ناجون بانفسهم في سفينة نوح جديدة، كما يشهد بذلك كتاب اعمال الرسل (٢:٤٧) حين يقول: "وكان عدد الناجين يزداد كل يوم".

٣- امكانيات الانسان:

لم تكن مسألة امكانيات الانسان الجديد في بدء المسيحية مسألة فكرية فلسفية، وانما كانت واقعا يترجم في الحياة اليومية بأشكال مختلفة. ولا بد ان نذكر ان كرامة الانسان وحريته كانتا من بين امكانياته الاساسية؛ وقد كان الشعور بهاتين الامكانيتين خلاصا حقيقيا. واذا اردنا الدخول في التفاصيل قليلا، وجب ان نذكر شعور اولئك المسيحيين الاوائل بامكانية تغييرهم للعالم وتغيير مصيرهم معه -رغم ضعفهم وقلة عددهم- سواء عن طريق تغيير بنية الفكر ام عن طريق تطوير الحياة الاجتماعية للناس. ونحن اليوم، عندما نقول ان يسوع علم الانسان ان لا يقبل وضعه الراهن كقدر محتوم عليه، وان الانسان سيد مستقبله، فانما نستند ليس فقط الى النصوص الخلاصية في الانجيل بل الى فاعلية هذه النصوص تاريخيا في حياة المسيحيين الاوائل ايضا.

ولا بد ان نذكر، بين امكانيات الانسان الخلاصية، امكانية مهمة جدًا، ألا وهي امكانية الخلود او كما يسميها الانجيل الحياة الابدية. فالانجيل كله، رغم كونه اندماجا في الحياة البشرية، فهو ايضا تجاوز لها: تجاوز للزمن وللصيغة الراهنة للحياة الانسانية. ان هذا التجاوز الذي يفتح آفاق الانسان الى عالم ما بعد الموت يحرر الانسان حقا من حدوده الطبيعية، كما يحرره من جبنه وانغلاقه وأنانيته والنظرة المحدودة الى ذاته: "لا تخافوا ممن يقتل الجسد ولا يقدر ان يقتل النفس"، وقد كان يسوع نموذجا فذا لنا في هذا المجال ايضا اذ حررنا بموته، بتوعيتنا بأن ذلك الموت لم يكن موتا بل قيامة وحياة جديدة ظافرة.

هذا قليل من كثير مما يمكن ان نكتشفه في مفهوم الخلاص بصفته تحريرا وتجديدا وانعطافا وانقلابا في الحياة الانسانية. وقد تعمدت ان انقل مفهوم الخلاص كما يظهر لنا في العهد الجديد، ثم بينت تأثير هذا المفهوم على حياة المسيحيين الاوائل، على أمل ان اوفق، في

مقالة قادمة، الى عرض بعض الافكار عن تجسيد الخلاص في العالم المعاصر بالقـــاء بعـــض الضوء على مشاكل هذا العالم وطموحاته لأبين من ثم كيف يمكن ان يشمل خلاص يسوع هذه المشاكل وهذه الطموحات.

(١) المشيحانية: عقيدة كان الناس يظنون بموجبها ان الله سيرسل ملكا يحكم باسمه بالعدل وينتصر على اعدائه.

(٢) انتربولوجية: كل ما يخص حياة الانسان كانسان.

ملفات 1978

- زائير، البحث عن الاصالة

كانون الثاني/ ص٨ - ١٤   ن.ع.[1]

□ خواطر في الصلاة[*]

شباط/ ص٥٨ - ٦٥   الاب خليل قوجحصارلي

- زيمبابوي: ولادة عسيرة

آذار/ ص١٣٠ - ١٣٧   الاب بيوس عفاص

- الخلاص في العالم المعاصر

نيسان/ ص ١٦٥ - ١٧٤   الاب لوسيان جميل

+ الايقونة

ايار/ ص٢٠٤ - ٢١١   الاخت ماريان ابراهيم

- اضواء على كنيسة السويد

حزيران/٢٦٩ - ٢٧٨   بينكث — ثير مولاندر (تعريب الاخت فداء)

- الآباء والابناء، في حوار/ استفتاء

ايلول/ ص٣٢٠ - ٣٢٨   ماهر حربي

● عدد خاص: البابا بولس السادس[**]

ايلول/ ٢٨٩ — ٣١٩

+ بوذا والبوذية

تشرين الاول/ ص٣٦٣ - ٣٧١   الاب لويس ساكو[2]

- الارجنتين: متى تشرق الشمس؟

تشرين الثاني/ ص٣٩٤ - ٤٠٢   الاخت سانت اتيين

+ الراي العام في الكنيسة

كانون الاول/ ص٤٥٦ - ٤٦٤   الاب بيوس عفاص

(*) نشر هذا الملف في "كتاب رحلوا"/ ص٩٠-٩٦.

(**) اثبتنا في "المختار من الاعداد الخاصة" مقالين فقط: بولس السادس، رجل الرجاء في عصرنا (أ. لويس ساكو)، الحركة المسكونية في مفهوم البابا بولس (أ.رينيه بوبير).

(١) كان هذا الملف قد أسند إلى السيد نوئيل عرب، ولم يصلنا في اوانه، فكتبه رئيس التحرير.

(٢) للاب (المطران) لويس ساكو ٦٥ مساهمة (من بينها ١٤ ملفا)، وبضمنها ٥ إجابات و ١٠ "من وحي الانجيل"؛ نشرت له ٤ مقالات في "المختار". كان عضوا في هيئة التحرير الاستشارية بالموصل.

الايقونة

امام الفن الايقونوغرافي، يقف المرء صامتا، متأملا، في محاولة للاصغاء الى ما تحمله الايقونة من رسالة، فالايقونة تنطق في صمتها البليغ، وتبلّغ رسالتها لمن يعرف ان يصغي اليها في خشوع.

هذا الملف دراسة جادة في فن الايقونة وما ينطوي عليه من ابعاد لاهوتية وروحية عميقة.

"ما ينقله الكلام بالسمع يفصح عنه الرسم بالصمت"

(القديس باسيليوس)

بعد ان بقيت الايقونات، لمدة طويلة، مدفونة في عالم النسيان ومخفية في عتمة الكنائس او ضائعة وراء الاغلفة المعدنية، هوذا عصرنا يكتشفها اليوم ويحاول ان يلج الى فهمها.

تنتشر الايقونات في بقعة جغرافية واسعة كانت قد تأثرت، الى حد كبير، بالحضارة والفن البيزنطيين. وتضم هذه البقعة بلاد البلقان وروسيا وجنوب بولونيا وسلوفاكيا وجيورجيا وارمينيا ولبنان وسوريا وبلاد الحبشة.

(ايقونا) كلمة من اصل يوناني تعني (الشبه). وتدل، لدى المسيحيين الشرقيين، على صور تمثل المسيح او احد القديسين او جانبا من حياقم، وكانت هذه الصور موضوع اكرام المؤمنين وعبادهم. ونظرا لما تمثله الايقونة، كونها تؤكد على حضور الشخص الذي ترمز اليه، فان التأمل فيها يقود المؤمنين الى العبادة. انها علامة منظورة للحضور غير المنظور.

"ايها الرب الاله، انت خلقت الانسان على صورتك، فاتت الخطيئة وشوهت هذه الصورة. غير انك، بتجسد مسيحك الذي صار انسانا، اصلحتها واعدت لقديسيك مقامهم السابق. فحين نكرمهم، نكرم صورتك وشبهك، ومن خلالهم، نمجدك انت نموذجهم المثالي".

(من صلاة تبريك الايقونات)

لمحة تاريخية:

الاسس الكتابية للايقونة

قبل التجسد، كانت الشريعة في العهد القديم تمنع الصور منعا باتا، خشية السقوط في عبادة الاصنام. وكان الفن الزخرفي المعتمد على الاشكال الهندسية وحده مقبولا للتعبير عن الشعور باللامتناهي. وان فكرة تعالي الله، نجدها، لدى الاسلام، في الفن غير التشكيلي.

ارتد الانسان المخلوق على صورة الله، عن ربه، فاتسعت الهوة بينهما حتى انه غرق في (عدم التشابه). اما الملائكة، فهم وحدهم حافظوا على طبيعتهم خالصة، وكان الله نفسه قد امر أن تنحت لهم تماثيل ترمز اليهم (سفر الخروج ٢٥:١، ١٧-٢٢؛ سفر العدد٧:٨٨-٨٩؛ حزقيال١).

ان هذا التحديد في الصور هو بمثابة مرحلة تطهير في انتظار ما هو ات. اتى المسيح وحرر البشر من الاصنام حين كشف عن حقيقة الوجه الانساني لله. فالله يتعالى على كل صورة، غير ان وجهه المتجه نحو العالم يصبح منظورا من خلال صورة لائقة، ألا وهي صورة الانسان. لقد قرر الله أن يتجسد رغبة منه في ان يضحي انسانا ويجعل من انسانيته تجليا الهيا ومكانا وايقونة حية لحضوره.

بعد هذه النظرة السريعة الى معنى التمثيل، نأتي الى هذا التساؤل: ما هي اصول الايقونة كفن قائم بذاته؟

اصل الفن الايقونوغرافي

يرجع اصل الايقونة الى التاريخ القديم. ان فن الصورة، سواء كانت صورة رسمية ام شخصية، كان شائعا في العالمين الهيلليني والروماني اللذين كانت تربطهما ببيزنطية علاقات وثيقة. ومن فن الصورة استمد المسيحيون الاولون الطرق التقنية والمواد والمهارة الخاصة لتحقيق ملامح القديسين. ففي الديماميس رسمت صور مختلفة تمثل مشاهد من الكتاب المقدس ومن قصص الشهداء واستشهادهم. وهكذا استمرت عوائد العصر القديم دون انقطاع.

ومنذ القرن الرابع انتشرت عادة تكريم الصور، وفي اواخره أخذ احد مشيّدي الكنائس في القسطنطينية يغطي الجدران بصور مستقاة من مواضيع الكتاب المقدس، حتى انها اصبحت بمثابة "كتاب مقدس للفقراء"!

وفي نهاية القرن السادس اعلن البابا غريغوريوس الكبير موافقته على استخدام فن التصوير الزيتي في الكنائس، وكانت ايقونات المسيح وامه قد انتشرت انتشارا واسعا آنذاك.

وفي سنة ٦٩٢ دعا مجمع كويني سكست الفنانين الى العدول عن رسم المسيح بشكل حمل او سمكة، وان يصوّروه بهيئته الانسانية، وهكذا اعطي لصورة المسيح اساس لاهوتي يقوم على التجسد.

غير أن الامور تأزمت فيما بعد: ففي عام ٧٢٦ أشهر الامبراطور البيزنطي ليون الثالث حربا على الايقونات وأمر بتحطيمها، واستمرت حملة محاربة الايقونات حتى القرن التاسع. وكان الافراط في تكريم الايقونات هو السبب الرئيس لشن هذه الحملة، اذ ان العبادة الشعبية كانت تميل الى الظن بأن في الايقونة حضورا شبه حقيقي للشخص الذي كانت تمثله! حتى أن يوحنا الدمشقي أعلن في المجمع المسكوني السابع المنعقد في نيقية عام ٧٨٧: "ان الصورة هي شبه. انها تعبر عن الاصل، غير ان هناك فرقا بين الاثنين".

ليست الايقونة سوى نسخة عن اللامنظور. وقد يجد المؤمن، وهو يتأمل المنظور، مـــا يساعده على التأمل في غير المنظور، لما هناك من شبه. غير ان المجمع المـــسكوني الـــسابع، بالرغم من النجاح الذي احرزه، لم يوقف المعارضين من الاســـتمرار في تحطـــيم وحـــرق الايقونات. ودامت هذه الحملة حتى سنة ٨٤٣ حين تبنت القضية الامبراطورة تيـــودورة، فدعت الى عقد مجمع محلي، في عهد ميخائيل الثالث، صدر عنه قرار يسمح بتكريم الصور علنيا.

وأخيرا أوعز المجمع المسمى بـــ (الفصول المئة) عام ١٥٥١ الى كافـــة الاســـاقفة "ان يكونوا على أتم الحرص كي يتحاشى الايقونوغرافيون النزوات الشخصية في التعبير الفـــني ويحافظوا على التقليد".

ان المؤمن، انطلاقا من تأمله للصور، يتمنى هو ايضا ان "يعكس، كما في مرآة، مجـــد الله" (٢قورنثية٣:١٨؛ ٤:٦). فأجمل الايقونات هي بالحقيقة الانسان ذو الوجه الجديد المشرق.

الفن الايقونوغرافي

ان الشبه، بين الصورة وبين القديس الذي تمثله الصورة، عامل اساسي يمكّن الايقونـــة من أن تبرز دورها في الوساطة بين العالم الالهي والعالم الارضي. لذا كان على الـــصورة ان تعكس بأمانة ودون تحريف من تمثله.

لقد حدد مجمع ١٥٥١ صفات فنان الايقونة كما يلي: "عليه ان يتحلـــى بالتواضـــع والوداعة والتقوى. ان يتجنب اللهو ويعيش في سلام، متحاشيا الحسد. أن يمتنع عن شـــرب المسكرات وعن السرقة. ان يحافظ على طهارة النفس والجسد. واذا كان لا يقـــوى علـــى حياة العزوبة فليتزوج. وعليه اخيرا ان يراجع الاباء...".

نرى ان هذه القواعد العامة تدعو الفنان الى ان يجعل حياته تنسجم مع سمو الفن الذي يمارسه. وبالاضافة الى ذلك، يُطلب منه ان يمتلك المواهب الفنية والكفاءة الضرورية.

وغالبا ما كان فنانو الايقونة يشكلون شبه مدرسة ويقومون سوية بعمل مشترك، كل حسب مواهبه وكفاءاته: فبعضهم كان يرسم الوجه، فيما يرسم البعض الاخر الثيـــاب او المناظر. اما المبتدئون، فكانوا يقومون بتهيئة الاخشاب ويضعون الطبقة الاولى من الطلـــي. كان الفنان، بعد اعتكافه على الصوم والصلاة، يرسم ملامح الشخص: انـــه لا يعتمـــد في ذلك على وحي خياله، بل كان يتبع غالبا النماذج التي حددها التقليد الايقونوغرافي، غـــير ان هناك دوما مكانا للتلقائية والابداع. ونلاحظ فعلا تشابها كبيرا بين الايقونات التي تعالج عين الموضوع؛ غير اننا لا نجد ايقونة واحدة تنسخ كليا ايقونة اخرى في كافـــة ملامحهـــا وتفاصيلها.

اما من حيث الزمن، فكل شيء في الايقونة يتم خارجا عـــن حـــدود الـــزمن، لان الايقونوغرافية ليست زمنية. ففي ايقونات مار يوحنا المعمذان، مثلا، نرى يوحنا واقفا على شاطئ الاردن، ونلاحظ في احدى زوايا الايقونة عينها رأسه على طبق.

وفيما يتعلق بالابعاد الحقيقية للاشخاص والاشياء، يبدو ان الفنان لا يتقيد بها مطلقا. انه يلمح الى حضور الكون، فلا يرسم مناظر طبيعية او مدنا، غير اننا نلاحظ ان المناظر والدور والاشجار تتخذ موقف الاشخاص لترمز الى خضوع الطبيعة للانسان.

والايقونوغرافية لا تبالي بالعمق قط. فالوجوه تبدو وكأنها تتخلى عن السطح المستوي للايقونة لتتقدم نحو من يقف امامها متأملا: الله هو الذي يأتي لاستقبالنا، لانه هو احبنا الاول.

اما بالنسبة الى الاشكال: فالاجسام تمتد وتنطلق في اتجاه النقطة المركزية. فالتناظر الموجود بين اجزاء الايقونة يشير الى المركز الذي له تخضع كل الاشياء. أما وضع الاشخاص وحجمهم، فيتوقفان على اهميتهم ومدلولهم. الاجساد في الايقونة تخلو كليا من الطابع الجسداني، فهي رشيقة تطفح بالرقة والدعة لتؤكد على ما يسكنها من قوة روحية. ويحتل الوجه المكان الرئيس كونه يعبر عن الروح. اما العينان، فلا تنظران، لا الى امام ولا الى اعلى، بل الى الداخل. وتبدو الاذنان الناعمتان وكأنهما تصغيان الى الصمت الابدي. اما العنق فهو غالبا ما يبدو قويا كونه يحتوي على قوة نفس الله. وفيما يكون الجبين عادة عريضا ومرتفعا ليترجم هيمنة الحياة التأملية، يبدو الوجه وكأنه يحدق النظر في نظر المتأمل، فيستقبله ويوثق روابط الشركة معه. كل ما في الايقونة يساعدنا لنحيا في الداخل.

تحليل ايقونتين

١ – ايقونة "الثالوث الاقدس"

"يجب ملازمة الاختلاء الصامت قبل ان تبدأ الايقونة بالنطق. كما ان الاستسلام لجمالها يؤدي تدريجيا الى قلب رسالتها" (بول افدوكيموف)

ايقونة الايقونات انجزها الراهب اندريه روبليف عام ١٤٢٥. ويمكن القول دون مغالاة انه لا يوجد تعبير يضاهي تعبيرها، من حيث قوة التماسك اللاهوتي ومن حيث غنى الرمزية ومن حيث الجمال الفني.

تشير الايقونة الى زيارة ثلاثة حجاج لابراهيم حسب رواية الكتاب المقدس (تكوين١٨: ١-١٥). وقد تعمد الفنان بعدم رسم ابراهيم وسارة ليحملنا على الولوج في سر اكثر عمقا.

ان الحجاج السماويين الثلاثة يؤلفون "المجلس الابدي"، وللحال يتبدل المشهد ويتخذ معنى جديدا: فخيمة ابراهيم تصبح هيكلا، وبلوطة ممرا تضحي شجرة الحياة، والعجل المقدم للطعام يستعاض عنه بكأس الاوخارستيا... اما آمن ابراهيم، ومعه التقليد كله، بانه استقبل الله ذاته؟

الله محبة، وفي وحدانية طبيعته هو ثالوث، ومحبته للعالم هي انعكاس لمحبته الثلاثية. عطاء الذات –وهو اقوى تعبير عن الفيض– مشار اليه بالكأس، وها ان الملائكة ملتفون حول الغذاء الالهي.

الملائكة الثلاثة يبدون في راحة تامة، غير ان هذه الراحة هي بمثابة الخطاف حقيقي وخروج عن الذات. في الايقونة حركة تبدأ من القدم اليسرى للملاك الذي عن اليمين، وتمتد الى انحناءة رأسه، ثم تنتقل الى ملاك الوسط فتجذب، دون أية مقاومة، الكون الذي يشمل الصخرة والشجرة، وتنتهي في الوضع العمودي للملاك الذي عن اليسار حيث تستقر في راحة كما في اناء. الاتجاه العمودي في الهيكل وفي العيدان الثلاثة ترمز الى خطوط القوة العمودية وتشير الى رغبة ما هو ارضي في الارتقاء الى ما هو سماوي.

وتبرز في ملائكة روبليف الوحدة والمساواة؛ فبالكاد نستطيع ان نميز ملاكا عن الاخر. غير ان الفرق بينهم ناتج عن الموقف الشخصي لكل واحد تجاه الاخرين. اله واحد في ثلاثة اقانيم، متساوين في الجوهر والقدرة: هذا ما تشير اليه العيدان الثلاثة المتساوية والتي هي علامة السلطان الملوكي الذي يتمتع به كل من الملائكة الثلاثة. فالملاك الذي عن اليمين هو الروح القدس، والملاك الذي عن اليسار هو الابن، والملاك الذي في الوسط هو الآب.

وراء الآب توجد شجرة الحياة، كونه الينبوع. وصولجان المسيح يؤشر الى البيت/ الكنيسة التي هي جسد المسيح. أما الروح، فهو ممثل بـ "الصخور المدرجة"، انها الجبل، علية صهيون، جبل طابور.

وتدل المائدة ذات الشكل المستطيل على اربعة اطراف العالم، أي الجهات الاربع والتي كان آباء الكنيسة يرون فيها رمزا للاناجيل الاربعة. تلك هي اشارة الى شمولية كلمة الله.

اما الالوان، فلها لغتها الخاصة. لا اثر للظل في هذه الايقونة. وتبدو اجزاؤها خالية من الاضاءة، غير ان كل جزء فيها يبعث نوره الخاص. ان كثافة الالوان في الوجه الوسطي، يزيده جمالا التباين الناتج عن بياض المائدة.

وينطلق نداء ملح من هذه الايقونة ليقول: "كونوا واحدا كما انا والآب واحد نحن".

٢- ايقونة (ده ايزيز)

"طوبى للمدعوين الى عرس الحمل".

"ان ايقونة "ده ايزيز" تنفتح على رؤيا يصمت امامها كل لسان ليترك المجال لسكوت الكلمة" (بول افدوكموف)

ايقونة "ده ايزيز" (حوالي عام ١٦٠٠) تحدثنا بصمت عن عرس الحمل في اطار مناخ اسكاتولوجي. فمريم -وهي العروس- صورة للكنيسة، ويوحنا صديق العريس، يدعوان البشرية الى الاشتراك بفرح الملكوت الكامل.

ترينا هذه الايقونة المسيح الكاهن جالسا على العرش، مرتديا الحلة الحبرية وهو يبارك البشر بيده اليمنى. انه ايضا الديان والمعلم، يمسك بيده اليسرى كتاب الانجيل. انه المفسر

الوحيد لكلامه، وهو يقبل كل البشر برحمته. انه ملك المسكونة، وتشير الى ذلـــك قدمـــه الموضوعة على المستطيل الذي يرمز الى الارض.

في الوسط يرتسم اتجاه عمودي: انه رمز لتعالي الانسان- الاله. وهذا الاتجاه العمودي يحدث حركة تصاعدية في الانسان الذي يبحث دوما عن الله. اما الاصبع "السبابة" للمسيح والمشيرة الى الاعلى، فهي تتجه نحو خط وسطي يؤدي الى السماء.

ومن كلا جانبي هذا الخط العمودي، يلاحظ في الايقونة خطان يمـــيلان الى الانحنـــاء ليقترنا بالخط الوسطي. وهذا الانحناء يرمز الى الاستعداد الطيب لقبول الـــدعوة. يوحنـــا المعمذان ومريم منحنيان في اتجاه الكلمة المتجسد وهما يصغيا اليه بكل انتباه. ويظهر علـــى قناع مريم ثلاثة كواكب ترمز الى بتوليتها قبل الولادة واثناءها وبعدها. يداها الممتـــدتان إلى ابنها تلتمسان الخلاص للبشر.

اما يوحنا الذي نسب اليه التقليد نعمة الشفاعة -لا يرفض الصديق شـــيئا لـــصديقه (توما الاكويني)- فهو يحمل العالم، على مثال مريم، في صلاته. انه واقف هنا وكله فـــرح وابتهاج لسماع صوت العريس، وفي شخصه يعترف كل البشر انهم ابناء، في الابن، ومن ثم اصدقاء العريس.

مع مريم ويوحنا، يؤلف المسيح الحلقة الكاملة للصداقة، فعلينا من ثم ان ننضم الى صحبتهم.

هناك ايضا خط افقي يخترق الايقونة جامعا بين حركة الكـــتفين وحركـــة العـــرش الملوكي، وهذا الخط يشكل الاذرع الاربع للصليب الذي به تم خلاصنا والذي به ســـنرى المسيح/ الكاهن يوم الدين.

لا ظل البتة في هذه الايقونة: لان الشمس الالهية لا غروب لها.

بوذا والبوذية

تميزت السنوات الاخيرة، في مختلف الديانات بـ "عودة الى الينابيع"، بحثا عن القيم الاصيلة التي من شأنها ان تروي عطش الانسان الى المطلق، وقد سئم حياة طغت عليها المادية بكافة اشكالها واصبح فيها آلة تستهلك بقدر ما تنتج...

ولما كانت الكنيسة قد عمدت هي الاخرى الى تقييم "كل ما هو حق ومقدس" لدى الديانات -وكان المجمع المسكوني قد اصدر تصريحا في علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية ومن بينها البوذية- رأينا ان نقدم لقرائنا نبذة، وان سريعة، عن هذه "الديانة" بقلم الاب لويس ساكو، وقد بدأ اولى مساهماته في الفكر المسيحي عام ١٩٧٤ حين انضم الى هيئة التحرير الاستشارية في الموصل.

بوذا بين الاسطورة والواقع

ما اكثر الاساطير والروايات التي حيكت حول حياة بوذا، مما حدا ببعض العلماء الى الشك في حقيقة وجوده التاريخي، وادعوا انهم لا يرون فيها سوى "انسنة" لملحمة شمسية.. على غرار ملحمة كلكامش وغيرها.

غير ان المعطيات الاثرية واللغوية تدفع المؤرخين الى الاعتقاد بوجود فعلي لشخص اسمه "سيدارتا غواتما" في اصل الجماعة والديانة البوذية اذا صحت تسميتها بديانة. ومرد هذه الاساطير ان حياة بوذا -المستنير، المتيقظ- لم تكتب الا بعد وفاته باربعة قرون. لذا اضيف عليها الكثير، بحيث جعلت ولادته عجائبية وكذلك حياته ووفاته. فقيل بان "رئيس الملائكة" نظر الى الارض من فوق السماء وبعث بشعاعه الى الارض على شكل فيل صغير الى الملكة "مايا" زوجة الملك "زكيا"! وقيل بانه ولد وسط انغام وامطار من الزهور، ومن دون تدخل رجل، لاستحالة وجود رجل لائق يصبح له ابا! لقد ولد اكثر من (٥٠٠) مرة! ويتذكر ولادته الاولى التي ترجع الى سنة ٤٣٢ ق.م.!

لنترك هذه الاساطير ولنعد الى واقع حياة بوذا التاريخي: يتفق غالبية العلماء على ان مؤسس البوذية سيداراتا غواتما -وهذا هو اسمه الشخصي- ولد في جنوب الهند في وادي نهر الكنج، في حضن عائلة عريقة ثرية ومعتبرة، سنة ٥٦٠ ق.م، وكان ابوه "سودوانا" حاكم امارة "ساكيا"-نيبال الحالية- وكانت امه الاميرة "مايا".

ترعرع سيداراتا في ظل هذه العائلة المالكة حيث توفرت له التربية الجيدة والعيشة الرغيدة ونمت مواهبه. ولما بلغ السادسة عشرة، اقترن -حسب العادة الجارية عصر ذاك-

بفتاة جميلة من اقربائه اسمها "ياشودارا". غير الهما لم يعيشا معا زمنــا طــويلا، ولم يــنعم سيداراتا بكل ما وفرته له عائلته. فازاء واقع حياة الانسان والامه ومعاناتــه، عــزم علــى البحث عن حل لهذه المشكلة المزمنة التي كانت تشغل باله وتنغص عيشته.

وذات يوم، فيما هو في الطريق، صادف شيخا هرما يتعكز. ثم ما لبث ان رأى مريضا مجنونا يولول، وفي الختام التقى بجمع غفير يحملون جثة انسان الى المحرقة. كل هذا زاد مــن قلقه، وكثرت تساؤلاته عن مصير الانسان وآخرته، وظل يعاني من هذا الوضع الى ان التقى براهب براهماني فاضل يدعى "بيكشو" اطمأنت اليه نفسه، ففاتحه بكل مشاكله وتساؤلاته.

كان هذا اللقاء نقطة تحول جذري في حياة بوذا، اذ قرر ان يترك قومه والعالم ويهرب الى الغابات، بعيدا عن الناس للترهب. فقام ليلا وترك زوجته وابنه المولود حديثًا "راهولا"، والتاج والمجد ورغد العيش، واعتزل الناس في غابة قريبة، يبحث عن الحقيقة الــسميا الــتي يجب ان تفوق الالهة التي في نهاية الامر لم تقدر ان تخلص الانسان من الشيخوخة والمــرض والعذاب والموت. وراح يمارس الزهد الشديد والتجرد الكامل، وكان عمره ٢٩سنة.

وبعد ست سنوات من الزهد والتجول في وادي نهر الكنج، صادف بوذا كبار معلمي التصوف، فهب يدرس نهجهم، واخضع ذاته لقانون صارم من ضبط النفس، وعدم الحركة، والصوم. الا ان ذلك لم يرضه، أدرك ان المرء لا يحصل على الحقيقة بتعذيب الجسد ومحاسبة الحواس. فترك الديانات التقليدية واساليبها واستمر في بحثه. وفي مساء احد الايــام، بينمــا كان جالسا تحت شجرة تعرف بشجرة "الحكمة"، شعر بانه توصل الى فهم الحقيقــة وان النور ادركه. لذا سمي فيما بعد "البوذا"، أي المستنير، المتيقظ، الكامل الذي لا يحتــاج الى التنقية عن طريق الولادات المتكررة...

وبعد حصوله على النور، القى بوذا موعظته الاولى على رفاقــه الخمــسة في مدينــة "بيناريس" الذين اشركهم في خبرته الروحية. وظل بوذا خلال ٤٥ سنة يجوب البلاد كلها يتلمذ الناس رجالا ونساء، ملوكا وعاميين، من كافة طبقات المجتمع الهنــدي، بــدون أي تمييز، وينظمهم جماعات رهبانية.

وبعد حياة طويلة شاقة من الزهد والعطاء، توفي بوذا حوالي سنة ٤٨٠ ق.م بعــد ان بلغ النهاية السعيدة "النيرفانا" التي كان ينشدها طوال حياته، تاركا وراءه تلاميذ كــثيرين يسيرون على خطاه، ويكمّلون عمله.

تعليم بوذا

هل يمكننا اعتبار بوذا من بين مؤسسي الديانات؟ هل يمكننا اعتبار البوذية حقا دينــا؟ فبوذا لم يكتب أي شيء، ولم يدّع الالوهية او النبوة، ولم يتلق الوحي من فوق، ولم يعلــن اية عقيدة ايمانية ما ورائية، انما اكتفى بالقاء المواعظ والارشادات مؤكدا -في جميع لقاءاته- ان الانسان سيد ذاته، وهو المسؤول الوحيد عن خلاصه وهلاكه، وبامكانه، ان شــاء، ان

يصبح "بوذا" أي مستنيرا. ولخص بوذا "مذهبه" في عبارات مركزة يسهل حفظها، معتمدا في ذلك على الحوار والمثل. وجمع حوله الكثير من المريدين، وكان يحرضهم على السعي الحثيث لتكوين الذات وترقيتها وتحريرها من كل انواع الاستلاب. وقد منح بوذا الحرية المطلقة لأتباعه، عاملا بمبدأ المسؤولية الفردية وحرية التفكير، فبواسطة هذه الحرية والمسؤولية وقوة الملاحظة والفهم والادراك والتحرر من الاهواء والنزوات، يبلغ النبع "النيرفانا" أي النهاية السعيدة بواسطة التقمص.

البوذية في العالم

من الصعب اعطاء احصائية دقيقة عن عدد البوذيين في العالم، اذ يصعب تمييز البوذية عن سواها من ديانات الشرق الاقصى. ولكن حسبما ورد في الموسوعة البريطانية لعام ١٩٧٦ يربو عدد البوذيين في العالم على ٢٢٤ مليون نسمة، وهم منتشرون في الهند وسري لانكا وبيرمانيا وتايلاند وكامبوديا ولاوس وفييتنام والصين

نرى ان بوذا انتهج في الواقع مسلكا يخلص فيه الانسان من الشهوات والاهواء.. مصطنعا ديانة رهبان.. يكون فيها الزواج محتملا، يغض الطرف عنه.. وتحتل فيه المرأة مكانة هامشية متواضعة، وبامكاننا تلخيص البوذية على النحو التالي:

ففي رأي بوذا، هناك حقائق اربع سامية مفادها ان الحياة ضرب من الالم والمعاناة في الولادة والمرض والشيخوخة.. وان الشهوة هي السبب الرئيسي للالم: شهوة العاطفة والحياة.. ولوقف هذا المد من الالم، ينبغي القضاء على الاهواء والرغبات بالانقطاع والعزلة والتحرر من كل ما يشغلنا من شؤون العيش، وقد صاغ بوذا تعاليمه في عشر وصايا:

١- لا تقتل أي كائن حي
٢- لا تسرق
٣- التزم بالسيرة العفيفة
٤- لا تكذب
٥- لا تتناول المسكرات
٦- لا تتناول الطعام بعد الظهر
٧- لا ترقص
٨- لا تتزين
٩- لا تنام على فراش وثير
١٠- لا تتسلم اية نقود

من اقوال بوذا

- **باللطف تنتصر على الغضب وبالخير تنتصر على الشر، وبالكرم تنتصر على البخل وبالصدق تنتصر على الكذب.**
- **هناك اربعة انواع من الاصدقاء يجب ان نعتبرهم اعداء: الصديق الذي يستغل صديقه**

الصديق الذي لا يؤدي خدمة الا بالكلام

الصديق الذي يتملق

الصديق الذي يسبب خراب صديقه

ونلاحظ ان القواعد الخمس الاولى هي لمجموع الشعب، بينما الباقية هي بالاحرى للرهبان. ويوصي بوذا اتباعه بالتغلب على الغضب بالشفقة، وعلى الشر بالخير، وعلى الكراهية بالحب. وهذا التسامح الديني قلما نجده في تاريخ الديانات القديمة.. لقد كانت فكرته عن الدين خلقية خالصة، تقتصر على سلوك الناس دونما اهتمام بالطقوس الدينية والممارسات او بما وراء الطبيعة "الميتافيزيقية". انه يرفض مبدأ الطبقية ومبدأ التضحية تكريما للالهة، ويعتقد مبدأ التقمص كطريق وحيد لتحقيق النيرفانا والحصول على السعادة الكلية بعد الموت..

النيرفانا

النيرفانا هي حالة المعرفة الكاملة والنهاية السعيدة والتحرر التام من الالم والولادات المتكررة. وحين يتكلم بوذا عن النيرفانا، فهو لا يقصد الفردوس، وإن كان لم يقطع كليا الصلة بالتقاليد والمعتقدات الهندية بخصوص الجنة.. وان بوذا ذاته لم يدرك تمام النيرفانا الا بعد سلسلة طويلة من الوجود الارضي المتكرر الذي ختم بالاستنارة.

النيرفانا هي الحالة النهائية للسعادة والراحة بعد ان يكون الانسان قد نجا من العالم الظاهر. اذ ذاك يصل الانسان الى التجرد الكامل من كل ظواهر حياته، ولا يشعر في ذاته سوى الوجود الشامل، ولن يقدر ان يميزها عن الكون (Cosmos) الالوهة الجوهرية والطبيعية.. أي انه يستحيل الى ذات الكون، وهذا ما يسمى بالتقمص.

الخير والشر

الخير والشر مشخّصان في مفهوم بوذا. فالشر هو ترضية رغبات النفس ونزواتها، وهو الاذى المنقول الى الاخرين. اما الخير، فهو تضحية الذات في سبيل الاخرين واحترام حياتهم وارائهم ولو كانوا اعداءنا. هذا هو موقف اللاعنف الذي تتمسك به البوذية بشدة والذي تعتبره احدى الفضائل الكبرى، مما دفع بأحد فلاسفتها الى القول: "اذا لا نقدر ان نهرب من الافعى، فالافضل ان تلدغنا من ان نقتلها".

ولا يوجد في البوذية مكانا "للأنا". فالمحبة لا تكون فعلا عاطفيا لمساعدة القريب او اكراما للالهة، لكنها تؤشر خطوة الى الامام في الطريق الوعرة للتجرد الشخصي، وتؤكد على الاخوة الشاملة في الكون وبين الكائنات والطبيعة.. ولقد جاء على لسان احد اقطاب البوذية هذا القول: "في قلبك اسمع دقات قلبي".

الجماعة

اذا اعتبرنا البوذية دينا، وهذا صعب جدا، فالاختلاف واضح بينها وبين بقية الاديان. فهي لا تحتوي على رتب وطقوس واسرار وصيغ ايمانية عقائدية. والبوذي "العلماني" هو الذي يقبل تعاليم بوذا ويطبق القواعد الاخلاقية والسلوكية التي اوصى بها في خطبه

ومواعظه وارشاداته، ويمد يد العون الى الجماعات الرهبانية. غير ان العلماني -بعكس الراهب- لا يتوصل في هذه الحياة الى التحرر التام لكونه لم يفلت من الشهوات، علة الالم..

الرهبانية

البوذية هي، في الواقع، ديانة رهبان، غير ان الراهب البوذي لا يمارس اية مهمة كهنوتية، انما بمقدار تقدمه في طريق الكمال والتحرير يكون مثالا وقدوة للعلمانيين. اما الحلل والرتب الموجودة الان، فهي دخيلة ومتأخرة. ولا يوجد في البوذية نذور مؤبدة. فالراهب البوذي يتمتع بحرية مطلقة ويتبع بكل طواعية النصائح التي ترتب تصرفاته ومواقفه وتنظم علاقاته مع الناس بحيث تكون حياته تعبيرا لافكاره، وكل شيء يجب ان يقوده الى القمة.. النيرفانا.

يقول بوذا: "هناك شيئان عليكم تجنبهما، ايها التلاميذ: حياة الملذات التي هي شيء دنيء وباطل، وحياة التقشفات التي هي غير مجدية ايضا وباطلة لان التقشفات وضبط النفس ليست سوى مرحلة يجب اجتيازها للوصول الى النيرفانا".

القوانين الثلاثة

الى جانب القوانين الدقيقة كالنوم على جنب اليمين وغسل الجبهة والاقامه خارج المدينة والامتناع عن اكل اللحوم... وضع بوذا ثلاثة قوانين اساسية:

١- **الفقر**: لا يحق للراهب ان يملك سوى "ثلاث قطع من الملابس وموسى حلاقة وابر وحزام ومصفاة وقدر واحد ووعاء للتسول". ويحصل على قوته اليومي عن طريق الاستجداء الصامت، مما يساعده على القضاء على الكبرياء. كما ان الراهب لا يتناول الا وجبة واحدة من الطعام في الظهيرة -حوالي الساعة العاشرة، اما بعد الظهر فكل انواع الطعام ممنوعة. اما الماء فلا باس.

٢- **اللاعنف**: على الراهب ان يتمسك بشدة باللاعنف، وهذه سياسة اللاعنف قد لطفت كثيرا من وطأة الحروب.

٣- **العزوبية**: يلتزم بها الراهب لان كل علاقة مع المرأة تجره الى التشبث بها وبالاطفال. وفي رأي بوذا لا تتفق الحياة الزوجية مع الحياة الرهبانية لان المرأة مثار الاهواء وسبب تضعضع داخلي للانسان. وقد ظل يرفض زمنا طويلا فكرة القبول بتأسيس جمعية رهبانية نسائية. ولكن مما يلفت النظر ان الراهب يقدر ان يترك الحياة الرهبانية متى يشاء وبدون أي احراج. غير ان قسما من المذاهب البوذية لا تفرض العزوبية على الرهبان، "لان الحب -في معتقدهم- بوسعه ان يقودهم الى الاستنارة".

الحوار بين المسيحية والبوذية

ان المسيحية والبوذية مبنيتان في الاساس على الحوار. فالمسيح وبوذا عاشا زمنا طويلا مع تلاميذهما وتحدثا اليهم في الصميم. والانسان من طبيعته كائن الحوار، لذلك لا ينبغي ان نحوله الى اداة او شيء، بل يجب ان نلاقيه بمجمل وجوده وان نقبله كما هو في الواقع وفي الباطن.

ويرسم الامبراطور البوذي "اصوكا" مقومات الحوار قائلا: "الرغبة الصادقة لضبط النفس ونقاء الفكر". ويقول بوذا في احد ارشاداته: "بمقدار قدرة الناس على اللقاء في الوفاق والنمو فيه، بقدر ذلك يكون نجاحهم مضمونا". ان استعدادا كهذا يزيل كل انواع الضجر ويحطم الازدواجية والغرور والنفاق. فاللقاء ليس محادثة، انما هو عطاء -لا عطاء شيء- بل عطاء الذات، لذلك فهو يتطلب الصدق والمعرفة التامة للذات البشرية، وهذه الخطوة هي وحدها كفيلة بان تقود اللقاء والحوار الى ابعد من المستوى الاكاديمي الجدلي...

انطلاقا من هذا الواقع، اتت وثيقة المجمع الفاتيكاني الثاني حول علاقة الكنيسة مع الديانات غير المسيحية نقطة تحول لكلا الطرفين، وبداية فجر جديد في العلاقات بين الكنيسة والديانات. ذلك لان البشر -على حد تعبير المجمع- عائلة واحدة ينبغي ان تتحد لتنير سبيل الانسان الى الله وتنبذ جميع المواقف السلبية والتزمت والعداء وتتشبث بالمحبة والاخوة. فالكنيسة، ولاول مرة في حياتها، تقيّم الديانات غير المسيحية وتعترف بما تحويه من حق وقداسة" اذ تقول الوثيقة:

"منذ القدم حتى يومنا يوجد لدى مختلف الشعوب ادراك ما لتلك القوة الخفية الساهرة على مجرى الامور وحوادث الحياة الانسانية، وبعض الاحيان توجد معرفة للالوهة السامية.. هذا الادراك وهذه المعرفة ينفحان حياتهم بشعور ديني حميم. اما الديانات المرتبطة بتقدم الثقافة، فانها تحاول ان تجيب على الاسئلة ذاتها بتعابير محكمة وبلغة اكثر تشذيبا...

في البوذية على مختلف انواعها هناك اعتراف بنقص جذري لهذا العالم المتقلب، وتلقن وسيلة يستطيع الناس بواسطتها، بنفس تقية مستسلمة، ان يحصلوا اما على حالة التحرر الكامل واما ان يبلغوا الاستشراق السامي، بجهودهم الذاتية او يعضدهم عون من عل؛ وعلى هذا، فالكنيسة الكاثوليكية لا ترذل شيئا مما هو حق ومقدس في هذه الديانات. بل تنظر بعين الاحترام والصراحة الى تلك الطرق، طرق المسلك والحياة، والى تلك القواعد والتعاليم التي غالبا ما تحمل شعاعا من تلك الحقيقة التي تنير كل الناس بالرغم من انها تختلف في كثير من النقاط عن تلك التي تتمسك بها هي نفسها وتعرضها.." (تصريح حول علاقة الكنيسة مع الديانات غير المسيحية ٢).

وهذا ما اكده البابا الراحل بولس السادس: "كل ديانة تملك قبسا من النور، فلا ينبغي ان نحتقره او نطفئه. كل دين يرفعنا الى الكائن السرمدي العلة الوحيدة للوجود والفكر والعمل المسؤول والرجاء غير المضلل.".

وتجدر الاشارة الى ان الشيء الذي يزعج البوذيين هو تلك الجدية التي بموجبها تبدو المسيحية وكأنها وحدها تملك كل الحقيقة والقداسة والخلاص؛ وكان موقف المرسلين المسيحيين في القارة الهندية سبب ازعاج لكثير من البوذيين، مما دفع باحد ممثليهم، في لقاء عجلتون (لبنان) الذي نظمه مجلس الكنائس العالمي، الى القول: ان التبشير غير مرغوب ولا يتفق مع الحوار"!

وقد اقترح المشتركون ان يصار الى صياغة مفهوم مشترك للتبشير وكيفية تطابقه مع الحوار. فالحوار يدعونا الى تخطي المشاكل العقائدية والاخلاقية والحضارية والانسانية بين الاديان، بمواقف الاحترام والتواضع والارادة الصالحة في مقاسمة الخيرات الروحية التي يحملها كل طرف.

مجالات التعاون بين المسيحية والبوذية

نود ان نقدم في هذا العرض السريع بعض مجالات التعاون:

١- بناء الجماعة البشرية: ان المسيحية والبوذية قوة كبيرة للتكامل الحضاري والتقدم الخلقي للامم. فبامكانهما المساهمة الفعالة لتغيير العالم مع الحفاظ على تراثهما الخلقي والروحي الخاص. هذا ما جاء في لقاء الديانات في "كويوتو".

٢- احلال السلام: لا يوجد امنية اعز على قلب البشر من العيش في السلام والحرية والعدالة. فالديانتان مدعوتان للسعي الى خلق جو طبيعي يعيش فيه البشر تقاليدهم ومبادئهم وثرواتهم بحرية وأمان، والاهتمام الجدي بالفقراء والمظلومين واجتثاث كل انواع الاستلاب.

٣- التنمية والتقدم: بامكان الطرفين المساهمة الجادة في دفع عملية التنمية والتقدم الى الامام، ولا سيما في دول العالم الثالث، وعلى كافة الاصعدة.

٤- تبادل الخبرات الروحية: ان لقاء المسيحيين والبوذيين ثروة عظيمة لتبادل الخبرات الروحية والاخلاقية وخاصة للحياة الرهبانية والتصوف والاستفادة من خبرة كل طرف.

٥- الثقافة والحضارة: ينبغي ايضا ان يستفيد الطرفان من ثقافة وحضارة الطرف الآخر والحفاظ على التراث.

ومن الجدير بالذكر ان الحوار المسيحي البوذي آخذ في النمو بفضل اللقاءات والمؤتمرات التي تتم سواء عن طريق سكرتارية العلاقات مع غير المسيحيين (الفاتيكان)، ام عن طريق "لجنة الحوار مع الديانات والايديولوجيات" التابعة لمجلس الكنائس العالمي (جنيف)، فضلا عن "المجلس العالمي للاديان" في لندن ومكتب الحوار المسيحي- البوذي في هونغ كونغ وسنغافورة...

المراجع:

- Walpola Rahula: L'enseignement du Bouddha, Ed. du Seuil, Paris 1978
- Maurice Percheron: Le Bouddha et le bouddhisme, Ed. du Seuil, Paris 1956
- Marie- Madeleine Davy: Encyclopédie des mystiques- tome 3, Ed. Seghers, Paris 1978.
- Pro mundi vita (bulletin), No. 67 (1977): Le bouddhisme.

الرأي العام في الكنيسة

"الرأي العام" [illegible] الانسان [illegible] وسائل الاعلام الاجتماعية [illegible]

[illegible]

[illegible]

آراء.. و "رأي عام"

يجب ان نميز، قبل كل شيء، بين ما يسمى "بالرأي العام" وبين الاراء الفردية. فالرأي العام ليس حصيلة عملية جمع الاراء الفردية البتة! فالاراء الفردية، على حد تعريف ستوتزل، في كتابه "نظرية في الآراء"، هي تعبير عن تأييد الفرد لبعض الصيغ الفكرية وعن مواقفه تجاه بعض القضايا، بحيث يمكن قياسها على سلم موضوعي. اما الرأي العام فهو، وان كان لا يقوم بمعزل عن الاراء الفردية، غير انه يتخطاها، وتشهد الاستقصاءات التي تُجرى، بان هناك اختلافا اساسيا بين مجموع الاراء الفردية وبين الرأي العام، ويمكن القول بان الرأي العام مستقل في وجوده وطبيعته عن الاراء الفردية او، على الاقل، انه يقوم الى جانبها.

هناك رأي عام كل مرة تم اجماع على رأي تجاه قضية او شخص، في فترة معينة من الزمن.. وهذا الاجماع يبرز بين صفوف جماعة تعي ذاتها، وتمتاز بهوية خاصة، ويؤلف اعضاؤها وجودا مجتمعيا ذا كيان متميز، وتجدر الاشارة الى ان الرأي العام الذي ينشأ في جماعة معينة بوسع علم الاحصاء ان يقيسه: فحين يتخذ المنحني شكل L فمعناه ان الرأي العام يتسم بالتأييد، وحين يتخذ شكل ⅃ فمعناه انه يتسم بالمعارضة، وحين يتخذ شكل U فمعناه انه منقسم بين التأييد التام والمعارضة التامة. اما حين يتخذ المنحني شكل Ω، فذلك يعني ان ليس هناك رأي عام، انما حاصل جمع الاراء الفردية.

هذه الاشكال تدل على ان الرأي يفترض انسجاما بين آراء جماعة تدلي بحكم على حدث او قضية او شخص، يتقاسمه اكبر عدد ممكن من اعضاء تلك الجماعة. ويضيف عالم الاجتماع البورت الى هذا التعريف عنصرا هاما حين يقول بان هذا الحكم يتضمن "**قوة واستمرارية قد تدفع إلى العمل**"، ويتضح من ذلك بان كل رأي عام يقوم على ثلاثة عناصر:

١- حكم على قضية تتعلق باعضاء جماعة بشرية لها كيانها، وتستقطب اهتمامهم.

٢- موقف جماعي وعلني تتخذه الجماعة تجاه قضية او حدث او شخص ما.

٣- تبني موقف عملي من شأنه ان يؤدي، اقله مبدئيا، الى تغيير سير الامور.

وغني عن القول بأن الرأي العام مرتبط بمفهوم الديمقراطية، ويمارَس حيث تكون حرية التعبير مصونة ومحترمة. ولقد سعت الانظمة السياسية في التاريخ الى التعرف على الرأي العام، وبدوافع مختلفة: اما بغية السيطرة عليه، ام بفكرة تكييف تشريعاتها مع مطاليبه، ام رغبة منها في تبرير قراراتها وتيسير قبولها لدى الشعب. ومهما اختلفت مواقف السلطة السياسية، في مختلف الايديولوجيات، من الراي العام. فهناك في كل مجتمع -ديمقراطيا كان ام دكتاتوريا- رأي عام، سواء كان معلنا ام مكتوما، وقد لا يكون الرأي العام "الصامت" اقل وقعا على سير المجتمع من الرأي العام المعلن! لذا كان من الضروري لكل مجتمع بشري سليم ان يتيح للرأي العام حرية التعبير ويوليه اهتماما خاصا ويلتزم مطاليبه. ان الرأي العام عنصر اساسي يمكّن اعضاء المجتمع من المشاركة في القرارات، ومن ثم يضمن مساهمتهم في مسيرته وتقدمه. فالمجتمع الذي يخلو من رأي عام، او لا يكون للرأي العام فيه ثقله، هو اشبه بمجتمع مريض.

الرأي العام ودور الصحافة

الرأي العام ظاهرة اجتماعية تتصل بالابلاغ وترقى جذورها الى نشوء المجتمعات البشرية؛ غير انه، بصفته ظاهرة حضارية، يرقى الى عصر انتشار الصحافة ووسائل الابلاغ العصرية، فمن الخطا القول بان الصحافة هي التي تخلق الرأي العام، اذ تكمن مقوماته في الانسان وفي جماعة بشرية تربط اعضاءها وشائج متينة ويشدهم مصير مشترك. فالصحافة هي الوسيلة المثلى للتعبير عن الرأي العام حين يكون قد استقر او حين لا يزال في مرحلة التكوين: انها في خدمة الرأي العام، فهي التي ترجع صداه وتعلن عن اتجاهاته، وقد تساهم في بلورته، في مرحلة التكوين، وذلك من خلال الابواب التي يعبر فيها القراء عن ارائهم بحرية، سواء كانت على شكل "منبر حر" او "طاولة مستديرة" او "بريد القراء".

يجمع الباحثون في ميدان وسائل الابلاغ وعلماء الاجتماع بان الصحافة -بالرغم من تأثيرها- غالبا ما تسير في اتجاه ترسيخ الاراء التي تعتمل في اذهان القراء، ونادرا ما تسير في الخط المعاكس لما يتوخونه منها. ويقول برنار فويين بأن الصحافة تضطر غالبا الى التعبير عن الاراء التي يحصل حولها اجماع او شبه اجماع، فهي بالتالي "**لا تصنع الرأي العام، كما يتوهم الكثيرون، انما هي نتيجته**": انها تبحث عنه حيث يظهر من خلال التظاهرات الجماهيرية والاستفتاءات الشعبية والاستقصاءات الخ... وكثيرا ما تستقصي هي عنه، مستعينة بمؤسسات متخصصة لها وسائلها في الكشف عنه وقياسه؛ ومن ثم يرجع اليها الدور في عكس نتائج هذه الاستقصاءات وتحليلها.

غير اننا لا ننفي اثر الصحافة على الرأي العام: فهي تساعد، في اغلب الاحيان، على اكتمال ملامحه ونضوجها. كما انها -اذ تنقله وتعبر عنه- تساهم في ترسيخه، وقد تحمل

المترددين والذين "لا رأي لهم" على الوقوف الى جانبه. وتلعب الصحافة دورا في تحريك الرأي العام -بعد ان يكون قد استقر واكتملت ملامحه- ودفعه في اتجاه موقف عملي لفرض مطالبيه؛ وهكذا يمكننا ان نقول بان هناك تاثيرا متبادلا وحركة مكوكية بين الرأي العام والصحافة.

ولمزيد من الدقة نضيف بان هناك اشخاصا يدعون "قادة الرأي" (opinion leaders) يلعبون دورًا هامًا في خلق الرأي العام وتعبئته، كونهم يتمتعون بشعبية واسعة لدى الجماعات البشرية الصغيرة ويتحلون بصفات التأثير على هذه الجماعات التي تمنحهم ثقتها.. هؤلاء "القادة" بوسعهم ان يؤثروا في تكوين الرأي العام ويمارسوا ضغوطا عليه ويحملوه على التحرك. ولقد كشفت بحوث عالم الاجتماع الكبير لازارسفيلد على ان "قادة الرأي يلعبون دورا اساسيا في تكوين الرأي العام ومراقبته"، بحيث نستطيع القول بان دور الصحافة في التأثير على الرأي العام يتم من خلال "قادة الرأي" الذين يؤثرون بدورهم في الرأي العام، وهذا ما يسمى (two step flow) أعني "انسياب بمرحلتين".

الكنيسة والرأي العام

لا يصح القول بان هناك "رأيا عاما مسيحيا". مفهوم كهذا يخلق الظن بان هذا الرأي يختلف، في طبيعته وقواعده ومقوماته، عن الرأي العام كما حددناه اعلاه. فالمسيحيون، في أي مجتمع كانوا، مندمجون باعضاء ذلك المجتمع ويقاسمونهم اراءهم واحاسيسهم وتطلعاتهم، وقد يكون لهم مساهمة فعالة في الرأي العام بفضل رؤيتهم لبعض الاحداث او القضايا على ضوء الانجيل... لذا فنحن نؤثر التكلم عن رأي عام في الكنيسة -بصفتها "شعب الله"- **يقوم على حكم يجمع عليه المؤمنون تجاه قضية او حدث او شخص في حياة الكنيسة،** بحيث يكون لهذا الحكم قدرة على تغيير مجرى الامور. وغني عن القول بان المقصود بالرأي العام ليس الاراء والاجتهادات اللاهوتية المختلفة في الكنيسة، والتي لا تتعدى كونها اراء فردية.

ولسنا نكشف سرا اذا قلنا بأن السلطة في الكنيسة لم تكن تقبل، وحتى ماض غير بعيد، بامكانية قيام رأي عام فيها، سيما منذ ان بدأ الرأي العام، في المجتمعات السياسية، يمارس قوة ضغط كبيرة على السلطة في اعقاب الثورة الفرنسية. وكانت الكنيسة الرسمية تخشى ان يشكل الرأي العام خطرا على الايمان والعقيدة، فيما كانت تخفي تخوفها من فقدان سلطتها في حالة ظهور الرأي العام بمظهر المنافس. كما ان ظهور المذاهب الفلسفية، في اوائل القرن ١٩، التي كانت تخلع على الرأي العام، سلطة ادبية في اقامة الحد الفاصل بين الحق والضلال، حمل السلطة الكنسية على شجب حرية الرأي العام وعلى الوقوف من نتائجه موقف الحذر، و لم تكن تشجعه الا حين كان يبدو منسجما مع الموقف الرسمي.

وكان اول من تكلم عن الرأي العام بصفته ظاهرة حضارية لا غنى عنها لكل مجتمع هو البابا بيوس الثاني عشر، بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمي الثالث للصحافة الكاثوليكية عام ١٩٥٠، مؤكدا على ضرورته لكل "مجتمع سليم"، وواصفا غيابه "برذيلة وعلة ومرض في الحياة الاجتماعية"، هو الذي شدد على ضرورة قيام رأي عام في الكنيسة حين قال: **"الكنيسة جسم حي. فاذا انتفى منها الرأي العام انتاب حياتها نقص تقع مسؤوليته على الرعاة والمؤمنين معا"،** ويعتبر هذا التصريح جريئا وقد جاء قبل وثيقة المجمع المسكوني

"الكنيسة ووسائل الابلاغ" (١٩٦٣) التي لم تتطرق الى موضوع الرأي العام واكتفت باشارة عابرة اليه:

سنتناول بالبحث: ١ – حق شعب الله في رأي عام. ٢ – مجالات ممارسة الرأي العام. ٣ – التعبير عن الرأي العام.

١- حق شعب الله في رأي عام

ينبع هذا الحق من كون المؤمنين يؤلفون جسدا حيا هو الكنيسة. فكان من واجب السلطة ان ترى في الرأي العام علامة لمشاركة المؤمنين في حياة الكنيسة واسلوبا يمارسون من خلاله دورهم ومسؤولياتهم فيها، أن هي منحته حرية التعبير واعارته ما يستحقه من الاهتمام. هذا الحق وهذه الحرية يجب ان يتمتع بهما المؤمنون في الكنيسة بنوع اكثر مما يتمتع بهما المواطنون في بلد ما، ذلك لان انتماءهم الى "شعب الله" يتعدى كونه انتماء "اجتماعيا"، انما هو اندماج عضوي في المسيح الذي هو "رأس الجسد"، بحيث يضحي الرأي العام الذي ينشأ بين اعضاء هذا الجسد بمثابة دور نبوي يلعبه المؤمنون من اجل بنيان ملكوت الله...

واذا كان العلمانيون قد أنفوا، في الاجيال الاخيرة، من ممارسة هذا الدور من جراء بعض مواقف رجال الكنيسة التي حملتهم على الاستقالة من مسؤولياتهم، فعليهم اليوم، اكثر من أي زمن مضى، ان يستعيدوا هذا الدور عن طريق الرأي العام. وعلى المسؤولين الكنسيين الا يروا في ممارسة حرية التعبير عن الرأي العام قوة تنافس سلطتهم او تخلع عنها شرعيتها، بل يروا فيه اسلوبا في المشاركة بحياة الكنيسة واحدى متطلبات الدعوة المسيحية، ولا ينسوا بان حق الجماعة المسيحية في ان يكون لها رأي عام يسبق حق السلطة في قيادة الجماعة وتوجيهها.

٢-مجالات ممارسة الرأي العام في الكنيسة

حين اكد بيوس ١٢ على ضرورة الرأي العام في الكنيسة، حدد ممارسته "في القضايا المتروكة للمناقشة الحرة". هذا التحديد يفسح المجال امام السلطة الكنسية لتقليص حجم هذه "القضايا" وحصر موضوع الرأي العام في امور لا طائل تحتها! واذا كانت السلطة الكنسية تخشى ان يمس الرأي العام -اذا ما تركت له الحرية التامة- وديعة الايمان والحقائق الموحاة، فان هذا الحذر قد يذهب بها الى حظر حرية التعبير حتى في القضايا والشؤون التي لا تمس جوهر الايمان، وقد يخفي هذا الحذر رغبة السلطة في المحافظة على مركزها وامتيازاتها التي لا تمت بصلة الى روح الانجيل حيث السلطة خدمة.

كتب الاب اميل كابيل (١٩٠٨-١٩٦٨) امين عام الاتحاد الكاثوليكي العالمي للصحافة سابقا، معددا الحقول التي بوسعها ان تكون موضوع الرأي العام في الكنيسة: البنى الكنسية، كل ما يتعلق بادارة الكنيسة وسلوكية الكنيسة وانظمتها وقوانينها... فطالما تتصل هذه الحقول بحضارة معينة، كونها وليدة ظروف معينة، فهي قابلة للتغيير ولا خوف ان ينشأ حولها رأي عام قد يكشف عن ان ما كان يبدو في الامس حاجة او "حقيقة ثابتة" لم يعد له مكان في كنيسة اليوم. ونذهب في القول الى أبعد: كل مرة يتم فيها اجماع الرأي في

الكنيسة حول قضية ما، على أي صعيد كان، **يجب ان يحظى هذا الرأي العام بالاهتمام، ويكون للكنيسة بمثابة مؤشر يحملها على اعادة النظر في بنيتها وسلوكيتها وتشريعاتها.** فالخطر يقوم حين تأبى السلطة في الكنيسة الاصغاء الى نداءات الروح التي غالبا ما يتضمنها الرأي العام الذي ينشأ بين صفوف المؤمنين، شريطة ان يكون متسما بدافع المحبة للكنيسة والرغبة الصادقة في اصلاحها.

ويقول جان جيلامور في محاضرة له في المؤتمر التاسع للاتحاد الكاثوليكي العالمي للصحافة عام ١٩٧١ حول موضوع "الرأي العام في الكنيسة" بأن على السلطة الكنسية ان تحذر من الانصياع لتجربة حمل الرأي العام، باية وسائل كانت، على قبول قراراتها، انما عليها ان تفسح له المجال كي يساهم في البحث عن الحقيقة، سيما وان المؤمنين هم على صلة اكثر بمعضلات العالم ولهم القدرة على اكتشاف نداءات الروح من خلال الاحداث والقضايا التي يعيشونها.

٣- التعبير عن الرأي العام في الكنيسة

ان من خصائص الرأي -كما اسلفنا- ان يكون حكما جماعيا يعبر عن القيمة التي يخلعها الجمهور على الاحداث او القضايا، بغض النظر عن قيمتها الذاتية. فرب قضية تستقطب اهتمام المسؤولين الكنسيين لا تلاقي صدى في نفوس المؤمنين والعكس بالعكس. من هنا ينبع واجب السلطة في الكنيسة في اتاحة الفرص للرأي العام كي يجد سبيله الى التعبير بحرية تامة، وحينذاك سنشهد قيام، ليس رأيا عاما وحسب، بل "آراء عامة" حول مختلف القضايا والشؤون في الكنيسة. فاذا حاولت السلطة ان تحول دون التعبير عن الرأي العام، بأية حجة كانت، فسيصحّ فيها اللوم الذي وجهه بيوس ١٢ الى الرعاة؛ واذا ما تنازل المؤمنون، لاية اعتبارات، عن حقهم في ابداء ارائهم، فسيترل بهم عين اللوم!

ان الرأي العام الذي يعبر عنه المؤمنون يعتبر عاملا هاما من عوامل الحوار في الكنيسة، اذ انه يمكّن لديهم الشعور بانهم اعضاء، بدرجة كاملة، في شعب الله، ولهم من ثم مسؤولياتهم في بنيان جسد المسيح؛ وهو من جهة اخرى. خدمة لا يستهان بها من شأنها ان تجنب السلطة تجربة اصدار القرارات دون اعتبار حاجات المؤمنين وتطلعاتهم المشروعة. وتجدر الاشارة الى ان ما يحمل السلطة الكنسية على الخوف هو ان الرأي العام كثيرًا ما يعبر عن الصراعات الداخلية في الكنيسة، وما يرافقها من نقد ومعارضة، ولكن اذا كان الباعث الى النقد خدمة الاهداف التي تنشدها الكنيسة، فلم هذا الخوف؟ الم يدعُ المجمع الى مراجعة حياة يشارك فيها كل شعب الله؟ فمن الاصلح للكنيسة ان تدع اعضاءها يعبرون عن امانيهم ومطاليبهم، عن طريق الرأي العام، من ان تتقبل خضوعهم لتوجيهاتها. فهذا الخضوع -سيما اذا كان ينقصه الاقتناع- هو دليل، في اغلب الاحيان، على شعب يرضى ان يبقى تحت الوصاية ويساق كالقطيع!

الصحافة المسيحية وسيلة للتعبير عن الرأي العام

قلنا ان الصحافة لا تصنع الرأي العام، انما ترجع صداه. انها، بحكم طبيعتها ورسالتها، في خدمة الرأي العام كما عبر عن ذلك بيوس ١٢ حين قال: "**للصحافة دور بارز تلعبه في تربية الرأي، لا لتمليه او لتوجهه، بل لتخدمه بشكل نافع**". فما يصح في الصحافة بشكل عام يصح ايضا في الصحافة المسيحية: انها الوسيلة المثلى للتعبير عن الرأي العام في الكنيسة،

فهي لا تخلقه، انما تساهم مساهمة فعالة في ايقاظه وتحمله على استكمال ملامحه ورسوخها، وقد تدفعه الى التحرك في اتجاه موقف عملي.

ليست الصحافة المسيحية الوسيلة الوحيدة للتعبير عن الرأي العام في الكنيسة، لكنها احدى انجع الوسائل من شأنها -اذا ما احترمت السلطة الكنسية طبيعتها ومقوماتها وصانت لها حريتها- ان تؤدي خير خدمة للكنيسة، اذ انها تمكّن من **قيام حوار مثمر وبناء بين المؤمنين والسلطة الكنسية**. غير ان موقف الحذر الذي يقفه بعض المسؤولين الكنسيين من الرأي العام ينعكس، وبشكل اكبر، على الصحافة المسيحية -ونعني الصحف والمجلات التي لا تنطق بلسان الكنيسة الرسمي، ولا تفقد لذلك صفتها المسيحية. وموقف الحذر هذا ينطلق من فكرة سائدة لدى بعض رجال الكنيسة في ان على الصحافة المسيحية ان تعكس ما هو ايجابي وتغض الطرف عن كل ما هو سلبي في الكنيسة! فهم قلما ينظرون اليها بعين الارتياح حين يرونها ترجّع صدى الرأي العام في الكنيسة، لانهم يخشون تسرب النقد والمعارضة اللذين يعكسهما الرأي العام لا محالة! ويقول جان جيلامور الانف الذكر: "لا تستطيع الصحافة المسيحية الا تكون صدى للتيارات والاراء، حتى السلبية منها. انها تفعل ذلك بدافع واجبها في احترام الحقيقة واحترام قرائها، وخدمة منها للاعلام الذي تقدمه للكنيسة".

فليسمح لنا بطرح هذه التساؤلات: هل يمكن ان نلزم الصحفي المسيحي بالا يرجّع سوى صدى "الاراء العامة" المؤيدة، ويغفل عن الاراء المعارضة او ما تسمى بـ "السلبية"؟ السنا بذلك نحملهُ على خيانة مهمته والاستخفاف بقرائه؟ وهل حياة الكنيسة منسوجة كلها من ورود وليس فيها اشواك؟ وما هو الاكثر نفعا للكنيسة -وهي تريد السير نحو مزيد من الامانة لمعلمها- أطاعة عمياء هي صورة لشعب قطيع، ام نقد بناء يكشف عن وجه شعب حر ومسؤول؟

فحين تعبر الصحافة المسيحية -غير الرسمية- عن الرأي العام في الكنيسة كما هو، لا كما يراد له ان يكون! او حتى حين تساهم في ايقاظ الرأي العام على احداث او قضايا تتعلق بكل شعب الله، ودليلها الى ذلك خير الكنيسة، فهي انما تقدم خدمة جليلة للكنيسة، اذ تحمل كل اعضائها على مراجعة حياة ينتج عنها خير كبير لمستقبل الكنيسة، في عصر يقتضي منها ان تلعب دورا نبويا يساهم في بناء عالم افضل.

يطيب لنا، في نهاية هذا المقال، ان نتوجه الى القراء بطلب الادلاء بآرائهم حوله بغية استكمال الملامح التي رسمها عن الرأي العام في الكنيسة، ونامل ان تأتينا الردود كثيرة، وتتصف بالنقد الموضوعي.

اعتمدنا في هذه الدراسة على الرسالة التي قدمناها عام ١٩٧٦ لجامعة لوفان/ قسم العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية/ فرع وسائل الابلاغ. ونثبت هنا بعض المصادر التي اعتمدناها:

Sauvy, Alfred: L'opinion publique, Paris, P. U. F., Coll. ''Que sais-je'' 1971. 128p.

Gabel, Emile: L'enjeu des media, Paris, Mame, 1971. 472p.

Voyenne, Bernard: La presse dans la société comtemporaine, Paris, A. Colin, Coll. U, 1971. 368p.

Gélamur, Jean: Discours d'introduction au IX ème congrès de l' U. C. I. P., dans Journalistes Catholiques, No. 58-59 (1971).

- كنيسة المجر: متى تخرج من عزلتها

كانون الثاني/ ص١٩ - ٢٧ نجيب قاقو

+ لاهوت التحرير في الميزان

شباط/ ص٧٥ - ٨٢ الاب عبد السلام حلوة

- المكسيك: كنيسة خارجة عن القانون

آذار/ ص١٠٥ - ١١٢ الاب لويس ساكو

+ الله يلتقي بالانسان في المسيح

نيسان/ ص١٥٣ - ١٦٠ الاب عبد السلام حلوة

- الايمان بيسوع المسيح/ استفتاء

ايار/ ص٢١٣ - ٢٢٢ الاب بيوس عفاص

- الكنيسة في بلد تيتو

حزيران/ ص٢٤٩ - ٢٥٦ الاب ربان القس(١)

● عدد خاص: كهنة، لمن؟ ولماذا(*)

آب — ايلول/ ص٢٣٠- ٢٤٦

- كهنة... وكهنة

تشرين الاول/ ص٤٠٩ - ٤١٦ الاب يوحنا عيسى

- كنيسة روسيا: ظلال واضواء

تشرين الثاني/ ص٤٠٩ - ٤١٦ نجيب قاقو

+ الاجهاض... ثمن الحياة

كانون الاول/ ص٤٤٦ - ٤٧٦ الاب بيوس عفاص

(*) اثبتنا في "المختار من الاعداد الخاصة" المقالات التالية من العدد في الكهنوت: مفهوم الكهنوت في الكنيسة الاولى (أ. هنام كجو)، الكاهن كما يراه عالم الاجتماع (أ. بيوس عفاص)، مستقبل الدعوات الكهنوتية في العراق (نجيب قاقو)، الكاهن، موزّع اسرار؟ (أ. يوسف عتيشا).

(١) للاب (المطران) ربان القس مساهمتان (من بينها هذا الملف– وقد انجزه قلم التحرير).

ملف شباط ١٩٧٩ .... الاب عبد السلام حلوة

لاهوت التحرير في الميزان!

"لاهوت التحرير لا يعرض مادة جديدة للتفكير بمقدار ما يقدم طريقة جديدة لهذا التفكير. فاذا اعتبرنا اللاهوت فكرا نقديا للممارسة التاريخية، فانه يضحي لاهوتا محررا، أي لاهوتا يحدث تحولا تحريريا في تاريخ البشرية".

بهذه الكلمات اوجز الاب كوستافو كوتييريز محاولته اللاهوتية الفريدة عبر "لاهوت التحرير"، هذا الكتاب الذي قدمه، في عدد ك٢، الاب عبد السلام حلوة واستعرض خطوطه العريضة.. وفي هذا الملف، سلط المزيد من الاضواء على مكانة هذه المحاولة في الفكر اللاهوتي المعاصر من خلال ردود الفعل الكثيرة التي اثارتها والامال الكبيرة التي انبتتها، كونها محاولة جادة وجريئة لتجسيد معطيات الانجيل في الواقع الحياتي لشعوب امريكا اللاتينية.

في خلال تقديمنا لكتاب الاب كوستافو كوتييريز "لاهوت التحرير"، لم يتسن لنا ان نتكلم عن ابعاد هذا اللاهوت ومردوداته وانعكاساته في الفكر اللاهوتي المعاصر. في هذا المقال سنحاول تسليط بعض الاضواء حول ماهية هذا اللاهوت وابعاده لتتكون لدى القارئ صورة اكثر وضوحًا عن مكانته في مجمل النتاج الفكري في الكنيسة، وبعبارة اخرى ستكون محاولتنا بمثابة عرض لابرز النقاط التي اثارها هذا اللاهوت الى جانب استعراض لردود الفعل التي عبر عنها لاهوتيون معاصرون من مختلف التيارات.

ان ردود الفعل التي اثارها لاهوت التحرير لهي من المؤشرات الواضحة على اهمية هذا اللاهوت، كما انها تدل على انه لاهوت يافع بحاجة الى خبرات لاستكمال ملامحه، كي يتسنى له ان يتخذ المكانة التي تليق به باعتباره محاولة اصيلة نابعة من روح انجيلية اصيلة.

فنحن ازاء مشروع لاهوتي في قفص الاتهام، وفي هذه المحاكمة التي تجري الآن في انحاء مختلفة من العالم، على شكل ردود فعل، له ام عليه، نسجل اهم التحفظات والاتهامات التي وردت بشأنه.

اسبقية الموقف الحياتي على معطيات الانجيل

اول اتهام يوجَّه الى لاهوت التحرير كونه ينطلق من الموقف الحياتي للمؤمنين، أي الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يعيشونها، ويعطي لهذا الموقف الاولوية في فهم الانجيل. هذا المنطلق من شأنه ان يضحّي بالمعطيات الموضوعية للانجيل والتي يتوجب على المؤمنين ان يقبلوها، بمعزل عن الظروف مهما كانت اهميتها، اذ ان نقطة الانطلاق يجب ان تكون ما يكشفه لنا الانجيل من مبادئ وقيم تدفعنا الى الحياة والواقع، لا العكس.

بشأن هذه النقطة بالذات، علينا ان نميز بين ما هو جوهري في المعطيات الانجيلية، اعني المحاور الاساسية لشخصية يسوع المسيح وعمله الخلاصي، وبين ما هو ثانوي أي الظروف الحضارية التي تجسدت فيها هذه الشخصية، والتي يجب ان نسبر اغوارهـا لنـتمكن مـن الوصول الى المبادئ الجوهرية التي جاء بها يسوع. فليس الموضـوع موضـوع اسـبقية او افضلية، انما هناك محاور وسمات رئيسة في الانجيل يجب عزلها بدقة عـن بيئتـها الاصـلية وتجسيدها في الزمان والمكان بحيث تلقي صدى في مجتمع انساني معين.

ان لاهوت التحرير، في هذا الاطار، يعتبر محاولة جريئة وناجحة الى حد كبير في عملية تجسيد المعطيات الانجيلية في بيئة معينة هي بيئة امريكا اللاتينية، بظروفها واوضاعها الخاصة. كما علينا ان ندرك بان هذه المحاور والسمات الرئيسة في الانجيل ذات علاقة جدلية مستمرة مع انعكاساتها المتجسدة في الزمان والمكان، وهذا يعني انها تتجاوز دوما هذا الواقع وتنقـده دوما كي يسير في اتجاه مستقبل للانسان يتجدد باستمرار. وتجدر الاشارة الى ان لاهـوت التحرير هو لاهوت "محلي" مرتبط اشد الارتباط بواقع امريكا اللاتينية، فلا عجب ان يهمل الى حد ما كل ما هو "شمولي" في الفكر اللاهوتي التقليدي.

تعريف دور اللاهوت واعتباره ايديولوجية سياسية

هذا المأخذ الخطير يطرح قضية هامـة تحملنـا علـى طـرح تـساؤلات بـشأن مفهوم اللاهوت ودوره في التعبير عن معطيات الايمان وعـن مبـادئ الممارسـة الحياتيـة للانسان المؤمن...

كانت النظرة الى علم اللاهوت تقوم في كونه "علما" يبحث في الالهيات بنوع عـام، وفي وجود الله وماهيته وجوهره بنوع خاص، كما تدل تسميته (ثيولوجيا Theo-logia). وكان اللاهوت، حسب المفهوم التقليدي، وسيلة للتعبير بصورة واضحة، تامـة ومنطقيـة -تستند الى منهج فلسفي- عن عالم الله وعلاقته بعالم البـشر. فـاللاهوت التقليـدي في الكنيسة يتناول عادة بحث ماهية الله عن طريق التأمل العقلاني بمعطيات الكتاب المقـدس، فضلا عن البراهين العقلية، ومن ثم يتناول بالبحث الواقع الانساني من خلال الصورة الـتي رسمها عن الله... غير ان الانسان المعاصر وليد الحضارة الحالية، وهو يتحسس بقوة الواقـع الانساني، بمعاناياته وطموحاته، يميل تلقائيا الى بحث عميق لهذا الواقع للكشف عن اسـراره ومكنوناته وابعاده التي لا تحصى، ومن ثم يبدأ بالتساؤل عن بصمات الله في هذا الواقع.

فاللاهوت المعاصر -ومن ضمنه لاهوت التحرير- يرى انه من الصعب التعبير عن الله والمعطيات الايمانية الاساسية ما لم يرسم صورة واضحة ومفهوما عميقا عن الانسان يكون قاعدة للانطلاق نحو اكتشاف الله. لذا نرى لاهوت التحرير يصب اهتمامه على ابعاد الحياة الانسانية، كالظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ويبحث عن قوانينها الخفية الـتي تحركها، في محاولة للوصول بالانسان الى المستقبل الذي يريده له الله. انه يبحث عن العلاقة الحياتية بين الانسان في واقعه اليومي وبين حقيقة الله التي كشفها المسيح: فحـين يبحـث

لاهوت التحرير في واقع المظلومين والمستغَلين، لا يفعل ذلك من منطلق ايديولوجية سياسية، انما يقوم بحثه هذا على صعيد اكثر عمقا هو صعيد المعنى النهائي لفعل التحرير المعبر عنه بالممارسة الثورية، في محاولة لاكتشاف فعل الله الخلاصي في هذه الممارسة.

لاهوت التحرير يحاول فرض الاشتراكية كوسيلة للتعبير عن المسيحية

بموجب المفهوم التقليدي، يتوجب على اللاهوت ان يكون حياديا! وهوذا لاهوت التحرير يأتي الينا كلاهوت ملتزم، أي لاهوت منحاز لقضية معينة ولنظام معين...! هذا الاتهام يرافقه نوع من المغالاة. فلاهوت التحرير لا يدعو الى فرض النظام الاشتراكي على الشعوب، ولا يقول بانه النظام الوحيد الذي تفرضه المبادئ الانجيلية؛ غير انه يفضح، وبقوة، الاستغلال الرأسمالي والايديولوجيات الليبرالية المرتبطة به، ويبين مدى الزيف الذي يلصق بالرأسمالية على صعيد حرية الانسان وكرامته وتطلعاته المشروعة. انه لاهوت يمارس دورا نبويا، ويقوم هذا الدور في توجيه النقد الى كل ما هو ظلم وتعسف واستلاب في الانظمة الاقتصادية والسياسية ايا كان نوعها. انه لاهوت يدعو الانسان المعاصر الى بذل الجهود لاكتشاف انظمة اقتصادية وسياسية اكثر انسانية، تنبثق من الواقع وتملك قابلية دائمة للتطور باتجاه المستقبل، اعني مستقبل الانسان وطموحاته في العدالة والحرية والسعادة وفي تكافؤ الفرص والعطاء...

ولئن كانت الاشتراكية هي الصيغة الاكثر تعبيرا عما يطمح اليه انسان اليوم، فهذا لا يعفي لاهوت التحرير من ممارسة دوره النبوي، عن طريق النقد البنّاء تجاه بعض الاخطاء التي ترافق تطبيق الاشتراكية، كما لا يعفيه من اعلان صوت الانجيل ازاء قضايا قد تتعارض احيانا مع معطيات الانجيل، في أي نظام كان، ذلك لان لاهوت التحرير ليس لاهوتا سياسيا بحصر المعنى، انما هو لاهوت يوجه اهتمامه الى الواقع الانساني بكل ابعاده، ومن ضمنها الابعاد السياسية بمعناها العام والشامل.

بعد هذا الاستعراض السريع لبعض الاتهامات والمآخذ الموجهة الى لاهوت التحرير، سنحاول الان ان نذكر اهم التيارات الفكرية بشأنه والتي تكشف عن اسباب رفض هذا اللاهوت جملة وتفصيلا، الى جانب تلك التي تقبل الكثير من طروحاته دون ان يعفيها هذا القبول من توجيه النقد البناء اليه، ونستطيع ان نميز ثلاثة تيارات رئيسة:

١ - تيار رافض باسم نظرة سياسية معينة

هذا التيار يرفض لاهوت التحرير من اساسه، وتمثله الانظمة اليمينية الحاكمة في بعض دول امريكا اللاتينية ومعها الحركات الاجتماعية- الدينية التي تستوحي مبادءها من وحي مسيحية القرون الوسطى والتي تتلخص شعاراتها بكلمات ثلاثة: "التقليد، العائلة، الملكية"! فالعالم، بحسب مفهوم هؤلاء الرافضين للاهوت التحرير، ينقسم الى جبهتين: الشرق والغرب، عالم اشتراكي وعالم "حر"، عالم يقيد الحريات الشخصية وعالم "ديمقراطي"...

وعلى هذا الاساس تقوم مفاهيمهم في الحياة وقضايا الانسان، بحيث يستحيل عليهم قبول اية نظرة اخرى لا تدخل في اطار هذا التحليل السقيم، وهكذا يبدو لهم لاهوت التحرير، بحسب هذا المنطوق، لاهوتا ضد عالم "الحرية والديمقراطية" ولا عجب ان يتخذ رفضهم له شكل مقاومة، بغية القضاء عليه كونه، في نظرهم، منحازًا الى عالم يقيد الحريات تحت ستار التحرر والاشتراكية!

٢- تيار رافض باسم كثلكة محافظة

باسم كثلكة متعصبة تدّعي الحفاظ على التقليد وعلى كل قديم، يرفض ممثلو هذا التيار كل جديد على صعيد الفكر والممارسة ايا كان مصدره. هذا التيار يرفض لاهوت التحرير بنوع خاص اذ يشتم فيه رائحة سياسية معينة، متهما اياه بانه "لاهوت ماركسي"، كونه يستعمل بعض المفاهيم والمصطلحات الماركسية في تحليلاته للمجتمع ويدعو الى الثورة على البنى الفاسدة... ومعلوم بان هؤلاء الرافضين لكل تجدد في الكنيسة، باسم المحافظة على التقليد وباسم نظرة متطرفة الى تاريخ ينتمون الى تيارات سياسية يمينية وخير مثال على هذا التطرف موقف الاسقف الفرنسي لفيفر[١].

٣- تيار يقبل ولكنه ينقد بعض الطروحات

ويمثل هذا التيار لاهوتيون كبار ينظرون الى لاهوت التحرير نظرة اهتمام واعجاب يرافقها نقد ايجابي بناء من شأنه ان يغني هذه المحاولة ويضفي عليها ابعادا شمولية. لقد اكتشف هؤلاء اللاهوتيون ان لاهوت التحرير خلّف آمالا كبيرة لدى مؤمني امريكا اللاتينية لا يمكن اهمالها او ادانتها بشكل عشوائي، باسم مفاهيم ومواقف بالية. غير انهم اكتشفوا ايضا، ضمن هذا اللاهوت، اتجاهات مختلفة، الى جانب تيارات متباينة، مما جعلهم يشعرون بعدم دقة استعمال مصطلح "لاهوت التحرير" للدلالة على لاهوت واحد ذي صورة واحدة.

فعلى ضوء دراسات هؤلاء اللاهوتيين نستطيع ان نميز ثلاثة اتجاهات رئيسة ضمن لاهوت التحرير.

أ- اتجاه وطني -قومي له مناصرون في الارجنتين بنوع خاص يدعو الى التركيز على الاستقلال الوطني وحفظ الصفات والميزات القومية والحضارية لشعوب امريكا اللاتينية، بصفتها شعوبا ذات تاريخ عريق حاول المستعمرون القدامى والجدد طمسه... هذا الاتجاه يسعى الى خلق مسيحية متجسدة في الواقع الحضاري والثقافي لهذه الشعوب، انطلاقا من المفهوم الذي بموجبه على الكنيسة ان تكون ملتصقة بقوة بالارض التي تعيش عليها.

ب- اتجاه يستند الى قاعدة فلسفية ذات صبغة ماركسية، في تحليله للبنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية؛ فهو يستعير المصطلحات الماركسية في تحليل اوضاع القارة اللاتينية، وهنا يجب فهم الماركسية بشكل عام بصفتها فلسفة اجتماعية... ويمثل هذا الاتجاه الاب كوستافو كوتييريز.

جـ- اتجاه يعلن عدم انتمائه الى كنيسة معينة ويدعو الى جعل الممارسة الثورية المرجع الاساس في توجيه حياة المؤمن اليومية. هذا الاتجاه اقلق الكثير من اللاهوتيين والمؤمنين على السواء، وكان في اصل الاتهامات التي تلقاها لاهوت التحرير التي سبق ذكرها، وقد بلغت بعض ردود الفعل الذي اثارها هذا الاتجاه الى اتهامه بالتعصب والشوفينية وانه تحريف صارخ لكل ما هو اساسي في المسيحية اذ جعلها تضحي وسيلة من وسائل الممارسة السياسية...

لاهوت التحرير- لاهوت الخلاص

ان القضية الاساس التي يطرحها لاهوت التحرير تقوم في البحث عن العلاقة بين كل ما من شأنه ان يساهم في تحرير وتنمية وتطوير العالم الانساني وبين الخلاص المسيحي. هذه القضية الهامة أخذت تشغل فكر المؤمنين في اعقاب عصر النهضة وبداية العصر الصناعي وما نتج عنه من مردودات، بعضها ايجابي وبعضها الاخر سلبي؛ وكان على اللاهوتيين ان يبحثوا عن اجوبة للتساؤلات الخطيرة التي اثارتها التحولات الاجتماعية والسياسية في كثير من بلدان العالم في اثر تصاعد الاستعمار ووسائل الاستغلال الرأسمالي وتغلغل الامبريالية بمختلف اشكالها الخ...

هذه القضايا حملت المؤمنين والمفكرين واللاهوتيين على البحث عن طبيعة العلاقة بين الواقع الاليم الذي يعيشه الانسان وبين الخلاص الذي حققه ويحققه المسيح، وهو محرر الانسانية من العبوديات على اختلافها. وجاءت وثيقة المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني "الكنيسة في عالم اليوم" لتكرّس هذا البحث وتدفع به الى امام، حين اعطت "للشؤون الزمنية" قيمتها الذاتية ودعت الى اكتناه "علامات الازمنة" من خلال الواقع الانساني. فبهذا الروح خرجت اللجنة اللاهوتية الدولية بتصريح هام حول المحاولات اللاهوتية الجديدة - نشرته مجلة "الوثائق الكاثوليكية" في عددها ١٧٢٦ لعام ١٩٧٧- جاء فيه: "اولئك الذين يريدون ان يبقوا في اتصال وثيق بالحياة اليومية التي تعيشها الشعوب البائسة ضحية المظالم... اولئك الذين يسعون الى الاصغاء الى صوت الفقراء والمعذبين... نقول لهم باننا لا نستطيع ولا نملك الحق في نقد سلبي للافكار اللاهوتية التي يطرحونها (وهي ليست نتيجة جهد نظري تأملي، انما نتيجة خبرة وممارسة) ما لم نقدم طريقة افضل للاجابة عن التساؤلات التي تطرحها تلك القضايا التي تخص صراخ الفقراء وتتعلق بحالات الظلم واللاعدالة". وكان هذا التصريح قد سبق فأكد، في مقدمته، بأن هذه المحاولات اللاهوتية انطلقت بوحي من المجمع المسكوني الذي طلب الى الكنيسة ان تقرأ وتكتشف علامة الازمنة على ضوء الانجيل، وان اول محاولة من هذا النوع في امريكا اللاتينية تمت في دورة مجلس اساقفة امريكا اللاتينية التي عقدت في ميدلين (كولومبيا) عام ١٩٦٨، حين اعلن الاساقفة المجتمعون بصوت واحد: "على الكنيسة ان تسمع صراخ الفقراء وتضحي الناطقة الرسمية بآلامهم ومعاناتهم".

فأمام تصريح كهذا من اللجنة اللاهوتية الدولية -وقد عقدت دورتها الدراسية في ٤-٩ ت١ ١٩٧٦ للبحث في القضية التي يطرحها لاهوت التحرير- لا يسعنا الا ان نفرح،

سيما ونحن نعلم الضغوط التي مارسها بعض اعضاء الدوائر الرومانية لتحمل المؤتمرين على ادانة عامة لهذا المشروع اللاهوتي! ومن دواعي الفرح ان هذه اللجنة لم تكتف بعدم الادانة وحسب، انما اعترفت بان في لاهوت التحرير عناصر ذات قيمة اكيدة يجب ان تأخذ مكانها في التفكير اللاهوتي المعاصر. غير انها لفتت الانتباه الى بعض المصطلحات الغريبة عن الفكر الديني وحذرت من استعمالها، لا سيما حين تكون هذه المصطلحات ذات مضامين غامضة قد تحمل المؤمنين البسطاء على الانحراف عن التعليم القويم. كما انها دعت اللاهوتيين الى التعمق في الطرح، والبحث الجاد عن اجوبة بمستوى التساؤلات المطروحة، غير انها عادت فأكدت على ان اللاهوت يجب ان يكون على صلة وثيقة بواقع الانسان، بكل ما في هذا الواقع من ابعاد، والنظر اليه بعيون الانجيل.

اين نحن من لاهوت التحرير؟

مما يلفت النظر، ونحن بصدد لاهوت التحرير، هو اننا نجد محاولات لاهوتية مماثلة في كثير من بلدان العالم وليس في امريكا اللاتينية فقط. ففي افريقيا مثلا نجد محاولات جادة للتعبير عن حقائق الايمان من خلال الحضارة الافريقية ومن خلال الواقع الافريقي ذي الصفات النوعية المتميزة؛ وفي اوربا ايضا نشهد نتاجا لاهوتيا ضخما هو حصيلة جهود لاهوتية مكثفة لايجاد صيغ ونظريات تنطلق من واقع المجتمعات الصناعية المتطورة، في محاولة للاجابة عن تساؤلات المؤمنين الغربيين وهم يعانون من المشاكل والقضايا التي يفرزها المجتمع الصناعي ويطرحها واقع المدن الكبيرة... ولا عجب، طالما ان الانسان هو ابن مجتمعه وحضارته، ويتحتم على اللاهوت ان يتكلم لغة هذا المجتمع وهذه الحضارة.

ويطيب لنا، في ختام هذا المقال، ان نطرح على انفسنا هذا التساؤل: الم يحن الوقت لكي نبدأ بتفكير لاهوتي جدي وجريء يطرح القضايا والمشاكل التي تعيشها كنيسة العراق؟ اما حان الاوان لان نحمل مؤمني هذه الكنيسة العريقة على ان يعيشوا التحولات التي تجري في عراقنا، على مختلف المستويات، في ضوء الانجيل؟ الا ينبغي ان نسعى للوصول الى تعبير لاهوتي اصيل ينبع من حضارتنا ويلتصق بقوة بالارض التي تحملنا، فنفتح كنوز الماضي وننتقي منها ما يساعدنا على بناء فكر لاهوتي معاصر يتجاوب مع واقعنا بما فيه من معانيات وطموحات؟

هذه التساؤلات وكثير غيرها تحتم علينا البحث الجاد عن اجابات تكون بمستوى هذه التساؤلات. ولا نبالغ اذا قلنا بان لدينا اختصاصيين -لا سيما بين صفوف الكهنة من حاملي الشهادات، سواء كانوا هنا ام لا زالوا يواصلون دراستهم في الخارج- بوسعهم، ان شاءوا، شريطة ان يوفر لهم مناخ مؤات للبحث، أن يضعوا الخطوط العريضة للاهوت يجيب عن تساؤلات مؤمنينا في هذا البلد. انها امنية! عسى يلتفت اليها كل الذين يؤمنون بان للانجيل دورا يجب ان يلعبه في هذه الارض العريقة بالايمان.

---

(١) مارسيل لفيفر اسقف فرنسي تقلد عدة مناصب كنسية ويمثل اليوم الجناح المحافظ، الى اقصى الحدود، في الكنيسة، كونه يرفض تعاليم المجمع الفاتيكاني الثاني ويدعو الى الرجوع الى المفاهيم القديمة (راجع مقال: مطران يرفض التجدد للاب يوسف حبي- ف.م. العدد ١٢٠، ك١ ١٩٧٦).

الله يلتقي بالانسان في المسيح!

صراع ما يزال المؤمن –وفي عصرنا هذا– يعيشه بين ما يشده الى الارض وما يشده الى "العالم الاخر"! بين ايمانه بالانسان وايمانه بالله! بين التزامه قضايا الانسانية والتزامه "قضية الله". واقل ما يقال في هذا الصراع انه صراع وهمي ومفتعل يقوم على نظرة قاصرة الى الواقع الانساني، كونه ينتمي الى مفاهيم هي انعكاس لثنائية مقيتة تجد جذورها في البناء الفلسفي– اللاهوتي في القرون الوسطى. فكل تمييز بين "عالم الله" و "عالم الانسان" انما يتجاهل كون الله التقى بالانسان في يسوع المسيح!

الاب عبد السلام حلوة يطرح سؤالا ويحاول الاجابة اليه من خلال هذا العرض، وهذا هو السؤال: اذا كان سر الله وسر الانسان وجهين لواقع واحد، اليس من الضروري اعادة النظر في تعبيرنا التقليدي عن الايمان؟ وفي الجواب الى هذا السؤال يضحي الايمان بسر المسيح –عمانوئيل– نقطة في مسيرة الانسانية نحو ملء اكتمالها.

اصبح من البديهي القول بان حياة الانسان اليومية الاعتيادية وحياته الايمانية هما حقيقة واحدة، ذلك لاننا نعيش واقعا واحدا مادته الاولى هي حياتنا الانسانية بكافة ابعادها، غير ان هذا الواقع يتخذ معناه الاخير والعميق بحياة الايمان. وهذا يعني ان الايمان يكشف لنا عن حياة الله ويمكنها من ان تتحد وتتفاعل بكل جوانب حياتنا الانسانية بحيث تحملنا على اكتشاف ذاتنا والسير نحو ملء انسانيتنا المدعوة الى بلوغها.

واذا كانت هذه الحقيقة تبدو بديهية، غير اننا نعلم مدى صعوبة تحقيقها على صعيد الحياة الفعلية، ذلك لان النتيجة الاولى لقبول وتحقيق وعيش هذه الحقيقة هي القبول بان سر الانسان وسر الله هما واقع واحد، وان هناك وحدة بينهما لا يمكن تجزئتها. وهذا يعني ان علينا ان نرى في التزاماتنا الانسانية تجسيدا ملموسا للايمان، ولا يجوز لنا من ثم ان نعتبرها كمواضيع عرضية نسبة الى حياة الايمان، انما هي المادة الاساسية لكي يحيا الانسان ايمانا الهيا متجسدا في عالمه الانساني.

لماذا هذا التأكيد حول هذه البديهية؟

مولد العالم الصناعي الحديث يضطرنا الى اعدة النظر في تعبيرنا التقليدي للايمان.

منذ ان ظهرت افكار عصر النهضة المتمحورة حول الانسان (الانسانوية Humanisme) كردة فعل لما كان شائعا في العصور الوسيطة من مفاهيم اسكولاستيكية[١] جامدة وغارقة في فلسفات ما وراء الطبيعية (Métaphysique)، او بالاحرى منذ بداية القرن التاسع عشر حيث ظهرت بوادر الفكر العلمي المرتبط بواقع الثورة الصناعية والتكنولوجية، شرع العالم الصناعي الحديث بفرض نفسه على الوجود الانساني. لقد بدا هذا العالم وكأنه عالم مكتف بذاته، لا يحس بالحاجة الى أي شيء

خارجي لكي يفهم نفسه او لكي يحقق مستقبله بنجاح، عالم يشعر بقدرته على العيش من دون اللجوء الى الله، ويطرح نفسه كعالم ضد او على الاقل مواز لاي دين كان. واصبح الدين في مفهوم العالم المعاصر امرا يتعلق بحياة الانسان الخاصة، بحياه الانسان على هامش الحياة العامة كونه ينتمي في انطلاقاته ولغته الى عالم اندثرت معظم معالمه.

يتساءل المؤمن

ازاء هذه المعطيات الجديدة للعالم الحديث يتساءل المؤمن -وهو ينفق تسعة اعشار حياته اليومية في المشاركة الفعلية لبناء وتطوير العالم الذي ينتمي اليه، واضعا فيه كل طموحاته المشروعة في المستقبل الافضل- يتساءل، وبصورة مستمرة، عن موقع ايمانه في خضم هذه المعطيات والنشاطات التي تفرض نفسها بقوة وتقلق سكون المفاهيم الكلاسيكية عن الله ودوره في حياة الانسان.

غير ان هناك من يدعي بان بامكان المؤمنين ان يعزلوا انفسهم داخل جدران الرفض لكل ما هو حديث ليتمكنوا من المحافظة على نقاوة الايمان (التقليدي)، اذ يعتقدون بان التفاعل المستمر مع الواقع من شأنه ان يقود الايمان الى الانحسار، وبالتالي الى الذوبان في مفاهيم انسانية واخلاقية عامة وحسب. ومن هنا ظهرت عمليات الرفض والدفاع الذاتي ضد كل ما يطرح من جديد في مجال العلوم الانسانية وضد ما تكشفه هذه العلوم من ابعاد جديدة تغني الحياة الانسانية وتطورها، وكأن هناك صراعا دائما بين عالم الله وعالم الانسان، بحيث يتحتم على كل واحد منهما ان يتوسع وينمو على حساب الاخر!

ولكن، هل من المنطق ان نرفض التفاعل الجدي والمستمر مع الواقع؟ وهذه المعطيات الحديثة التي أدخلها العالم المعاصر في تحليلاتنا، الا تضطرنا الى اعادة النظر في تعبيرنا التقليدي عن الايمان؟ اليست العصرنة ضرورة تفرض ذاتها في كنيسة اليوم؟ وحين نتكلم عن العصرنة، فنحن لا ندعو الى رفض كل قديم بشكل مبدئي ولا نهدف الى تشكيك النفوس المطمئنة فالعصرنة -ونضيف اليها كلمة (الاصالة)- تقوم في ان نجعل من تعبيراتنا الايمانية وممارساتنا الانجيلية امورا تنتمي حضاريا الى العالم المعاصر، دون ان تفقد ارتباطها بكل ما هو اصيل في تراث آبائنا. فالتعبير الايماني الاصيل والمعاصر هو ذلك التعبير الذي يملك القابلية على اظهار جوهر الرسالة الانجيلية عبر مفاهيم ورموز (لغة) يفهمها الجميع، تنبع من الخلفية الحضارية الخاصة بمجتمع ما.

فحين نبحث موضوع اعادة النظر في تعبيراتنا الايمانية، تنتصب امامنا مجموعة من الاسئلة، نختار منها ثلاثة اسئلة رئيسة:

أ- هل يحق لنا ان نعيد النظر..؟

السؤال الذي يفرض ذاته يدور حول (شرعية) القيام باعادة النظر في التعبير الايماني الذي وصل الينا عبر الاجيال بعد ان علقت به ترسبات غريبة كانت ضرورية في اوانها.

وبكلمة اخرى: اليست هذه العملية كفرًا ومغالاة؟ اليس الايمان قضية تتجاوز اعتقاداتنا الخاصة وتفوق امكانياتنا المحدودة؟

نعلم ان الوحي الالهي لم يأتنا مباشرة من الله وبحالة نقية، انما اتانا ويأتينا من خلال الانسان، ومعنى ذلك ان الانسان -بعد ان يكون قد تشبع في اعماقه بالايمان- يحاول التعبير عن هذا الايمان بلغة انسانية تنتمي حضاريا الى الزمان والمكان اللذين يعيش فيهما، وتتسم بمواهبه الخاصة كما هي الحال بالنسبة الى الذين كتبوا اسفار الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وبالنسبة الى جميع اللاهوتيين الذين حاولوا التعبير نظريا عن خبرة المؤمنين العملية في الكنيسة. ومن هنا نفهم اسباب الاختلافات الموجودة في الاسلوب والرموز المستعملة، وفي المناهج النظرية والفلسفية المعتمدة في اللاهوت، غربيا كان ام شرقيًا. ذلك لان الانسان لا يمكنه مطلقا ان يتخلى عن عالمه فيصبح روحا محضا ينطق باسم الله في ما يتعلق بالايمان!

من هذا المنطلق يمكننا القول بصورة شاملة بان الايمان المعبر عنه في كتب التعليم المسيحي وفي مناهج اللاهوت التقليدية يحمل، الى حد كبير، مواصفات عالم خاص لم يصل الى نهايته بعد، ولا نزال جميعنا، بشكل او بآخر، نعيش في امتداداته. هذا العالم يمكننا ان نطلق عليه اسم (عالم ما قبل المد العلمي)، او عالم ما قبل الثورة الصناعية، وكلنا يعلم بان هذا العالم اخذ تدريجيا بالانحسار بتأثير قوي العالم الجديد. فبينما كان الانسان قديما يخاف قوى الطبيعية لانه كان يجهل قوانينها الذاتية ويشعر بانه كائن صغير نسبة الى هذا الكون العظيم، نجد انسان اليوم اكثر ثقة بنفسه وبقدراته، فراح يجعل نفسه محور الخليقة، وهو بذلك على صواب. لقد لجأ الانسان في الماضي، نتيجة لخوفه وقلقه من سيطرة الطبيعة عليه، الى البحث عن عالم آخر (قدسي) في مكان ما في الاعالي يجد فيه حلولا لكل مشاكله وتناقضاته وكل ما فشل فيه اثناء خبرته الحياتية، فراى ان هذا العالم الاخر يملك هو وحده القابلية على تفسير تناقضات العالم الواقعي، وانه هو وحده يملك كل صفات القوة والاستقرار والمتانة. وهنا يمكننا ان نقول، بشيء من التحفظ، بان الميتافيزيقيا ليست سوى تعبير علمي لمثل هذه العقلية التي كانت سائدة في زمن ليس ببعيد.

وهكذا نفهم الان بوضوح الاسباب التي جعلت الايمان التقليدي يقدم لنا معطيات الكلمة الانجيلية الموحاة من خلال مناهج تعتمد الاقرار بوجود عالمين متميزين(٢): عالمنا الواقعي الذي نحيا فيه، والعالم الآخر. ومنذ ذلك الحين اصبح العالم الواقعي لدى المؤمنين عالما وقتيا وظلا للعالم (الحقيقي)، أي العالم الاخر الذي لا يمكن اكتشافه ولا التعرف عليه الا من خلال الايمان؛ فما الدين بهذا المنطوق سوى الوسيلة التي نستطيع بواسطتها ان ندخل بعلاقة مع هذا العالم الحقيقي!

ب- هل من الضروري ان نعيد النظر..؟

السؤال الثاني الذي يجب ان نطرحه الان هو: هل من الضروري حقا ان نعيد النظر بالتعبير الذي توراثناه عن الايمان؟ أصحيح ان العالم الحديث الموسوم بالعلمية يضطرنا الى القيام بهذه العملية؟

لقد بينا اعلاه شرعية القضية التي نطرحها في هذا المقال، وعلينا ان نبحث الان في مسألة (الضرورة) ودوافعها ونستعرض ابرز الاسباب التي تدفعنا الى القيام بعملية اعادة النظر.

١- بعد ان اصبح المجال مفتوحا امام العلم والتقنية للسيطرة على الطبيعة، اضحت واهية المبررات التي دعت انسان الماضي الى البحث عن عالم يجيب الى تساؤلاته الكثيرة حول الطبيعة وقوانينها. كما ان ذاك الاله الذي اوجدته مخيلة البشر ليجيب فقط الى التساؤلات الناتجة من جهل الانسان لقوى الطبيعة وعدم قدرته على مواجهة قوانينها، اصبح في حالة تقهقر تدريجي. وبدأ انسان اليوم يبحث عن الاله الذي (خلق الانسان على صورته) والذي يعطي الانسان مكانته في الكون ويثبته في دوره الذي يقوم في توجيه سائر المخلوقات باتجاه مستقبله الانساني؛ وهكذا نرى الانسان يكتشف إلهاً حقيقيا يأتي للقائه في قلب حياته الانسانية ويرافقه، بمسيرة واحدة، في طريق السعادة.

٢- ان التعلق المفرط بالعالم الاخر قد يحملنا على رفض العالم الواقعي الذي نحيا فيه، او يؤدي بنا على الاقل الى عدم اخذ ابعاده مأخذ الجد، علما باننا اذا رفضنا عالمنا الواقعي نصبح ضحية الخيالات والاوهام التي خلقناها بانفسنا. فاذا اصرت المسيحية التقليدية على عدم القبول بالعالم الواقعي بصورة جدية، ومن دون أي تحفظ، فقد تضحي ملجأ لاولئك الذين يفضلون الهروب من واقعهم والعيش في متاهات الخيال، سيما ونحن نشاهد حاليا قيام بدع في اماكن كثيرة من العالم من امثال بدعة مون وكرشناه و (معبد الشعب) الخ... فالشيء الوحيد الذي يحفظ المسيحية من الانحراف هو التصاقها بالارض والتزامها عالم لانسان بشكل جدي.

٣- التاريخ يضعنا ازاء مسؤولياتنا الحاضرة. فالكنيسة رفضت في الاجيال الماضية امورا كثيرة عادت فقبلتها اليوم: لقد حذرت من الثورة العلمية في القرن ١٧، ووقفت ضد الثورة السياسية في القرن ١٨، وتحفظت بشدة تجاه الثورة الاجتماعية في القرن ١٩، ومن ثم بدأت في القرن العشرين تعلن قبولها لامور اصبحت في حكم البديهيات! وهكذا بدت الكنيسة وكأنها منفصلة عن مسيرة التاريخ، وكأن الاختبارات الانسانية كان ينبغي ان تجري في الخارج اولا، ومن ثم تعرض على الكنيسة! فازاء هذا الواقع التاريخي، اين تلك الروح النبوية التي من شأنها ان تجعل الكنيسة رائدة وصاحبة المبادرة في كافة المجالات؟ اليست الكنيسة فعل الروح القدس، وعليها من ثم ان تحيا بهذا الروح في مواجهتها للاحداث والظواهر التي تجري في العالم؟ اليس هذا امرا يدعو الى التفكير واعادة النظر؟

٤- وهناك اخيرا حقيقة التجسد وابعادها في حياة المؤمنين الفعلية: ان تجسد الكلمة الالهي في العالم الانساني قلب كافة المفاهيم الفلسفية الماورائية عن الله، واصبح المسيح نقطة الانطلاق.. وهناك قضية اعطاء الروح القدس الى الانسانية (العنصرة): هل فكرنا جديا بالدور الذي يجب ان تلعبه العنصرة في توجيه انظار الانسان الى ما هو واقعي وانساني؟

ان النتيجة الاولى التي نستطيع ان نستخلصها من تأملنا في التجسد والعنصرة هي ان نحذر من كل روحانية تنقلنا الى مكان غير المكان الذي اختاره الله لكي يتجسد فيه وينفخ فيه روحه القدوس: "وبينما هم شاخصون بابصارهم الى السماء وهو منطلق، اذا برجلين عليهما لباس ابيض وقفا بهم وقالا لهم: ايها الرجال الجليليون، ما بالكم واقفين تنظرون الى السماء" (اعمال الرسل١: ١٠-١١). فلماذا نبقى ننظر الى سماء خيالية، بينما السماء الحقيقية هي حيث يكون الله؟

ج _ صياغة معاصرة لتعبيرنا الايماني

ويتضح من كل ما تقدم بان الاعتراف بضرورة اعادة النظر في تعبيرنا الايماني بات امرا لا مناص منه اذا كنا نشاء للمسيحية ربيعا جديدا. علينا ان نعيد صياغة تعبيرنا الايماني بصورة لا تقليدية، معاصرة، تنفي التمييز الذي احدثه اللاهوت التقليدي بين عالم الانسان والعالم الاخر والذي اطلق عليه جزافا اسم عالم الله، وهذا يفترض الانتقال من مسيحية تنطلق من مفاهيم "قدسية" (Sacral)، مسبقة عن الكون وعن الله، الى مسيحية **تنطلق من الايمان المعاش في عالمنا الواقعي الذي سكنه ويسكنه حب الله الخلاق والخلاصي**، وبكلمة اخرى علينا الانتقال الى حياة انسانية تجد معناها العميق الشامل في الايمان.

غير اننا ندرك بان هذا الايمان هو هبة مجانية ولا يمكن ان نخترعه حسب ارادتنا الخاصة، لذا فان اعادة النظر في المفاهيم والتعابير الايمانية لا تعني بالضرورة تغيير او تطوير الايمان، انما تعني اكتشافا مستمرا للينبوع الاصيل لهذا الايمان، في قلب موقعنا كمؤمنين يعيشون في العالم المعاصر. فاذا كنا نريد القيام بهذه العملية الشرعية الضرورية، علينا ان نذهب الى المركز الحي لهذا الايمان، ومن هناك فقط -وليس من مكان آخر- نستطيع الانطلاق.

التعمق في سر يسوع المسيح الذي هو الطريق والحق الحياة

سر يسوع المسيح هو المركز الحي لايماننا المسيحي، ومن العبث ان نبحث في مكان اخر عن ركيزة لايماننا. واذا كان هذا الامر يبدو بديهيا، غير ان الاعتقاد الشائع يقوم في كون المسيحي هو، قبل كل شيء، انسان يؤمن بوجود الله (déiste)، ومن ثم يؤمن بذلك الاله الذي كشف عنه الانبياء العهد القديم (théiste- monothéiste)، واخيرا يضيف الى ايمانه شخص يسوع المسيح دون ان يدرك كيف تنسجم هذه الحقائق!

فاذا كان يسوع هو نقطة الانطلاق لايماننا، فالمسيحي هو قبل كل شيء **انسان تفجر كيانه الانساني باكمله، وبصورة جذرية، بفعل الكلمة الالهية**، على شكل حياة جديدة مختومة بدم يسوع الذي هو مسيح الرب، واصبحت حياته الجديدة هذه، بواسطة يسوع المسيح، نورا وديناميكية: "الى من نذهب يارب وعندك كلام الحياة الابدية" (يوحنا ٦: ٦٨). فالمسيحي هو، اذن، **ذاك الانسان الذي يثق بالمسيح الحي ويرى، فيه ومن خلاله، الله والعالم ووجوده الخاص.**

الى أي مدى يمكننا السير في طريق التعمق بسر "الاب"؟

المسيحي يعلم انه يسير مع ذاك الذي قال: "انا الطريق والحق والحياة... من رآني فقد رأى الاب"، وهو بذلك على يقين بعدم جدوى الطرق الاخرى: "لا احد يذهب الى الاب الا بي" (يوحنا ١٤:٦)، "الله لم يره احد قط؛ الاله، الابن الوحيد، الذي في حضن الاب هو نفسه قد اخبر" (يوحنا ١:١٨). فحين يتجلى المسيح تختفي المبادئ الادبية والفلسفات والمناهج النظرية، وهذا يعني ان على المسيحي ان يعيد النظر في كل شيء على ضوء ايمانه بيسوع المسيح؛ واول عمل يقوم به هو اعادة النظر في مفهومه عن الله. ذلك لان المسيح ليس مرحلة من مراحل الكشف الالهي (Révélation)، انما هو بذاته الوحي والكشف الالهي. فهو الكلمة التي بها خلق كل شيء، وبه ياخذ كل شيء معناه العميق، انه الالف والياء، البداية والنهاية، الاصل والكمال... ولهذا السبب بالذات نقول بضرورة وشرعية اعادة النظر في كل شيء، انطلاقا من المسيح يسوع.

من هو يسوع المسيح؟

للاجابة الى هذا السؤال، سنتجنب الحديث النظري المجرد ونحاول ان نرى كيف فهمه الانجيليون والرسل، فنرى كيف علينا نحن اليوم ان نفهمه.

يسوع هو كلمة الله الخلاقة الذي به ومعه وفيه خلق كل شيء مما في السماوات وعلى الارض، وهذا يعني ان ما من خليقة اتت الى الوجود الا بيسوع المسيح. ولكن اذا كان هو الله: "وكان الكلمة الله"، فهو الله "الابن" "بكر الخلائق"، و "صورة الله الغير المنظور" والمساوي لله في كل شيء...

ولكنه ايضا "البكر بين الاموات" (قولسي ١:١٨)، ابن الانسان، يسوع من الناصرة، "الشاهد الامين" كما يدعوه كاتب سفر الرؤيا (١:٥)، آدم الجديد...

من هنا نستطيع ان نقول بوضوح ايماني ان المسيح نفسه الذي عاش حياة انسانية مشابهة تماما لحياتنا في كل شيء -عدا الخطيئة- **هو نفسه** "الذي رأيناه باعيننا ولمسته ايدينا" على حد تعبير القديس يوحنا في رسالته الاولى (١:١)؛ **وهو نفسه** الذي كان "منذ البدء" اصل كل حقيقة ومبدأ كل وجود وكل طموح انساني؛ **وهو نفسه** "الذي كان عند الاب" والذي تمجد جسده ودخل في سر الله الخالد، **وهو نفسه** الذي يجد به العالم شمولية تاريخه واكتمال طموحاته، كما يقول القديس بولس: "ليحققه عند تمام الازمنة: أي ان يجمع تحت راس واحد، في المسيح، كل شيء، ما في السماوات وما على الارض" (افسس ١:١٠)، اذ "فيه ارتضى الله ان يحل الملء كله" (قولسي ١:١٩). فابن الله هو الذي تجلى لنا بجسد انساني احتوى تاريخنا الانساني باكمله.

بيسوع المسيح نستطيع ان نفهم ان معنى الخليقة وسبب وجودها هو ان تكون وتنمو وتتطور كي تصبح صورة ابن الله الخالدة، أي ان تشارك، بامانة واخلاص، حياة الله، لان

الله "ابو ربنا يسوع المسيح الذي غمرنا من علياء سمائه بكل بركة روحية في المسيح، اذ فيه قد اختارنا عن محبة، قبل انشاء العالم، لنكون قديسين وبغير عيب امامه، وسبق وحدد، على حسب مرضاته، ان نكون له ابناء بيسوع المسيح" (افسس ١:٣-٥). فهذا الابن نفسه اتى الى العالم ليحيا السر الالهي معنا (عمانوئيل)، صورة ملموسة وواقعية، ويعلمنا ان الحب وحده يستطيع ان يبني العالم، وانه وحده يستطيع ان يقهر قوى الموت وقوى الشر، وليقول لنا ايضا بأن "ما من حب اعظم من ان يبذل الانسان نفسه عن احبائه" (يوحنا ١٥:١٣)، مما جعل الرسول يوحنا يقول: "ان الذي يحب فهو من الله مولود... لان الله محبة" (١يوحنا ٤:٧).

فاذا جمعنا هذه المعطيات حول سر يسوع المسيح، نستطيع ان نتبين بصورة اوضح ما اردنا ان نقوله في عنوان هذا المقال (الله يلتقي مع الانسان في المسيح). ففي المسيح نجد العالم والله في عهد امين وكامل، ذلك لان المسيح هو اساس هذا العهد (النعمة)، وهو الصورة المثالية لهذا اللقاء بين الله والعالم، كونه ابن الله وابن الانسان معا. انه الخليقة بأجمعها في سيرها نحو الله غايتها الاساسية، وهو الله الذي يعطي ذاته للخليقة كي يشركها في حياته.

ان ما قدمناه من تحليل مقتضب لا يسمح لنا بالخروج بنتائج نهائية وحدية، غير اننا نستطيع القول بان ايماننا المسيحي يضعنا في قلب "سر" واحد يحتوي الله والعالم في الوقت ذاته، كما يعبر عنه بولس للافسسيين: "اجل، لي، انا اصغر اصاغر القديسين جميعا، قد اعطيت هذه النعمة: ان ابشر في الامم بغنى المسيح الذي لا يستقصى، واوضح للجميع ما تدبير هذا السر المكتوم منذ الدهور في الله الخالق كل شيء، لكي تتجلى الان للرئاسات والسلاطين في السماوات، بواسطة الكنيسة، حكمة الله بوجوهها العديدة، وذلك على حسب قصده الذي اجراه في المسيح يسوع ربنا الذي لنا فيه الجرأة بالايمان على الدنو من الله في ثقة" (افسس ٣:٨-١٢).

ففي العالم، اذن، وليس في مكان اخر، نجد الله يلتزم ويتدخل بصورة جدية وحازمة ليجعل منه "الملكوت" الذي فيه يكون الله "كلا في الكل". فبالمسيح ومع المسيح، علينا ان ننبذ كل ما علق بايماننا من أوهام لا صلة لها بالواقع، فنكرس حياتنا لبناء العالم الذي نحيا فيه، وعلينا ان نتجنب كل تحفظ يراودنا تجاه الدعوة الى الالتزام بقضايا الانسانية كالحق والعدالة والسعي لبناء عالم يكون فيه الانسان اكثر شبها بصورة الله.

---

(١) اسكولاستيكية او المدرسية نسبة الى المدارس الفلسفية في القرون الوسطى.

(٢) راجع مقالنا (الثنائية وابعادها في الفكر)- ف.م العدد ١١٢ و ١١٣ (وهو منشور في هذا الكتاب).

الاجهاض ثمن الحياة

في ٢٠ ت٢ احتفل العالم اجمع بالذكرى العشرين لاعلان حقوق الطفل (١٩٥٩)، وكان لهذه الذكرى في عامنا هذا العام المخصص للطفل رنة خاصة.. غير ان هذه الحقوق، ولا سيما حق الطفل في الحياة، لا تزال موضوع مساومات طالما هددها يهدد سيفه الذي يقطع المحظورات: الاجهاض!

المقال التالي لا يدعي انه يتناول "ملف" الاجهاض في كل جوانبه، الا ان هدفه الوحيد ان يكشف عن السر الذي تخفيه كل ام في احشائها: سر الحياة التي يهدر الاجهاض، ازاءه، قبل ولادتها!

استطاع المصور السويدي لينارت نيلسون عام ١٩٦٥، وللمرة الاولى، ان يصور بالالوان احنّة بشرية؛ وكشف التصوير عن جمال الجنين، في ايامه الاولى، لم يكن في الحسبان! وتشهد هذه الصورة التي ترينا جنينا في اسبوعه السابع (وطوله سنتيمتران!) لسر الحياة الذي تخفيه كل ام في احشائها! واذا كان هذا الجنين لا يعد شخصا، لكنه كائن بشري حي، له تاريخ خاص منذ لحظة الحبل به: انه يتطلع بأمل الى اليوم الذي فيه ستكتحل عيناه بنور الشمس، ويسكن ارض البشر، بين الابكار من بني جنسه...

ولقد رسم كلود ايديلمان في كتابه "الايام الاولى للحياة" المراحل التي يمر بها الجنين -الامبريون- من ساعة الصفر "وتلك هي ولادته الحقيقية"، وحتى يطلق صرخته الاولى. من هذا الكتاب العلمي -وقد سمح مؤلفه لمجلة Missi الفرنسية ان تعكس زبدته في عددها الصادر نيسان ١٩٧٩، اعتمدناه في مقالنا- نستقي بعض جوانب نشوء الحياة ونموها.

كل شيء يبدأ في لحظة الحبل. ولا تمضي ست ساعات على الاخصاب(١) ، واذا بحياة تتدفق بشكل عجيب: تتضاعف الخلية الاولى الى اثنتين، فأربع، فثمان، فست عشرة، فاثنتين وثلاثين، فاربع وستين حتى تبلغ ٦٠ الف مليار خلية حين الولادة!

الاسابيع الاولى

في بادئ الامر لا يكاد حجم الجنين يتجاوز رأس دبوس (١/١٠ من الميلمتر) وبعد اربعة ايام فقط، يكون قد حصل على ست عشرة خلية، ومنذئذ تنطلق عملية كيماوية هائلة(٢).

ومنذ الاسبوع الثاني، يتم تصاعد في عدد الخلايا التي تبدأ عملها بعد ان تكون البويضة قد اتخذت مكانها على جدار الرحم، وتجري هذه الاحداث ولم تكد الام تعلم بحملها بعد! وحين لا يكون حجم البويضة قد تعدى الميلمتر، تكون انسجة ثلاثة قد تكونت لتشرف على تكوين الاوردة والشرايين والعضلات والعظام والجلد والجهاز العصبي..

هوذا الجنين في اسبوعه الثالث، وقد بلغ حجم حبة الحنطة: تلك هي النواة لرأس الطفل العتيد! ويسير العمل على قدم وساق في تكوين المخ ومن ثم الامعاء والرئة والكليتين.. ويأتي كل عضو في مكانه وفي وقته بموجب برنامج محكم كان ولا يزال موضوع دهشة علماء الاحياء والفلاسفة منذ بدء التاريخ. حينذاك تدرك الام انها تحمل في احشائها طفلا، فتشعر بانقلاب مذهل في نفسيتها، وتجتاحها سعادة لا توصف يشاركها فيها زوجها: انهما على يقين من ان حبهما قد اثمر، وها هما يتطلعان بفرح الى ميلاد هذا الطفل الذي سيغمر حياتهما بالغبطة.

واحد وعشرون يوما مرت فقط، وها نحن ازاء قلب اخذ يدفع بنفسه كرياته الحمراء الخاصة! وفي الاسبوع الرابع، تلف هذا الكائن الحي بيضة لا تتجاوز قطرها سنتيمترا ونصف، ويحيطه غشاء سائل، فغشاء اخر -الامنيوس- يجنبانه الصدمات ويجعلانه في مأمن من الميكروبات والضجة. ومنذئذ ينمو هذا الكائن الصغير في عالم مستقل، ويشبه ارتباطه بأمه بارتباط رائد الفضاء بمركبته! وما هي الا بضعة ايام واذا بذراعيه تمتدان وتليهما قدماه. وحين يبلغ ثلاثة اشهر يكون قد تخطى الفترة التي يتعرض فيها للاصابة بفيروس -الحصبة الالمانية- ولذا يلزم الام مزيد من الفطنة خلال الاشهر الثلاثة الاولى من الحمل.

الحركة الاولى

في الاسبوع السادس، لم يكن حجم الجنين قد تعدى السنتيمتر الواحد! ويتضاعف حجمه في نهاية الاسبوع السابع، وتكون خيوط الدماغ قد امتدت لترسم ملامح الوجه وشبكية العينين، ويكون الجلد قد تشدد واضحى شفافا، ومن ثم ينطوي الدماغ على نفسه ويتخذ الشكل الذي سيكون له فيما بعد، باقسامه الخمسة المتميزة. وحين يجتاز الجنين الشهرين، يكون طوله قد بلغ اربعة سنتيمترات وحجمه ٤٠ الف مرة اكثر من حجم البويضة التي انطلق منها! وها هو يقوم بحركة قلما تفطن لها الام، بادئ بدء. وقبيل بلوغه الشهر الثالث يتم نمو مدهش يشمل اليدين والاصابع والاضافر، وترتسم ملامح الانف والشفتين، ويستمر القلب في النبض بسرعة ٩٠ نبضة في الدقيقة. وفي هذه المرحلة، ومن دون علم الام، يكون الجنين ولدا او بنتا!

ثلاثة اشهر مرت اكتمل خلالها تركيب الجنين العضوي، وبدأت اعضاؤه تؤدي وظائفها في انسجام تام: كان القلب ينبض لوحده، وها هو الان ينبض تحت اشراف الجهاز العصبي. وبين الشهر الرابع والخامس يتراوح طول الجنين بين ١٥-٢٥سم، ويكون قد بلغ نصف طوله لدى الولادة، وتكتمل التفاصيل: فالعينان تتخذ لونهما، وتقوى الرئتان على فتح الحويصلات الهوائية، وتنمو الغدد اللعابية، وتتشدد اللثة حول جذور الاسنان.. ويلف الجسم كله غشاء دقيق، وهنا يطرح السؤال نفسه: متى تبدأ الحياة العاقلة في الطفل؟ أحين يكون الدماغ قد اخذ مكانه في نهاية الشهر الثالث؟ ام حين يبدأ الجنين حركته الاولى في نهاية الشهر الرابع؟ ام حين يبدأ الجهاز العصبي المركزي بالنضج في الشهر الخامس؟ ام حين الولادة؟ ام حين يبدأ الطفل بالنطق؟ .. ليس هناك بداية بالتحديد: فالحياة العاقلة تنمو باطراد، عبر مراحل.. ويكون التحول الكبير في حياة الطفل قد بدأ في نهاية الشهر الرابع، ولن ينتهي الا في سن الرابعة عشرة حين يكون النضوج العصبي قد اكتمل تماما.

الصرخة الاولى

كانت حركة الشفتين، في الشهر الثالث، تحرك كل عضلات الوجه بشكل عشوائي، ولا تنتظم هذه الحركة الا في غضون الشهر الرابع؛ ومنذ الشهر السادس، يبدأ الجنين يمص ابهامه: انها عملية تلقي الحوافز وذلك ياخذ بألباب علماء النفس! في هذا العالم -المائي- لا تثار حاستا النظر والشم، غير ان الملامسة توقظ في الجنين المناطق الحساسة من جسمه: فالجنين يعرف الطريق الى فمه، كما ان الاصوات توقظ فيه منطقة السمع.. انه يملك خبرة خاصة قبل الولادة تترك اثارها في حياته، وهكذا يكون للتعب والحالات العصبية والتنقل والعمل الشاق والتدخين[٣] الخ.. اثارها على ولادات قبل الاوان.

وبعد مغامرة بيوكيماوية مذهلة تخوضها الام وطفلها معا، يقترب هذا الكائن المحجوز في رحم امه من نهاية المطاف ويتأهب للخروج الى النور! ففي الاسابيع الاخيرة تكون عضلاته قد تشددت وعظامه تصلبت، واخذت معدته تهضم الخلايا المتقرنة التي تسبح في سائل الامنيون.. وراح يتضايق من الحيز الذي لم يعد يسعه، واضعا رأسه باتجاه الاسفل في انتظار الحدث الكبير! وها هوذا، بعد سفر حوالي ٢٦٦ يوما، يترل في نهاية الخط ليسجل اسمه بين الاحياء على ارض البشر، ويطلق زفرة عميقة: انها صرخته الاولى! وللحال تنسى الام مخاضها والشدائد التي تحملتها طيلة تسعة اشهر، فرحة بان انسانا قد ولد في العالم، على حد تعبير المسيح.

الطفل- الانسان

ها نحن ازاء شخص! غير ان الولادة لا تعني بداية او نهاية مطاف: فحياة الطفل البيولوجية تواصل المسيرة التي انطلقت في الرحم، وهكذا هي الحال بالنسبة الى حياته

الاجتماعية. وتشير المعطيات العلمية الحديثة الى ان الطفل لا يتكون كليا، لا بفضل الوراثة ولا بفضل المحيط منفصلين، اذ ان لكليهما اثرهما البالغ في نضوجه والذي هو نتيجة تركتين: تركة الوراثة من جهة، وتركة (حضارية- اجتماعية) تطبعه بطابع الاسرة والبلد والحضارة والبيئة الاجتماعية التي يولد في اكنافها.

قبل ان يولد، كان الطفل يعيش في شبه ملجأ، من لحم ودم، وها هو الان في عالم مليء بالرموز والعلامات التي تشكل الحياة الاجتماعية، وهكذا يكون للبيئة الاجتماعية اثرها الكبير في نمو الوليد الجديد؛ وتبرز مسؤولية الوالدين التربوية، وتتخذ عناية الام بطفلها بنوع خاص -بما تتطلبه من حب وحنان وسهر على تغذيته وراحته وسعادته- في السنتين الاوليتين اهمية بالغة في تكوين شخصيته وانماء عقله ومواهبه وقابلياته: فهي، باحتضانها وابتسامتها له ونظراتها اليه واحاديثها معه، تمنحه الشعور بالاطمئنان والثقة من جهة، وتوقظ فيه الحوافز البناءة التي تمنحه الشعور بالوجود المستقل من الجهة الاخرى.

هكذا يبدو الرضيع كائنا نشيطا "يقود" نضوجه عبر عفوية عجيبة وطاقة لا حد لها وعبقرية فريدة وتوق لا يوصف الى العيش وتحقيق الذات حتى الاكتمال. لذا فان الحب الاكثر جمالا والاكثر نضوجًا والابعد اثرا، هو ذاك الذي لا يعتبر الطفل موضوع تملك، بل شخصا متميزا جديرا بالثقة والاحترام.

ولكن هناك.. الاجهاض!

هذه الصفحات -وقد حاولنا الاقتضاب الى حد كبير- كانت بمثابة نشيد للحياة! ولكن هناك ما يعرض هذه الحياة الناشئة للخطر: الا وهو الاجهاض! هذه العملية الاجرامية التي تسعى الى استئصال الجنين بعد ان يكون قد قام بخطوات ثابتة في الحياة.

لقد اصبح الاجهاض، في السنوات الاخيرة، موضوع نقاشات حادة على مختلف المستويات: فانكبت المجالس الوطنية في مختلف البلدان على دراسة هذا "الملف" الشائك الذي بات يقسم اعضاءها بحسب اختلاف القيم والايديولوجيات؛ وعمد العديد من الدول الى اجراء استفتاءات شعبية اسفرت عن وجود تيارات متناقضة وانقسامات عنيفة بين افراد الشعب، بحكم انتماءاتهم الدينية او الايديولوجية؛ وارتفعت اصوات الرؤساء الدينيين وحركات المدافعين عن الحياة منادية بقدسية الحياة وحق الجنين في العيش، مستنكرة الحجج التي يتذرع بها مؤيدو الاجهاض ومعلنة بانه (فعل موت) و (جريمة قتل) و (شر للمجتمع)... ومحذرة من العواقب الوخيمة التي يتضمنها على الصعيد الاجتماعي، ومن المردودات السلبية، على الصعيدين العاطفي والنفسي، في حياة الزوجين -والام بنوع

خاص... وانكب الالوف من الاطباء وعلماء النفس والجنس والديموغرافيين والقضاة الخ.. على دراسة جادة لهذا الموضوع الخطير..

ان منح الحياة لطفل امسى اليوم ولا شك مسألة تطرح صعوبات واقعية جمة، على مختلف الاصعدة، ولا عجب اذا رافقت الترددات قرار الزوجين بعد ان اصبحت الولادة رهنا بظروف اجتماعية واقتصادية وصحية ونفسية وتربوية.. وهذا دليل على ابوة وامومة مسؤولتين! غير ان هذا التردد قد يحصل بعد حمل لم يكن مرغوبا فيه او لم يكن الزوجان مهيئين له، وقد تكون لهذا التردد اسباب وجيهة احيانا:

هناك امراض تصيب الجنين في الاشهر الاولى من تكوينه قد تؤدي الى احتمال ولادة اطفال مشوهين او معوقين؛ وهناك "ولادات غير مرغوب فيها" قد تنتج عن عنف او اغتصاب، سواء في نطاق الزواج او خارجا عنه؛ وهناك التكاليف الباهظة التي تتطلبها ولادة جديدة؛ كما ان هناك صعوبات ذات شأن في التوفيق بين المسؤوليات التربوية ومتطلبات العمل المهني او الوظيفي التي تقتضيها حالة الاسرة الاقتصادية، ولا سيما في الظروف الراهنة الخ..

هناك ولا شك حالات اليمة قد تحمل على القول بـ "ولادة غير مرغوب فيها". غير ان مؤيدي الاجهاض، كثيراً ما يتذرعون بحجج واهية للقول بولادات غير مرغوب فيها، ومن هذه الحجج: حق المرأة في السيطرة على جسدها! الادعاء بان الجنين هو ملك لابيه وامه اللذين لهما حرية التصرف به! فصل الحياة الجنسية عن الانجاب، الحد من التنامي السكاني في البلدان التي لا تكفيها مواردها، وضع حد لحالات الاجهاض السري، تجنب الفضيحة واتخاذ الاجهاض وسيلة من وسائل منع الحمل الخ.. ويتناسى مؤيدو الاجهاض بان القول بولادات غير مرغوب فيها يرسي الحق في الحياة على اساس عشوائي، اذ ينطلق من مبدأ تصبح بموجبه ابادة غير مرغوب فيهم -شيوخا كانوا ام معوقين ام اطفالا ولدوا ولم تكن ولادتهم مرغوبة- حقا وواجبا!!

باسم القانون!

كان قانون العقوبات في اغلب الدول، لسنوات خلت، يدين الاجهاض بصفته جريمة قتل، وينزل اقسى العقوبات بمقترفيه؛ وكانت اول دول اجازته هي الاتحاد السوفييتي عام ١٩١٧ بحجة المرأة الثورية حرة في ان تصنع بطفلها ما تشاء، ولكنه تراجع عام ١٩٣٦ فمنع الاجهاض الا لاسباب صحية. واتبعت الدول الاسكندينافية مثل الاتحاد السوفييتي في اجازة الاجهاض، وبدوافع شبيهة بدوافعه: حرية المرأة وسلطانها على جسدها. وهكذا الامر بالنسبة الى الدول الاشتراكية التي، بعد ان اجازت الاجهاض بحجة القضاء على حالات الاجهاض السري، عادت فحددت شروطه وحالاته سيما بعد ان شعرت ان تناقض

الولادات من شأنه ان يحدث خللا في المجتمع. وكانت رومانيا اول دولة وضعت حدودا للاجهاض عام ١٩٦٦، وتبعتها بلغاريا ومن ثم تشيكوسلوفاكيا التي حرمت الاجهاض عام ١٩٧٣ على النساء اللواتي ليس لهن اطفال، او لهن طفل واحد.

وفي انكلترا، كان قانون العقوبات صارما بشأن الاجهاض حتى عام ١٩٦٧ و -كان قانون ١٩٦١ يعتبره جريمة يحكم على فاعلها بالاشغال الشاقة المؤبدة- وجاء قانون Abortion Act عام ١٩٦٧ فشرع الباب على مصراعيه[٤]. وفي اليابان نص قانون عام ١٩٤٨ على السماح بالاجهاض، للحد من الاجهاض السري المتفشي الذي يعرض حياة المرأة للخطر، ومن ثم توالت التعديلات على القانون في خط اكثر تساهلا.

وفي الهند قدمت الحكومة مشروع قانون عام ١٩٦٩ لاجازة الاجهاض، اصبح نافذ المفعول عام ١٩٧٢؛ ولكنها ازاء تصاعد النفقات التي تطلبتها برامج الحد من الولادات، اخذت تضطر المواطنين الى عملية التعقيم! وكان لهذا الاجراء غير القانوني اثر في سقوط حكومة انديرا غاندي.

وفي فرنسا عهد المجلس الوطني عام ١٩٧٣ الى لجنة برلمانية دراسة الموضوع من كافة جوانبه، اسفرت عن تقرير واف تضمن مطالعات ١٥٤ شخصية من مختلف الاختصاصات. وفي ١٧ ك٢ ١٩٧٥ صوت البرلمان على قانون مؤقت، يخضع للاختبار لمدة خمس سنوات، اصبح الاجهاض بموجبه مجازا في الاسبوع العاشر من الحمل. وفيما دعا هذا القانون الى "احترام الكائن البشري منذ بدء الحياة"، نص بانه لا يجوز تجاوز هذا المبدأ "الا في حالة الضرورة وبحسب الشروط التي يحددها القانون" (مراجعة طبيب ومرشد اجتماعي لاحاطة المرأة بالمخاطر التي تلحق بعملية الاجهاض وحملها على اتخاذ مسؤوليتها..) مؤكدا بانه لا يمكن البتة "اتخاذ الايقاف الارادي للحمل وسيلة لتنظم الولادات"[٥].

واجتاحت معظم الدول الغربية موجة عارمة، على الصعيدين الشعبي والبرلماني، تهدف الى تشريع الابواب واسعة بوجه الاجهاض، وبحدود زمنية مختلفة، وتحت شروط مطاطية. غير ان الغريب في كل هذه التشريعات التي "قوننت" الاجهاض هو انها اجازته اولا لاسباب صحية او ديموغرافية او اجتماعية او نفسية، وانتهى بها الامر الى اجازته لمختلف الدوافع واقلها شأنا، كالاكتفاء بطلب تتقدم به الحامل للتخلص من جنينها!

"القانوني" لا يساوي "الاخلاقي"

ان التشريعات التي سنتها بعض الدول، في السنوات الاخيرة، في ما يتعلق بالاجهاض احدثت انقلابا في المفاهيم، نتجت عنه بلبلة في الضمير الانساني: فما كان يعتبر، حتى عهد قريب، جريمة بشعة يعاقب عليها القانون، اصبح مجازا و "قانونيا"! واصبح الناس امام تضاد

صارخ بين القيم الاخلاقية والدينية، وبين القوانين التي تسنها الدولة بدوافع قد تغيب فيها الابعاد الروحية والخلقية، و لم يعودوا يميزون جيدا بين ما هو "قانوني" وبين ما هو "اخلاقي".

مثل هذا الاضطراب يحدث كل مرة تضطر فيها الدولة الى سن قوانين تنظم الاحوال الشخصية لمجموع المواطنين، بغض النظر عن معتقداتهم وقناعاتهم الدينية او الفلسفية. وغني عن القول ان مثل هذه القوانين لا تلزم كافة المواطنين، انما ترفع عن اولئك الذين لا ينتمون الى دين معين، او الذين يتنصلون من التزاماتهم الدينية او الخلقية، ضوابط وقيودا لا يرغبون في الخضوع لها، وفي الوقت ذاته يضحون بمنجى من العقوبات التي كانت تلحق بهم من جراء التجاوزات بحق القانون.

من هذا المنطلق -ولاسباب تختلف باختلاف الاوضاع الاجتماعية الاقتصادية والديموغرافية والايديولوجية- عمد العديد من الدول الى سن قوانين تبيح الطلاق والاجهاض وتنشئ الزواج المدني وتشرف على تنظيم الولادات الخ.. ومن البديهي ان مثل هذه القوانين المدنية لا تمس القيم الدينية والاخلاقية بأذى، ولا تبطل مفعول الشرائع الدينية ولا تمنع المؤمنين من الالتزام بها! وهكذا الامر بالنسبة الى الاجهاض الذي اجازته معظم الدول الغربية، وكان الدافع الى اجازته، في اغلب الاحيان، القضاء على حالات الاجهاض السري الذي لا تتوفر فيه الشروط الصحية.

لا شك ان من واجب المشرّع ان يسعى الى جعل"القانوني" يصبح اكثر قربا وتماسا من "الاخلاقي". واذا حدث ان تعارض"القانوني" مع "الاخلاقي"، فينبغي حينذاك ان تكون للمواطن -وللمؤمن بنوع خاص- قدرة على التمييز والحكم على القانون بمقتضى ضميره المستنير بالايمان. فبالنسبة الى الاجهاض مثلا، لا يصح ان نعتقد بانه ما دام قد اصبح "قانونيا"، فمعنى ذلك انه اضحى امرا طبيعيا يتفق والقيم الانسانية والاخلاقية!!

الكنيسة وقضية الاجهاض

ازاء تيار الاجهاض الجارف، وقفت الاديان، والكنائس المسيحية بنوع خاص، موقفا صامدا لا مساومة فيه. واذا كان هذا الموقف معروفا[٦] ، غير انه من الجدير بنا ان نعكس هنا الدوافع العميقة التي حملت وتحمل الكنائس المسيحية -والكاثوليكية بنوع خاص- على رفع صوتها، في كل مكان، للتنديد بالتشريعات التي تسلك طريق السهولة في قضية يبدو فيها الطرف الثالث -الطفل العتيد- شخصا اعزل، لا صوت له!

كان مجمع العقيدة والايمان قد اصدر عام ١٩٧٤ بيانا اكد فيه على قدسية الحياة البشرية، مستشهدا بـ "تعليم الرسل الاثني عشر"(القرن الثاني): "لا تقتل بالاجهاض ثمرة الرحم ولا تقتل الطفل الذي ولد"، وبتعليم المجمع الفاتيكاني الثاني الذي اعتبر الاجهاض

"جريمة بشعة"، جاء فيه: "ان احترام الحياة البشرية واجب منذ بداية الحمل. فما ان يتم تلقيح البويضة، واذا بحياة تنطلق هي غير حياة الاب او الام، بل حياة كائن بشري ينمو لذاته. فاذا لم يكن هذا الكائن بشريا مذ ذاك، فلن يصبح كذلك فيما بعد!". وفيما يقول البيان بان "الشرع المدني قد يلجأ الى السماح بما يعتبر شرا اهون، تحاشيا لشر اكبر"، يحذر من ان يعتبر "اباحة" ما هو مجرد "احجام عن العقاب".

وكلنا يذكر الرسالة التي وجهها الاساقفة السويسريون قبيل التصويت الشعبي عام ١٩٧٧ على مشروع قانون يبيح الاجهاض في الاشهر الثلاثة الاولى -وقد رفض بـ ٥١،٧% من الاصوات- وضعوا فيها النقاط على الحروف بشكل رصين ألَمّ بكافة جوانب المشروع ومردوداته السلبية.

وفي الولايات المتحدة، حين اصدرت المحكمة العليا عام ١٩٧٣ قرارا يمنح الحق في الاجهاض، في الاشهر الستة الاولى، ارتفعت اصوات الاساقفة الامريكان واصفة القرار بانه "مفزع" وانه يشكل "ماساة لا حدود لها وظلما فاضحا". وقد عاد الاساقفة مرات عديدة الى هذا الموضوع لدحض الحجج التي يتذرع بها مناصرو الاجهاض والكشف عن الاضرار التي تخفيها هذه الافة الاجتماعية، مطالبين بتعديل في الدستور "يضمن للطفل قبل ولادته الحق في الحياة". وكان للمساعي التي بذلها الاساقفة -تدعمهم الحركات والمنظمات العائلية- اثرها الكبير في حمل المحكمة العليا عام ١٩٧٧ على وضع بعض الحدود في ما يتعلق بالاعانات المادية التي كان قانون ١٩٧٣ قد اقرها للنساء اللواتي يرغبن في ان يجهضن.

وهكذا نجحت ايضا مساعي الاساقفة الالمان في التصدي "للانانيات واللامسؤولية من جانب رجال ونساء يرون في الاجهاض مخرجا يسيرا"، عن طريق اقامة مؤسسات لحماية الطفل "غير المرغوب فيه" والتشديد على الحق في تبني مثل هؤلاء الاطفال... وكان انتصار الاساقفة كبيرا حين رفعت بعض الولايات في المانيا الاتحادية شكوى الى المحكمة العليا، في اعقاب صدور قانون ١٩٧٤ الذي اجاز الاجهاض في الاشهر الثلاثة الاولى، وجاء قرار المحكمة في ١٥ شباط ١٩٧٥ ليعلن بان هذا القانون يعتبر ضد الدستور.

وقد تميزت مواقف الاساقفة الفرنسيين، قبل التصويت على مشروع القانون وبعده، في التركيز على الاخطار التي تهدد المجتمع من جراء اباحة الاجهاض الذي هو "فعل موت"، بينما يتوجب على المشرع ان يسعى الى "بعث الحياة". ولعل ابرز وثيقة اصدرها مجلس الاساقفة الدائم- الكتاب الابيض- الذي تناول ملف الاجهاض في كل ملابساته، وقبيل المناقشة التي تجري حاليا في البرلمان لاعادة النظر في القانون الذي سن عام ١٩٧٥ على سبيل التجربة، لمدة خمس سنوات.

مثل هذه المواقف اتخذها اغلبية المجالس الاسقفية في بلجيكا وهولندا واليابان والهند وكوريا وبولونيا ويوغسلافيا ولبنان.. ويطول بنا الحديث اذا شئنا ان نستعرض التنديدات والتحذيرات التي اطلقها الاحبار العظام، من بيوس الثاني عشر وحتى يوحنا بولس الثاني الذي ما انفك يذكّر بتعليم الكنيسة في احاديثه الاسبوعية ومقابلاته مع اساقفة العالم وخطاباته العامة في رحلاته الثلاث الكبرى، ولا سيما رحلته الاخيرة الى ارلندا والولايات المتحدة.

والخلاصة؟

بين الصفحات الاولى والصفحات الاخيرة من هذا المقال تضاد يشبه التضاد بين طابقين في احد مستشفيات لندن حيث يسعى اطباء، في الطابق السفلي بكل طاقاتهم، الى انقاذ اطفال ولدوا قبل الاوان، بينما يلقي غيرهم، في الطابق الاعلى، اشلاء اطفال "غير مرغوب فيهم"! فهذا الطفل الذي تتبعنا خطواته الاولى على طريق الحياة، يصادف قتلة - والدين ام اطباء- يسعون الى حذفه من سفر الحياة بأي ثمن كان، ويغتنمون عدم قدرته على رفع صوته وعجزه عن الدفاع عن نفسه ليمثلوا به افظع مأساة عرفتها البشرية، وينسون ان دمه - كدم هابيل- يصرخ، وقد بلغ صراخه الى اذني رب الصباؤوت!

ومهما تذرع مناصرو الاجهاض بحجج اقتصادية وديموغرافية وصحية واجتماعية واخلاقية وتربوية.. فالحياة هي اقدس من ان تهدم بهذه السهولة! وستبقى عملية استئصال الجنين، اية كانت الدوافع، "فعل موت" وجريمة تدفع اليها في غالب الاحيان الانانية واللامسؤولية الاجتماعية: فالحرية التي يطالبون بها للمرأة حرية مزيفة سرعان ما تتحول الى استعباد مقيت يناقض كيانها ودعوتها الى الامومة؛ وحق المرأة على جسدها الذي ينادون به لا يوازيه حق الطفل في الحياة، سيما بعد ان كشفت الابحاث الحديثة عن ان الطفل كائن مستقل ينمو لذاته.. كما دلت تجربة (الطفل — الانبوبة) التي قام بها الطبيب الانكليزي ادواردس. وكثيرا ما يتناسى مؤيدو الاجهاض ان ليس من أم لجأت إلى الاجهاض بطيب خاطر، وهي التي تدفعها طبيعتها الى ان تعطي الحياة!

ويطيب لنا ان نختم مقالنا بما ادلى به الاب جان تولات، الكاتب والصحفي الفرنسي الشهير، لمجلة "الشهادة المسيحية" (العدد ١٨٤١)- عن كتابه الاخير "الحق في الولادة": **"يجب ان تكون لنا الشجاعة لننظر الى الحقيقة وجها لوجه: من هو ذاك الذي نزيله بالاجهاض؟ (..) فحين نجرؤ على النظر الى الاشلاء التي تستخرج في الاسبوع العاشر، بحسب طريقة كارمان، يتضح لنا ان هذه الايادي الصغيرة وهذه الاقدام الصغيرة وقطع الرأس التي نميزها، هي من دون شك اعضاء كائن بشري (...) فاذا كان الطفل في**

جسد امه، ولكنه يتميز عنها تماما. انه ليس ملكا لا لابيه ولا لامه، ولا للدولة باولى حجة، وعليهم جميعا ان يحموه، كما نصت على ذلك شرعة حقوق الطفل: (للطفل حق في حماية خاصة، وحماية قانونية بنوع خاص، قبل الولادة وبعدها). وقد سبق لجان روستان ان حذرنا بقوله: ان ما يدعو الى الخوف هو حين ينتهي بنا الامر الى ان نرى من الطبيعي قتل الجنين، ومن ثم قتل الوليد الجديد، ولا نجد من ثم مانعا من قتل الشيخ، وهكذا نبلغ الى مفهوم هتلري".

---

(١) تتم عملية الاخصاب بلقاء خليتين، ذكرية وانثوية، يسفر عن تكوين خلية واحدة ذات حيوية هائلة. ويخفق الاخصاب بنسبة ٥٠ بالمائة في الايام الاولى من الحبل. غير ان ١ بالمائة فقط من الاطفال يتعرضون، في تكوينهم، لخطر التشويه، ويقل هذا الخطر حين تكون الام في سن العشرين بنسبة ٠،٠٥ بالمائة، بينما تبلغ هذه النسبة ٠،٤٠ بالمائة حين تكون الام في سن الخامسة والثلاثين.

(٢) يحدث ان تنقسم الخلية الاولى الى قسمين او اكثر فتعطي توأمين، غير ان التؤامين الحقيقيين ينبعثان من بيضة واحدة.. وتبلغ مجموع حالات التوائم ١٦ لكل ١٠٠٠ ولادة.

(٣) تشير بعض الاحصائيات الى ان نسبة الولادات السابقة لاوانها تبلغ ١٠ بالمائة لدى الامهات اللواتي يدخن ١-٥ سكاير في اليوم، وترتفع هذه النسبة الى حوالي ٣٠ بالمائة لدى اللواتي يدخن اكثر من ٢٠ سيكاره في اليوم، علما بان اثر السكاير على قامة الطفل وحجمه يتناسب طرديا مع عدد السكاير التي تدخنها الام في اليوم!

(٤) تشير الاحصائيات الى ان حالات الاجهاض في انكلترا قفزت بعد القانون من ٥٠٠٠٠ الى ١٠٠٠٠٠ عام ١٩٧٢، وتجدر الاشارة الى ان حالات الاجهاض (القانوني) نسبة الى الولادات كانت ١٣٧ لكل ١٠٠٠ ولادة عام ١٩٧٢، بينما بلغت ١٧٠ لكل ١٠٠٠ ولادة عام ١٩٧٥.

(٥) من ابرز الاسباب الموجبة للقانون الفرنسي، وضع حد لحالات الاجهاض السري وتقليص حالات الوفاة التي ترافقه -٦٠٠ امرأة سنويا. غير ان خبرة السنوات الخمس الاخيرة كشفت بان الاجهاض القانوني لم يقض على الاجهاض السري الذي تمارسه النساء بدافع التستر والتخلص من الشروط التي يفرضها القانون. وتشير الاحصائيات الى ان حالات الاجهاض السري بلغت ١٢٥٠٠٠ عام ١٩٧٦ مقابل ١٣٥٠٠٠ حالة اجهاض معلنة! وهكذا هي الحال في عدد من الدول التي قوننت الاجهاض.

(٦) اقرأ مقال الاب يوسف عتيشا: مشكلة الاجهاض في المجتمع العصري (ف. م. اذار ١٩٧٤ ص ١١٧-١٢٣). (وتجده منشورا في هذا الكتاب).

- افريقيا: كنيسة تبحث عن ذاتها

كانون الثاني/ ص١٠-١٧ الاب جرجس القس موسى

+ يسوع والحرية

شباط/ ص٥٨ - ٦٥ الاب جرجس القس موسى

+ المسيحي ازاء الالحاد

اذار/ ص١٠٦ - ١١٣ الاب لوسيان جميل

- الثورة موقع اصيل لاختبار ابعاد الايمان الانجيلي

نيسان/ ص١٥٤ — ١٦١ الاب عبد السلام حلوة

- الاكوادور: كنيسة الاصلاح الزراعي والفقراء

ايار/ ص٢٠٢ — ٢٠٩ نجيب قافو

- الشباب والتثقيف المسيحي/ استفتاء

حزيران — تموز/ ص٢٥٠ - ٢٥٧ الاب جرجس القس موسى

□ التربية الجنسية في اهتمام الكنيسة(*)

آب — ايلول/ ص٢٩٨ — ٣٠٥ الاب خليل قوجحصارلي

- بلغاريا: كنيسة وطنية

تشرين الاول/ ص٣٤٨ - ٣٥٣ الاب بيوس عفاص

- كنيسة الفيلبين: على طريق الثورة

تشرين الثاني/ ص٣٩٤ - ٤٠١ الاب جرجس القس موسى

● عدد خاص: شخصية يسوع المسيح(**)

كانون الاول/ ص٤٣٣ - ٥٠٦

(*) نشر هذا الملف في "كتاب رحلوا"/ ص١٠٣ — ١١٢.

(**) اثبتنا في "المختار من الاعداد الخاصة" المقالات التالية من عدد أحاط بعض الشيء بشخصية المسيح: يسوع، بشرى الله الجديدة (أ. خليل قوجحصارلي)، انسانية يسوع (أ. جرجس القس موسى)، هل كان يسوع الناصري رجل سياسة (أ. عبد السلام حلوة)، وجه يسوع من خلال الايقونات (الاخت ماريان ابراهيم).

يسوع والحرية

لكثرة ما مُلئت آذاننا منذ طفولتنا، وما قرأناه في كل الكتب الدينية والتقوية واللاهوتية عن ان المسيح ابن الله، وما طُبعت عليه أذهاننا وحسُّنا عن عجائب المسيح وخوارقه، بدت حياته لنا تسبح في جو من الروحانية المجردة وفي شبه تسام لا يلمس البشرية إلا من عل.

الأب جرجس القس موسى يقدم لنا في هذا الملف يسوع مناضلا ونبيا إلى جانب الفقراء والمقهورين، اليوم.. كما كان البارحة. بذلك لا يدعو إلى طمس وجه يسوع الإلهي في الظل، وإنما إلى رؤية جديدة ليسوع التاريخي، والى قراءة جدلية لبعض النصوص الإنجيلية المألوفة وإعادة "نبرتها الثورية" إليها.

في أواسط الستينات شاهد آباء المجمع الفاتيكاني الثاني في روما العرض الأول لفيلم بعنوان "إنجيل القديس متى" للمخرج الايطالي الشهير بازوليني. وهناك رواية تقول بان لإخراج هذا الفيلم قصة مفادها ان صاحبه، وهو ماركسي النزعة والتفكير، عثر على نص إنجيل القديس متى عن طريق المصادفة في غرفته في الفندق. فتناول الكتاب بدافع الفضول يستجب لنداء النوم حتى جاء إلى آخره، فاكتشف من خلاله رجلا أحب الفقراء ووضعاء الناس واستمات في سبيل تحريرهم من الاستغلال وكل أنواع الاستلابات. فكان جزاؤه أن أُعدم لأنه زعزع ركائز الحكم القائم وفضح مصالح الطبقة الحاكمة وزرع بذرة الثورة في نفوس المستغَلين.

لم يكن بازوليني لاهوتيا، ولا اراد من خلال صوره أن يقدم شخصية المسيح الإلهية، بل استبعد من عمله مثل هذا التصوّر، لذا تململ بعض الآباء من" روح" الفيلم؛ غير انه، ببقائه أمينا وحريصا على النص الإنجيلي "بماديّته"، جعلنا نكتشف الوجه الأصيل الآخر ليسوع، اعني به وجهه التاريخي الإنساني، بكل غناه ومعانيه، من اجل تحرير الإنسان الكامل، وبذلك كشف لنا جانبا ديناميا من وجه يسوع المخلص. هو هذا البعد نفسه الذي نحاول الكشف عنه في هذا المقال. فمن خلال نصوص إنجيلية تعودت عليها آذاننا حتى فقدت "هجوميتها"، سنحاول العودة إلى يسوع التاريخي -وهذا ما يجعلنا نفضل هنا اسم "يسوع" على لقب "المسيح" باعتباره الاسم الشخصي الذي ناداه به الناس-. ومن خبرته الذاتية سننتقل إلى تعليمه، ومن ثم إلى مشروع الإنسانية الجديدة التي جاء لتحقيقها. أليس ذلك معنى "العهد الجديد"؟ ولكن هذه القراءة الجديدة للإنجيل سنقوم بها على ضوء التحدي الذي يشهده مقهورو العالم وصغاره بوجه تلامذة يسوع اليوم بالذات، هؤلاء المقهورون الذين يطالبون كنيسة يسوع أن تكون امتدادا وتجسيدا واقعيا محسوسا وجهاديا لرسالة يسوع التحررية.

نبي الإنسانية الجديدة

من وجهة نظر تاريخية وموضوعية، لم تكن الديانات على اختلاف أنواعها مجرد اطـر "روحانية" و "وجدانية" لتنظيم علاقة الإنسان بالطبيعة وبخالق الطبيعة، بل كلها جمعاء لعبت وتلعب دورا وظيفيا مهما في تكوين وتطبيع المجتمع، سواء بتأطيره ضمن سنن وشرائع وثواب وعقاب، أو بمقاومتها أخطاءه وانحرافاته. وإذا أخذنا الديانات السماوية، رأينا ان الأنبياء مثّلوا بالأحرى هذا الجانب الأخير حيث لعبوا دور الناقد والرائي والشاعر الذي يرى ما وراء الظواهر ويسلط الأضواء على جوهر الأمور ويستبق وقوعها بحدسه النبوي.

يسوعنا يأتي في خط هؤلاء" المناضلين" الذين ما انحرفوا عن وظيفتهم النبوية حتى قادهم صلابتهم وأمانتهم لرسالتهم إلى الاستشهاد. إننا لا ننتقص من شخصية المسيح إذا ما جعلناه في صف الأنبياء -وهو الأعظم- لان النبوة ليست قراءة الغيب، بقدر ما هي قراءة الحاضر لإعداد المستقبل، أو قراءة المستقبل على ضوء الحاضر، من جهة، ومن جهة أخرى النبوة غوص في البعد الجوهري للأشياء والأحداث وللحياة الخاصة والعامة، لتقويمها ولوضعها في إطارها الكوني والاجتماعي الطبيعي، هذا الإطار الذي يضم الله والإنسان - كفرد و كمجتمع- في علاقة صميمية من المشاركة والمحبة والانجذاب والوحدة. وهل أكثر من يسوع من عاش وعلمنا ودعانا إلى هذا الكشف والى مثل هذه الرؤية الإلهية — الإنسانية للكون والحياة والمجتمع؟!

" ملكوت الله" - الإنسانية الجديدة

ولكن ما هي رسالة يسوع النبوية إلى الإنسانية؟

الأناجيل أربعتها تعكس لنا يسوعا همه الأكبر أن يجعل الإنسان وإرادة الله المتجلية في التاريخ "في حالة مجابهة"، وان يدعو الجميع إلى التجاوب مع هذه الإرادة بصورة شخصية وحرة. ودعا يسوع هذا التجاوب "**توبة**"، والوحدة بين الله والإنسان دعاها "**ملكوت الله**": "لقد تم الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وامنوا بالإنجيل" (مر١:١٥).

يسوع لم يعطنا أي تحديد منهجي لهذا "الملكوت"، ولكن تعاليمه تحمل الأسس الوافية التي بموجبها يمكننا تحديد صفاته، لاسيما في خطبة الجبل:

"هنيئا لأولئك الذين عرفوا حاجتهم إلى الله، فان لهم ملكوت السماوات
هنيئا للباكين، فانهم سيعزون.
هنيئا للمساكين بالروح، فانهم سيرثون الأرض.
هنيئا للجياع والعطاش إلى انتصار العدل، فإنهم سيستجابون.
هنيئا للرحماء، فإنهم سيرحمون.
هنيئا لانقياء القلوب، فإنهم سيعاينون الله.
هنيئا لفاعلي السلام، فان الله سيدعوهم أبناءه.
هنيئا للمضطهدين من اجل قضية الحق، فان لهم ملكوت السماوات"

إن قراءة دقيقة لهذا النص تكشف لنا عن أن يسوع يرى في كل خبراتنا البشرية وجهين، احدهما سلبي والآخر ايجابي. فالسلبي يعكس نقصا في المعرفة والتفكير والحب والوجود؛ اما الايجابي، فيضم عناصر الحقيقة والجمال والصلاح التي فينا. فالرفض والقبول هما وجهان لعملة واحدة. ورفضنا الشر معناه قبولنا للخير، لذا كان مثل هذا الرفض مدخلا إلى تحقيق الخير، وبذلك يصبح نذيرا للامل.

هكذا يمكننا اعتبار خطبة يسوع على الجبل خطبة الأمل والرجاء اللذين يبشر بهما كحل بديل لإخراج الإنسان من ضعفه ومن استسلامه للأمر الواقع، وبعث النخوة فيه لاكتشاف قابلياته وإمكاناته الذاتية لتحريره من عبودية وسلبيات اليوم، وذلك لبناء غد أفضل. من هذا المنظار يحمل الأمل الذي يرشح من روح الخطبة ومفرداها **عنصر التحدي والدينامية والتغيير وليس الاستسلام والمسكنة**، كما قد يخال للبعض. لذا دعيت هذه الخطبة "**ميثاق العهد الجديد**" لأها تضع أسس التعامل الجديدة بين الإنسان والله، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، ويطيب لنا نحن أن نسميها مشروع الإنسانية الجديدة التي يعبر عنها يسوع بعبارة "ملكوت الله".

مشروع ضمن التاريخ

صفات ملكوت الله أو الإنسانية الجديدة في تفكير يسوع هي، إذن، رقة الروح ونقاوة القلب والضمير؛ الها القناعة والسلام ونفي لكل جشع واستغلال وأنانية في التملك والتسلط. الها العمل من اجل إعادة الحقوق المهضومة وإحقاق العدل وبناء الاخوة. ملكوت الله هذا يصبح أداة للقضاء على التفرقات العنصرية والحضارية والجنسية وحتى الدينية، ومرجعا لتحرر الإنسان من كل استلاب وعبودية مهما كان مصدرها ومهما كانت طبيعتها. ولكن هذا التحرر ليس فقط تحررا "**من**"، بل أيضا تحررا "**من اجل**"، اعني ليس مجرد تحرر من قيد ما، بل تحرر من اجل قضية، من اجل تحقيق مشروع ما. بهذا المعنى يعني التحرر "**القدرة على**" على الخلق والمبادرة، القدرة على التعاون والعمل المشترك، القدرة على النقد الذاتي، القدرة على الحب، مع كل ما تتضمنه هذه المسميات من الم وتضحية ودأب واستعداد دائم للبدايات.

وملكوت الله هذا ليس مشروعا لما بعد الموت، كما يتوهم قوم، خارج التاريخ الإنساني. انه يمد جذوره هنا والآن في خبرتنا وضمن جماعتنا الإنسانية وتاريخنا الشخصي والجماعي: "ملكوت الله في ما بينكم"! لذا فتحقيقه منوط بتحقيق المحبة فيّ ومع الآخرين. إن أروع شاهد لذلك نراه في مثال السامري الصالح (لو١٠:٢٥-٣٧) وفي أسس الدينونة الأخيرة حيث تقتصر المحاسبة على المواقف تجاه الجائع والعطشان والسجين والعريان والمنبوذ والمظلوم (متى٢٥:٣٤-٤٦). هكذا الإنسانية الجديدة هي إنسانية منفتحة، متجددة، مسؤولة، بإمكاننا أن نتعرف على وجهها حيث العميان يبصرون، والصم يسمعون، والعرج

يمشون، والبرص يشفون، والمعتقلون يطلقون أحرارا، وغير المحبوبين يصبحون موضع حب، وفاقدو الأمل يكتسبون الأمل من جديد.

انها رؤية نبوية ولا شك للعهد الجديد الذي لا يتحقق إلا عن طريق المشاركة بين الله والإنسان، هذه الرؤية التي نرى صداها في ما يمكننا تسميته "بيان يسوع"، وقد تلاه في مجمع الناصرة في مفتتح بشارته: "روح الرب علي، لأنه مسحني لأبشر المساكين، وأرسلني لأنادي للمأسورين بالتخلية، وللعميان بالبصر، وأطلق المرهقين أحرارا" (لو٤:١٨).

انها رسالة تحرير وتحد وثورة حقيقية.

الفقراء سيرثون الأرض

عندما قال يسوع: "طوبى للفقراء فإنهم يرثون الأرض"، بمن كان يفكر، يا ترى، وممن كانت تتكون طبقات الشعب الفلسطيني في زمانه؟

إذا كان الإنجيل "كتاب سيرة يسوع"، فهو يعكس أيضا أوجهًا من التركيبة الاجتماعية والفكرية والسياسية في زمانه. وإذا حللنا مليا هذه التركيبة، لوجدناها هرما تتصدر قمته اسر الأغنياء التي تشكل الطبقة الحاكمة السياسية (الهيرودسيون وأنصارهم وعملاء روما) والدينية (رؤساء الكهنة والصدوقيون والفريسيون والكتبة)؛ أما قاعدته فكانت تتزاحم فيها الطبقات الفقيرة المتمثلة بهؤلاء الفلاحين الصغار الذين يعملون في حقول أسياد غائبين، وهم ضحية استغلال متعدد الجوانب، إذ كان عليهم دفع الجزية لروما تعادل ٢٥% من الإنتاج، ورسوم للهيكل تصل إلى ٢٢% من المتبقي. كما كانت تجمع منهم "عشور" إضافية للمعوزين والعاجزين. بعد هؤلاء يأتي الكسَبة الذين بالكاد يحصلون على ما يسد احتياجهم اليومي، هذا إذا وجد من يؤجرهم كما جاء في قصة فعلة الكرم (متى٢٠:١-٧)؛ وكان هذان الصنفان تحت رحمة المرابين، وقد يتعرض الواحد لبيع نفسه، ولربما زوجته وأولاده، إلى أن يوفي آخر فلس (متى١٨:٢٥). ويضاف إلى هؤلاء المغلوبين، في قاع السلم الاجتماعي، العبيد الذين لم يكن لهم أي دور يذكر في العملية الاقتصادية سوى خدمة الأسياد والموسرين في أورشليم.

نحو هؤلاء كانت تتوجه بالدرجة الأولى أبصار يسوع: "روح الرب علي لأبشر المساكين (لو٤:١٨). ولكن الفقراء والمساكين الذين عناهم يسوع ليسوا فقط ذوي الدخل الشحيح والمعدمين اقتصاديا، إنما يجب اخذ التسمية ببعدها الكتابي كما جاء في اشعيا (فصل٦١). فالمساكين هم أولئك "المنكسرو القلب" و "المأسورون" و "المعتقلون" و "المحزونون" و "المظلومون"، أولئك الذين يسميهم الكتاب المقدس بالعبرية "عناويم" اعني "المنسحقين". ففي مفهوم اشعيا، وعلى لسان يسوع، يكون الفقراء والمساكين هذه الطبقة البائسة من الشعب التي ترزح تحت عبء الاستغلال ولا تنتظر التحرير من المؤسسات الطاغية ولا من الطبقات "الشبعانة"، بل تضع أملها الأخير في الله وحده.

ثورة على النظام القائم

ولكن يسوع يتكلم بلغة الأنبياء، اعني بلغة الطموح وبمنطق المشروع الذي ينبغي أن ينجز؛ وانجازه منوط بقلب موازين القوى والتقييم رأسا على عقب. فهذا الشاب الغني الذي جاء ينشد "طريق" الحياة، لا ينظر إليه يسوع بعيني الأغنياء الذين يقيسون كمالهم بتطبيق القانون وببعض التبرعات التي يتصدقون بها من فائضهم على الفقير أو على بيوت العبادة، بل ينظر إليه بعيني "المعلم" الذي لم يغادر صفوف الفقراء، وهو، لذلك، يتحدى نظاما اقتصاديا وسياسيا يخلق طبقة من المحظوظين على حساب الفقراء. فما يُدعى إليه الشاب ليس مجرد تضحية ببعض المال، وإنما الثورة على هذا النظام والخروج منه لأنه "مترع ظلما": "امض وبع ما لك وأعطه للفقراء" (مر١٠:٢١)، لا لتنشلهم من الجوع والفاقة وحسب، بل لتساهم في تحريرهم من استغلال ذلك النظام بالذات، فيشعرونا مثلك بأنهم بشر ذوو كرامة ومستقبل.

هكذا تعود قيمة المال والتملك إلى المنطق الذي انطلقت منه أساسا: أداة للإنتاج وخدمة لحاجات الإنسان والمجتمع، وينتفي منها عنصر التكدس واستغلال التكدس كأداة لبسط النفوذ والسيطرة. كذلك نفهم ملاحظة يسوع تجاه فلسي الأرملة: ان هذه الأرملة الفقيرة ألقت أكثر من جميع الأغنياء، لان أولئك القوا مما فضل عندهم أما هي فكل معيشتها (مر١٢:٤١-٤٤). فيسوع لم ينظر إلى فلسي الأرملة بقيمتهما الشرائية بل بقيمة العمل الكامنة فيهما: بذلك جاء العطاء عطاء.

ويسوع، إذ يجرد الأغنياء من جاه المال، إنما يفضح زيفهم ويوقظهم على حقيقتهم العارية وينشل من يدهم ثمن السيف الذي يحكمون به، وآلة الاستغلال التي يتخدرون ويخدرون بها. لان يسوع جاء من صفوف الفقراء وعلم مخاطر الملكية الخاصة إذا لم تكبح؛ ولانه تحقق بنفسه كم انه عسر على ذوي الأموال أن يدخلوا ملكوت الله (لو١٨:٢٤)، جعل من قلب هذا النظام شرط إتباعه، وأملاه على تلاميذه: "وترك سمعان واندراوس أخوه شباكهما للحال وتبعاه" (مر١:١٨). كذلك فعل يعقوب بن زبدي ويوحنا أخوه (مر١:٢٠)، ولاوي العشار وسائر التلاميذ. ولكن ماذا يا ترى ينالون لقاء هذا التخلي؟ بطرس احد هؤلاء الأصدقاء الأولين نفسه سأل معلمه، بشيء من القلق: "ها نحن قد تركنا كل ما لنا وتبعناك؟ فماذا يصيبنا؟"، فأجاب يسوع: :ما من احد ترك بيتا أو امرأة أو والدين أو بنين من اجل ملكوت الله، إلاّ ينال اضعافا في هذا الزمان والحياة الأبدية في الدهر الآتي" (لو١٨:٢٨-٣٠). إننا نفهم من ذلك ان السعادة الموعود بها في الانسانية الجديدة تضم كمال الحياة بشقيها المادي والروحي، وان حياة الإخوة والمشاركة والعمل، لا حياة الأنانية والجشع، هي التي تتيح لنا تحقيق العدل والحب الحقيقي؛ وهذا ما سيفهمه المسيحيون الأولون في أول تجربة اشتراكية: "وكان كل شئ مشتركا فيما بينهم وكانوا يبيعون أملاكهم ومقتنياتهم ويوزعون أثمانها على الجميع بحسب حاجة كل واحد منهم" (اعمال٢:٤٤-٤٥). وما التجارب الرهبانية اللاحقة سوى محاولات لإنجاح هذه التجربة.

الروح والكلمة

ولكن، ككل تجربة إنسانية، قد تحمل هذه المبادرات عنصر ضعفها، وقد تصبح مع الزمن أداة "تكديس جماعي"، ومن ثم ركيزة احتواء وانحراف للسلطة، كما يحدث اليوم في اصفى التجارب الاشتراكية في العالم. فما ينبغي العودة إليه في نداء يسوع هو الجانب النبوي فيه، اعني روح المساواة والمشاركة ونبذ مبدأ استغلال الإنسان لأخيه الإنسان وإعادة قيمته الذاتية إليه. فلا الفقر بحد ذاته "سمة دخول" مجانية إلى "ملكوت الله"، ولا الغني محروم منه لمجرد انه يملك، إنما الروح هو الذي يحيي. فما هو هذا الروح؟

لقد عرّض الشاب الغني حظه في الدخول إلى "الملكوت" للخطر حين رفض مقاسمة ثروته، بينما حصل الخلاص فعلا لزكا -وكان هو أيضا غنيا- حين قرر وضع حد لاستغلال الشعب، فوزع نصف ماله للمعوزين وفتح اذنيه لسماع احتجاجهم (لو١٩:٨-٩). إن امتلاك المال أو عدمه حالة طارئة، بينما الشرط الثابت لرواد "الملكوت" وورثة الإنسانية الجديدة، هو الانفتاح نحو الآخرين ونحو المستقبل، وهذا هو الفقر بالروح.

يسوع والمستغِلون اليوم

في رسالة يسوع صرخة لا يمكن للأجيال إلا أن تكثف دويها من اجل تحرير الإنسان الكامل وولادة هذه الإنسانية الجديدة. ولكن ما يصيب أملنا بالنكسة هو اننا، بعد ألفي سنة من إلقاء تلك الصرخة، لا زلنا أمام واقع احتماعي فيه الأغنياء والأقوياء -سواء كانوا افرادًا أم مؤسسات أم دولاً أم أنظمة سياسية أو اقتصادية- يدوسون، من اجل مصالحهم ونفوذهم، حقوق الفقراء والضعفاء، وحيث دماء الأبرياء تمتص وتباع بالسر والعلن! فهل اخفق يسوع في مشروعه كما اخفق أنبياء آخرون من قبله؟

جماعة يسوع

يسوع حي بتعليمه وشهادة حياته وبتلاميذه الذين يترجمون انفتاحهم في واقع التاريخ نحو الآخرين ونحو المستقبل، بصيغة جوع وعطش إلى العدل. ويظهر هذا الجوع وهذا العطش، حين يكونان أصيلين، كنضال منظم من اجل التحرير، حتى وإن جابه هذا النضال قمع السلطة ونقمة الأنظمة: "طوبى للمضطهدين من اجل قضية الحق، فان لهم ملكوت السماوات" (متى ٥:١٠).

من اجل ذلك، ستبقى رسالة يسوع ملاذا وأملا اخضر لملايين المستغَلين ولضحايا الأنظمة ذات الحكم المطلق، وللمسحوقين تحت لا مبالاة المجتمعات الاستهلاكية، ولمكبَّلي اللسان والحرية، وللكادحين الذين ينقّدون حياتهم نقدا وبالكاد يحصلون على ما يسد حاجاتهم الأساسية: هؤلاء كلهم فقراء الله اليوم. من اجل ذلك، سيبقى يسوع يلهم نفرا من الناس آثروا النضال من اجل الحق والعدل والحب، لهم وللاخرين، على الموت البطيء أو

السكوت على الظلم والاستغلال.. وليس الاختيار اختيار راحة وطمأنينة! ذلك لان لا تغيير جذريا ممكن، لا على الصعيد الفردي ولا الاجتماعي، طالما يبقى الحب مكبلا. كما انه لا تغيير جديا يذكر من دون زعزعة البنى الاجتماعية نفسها التي تولّد الظلم أو الفروقات الطبقية أو تكرس نظام الامتيازات. ومثل هذا المشروع لا يمكن أن يعالج بالجهود الفردية المبعثرة، إنما بتضافر الجهود وتنسيقها وتنظيمها وبالانضمام إلى كل القوى الخيرة والعاملة من اجل إنسانية أفضل، حتى إذا كانت هذه "القوى" لا تنتمي إلى يسوع بصورة معتلنة.

بهذا المعنى نقول بان جماعة يسوع، أي تلامذته المنتمين إلى اسمه والى إنجيله، ليسوا جزيرة منعزلة في عرض البحر، إنما هم متصلون اتصالا عضويا وإنسانيا بغيرهم من الناس ذوي الإرادة الصالحة، عبر الزمان والمكان.

الأمل ليس أفيونا

إن تضامن المسيحيين مع مواطنيهم، على صعيد أقطارهم الخاصة أو على صعيد الكرة الأرضية، يخلق منهم جميعا مجتمعا إنسانيا واحدا؛ وتضامنهم عمل ليس فقط "من اجل" تحرير الآخرين، بقدر ما هو تحرير "مع" الاخرين. فلهم أن يتعلموا كثيرا من الآخرين، ولهؤلاء الكثير مما يتعلمونه منهم؛ ومشروع التحرير الذي ورثوه من يسوع لا يتقدم إلا عن طريق مثل هذا الحوار والتعاون مع الآخرين. فيسوع عندما رفض المسيحانية السياسية وتحويل الحجارة إلى خبز، إنما رفض إقامة ملكوت الله بوسائل القوة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

ورسالة تلامذته هي رسالته نفسها، اعني جعل حضور الله فيهم مصدر حياة ودينامية من اجل تحرير المقهورين وحفظ قنديل الأمل بالتغيير والعدل والحب مضيئا في قلوب جميع هؤلاء. أليس فقدان الأمل هو الموت، هو العدم! أليس الرجاء هو ما يحفظ الإنسان في الحياة والعمل! أليس الأمل والرجاء، بهذا المعنى، هما التاريخ وهما الرؤية المستقبلية لإنسانية متجددة! أليس هذا الأمل بعهد جديد، كما أرسى قواعده يسوع، حافزا ومحركا لمستغلي الأرض نحو العمل الجذري للتحرر من طغيان الماضي وعقلياته الجامدة، والانفتاح نحو المستقبل ونحو الإنسان الحر الواعي المتكامل في ثورة دائمة!

مثل هذا الأمل ليس استلابا للجماهير ولا أفيونا مخدرا. انما الأفيون سيكون في الضياع في متاهة صراع الطبقات، متاهة لا توصلنا سوى إلى تكريس هذا الصراع حين يعتبر شبه قدر لا مفر منه. الأفيون يكون في المفهوم التقليدي لخلاص النفوس الشخصي، حين ينفرد كل واحد في أنانيته ويتخدر في تامين مرقد عنزة له في الجنة، لقاء بعض الممارسات التقوية المزاجية. الأفيون يكون في مقولات "الأمن القومي" التي على مذبحها تنحر بعض الأنظمة – باسم المسيح، يا للسخرية!– الحريات، وتبرر القمع والانفراد بالسلطة. الأفيون يكون حتى في صراع الكنائس المبطن بحجة الحفاظ على أصالة العقيدة.

إن جماعة يسوع لا تشترك في تحرير المساكين وبناء الإنسانية الجديدة إلا بقدر تضامنها معهم ومشاركتها فعليا في صراعات الشعب اليومية، ليس بالوعظ والإرشاد فقط، بل بالتضحية والمجازفة والالتزام الفعلي، وبالعيش ضمن التاريخ والمجتمع، لا على الهامش أو في الماضي. بغير ذلك لا يكون لدعوة يسوع أي تأثير ايجابي يذكر على الجماهير، لان الإنسان لا يتحمس لمبدأ فلسفي مجرد؛ وكل مبدأ، مهما سما، لا يكون واقعيا في تجسده، ولا يتبرمج في مشاريع ملموسة تهم حياة الإنسان المادية مباشرة، لا يمكن أن يجذب أحدا ولا أن يقنع أحدا.

بين المبدأ والسلوكية

من هنا جاءت أهمية تحطيم الفاصل بين المبدأ والمسلك، بالنسبة لكنيسة يسوع، وليس لكنيسة يسوع في منظورها الشامل المسكوني فقط، بل حتى في منظورها الوطني المحلي. فمسيحية العراق، مثلا، إذا أرادت أن تكون أصيلة وتؤمّن استمراريتها في هذا البلد في جو من العافية والخلق، وإذا أرادت أن تساهم حقا في بناء العراق الجديد، عليها أن تتحرر في الداخل من تقوقعها وخوفها، ومن إطارها البنيوي شبه الإقطاعي؛ عليها أن تخرج من نزعة المزج برياء، بين المواقف اللفظية التقدمية المعلنة وبين المواقف التقليدية أو الرجعية أو الاستسلامية التي تمارسها في سلوكيتها واقعا. عليها أن تتحرر من لا منطقية الفطنة التي تتحصن وراءها بحجة الحفاظ على استقلاليتها أو خوفا من الوقوع في المجهول. عليها أن تفتح أبوابها للأمل وللروح النبوي الذي وحده يضمن مستقبلها وعافيتها: في الإيمان والشهادة.

ملف اذار ١٩٨٠ .... الاب لوسيان جميل

المسيحي ازاء الالحاد

في كتابه "اله الالحاد المعاصر" (منشورات النور - بيروت ١٩٦٨) تناول كوستي بندلي وجهين من اوجه الالحاد: الالحاد الماركسي والالحاد الوجودي، وكلاهما رفضا الله، باسم الانسان، واستعاضا عنه باصنام تسحق الانسان. وفي تحليله لوجهي الالحاد، كشف بندلي عن ان الاله الذي ينكره الالحاد المعاصر هو غير ذاك الاله الذي "كشف لنا ذاته في وجه يسوع المسيح وظهر لنا محبة محيية، محررة، موقظة، مؤلّهة". من هذا المنطلق يضحي الالحاد المعاصر، من حيث لا يدري، عاملا مهما في تنقية الايمان من الاصنام التي لصقت به، ويضحي الايمان بدوره نداء مخلصا يدعو الى تجاوز اكتفائية الانسان بذاته.

المقال التالي محاولة جادة لفهم ظاهرة الالحاد في جذورها العميقة والتي يتحمل المؤمنون انفسهم قسطا كبيرا من المسؤولية فيه، كل مرة بدا الايمان بالله على طرفي نقيض من كرامة الانسان وحقوقه وحرياته..

فالى صورة جديدة لله، والى حوار مثمر وبناء بين المؤمنين وغير المؤمنين، يدعو الاب لوسيان جميل في هذا الملف.

قبل ان نتعرض لموقف المسيحي من الالحاد، لا بد ان نلقي نظرة على هذه الظاهرة ونحدد مفهومها على قدر الامكان. الا ان الالحاد ليس ظاهرة بسيطة يمكن تعريفها ببضع كلمات، كأن نقول مع القائلين بان الالحاد هو انكار لوجود الله. فقد يكون هذا التعريف صحيحا، الا انه لا يشمل الحقيقة كلها. والسبب الرئيس لتعقد ظاهرة الالحاد يكمن في طبيعة معرفتنا لله، أي في الفكرة التي نكونها عنه نحن البشر.

"الاله التقليدي"

اذا ما قمنا بدراسة اولية عن مفهوم الله، سنجد بسهولة ان الفكر التقليدي ورث مفهومه عن الله من الاديان البدائية، وذلك عن طريق العهد القديم الذي هو بدوره وريث لهذه الاديان، وان كان يبدو ناقضا لهذه الاديان بسبب جذريته في مسألة التوحيد.

الا ان العقلانية الارسطوطاليسية، ومن ثم التوماوية، طبعت هذا الارث عن الله بطابعها الخاص، وهذا الطابع هو الذي يشكل في الوقت الحاضر المعتقد التقليدي والسائد عن الله. لذلك يمكننا ان ندعو هذا الاله بحق "اله الفلاسفة".

ويتميز "اله الفلاسفة" بميزتين اساسيتين: فهو قبل كل شيء اله المنطق -والمنطق تدرج عقلاني في الكشف عن العلة والمعلول والموجود والواجب الوجود. فالمنطق هو الذي يؤكد وجوده وهو الذي يحدد صفاته ويبلور مفهومه بشكل عقلاني متناسق. فلا عجب اذا ما كان العلم الذي يبحث في مفهومه بشكل عقلاني متناسق. فلا عجب اذا ما كان "اله الوحي" الذي خضع هو الاخر للعقلانية الارسطوطاليسية قد فقد ارتباطه الاساسي بالانسان وتحول، من ثم، الى "اله المنطق". اما الميزة الثانية "لاله الفلاسفة" التقليدي، فتقوم

على اعتبار الله موضوعا مناسبا لادراك العقل البشري، أي ان الافكار التي يكونها العقل البشري عن الله، لا سيما اذا كان مدعوما بالوحي الالهي، هي افكار تنطبق فعلا على الذات الالهية وتصفه وصفا ينطبق على حقيقته. ان الفكر التقليدي في هذه المقولة يتبع الفكر البدائي الذي يتكلم عن الله، ناسبا اليه صفات وطبائع البشر، وكأن ما ينطبق على الانسان ينطبق على الله ايضا؛ وهكذا تصبح العبارات البشرية ذات كفاءة للتعبيرعن جوهر الله! وبما ان الفكر المسيحي التقليدي، في هذه المسألة، فكر عقلاني ولم يكن بمقدوره القول بامكانية الوصول الى معرفة جوهر الله في الواقع، فقد لجأ الى طرق التشبيه او التمثيل المعروفة في الفلسفة التقليدية ليصل الى معرفة الله. ولكنه نسي ان هذه الطرق هي نسبية في جوهرها، ولا يمكن ان تقود الا إلى "اله نسبي"، ولذلك عاد الفكر التقليدي ليؤكد، اعتباطا، بان هذه الافكار –وهي في الواقع حصيلة هذه الطرق النسبية في البحث عن الله– كافية لوصف الله في ذاته وصفا ينطبق على حقيقة الله! ولذلك نلاحظ تشبث الفكر التقليدي بهذا الوصف وكأنه هو الحقيقة الاخيرة عن الله التي تنفي اية حقيقة اخرى.

اله التاريخ

ان "اله التاريخ" لا يعني بالنسبة لنا هذا الاله الذي **يتدخل** في تاريخ البشر **ويسيّره**، بقدر ما هو الله الذي يتحلى وينكشف عبر هذا التاريخ.

يختلف مفهوم "اله التاريخ" عن "اله الفلاسفة" التقليدي اختلافا جوهريا. "فاله التاريخ" لا يرتبط بالمنطق الفكري بل بمرحلة حضارية معينة من تاريخ البشر، وهو يتحلى في مسيرة التاريخ والحضارة البشرية للفكر الانساني الذي هو في بحث مستمر عن ذاته وعن صورة الله التي تحقق هذه الذات وتشدها الى مستقبلها. اننا نجد في تاريخ البشر **صورا** متعددة ومتعاقبة لله: من آلهة الوثنيين الى الاله الواحد الذي كان يحمل **صفات** تختلف من جيل الى اخر، الى اله الانجيل الذي لا زالت ملامحه لم تكتمل مع مرور الزمن وتعاقب الحضارات.

و "اله التاريخ" يتميز ايضا **بنسبية صوره** التي لا يخشى المؤمن بهذا الاله من تأكيدها علنا. فهذه الصور ليست عرضة للتطور والتبدل فحسب، بل ان هذا الاله هو "اله انساني" بمعنى انه يبقى **انسانيا في تجليه، نسبيا في مفاهيمنا عنه**، لذلك يستحيل على اية صورة من صور الله ان تكشف لنا الله، كما هو في ذاته وفي جوهره، وجل ما تستطيع ان تكشف هذه الصور هو الله في "**تجسده**" في العالم وفي المجتمع. ان هذا "الاله الانساني والنسبي" هو ايضا ميتافيزيقي، أي انه وراء الاشياء المحسوسة، من دون ان يكون غيبيا، كاله الفلاسفة التقليدي، ولان الله **تاريخي وميتافيزيقي معا**، فهو، وان كان قريبا من البشر ولا يتعدى قواهم الفكرية، الا انه مع هذا بحاجة الى عمل "نبوي" للكشف عنه.

ومن المؤسف حقا ان يعمد الفكر التقليدي الى احتواء "اله الكتاب المقدس التاريخي"، ومعه "اله يسوع المسيح"، وتحويله الى "اله المنطق" الفلسفي. ان يسوع في هذا الواقع لم يكن في خط الفلاسفة بل في خط الانبياء، اكمل مسيرتهم وتجاوزهم في قفزة ديالكتيكية

تاريخية، فاتحا "مرحلة جديدة" في تاريخ البشر الروحي. فبواسطة يسوع "حل الله فيما بيننا" بشكل جديد. لقد "تجسد" الله في العالم "باشكال مختلة واشباه شتى" (عرانيين)، وما تجسده "في يسوع" وفي حياته، "في الازمنة الاخيرة"، سوى خطوة اخرى حاسمة في "فعل التجسد الالهي".

ظاهرة الالحاد

هذه المقدمة الطويلة كانت، في رأيي، ضرورية لالقاء بعض الضوء على ظاهرة الالحاد. فلو كان الله هو كما يقدمه الفكر التقليدي، فان الالحاد سيكون انذاك مجرد ضلال عقلي، وتمرد على الحقيقة ورفض للوحي، واثم لا يمكن تفسير انتشاره الواسع الا بالالتجاء الى شعوذات فكرية ومغالطات ان دلت على شيء فانما تدل على ضيق في الفكر واعتداد بالذات.

ولكن اذا كان الله "صورة انسانية" للمطلق الذي ننشده باستمرار، أي اذا كان اله التاريخ بالمعنى الذي سبق وان اشرنا اليه، فسيفهم الالحاد حينذاك في إطاره الحقيقي. والالحاد في هذا الاطار، غالبا ما يكون ظاهرة رفض، ولانه كذلك فهو علامة ايجابية وسلبية في آن واحد. انه علامة ايجابية لانها تدل على حيوية الانسان الذي يرفض الناقص، وينفي القديم البالي في عملية ديالكتيكية حياتية، ومع القديم ينفي "الصورة الحضارية" لله - أي الصورة التي ترسمه بها كل حضارة ومرحلة زمنية وفكرية معينة- وللمطلق الذي كان الانسان قد كونها لنفسه في مرحلة سابقة. لذلك نلاحظ ان الالحاد ينتشر عادة ابان التحولات الحضارية، والمرحلة التي نعيشها الان هي احداها. والمعروف ان الالحاد من الناحية النفسية لا يكون في الغالب ضد الله شخصيا، بقدر ما يكون ضد المفاهيم البالية التي تستلب الانسان وتحاول باسم الدين وباسم الله نفسه ان تفرض ذاتها وتبقى.

الا ان مقاومة المفاهيم المستلبة ومقاومة المؤسسات التي تسندها، تجر، في جذريتها، قطاعات كثيرة من الناس الى الاستغناء كليا، بشكل او بآخر، عن الله نفسه، فيتشبث الملحد بالرفض السلبي، وذلك بسبب عجزه النفسي والفكري عن اكتشاف البديل لصورة الله القديمة. ومن هنا نفهم ان الالحاد وقوف في منتصف الطريق الذي يقود الى الله، بقدر **ما هو سوء فهم لماهية الله ومفهومه.**

ورب قائل يقول ان ظاهرة الالحاد لا تشمل فقط اناسا من عامة الشعب يقودهم الحدس في اختياراتهم الفكرية، فيؤيدون او ينقادون انطلاقا من ردود فعل عفوية، بل تشمل هذه الظاهرة مفكرين وفلاسفة ايضا، وغالبا ما يدعي هؤلاء ان قناعاتهم مبنية على منطلقات علمية.

وجوابي على ذلك ان الاسباب النفسية موجودة حتى عند المفكرين والفلاسفة، وغالبا ما يفلسف المفكرون القناعات الشعبية وينظمونها عقليا. اما الشيء الاخر الذي اريد ان اشير اليه، فهو ان هؤلاء المفكرين والفلاسفة كثيرا ما ينسجون في بحثهم على نفس منوال المفكرين والفلاسفة المؤمنين، أي انهم يبحثون مسألة الله **كما هو في جوهره** وليس **كما يظهر لنا**، وهكذا يضعون هم ايضا انفسهم في طريق الغيبية التقليدي، فيأتي قرارهم الفكري نفيا فلسفيا لاله غيبي، متوهمين ان هذا الاله هو اله المؤمنين.

اشكال الالحاد

يطلق اسم الالحاد على مظاهر متباينة. فبينما ينكر بعض الملحدين وجود الله صراحة، يعتقد اخرون ان الانسان لا يقدر اصلا ان يؤكد شيئا عنه. ويتطرق اخرون ايضا الى البحث في مشكلة الله بطريقة تبدو وكأن لا معنى لها. ويتجاوز الكثيرون دون أي مبرر حدود العلوم الايجابية، فيزعمون ان العقل العلمي يشرح وحده كل شيء، او بالعكس لا يعترفون مطلقا باية حقيقة ثابتة بصورة نهائية. ويبالغ اخرون في تعظيم الانسان اكثر مما يهتم منشغلون بانكار الله. ويتمثل بعضهم الله بشكل يجعلهم، اذا ما رفضوه، يرفضون الها لم يتكلم عنه الانجيل ابدا. وقسم منهم لا يتطرق حتى الى مشكلة الله، فيبدون وكأنهم غرباء، لا يزعجهم أي قلق ديني ولا يدركون لماذا يأبهون بعد للديانة. وعلاوة على ذلك ينتج الالحاد غالبا، اما من احتجاج وثورة على الشر في العالم، واما لان بعض المثل البشرية طبعت بطابع يعتبر مطلقا الى حد انها اعتبرت كالله. وتزيد الحضارة الحديثة ذاتها في صعوبة التقرب من الله، لا كحضارة، بل لانها مرتبطة الى حد بعيد بالحقائق الارضية.

ان الذين يحاولون عمدا نزع الله من قلوبهم وإبعاد المشاكل الدينية بعدم تلبيتهم اوامر ضميرهم، لا يتبرأون من كل اثم. غير ان المؤمنين انفسهم غالبا ما يتحملون في هذا الصدد قسطا من المسؤولية. فالالحاد، اذا ما نظرنا اليه نظرة اجمالية، ندرك ان لا مبرر له في ذاته بل في اسباب متعددة، منها ردة فعل مبنية على انتقاد الديانات، وفي بعض المناطق ردة فعل خاصة تجاه الديانة المسيحية. ولذلك قد يكون للمؤمنين، في نشأة الالحاد، قسط غير يسير بقدر ما يحجبون وجه الله الصحيح ووجه الديانة اكثر مما يظهرونه ويكشفون عنه، سواء باهمال التنشئة بايمانهم وبعدم تغذيته، او باظهار وعرض العقيدة عرضا غاشا، او بكبوات حياتهم الدينية والاخلاقية والاجتماعية.

"الكنيسة في عالم اليوم" (رقم ١٩)

موقفنا من الالحاد

وامل عديدة تجعل الناس يختلفون عن بعضهم في موقفهم من الالحاد، منها العوامل العقلية والانتماء الطبقي ودرجة الوعي الديني ومواقع القوة والضعف. فنحن لا نزال نجد اليوم اناسا يعتبرون انفسهم "وكلاء" عن الله للجهاد في سبيله وبالنيابة عنه، ولا يتورعون عن شن حملات صليبية ضد الكفار والملحدين والتحريض عليها. هؤلاء غالبا ما ينطلقون من موقع قوة ويخشون ضياع صورة معينة للمجتمع، خوفهم على مصالحهم الشخصية، ولذلك يعتبرون الالحاد والملحدين شرا لا يحتمل المهادنة ولا يمكن التعايش معه، وغالبا ما يخلط هؤلاء بين الالحاد والملحد، فيعتبرون تصفية الملحدين وسيلة طبيعية لحصر الالحاد وللتغلب عليه.

الا ان هذا التوجه، ولاسباب عديدة، قد اصبح غير مقبول في بقاع كثيرة من العالم، ولهذا اتجه كثير من "المتحمسين" لله الى "الحرب الباردة" الفكرية ضد الالحاد نفسه، تاركين حرية للملحد.

اما في البلدان التي تتبنى الالحاد رسميا، فالناس يتقوقعون عادة على انفسهم في موقف دفاعي صامت بدون ان يكون لهم دور ايماني تبشيري يذكر. الا ان السنوات الاخيرة اخذت تشهد في بعض البلدان التي تقودها حكومات ملحدة نشاطا روحيا يبشر بالخير ويدعو الى التفاؤل.

الحوار الحقيقي

اذا كان المؤمن صادقا في ايمانه، حريصا على انتشاره، عليه ان يتبنى الطريق الانساني الذي ينسجم مع حرصه هذا. وهل من طريق انساني في ايامنا هذه غير طريق الحوار المبني على التفاهم والاحترام المتبادل بين الاطراف المعنية؟ الا ان الملاحظ ان الحوار لا زال نادرا جدا. ولكن كل الدلائل تشير الا ان زمن الحوار والتفاهم قد حان، وجاء الوقت الذي فيه يتوجب على المؤمن الواعي المخلص ان يتحمل مسؤولياته تجاه اخيه الملحد.

وبديهي ان اول شرط لنجاح رسالة المؤمن هو قدرته على "فك ارتباطه" مع الحضارة القديمة، ومن ثم مع الاله الذي كان على صورة هذه الحضارة. وهذا يعني ان يشارك المؤمن باخلاص في عملية التحول الحضاري. وهذه المشاركة ليست ضرورية من باب التعاطف مع غير المؤمن فحسب، بل هي جوهرية للحوار الحقيقي، لانها هي وحدها تخلق البيئة الموضوعية والمناخ الصالح لهذا الحوار الذي يمكن تسميته "بالحوار التاريخي" او الحضاري، لانه حوار يستند في جوهره على التحول الحضاري وعلى ما يخلفه هذا التحول في نفوس الناس من مفاهيم وقيم جديدة اساسية.

موقف الكنيسة من الالحاد

- **تؤكد الكنيسة ان الاعتراف بالله لا يعاكس، باية طريقة من الطرق، كرامة الانسان، لان في الله ذاته ما يبرر هذه الكرامة وما يكملها (...) وتعلم الكنيسة ان الرجاء في حياة ابدية لا ينتقص من اهمية المهام الارضية، بل بالاحرى يساعد على تتميمها، مركزا اياها على دوافع جديدة (...)**
- **في ما يتعلق بدواء الالحاد، يجب ان ننتظره من عرض العقيدة عرضا مناسبا من جهة، ومن جهة اخرى من نقاوة حياة الكنيسة وحياة اعضائها. اجل ان من واجب الكنيسة ان تجعل الله الاب وابنه المتجسد حاضرين وشبه منظورين ، اذ تتجدد وتتنقى باستمرار، تحت قيادة الروح القدس. ان الكنيسة بحاجة، على الاخص، الى شهادة الايمان الحي الناضج، أي ذلك الايمان (...) الذي شهد له ولا يزال، شهادة رائعة، كثيرون من الشهداء. وان خصب هذا الايمان يجب ان ينفذ الى حياة المؤمنين برمتها، وحتى في حياتهم المدنية، فيقودهم الى احلال العدالة والحب ولا سيما بين المعدمين.**
- **وفيما ترفض الكنيسة الالحاد رفضًا باتا، تعلن بكل صراحة ان على البشر اجمعين، مؤمنين كانوا ام غير مؤمنين، ان ينكبوا على بناء هذا العالم في العدل، هذا العالم الذي يحيون فيه معا: ولن يتم ذلك حقا الا بالحوار الصريح الحكيم (...)**

"الكنيسة في عالم اليوم" (رقم ١٩)

ومن الواضح ان المشاركة في التحول الحضاري لوحدها لا تكفي، اذ ينقصها نقل "اكتشاف" الله وصورته الجديدة من خلال هذا التحول نفسه. وهذا الاكتشاف هو مهمة المؤمن وعليه تقع مسؤولية اشراك الاخرين في هذا الاكتشاف. هذه المسؤولية تستوجب من المؤمنين جهودا جسيمة جماعية ومنظمة، وجهادا حقيقيا مبنيا على الامانة ونكران الذات وعلى حياة لا رئاء فيها.

"يا ادم!

انا لم نعين لك موضعا واحدا، ولا اعطيناك وجها خاصا، ولا موهبة خصوصية، وذلك لكي تحصل انت بنفسك على الموضع والوجه، والموهبة التي تتمناها لنفسك، كما تشاء انت، وبحسب رغبتك انت.. انا لم نصنعك، لا سماويا، ولا ارضيا، ولا مائتا، ولا غير مائت، لكيما -وانت سيد نفسك- تتحمل شرف ومسؤولية ان تصنع وتقولب كيانك، وترسم لذاتك الصورة التي تفضلها لنفسك.

ويوسعك ان تهبط بذاتك الى صورة وضيعة، من صور عالم الحيوان، ويوسعك، بقرار من عقلك، ان تتجلى في صور سميا، من صور عالم الالهيات".

بيك دي لاميراندل (القرن ١٥) من كتاب "كرامة الانسان"

من هذا يتبين ان العائق الاكبر امام الايمان هو الفكر المحافظ الذي لا يؤمن بالتغيير ولا يملك قاسما مشتركا مع حياة الناس المتطورة، فيعدم اسباب الحوار الحقيقي ويضطر الى الالتجاء الى العنف لفرض نفسه، او الى التقوقع والانزواء. وفي الواقع لا يمكن ان يوجد حوار حقيقي ما لم يتحول من تبشير الى "**بشرى سارة**"، بعيدة عن المساومة والمناورة والرياء والاستغلال والاعتداد بالذات. ولكن كيف يتحول الحوار الى بشرى سارة اذا لم ينطلق من هموم الناس وامالهم وطموحاتهم المشروعة، واذا كان يسوع عائقا يحول دون هذه الامال وهذه الطموحات؟ من هنا نفهم ضياع جهود تبشيرية كبيرة مع الفريسيين ومع فكرهم المحافظ؛ كما نفهم ضياع جهود تبشيرية كبيرة مع اناس لم يعد الحوار معهم ممكنا بسبب بعد المبشرين عن حياة هؤلاء الناس الحقيقية، فيصبح الحوار كلاما بين طرشان.

على مثال المسيح...

ان الله يدعو الناس الى ان يخدموه بالروح والحق، وبذلك يصبحون ملتزمين ضميريا بخدمته، ولكن غير مرغمين. لان الله يأخذ بعين الاعتبار كرامة الشخص البشري الذي خلقه بذاته والذي يجب ان يتصرف وفقا لحكمه الشخصي، بممارسة حريته. وهذا ما بان لنا، في ذروته، في المسيح يسوع الذي تجلى الله فيه تماما، وبواسطته عرفنا بطرقه.

فالمسيح معلمنا وربنا الوديع والمتواضع القلب، دعا التلاميذ واجتذبهم اليه بصبر. ولقد ايد تبشيره وتبعه بالمعجزات ليحرك ايمان سامعيه ويقويه لا ليضغط عليهم (...)

لقد شهد للحق، غير انه رفض ان يفرضه بالقوة على مقاوميه. فمملكته لا يدافع عنها بالسيف، بل تُوَطَّد على سماع الحقيقة والشهادة لها، وتنتشر بالحب، حب المسيح المرفوع على الصليب الذي يجذب الناس اليه.

"بيان في الحرية الدينية" (رقم ١١-١٢)

ان الاله الذي يبرز من خلال الحوار الحضاري لا يعرف بكلمات محددة، كاله الفلاسفة، بل يتجلى من خلال تجسده في مجمل الحياة البشرية. لذلك كان من الواجب ان تكون انقلابية الانسان والمجتمع كاملة حتى تتجلى فيه صورة الله الجديدة الحقيقية. كما يجب ان تكون انقلابية المؤمن موازية للانقلابية في المجتمع، لا بل تستبقها في كافة المجالات الحياتية كي يكون اهلا للحوار، ولكي لا يكون الاله الذي نقدمه الها غريبا عن العالم، او صورة لحضارة سادت ثم بادت.

- كنيسة الصين: انبعاث من الانقاض

ك٢ – شباط/ ص٢٠ - ٢٩ نجيب قاقو

- امريكا اللاتينية: كنيسة ترفع صوتها

آذار/ ص٦٨ - ٧٦ الاب بيوس عفاص

□ قيامة المسيح اليوم(*)

نيسان/ ص١١٦ - ١٣٥ الاب خليل قوجحصارلي

+ حرية الانسان بين الاختيار والقدر

ايار/ ٤ - ١٧٣ الاب يوسف توما مرقس

- كنيسة فرنسا: الابنة البكر للكنيسة

حزيران – تموز/ص٢١٢ - ٢٢١ الاب افرام سقط

□ الجوع في العالم(**)

آب – ايلول/ ص٢٦٠ – ٢٦٩ نجيب قاقو

● عدد خاص: كشاف ١٩٧١ – ١٩٨٠(***)

ايلول/ ٥٦ ص

- الانسان على ضوء سر العماذ

تشرين الاول/ ص٣٠٨ - ٣١٧ الاب عبد السلام حلوة

- كوريا الجنوبية: كنيسة تلزم الصمت

تشرين الثاني/ ص٣٥٦ - ٣٦٥ الاب بيوس عفاص

- "العمل البشري"/ رسالة بابوية عامة

كانون الاول/ ص٤٠٤ - ٤٠٧ الاب يوحنا عيسى

(*) نشر هذا الملف في "كتاب رحلوا"/ ص١١٣-١١٨.

(**) نشر هذا الملف في "كتاب رحلوا"/ص١٤٤-١٥١.

(***) صدر في ايلول ١٩٨٠ عدد خاص هو كشاف للاعوام ١٩٧١-١٩٨٠، وثق كل ما نشر في "الفكر المسيحي" على مدى عشرة اعوام.

ملف ايار ١٩٨١ .... الاب يوسف توما مرقس

حرية الانسان بين الاختيار والقدر

الانسان مخير ام مسير؟ الى أي مدى يستطيع الاختيار بحرية تامة، وعند اية حدود تقف حريته؟ لماذا يختار الانسان خيرا قد يكون شرا له، ويحاول ان يتجنب الشر ويقع فيه؟ واذا كان الله في اصل الخير الذي يريده الانسان لذاته وللاخرين، أهو ايضا في اصل الشرور التي تخضع لها الانسانية؟

علم الله وارادته ازاء حرية الانسان ومسؤولياته.. قضية اسالت الكثير من الحبر بين صفوف الفلاسفة واللاهوتين والمفكرين الذين تناولوها بالبحث، ولم يُوفَّقوا الى ايجاد جواب مرضي!

الاب يوسف توما مرقس الدومنيكي يقوم بمحاولة القاء بعض الضوء على هذه المعضلة الخطيرة في اطار فهم انساني- مسيحي، على ضوء الايمان.

مسالة حرية الانسان شغلت عقل الفلاسفة منذ اقدم العصور، وستشغلهم الى نهاية العالم! ولعل اقدم دليل على ذلك هو واقع دفن الموتى. فبحسب علوم الانسان، يتميز الانسان العاقل عن غيره من الكائنات الحية بدليل انه مدفون، وفي الدفن فلسفة يريد بها الانسان ان يقول بان الموت ليس كل شيء، وانه بعودته الى الارض هو مثل البذرة المدفونة في التربة، سينبت من جديد بشكل او باخر.

فالانسان، اذن، يرفض الموت المقدر على جميع البشر، وهذا الرفض هو من صلب الواقع البشري، بالرغم من ان فلسفات عدة تعتبر نصيب الانسان من الخلود مثل نصيب سائر الخلائق. ولعل اول نص تاريخي يتطرق الى هذا الشك هو ملحمة كلكامش حيث نقرأ: "وعندما خلقت الالهة، قدرت للناس الموت واستاثرت بالحياة الخالدة... هذا هو نصيب البشرية من الحياة".

الحرية والقدر

حياة الانسان محددة بين بداية ونهاية، ولا تخضع، لا بدايتها ولا نهايتها، لاختياره الشخصي. فهل هي قدر محتوم اذن؟ وهل مصير الانسان مكتوب مسبقا؟ اذا كان الامر كذلك، فالحرية لا تتعدى ان تكون سوى سفسطة ووهم تخيله الناس كعلاج وقتي او كمخدر!

غير ان الحرية تفرض ذاتها انطلاقا من ان كل فرد يهمه مصيره منذ ان يبلغ سن الرشد، وكل تفكير بالمصير وبالمستقبل مرتبط حتما بقضية الحرية والاختيار. وقد يؤدي

التفكير في الحرية الى الاسترسال في الجدل: فكل حي منقاد للحفاظ على حياته وتوفير سعادته وتأمين استمرارية النوع الذي ينتمي اليه، وكل سعي في الحياة هو سعي نحو هذه الثلاثة. الحيوانات، مثلا، كلها نزعات وغرائز، وهي، على اختلافها، تتجه كلها نحو هدف واحد وهو: البقاء والسعادة وحفظ النوع. وهذه النزعات نفسها يشترك فيها الانسان، وان سما بها واشتركت الارادة في تسييرها؛ والارادة نفسها لا تلبث ان تقود الانسان الى الهدف عينه، أي البقاء والسعادة وحفظ الجنس البشري.

افتكون الارادة هي، هي ايضا، مسيَّرة ومنقادة نحو هذه النزعات؟ ولِمَ نتكلم بعد ذلك عن الحرية، اذا كانت ارادة الانسان نفسها خاضعة الى هذا الحد رغم تساميها؟

ان الارادة تختلف عن الغريزة من حيث الها اذا استقرت على غاية تختارها، لا تتجه نحو غايات اخرى، وبهذا يمكننا ان نصف الحرية من وجهة نظر معينة بالها اختيار بين ممكنات. فالانسان، اذن، مخير رغم خضوعه للضرورات، ويمكنه ان يتسامى في اختياراته الى حد بعيد، وموضوع الاختيار الذي تقف عليه الارادة، يمكننا ان نسميه خيرًا: فالاكل خير، والسعادة خير، وحفظ النوع خير.

نسبية الخير والشر

غير ان الانسان لا بد ان يكتشف نسبية خيرات هذه الدنيا حيث تختلط فيها عناصر النقص والمحدودية، ولربما الشر، او قد يخطئ العقل في تقييمه لما هو خير، كأن يعطي الاهمية القصوى لخير جزئي، ويهمل خيرا اعظم.

واذا كان الخير نسبيا، فالشر كذلك. فما هو شر للبعض قد يكون خيرا للبعض الاخر ("مصائب قوم عند قوم فوائد")؛ ولكل كائن غاية او غايات، والغايات فيما بينها تختلف او تتضارب، والناس في اختيارهم لهذه الغاية او تلك قد يسببون الشر بعضهم لبعضهم: الموسيقى، مثلا، شيء جيد، ولكن كل نوع من الموسيقى لا يلائم جميع الاذواق من جهة، ولا في كل الازمنة من جهة اخرى. ففي منتصف الليل، قد تكون الموسيقى متعة لهذا، ونقمة للجيران؛ والذي يرفع صوت مذياعه لا يريد الشر بل يندفع واعيا نحو الخير، خير متعته هو. والشر هنا قائم في تضارب الغايات.

الاختيار والخير

لو عدنا الى نقطة انطلاقنا، حيث رأينا ان كل حي منقاد نحو السعادة او الخير الذي يوفرها، وان هذا الانقياد تحركه الغرائز او الارادة، لقلنا انه رغم تنوع الخيرات، فكلها تجتمع في بؤرة واحدة وهي الخير الاسمى، وهذا الخير نسميه "الله". فالله وحده خير كله،

وليس فيه الا الخير. اما الخير الذي هو دون الله، والذي نراه في الخلائق، فلا يمكن ان يكون كاملا، لان المخلوق محدود، وغالبا ما تندفع الارادة عند الانسان -وليس دوما بوعي كامل- نحو الخير المطلق، اندفاعا عجيبا. فالمرء عندما يحب يتمنى لو دام حبه الى الابد، مع علمه اليقين انه مائت؛ وعندما يشعر بالسعادة يروم لو لا تنتهي هذه السعادة، مع علمه ان لكل شيء نهاية على هذه الارض. وهذا التعلق بالخير الاسمى يأتي من حاجة الانسان وطموحه الى كل ما هو مطلق بالرغم من محدوديته الذاتية.

من هذا الاندفاع نتوصل الى الكشف عن وجود الخير الاسمى والمطلق: تلك كانت احدى وسائل الفلسفة الكلاسيكية في معرفة وجود الله، وابرز مثال على ذلك فلسفة القديس توما الاكويني وكتاب حي ابن يقظان لابن طفيل.

غير ان الانسان يمكن ان يُخطيء فيعطي الاهمية القصوى لخير جزئي، وهنا تفسير التناقض القائم بين المبدأ والتحقيق، حين يختار الانسان الجزئي باسم المطلق فيخطئ الهدف. فالخلاصة، اذن، ان الحرية ليست رفض الخير -فلا احد يقدر على ذلك- وانما في اختيار الخير المناسب والممكن.

الحرية والمسؤولية

لسنا هنا في سياق دراسة فلسفية جامدة، وانما نسوق محاولة متواضعة في سبيل فهم انساني -مسيحي لمعضلة حرية الانسان في حياته وفي كوامن طاقاته. واذا شرحنا بعض معطيات الفلسفة، فالخبرة الانسانية تعلمنا ان الشر في العالم -في مفهومه الضيق- اكثر من الخير: فغالبية سكان العالم جائعون، وملايين تموت تحت وطأة العنف وقبل اوانها بسبب قوى الطبيعة: في الزلازل وفي الفيضانات، وعلى يد البشر انفسهم في الحروب والمعتقلات، وكثيرون اخرون لا يسلمون من النكبات والامراض والعقد والهموم والمعانيات والمضايقات الخ... فكل محاولة تتناول موضوع الحرية امام الانسان "الواقعي" تبدو تفلسفا ثقيلا. ونبحث كلنا منطقيا عن المسؤول. من هو؟ أهو الشيطان؟- لا، لا يمكن ذلك، لانه، وهو خليقة، لا يملك في يده مقاليد الامور، ولا حق له على احد . كلكامش نسب المسؤولية الى الالهة، وكثيرون وراءه نسبوا الشر الى الله، الى ارادته (مكتوب على الجبين).ولكن، اذا كان الله هو الخير، فكيف نحمّله مسؤولية الشر في العالم؟

لقد وجه التلاميذ الى يسوع سؤالا بخصوص رجل ولد اعمى، حمّلوا فيه الله مسؤولية عماه، فقالوا: "يا معلم، من اخطأ، اهذا ام والداه حتى ولد اعمى؟" (يو٩:٢). اما يسوع

فلم يُجب على السؤال. بل اكتفى بالقول: "لم يخطئ هو ولا والداه، بل لكي تظهر فيه اعمال الله". في موضع اخر، ذكروا له خبر الجليليين الذين خلط بيلاطس دماءهم بدماء ذبائحهم، وخبر اولئك الثمانية عشر الذين سقط عليهم برج سلوام وقتلهم... من المسؤول؟ فيجيبهم يسوع "إن لم تتوبوا هلكوا جميعا" (لو١٣: ٥).

ضوء الايمان على الحرية

لفهم جواب يسوع هذا، علينا بمراجعة شاملة لمواقفه تجاه الانسان.. فيسوع يبني رسالته على الايمان بالله النابع من المحبة. لذا سنحاول الان تسليط ضوء الايمان على مسألة الحرية الانسانية.

ان اللاهوت المسيحي لا ينكر وجود الشر، ولكنه لا ينسبه الى الله، لان الله خير في ذاته وفي اعماله. فمن اين اتى الشر، اذن؟ المسيحية تؤمن بان الله كشف ذاته في شخص يسوع المسيح، وبه عرفنا طبيعة العلاقة التي تربط الله بالبشر. الله اب وخالق الجميع، لا من اجل مصلحة، بل عن محبة مجانية: "وخلق الانسان على صورته ومثاله" أي عاقلا وحرا ليشركه في سعادته. ولكن، بما ان الله هو الخير الاسمى -كما قلنا- فكان لا بد، والحالة هذه، ان يختار الانسان الله من دون ارتباك او تردد، سيما وانه قد كشف عن نفسه للعالم مرات كثيرة بواسطة انبيائه وبطرق شتى. ولكن السؤال ياتينا محموما من جديد: لماذا، اذن، لم ينقرض الشر من العالم ومن حياة الانسان؟

ان تاريخ الخلاص يوضح مدى الصراع الدائر في وخارج الانسان من اجل الخير. فبولس الرسول يقول: "الخير الذي اريده لا افعله، والشر الذي لا اريده اياه افعل" (روم٧: ١٩) أي انه ميال نحو الشر دون الخير، ليس بحسب منظور الثنائية المانوية او الديانات الفارسية القديمة التي تقدم الخير والشر وكأنهما قطبان متكاملان في تناقضهما وحتميتهما. ان الخير هو اختيار ما يلائم انساننا الشامل، بالمحبة وفي المحبة ونحو الله- المحبة. فمن يحب، يصارع لكي يتقرب ويتشبه ويندمج بمن يحب. وقد ساعدنا المسيح بنعمته على كسر شوكة ما كان يعيق انطلاقتنا نحو هذا الخير. لذا فحرية الانسان هي في الاساس مبنية على وعي واختيار يتعديان نسبية وحدود الخيرات التي نلاقيها في عمرنا المحدود.

فالغاية من وجودنا ليست ان نكون في هذه الحياة مثل اطفال "عقّال"، متجنبين فعل الشر، غير مشاكسين، وانما ان نفك اربطة حريتنا وننطلق طاقاتها نحو عالم افضل. وبهذا يحمل كل منّا مسؤوليتين اثنتين على عاتقه: مسؤولية حياته الشخصية، ومسؤوليته تجاه المجتمع؛ والسبيل الى الاضطلاع بالمسؤوليتين هو في الاحترام والوعي للذات وللاخرين. كم يذهب

الفرد ضحية لعدم تفهم المجتمع له، وكم من مجتمع يعاني ويهلك نتيجة لعدم شعور فرد واحد بالمسؤولية!

الحرية باتجاه الله

الحرية تنبع من حركة الحياة وجدليتها: كتوازن الدراجة، الها اخذ وعطاء، تعلم وتعليم، حزم ومسايرة.. فالانسان ليس جزيرة، انه جزء في كل، وكل في جزء، والرابط بين المسؤوليات -أي بين اقطاب المعادلة الحياتية- هو قلب المشكلة في مسألة الحرية. جواب المسيح على هذه المشكلة هو: "ان لم تتوبوا تهلكوا جميعا". "تتوبوا"! ما معنى ذلك؟ معناه ان ترجعوا الى اعمق ما فيكم، الى الوعي الجماعي الذي يوحدكم، الى الغاية التي تدفعكم وتجتذبكم: الى الله. ان محاولة تبديل النظرة هذه كانت مركز كرازة المسيح، ولم تتحقق كاملة في حياته، لان المسيح بدأ المسيرة فقط.. وعلينا نحن تكميلها. ما نحن الا في البداية -فلسنا سوى في عام ١٩٨١!- وامامنا شوط كبير، وعلينا اكتشاف الكثير فينا وحولنا، وتهيئة جو كاف من الحياة والكرامة ليختار الانسان طريق الخير، أي ليمارس حريته بصورة طبيعية. وما نسميه احيانا قضاء وقدرا، ليس سوى حاصل عملية دقيقة الحسابات نجهل مقاييسها، او استمرار لتدهور قديم وبعيد، خارج عن ارادتنا، كارتطام حجر القيه على شباك! فتحطيم زجاج الشباك ليس قضاء محتوما، لا صلة له بمسبباته، بل انا الذي اردت -بوعي او بغير وعي- كسر الزجاج.

فمن الخلط عدم التمييز بين اسباب الشر المختلفة: فهناك سنّة الطبيعة وقوانينها التي تستمر في مسيرتها، واذا ما وقع الانسان في طريقها جرفته. نتساءل اذ ذاك لماذا لم يوقف الله الزلزال.. ترى ما ذنب الالوف التي ذهبت ضحيته؟ ان الله لن يناقض ما خلقه، ولا يتدخل كل مرة ليوقف سير الطبيعة لاسباب تتعدانا. كما انه، من جهة اخرى، قد اعطى للانسان قابلية البحث وحرية الاختيار بين خيور متعددة، وهو لا يتدخل في كل خطوة ليوقفه كما يفعل مع طفل قاصر، بل يتركه ليتعلم بنفسه. لقد جعل الله الانسان سيدا على الطبيعة يتكيف معها ويكيفها ويتجاوز فيها ذاته نحو ما هو الاصلح، ودرب اخضاع الارض للانسان جزء من مسيرة كونية شاملة. وهذا الشمول في نظرتنا الكونية هو الذي سينقذنا من الوقوع في طرق مسدودة لا منطقية، كما وقع كثير من المفكرين والفلاسفة الملحدين.

دور المسيح

ان دخول المسيح في تاريخنا ليس كدخول معلم، او حكيم، او مفكر وحسب. انه اعمق بكثير، لانه يمنح حياتنا ديناميكية داخلية تدفع الحياة كلها (فرديا وجماعيا) نحو الله.

غير ان هذا الاندفاع لا يلغي مسؤوليتنا، بل بالعكس. فبتجسّد المسيح يصبح الانسان اعمق انسانية، لانه رفع قيمة الضعف في طبيعتنا، و لم تعد القوة والسيطرة والمال هي المقاييس، بل الحب والخدمة والعطاء. والمسيح لم يتقبل الالم والصليب كقدر محتوم كتبته قوى الكون الغاشمة، بل كسلاح لكسر الشر الذي فينا. ان من يكبح غريزة الضعف التي فيه ويمد خده لم يضربه، انما يسجل نصرا على ذاته وعلى خصمه، ويعد نفسه لانتصارات اكبر واوسع.

الحرية صراع

الحرية لدى الانسان هي، اذن، كالحياة، مبنية على الصراع، ولولا هذا الصراع لفنيت الحياة، والانسان مخير لأن يختار الخير، والا افنت البشرية نفسها بنفسها. فمجموع القنابل الذرية الموجودة في العالم اليوم كافية لتسحق كل حياة على وجه الارض.

لكن هذا الاختيار عملية صعبة، واختلاف الاراء حوله دليل اخر على صعوبته. هذا يختار العنف، وذاك اللاعنف، وثالث يتناسى الارض وما فيها لحساب سماء خيالية، فيهتم بالاستغفار عن خطاياه بصورة نرجسية وفردية اكثر من اهتمامه بالتخفيف عن البؤس وبخلق عالم افضل...

ان سبب هذه الانحرافات او غيرها ينجم من دون شك عن عدم تفهم الكثيرين لدعوة الانسانية، الا وهي السير نحو النضوج الكامل الكامن في طبيعة الانسان وفي تطوره المستمر. لقد اعاننا على هذه اليقظة تقدم العلم الحديث، لا سيما في نطاق الدراسات الحياتية والانسانية؛ فدخلت فكرة التطور في اللاهوت، وكان من نتائجها ان علمتنا ان غاية الايمان ليست تجنب الخطيئة بقدر ما هي في الابداع بالخير. لسنا نقول بان هذا الجانب قد اقحم في اللاهوت المعاصر اقحاما، لان الفكر المسيحي منذ البدء لم يسلّم العالم بيد الملائكة او الجن او الارواح الكونية، او بيد اية قوة عمياء غيبية تسير كل شيء. لقد سلم الله العالم بيد البشر وقال لهم: "انموا واكثروا واملاوا الارض واخضعوها" (تكوين ١:٢٨).

خاتمة

الحرية، اذن، ليست غاية في حد ذاتها، بل وسيلة لتحقيق كرامة الانسان وتفجير طاقاته. انها كالمقفز ترفعه فوق المآسي التي يتعثر ويرتطم بها؛ وهي لا تتحقق بمجرد توافر ظروف مادية او اجتماعية او زمنية فقط، وانما تخرج من الصراع والاحتكاك المأساوي بين عناصر الحياة المتزاحمة، كي تتنقى وتبرز ناصعة منتصرة.

لننظر الى صورة هذا الرجل المعلق على الصليب في عز شبابه ينازع ويموت! لقد هبط الى حضيض البؤس البشري وشرب كأس الالم، ولكنه ظل حرا، و لم يستطع كل هذا الشر المتراكم عليه ان يتسرب الى قلبه. لقد بقي هذا القلب يحب ويغفر حتى النهاية؛ وما القيامة

سوى تحقق من ان هذا الاسلوب هو الصحيح، ومن انها شهادة من لله على ان للخير قـوة هائلة، وان فيه يكمن الانتصار الذي يتمناه كل انسان.

الموت الجسدي لا يلاشي الانسان، وهو ليس نهاية كل شيء؛ فالانسان في شـوقه الى الخلود قد تاكد انه لا يطلب شيئا مستحيلا. وهو، وان مات، فهناك شيء سـيبقى: هـذا العناد ضد الموت والرغبة في الخلود هي رغبة الانسان في التحرر مـن كـل القيـود، لان الانسان اعظم من ان يضمحل، وكل صراع للحياة يتسم بطعم الخلود. للانسان حاجة الى الله، وكل شيء فيه محدود الا هذه الحاجة. قال حكيم لابنه:

يا بني، السماوات السبع لا تسع الله،

وطبقات الارض السبع لا تسع الله،

وقلب انسان يسع الله: فاياك ان تجرح قلب انسان!

- الطقوس الشرقية، تراث ودعوة
كانون الثاني/ ص٣٣ - ٤٠ الاب روبيرت تافت اليسوعي (ترجمة: الاب لويس ساكو)

- نيكاراغوا: مسيحيون في الثورة
شباط/ ص٨١ - ٨٨ الاب يوحنا عيسى

+ الانسان بين معطيات العلم ومعطيات الدين
اذار/ ص١٢٩ - ١٣٦ الاب يوسف توما

- كنيسة بلجيكا
نيسان/ ص١٧٧ - ١٨٤ الاخت ماريان - ابراهيم

+ الخطيئة في الكتاب المقدس
ايار/ ص٢٢٥ - ٢٣٢ الاب افرام سقط

- الكنيسة في المانيا الاشتراكية
حزيران — تموز/ ص٢٧٣ - ٢٨٠ الاب يوحنا عيسى

- اقامة الاوخارستيا عبر التاريخ
اب — ايلول/ ص٣٢١ - ٣٢٨ الاب روبيرت تافت اليسوعي (ترجمة: الاب يوحنان جولاغ)

● عدد خاص: الكتاب المقدس(*)
ت١ — ت٢/ ص٣٧٧ - ٤٣٢

- الكنيسة في المانيا الاتحادية
كانون الاول/ ص٤٧٣ - ٤٨٠ الاب يوحنا عيسى

(*) اثبتنا في "المختار من الاعداد الخاصة" المقالات التالية من عدد هو اشبه بكتاب في البيبليا: الاساليب الادبية (أ. خليل قوجحصارلي)، الوحي والالهام في الكتاب المقدس (أ. افرام سقط)، العهد القديم في العهد الجديد (أ. يوسف توما)، قراءة الكتاب المقدس على ضوء القيامة (أ. فرنسيس يوسف)، قراءة في كتاب اعمال الرسل (أ. جرجس القس موسى)، القديس بولس في رسائله (أ. بيوس عفاص).

الانسان بين معطيات العلم ومعطيات الدين

بين العلم والدين نزاع قديم، سببه سوء فهم المعطيات كل منهما وحقل اختصاصه واسلوب ممارسته واستنتاجاته... فلا العلم يضاد الدين ولا الدين يتناقض مع العلم، انما هناك حقلان من المعرفة يستند كل منهما الى معطيات مختلفة بوسعها ان تحدث تكاملا في الفكر البشري: فالعلم يخرج بنظريات تلقي اضواء على الانسان، والدين يكشف عن الابعاد الروحية للانسان، تلك الابعاد التي لا تخضع للاختبار الجهري...

اصل الانسان، تطوره، مصيره.. اسئلة، طرحها الانسان منذ بدء وعيه. فالعلم يقول ان الانسان تطور وما زال في حالة تطور مستمر، والكتاب المقدس يتخطى هذه الجدلية ليكشف عن العلاقة التي تربط الانسان بالخالق وبالكون، وكلاهما يساهمان في يقظة الانسان على ذاته واكتشاف طاقاته الخلاقة ودوره في ترويض الكون. الاب يوسف توما يلقي الضوء.

قال بعضهم ان علم الفلك علم يتبدل كل ستة اشهر، اشارة الى الاكتشافات الجديدة دائما في هذا المضمار. وعلم الانسان، هو الاخر لا يقل عن علم الفلك في هذا: فعلماء المتحجرات والانتروبولوجيا يطلعون علينا بين فترة واخرى باكتشافات جديدة ونظريات جديدة تضع كثيرا مما تعلموه او علموه في حالة تجدد او شك او حتى رفض!

هذا فيما يخص العلماء انفسهم؛ اما الانسان العادي، فلا يزال رهن معلوماته المحدودة يتحرك ضمن مفاهيم قديمة او تقليدية، غالبا ما تكون خرافية او علمية بدائية او قديمة تخطاها الزمن، كأن يدافع مثلا عن نظرية التطور التي اطلقها داروين قبل اكثر من مئة عام، وهو لا يعرف منها غير الاسم!

من اجل ذلك رأيت من الاجدر -ونحن نبحث موضوع ظهور الانسان بين العلم والدين- ان اعيد الى اذهان القراء طرح موضوع تطور الانسان من زاويتي المعطيات العلمية والاجتهاد الديني، مع ان "سلسلة الفكر المسيحي" كانت قد خصصت عددها الثامن لهذه القضية (١٩٦٤). فداروين اصبح، منذ قرن ونيف، مثل راية ينضوي تحتها المؤمنون بتطور الانسان من الحيوان، وينبري معارضوهم للدفاع عن حرفية ما يقرأونه في الكتاب المقدس حول خلقة ادم من تراب وحواء من ضلع ادم.. وفي زحمة الصراع والدفاع والدحض والبراهين المضادة، بقي الطرفان يجهلان ان العلم لم يتوقف عند نظرية داروين، وان الكتاب المقدس ليس كتابا جامد المفاهيم، حرفي المعاني.

لا يمكننا، إذن، ان نتناقش في تاريخ ظهور الانسان بصورة عاطفية وسطحية، ولا نستطيع الاجابة بالتحديد عن تاريخ هذا الظهور؛ فهناك قسم من العلماء يرجعون تاريخ ظهور الانسان الى مليون سنة، وقسم اخر الى اربعة ملايين سنة، غير ان المهم في القضية التي نبحثها، ومن الزاوية الانسانية والوجدانية التي ننطلق منها، هو ان نعرف:

١- متى اصبح الانسان انسانا.
٢- كيف اصبح انسانا.
٣- ما هو مصير هذا الانسان في تطوره.

ماذا يقول الكتاب المقدس؟

لقد حاولت كل الديانات ان تجيب على هذه الاسئلة، كل على طريقتها الخاصة، وانطلاقا من المؤثرات الطبيعية والبيئية التي ترعرعت فيها، غير ان معظمها -لا سيما الديانات غير الموحدة- اكتفت باساطير او خرافات اعطت اجوبة قطعية لا تقبل النقاش، وقد فعلت في اتباعها فعل المخدر الذي يلهي عن أي بحث او تعمق في الحقيقة، فيجمد الانسان في مفاهيم راكدة ومبهمة[1].

اثار الانسان في عصور ما قبل التاريخ

قبل مليون سنة: صناعات حجرية بدائية – صوان واحجار بركانية.
قبل ١٥٠٠٠٠ سنة:اكتشاف النار وتنوع الادوات الحجرية.
قبل ٣٥٠٠٠ سنة:نبال وابر ضخمة.
قبل ٩٠٠٠ سنة ق.م:صناعات خشبية وخزفية ،آلات للصيد والقنص، نشوء المدن الاولى، عصر الزراعة وتربية الحيوانات؛ في الشرق: الكلب اول الحيوانات الاليفة، بدايات الفن.
قبل ٦٠٠٠ سنة ق.م:استغلال المناجم، السيراميك.
قبل ٢٠٠٠ سنة ق.م:الزجاج، استخراج الملح، الجوهرات والصياغة

اما قضية الخليقة في الكتاب المقدس فتختلف جوهريا عن الخرافات البدائية، وتعطينا، في تركيبها الفكري والتعبيري، شهادة ثمينة ومحاولة عميقة للاجابة على سر الانسان، هذا السر الذي لا يقدر العلم ان يحيط به تماما، كما سنرى. فماذا يقول الكتاب المقدس عن اصل الانسان؟

قصة الخلق ترد في التوراة على النحو التالي:

"خلق الله الانسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكرا وانثى خلقهم" (تكوين١:٢٧).

"وان الرب الاله جبل الانسان ترابا من الارض ونفخ في انفه نسمة حياة، فصار الانسان نفسا حية" (تكوين٢:٧).

"فاوقع الرب الاله سباتا على ادم فنام، فاستل احد اضلاعه وسد مكانها بلحم، وبنى الرب الاله الضلع التي اخذها من ادم امراة فاتى بها ادم. فقال ادم ها هذه المرة عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تسمى امرأة لانها من امرئ اخذت، ولذلك يترك الرجل اباه وامه ويلزم امراته فيصيران جسدا واحدا" (تكوين٢:٢١-٢٤).

ليست هذه القصة اسطورة بالمعنى الحصري او الخرافي، وانما هي امثولة تعليمية استقى كاتبها رموزها واسلوبها مما كان متعارفا في زمانه من محاولات فكرية وتقاليد تراثية عن بدء الانسان وتكوينة الاجتماعي. اما وقد مر على كتابة هذه القصة اكثر من ثلاثة الاف سنة، ناهيك عن اصلها التكويني الاقدم، فلا عجب ان يستعصى علينا فك رموزها كلها[٢].

ان جوهر ما يريد الكاتب قوله هو:

١- ان الانسان لا يستقي وجوده من ذاته ولا عن طريق الصدفة، بل انه خليقة الله، وهو مدين له بالوجود والحياة: فالانسان، اذن، ليس خالق الحياة، وليس له ملء التحكم في وجوده.

٢- ان الانسان يختلف عن سائر المخلوقات، فوجوده كانسان قد تطلب تدخلا خاصا ومباشرا من الله: "وان الرب الاله جبل الانسان.. ونفخ في نفسه نسمة الحياة..."، وهو سبحانه اذ "خلقه على صورته"، فقد صار مع الله سيد هذا العالم يشارك الله في "فلاحة" الارض واصلاحها وفي السيادة على الخليقة: "وقال الله: لنعمل انسانا على صورتنا ومثالنا. وليتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الارض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الارض..." (تكوين١:٢٦). وخلق الله الانسان ايضا لكي يحب: "ذكرا وانثى خلقهما"، لا كالحيوانات، بل ليعطي الحياة بحب، مثل الله واهب الحياة. على الانسان ان يحب الانسان الاخر، كما لو كان "عظما" من عظامه و "لحما" من لحمه، مهما اختلف عنه.

فالمرأة تختلف عن الرجل ولكنها مساوية له، تشاركه في كل شيء "لانه لا يستحسن ان يكون الانسان وحده" (تكوين٢:١٨)؛ وهي ليست مجرد آلة للخصب والانجاب، بل انسانا مثله وعلى مستواه، ومعه تكوّن المجتمع؛ ومن ثم تشاركه في هبة الحياة وتكوينها ونقلها لكائنات بشرية جديدة من صلبهما، من لحمهما ودمهما، وامتدادًا لهما في التاريخ.

٣- ان مصير الانسان هو في الاتجاه نحو الوحدة. فكما ان الله واحد، كذلك على البشرية (التي يمثلها الزوجان الاولان) ان تصير واحدة، وتمثل اسرة كبيرة واحدة، تحيا معا وتتعاون للبناء والتكامل.

٤- ان الخصوصية التي يحملها النص الكتابي عن الخلقة ليست في الكيفية السردية، وانما في طبيعة العلاقة التي تربط الانسان بالله، اعني ان الغاية من النص ليست في عكس صورة تاريخية عن ماجريات الامور وسرد "وقائع" الخلقة كما يسردها تقرير صحفي، وانما الغاية هي ايصال القارئ المؤمن الى طبيعة العلاقة الحميمية والوجودية بين الله كخالق /اب والانسان كمخلوق/ ابن من جهة، وبين الرجل كرفيق وزوج واب، والمرأة كرفيقة وزوجة وام من جهة اخرى؛ وبين الانسان والكون مع ما فيه من جهة ثالثة. فقصة الخلقة في الكتاب المقدس يمكن وصفها بانها طرح فكري -فلسفي لمنابع الانسان

ومصيره، لا سرد وقائعي اخباري. انها "أطروحة" العلاقات الانسانية/ الالهية والانسانية/ الانسانية مع كل ما يترتب من التزامات وصلات وارتباط وتضامن من جراء هذه "العلاقات" ضمن التاريخ وعلى الصعيد الفردي والاجتماعي.

هكذا نلاحظ، اذن، ان النص الكتابي ليس تحليلا علميا بالمعنى الحصري، ولا اسطورة بمعناها الخيالي اللاواقعي او الملحمي الجامد (لان الاسطورة تجعل من شخوصها ابطالا جامدين خارج الزمن)، ولا تاريخا بالمعنى السردي، كما اسلفنا. ان قصة الخليقة في الكتاب المقدس، على غرار امثال يسوع، تعبر عن حقيقة فلسفية وبعد نظر نبوي ينير الطريق امام من يبحث عن معنى وجود الانسان في اصله وحاضره ومصيره.

كما ان النص في تكوينه يحتوي على ديناميكية قوية تترك الموضوع مفتوحا امام محاولات العلم واجاباته، ويبقى النص بالنسبة لمعاصريه نقلة نوعية كبرى في التعبير عن اصل الانسان ومصيره: اذ ان كاتبه الذي يستقي صوره من مصادر عديدة (من حضارات الهلال الخصيب وحضارات وادي الرافدين بصورة خاصة) يحمل ما استقاه رموزا ومعاني جديدة وبعيدة. فنص الكتاب المقدس يترك الانسان حرا تجاه التفاصيل ليلتزم بالجوهر ويستمع الى ابعاده -وهذه هي طبيعة المثل. فيسوع غالبا ما كان يختتم امثاله بهذه العبارة: "من له اذنان سامعتان فليسمع" (متى ١١:١٥؛ ١٣:٩؛ ٤٣؛ مرقس ٤:٩؛ ٢٣؛ ٧:٦؛ لوقا ٨:٨؛ ١٤:٣٥)، أي من له قلب وذهن منفتح ومؤمن وحده يفهم، او ليأخذ كل واحد بحسب قابليته للفهم.

فالكتاب المقدس، اذن، ليس من شأنه ان يأخذ مكان العلم في استكشاف اصل الحياة وتكوين الكون في قوانينه وتطوره؛ ولكنه في شمولية نظرته يمتد الى ابعاد تتعدى حدود العالم المادية، ليصل الى المعاني، الى الروح الكامنة وراء المادة.

لذا لا يمكن للكتاب المقدس (اذا فهم بصورة صحيحة) ان يتناقض مع العلم. والتناقض الذي يبدو احيانا، سببه ان بعضهم يريدون ان يجدوا فيه -او في الدين عامة- جوابا كاملا ووافيا لكل تساؤلات الانسان العلمية، وكأني بهم يرون في الكتب المقدسة قواميس وموسوعات لعلوم الاحياء والفلك والذرة والرياضيات.. كما ان هناك نزعة مغلوطة عند البعض في التوفيق، مهما كلف الامر، بين معطيات الكتب الدينية والاستكشافات العلمية، ويرون انتقاصا من "الكتاب المقدس" ان لا يحوي ما يدعم النظريات العلمية او يدحضها!

العلم وتطور الانسان

ان هذه الملاحظة تقودنا الى التفكير في ابعاد الحقائق الانسانية. فلقد قسمها القدماء الى حقائق طبيعية وحقائق ما فوق الطبيعة، غير ان هذا التقسيم لا يصح دائما في الحياة العملية، نظرا لاختلاط المواضيع وتداخلها. ولكن ما يمتاز به عصرنا هو ارتكازه بصورة

خاصة على العلم، والعلم لا قمه الا الحقائق التي تخضع للتجربة والتكرار والملاحظة، ومن هذه المرتكزات الاختبارية تستنتج النظريات العلمية، والنظرية تبقى خاضعة للتبديل والاكتمال اذا نقضتها اخرى او كملت حلقاقما المفقودة. فالعلم الصحيح يحدد دائما حقل عمله وابعاد اختصاصه ويعترف بمحدوديته او عجزه تجاه الامور التي لا تخضع لاساليب بحثه.

من هذا المنطلق، بدأ تساؤل العلم حول تطور الانسان. وقد كان العلماء في القرنين الثامن والتاسع عشر قد جمعوا مادة موسوعية ضخمة، عنها تكونت النظريات الانتروبولوجية في اصل الانسان. من اشهر هؤلاء العلماء شارل داروين (١٨٠٩-١٨٨٢) عالم نبات بدأ تجاربه في اميركا الجنوبية. فأطلق، اولاً، نظريته في الاصطفاء الاصطناعي، ثم تحول الى نظرية الاصطفاء النوعي والطبيعي، فحدد الطريق التي سلكتها الانواع الحية في نشوئها وتطورها. غير ان ما يجهله الكثيرون هو ان داروين لم يتطرق قط الى كيفية نشوء الحياة ولا الى مكان نشوئها، بل اكتفى بالقول بان الحياة نشأت وتطورت بصورة ما. وجاءت السنوات اللاحقة لتؤكد صدق حدس داروين واستنتاجاته، وساهمت علوم عديدة في دعم استنتاجات داروين باكتشافات جديدة هامة، منها:

١- كشف علم طبقات الارض وعلم المتحجرات عن اشكال مختلفة للحياة وجدت ثم انقرضت.
٢- ان الاشكال الحية المتواجدة اليوم لم تكن منذ القدم على ما هي عليه الان.
٣- في ما يخص الانسان تمت، اكتشافات هامة عن عظام بشرية هي اقرب الى القرود منها الى الانسان الحالي.
٤- لا يزال السر يكتنف نظرية التطور حتى اليوم: فلماذا، يا ترى، تتطورت اجناس دون غيرها؟ اما تطور الانسان فلم يتم جزافا ولا عشوائيا، بل تنم الاكتشافات عن ان اعضاء معينة فيه تطورت اكثر من الاخرى، كالاتي:

١) اتساع الجمجمة (بين ٨٠٠ سم٣- ١٥٠٠ سم٣). وقد تطور القسم العلوي من الجبهة بصورة اخص، وهو منطقة الوعي والشعور والاحاسيس.

٢) الوقوف على الاطراف الخلفية وتحرر الاطراف الامامية تدريجيا. اما الاعضاء الاخرى، فكأن التطور فيها اقل بكثير.

الى جانب هذه التطورات، اكتشفت بقايا بشرية تحمل دلالات مهمة على تميز الكائن البشري وقدرته الواعية الذاتية، مثل:

١- القدرة على صناعة الادوات، أي الوصل بين الغاية والواسطة.
٢- استخدام النار والسيطرة عليها، وذلك جزء من السيطرة على قوى الطبيعة (قبل ١٥٠٠٠٠ سنة تقريبا).
٣- القدرة على التمثيل والايحاء (الرسم، النحت...).
٤- دفن الموتى.

ولو قارنا بين الانسان والحيوانات، لرأينا ان تطور الحيوانات قد تم بصورة مختلفة عن الانسان، ففي حين تكيفت الحيوانات وتسلحت جميعا بما يحميها من البرد والجوع والعطش والاعداء فنجحت من الانقراض، بقي الانسان لا سلاح له سوى عقله. ويشير الخط البياني لتطور العقل الانساني الى طاقته نحو التجريد؛ فهو لا يكتفي باستنباط واستخدام ما يساعده على توفير المآكل والمشرب والملبس، بل انه "يتفنن" -ومنذ البدء- في كل ما يخص حياته الطبيعية والتعبيرية والوقائية، وتمتاز الادوات الحجرية التي نحتها الانسان بدرجة عالية من الحذق والمهارة. ويجدر بالاشارة في هذا المضمار الى التشابه الموجود بين بعض الرسوم والنقوش البدائية القديمة وبعض اللوحات التجريدية المعاصرة.

اما دفن الموتى وما كان يرافقها من طقوس، فتشير بصورة واضحة الى ولادة الشعور الديني لدى الانسان وبداية اعتقاده بحياة اخرى بعد الموت. فتطور الانسان، اذن، -في نظر العلم- هو تطور كل الانسان، فكريا وعلميا وروحيا.

بين العلم والدين

ليس العلم، اذن، سوى مظهر من مظاهر الحياة البشرية وتطور الانسان الفكري والوجداني؛ غير انه مهما تقدم وتشعب فسيبقى قاصرا عن الاحاطة بكل الانسان، ليس لاتساع غنى شخصية الانسان فحسب، بل لان ثمة جوانب من هذه الشخصية لا تخضع للقياس العلمي الموضوعي في جوانبه المختبرية. والدين ايضا، بدوره، مظهر اخر من مظاهر حياة الانسان وتطوره الحضاري ينظم، في واقعيته، كل ما يتعلق "ببذرة الخلود" التي فيه - حسب تعبير المجمع الفاتيكاني الثاني- أي صلته بالله وبالانسان على مستوى الشعور الديني والبعد الوجداني والروحي. ولقد تكيف الدين، من حيث هو اطار تنظيمي للحياة والاحساس، بالتضامن مع الانسان والطبيعة والخالق بحسب الشعوب والحضارات عبر التاريخ؛ لذا قامت اديان لا تحصى حاول الانسان من خلالها ان يوحد وينظم تساؤلاته الاساسية في اصل الحياة والوجود والمصير. وكما حصل انتقاء طبيعي لدى الانسان في ما يخص الاحساس والوعي الفكري، كذلك حصل انتقاء في اديانه، فبقيت تلك التي عرفت كيف تستجيب لنداء التطور الذي فيه وتجيب الى تساؤلاته بصورة موحدة أي تلك التي تتقدم اليه كعنصر وحدة لشخصيته وتطلعاته وانسانيته وتزيل عنه الانفصام.

فبقدر صفاء الدين من الشوائب والاستلابات، بقدر ذلك يكون انسانيا، وبقدر ما يكون الدين انسانيا، بقدر ذلك يكون الهيًا اصيلا. لان الدين في جوهره اطار لسعادة الانسان ووحدته يسهم في إعطاء معنى وبعدًا ابديًا وإلهياً لوجوده، لا قيدًا يستلب انسانيته ويجعله اشبه بريشه في مهب الريح.. او بالاحرى في مهب الاهواء الغيبية.. وكذلك يهدف العلم من موقعه ومن زاويته الخاصة.

خاتمة

الانسان، اذن، حي ينتمي الى عالم المادة والروح، في آن واحد، يولد ويموت كسائر الاحياء، ولكن منه ما لا يخضع للمادة، وهذه هي الخصوصية التي ما تزال، على تعاقب الاجيال، تسترعي انتباه الانسان المفكر حول مصيره وطبيعته الفذة.

يقول الاب تياردي شاردان(١): "ان العلم والدين يتنازعان على مستويات مختلفة ولا يلتقيان، وذلك لان كلا منهما يرى نصف المشكلة" (ظاهرة الانسان – الطبعة العربية/ ص٤٣). هذا النزاع هو نفسه الذي نراه بين المادة والروح، بين الطبيعي وما فوق الطبيعي. والتطور ليس ركيزة كونكريتية منغرزة في ارضية ثابتة، بل بالعكس، انه بناء يتم عبر عمليات مخاض والام صعبة ومتواترة. فتطور الانسان تم اولا في داخله بسبب حاجاته الاساسية، ثم الثانوية؛ ومنذ البدء ما فتئت حاجات الانسان في ازدياد، ورغباته في تعقد، وطموحاته في اتساع وتشعب، ونحن اليوم لم نصل نهاية التطور، بل لا زلنا سائرين: انه من الاهمية بمكان ان نركز على اتجاه هذا التطور ووتيرته التصاعدية والسائرة ابدا نحو امام. هذا من جهة العلم؛ اما الدين، فيقول ان الانسان خليقة خاصة ومتميزة نصفها المادي من الارض، ونصفها الروحي من الله، وهذا الانسان مدعو لان يشارك الله حياته: على هذه الارض، بحياة واحدة مستقيمة مترفعة عن كل ما يحط من كرامته التي تاتيه من كونه "على صورة الله ومثاله"، وفي السماء في حياة خالدة مع الله.

اما النزاع بين الدين والعلم، فنراه نزاعا مزعوما وليس على الجوهر، بل في تلمس كل واحد لتعابيره واسلوبه الخاص وطرق الوصول الى اهدافه. فالدين العميق والعلم العميق يتفقان على ان الانسان اكبر من ان يكون مجرد مادة معقدة التركيب او روحا مجردا في تلابيب المادة.

لقد صدق من قال: "ان القليل من العلم يبعد عن الله، اما الكثير منه فيقرب من الله".

---

(١) هذا الفعل ذاته قد يفعله العلم عندما يتحول الى موقف جامد يكون اشبه "باسطورة" علمية، مما بنظرية علمية منفتحة نحو الاغتناء والاكتمال. فليس اقرب الى الخرافة من تعلق اعمى بـ "نظرية" علمية جامدة، تتحول الى عقيدة لا تتبدل. هذا التيار هو ما نسميه بالعلموية (Scientisme)، أي الجمود الفكري باسم العلم.

(٢) لقد اكتشف علماء اللغات السامية القديمة ان سر اختيار الكاتب "للضلع" كمادة اولية لتركيب جسم المرأة، لربما يعود الى التشابه القائم في اللغة السومرية بين كلمتي "ضلع" و "امرأة" (تي وتي تي). اما مار افرام، فينسب ذلك الى "الصلة" الانسانية والحميمية القائمة بين الرجل والمرأة، فيقول بان الضلع هو العضو الساكن تحت الابط، دلالة الى الحماية التي يحيط بها امراته، وهو الاقرب الى القلب دلالة الى الحب الذي يغمرها به.

(٣) انظر ف.م. ايار ١٩٧١(وهو ملف للاب يوسف قوشاقجي نشر في "كتّاب رحلوا")

الخطيئة في الكتاب المقدس

زعم بعضهم ان الخطيئة تترصد الانسان في كل عطفة شارع، ونظروا الى جميع اعماله بمنظار الخطيئة والشر المحتوم. وادعى غيرهم ان لا خطيئة بعد اليوم، فالانسان سيد نفسه واختياراته ولا حساب يؤديه سوى لذاته. وتوقف اخرون عند الخطايا المتصلة بالوصية السادسة وتجاهلوا او انتقصوا من خطورة الخطايا الاخرى كالرياء وحب المال والحقد والظلم.. وهي التي حاربها المسيح بشدة.. لانها هي التي تستعبد الانسان.

جوابا الى التساؤلات حول مفهوم الخطيئة في اطار عزوف البعض من الاعتراف، كتب الاب افرام سقط الدومنيكي هذا الملف، مستنيرا بمعطيات الكتاب المقدس.

الخطيئة لا تفهم الا من خلال خبرة يعيشها الانسان في واقعه الروحي. وقبل ان تكون الخطيئة ظاهرة اخلاقية، فهي خبرة روحية يتلمس فيها الانسان الفرح والحزن، السعادة والالم. وهذه الخبرة، سواء كانت فردية ام جماعية، تظهر "اعراضها" عبر الانزعاج، والقلق، والتوتر النفسي، والتساؤلات، والتشكي المتكرر الناتج عن ثقل باطني يقلق راحة المرء. ويوحنا يشير الى هذه الخبرة الانسانية وامتداد جذورها في كل انسان عندما يقول: "ان نحن قلنا ان لا خطيئة لنا، فاننا نضل انفسنا وليس فينا الحق، وان قلنا اننا لم نخطئ، فاننا نجعله كاذبا وكلمته ليست فينا" (١يوحنا ١:٨ و ١٠).

الخطيئة في العهد القديم

الكتاب المقدس يحدثنا كثيرا عن هذا الواقع الذي يختبره الانسان كل يوم، ولا يتردد الكاتب من تسمية هذا الواقع بالخطيئة، غير انه يبقى غامضا في عباراته عندما يود وصف الخاطئ. فيقول مثلا: "فلان صنع الشر امام الله". واذا تعمقنا في قراءة العهد القديم وتتبعنا المراحل المختلفة التي مر بها شعب الله، منذ تكوينه كشعب قبلي حتى تأسيس الملكية، تتضح لدينا طبيعة الخطيئة وتنجلي حقيقتها وتأثيرها وابعادها في العلاقات الاجتماعية. ولا يسعنا تجاهل الحقيقة الكبرى التي يقدمها لنا الكتاب المقدس وهي اننا باكتشافنا خبرة الانسان في بؤسه وقلقه وصراعاته، نكتشف في الوقت ذاته الاسلوب التربوي الذي يعامل به الله الانسان، وهذا التعامل شبيه بتعامل الاب مع ابنه: تعامل يتسم بالرحمة والحنان والعطف. ويمكننا ان نوجز تاريخ الخلاص بكونه تاريخ المحاولات المتكررة التي يظهر الله من خلالها عطفه وحنانه تجاه الانسان لينقذه من خطيئته. واذا اعتبرنا الخطيئة رفضا لحب الله للانسان، نكتشف اذ ذاك حب الله الفياض ورحمته والغفران الذي يجدد الانسان.

ان الغفران يصحب الانسان كل مرة اخطأ او ادار ظهره لمحبة الله؛ وقد عاش الشعب هاتين الخبرتين، اعني بهما خبرة السقوط وخبرة الغفران. فحين يختبر بؤسه وشقاءه وقلقه، حينذاك يتذوق قوة الرافة الغافرة. والكاتب الملهم لا ينظر الى الخطيئة بمعزل عن الصفح والغفران وعن حنان الله ورحمته التي تجعل الخاطئ يسترجع كرامته ويعود انسانا سويا، شريطة ان يتجاوب مع الله بقرار حر يكفل العودة الى احضان الاب ليلتئم الصدع وتعاد العلاقة التي انتابها الجفاء. وما يثير الدهشة هو انه منذ سقوط آدم والمراحل التي مر بها الشعب، الله نفسه هو الذي ياخذ زمام المبادرة في انقاذ الانسان، وهكذا تستبق محبة الله خطيئة الانسان.

خطيئة اسرائيل[1]

لنعد الان الى محنة شعب الله في مرحلة خروجه من مصر حيث ينقل لنا الكاتب حدثين لهما اهمية كبيرة في خبرة الشعب ويجيبان الى ما نلاقيه من أمثلة حول الخطيئة.

السجود للعجل الذهبي

كما كان الله قد اغدق نعَمَه على آدم، كذلك سيغمر شعبه بالعطايا، واولى هذه العطايا اختياره "من بين شعوب كثيرة"؛ ولم يكن احسان الله مقابل بر الشعب، بل كان نابعا من حب الله له: (تثنية الاشتراع ٧:٧ و ٤:٩، حزقيال ١٦:٢-٥ و ٢٠:٧). ولقد سماه ابنه البكر لينقذه من العبودية ومن الخطيئة، وقد ضاعف معجزاته تجاهه؛ ولكن الشعب لم يكن اهلا لكل هذه الثقة. ففي اليوم الذي اراد الله ان يقطع عهدا معه، في اليوم نفسه طلب الشعب الى هارون ان يقيم له آلهة تسير امامه: فبالرغم من الايات التي صنعها الرب له كعلامات ملموسة لحبه واخلاصه، تذمر الشعب متشكيا من ان الله اصبح بعيدا عنه.

لقد رفض الشعب العهد وقطع روابط الصداقة التي اراد الله مدّ اسسها من خلال الميثاق. وبينما يقوم العهد على احترام حقوق كلا الجانبين، فقد انعكست الادوار الان بعد نقض العهد، واخذ الشعب يرفض السير مع الله ويستصعب توجيهاته. والكاتب اراد، بتقديمه هذه الحادثة، تلسيط الاضواء على طبيعة الخطيئة من حيث كونها، قبل كل شيء، فقدان الثقة بالله وعدم الايمان به والتمرد عليه. واذا اعتبر الكاتب خطيئة اسرائيل مماثلة لخطيئة ادم، كما أشرنا، فالنصوص التي تتحدث عن تذمر الشعب واستبداله الله بآلهة غريبة، ليست الا تأكيدا على خطورة الخطيئة وفداحتها.

اما الحدث الثاني الذي يقدمه الكاتب، فهو قضية اجتياز الصحراء. ولقد اشار بولس الرسول الى هذا الحدث في سياق رسمه بعض الخطوط الرئيسة من حياة شعب الله في رسالته الاولى الى اهل قورنثية ١٠:٦، وقد وصف تلك المرحلة القلقة "بخطيئة قبور الشهوة" مشيرا الى سفر تثنية الاشتراع.

ان مرحلة اجتياز البرية تتلخص بكونها مرحلة تذمر الشعب على الله ورفضه الاختبار الروحي الذي اراد الله فيه ان يفهم الشعب بانه تعالى ما زال يحبه ويعطف عليه رغم المضايق والشدائد التي يعانيها: انه اختبار البرية. وموضوع البرية سيبقى موضوعا مهما في روحانية الكتاب المقدس، في عهديه، وحتى في كتابات اباء الكنيسة، حيث ترمز البرية الى حضور الله المتميز، بالاضافة الى كونها موضوع الاختبار الروحي حيث تتنقى العلاقة التي تربط الانسان بالله، وحيث يمتحن الرب شعبه ويدربه على الطاعة والاتكال عليه وحده فقط.

لقد دعا الكاتب هذه الخطيئة بـ "قبور الشهوة" لان البرية اصبحت مقبرة لكل من لم يكن اهلا للدخول الى الارض. وهنا نجد الصلة بين هذه الخطيئة وخطيئة الانسان الاول من حيث انها خطيئة الرغبة في اشباع طمع الانسان وجشعه في التهافت على المادة. وكما ذاق آدم مرارة قراره باتخاذ بديل لله، كذلك سيختبر الشعب الحزن والاسى في اختباره طرقا تناقض طرق الله، كما ستصبح هذه الخطيئة درسا للانسان، على مر الاجيال، يتذوق فيه مرارة الفراق والعيش في قطيعة مع الله.

تعليم الانبياء

اننا نكتشف تطورا مهما في رسالة الانبياء وتعليمهم حول الخطيئة. فهناك انتقال واضح من الفكرة السائدة آنذاك وهي التركيز على غيرة الرب، باعتباره سيدا مطلقا وملكا دنيويا وروحيا لدولة كوّنها هو وجعل لها انظمة وشرائع وأوصى بالمحافظة على قوانينها بالعهد الذي قطعه مع شعبه، الى فكرة ان الخطيئة عائق اساسي لتحقيق مخطط الله في بسط ملكه على الشعب. لقد جاءت غيرة الرب كي تصد كل تدخل من قبل آلهة غريبة في وحدانية الله وسيادته المطلقة، ولم يكن الفرد يتحمل مسؤوليته الشخصية الا من خلال الملك الذي يختاره الرب. فاذا كان الملك صالحا كافأ الله الشعب كله من اجله؛ واذا كان شريرا وغير حافظ لطرق الرب ووصياه، عاقب الله الشعب كله بسببه.

ويتصف موقف الانبياء بالجرأة، في فضح الخطيئة والشر اينما وجدا، والاشهار بكل فعل صادر عن الملك او عن رؤساء الكهنة لا يتفق وعهد الله. ويقوم تعليم الانبياء على ان الانسان حينما يحاول التفرد في القرارات دون العودة الى الله، فانه يصطدم برغباته المتناقضة، ويدفع ثمن تفرده. واذا كانت هذه حالة الفرد في تحمل مسؤوليته، كذلك حال الشعب حين يعصي اوامر الرب. هكذا يصبح الانبياء الذين ارسلهم الله لايصال رسالته الى الانسان منبهين ورقباء على الشعب ورؤسائه. واذا كان الانبياء قد قدموا لوائح من الخطايا، لا سيما تلك التي لها صلة بالعلاقات الاجتماعية، فتعليمهم يدور في اطار الوصايا العشر التي كانت تعتبر بمثابة مؤشر للاستمرار في صحبة الله او الخروج عنها.

ان الخطيئة، في نظر الانبياء، واقع ملموس يعيشه الانسان ويتلمسه عبر الضرر الذي يفرزه. ومن ضمن هذه الاضرار يذكر الانبياء العنف، والكذب، والافتراء، والزنى، والحلفان بالباطل، والقتل، والسرقة... وكل هذه المظاهر تسبب الفوضى الاجتماعية. والاعتراف الذي جاء في كتاب اشعيا (الفصل ٥٩) يكشف عن انعكاسات هذه الخطايا على الحياة

الاجتماعية وما تسببه من خراب وفوضى: "انما فصلت بينكم وبين الهكم آثامكم، وخطاياكم صرفت وجهه عنكم لئلا يسمع.. من اجل ان معاصينا تكاثرت قدامك، وخطايانا تشهد علينا، لان فجورنا معنا وآثامنا عرفناها. تعدينا وكذبنا على الرب، وحدْنا الى خلق الهنا. تكلمنا بالظلم والتعدي وقد ارتد الحق الى خلف والعدل وقف من بعيد" (اشعيا٥٩ و ١٣). وسيحذو الانبياء اللاحقون حذو اشعيا في تأنيب الشعب على أعماله. هوذا هوشع يذكرنا بالمحاكمة القائمة بين الله وشعبه: "ان للرب محاكمة مع سكان الارض. من اجل انه ليس حق ولا رحمة ولا علم بالله على الارض. اللعنة والكذب والقتل والسرقة والفسق انفجرت والدماء تلحق الدماء" (هوشع٤:٢).

والانبياء يلقوننا درسا بليغا آخر، وهو انه عندما يود الانسان ان يبني حياته مستقلا، فانه لن يبنيها الا على حساب الاخرين ولا سيما الضعفاء والمساكين (مز٥٢:٩). وخطيئة داود النبي اجلى مثال على ذلك (٢صموئيل١٢).

ويأتي حزقيال في ١٨:١-٩ ليؤكد على ان كل انسان يتحمل مسؤولية اعماله، وان الابن لا يحمل اثم ابيه. ولكن الرب اذا رفض البار الذي يأثم، فهو يقبل الخاطئ اذا تاب: **"وكان الي قول الرب. قال: لماذا تضربون انتم بينكم هذا المثل على ارض اسرائيل قائلين: ان الاباء اكلوا الحصرم واسنان الابناء تضرس. حي انا يقول الرب الاله: لا يكون لكم من بعد ان تضربوا هذا المثل. ها هوذا جميع النفوس هي لي. كما نفس الاب، كذلك نفس الابن هما لي، والنفس التي تخطئ هي تموت. الانسان ان كان بارا وصنع قضاء وعدلا، ولم يأكل في الجبال، ولم يرفع طرفه الى اوثان أهل اسرائيل، ولم يفضح امرأة قريبة، ولم يظلم احدا، ورد الدين ولم يغصب بشيء، ومنح من خبزه الجوعان، وألبس العريان ثوبا، ولم يقرض بالرباء، ولم يأخذ زائدا، ومنع يده عن الجور، وانصف بقضاء الحق بين الرجل والرجل، وسار في وصاياي، وحفظ احكامي ليصنع الحق. فهذا هو بار، وحياة يحيا" (حزقيال ١٨:١-٩).**

ان الخطيئة اهانة لمحبة الله وابتعاد عنه، وعبادة الاوثان شر كبير لانها استبعاد آلهة لم تصنع أي فضل للشعب. يقول ارميا: "هل بدّلت امة من الامم آلهتها وهي ليست آلهة؟ فان شعبي عمل شرين: تركوني انا ينبوع الماء الحي، واحتفروا لانفسهم آبارًا مُشققة لا تضبط ماء (ارميا ٢:١١).

أما الخبرة العميقة التي توصل اليها الانبياء، فهي ان الخطيئة نكران لجميل الله تجاه معجزاته التي حققها لشعبه. انها لخبرة فريدة اذ يكتشف الانسان من خلالها ان الله اب. فاشعيا يقول: "وليس من يدعو باسمك، او ينتبه ليعتصم بك، لانك اخفيت وجهك عنا وذوبتنا بسبب اثامنا. والان يارب، انت ابونا، نحن الطين وانت جابلنا، ونحن كلنا عمل يديك" (٦٤:٧)، ويضيف قوله: "هل يمكن ان تنسى المرأة طفلها حتى لا ترحم ابن بطنها؟ وان كانت هي تنسى اما انا فلا انساك!" (٤٩:١٥).

فالخطيئة لم تعد، اذن، في نظر الانبياء، مجرد مخالفة لوصايا الله، وانما هي خبرة تمس العلاقات التي تربط الله بالانسان في الصداقة والحب. وما اكثر عبارات الحب والتودد التي ترد على صفحات الاسفار النبوية تجاه الانسان، معبرة عن أبعاد الخطيئة. وفي هذه المرحلة

من الوحي، يظهر الانبياء الخطيئة كفعل يطعن العلاقات الشخصية في الصميم، إذ يرفض الانسان ان يكون محبوبا من قبل الله. بالخطيئة يصبح الحب جريحا، وهذا هو سر الحب: ان الخطيئة مأساة لكونها تؤذي علاقة الحب القائم بين الله والانسان.

واذا كان الانبياء قد ركزوا على علاقة الحب لشرح العلاقة التي تربط الله والانسان، فذلك يدل على ان الله يحب الانسان بعمق، وان حبه حب غيور: "اني انا الرب الهك اله غيور"، وغيرته نابعة من حبه بالذات. تلك فكرة لاهوتية جديدة تضعنا على عتبة العهد الجديد. انها فكرة الميثاق الجديد الذي يقطعه الله ثانية مع شعبه؛ ويعتبر ارميا نبي هذا "الميثاق الجديد" : "ها ايام تأتي يقول الرب، اعاهد آل اسرائيل وآل يهوذا عهدا جديدا ليس مثل العهد الذي عاهدت به آباءهم يوم امسكت بايديهم. اجعل شريعتي في احشائهم واكتبها على قلوبهم واكون لهم الها وهو يكونون لي شعبا" (ارميا٣١).

أما حزقيال، فهو نبي "القلب الجديد والروح الجديدة": "واعطيكم قلبا جديدا واجعل روحا جديدة في داخلكم وانزع قلوبكم الحجرية من اجسامكم واعطيكم قلوبا من لحم واجعل روحي في بواطنكم، واجعل ان تسلكوا في أوامري وتحفظوا احكامي وتعملوا بها" (حز٣٦:٢٦).

بهذا تكف الشريعة ان تكون وصايا تفرض من الخارج، وانما وصايا تنبع من داخل روح الانسان.

الخطيئة في العهد الجديد

يتمحور تعليم الانجيل حول قضية اساسية وهي ان يسوع المسيح جاء ليكمل الكتب. ان "عبد الله" الذي حمل على عاتقه الام البشرية واوجاع الناس، بحسب اشعيا، ليس الا يسوع الذي من الناصرة. المسيح لم يعط لنا تعليما نظريا حول المحبة والخطيئة التي تعتبر رفضا للحب، وانما جاء ليقول للانسان انه مدعو الى السعادة، وانه، أي يسوع، جاء لخلق انسان متكامل، روحا وجسدا. فالمسيح يدعونا اليه لانه "الطريق والحق والحياة".

١ - موقف يسوع من الخطاة

لقد جاء يسوع، في الاساس، من اجل الخطأة؛ وبعكس الفريسيين ورؤساء الكهنة، فقد عاشر الخطأة وغفر خطاياهم وأظهر ان المقياس في كل تصرف هو "حب الله وحب القريب" : "فدنا اليه احد الكتبة وكان قد سمعهم يجادلونه، ورأى انه احسن عليه فسأله: "ما هي الوصية الاولى في الوصايا كلها"؟ "الوصية الاولى هي: ان الله ربنا رب واحد. فأحبب الله ربك بجميع قلبك وجميع نفسك وجميع ذهنك وجميع قدرتك. والثانية هي: احبب قريبك حبك لنفسك. ولا وصية اخرى اكبر من هاتين" (مرقس١٢:٢٨-٣٤).

كل الوصايا الاخرى تجد قيمتها ومعناها في هاتين الوصيتين، والخطيئة بالنسبة ليسوع، ليست سوى اهانة للمحبة. من جانب اخر، طالما اظهر يسوع من خلال مواقفه انه جاء ليعيد الى الانسان كرامته التي ديست من جراء قسوة الشريعة؛ وعندما يعيد المسيح الى الخاطئ كرامته، فذلك يعني انه يفتح باب الحوار بين الله والانسان. ولقد اظهر يسوع مواقف الرحمة والغفران وكشف ان الخطيئة تغتفر بتدخل الله، وان التوبة لا تقوم على دفع دَين معين، بل بفعل من الله القادر وحده ان يغير القلب.

وتغيير القلب موضوع ورد في رسالة الانبياء، ومعناه الاستعداد الداخلي لسماع كلمة الله وتقبل البشرى السارة. فتعليم المسيح يأتي في خط رسالة الانبياء التي كانت لشجب الخطيئة حيثما وجدت، وفضحها عند اولئك الذين يدعون انفسهم صديقين لتمسكهم بحرف الشريعة. فالخطيئة في مفهوم الاناجيل تكمن في داخل الانسان، في قلبه، "لانه من الداخل، من قلب الناس تخرج افكار السوء، الفجور، الزنى، القتل، السرقة، الطمع، الخبث، الفسق، العهارة، العين الشريرة، التجديف، التكبر، الجهل. كل هذه الشرور من داخل تخرج وتنجس الانسان" (مرقس٧: ٢١).

لم يأت يسوع ليحل الشريعة بل ليكملها. وتلميذ المسيح ليس هو ذاك الذي يتوقف لدى تكميل بر الكتبة والفريسيين، بل من يتبع معلمه، أي تكميل شريعة الحب: اني اقول لكم إن لم يزدد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت الله. وبقدر ما يتبع التلميذ معلمه بعمق وأصالة، بقدر ذلك تتضح امامه متطلبات الحب ويتفهم جسامة رفض الحب او جرحه. واذا كان المسيح لم يعط اهمية كبرى للتمسك الحرفي بالشريعة والوصايا، فلانه اراد ان يتعلم التلميذ روح وصية المحبة من خلال ممارسته هو نفسه أفعال الرحمة والشفقة. ويشكل مثل الابن الشاطر عنصرا هاما في فهم ابعاد الخطيئة التي هي رفض الابن لحب ابيه، كما يفصح المثل، في الوقت ذاته، عن الشفقة الخلاقة التي أعادت الابن الى حضن ابيه.

ان الخطيئة في هذا المثل لا تعتبر مخالفة لوصية الاب وحسب، ولكنها رفض الابن ايضا لان يبقى ابنا في حب الاب؛ فلقد الحق الابن المهانة بالاب وحرمه من حضوره. لذا يهتم المثل بفرح الاب لدى عودة الابن الضال.

ان يسوع لم يكتف باظهار عطف الله تجاه الخاطئ، بأمثاله واقواله، فقد كانت مواقفه كلها تدل على وقوفه الى جانب الخطأة والضعفاء والمشردين والمنبوذين وكل من شعر بنقص روحي. لقد عاشر الخطأة وكل من اعتبرتهم الشريعة هامشيين، مما ادى الى تشكيك اليهود. لقد عمل كل حياته لقهر الخطيئة؛ وما تجاربه في البرية الا مؤشر على تغلبه على الشيطان، ومقدمة لجهاده من اجل ان ينتزع الانسان من قبضة ذاك الذي استعبد لملكه العالم، ويحرره من الشر الرابض في داخله. انه هو "عبد الله" الذي حرر بحياته كل مستعبد لملك الشيطان واعاده الى ملك الله.

٢-خطيئة العالم: رفض النور

اذا كان مفهوم الخطيئة، في عرف الاناجيل الازائية، جديدا مقارنة بتعليم الانبياء، فيوحنا يكلمنا عن المسيح الذي جاء ليرفع "خطيئة العالم" (يوحنا١:٢٩). فما هي "خطيئة العالم" هذه؟

يقول القديس يوحنا: "ان النور جاء الى العالم، ففضل الناس الظلام على النور. من يعمل السيئات يبغض النور، لئلا يقبل الى النور فينفضح".

ان رفض النور هذا يبدو كقوة مضادة تعادي الله ونشر ملكه وتتخفى وراء الافعال الشخصية المنفردة وكأنها قوة خفية ومستقلة، هذا هو روح الشر. فالخاطئ يعادي النور خوفا منه "لئلا تفضح اعماله"، لان "من يعمل السيئات يبغض النور" (يوحنا٣:٢٠)، ويصبح هذا الموقف خطيرا عندما يتصف بالاصرار، فيعتبر اذّاك "رفضا للحقيقة:" لو كنتم عميانا لما كان عليكم خطيئة، ولكنكم تقولون: اننا نبصر، "فخطيئتكم باقية" (يو٩:٤١).

ويميز يوحنا بعضًا من اعمال الشيطان، ويتوقف عند القتل والكذب كعملين مناهضين لرسالة المسيح (يو٨:٤٤). فابليس قتال، لانه قتل ادم أبا البشرية، وهو كذاب، لان الخطيئة رفض لكلمة الحق؛ وثمرة القتل والكذب هما البغضاء والكراهية، وكلتاهما تعاديان شخص المسيح، النور الحق. وعندما يركز انجيل يوحنا على البغضاء، فلأنه يريد بذلك ان يشير الى موقف الانسان المؤمن الذي يبغض النور ويصر على البقاء في ظلمته؛ وبذلك يدين موقف اليهود العدائي من يسوع: لقد ابغضوا المسيح وابغضوا اباه. وكما ان اليهود رفضوا رسالة المسيح برفضهم النور والحقيقة مما ادى بهم الى قتل المسيح، هكذا كل انسان يرفض الاعتراف بالمسيح يرفض النور.

غير ان يسوع تغلب على رئيس هذا العالم لانه النور النابع من الحب الذي يربطه بأبيه. واذا استطاع المسيح ان يدين رئيس هذا العالم، أي الشيطان القتال، فغلبته كانت ثمرة موته وقيامته: "ما من حب اعظم من هذا ان يبذل الانسان نفسه عن احبائه... حبة الحنطة ان لم تمت وتقع في الارض...".

٣-"الخطيئة" في رسائل بولس

يعتبر بولس لاهوتيّ الخطيئة بحق. فهو اول من تحدث عن الخطيئة بمعزل عن الشريعة، واظهرها كفعل ارادي شخصي؛ وسيجتهد آباء الكنيسة في تطوير لاهوت الخطيئة انطلاقا من تعليم بولس نفسه.

أما الخطايا التي يذكرها بولس، فهي مستوحاة مما جاء في العهد القديم. فقد تكلم عن الفوضى الجنسية وعبادة الاوثان والظلم الاجتماعي؛ وتحتل خطيئة الشهوة مكانا خاصا في رسائله: الشهوة التي تتميز برغبة الامتلاك المفرط. ولا يتردد من وصف خطيئة شهوة المال والتملك بعبادة الاوثان (قولسي٣:٥؛ افسس٥:٥)، واوجه الشبه بين يوحنا وبولس تظهر

بصورة خاصة في سياق شرح بولس المفصل لمصدر الخطايا المتأتية من قوة معادية لله ولملكه: هذه هي "الخطيئة" الكبرى التي يتكلم عنها بولس في صيغة المفرد للتأكيد على جسامتها. واذا كان بولس قد وصف الخطيئة كفعل شخصي متصل باغراء الشيطان "اله هذا العالم" (٢قور٤:٤)، فهي، مع ذلك، كامنة في الانسان الخاطئ وفي داخله، ودخلت الى العالم من جراء معصية آدم (رومية٥:١٢-١٩).

لقد قيل عن بولس انه متشائم وانه يبالغ في وصف مأساة الانسان. ولكن لا ننسَ ان بولس يحرص في تعليمه على شمولية الخلاص الذي حققه المسيح. فاذا كانت الخطيئة قد شملت كل الناس بسبب عجز الشريعة، فانه يثمن قوة النعمة التي حصلنا عليها على يد يسوع المسيح وحررتنا من عتو الشيطان والخطيئة. وكما اننا متضامنون في حالة الخطيئة مع آدم، فاننا نحيا تضامنا اقوى من ذاك، الا وهو التضامن الذي اوتيناه بيسوع المسيح المخلص والمحرر. ويأتي التبرير بالايمان والعماذ كدعامة لعمل المسيح التحرري: فيصبح خليقة جديدة بالنعمة. ورسالة بولس الى اهل رومية تعتبر اهم "تعليم" في الوحي حول الخطيئة والخلاص، حيث نرى ان الله يتغلب على الخطيئة بحكمته الغنية. وبولس لا يفصل الخطيئة عن حكمة الله؛ لذا فالخطيئة تدخل في مخطط الله، فلا نعجبن حين نسمع بولس يهتف: "يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه، ما ابعد احكامه عن الفحص، وسبله عن الاقتفاء".

هكذا اذا اعتبرنا بولس لاهوتي الخطيئة، فهو ايضا، وبحق، لاهوتيّ النعمة، اذ انه في كل مرة يتكلم عن الخطيئة، فانه يتكلم ايضا عن النعمة وعن مفعولها، وهو اقوى بكثير من الخطيئة. "فحيث الخطيئة هناك النعمة، وحيث كثرت الخطيئة فهناك تفاضلت النعمة".

(١) لا يتعجبن القارئ اذا لم نستهل بحثنا في الخطيئة بادم الذي سبب، بحسب عرف الجميع، نكسة البشرية وجنوحها الى الشر، وانما بالمرحلة الشاقة التي مر بها شعب الله بعد خروجه من مصر.

وقبل ذلك ندلي ببعض ملاحظات تنير بحثنا، منها:

١- لا تظهر الخطيئة تحت قلم الكاتب الملهم كموضوع مستقل في ذاته، او كانها فعل محدد في الزمان والمكان كشرح تاريخي لحدث وقع.

٢- ان النصوص التي تتحدث عن الخلقة والخطيئة الاولى والطوفان... هي نصوص متأخرة في الانشاء والتركيب وقد جاءت حصيلة خبرة وجدانية طويلة عاشها الانسان؛ وان تقديم شخصية ادم على يد الكاتب لم يأت الا بعد خبرة روحية طويلة شكلت اسس علاقة الانسان بالله، وعلاقة الانسان باخيه الانسان.

٣- من خلال التأمل في هذه الحالة التي اختبرها الشعب، ستتضح طبيعة خطيئة الانسان الاول، وستصبح من ثم خبرة كل انسان نموذجا لخطايا الاجيال اللاحقة؛ وكما ان الخطيئة الاولى تركت آثارها في البشرية، كذلك خطيئة اسرائيل ستترك آثارها في تاريخه.

+ والنسيم صار تيارا: ٢٠ عاماً بعد المجمع المسكوني

ك٢ — شباط/ ص٣٣ - ٤٠ الاب جرجس القس موسى

- كنيسة اسبانيا بين منعطفين

آذار/ ص٨١-٨٨ الاب بيوس عفاص

- القداس، حدث ووظيفة

نيسان/ ص١٢٩-١٣٦ الاب جرجس القس موسى

+ الكنيسة الكلدانية، قديما وحديثا

ايار/ ص/١٧٧-١٨٤ المطران كوركيس كرمو(+)[١]

+ مشاعر النمو الديني لدى المراهقين

حزيران — تموز/ ص٢٢٥ - ٢٣٢ صباح حنا هرمز[٢]

- المملكة المتحدة.. كنائس مختلفة

آب — ايلول/ ص٢٧٣-٢٨٠ الاب يوحنا عيسى

● عدد خاص: الاسرة المسيحية[*]

ت١ — ت٢/ ص٢٨٩ — ٣٦٨

+ مجلس الكنائس العالمي

كانون الاول/ ص٤٠٩ - ٤١٦ الاب يوسف توما

+ والنسيم صار تيارا: ٢٠ عاماً بعد المجمع المسكوني

ك٢ — شباط/ ص٣٣ - ٤٠ الاب جرجس القس موسى

(*) البتنا في "المختار من الاعداد الخاصة" المقالات التالية: الاسرة، رابطة حب وشركة حياة (أ.بيوس عفاص)، العلاقة بين الوالدين والاولاد (أ. يوحنا عيسى)، اين نحن من التربية الجنسية السليمة (صباح حنا بـشي)، مفهوم الانسان على ضوء سر الزواج (أ. عبد السلام حلوة)، الاسرة خلية الكنيسة (أ. جرجس القس موسى).

(١) كان للمطران كوركيس كرمو (+١٩٩٩) ١٢ مساهمة (من بينها ملفان)، وبضمنها إجابتان؛ نشر له مقال في "كتاب رحلوا" (٢٣٥-٢٤٥).

(٢) للاستاذ صباح حنا هرمز بشي ١١ مساهمة (من بينها ملف). نشرت له مقالة في "المختار".

ملف كانون الثاني-شباط ١٩٨٣ .... الاب جرجس القس موسى

والنسيم صار تياراً

سيبقى اسم يوحنا ٢٣ ملتصقا بالمجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، وقد كان "ملهَما" حين دعا اليه وكأنه تلقى وحيا من السماء، هو الذي قال عنه البطريرك المسكوني الراحل اثيناغوراس: "كان انسان مرسل من قبل الله اسمه يوحنا"! فيوحنا ٢٣ شرّع ابواب الكنيسة ونوافذها، وكان على بولس السادس -وقد انتخب في ٢١ حزيران ١٩٦٣ قبيل الدورة الثانية- ان يواصل العمل بشجاعة ودهاء وحزم، ويشهد، التحول الكبير الذي احدثه المجمع في كل جنبات الكنيسة، وعلى اكثر من صعيد...

عشرون عاما مضت على انعقاد اعظم مجمع في تاريخ الكنيسة -وهو الحادي والعشرون من سلسلة المجامع المسكونية- كان بمثابة عودة الى الينابيع وانطلاقة نبوية، مكنت الكنيسة من الالتقاء بعالم في تحول دائم وتكييف تعاليمها وفق متطلباته والبحث عن مكان فيه يتسنى لها منه ان تشهد للانجيل ضمن تعدد الحضارات...

الاب جرجس القس موسى رسم الاتجاهات الرئيسة التي تبناها المجمع ويخلص الى طرح التطلعات التي بوسع المجمع ان يلهمها، من اجل كنيسة متجددة ابدا تسعى الى ان تكون دوما اكثر مصداقية واكثر اشعاعا.

مقدمة: المجمع عودة الى الينابيع

يُعزى الى يوحنا ٢٣ انه عندما هَمَّ بعقد المجمع الفاتيكاني الثاني، فتح نافذة غرفته على مرأى من بعض مساعديه واستنشق الهواء وقال: "الجو ثقيل هنا! لنفتح الابواب وليدخل الى الكنيسة قليل من النسيم العليل"!

هذه الحادثة التي تروى كطرفة من طرف البابا الطيب يوحنا، هي من روحه تماما، وتعبر باسلوب الانبياء الايماني عن الفكرة المركزية التي حركت يوحنا ٢٣ على اعلان المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، الا وهي: فتح الكنيسة الكاثوليكية لتيارات الحياة الجديدة، واعادة النظر في طبيعتها وصيغها التعبيرية، وفي موقعها في العالم، وفي علاقاتها مع شقيقاتها، لفتح عهد جديد من التعاون والمكاشفة الاخوية باتجاه الهدف الاكبر: الوحدة.. وكل ذلك بروح انجيلية راعوية، وليس عقيدانية، استعلائية. وقد اوضح يوحنا ٢٣ هذا المنطلق في خطابه الافتتاحي للمجمع في ١١ ت١ ١٩٦٢: "واجبنا ليس فقط ان نحفظ هذا الكنز الثمين وكأن اهتمامنا منصب على الماضي وحده، وانما علينا ان ننصرف بتصميم ومن دون خوف، للعمل الذي يستوجبه عصرنا.. ان الرح المسيحية، الجامعة، الرسولية، تتحفز، في العالم اجمع، لقفزة نوعية الى امام، فيما يخص تغلغل العقيدة المسيحية وتهذيب الضمائر بصورة اكثر امانة للعقيدة الصحيحة. اجل.. ولكن هذه العقيدة ينبغي ان تدرس وتعرض وفقا لاساليب البحث والعرض التي يقرها الفكر المعاصر. فجوهر العقيدة شيء والتعبير الذي تتوشحه شيء اخر".

لقد احب يوحنا ٢٣ كنيسة المسيح وارادها جميلة في ذاتها وجذابة للخارج؛ ولان حبه كان كبيرا وصافيا وواثقا، ان صح القول، لم يغر عليها من العالم الذي لا يرى فيه "انبياء

الشؤم" سوى "الموبقات والدمار"، بل دعاها بلهجة جديدة ومتفائلة الى "النظر الى الحاضر". وجاء هذا "النظر"، في الواقع، عودة الى الينابيع وتجذرا اعمق للكنيسة في التاريخ الانساني.

الاتجاهات الرئيسة التي خرج بها المجمع

عندما نقول "الاتجاهات التي خرج بها المجمع"، لا نعني ان المجمع كان شهبا جميلا ظهر في سماء جيلنا فجأة لا ندري كيف، وانما جاء بمثابة المصهر لكل تلك الدراسات اللاهوتية والمعانيات الراعوية والوحدوية، والخبرات المتنوعة في البحث الروحي التي كانت تعتمل في الكنيسة منذ بضعة عقود، وقد اصبح المجمع هو نفسه منجما لطموحات جديدة ومحركا لديناميكية الكنيسة الجامعة ومحكا للخبرات واطلاق حرية التعبير، بالاضافة الى الثراء الانساني والبعد الكنسي الجماعي الذي قدمه لاساقفة الكنيسة ولاهوتييها ومفكريها باللقاء المباشر. (راجع سلسلة ف.م. العدد ٢٤، المجمع المسكوني، ف.م. ايلول ١٩٧٧: كنيسة ما بعد المجمع).

فالاتجاهات التي خرج بها المجمع، نوجزها بأربع قواعد رئيسة، هي:

١ - الجماعية الاسقفية في قيادة الكنيسة

لقد قيل، وبحق، ان هذا المجمع كان "مجمع لاهوت الكنيسة"، على غرار ما كان مجمع افسس "مجمع العذراء ام الله"، ومجمع خلقيدونية "مجمع طبيعة المسيح". فمن مجموع ١٦ وثيقة مجمعية، هناك وثيقتان عقائديتان فقط، احداهما "في الكنيسة"، تتناول طبيعتها وتكوينها وتحدد نظام السلطة فيها. وبينما كان الفاتيكاني الاول قد كرس المركزية الكاثوليكية، فقد ركز الفاتيكاني الثاني على الجماعية الاسقفية كرد فعل لتلك المركزية المهيمنة. واذا شددت الوثائق الرسمية على ان هذه "الجماعية" ليست بمعزل عن البابا، بصفته "الرأس الاعلى"، فقد اكد تيار مواز -حمل رايته لاهوتيون كبار واساقفة بارزون واوساط مسكونية وقاعدية، ويدعمه تقليد المجامع المسكونية والسينودسات الاقليمية التي لا تزال تسير عليه الكنائس الشرقية - على ان "الرأس" لا ينبغي ان يُنظر اليه بمعزل عن الاعضاء: "فبطرس والاحد عشر" اعمدة الكنيسة مجتمعين، وان كان بطرس هو عروة الوحدة في البناء.

ولهذه "الجماعية" وجهان، وجه شمولي يعانق مشاركة الاساقفة العامة في قيادة الكنيسة الجامعة، ووجه خاص يهم حياة كنائسهم المحلية.

أما كيف نترجم هذه المساهمة الجماعية في الواقع؟ فعلى صعيد الكنيسة الجامعة، هناك **سينودس الاساقفة العام** الذي اعتبر "قنبلة المجمع" حين اعلن انشاءه بولس السادس في غمرة الدورة المجمعية الاخيرة عام ١٩٦٥. ويتكون هذا "السينودس" من رؤساء المجالس الاسقفية المحلية والبطاركة والكرادلة، ويعتبر بمثابة مجلس شورى الكنيسة الدائم لمعاونة البابا في قيادة الكنيسة، ودورته كل ٣ سنوات.

ونظرا لشمول الوظيفة البابوية الكنيسة كلها، وليس ابرشية روما فقط، وتجسيدا قانونيا اقوى للجماعية، ظهر اتجاه يدعو الى انتخاب البابا من قبل اساقفة العالم عبر ممثلي مجالسهم وبطاركتهم. فكان الحل الوسط ان "دَّول" بولس السادس -ويوحنا بولس ٢ من بعده- مصف الكرادلة بعناصر من الكنائس المحلية والشرقية، ورفع عددهم، حتى صار الغربيون هم الاقلية.

وتجسد اتجاه اللامركزية بصورة اوضح في **المجالس الاسقفية الخاصة**، الوطنية، والاقليمية. وقد تميز بعض هذه المجالس بحيوية مبادراتها، كمجلس اساقفة اميركا اللاتينية مثلا.

لقد كان الفاتيكاني الثاني فرصة الكنائس الفتية حقا. فلقد شهدنا بداية تحول مركز الثقل في الكنيسة، من اوربا الى العالم الثالث، ولم تعد كنائسه ترضى ان يكون ثمة كنيسة مركزية آمرة -روما- و "كنائس اطراف" ملحقة بها. ولكن هذه الكنائس حرصت على ان تبقى، وتكون خبراتها "خبرات الكنيسة الجامعة" وملكها. وهكذا اصبحت كل كنيسة محلية "نافذة" تنفتح من خلالها الكنيسة الجامعة الى معضلات وتساؤلات العالم: فساهمت افريقيا، مثلا، في تعميق الوعي الرسولي التبشيري، وآسيا بفتح الحوار مع الديانات واعتبار الكنيسة المحلية الاداة الفضلى لنشر الانجيل، واميركا اللاتينية بفرق القاعدة والصلة الوثيقة بين التحرر الانساني والخلاص المسيحي، والكنائس الشرقية باختبارها ان الوحدة ممكنة مع التعددية.

زيارات البابا نفسها **للكنائس المحلية** ولقاءاته مع اساقفتها ومجاهديها وجماهيرها، اذا كانت تعبيرا لشمولية الخدمة البابوية، فهي قبل كل شيء دعم لشخصية هذه الكنائس وخبراتها ودورها الخاص في حياة شعوبها.

٢ - التجدد الداخلي، او اعادة ترتيب البيت:

كانت الكنيسة، على ايام بيوس ١٢، تبدو كبيت قديم آمن يعيش على تقاليده ويعتز بآثاثه الموروثة، ولكن بشيء من الانقباض. وعندما اطلق يوحنا ٢٣ شعار المجمع بكلمة "Aggiornamento" (ومعناها "التجديد بحسب متطلبات اليوم")، هبت حركة، فيها الاندفاع وفيها النشوة، لاعادة ترتيب البيت وتجديد ديكوره وفتح نوافذه لاستقبال الحياة. وكانت اولى تلك النتائج خلخلة مفهوم "الهرمية" -وقد رأينا التطبيق على ممارسة السلطة العليا- وها قد بعث المجمع الفكرة الكتابية ان الكنيسة ليست مجرد مؤسسة، بل **هي شعب الله**، "حيث الافراد يشتركون بدعوة واحدة، وغاية واحدة. والعلمانيون لا يُعرَّفون من الان وصاعدا بخضوعهم للسلطة، ولكنهم داخل شعب الله يشتركون بكهنوت المسيح" (دستور عقائدي في الكنيسة- التقديم).

ومفهوم "شعب الله" هذا مفهوم دينامي: فقد اطلق الروح النبوية الخلاقة في الكنيسة، واحدث فيها شبه **ثورة كوبرنيكية** حيث صارت القاعدة تشترك في صوغ الاتجاهات الفكرية وتؤثر في بلورة القرار الكنسي عبر فرق القاعدة -وقد دعيت احيانا بفرق الضغط-

وعبر المؤتمرات والتحمعات الوطنية والاقليمية والقارية التي يشترك فيها كهنة وعلمانيون، والمجالس الاستشارية، الابرشية والخورنية، والابحاث اللاهوتية والتاريخية والاجتماعية، سواء صدرت عن افراد او لجان. فنشأ عن ذلك وعي متزايد والتزام اكبر لدى العلمانيين واتساع دورهم في حياة الكنيسة -ألم يشتركوا كمراقبين في المجمع؟

واجتاح كنيسة المجمع وما بعده تيار من نشدان البساطة والاصالة في التعبير والحياة، كان حاصل انتصار روح الانجيل في صراع التقليد والحياة. وقد تجسد ذلك بصورة جلية في ظهور مفهوم **"كنيسة الفقراء"** و **"الكنيسة الخادمة"**.

وطال التحديد **الليتورجيا** وصيغ العبادة والكلمة لتعود الى ينابيع الكتاب المقدس اكثر من السابق، وتتبنى اللغات الحية، وتستوحي واقع الانسان ومعانياته وثقافات الشعوب التي تنتمي اليها. واقتحم روح التحديد **الرهبانيات**، والاديرة، والمعاهد الاكليريكية، وحياة الكهنة واطر عيشهم وحتى الزي الرهباني والكهنوتي.

واصابت "الثورة المجمعية" -ليس بالوثائق، بقدر ما بالجو التحرري الذي افاقته- القيم **الاخلاقية** ايضا، حيث تبدلت الموازنة من اخلاقية الثواب والعقاب ومنطق الشريعة والخطيئة، الى أخلاقية الضمير والحرية ومنطق المسؤولية. ونُظِرَ بتقدير أكبر الى الحب، والى الجنس، والى المرأة.

٣- الانفتاح الى العالم

لعل اليقظة الكبرى لكنيسة المجمع وما بعده، هي وعيها انها ليست "سوبر مؤسسة" تتعالى فوق المجتمع، بل جزء من كل ضمن حركة التاريخ: فهي في العالم تتحرك، ومع العالم تجاهد، ومن اجل العالم وجدت؛ وإذا تميزت عنه، فلكي تكون ضميره الحي، وخبيرة باحتياجاته -اذن "خبيرة بالانسان"- حسب عبارة بولس ٦. وقد عبر المجمع عن هذا الوعي، منذ بدء اعماله، برسالة رائعة وجهها الى العالم، يوم الافتتاح، ضمنها انفتاح الكنيسة بثقة الى العالم وقضاياه، وتأكيدها على الوحدة الاخوية بين البشر، فوق الحدود والاجناس، والانظمة الاقتصادية والسياسية، ورفضها للحلول التي يفرضها العنف، واعلان حبها للسلام بوصفه علامة حضور الله في التاريخ (الاب شنو).

اما الوثيقة الكبرى لهذا الانفتاح، فهي الموسومة "دستور راعوي حول الكنيسة في عالم اليوم" والمعروفة "بالمسودة رقم ١٣"[١]. لقد اعتبر هذا النص فتحا في تاريخ الكنيسة وتعاملها مع العالم، ليس كنص مجمعي وحسب، بل، بالاخص، لاوجه الالتزام الفعلي التي اثارها. فلقد جاء صدى لهذا المنعطف الكبير في حياة الكنيسة، الا وهو الانفتاح على قيم العالم الايجابية، وقد تجلى ذلك في **اكتشاف وتقدير غنى الثقافات والحضارات المختلفة**[٢]، وفتح الحوار مع **الديانات غير المسيحية**، لا بل حتى مع **غير المؤمنين**.

اما الشق الثاني لهذا الانفتاح، فهو تبني الكنيسة **قضايا الانسان**، والانسان المقهور بنوع خاص، فكانت لجان "العدل والسلام" الحبرية والوطنية والاقليمية، وكانت رسائل

يوحنا ٢٣ "ام ومعلمة" (١٩٦١) و "السلام على الارض" (١٩٦٣)، وبولس ٦ في "تقدم الشعوب" (١٩٦٧)، و "الذكرى الثمانين" (١٩٧١) و (يوحنا بولس ٢ في "العمل البشري" (١٩٨١). وكان خاصة مؤتمر اساقفة اميركا اللاتينية في ميدلين (١٩٦٨) الذي اعتُبر "المنعطف الحقيقي"، ليس لتطور الموقف الكنسي وما دعي "بلاهوت التحرير" في اميركا اللاتينية وحسب، بل للوعي الذي شمل الكنيسة الجامعة حول قضية التنمية والنضال من اجل حرية الشعوب.

الى جانب ذلك، وانطلاقا من دينامية المجمع، تقود كنائس افريقيا واسيا معركة اخرى هي معركة الاصالة والتجذر في ثقافاتها المحلية وتراثها القومي الخاص، لتعيش الانجيل وتقدمه بلغة شعوبها وذهنيتهم.

٤- الانفتاح الى الاشقاء: تراث وايمان مشترك

قيل ان الفاتيكاني الثاني تحور من "مجمع وحدة" في ذهن يوحنا ٢٣ الى "مجمع مراجعة حياة ذاتية"! قد يكون. ولكن العلاقة مع الاشقاء وهدف استعادة الوحدة معهم، بقي عنصرا اساسيا في هذه "المراجعة"؛ فلقد كان وجود المراقبين من الكنائس الارثوذكسية والبروتستنتية الشقيقة في قاعة المجمع، منذ اليوم الاول، ليس فقط شهادة لحسن نية الكنيسة الكاثوليكية وحلول جو الامل والحنين الى الوحدة المفقودة، بل بمثابة "رقابة" ايضا على المجمع ليكون "نقلة" حقيقية في نوعية العلاقات المسكونية.

لست في صدد استعراض جميع مراحل ومنجزات الحركة المسكونية[٣] منذ المجمع، وانما اقتصر على انجازها في محاور ثلاثة وهي:

أ- **لقاءات الاقطاب:** وقد بدأها بولس ٦ مع البطريرك المسكوني اثيناغوراس في القدس (١٩٦٤)، ومنذ ذلك التاريخ لم تعد تحصى لقاءات القمة والاقطاب والرسائل والوفود المتبادلة بين بابا روما وبطاركة الشرق ورؤساء الكنائس الاخرى، سواء في روما او القسطنطينية او كونتربري او في غيرها من اقطار "المسكونة". وقد كان رفع الحرومات بين روما والقسطنطينية بمثابة تمزيق رسمي لصك الانشقاق.

ب- **لجان المتابعة والحوار:** وفي مقدمتها سكرتارية اتحاد المسيحيين التي كانت لها اليد الطولى، منذ المجمع، في توجيه اعماله توجيها مسكونيا وفي اقامة الحوار الاخوي بين الاشقاء، مباشرةِ او عبر مجلس الكنائس العالمي. فلجان الدراسة والمتابعة بين الكنيسة الكاثوليكية والكنائس الشقيقة امسيت هي الاخرى واقعا يفرض وجوده على الحركة المسكونية.

ج- **التعاون والتنسيق على الاصعدة المحلية:** فحركة الوحدة ليست مجرد "عملية خبراء" او "مشروع القمة" وحدها، بقدر ما هي "هَمُّ القاعدة" والتزام كنيسة وكنيسة بانجيل يسوع المشترك.

قلتها كلمة "المشترك"! فلعل اكبر انجاز في الحركة المسكونية هو اكتشاف واعتراف الجميع -لا سيما الارثوذكس والكاثوليك- ان تراثهم الايماني وحتى اللاهوتي واحد في جوهره، وإن اختلف في تعبيره، وقبول هذا التباين على انه ثراء لا انتقاص. مثل هذا الاكتشاف يعادل اقتلاع جبلٍ من الجليد كان جاثما على الاسوار التي نحن اقمناها بيننا بانغلاقنا ومماحكاتنا.

تطلعات مستقبلية في خط المجمع

قد يقول قائل: انك لم تنظر الا الى النصف الممتلئ من الاناء، واهملت الوجه الاخر من الصورة!

اجل، ان للصورة وجهها السلبي ايضا، فتطبيق المجمع لم يمر من دون مخاض ورجات. اما قيل إن النسيم الذي ادخله يوحنا ٢٣ الى الكنيسة صار عاصفة؟! فكنيسة ما بعد المجمع عاشت حقا ازمة ذاتية ونفسية. وبامكاننا ايجاز جو الكنيسة بثلاثة اتجاهات رئيسة هي:

المجمع المسكوني في سطور

في ٢٥ ك٢ ١٩٥٩ اعلن البابا يوحنا ٢٣ عزمه على عقد مجمع مسكوني.

استغرقت المرحلة التمهيدية من ٢ ايار ١٩٥٩ وحتى ايار ١٩٦٠ عملت خلالها ١٢ لجنة على اعداد المسودات.

بدأت المرحلة التحضيرية في ٥ حيران ١٩٦٠ وانتهت في ١١ حزيران ١٩٦٢، نسقت خلالها لجنة مركزية المسودات وثبتت جدول إعمال المجمع.

في ١١ ت١ ١٩٦٢ افتتح المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني في عهد البابا يوحنا ٢٣، واختتم اعماله في ٨ ك١ ١٩٦٥ في عهد البابا بولس السادس.

اشترك باعمال المجمع ٢٤٠٠ اسقف، الى جانب خبراء ولاهوتيين وعلمانيين ومراقبين عن الكنائس المسيحية في العالم.

عقدت خلال سني المجمع ١٨٦ جلسة، عامة وترأس البابا ١٠ اجتماعات عامة، والقي اكثر من ٦٠٠٠ خطاب، منها شفهيا ومنها كتابة، وجرى ٥٢١ اقتراعا.

تمت جلسات المجمع خلال اربع دورات:

- **الدورة الاولى: من ١١ ت١ - ٨ ك١ ١٩٦٢ (٣٦ جلسة)**
- **الدورة الثانية: من ٢٩ ايلول - ٤ ك١ ١٩٦٣ (٤٤ جلسة)**
- **الدورة الثالثة: من ١٤ ايلول - ٢١ ت٢ ١٩٦٤ (٤٧ جلسة)**
- **الدورة الرابعة: من ١٤ ايلول - ٨ ك١ ١٩٦٥ (٤١ جلسة)**

خرج المجمع بـ ١٦ وثيقة: ٤ دساتير، ٧ قرارات، بيانات، مرسومات، تصريح.

١) رغبة واضحة ومصممة على تطبيق المجمع والاهتداء بروحه؛ ٢) الميل الى تخطي المقررات المجمعية والانفتاح على المستقبل في عالم كله حركة وتطور، ٣) الحنين الى مناخ آمن وايقاف كل ما حركه المجمع من دينامية خوفا من فقدان السيطرة على

الاحداث... وقد تجلى ذلك بتراجع قسم من الاساقفة عن روح المجمع او رفضهم الصامت او المكشوف تطبيق توجيهاته. كما ظهر، بمجيء يوحنا بولس٢، موقف يريد ان يكون "توفيقيا- تطويعيا" لكل هذه الاتجاهات، بغية امساك خيوط اللعبة واعادة التوازن والطمأنينة.

وثائق المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني

١- دستور راعوي حول الكنيسة في عالم اليوم.
٢- قرار مجمعي في حياة الكهنة وخدمتهم ورعايتهم.
٣- بيان في التربية المسيحية.
٤- قرار مجمعي في التنشئة الكهنوتية.
٥- بيان في الحرية الدينية.
٦- قرار مجمعي في رسالة العلمانيين.
٧- قرار مجمعي في تجديد الحياة الرهبانية الملائمة لعصرنا.
٨- دستور عقائدي في الكنيسة.
٩- دستور عقائدي في الوحي الالهي.
١٠- قرار مجمعي في الحركة المسكونية.
١١- مرسوم في الكنائس الشرقية الكاثوليكية.
١٢- تصريح في علاقة الكنيسة مع الديانات غير المسيحية.
١٣- مرسوم حول وسائل الاعلام الاجتماعية.
١٤- دستور في الليتورجيا المقدسة.
١٥- قرار في نشاط الكنيسة الارسالي.
١٦- قرار في مهمة الاساقفة الراعوية.

مهما كان من امر، فالمجمع ليس مجرد نصوص، وانما ثورة فكرية وانطلاقة الروح. والحال ان، لا النصوص هي وصفة سحرية، ولا الثورة تكتمل الا من خلال الاختبار. واذا كان لا بد من بنى ومؤسسات لتنسيق التنفيذ، فلا ينبغي ان تحد هذه البنى من انطلاقة الروح. فتطلعاتنا هي ان تعالج كنيسة ما بعد المجمع، بروح نبوية وثقة عالية بالرب وبنفسها، وبتواضع ايضا، مسائل لا زالت تحتاج الى مواقف اكثر جرأة ووضوحا، فهناك مثلا:

أ- ممارسة الجماعية-ولنقل الديمقراطية- بصيغ متقدمة، توازن بين مشاركة الاساقفة والبطاركة مسؤوليات قيادة الكنيسة الجامعة، وبين اعطاء الكنائس المحلية -ومنها الكنائس الشرقية بالذات- قسطا اوفر من حرية التحرك والخصوصية واستقلالية القرار وفق ضرورات بيئتها الخاصة، مما يلزم باعطاء القاعدة دورا اكبر في حياة الكنيسة.

ب- موقع البابوية في القضية المسكونية بحيث لا يبدو فيها كرسي روما وكأنه يهدد استقلالية الكراسي الاخرى. واذا كانت سياسة الفطنة والمراحل ضرورية، فالخطوات

والمبادرات الملموسة، حتى وان بدت مجازفة، ضرورية ايضا وملحة. فصبر المؤمنين كاد يتحول الى شك في النيات.

ج- اخلاقية انسانية تعتمد الضمير والوعي والمسؤولية اكثر من الردع او القسر او الكبت، وتعطي الاهمية لابعاد الانسان الزمنية. رد الاعتبار الى المرأة كمرأة وكعضو كامل العضوية في الكنيسة، الى صلتها بالكاهن، الى الحب والجنس عموما.

د- فك الارتباط المزمن مع اللاموقف، او مع الوضع القائم، اذا كان جائرا يقمع الانسان؛ فالكنيسة لا يسمح لها بالانحياز الا الى جانب الفقراء والمظلومين وصانعي السلام: وهذا هو الانجيل.

بهذه الشروط يُنقل المجمع الى ساحات الكنائس المحلية، ويجيب الى تطلعات ومعانيات شعوبها، بحسب تعبير احد الاساقفة الافارقة.

المراجع والمصادر

- وثائق المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني- بيروت ١٩٦٩.
- Giuseppe Alberigo: Les Eglises après Vatican II, 1981.
- Jean Grootaers: De Vatican II à Jean- Paul II, 1981.
- Intrview Card. Suenens: I.C.I., 15 Mai 1969.
- Chenu: 20 ème anniversaire du Concile: I.C.I., Aout 1982.
- Il y a 20 ans, le Concile: I.C.I., Aout 1982.
- Il y a 20 ans, le Concile: T. C. Nos 1996, 1997, 2000, 1982.
- Il y a 20 ans, Vatican II: La Croix 13 Oct., 18. Nov 1982.

(١) راجع سلسلة الفكر المسيحي: العددان ٣٥و ٣٦.

(٢) راجع ف.م. "الكنيسة والثقافة" آب/ ايلول ١٩٨٢

(٣) نشرت الفكر المسيحي مقالات عديدة في الحركة المسكونية نشير هنا الى ابرزها: نظرات في الوحدة المسيحية (ك٢ ١٩٧٣)، قضية الوحدة في نظر احد اقطابها (شباط ١٩٧٣)، آخر تطورات التعاون المسكوني (ملف ك٢ ١٩٧٦)، الحركة المسكونية في مفهوم البابا بولس ٦ (ايلول ١٩٧٨)، اين وصل الحوار الارثوذكسي الكاثوليكي (ت١ ١٩٧٩)، ابعد من روما والقسطنطينية (ت٢ ١٩٨١)، روما تعانق كانتربري (ايار ١٩٨٢)، الوحدة في التعددية (حزيران/ تموز ١٩٨٢).

الكنيسة الكلدانية قديماً وحديثاً

يأتي هذا الملف عن "الكنيسة الكلدانية قديما وحديثا" ضمن الخطة التي وضعتها الفكر المسيحي للتعريف بكنائسنا الشرقية، في ماضيها وحاضرها. وقد تلطف سيادة المطران كوركيس كرمو رئيس اساقفة الموصل للكلدان فأتحفنا بالمقال التالي الذي يوجز امجاد هذه الكنيسة العريقة التي تمتد جذورها الى القرون الاولى، وقد صمدت بوجه الاضطهادات والنكبات التي انقضت عليها؛ ولعبت دورا متميزا في بلاد ما بين النهرين والبلدان المجاورة وحتى اقاصي الصين، وبرز فيها رجال عظام اثروا الحضارة السريانية والعربية بتآليفهم في شتى حقول المعرفة...

والمثلث الرحمة المطران كوركيس كرمو الذي وافته المنية في ديترويت عام ١٩٩٩، كانت له مساهمات في "الفكر المسيحي" (انظر ما جاء عنه في "كتّاب رحلوا" – مختارات الفكر المسيحي/٩).

لقبت الكنيسة الكلدانية عبر العصور باسماء شتى. منها كنيسة المشرق او الكنيسة المشرقية او الشرقية او النسطورية او الكلدو/ اثورية و الاثور/ كلدانية او كنيسة ما بين النهرين الخ...

ومنذ القرن الرابع سمي رئيسها الاعلى بجاثاليق المدائن، او بطريرك المشرق او بطريرك السريان الشرقيين. ومنذ القرن الحادي عشر، يسميه المؤرخ نيلوس دوكساباتريوس: بطريرك بابل، ومثله عبد يشوع الصوباوي في القرن الرابع عشر، كما يسمى اليوم.

كنيسة ذات جذور

تمتد جذور الكنيسة الشرقية الى الحقبة الرسولية. فلقد بلغت البشارة الانجيلية الى الرها (هي اورهاي، أو اورفا او أوديسا، الواقعة شمال غربي ما بين النهرين)، وسرعان ما انتشرت منها الى منطقة اربيل (حدياب) فالمدائن. ومن هذه العاصمة، امتد، منذ القرن الرابع، نور المسيحية الى كل الجهات، وتغلغل في كل مدينة من بلادنا هذه، من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب. وتأسست الابرشيات (أي المناطق الكنسية التي يرعاها الاساقفة)، حتى بلغت الستين، ثم امتدت الى بلاد فارس. وبعد القرن السابع، عبرت الى اقصى الاصقاع الشرقية من قارة اسيا، فبلغ عددها في القرن الثالث عشر نحو ٢٨٠ ابرشية، تمتد من جزيرة قبرص الى سواحل اليابان، ومن سيلان وجنوب الهند ولا سيما في ساحلها الغربي المدعو ملبار (حيث لا زال لنا هناك نحو مليونين ونصف من احفاد الذين تبعوا كنيستنا، واليوم يتبعون طقسا يلقب بالملباري) حتى منغوليا في شمال الصين. وفي هذا البلد الشاسع الاطراف، صار لكنيستنا الشرقية الكلدانية ابرشيات، كما تبين المسلة المنصوبة عام ٧٨١ والمكتشفة سنة ١٦٢٥ (مكتوب عليها باللغتين الصينية والكلدانية) في مقاطعة سيان

فو. هذا وارتقى بعده احد ابنائها الى ذروة الرئاسة الدينية، بشخص مطران بكين الذي اتخذ لنفسه اسم يابالاها الثالث (١٢٨٣-١٣١٨) الجاثاليق[١].

اما في البلاد العربية، فلقد امتدت كنيستنا من جزيرة سومطرة فالخليج العربي الى البحر الاسود. وكان يذكر باحترام اسم جاثاليقها في كنائس كل هذه الديار النائية والتي كان يُقدّر عدد نفوسها بزهاء ثمانين مليونا.

ان هذا الانتشار العجيب وفي تلك العصور التي كان يصعب جدا التنقل فيها، يعطينا صورة نيرة لهذه الحيوية الوثابة التي كانت تجتاح هذه الكنيسة. ورغم هذه الابعاد السحيقة، كان يسودها نظام بديع دقيق وقوانين متميزة صاغتها مجامعها الشهيرة التي توالت منذ عام ٤١٠ حتى عام ٧٩٠، حيث عقدت خمسة عشر مجمعا رتبت فيها الحياة الكنسية برمتها، لا لتلك الحقبة التي التأمت فيها وحسب، بل للاجيال الطالعة التي خلفتها.

"دم الشهداء بذار المسيحيين"

ان كنيستنا الشرقية، حسب كثير من المؤرخين، اعطت شهداء اكثر من كل الكنائس. ولم يكن من السهل حفظ سجلات دقيقة باسمائهم؛ ومع ذلك فقد ترك لنا مار احاي الجاثاليق (٤١٠-٤١٥) وما ماروثا اسقف ميافرقين (٣٥٠-٤٢٩) قصص الكثيرين منهم، لا سيما اولئك الذين حصدهم منجل شابور الثاني القاسي في اضطهاده الاربعيني (٣٣٩-٣٧٩). ولا زالت كنيستنا حتى اليوم تمجد في صلواتها انتصار هؤلاء الابطال المؤمنين، صباح مساء كل يوم. اقتصر هنا على ذكر بعض المشاهير منهم:

استشهاد مار شمعون بر صباعي الجاثاليق (٣٢٩-٣٤١) مع خمسة اساقفة و ٩٧ كاهنا وشماسا سنة ٣٤١، ثم اخته الراهبة تربو وتلميذاتها في نفس السنة. فمار شاهدوست الجاثاليق ورفاقه ألـ ١٢٨ عام ٣٤٣. كذلك مار هرمزد اسقف حلوان مع ٢٤ كاهنا و ٢٢ شماسا. مار برباعشمين الجاثاليق ورفاقه الـ ١٦ من الكهنة والشمامسة عام ٣٤٦. مار عبدا أسقف كشكر مع ٢٨ واحدا عام ٣٤٧. القديسة تقلا ورفيقاتها الراهبات الاربع. مار قرداغ المرزبان عام ٣٥٩. الاربعون شهيدا عام ٣٧٦ الخ...

ولكن كنيستنا مرت بظروف عصيبة للغاية الحقت بها الدمار التام بين الفينة والاخرى. ففي فتنة الامين والمأمون (٨٠٩-٨١٣) لحق ضيم عظيم بأبنائها من حرق أديرتهم وتدمير كنائسهم وغلق مدارسهم وسلب دورهم وقتل ابريائهم. وتكررت هذه النكبات المهولة في القرن الحادي عشر، ولا سيما في زمن السلطان المغولي غازان خان (١٢٩٥) وقائده نوروز: ففي بغداد وحدها كان لنا انذاك ست وخمسون كنيسة[٢]، دمرت باجمعها، وسجن البطريرك يابالاها الثالث رغم انه كان مغوليا مثله، وطلب فديته عشرين الف دينار. يكتب الوزير السابق يوسف غنيمة (نزهة المشتاق.. ص١٥١): "هجر النساطرة بغداد والبصرة وكل مدن العراق ما عدا الموصل وتوابعها، والتجأوا الى قمم جبال كردستان وبلاد فارس حتى انقطع ذكرهم من عاصمة العباسيين عهدا وخربت بيعهم وباتت اديرتهم قاعا بلقعا يعشعش فيها البوم والغربان"!

وليس تاريخ كنيستنا الحديث اقل شجونا. فلقد بات من المعروف ما قام به طهماسب الثالث المعروف بنادر شاه الفارسي في اطماعه الخسيسة لاقتحام الموصل عـام ١٧٤٣؛ واذ باءت كل محاولاته اليائسة البائسة بالفشل الذريع (ما اشبه اليوم بالبارحة!) انقلب وحشا ضاريا على قرانا المسيحية الامنة في ربوع الحدباء، فكسح كرمليس وبرطلة وتللسقف والقوش، وقتل رهبان دير مار اوراهام بالقرب من باطنايا ودير الربان هرمزد بجانب القوش. وكذلك امير راوندوز محمد باشا المعروف بمير كور، عاث فسادا بين ١٨٢٦-١٨٣٢ في هذه القرى ذاتها ولا سيما بالقوش ودير الربان هرمز، حيث قتل أكثر من ٣٠٠ شخص فيها، من جملتهم الانبا جبرائيل دنبو ورفيقين له.

خرجت كنيستنا من الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) مهشمة الجسم مقصوصة الجناحين، اذ تدمرت لها خمس أبرشيات كاملة هي: اورميه ووان وماردين وسعرد والجزيرة. فاستشهد ثلاثة من مطارينها (ادي شير مطران سعرد في ١٩١٥، ويعقوب اوراهام مطران الجزيرة في ١٩١٥ وتوما اودو مطران اورميه في ١٩١٨) مع نحو عشرين كاهنا وما يربو على عشرين الف نسمة، ذهبوا ضحية التعصب الاعمى المقيت.

الاشعاع الرهباني

ولدت الحركة الرهبانية عندنا، ربما منذ اواخر القرن الثالث، لاننا نجد افراهاط الحكيم (اواسط القرن الرابع) يكتب للرهبان المنفردين وللبتولات "بنات العهد".

فانتشرت الحياة النسكية في كل مكان من بلادنا، فشيدت الاديرة فوق قمم الجبال، وعلى الروابي المطلة على الاودية العميقة، واشتهر بين مؤسسي هذه الديورة: ابراهيم الكبير (٥٠٣-٥٨٨) وباباي العلامة النحرير (٥٥٣-٦٢٧). والتجأ الى ديورهم الاف الرهبان المتوحدين، حتى غدت امكنتهم تلك واحات نضرة، وكانت في الوقت ذاته فنارا ساطعا للعلوم تألق عدة قرون حتى أفل ذلك البريق الوهاج بوصول الجحافل المغولية وبقية النكبات المتوالية، فدكت تلك القلاع الروحية والمنارات الفكرية. وبالكاد سلمت من يد الحدثان بعض هذه الاديرة كدير الربان هرمزد بجوار القوش، ودير مار اوراهام بالقرب من باطنايا، ودير مار ميخائيل في ضواحي الموصل، ودير مار كوريل (الاعلى) في شمال الحدباء، ودير مار ايليا الحيري المعروف بدير سعيد.

وهكذا انطفأت الحياة الرهبانية ردحا من الزمن الى ان قيض الله في مطلع القرن الماضي (١٨٠٨) ماردينيا هيما وكلدانيا مخلصا الا وهو الاب جبرائيل دنبو (استشهد في عام ١٨٣٢) الذي انعش الحياة الرهبانية، مجددا قوانينها في دير الربان هرمزد، فانضم اليه الكثيرون، حتى بلغ عدد المنخرطين في الرهبنة حتى يومنا هذا: ٦٥٥ راهبا، بينهم ١٧٣ كاهنا و ٢٠ اسقفا، كان لهم على كنيستنا فضل عميم[٣]. الا ان الذي برز على الجميع هو الشهير يوسف اودو الذي ارتقى الى السدة البطريركية (١٨٤٨-١٨٧٨) ويعد بحق بين كبار بطاركتنا العظام.

الاشعاع الثقافي

كتب المستشرق العلامة لابور: "انه ليس من امة على الارض بارت امة الكلدان النصارى في تاسيس المدارس. فاتسعت صناعة التأليف عندهم اتساعا عجيبا حتى ان عدد المؤلفين منذ الجيل الرابع الى نهاية الجيل الثالث عشر الذي فيه انطفأت العلوم لديهم، فاق الاربعمائة. وتأليفات بعض هؤلاء المؤلفين فاتت الخمسة عشر والثلاثين والاربعين: فتصنيفات مار افرام لا تعد(٤) ، وميامر نرساي ما عدا الكتب العديدة التي الفها تبلغ ٣٦٠، وميامر يعقوب السروجي(٥) ٧٠٠، وجبرائيل اسقف هرمزد اردشير له ٣٠٠ مؤلف ويوسف حزايا ١٩٠٠" (ادي شير: كلدو واثور ٢:٨ مقدمة).

ان هذا الكنز الادبي الثمين والتراث الغني الفريد لا يقتصر على فرع واحد من العلوم، بل يشمل كافة العلوم المعروفة يومئذ، من لغات وادب وعلوم رياضية وفلكية وطبيعية وطبية وتاريخية وفلسفية ولاهوتية وفنون تشكيلية. و لم يكتفوا بالتأليف وحده، بل تطرقوا الى الترجمة ايضا. فلم يدعوا كتابا معروفا عندئذ الا وعربوه. فشيدت النوادي الادبية وازدحمت المعاهد العلمية بالطلاب. واشتهر بين هؤلاء المترجمين يوحنا بن ماسويه (+٨٥٧) وتلميذه حنين بن اسحق (+٨٧٦)(٦) وابنه اسحق (+٩١١). ويذكر المؤرخون بانه منذ القرن الرابع كان لنا ما يربو على خمسين مدرسة مبثوثة في كافة اطراف ما بين النهرين. وبدأت حينذاك المدارس الشهيرة (على غرار جامعات اليوم) في نصيبين سنة ٣٢٥، وفي الرها (اسسها مار افرام بعد ٣٦٣) وفي المدائن والاحواز. وكان بجانب كل دير او كنيسة، مدرسة، اشتهرت بينها مدرسة دير قني (بالقرب من مدينة العزيزية الحالية) ومدرسة دير مار ميخائيل (في ضواحي الموصل) ومدرسة دير بيث عابي (بالقرب من عقرة) ومدرسة دير مار كوريل (المعروف بالدير الاعلى) في شمال الموصل. يكتب توما المرجي: "كان في مدينة الحدباء ونواحيها في اوائل القرن التاسع ستون مدرسة"! وهكذا قل ايضا عن أربيل حيث بنى باباي الجبلتي في مطلع عام ٧٠٠ ستين مدرسة.

وكان الطب في العصر العباسي مقتصرا على المسيحيين تقريبا. واشتهرت به خاصة عائلة آل بختيشوع(٧) لمدة تزيد على القرنين في خدمة الخلفاء. ومن المؤرخين المعروفين ايشوع دناح مطران البصرة (٨٦٠-٨٧٠) في كتابه "العفة"، فهو مصدر غني لمعرفة الحياة الرهبانية في الفترة التي سبقته. ومثله توما المرجي (+٨٥٠) في كتاب "الرؤساء"، وايليا برشينايا مطران نصيبين (٩٧٥-١٠٥٦/٤٦)، وماري بن سليمان (القرن الثاني عشر) كتب "المجدل" الذي اضاف عليه كل من عمرو بن متى وصليبا بن يوحنان (القرن الرابع عشر). وعبد يشوع مطران نصيبين (الصوباوي) (+١٣١٨) الكاتب النابغة في شتى العلوم الفلسفية والطبيعية والقانونية والفقه والشعر.

ويعتبر القرن الرابع عشر خاتمة المطاف للنهضة الثقافية التي غمرت كنيستنا، فانطفأ نورها الوهاج زهاء خمسة قرون، عدا اشخاص قليلين برزوا هنا وهناك، منهم: البطريرك عبد يشوع الرابع مارون الجزراوي (+١٥٧١)، والقس اسرائيل الالقوشي (١٥٤١-

١٦١٠)، والراهب ادم عقراوي (+١٦٢٢) والبطريرك يوسف الثاني معـروف (١٦٦٧-١٧١٣) والقس خدر الموصلي (١٦٧٩-١٧٥١). ونشطت من عقالها، بعد تجديد الرهبنة الانطونية في دير الربان هرمزد (١٨٠٨) وارسال طلاب الكهنوت الى روما، وفتح المعاهـد الكهنوتية (البطريركي ومار يوحنا الحبيب)، فبدأ ربيع ثان زاهر في كنيستنا يطول بي المجال في تعداد اسمائهم، واقتصر على ذكر: البطريرك جرجس عبد يشوع خيـاط (١٨٢٨/٧-١٨٩٩)، القس يوسف كوريال (١٨١٥-١٨٨٥)، المطران الشهيد ادي شـير (١٨٦٧-١٩١٥)، الانبا شموئيل جميل (١٨٤٧-١٩١٧)، المطران تومـا اودو الـشهيد (١٨٥٥-١٩١٨)، الاب بولس بيجان اللعازري (١٨٣٨-١٩٢٠)، المطران يعقوب منـا (١٨٦٧-١٩٢٨)، الاب الياس شير الراهب (١٨٦٠-١٩٤٩) المطران سليمان صـائغ (١٨٨٦-١٩٦١)[٨].

فراق وعناق

كانت كنيستنا المشرقية بسلام ووئام حتى اواسط القرن الخامس. في هذا الحين بلغت المنافسة بين كرسي القسطنطينية والاسكندرية اشدها، وكـان يـرئس الاولى البطريـرك نسطور، والثانية البطريرك قورلس. فتراشق الاثنان التهم حول تعليميهمـا عـن شـخص المسيح. أما اليوم فيظن أغلب المؤرخين بان نسطور لم يكن "نسطوريا" في تعليمـه. مهمـا يكن من الامر، فان نسطور حرم وطرد من كرسيه ومات في المنفى (نحو سنة ٤٥١). ومـا لم يقدر أن يحصل عليه نسطور في وطنه وكنيسته اثناء حياته، حاز عليه في بلادنا وكنيستنا بعد مماته، اذ اعتنقت كنيستنا الشرقية تعليمه رسميا في مجمع بيـت لابـاط لـسنة ٤٨٤، وابتعدت عن كرسي روما الذي كان قد حرم نسطور، بينما كانت روما من جهتها تختـار عام ٥١٤ الشماس هرمزد الكلداني الاصل المترمل (كان والده تاجرا من بين النهرين هاجر الى ايطاليا وسكن فروزينون بالقرب من روما حيث ولد هرمزد) بابا لها ودامت حبريته الى ٥٢٣، ومات مشهودا له بالقداسة، وخلفه بعد سنوات قليلة على السدة البطرسـية ابنـه سيلفيريوس عام ٥٣٦، لكنه لم يدم الا سنة واحدة ومات هو ايضا بعرف القداسة.

وبقيت العلاقات مقطوعة بين الكنيستين الشرقية والرومانيـة، حـتى اوفـد البابـا غريغوريوس التاسع الراهب الدومنيكي غليوم من مونفيرانت عام ١٢٣٥ لدى سبريـشوع الخامس الجاثاليق (١٢٢٦-١٢٥٦) الذي اظهر تعاطفا كـبيرا، ولكـن دون البلـوغ الى الاتحاد. غير ان مطراننا في الشام، بفرصة حجه الى الديار المقدسة عام ١٢٣٧، اعتنق التعليم الكاثوليكي. ثم في ١٢٤٥ بعث البابا انوشينسيوس الرابع وفدا اخر برئاسة الراهب اندراوس لونجمو الدومنيكي، فالتقى بالزائر البطريركي الراهب شمعون (ربان ارا) الا انه لم يوفق الى الاتحاد.

وكان يابالاها الثالث الجاثاليق (١٢٨٣-١٣١٧) قد حمل جهته الراهـب صـوما - وكان موفدا رسميا من قبل خان المغول ارغون الى بلاط اوربا عام ١٢٨٧- رسالة ودية الى البابا، وعند وصوله روما كان البابا قد توفي وشغر كرسيه، فعبر ربان صوما الى انكلتـرة،

حيث اقام القداس امام ملكها ادورد الاول (١٢٧٢-١٣٠٧) وتناول جلالته القربان من يده. وعند عودته الى روما، استقبله البابا الجديد نيقولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢) بكل ترحاب وسمح له ان يقيم القداس بحضوره. كما انه في الاحد التالي المصادف عيد السعانين، قدس البابا، وتناول ربان صوما القربان من يده. ثم ارسل البابا وفدا الى يابالاها الجاثاليق بشخص الدومنيكي ريكولدو من مونته كروجيه، فرحب به الجاثاليق كثيرا وسمح له ان يعظ في كل كنائسه، وبعث معه الى البابا رسالة شفوية عبر فيها عن تعلقه واخلاصه لقداسته[٩].

وكانت سنة١٤٤٥ عندما قدم طيماثاوس مطراننا لترسوس في قبرص، صورة ايمانه الكاثوليكي، فقبله البابا اوجين الرابع برسالة اشتهرت بسبب عبارتها وهي: "لا يجوز من الان فصاعدا لاحد ان يدعو الشرقيين الكاثوليك نساطرة، بل كلدانا".

رغم هذا فان الاتحاد الاكثر مكينا تم عام ١٥٥٣ عندما لم يقبل قسم من ابناء كنيستنا بالقرار الذي كان قد وضعه شمعون الرابع الباصيدي الجاثاليق (١٤٣٧-١٤٩٧) بان يكون البطريرك من الان فصاعدا دائما من عائلته (ابونا). لذا فعند وفاة شمعون السابع برماما (١٥٣٨-١٥٥١) رفضت هذه الجماعة قبول حفيده الطفل شمعون دنحا جاثاليقا. واجتمعوا في الموصل برعاية ثلاثة اساقفة واختاروا لهم رئيس دير الربان هرمزد المدعو سولاقا بن دانيال، وعمره يومئذ أربعون سنة وأرسلوه الى روما في ١٥٥٢ مع وفد كبير مؤلف من سبعين شخصا رافقوه الى القدس ليطلبوا له من حارس الاراضي المقدسة كتاب توصية. ثم اوفدوا معه من هناك اثنين من العلمانيين، احدهما مات والاخر تمرض في الطريق، فوصل يوحنا وحده الى روما في ١٨ تشرين الثاني ١٥٥٢. بعد دراسة قضيته من قبل البابا في اجتماعين مع الكرادلة، قبله البابا يوليوس الثالث، ورسمه بنفسه مطرانا في كنيسة القديس بطرس يوم ٩ نيسان ١٥٥٣. ثم اعطاه كل الصلاحيات اللازمة وعاد الى ديار بكر، ومعه راهبان دومنيكيان يرافقانه على طلبه (رسم احدهما، واسمه امبروسيوس، مطرانا، والاخر كان علمانيا يدعى انطون بن زهره، وكلاهما من مالطه) فوصل سولاقا الى ديار بكر يوم ٢٢ تشرين الثاني ١٥٥٣.

دام هذا الاتحاد نحو مائة سنة، اعني الى زمن شمعون الثاني عشر (١٦٥٦-١٦٦٢) ودعي خلفاء سولاقا بالبطاركة الشمعونيين، وكان مركزهم في ديار بكر ثم سعرد وبعده اورمية. ومن سنة ١٦٦٢-١٩٠٣ ارتدوا الى النسطرة وسكنوا في قوجانس.

من الجهة الاخرى، واصل خلفاء شمعون برماما، وقد اتخذ اغلبهم اسم ايليا، السكنى في دير الربان هرمزد حتى عام ١٨٠٤. وابتدأت سلسلة بطريركية جديدة ثالثة عام ١٦٨١، وكلهم كاثوليك، فصار لنا خمسة بطاركة باسم يوسف سكنوا في ديار بكر، الا ان الاخير لم يؤيد من قبل روما وتوفي عام ١٨٢٨. وتجدر الاشارة الى انه منذ عام ١٧٧١، ولفترة وجيزة، كان للكنيسة الكلدانية ثلاثة بطاركة كاثوليك في كل من ديار بكر ودير الربان هرمزد وقوجانس! الا ان كرسي ديار بكر بقي على الولاء للكرسي الروماني.

الكنيسة الكلدانية اليوم

تتألف كنيستنا اليوم من سبع عشرة ابرشية، تسع منها في العراق[١٠] وهي: بغداد، كركوك، البصرة، الموصل، اربيل، العمادية، زاخو، عقرة، القوش. وهناك ثماني ابرشيات خارج العراق: ثلاث في ايران (طهران، اورمية، الاحواز)، وواحدة في كل من تركيا (اسطنبول) وسوريا (حلب) ولبنان (بيروت) ومصر (القاهرة) والولايات المتحدة الامريكية (ديترويت). بالاضافة الى خمس وكالات بطريركية: في العراق (السليمانية) وفرنسا (باريس) وايطاليا (روما) والسويد (استوكهولم) واستراليا (سدني).

وللكنيسة الكلدانية في العراق دير للكهنة باسم "معهد شمعون الصفا البطريركي"[١١] انشيء في الموصل عام ١٨٦٦ وتخرج منه العديد من الكهنة، وانتقل عام ١٩٦٠ الى بغداد ويضم حاليا ٤١ طالبا. الى جانب معهد مار يوحنا الحبيب[١٢] الذي أسسه الاباء الدومنيكيون عام ١٨٧٨ لاعداد كهنة من كلا الكنيستين الكلدانية والسريانية، ويضم حاليا ٢٣ طالبا.

والى جانب الرهبانية الانطونية الهرمزدية التي تضم حاليا ٣٧ راهبا- عدا المبتدئين والراغبين- موزعين على اربعة اديرة (دير السيدة ودير مار كوركيس ودير مار انطونيوس في بغداد ودير جديد في روما)، بينهم ١٨ كاهنا واسقفان، هناك جمعيت رهبانية نسائية: راهبات القلب الاقدس التي تأسست في ارادن عام ١٩١١ وتضم حاليا ٣٧ راهبة في ديرين (الموصل ومانكيش)، وراهبات بنات مريم (راهبات الكلدان) التي تأسست عام ١٩٢٢ وعددهن الحالي ٩٦ راهبة موزعات بين ٢٤ ديرا في العراق وخارجه. فضلا عن الراهبات الدومنيكيات للقديسة كاترينة السيانية التي تأسست عام ١٨٧٧ وتضم راهبات من الكنيستين الكلدانية والسريانية يبلغ مجموعهن اليوم ١٤٨ راهبة، ولهن ٢١ ديرا في العراق وخارجه. واخوات يسوع الصغيرات وهن سبع اخوات في اخوّتين (الموصل وبغداد).

الابرشيات الكلدانية في العراق

١- الابرشية البطريركية: كرسيها في بغداد منذ سنة ١٩٤٧. هكذا اعادت بغداد شرفها القديم عندما نقل اليها البطريرك طيماثاوس الكبير (٧٨٠-٨٢٣) كرسيه اليها، ودام فيها حتى ١٢٨٢ عندما نقله يابالاها الثالث الى مراغا. وورث كرسي بغداد امجاد كرسي المدائن (ساليق وقطسيفون) الذي احتل مركز الصدارة بين الكراسي الاسقفية لكنيستنا منذ مطلع القرن الرابع. وانتقل كرسي البطريركية من مكان الى اخر حسب الظروف العصيبة التي مر بها. فبعد مراغا نقل الى اربيل ثم كرمليس فسلماس واورمية وآمد، وسعرد ودير الربان هرمزد (القوش) وقوجانس والموصل.

يرأس كرسي بغداد غبطة السيد البطريرك بولس الثاني شيخو منذ ١٩٥٨، ويعاونه المطران عمانوئيل دلي (١٩٦٣). وغبطة البطريرك يرأس كل كلدان العالم. في بغداد ٢٢ خورنة يعمل فيها ٢٦ كاهنا لخدمة ٢٢٧ الف[١٣].

اما الوكالات البطريركية الخمس، ففيها خمسة كهنة لخدمة نحو ثلاثة الاف نسمة.

٢- **ابرشية كركوك**: رئاسة اسقفية، اعيد تأسيسها في ١٧٨٩، فيها خورنتان، يرأسها مار اندراوس صنا، ويساعده ثلاثة كهنة لخدمة ٤٣٠٠ نسمة.

٣- **ابرشية البصرة**: رئاسة اسقفية، فصلت عن الابرشية البطريركية في ١٩٥٣، يرعاها مار اسطيفان كجو، ويساعده ثلاثة كهنة لاربع خورنات تضم ٦٧٠٠ نسمة.

٤- **ابرشية الموصل**: رئاسة اسقفية، فصلت عن الابرشية البطريركية في ١٩٦٠، وكانت منذ ١٨٣٠-١٩٤٧ مركز الكرسي البطريركي (كما كانت ايضا بين الفترة ١٣٦٥-١٤٩٧). فيها ثماني خورنات، ست في الموصل نفسها ثم تلكيف وكرمليس. وفي رعايتها دير مار كوركيس (بعويزة) ومار ميخائيل ومار ايليا الحيري. عدد نفوسها نحو عشرين الف يخدمها المطران صاحب هذا المقال مع اثني عشر كاهنا.

٥- **ابرشية اربيل**: رئاسة اسقفية، موطن طيماثاوس الكبير، ومركز الجاثاليق طيماثاوس الثاني (١٣١٨-١٣٣٢). اعيد تاسيسها في ١٩٦٨، ومقر كرسيها عينكاوة، وتشمل اربيل وكويسنجق وارموتا وشقلاوة. مطراها مار اسطيفان بابكا يساعده خمسة من الكهنة لخدمة ٩٥٠٠ نسمة.

٦- **ابرشية العمادية**: تأسست منذ ١٧٨٥، مركزها حاليا مانكيش، وتشمل مدينة العمادية وكوانه وبيناثان واينشك وارادن وتنه وداوديه وبردارش، ثم في الشمكان: اصن واركن وازخ وتلا وبرتا وهيرماشي وميزي الخ... مطرانها مار يوحنا قلو يساعده كاهنان لخدمة ٢٦٠٠ نسمة.

٧- **ابرشية زاخو**: فصلت عن العمادية في ١٨٥٠. وقبل ثلاثين عاما كانت زاهرة تشمل هذه القرى: فيشخابور، ديرابون، قره وله، بغلوجه، دورناخ، بيداري، بهنونه، العباسية، تل كبر، شكفتي مارا، بيرسفي، الانش، ديرشيش، سناط، أفزروك، شرانش، هربولي الخ... ثم ليفو وشيوز ومار ياقو ودهوك. مطرانها مار حنا بولس، يعاونه ثمانية كهنة (أربعة متزوجون) لخدمة ٦٩٠٠ نسمة.

٨- **ابرشية عقرة**: فصلت عن العمادية اول مرة في ١٨٥٠ واخر مرة في ١٩١٠، ومنذئذ حتى ١٩٤٧ بقيت بدون مطران، وعين لها في ذلك العام سيادة مار بولس شيخو (بطريركنا الحالي). من قراها المسيحية: خربه، خرجاوا، كربش، هزرجوت، براكه، خردس، بامشمش، ملا بروان، نركزينه، ارينه، ضيانة... ولم يزد عدد المسيحين فيها منذ القرن الماضي على ١٥٠٠ نسمة. حاليا فيها ١٠٠ نسمة فقط، ولهذا يسكن مطرانها مار ابلحد ربان في السليمانية حيث له نحو ٥٠٠ نسمة يعاونه كاهن واحد.

٩- **ابرشية القوش**: استحدثت في ١٩٦٠ وتشمل ايضا تللسقف وباقوفا وباطنايا والشيخان. في عهدها غير الكاثوليكي لعبت دورا بارزا في تاريخ كنيستنا، محتكرة منصب البطريركية مدة خمسة قرون، وينتمي بطاركتها الى عائلة الاب المعروفة (ابونا). يرأسها مار عبد الاحد صنا، ومعه ستة كهنة لخدمة ١٢٠٠٠ نسمة.

الابرشيات الكلدانية خارج العراق

١- **ايران**: ولنا ثلاث رئاسات اسقفية في طهران واورمية- سلماس والاحواز.

أ- **طهران** تأسست في سنه (سنندج) عام ١٨٥٣، وانتقلت الى طهران في ١٩٧١. تشمل ايضا همدان وكرمنشاه وقزوين وسنه. مطرانها مار يوحنا عيسائي، ومعه كاهنان لخدمة ٩٢٢٠ نسمة.

ب- **اورميه**- سلماس (رضائية) اسست منذ القرن الثالث ثم اعيدت في ١٦٤٧ وتجددت في ١٨٩٠. لها ستة مراكز وهي حاليا شاغرة بلا مطران، يخدمها كاهن واحد لـ ٢١٥٠ نسمة.

ج- **الاحواز** تأسست في ١٩٦٦ وتشمل ايضا عبدان، المحمرة، انديمشك، مسجد سليمان، شيراز، اصفهان. وكانت في القرون الاولى المسيحية تسمى بيث هوازيه، وكانت ذات اهمية خطيرة، ويلقب مطرانها بصاحب اليمين، لانه كان يقبل يمين البطريرك الجديد. مطرانها الحالي مار حنا زورا، بدون كاهن، يخدم ١٣٨٠ نسمة.

٢- **تركيا (اسطنبول- ديار بكر)**: وترقى الى القرن الخامس وتشمل ماردين ونصيبين وادنه واسكندرونه. سكن فيها البطاركة اليوسفيون من ١٦٨١-١٨٢٨. مطرانها مار بولس كراتاش ومعه سبعة كهنة يخدمون ٦٤٠٠ نسمة.

٣- **سوريا** (حلب): اسست ١٩٥٧ وتشمل الشام، قامشلي، ديرك، خانيك، دير الزور، الحسكة والجزيرة. مطرانها مار اسطيفان بلو، ومعه كاهنان لخدمة ٨٠٠٠ نسمة.

٤- **لبنان** (بيروت): اسست في ١٩٥٧، مطرانها مار روفائيل بيداويد، يعاونه كاهن واحد لخدمة ٧٨٥٠ نسمة.

٥- **مصر** (القاهرة): اسست في ١٩٥٧. مطرانها مار افرام بدي، بدون كاهن، وله نحو الف نسمة.

٦- **الولايات المتحدة الامريكية**: اسست في ١٩٨٢. مركزها ديترويت ولها ثماني خورنات، اربع في ديترويت وثلاث في كاليفورنيا وواحدة في شيكاغو. مطرانها مار ابراهيم ابراهيم، يساعده اثنا عشر كاهنا، لخدمة نحو اربعين الف نسمة.

وبذلك يكون المجموع الكلي لاكليروس الكنيسة الكلدانية: بطريــرك و ١٩ مطرانــا (اثنان منهم متقاعدان) و ١٠٩ كهنة (تسعة منهم في الدراسات العليا في اوربا، وثلاثــة في المعهدين الكهنوتيين، وسبعة رهبان، وثلاثة متقاعدين) لخدمة ٣٦٩،٠٠٠ نسمة.

المراجع:

- **ثلاث مخطوطات لاسماء الرهبان الانطونيين (بالكلدانية).**
- **ادي شير: تاريخ كلدو واثور، بيروت ١٩١٢، ١٩١٣.**
- **اوجين تيسران: الكنيسة النسطورية (بالفرنسية) ١٩٢٩.**
- **روفائيل بابو اسحق: تاريخ نصارى العراق، بغداد ١٩٤٨.**
- **روفائل بابو اسحق: مدارس العراق قبل الاسلام، بغداد ١٩٥٥.**
- **جان فيي: ركائز لتاريخ الكنيسة في العراق (بالفرنسية) لوفان ١٩٧٠.**
- **البير ابونا: ادب اللغة الارامية، بيروت ١٩٧٠.**
- **نشرة كنيسة ام الله الكلدانية الاسبوعية، ديترويت ١٩٧٣-١٩٨٠.**
- **فرنسيس اليشوران: الكنيسة الشرقية الاثوركلدانية (بالفرنسية) باريس ١٩٨٢.**
- **الحوليات الحبرية (بالايطالية)، الفاتيكان ١٩٨٢.**
- **البير ابونا: تاريخ الكنيسة الشرقية، منشورات الفكر المسيحي/١، الموصل ١٩٧٣.**

(١) راجع مقال "رسل من بلادنا في ارض الصين": ف. م. اب/ ايلول ١٩٨٠.
(٢) كنائس بغداد عبر التاريخ: بين النهرين، العدد ١٣١و ١٣٢ لعام ١٩٨٠.
(٣) بين رهبان الربان هرمزد: ف. م. نيسان ١٩٨٣.
(٤) مار افرام في يوبيله المئوي السادس عشر: ف. م. اذار ١٩٧٣.
(٥) يعقوب السروجي: ف. م. نيسان ١٩٨١.
(٦) حنين بن اسحق الطبيب المسيحي: ف. م. شباط ١٩٧٤.
(٧) اسرة ال بختيشوع: ف. م. ت٢ ١٩٨١.
(٨) المطران سليمان الصائغ: ف. م. يسان ١٩٧٣.
(٩) قصة مار يابالاها الثالث والراهب صوما: بين النهرين: العدد ٧ لعام ١٩٧٤.
(١٠) كنيسة العراق (عدد خاص): ف. م. ايلول ١٩٧٧.
(١١) معهد شمعون الصفا: ف. م. ايار ١٩٧٤.
(١٢) معهد مار يوحنا الحبيب: ف. م. نيسان ١٩٧٣.
(١٣) استقي هذه الاحصائيات من كتاب "الحوليات الحبرية" لسنة ١٩٨٢ بحسب ما ادلى بــه الســادة الاســاقفة انفسهم.

مشاعر النمو الديني لدى المراهقين

الثورة، التمرد، القلق، الاضطراب، التذبذب، التوتر، الظواهر العدوانية، الرغبة في الاستقلال، الاكتفاء بالذات، الازمات النفسية والخلقية والدينية، البحث عن الهوية... صفات تتميز بها مرحلة المراهقة وتلازمها، ولا بد ان يتعرض لها المرء قبل ان تتبلور مفاهيمه وتستقر اتجاهاته وتبنى شخصيته المستقلة. ومما لا شك فيه هو ان المراهقة مرحلة تحول طبيعية يشق الانسان من خلالها طريقه الى الحياة الراشدة، وفيها يحتاج الى عناية خاصة من جانب الوالدين والمربين الذين يتوجب عليهم ان يلموا بجوانب من علم النفس واسس التربية السليمة، ويكونوا على مستوى عال من التفهم لحاجات المراهقين والانفتاح على تطلعاتهم وطموحاتهم...

وهذا التحول الذي يصيب المراهقين في مختلف اوجه حياتهم يشمل ولا ريب المفاهيم والمعطيات الدينية التي تتعرض للشك والغربلة والمناقشة... الا ان هذا الشك هو خطوة في طريق النضوج في الايمان، وهو علامة صحة!

الى جوانب عديدة من مراحل النمو الديني لدى المراهقين يلفت الانتباه الاستاذ صباح حنا هرمز، مدرس علم النفس في كلية التربية بجامعة الموصل.

تمهيد

يعني مصطلح "المراهقة"، كما يستخدم في علم النفس، مرحلة الانتقال من الطفولة الى مرحلة الرشد والنضج. فالمراهقة مرحلة تأهب لمرحلة الرشد، وتمتد في العقد الثاني من حياة الفرد.

لقد عرف "جيرزلد" المراهقة تعريفا وظيفيا حينما وصفها بأنها "امتداد في السنوات التي يقطعها البنون والبنات متجاوزين مدارج الطفولة الى مراقي الرشد، حين يتصفون بالنضج العقلي والانفعالي والاجتماعي والجسمي الخ...". ويمكن تحديد المراحل التي يمر بها المراهقون كما هو مبين ادناه بالسنوات:

	عند البنات	عند البنين
١- مشارف المراهقة	١١-١٢	١٣-١٤
٢- ادوار المراهقة الاولى	١٢-١٤	١٥-١٦
٣- ادوار المراهقة الوسطى	١٥-١٧	١٧-١٨
٤- ادوار المراهقة المتأخرة	١٨-٢٠	١٩-٢٠

فالمراهقة، بمعناها الشامل، تعني، اذن، النمو والتطور الديناميكي عند الفرد؛ والمراهق هو الفرد الذي يرى بأنه قد تخطى ادوار الطفولة واصبح، من وجهة نظره هو، قادرا على

رعاية نفسه، وان له تفكيره الخاص، وانه فرد مستقل. لذا، فلدى دراسة المراهقة والعناية بالمراهق، ينبغي الاخذ بنظر الاعتبار القوى الكامنة فيه والدوافع الاساسية التي تحدو به الى ان يتصرف كذا وكذا ويسلك سلوكا قد لا يرضينا في معظم الاحيان؛ وان من الدوافع الاساسية التي تدفعه الى سلوكيته، ما هو فطري موروث، وما يصدر عن البيئة التي ينمو فيها.

وتجدر الاشارة الى ان الانتقال من الطفولة الى المراهقة ينطوي على عوامل جوهرية تتصل بنمو الفرد واتجاهاته ازاء محيطه الاوسع(1).

هل مرحلة المراهقة فترة ثورة وتمرد وقلق وصراع؟

كان الكثير من الباحثين يعتبرون المراهقة مرحلة مستقلة قائمة بذاتها، وكانت هذه المرحلة، في نظرهم، تتميز بالثورة والتمرد والصراع والقلق. الا ان علم النفس الحديث يتجه الى اعتبار المراهقة مرحلة غير مستقلة، بل تتضمن تدرجا في النمو في كل المجالات. فالشخصية ليست نتاج مرحلة محددة من مراحل النمو، وانما هي في الواقع نتاج التفاعلات المختلفة التي يتعرض لها الكائن الحي في ادوار نموه المختلفة.

ان علم النفس الحديث يعارض الاتجاه القديم الذي كان ينظر الى دور المراهقة كفترة من فترات النمو التي تتميز بالتمرد والثورة (تمرد تجاه الوالدين، وتجاه المسؤولين في المدرسة، وتجاه السلطة عموما)، وما ذلك الا بسبب فرض القيود التي تحول دون تحرر المراهق واستقلاله مما يدفعه الى الثورة، كلما أحس أن هذا التوجيه يتضمن المساس بشخصيته. ان علم النفس الحديث يعيد كل ما يحدث في هذه الفترة من اضطرابات، اساسا، الى ما يصادف المراهق من توترات بسبب العوامل الاحباطية المختلفة التي يتعرض لها، ويتضح من ذلك ان طريقة تنشئة المراهق والاسلوب الذي يعامله به والداه ومجتمعه هما اللذان يحددان استجابات المراهق. فحينما تكثر القيود والضغوط والاوامر والنواهي، حينذاك يعاني المراهق من الصراع، وتأخذ استجاباته شكل التمرد والثورة. أما حينما يلقى المراهق الفهم والتقبل لشخصيته، فيكون سلوكه سويا عادة.

ان المراهقة مرحلة طبيعية تنتظم فيها القوى النفسية والعقلية كي تجابه مطالب الحياة الراشدة. فاذا ما وجد المراهق التوجيه السليم، خلت حياته من الاضطراب والفوضى النفسية، والانهماك في المشاغل الجنسية، والعدوان المدمر والتمرد الهدام. اما اذا كانت معاملتنا للمراهق تقوم على الكبت والاحباط، فان ذلك يدفعه الى العناد والسلبية وعدم الاستقرار، او الالتجاء الى بيئات اخرى قد يجد فيها منفذا للتعبير عن ذاته.

وهنالك مجموعة من الابحاث اجريت مؤخرا على بيئات مختلفة تشير الى ان هناك مراهقة هادئة متزنة راضية عن نفسها، مما لا نجده في كثير من الحضارات التي تسيطر عليها سمات العصر الصناعي، مثل القلق والتنافس والسرعة والتهافت على العمل. ان ابناء هذه المجتمعات يشبون ليجدوا انفسهم في عالم براق من الاشياء المحيرة: أيتها يختارون وبأي منها

يعتقدون، واي مذهب ديني يتبعون، واي اتجاه خلقي يسلكون. هذه السمات من شأنها ان تدفع المراهق في دوامة من الصراعات والشك والقلق، لا سيما في الجانب الديني الذي يلعب اثرا كبيرا في تكوين شخصيته في هذه المرحلة (٢).

ان للدين أثره الواضح على النمو النفسي والصحة النفسية؛ والعقيدة، تتغلغل في النفس فتدفعها إلى الايجابية في السلوك. فالدين يساعد الفرد على الاستقرار، والايمان يؤدي الى الامان وينير الطريق امام الفرد منذ طفولته، عبر مراهقته، الى رشده ثم شيخوخته. ويمكن النظر الى الدين كبعد من ابعاد الشخصية؛ فالدين يتناول كل نواحي الحياة الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية الخ... وسواء كان الاتجاه نحو الدين ايجابيا او سلبيا، فالدين يعتبر قوة دافعة، لا سيما خلال فترة المراهقة. ومن طفرة النمو التي تطرأ على الحدث في المراهقة يحدث التغيير والتطور والنمو في الشعور الديني، فنشاهد لديه اعادة تقييم للقيم الدينية.

الشعور الديني بين الطفولة والمراهقة

ان الشعور الديني للطفل يختلف، في اوجه كثيرة، عن شعور الفتى والفتاة المراهقين. ان نظرة الطفل الى الدين نظرة موضوعية، مادية، تتصل بكل ما يحقق رغباته وامانيه واحلامه وتتضح في اجابات الاطفال عندما يسألون عن فكرهم عن الله. فهو، بحسب تصورهم، رجل مسن، له لحية طويلة، يلبس ثوبا ابيض الخ.. (انظر مقالنا "تطور مشاعر النمو الديني عند الاطفال": ف.م. حزيران/ تموز ١٩٨٢). اما فكرة المراهق عن الدين -وخاصة في السنوات الاخيرة من مرحلة المراهقة- فتصبح فكرة ذاتية، تأملية، منطقية، فالمراهق يفحص الافكار والمبادئ الدينية التي تلقاها في طفولته من جهة، ومن جهة اخرى يلتمس في الدين مخرجا يحقق له الشعور بالامن الذي فقده بسبب ما يعانيه من أزمات نفسية واضطرابات انفعالية. ان المراهق ينظر الى الدين على انه الطريق الذي يؤدي الى الخلاص والتغلب على المشكلات اليومية، لا على انه وسيلة للحصول على مكافأة مادية او ليكسب بها رضى والديه (٣).

ويؤمن الفرد في طفولته بالشعائر والطقوس الدينية المختلفة من دون تساؤل، اما في مراهقته، فيتجه بعقله نحو مناقشتها وفهمها والكشف عن اسبابها وعلاتها. لذا فقد ينحدر به الشك الى الصراع، وقد يخشى ان يناقش ذويه في تلك الامور، خاصة اذا كانت بيئته متزمتة جامدة، مما يزيد في الامه النفسية وشعوره بالاثم، لشكه في تلك الطقوس التي آمن بها في طفولته. فحري به، في هذه المرحلة، ان ينظر الى الدين في ضوء عقله النامي المتطور حتى يتجنب الالام الانفعالية الوجدانية، وأن يتجه بادراكه الى تفسير الكون والعالم المحيط به في ضوء مفاهيمه الدينية الجديدة، وأن يرى في هذا الشك خطوة رئيسة لفهمه العميق وايمانه القوي بالله والحياة والموت وما وراء الموت. فالشعور الديني في المراهقة عامل قوي في تغيير مثيرات واستجابات المراهق الانفعالية (٤).

مستويات النمو الديني في مرحلة المراهقة

في هذه المرحلة، تقل نسبة ممارسة العبادات المختلفة، غير ان المراهق لا يلبث ان يعود الى عبادته عندما تمر به ازمة حادة، واذا ما فترت الازمة تفتر صلاته، ثم تبدأ لديه من جديد رغبة شديدة في الصلاة والعبادات الاخرى.

فاذا ما قبل الطفل الاتجاهات الدينية السائدة في اسرته ومجتمعه، يميل المراهق الى مناقشة ما سبق ان تلقاه من افكار ومبادئ دينية في مرحلة الطفولة المتأخرة (٩-١٢ سنة). وما هذا الا دليل على يقظة المراهق الدينية ونضجه العقلي، فهو لم يعد بعد الطفل الساذج الذي يقبل كل ما يلقى عليه من تبعات دينية دون فهم وادراك، وتأخذ هذه النزعة وتيرة تصاعدية الى درجة ان بعض الكبار المحيطين بالمراهق يفسرونها على انها كفر والحاد.

ويبدأ شك الطفل في المعطيات الدينية التي تمثلها في طفولته، بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من عمره خاصة، حين يعجز عن ادراك الفلسفة الدينية العميقة، فيقف بقلبه وعقله في تيه اللانهائية الدينية ويعجز عن فهم الابدية ويحاول ان يخضع هذا الملكوت السماوي لفكرته عن الزمن الموضوعي والذاتي، ثم يمر بعد ذلك، في أواخر مراهقته، في مرحلة تخف معها وطأة هذا الشك.

ويلخص المليجي (١٩٧٣) ملامح النمو الديني في مرحلة المراهقة على النحو الاتي: اليقظة الدينية، ازدواج الشعور الديني، تعدد الاتجاهات الدينية، الحماس الديني، الاتجاه الى الله، الشك، الالحاد... ثم العودة الى الله. ففي هذه المرحلة التي تعد مرحلة اليقظة الدينية العامة، يسود روح التأمل والنشاط الديني العملي (العبادة او الجهاد في سبيل الله) وتجريد ذات الله من التجسيم وتصوره سبحانه تصورا معنويا. كما ينشغل المراهق بصفات الله واثاره وافعاله اكثر من الانشغال بشكله وصورته؛ ويلاحظ ان ضعاف العقول والشخصية يقف بهم الحال على المستوى الطفولي الحسي في تصور المفاهيم الدينية. اما في حالة ازدواج الشعور الديني، فقد يوجد لدى المراهق شعور ديني مركب يحوي عناصر متناقضة مثل حب الله الى جانب الخوف منه، الايمان بالموت الى جانب كرهه كنهاية لا مفر منها.

اما في مرحلة تعدد الاتجاهات، فقد قام المليجي بدراسة تكشف ان ٥٠% من البنين يكون ايمانهم تقليديا، وان ٢٥% يكونون متحمسين، و ٢٤% يساورهم الشك، و ١% يكونون ملحدين. ووجد ايضا ان حوالي ٦١% من الفتيات يكون ايمانهن تفكيريا، و٢٦% يكن متحمسات، و ١٣% يراودهن الشك، و لم يلاحظ الالحاد عندهن.

وتدل ابحاث كول ان السنة السادسة عشرة من حياة المراهق تعتبر مرحلة تحول في سلوكه وايمانه الديني. ذلك لان الثقة الدينية ترتفع عنده اذ ذاك الى ما يقترب من ٦٠%، و ٦٥% لدى المراهقة. لذا تسمى مرحلة المراهقة احيانا بمرحلة اليقظة الدينية، لان الفرد يبدأ فيها جداله الديني الحاد، فيناقش فكرة الجنة والنار والذنب والتوبة والبعث والخلود، والقضاء والقدر، والحرية الفردية، والقسرية اللا اختيارية... وتزداد ضراوة هذه اليقظة

عندما يواجه المراهق احداث الموت وهي تصيب أحد اصدقائه واقربائه، وعندما يفطن لقسوة الحياة ومرارة الاحداث المحيطة به.

ويتطور الشك الديني عند المراهق من العبادات الى العقيدة ذاتها، وهو في شكه هذا، يراجع نفسه، ويراجع علاقته بالقيم السائدة والمعايير القائمة وعلاقته بالكون كله. ثم يبدأ حدة الشك عندما يقترب من الرشد فيتحول الى شعور بالذنب، ويتطور به النمو الى معالجة مشكلاته الدينية بروح موضوعية. وتختلف طبيعة الايمان باختلاف شخصية المراهق، فتتراوح بين النقد العابر والارتياب الحاد في كل العقائد، وقد يرجع ذلك الى ان تلقين التعاليم الدينية في الطفولة كان غير ملائم لمستوى النمو او ناقصا.

وهكذا يقترب الفرد اقترابا واضحا من توازنه الديني حتى يصبح قادرا على تمييز الرديء من الجيد، ويتحول الشعور بالخوف من العقاب الى شعور بالمتعة الروحية العميقة، ويصبح اكثر تسامحا في علاقاته بالاديان الاخرى.

ويلاحظ ان الحماس الديني يحل محل الاتجاه الديني التقليدي، ويتلون الحماس الديني بالسمات الغالبة على شخصية المراهق. فهنالك التحمس المصحوب بالتجرد من البدع، وقد يصاحب ذلك نقد لاذع لهذه البدع، الاندفاع الى النشاط الخارجي والاجتماعي والديني، والانضمام الى جماعات البر والاحسان او الالتزام المباشر، او الاقتصار على القناعة الشخصية والتصوف الفردي (الشخصية المنطوية). وقد يلجأ البعض الى الدين كوسيلة لاعلاء شأن الدافع الجنسي، ويكون هؤلاء ذوي حساسية مرهفة لاي مخالفة جنسية في المجتمع، وقد يأخذ هذا الحماس الديني شكل عمل جماعي لاقامة دعائم الفضيلة في المجتمع ومهاجمة الفساد واماكن اللهو والاختلاط؛ وكلما اشتد الشعور بالذنب، كلما اقبل المراهق على الله متعبدا لا يترك فرضا ولا نافلة ليتطهر من الذنب الا ومارسهما.

اما فيما يخص الالحاد، وهو انكار وجود الله، فيصاحب ذلك عادة قلق وصراع، وقد يتباهى بعض المراهقين بالالحاد، غير ان ذلك ليس الحادًا في واقع الامر، وانما تعبر، في الغالب، عن الرغبة في الاستقلال والتحرر ومهاجمة المجتمع، وقد يكون هذا مجرد ظاهرة عابرة لا تلبث ان تتغير. ويلاحظ ان التنشئة الاجتماعية والبيئة العائلية تلعب دورا هاما في تحديد الاتجاه الديني لدى المراهق، تحمسا او شكا او الحادًا (١، ٢، ٣).

بعض نتائج دراسات عن المشاعر الدينية لدى المراهقين

١- مرحلة المراهقة الاولى (مرحلة الدراسة المتوسطة)

اجرى ابراهيم وكرومي (١٩٧٩) دراسة مقارنة لمشكلات طالبات مرحلة الدراسة المتوسطة في مركز محافظة نينوى وخارجها. وقد احتلت مشكلة "اخاف عقاب الله" المرتبة الاولى، وتعزى هذه النتيجة الى ما ينتاب المراهقة حينما تمر بأزمة ما، ان تبدي رغبة شديدة وحماسا للممارسات الدينية كالصلاة والصوم والعبادات الاخرى، وتذكر احدى الطالبات المشاركات في الاستفتاء (١٥ سنة):

".. فاخوتي جميعهم يصلون، اما انا فلا استطيع، واشعر بالحزن لعدم رغبتي في الصلاة.. ارى في نومي احلاما كثيرة كلها اشباع جنسي.. ولدى عدم رؤيتي لهذه الاحلام، اتذكر ان الله حي، وانه يعلم بكل ما يحصل لعبيده فأستغفره...".

ويجدر بالاشارة الى ان هذه المشكلة احتلت المرتبة الثانية في مشكلات الاخلاق والدين في دراسة مماثلة قامت بها منيرة حلمي.

واحتلت مشكلة "يقلقني التفكير بالموت" المرتبة العاشرة. ويفسر ذلك على ضوء شعور المراهقات بالذنب الناجم عن تقصيرهن الفعلي او المزعوم في اداء فرائض الدين ومخالفة القيم الدينية. وقد يعزى السبب الى الشك الديني الذي ينتاب المراهقات في هذه المرحلة، فيبدأن يشككن بالعقائد والشعائر الدينية وبقيمة الصلاة، فيتخوفن ازاء ذلك على مصيرهن بعد الموت. وقد ذكرت احدى الطالبات (١٤ سنة):

"اني ارى الموت دائما امامي، وكلما تطلعت الى المستقبل ارى الموت حليفي، ولربما لسبب اجهله او لحدث جرى لي وانا طفلة.. كلما اسمع بنبأ وفاة احد تنقبض نفسي واشعر وكأني شللت وفقدت قواي" (٥).

وبحثت عقراوي وبولص في دراستهما الموسومة "ابطال اطفال المراهقة المبكرة" عن الشخص الذي يفضله المراهقون والمراهقات. فلقد القى الباحثان السؤال التالي على ٦٠٠ مراهق ومراهقة من طلاب وطالبات الصف الاول المتوسط في محافظة نينوى:

"من هو الشخص الذي تفضله، ذكرا او انثى، وانت متأثر به وتحبه وتتمنى لو تصبح شهيرا مثله؟".

وجاء الجواب ليشمل عشرة انواع من الشخصيات، ومن ضمنها الدينية التي احتلت المرتبة السادسة (الرابعة بالنسبة للذكور، والتاسعة للاناث). ويمكن ان يعزى تفضيل الذكور الابطال من حقل الدين اكثر من الاناث، لان المراهقة تتصف بالقلق وعدم الاطمئنان، وان كل مراهق بحاجة الى دين يمده بالايمان والحياة ويعلمه كيف يتحمل التذبذبات، ولان الشك هو من خصائص المراهقة مع معرفتنا بأن الاناث يستبقن الذكور في عملية البلوغ (٥)، وقد يكون السبب ايضا ابسط من كل ذلك حيث ان معظم الابطال الدينيين هم من الذكور، والمراهق، كغيره من الناس، يميل الى بطل يقتدي به من بني جنسه.

وقام الخميسي وعبد الوهاب بدراسة مشكلات المراهقين (١٩٧٥) في المدارس المتوسطة في بغداد (١٣-١٦ سنة)، وقد اظهرت النتائج ان:

* ٤٠% من المراهقين يشغلهم كثيرا مصيرهم بعد الموت.

* ٨٠% اشاروا الى ان مشكلة "اخشى عقاب الله" كانت اعلى المشكلات النفسية التي تجابههم.

واحتلت مشكلة "افكر كثيرا في الجنة والنار" المرتبة الثانية من حيث الحدة، وقد تدرج الاحساس بها تصاعديا من حيث الخلفية الاقتصادية والاجتماعية، وكذلك الامر بالنسبة لمشكلة "اكذب احيانا دون تعمد" (٧).

٢- مرحلة المراهقة المتوسطة (١٥-١٨) والمراهقة المتأخرة (١٨-٢٠)

اجرى الزوبعي واسكندر دراستهما عن "مشكلات طلبة السادس الثانوي (بغداد- بصرة- الموصل) عام ١٩٧٥ وجاءت النتائج كما يلي:

* ٧٣٪ من افراد العينة يؤكدون ان الرجوع الى الشريعة الدينية يؤدي الى النهوض بالمجتمع.
* ٧٦٪ عبروا عن تألمهم من التعصب الديني في بلادنا.
* ٥٩٪ اشاروا الى ان التوفيق بين الشريعة الدينية والحضارة الغربية يؤدي الى التقدم (٨).

اما السواد فقد قام بدراسة لمشكلات طلبة المدارس الاعدادية في مدينة بغداد وبعض المناطق الريفية عام ١٩٦٩. وقد اظهرت الدراسة وضوح الاتجاه الديني لدى الطلاب (مرحلة المراهقة الوسطى)، وقد اتضح هذا الاتجاه في صورة حماس لدى المراهقين تجاه القضايا الدينية، يترجمونه عبر اهتمامهم الكبير بالامور الدينية وتضايقهم من ابتعاد بعض زملائهم عن النواحي الدينية والخلقية (٩).

من هذا البحث نستدل ان هنالك فئة من المراهقين تتردد في قبول بعض المعتقدات الدينية، غير انه يحسن بنا اعتبار هذه النزعة، لا مظهرا من مظاهر الالحاد والنكران، بل فألا حسنا يدل على نضوج المراهق وتحرره في التفكير. ان المراهق في هذه الفترة يحتاج الى من يشجعه على التحدث في مشكلاته، ويبعد عنه ما يؤرقه من أفكار وشكوك، ولا شك ان المناقشات تعيد اليه اتزانه وتبعث في نفسه الطمأنينة. اما اذا كان سلوكنا تجاه تساؤلاته قائما على التعنيف والتحقير، فقد يؤدي ذلك الى حالات من الاستهتار الديني (١٠)، او يخلق فيه، على الاقل، ردة فعل سلبية تجاه الدين وشؤونه، وعقدا خلقية واخلاقية تؤثر على سلوكيته الاجتماعية وتكوين شخصيته، وقد يصمه ذلك طوال حياته.

المصادر والمراجع

١-الجسماني، عبد علي: سيكولوجية المراهقة، مكتبة النهضة، بيروت ١٩٧٠.
٢-فهمي، مصطفى: سيكولوجية الطفولة والمراهقة، دار مصر للطباعة، القاهرة.
٣-المصدر السابق
٤-السيد، فؤاد البهي: الاسس النفسية للنمو، دار الفكر العربي، القاهرة.
٥-ابراهيم، يوسف حنا، وكيورك كرومي: دراسة مقارنة لمشكلات طالبات مرحلة الدراسة المتوسطة داخل محافظة نينوى وخارجها، ١٩٧٥.
٦-عقراوي، سلوى، وجورج افرام بولص: ابطال اطفال المراهقة المبكرة، بغداد ١٩٧٩.
٧-الخميسي، سليم وعبد الوهاب العيسى: مشكلات المراهقين، مجلة العلوم التربوية والنفسية، ع٣، بغداد ١٩٧٥.
٨-المصدر السابق
٩-السواد، عبد الخضر: مشكلات طلاب المدارس الاعدادية في مدينة بغداد وبعض المناطق الريفية في العراق، ١٩٧٥ (اطروحة ماجستير).
١٠- فهمي، مصطفى- المصدر السابق

مجلس الكنائس العالمي

امستردام (١٩٤٨)، ايفانستن (١٩٥٤)، نيودلهي (١٩٦١)، نيروبي (١٩٧٥)، فانكوفر (١٩٨٣): مدن احتضنت المؤتمرات العامة الستة لمجلس الكنائس العالمي الذي ترقى بداياته الى عام ١٩١٠، حين اخذ العالم المسيحي يشعر بمرارة الانقسام ويفكر بشكل جاد في السبل الكفيلة بوضع حد لحالة التمزق والشكوك.

ومجلس الكنائس العالمي -ومقره جنيف- ليس "كنيسة" تضاف الى مئات الكنائس التي تؤلفه (٣٠١ كنيسة)، وانما هو "شركة اخوية بين الكنائس التي تعترف بالرب يسوع المسيح الها ومخلصا، بحسب الكتاب المقدس، وتسعى سوية في الاجابة الى دعوتها المشتركة في العمل على مجد الله، الاب والابن والروح القدس".

الملف التالي للاب يوسف توما يحكي بدايات هذا المجلس ويشير الى توجهاته الاساسية ويعكس نشاطاته ومساعيه في الحركة المسكونية.. ويأتي بفرصة انعقاد مؤتمر فانكوفر (كندا) في تموز ١٩٨٣.

انعقد مؤتمر عالمي في ادنبره سنة ١٩١٠ حول بشرى الانجيل. فقام شاب في احدى كنائس الشرق الاقصى الفتية وقال مخاطبا المؤتمرين:

"لقد ارسلتم الينا اشخاصا يعرفوننا بيسوع المسيح، فنحن نشكركم جدا على هذا العمل؛ غير انكم حملتم الينا ايضا انقساماتكم: فهؤلاء يكرزون بالميثودية[١]، واولئك باللوثرية وغيرهم، بالابرشانية[٢]، واخرون بالانكليكانية.

اننا نطلب اليكم ان تكرزوا بالانجيل وتتركوا المسيح يسوع حرا، ليقيم بواسطة الروح القدس، من اعماق شعوبنا، كنيسة تطابق ما يريده هو منا ويوافق اطباعنا. فهذه ستكون كنيسة المسيح في اليابان، وتلك كنيسة المسيح في الصين، والاخرى في الهند الخ... ، كنيسة منعتقة من كل هذه "المذهبية" التي تسمون بها كرازتكم عندنا".

وكان من بين الحضور ممثلون عن كنائس مختلفة تاثروا بهذا الكلام، فقرروا ان يحاولوا رفع شك الانقسام من الكنيسة.

في ذلك اليوم ولدت الحركة المسكونية العالمية في مفهومها الحديث.

شيء من التاريخ

انه يمكننا ان نحدد تأسيس مجلس الكنائس العالمي -وهو احد ابرز واهم ثمار هذه الحركة- رسميا سنة ١٩٤٨. ولكن هذه الانطلاقة جاءت لتكلل جهودا ضخمة لتقارب المسيحيين، بدأت من مطلع القرن، وكان للبروتستنت فيها قصب الريادة، وتجسدت فعليا في ثلاث مؤسسات هي:

١- المجلس العالمي للكرازة (١٩٢١)

٢- مؤسسة المسيحية العملية (١٩٢٥)

٣- حركة الايمان والقانون (١٩٢٧)

وهذه المؤسسات الثلاث شكلت، بالرغم من اختلاف اهدافها، نواة مجلس الكنائس العالمي الذي عقد اجتماعه التأسيسي في امستردام (هولندا) يوم ٢٤ اب ١٩٤٨، وقد ضم ١٤٦ كنيسة بروتستنتينية وارثوذكسية، ورسم اهدافه كما يلي:

١- ان يكمل عمل المؤسستين: "الايمان والقانون" و "المحبة العملية"؛ ٢- ان يسهل العمل المشترك بين الكنائس؛ ٣- ان ينشط الدراسات المشتركة؛ ٤- ان يعمق الشعور المسكوني لدى مؤمني جميع الكنائس؛ ٥- ان يوثق العلاقلات مع المذاهب العالمية والحركات المسكونية الاخرى؛ ٦- ان يدعو لعقد مؤتمرات عالمية لها الحق بنشر مقرراتها، كلما دعت الحاجة؛ ٧- ان يدعم نشاط الكنائس في مهمة الكرازة الانجيلية.

هذه الاهداف تصب كلها في مشروع واحد، الا وهو وحدة المسيحيين التي تشكل الغاية القصوى للمجلس. وقد جدد المجلس تحديد ذلك في مؤتمره العام الثالث المنعقد في نيودلهي عام ١٩٦١، حيث جاء: "بالمسيح الذي اعطاه الاب ليكون راس الجسد، تملك الكنيسة وحدتها الحقيقية التي ظهرت يوم العنصرة بعطية الروح القدس... فالرب الذي سيحقق يوما وحدة كل الاشياء هو الذي يدفعنا الى البحث عن الوحدة ويريدها من الان لكنيسته على الارض". ولكن الوحدة المنشودة ليست انصهارا ولا ذوبانا يزيل السمات الخاصة. فقد كتب الراعي الن براش، الذي كان من أبرز الاعضاء في رئاسة المجلس في جنيف في السبعينات: "ان مجلس الكنائس العالمي هو هيئة فدرالية تجمع عدة مؤسسات قررت ان تتحد دون انصهار تام. فمع اتحادها فيه، تبقى لكل كنيسة خاصيتها، ليس فقط من الناحية المادية، ولكن حتى في تشكيلاتها الخاصة وفي اعتبارات اخرى كثيرة".

ان مجلس الكنائس العالمي هو، اذن، مزيج متعدد المشارب والالوان يحمل كل الاختلافات التاريخية والثقافية والفكرية التي تمتاز بها الكنائس التي تكونه، فقد قررت جميعها ان تخترق تقلبات التاريخ كي تكون حقا امينة ليسوع المسيح، وتحمل شهادة ملتزمة نحو الانجيل ونحو العالم.

لا شك ان هذا العدد الغفير من الناس والحضارات واللغات التي ينتمي اليها المجلس تشكل مصدر ثراء وخبرة رائعة، بيد انه لا يخلو من صعوبات على الصعيد العملي. ويعترف بذلك فيليب بوتر نفسه، السكرتير العام الحالي للمجلس، اذ يقول: "ان الحوار بين الثقافات محك نختبره كل يوم".

تركيبة مجلس الكنائس العالمي

يضم مجلس الكنائس العالمي اليوم اكثر من ٣٠٠ كنيسة وجماعة مسيحية من جميع انحاء العالم (بروتستنتية، ارثوذكسية، ومن الكاثوليك القدماء[٣]، تنتمي الى ما يقارب المئة بلد. ويبلغ عدد المسيحيين الذين يجمعهم المجلس نحو ٤٠٠ مليون نسمة، أي ثلث المسيحيين في العالم (الكاثوليك الذي يربو عددهم على ٧٠٠ مليون نسمة ليسوا اعضاء في المجلس).

يجتمع المجلس في مؤتمر عام كل ست او سبع سنوات عادة، فينتخب الهيئة المركزيـة وقوامها ١٢٠ عضوا، وتجتمع كل سنة؛ وهي بدورها تنتخب هيئة مصغرة تتكون من ١٦ شخصا هي الهيئة التنفيذية، وتجتمع مرتين في السنة. اما السكرتير العام، فتنتخبه الهيئة المركزية ويساعده في مهامه عدة معاونين. اما مهمته، فهي الاشراف على فاعلية سير العمل وتنسيق نشاطات المجلس ومتابعتها. ويبلغ عدد الموظفين الذي يعملون في المقر العام، ومركزه جنيف، نحو ٣٠٠ شخص. وينقسم العمل الى ثلاث مجموعات:

المجموعة أ: "الايمان والشهادة". وتتكون هذه المجموعة من "لجنة الايمان والقانون (ويشارك فيها بصورة دائمية ١٢ كاثوليكيا، بالرغم من ان الكنيسة الكاثوليكية ليست عضوا اصيلا في المجلس). وتضم هذه المجموعة ثلاثة اقسام، هي: الرسالة والكرازة بالانجيل؛ الكنيسة والمجتمع؛ الحوار مع ديانات وايديولوجيات عصرنا. ويدير هذه المجموعة، البلغاري تودور سابيف.

المجموعة ب: "العدالة والخدمة". وتضم ستة اقسام، هي: مشاركة الكنائس في النمو العالمي، والشؤون الدولية، برامج الصراع ضد العنصرية، التعاون بين الكنائس ومساعدة اللاجئين، اللجنة الطبية المسيحية، المؤسسة المسكونية لمساعدة الكنائس المعوزة. ويدير هذه المجموعة الالماني كونراد رايزر.

المجموعة ج: "التربية والتجدد". وتتكون من خمس لجان هي: التربية والمرأة في الكنيسة والمجتمع، التجدد والحياة في الخورنة، الشباب، دراسات الكتاب المقدس، الثقافة اللاهوتية. وتدير هذه المجموعة المصرية مريم أسعد.

وكل مدير من مدراء هذه المجموعات يعتبر سكرتيرا عاما مساعدا للمجلس الذي يديره الدكتور فيليب بوتر منذ ١١ سنة، بصفة امين عام، وهو من جامايكا.

ويقدم الامين العام تقريرا سنويا للاعضاء الدائميين في الهيئة المركزية، وهم بدورهم يتدارسون سبل تنفيذ التوجيهات اللازم اعطاؤها بحسب مقررات المؤتمر العام السابق.

علاقة المجلس بالكنائس الاعضاء

ان بين المجلس والكنائس الاعضاء علاقة غريبة، فهو تابع لها كليا، ولكنه يتمتع في الوقت عينه بحرية واسعة تجاهها. "فالكنائس تعطي للمجلس تفويضا، كما يقول فيليب

بوتر، ولكنه لا يمارس عليها اية سلطة. انه لا يتمتع فقط بنوع من حرية العمل، بل ان ما يقوله ويعمله هو بمثابة تحد كبير في الغالب، للكنائس الاعضاء". فدور المجلس هو، إذن، دور المحرك والدافع. غير ان ذلك لا يتم دوما من دون صعوبات.ويبدو ان من مواضيع الخلاف الكبرى تاتي القضايا الاجتماعية والسياسية في الصدارة، حيث يتبنى المجلس، منذ ١٩٦٨، برنامجا رياديا لدعم النضال ضد العنصرية والقمع في جنوب افريقيا.

ولكن مشاكل اشتغال الماكنة تأتي بالدرجة الاولى، من تباين المدارس الفكرية والثقافية وممارسة السلطة في كل كنيسة من الكنائس الاعضاء. فمن جهة، اذا ضم المجلس اكثر من ٣٠٠ كنيسة، فغالبيتها ليست سوى مسميات مختلفة لتيارات فكرية متجانسة او مختلفة بحسب الظروف التاريخية التي ولدت فيها. واذا كان من غير السهل تصنيفها بدقة، فهي تنتسب، على كل حال، الى ثلاث كتل كبرى هي البروتستنتية، والبطريركيات الارثوذكسية الغربية (اليونانية- السلافية)، والكنائس الشرقية اللاخلقيدونية. والبروتستنتية ذاتها متفرعة الى مئات الكنائس منذ القرن ١٦ بحكم الظروف السياسية والثقافية.

لذا، ان كان تمثيل الكنائس في المجلس يتعلق بالعضوية العددية فقط، فلن يكون للبطريركيات الارثوذكسية السبع عشرة أي ثقل في هذه الحالة، وكذلك الكنائس الشرقية الست التي لم تعترف بمجمع خلقيدونية (٤٥١)، كالارمن والاقباط السريان، لذلك يحاول المجلس جهد امكانه ان يخلق توازنا عن طريق تمثيل يتناسب وعدد اتباع كل كنيسة، او مع مكانتها التاريخية في التقليد الكنسي.. ولكن هل الموضوع حسابي الى هذا الحد، يا ترى؟

هذه المشكلة تشكل معوقا حقيقيا لا يمكن التغاضي عنه، والا قد يتحول المجلس الى مجرد حلقة نقاش ساكنة وعقيمة. بينما الغاية منه هي ان تجد الكنائس، كل الكنائس، جوا من الحرية والارتياح اللذين يساعدان على التلاقي واكتشاف عناصر الوحدة القائمة بينها او المطلوب العودة اليها.

الموقف الكاثوليكي من المجلس

لا زال السؤال الكبير المطروح هو: لماذا لا تدخل الكنيسة الكاثوليكية في هذا المجلس حتى الان كعضو اصيل؟ ولكن من هذا السؤال، تتفرع اسئلة اخرى لا تقل اهمية بالنسبة الى مفهوم الكنيسة الكاثوليكية عن ذاتها وعلاقاتها مع سائر الكنائس الشقيقة. فاذا دخلته، هل تدخله كمسمى شامل، أي ككنيسة واحدة، ام ككنائس خاصة (كنيسة فرنسا، كنيسة المانيا، كنيسة زائير، كنيسة الفليبين)؟ ماذا سيكون موقع كنيسة روما في هذه الحال؟ والكنائس الكاثوليكية الشرقية؟ واذا دخلته ككنيسة واحدة، افلا يؤثر ذلك على الاسس القانونية التي سار عليها المجلس حتى الان؟

في الواقع، لا يمكننا تحديد الموقف الكاثوليكي تجاه مجلس الكنائس العالمي الا اذا رأيناه من زاوية الحوار المسكوني ككل. فالقضية في الاساس ليست في الدخول او عدم الدخول

في المجلس، بل في السير الجاد نحو الوحدة من خلال الحوار القائم، ومن هذه الزاوية بالذات، أليس من الافضل الا تدخل الكنيسة الكاثوليكية -بثقلها العددي واللاهوتي والتاريخي- في المجلس كعضو، مع بقائها في اتصاله وثيق باعماله وتطوير طرق تعاونها وتضامنها ومشاركتها في نشاطاته.

ففي مجال الحوار المسكوني، قطعت الكنيسة الكاثوليكية شوطا كبيرا "وقد اهتدت فعلا الى الحوار الوحدوي"، كما يقول الاب كونكار الدومنيكي، احد اقطاب اللاهوت الكاثوليكي في عصرنا(٤). لقد فهمت ان الوحدة لا تعني تجانس الاراء، ولا احد اليوم يمكنه ان يعتبر الوحدة المسيحة اذابة الاخرين في قالبه او صهر الاجتهادات اللاهوتية في بوتقة واحدة.

فالموقف الكاثوليكي في بطئه ليس رفضا بقدر ما هو تريث، وذلك لسببين:

١- الوحدة ليست عودة الى ما قبل الانفصال. فكل كنيسة يجب ان تحترم وتفهم عقائدها في نطاق مسيرتها في الزمان، والتقارب لا يستطيع ان يمسح حصيلة هذه القرون التي تلت الانقسامات. ويبدو ان هناك نضوجا لا يكفله الا الوقت.

٢- على الكنائس ان تضع التعابير الخاصة بالايمان في اطارها الثقافي والحضاري الذي نبعت منه، ومن ثم اعادة النظر فيها -أي في التعابير- على ضوء معطياتنا الحاضرة وطموحات المستقبل. "فليس المطلوب ان نتنازل، بل ان "نضع" كل عقيدة -مع التعبير عنها- في مكانها على ضوء الكتاب المقدس"(٥)، أي ان نعيد النظر في معرفتنا المتأثرة بعوامل تاريخية، ثقافية، اجتماعية، وعملية. ويكتب الاب اندريه دي هاليه: "ان تاريخ الانفصال بين الشرق والغرب يمكن ايجازه بانه تطور متفاوت لعقائد لاهوتية بحتة. لذا، فطريق المصالحة الحقيقي يمر بعكس هذه العملية: أي ان الكنيستين ان تقبلا بالاعتراف الواحدة بالاخرى ضمن تراثها وفهمها للايمان المشترك"(٦).

ان موقف الكنيسة الكاثوليكية تجاه مجلس الكنائس العالمي اليوم يختلف عن الماضي (انظر الاطار). فهي، بالرغم من عدم عضويتها، تتمثل فيه بفريق من اللاهوتيين يعملون سوية مع الارثوذكس والبروتستنت، ويجتمعون مرتين في السنة. ولها في كل مؤتمرات واجتماعات المجلس مراقبون رسميون تنتدبهم سكرتارية اتحاد المسيحيين. وقد سارت الكنيسة مسارا متوازيا مع المجلس في مبادراته الوحدوية ومد الحركة المسكونية بزخم متميز لا ينكر، لا سيما في اعقاب المجمع الفاتيكاني الثاني الذي خصص وثيقة كاملة للحركة المسكونية، نقرأ في ختامها: "يرغب المجمع بالحاح ان تنمو مبادرات ابناء الكنيسة الكاثوليكية، متحدة مع مبادرات الاخوة المنفصلين، دون وضع اية عقبة في طريق العناية الالهية، ودون ان يستبقوا باحكامهم دوافع الروح القدس المستقبلة" (القرار- ٢٤).

"المنضدة الثلاثية الارجل اكثر توازنا"

لا شك ان للكنائس الارثوذكسية داخل مجلس الكنائس مكانة متميزة. فهي، بالرغم من ممارستها عضويتها بشكل كامل منذ البداية، لم تكفّ ابدا عن تحذير المجلس من الوقوع في نزعة مبدأ الشمولية البروتستنتية (Panprotestantisme).

وقد عبرت هذه الكنائس، في مؤتمرات واجتماعات عديدة، عن تحفظها تجاه كثير من النصوص والمقررات التي اتخذها المجلس في ظروف خاصة، كما حدث في مؤتمر ايفانستن (١٩٥٤)، مثلا، حين ابدت الوفود الارثوذكسية تحفظها تجاه بعض المواقف اللاهوتية حول مفهوم الكنيسة.

فخلاصة القول ان وجود الارثوذكس المتزايد في المجلس حمل اليه غنى عظيما وثقلا كنسيا مرموقا في الحوار المسكوني. اما لماذا تعاطفت الكنائس الارثوذكسية قبل الكاثوليكية -بالرغم من تجانس لاهوتهما الكنسي- مع المجلس، فيعود الى عاملين رئيسيين:

أ- منذ زمن بعيد كانت الكنائس البروتستنتية (او النابعة من حركة الاصلاح في القرن ١٦) تشعر بانها اقرب الى الارثوذكسية مما الى الكثلكة.

فالارثوذكسية اقل قانونية واكثر صوفية، مما يجعلها اقرب الى البروتستنتية التي نشأت عن اعادة نظر جذرية في مفهوم السلطة وصلابة القانون.

ب- اللاهوت الارثوذكسي الكتابي والتقليدي اقل حدة وجدلية من اللاهوت الكاثوليكي. وقد ساعد ذلك في اهتمام الكثير من اللاهوتيين الارثوذكس المحدثين بحركة الاصلاح. وجاءت الظروف الثقافية والتاريخية في القرنين الماضيين لتجعل رعايا الكنائس الارثوذكسية والبروتستنتية في احتكاك مباشر، مما دفع باللاهوتيين الارثوذكس الى الدراسة في الجامعات الانكلو- سكسونية، فاستلهموا منها في لاهوتهم. ولقد ساعد ذلك على التقارب بين التيارين الارثوذكسي والبروتستنتي وخفف بصورة خاصة من حدة الارثوذكس تجاه موقف بعض الغلاة من البروتستنت، كما خلق ذلك عند هؤلاء قبولاً لبعض المفاهيم المشتركة بين الارثوذكس والكاثوليك، فساهم ذلك في التقارب المسيحي العام، لا محالة.

ولما لحقت الكنيسة الكاثوليكية بتيار الحوار المسكوني المعاصر واصبحت فيه طرفا فاعلا، اندفع هذا التيار بزخم مضاعف وبعمق لم يسبق له مثيل. لذا لا نتردد في القول ابدا: ان كان من المسلّم به ان التفاهم بين الاركان الثلاثة (البروتستنت- الارثوذكس- الكاثوليك) هو اكثر تأثيرا وفاعلية على حركة الوحدة المسيحية، فهو اسهل بكثير، في الوقت عينه، مما لو كان ينحصر بين البروتستنت والارثوذكس، لان الكنيسة الكاثوليكية طرف كامل مع كلا الجانبين ومكمل للتوازن في الحوار.

مجلس الكنائس العالمي مذاق اولي للكنيسة الواحدة

ليس المجلس كنيسة، ولا هو "سوبر كنيسة" فوق الكنائس، ولا يدعي السلطة او الوصاية على احد. انه واسطة لا هدف. فوجوده يطرح على ضمائر جميع المسيحيين مشكلة انقسامهم، ويذكرهم بوجوب البحث عن سبيل يقودهم الى الوحدة. ان المجلس مجرد مكان للتعايش وقبول الاختلافات القائمة بين الكنائس الاعضاء، لتخرج عن ذاتها وتكتشف الاخر ازاء انتظارات العالم منا.

فاذا كانت الغاية القصوى هي التوصل الى شركة الاسرار والتقدم نحو كنيسة واحدة جامعة رسولية حيث يقدر المسيحيون كلهم ان يتقاسموا الخبز الواحد، فحينذاك ينبغي للمجلس ان يقتنع من ان رسالته زائلة اذا زالت الانقاسامات وتحققت الوحدة، كأي جهاز مرحلي يزول بزوال اهدافه. فمهمته الاولى هي، اذن، ان يدربنا على تذوق الوحدة التي نسعى اليها بتلمس. انه مؤسسة تسعى لخلق ظروف الانفتاح والاتفاق بين الاعضاء ليعبروا من مرحلة التعايش الى مرحلة المشاركة الحقيقية. بكلمة، انه مرحلة اعداد العدة لعقد "المجمع المسكوني" الشامل لكل كنائس المسيح.

هذا هو الطريق الذي يسير فيه. ففي مؤتمر نيروبي (١٩٧٥) دخلت فقرة جديدة من مشترعات المجلس تبين ان من مهامه الاولية ان "يدعو الكنائس للطموح نحو الوحدة المنظورة، نحو ايمان واحد وجماعة اوخارستية واحدة". وفي هذه السنوات الثمان الاخيرة تحققت خطوات جبارة ليس في العمل المشترك حسب، بل على الصعيد اللاهوتي ايضا، منها "وثيقة العماذ والاوخارستيا والكهنوت" الشهيرة التي جاءت حصيلة سنوات من العمل والحوار والدراسات المشتركة، قامت بها لجنة الايمان والقانون المتكونة من ١٢٠ لاهوتيا ارثوذكسيا وبروتستنتيا وكاثوليكيا من جميع انحاء العالم. وجاءت هذه الدراسة، في رأي اللجنة، كافية الاتزان ومتطابقة مع ايمان الكنيسة الرسولي وقادرة على فتح مرحلة جديدة في البحث عن الوحدة المنظورة. وقد اكدت الكنائس الارثوذكسية في اجتماع عقد في صوفيا مؤخرا: ان كان هذا العدد الكبير من اللاهوتيين المنتمين الى تقاليد مختلفة، قد توصلوا الى نص موحد حول الاسرار، فهذا يعني تقدما ملموسا في طريق الوحدة.

٣٥ سنة مرت على تأسيس المجلس، واذا كان في البداية اشبه بمنتدى للاراء والافكار، فقد تحول، شيئا فشيئا، الى ملتقى للكنائس الشقيقة، وساعد كلا منها على تعميق علاقتها بشقيقاتها، وصولا الى اللقاء الحقيقي في المسيح الواحد.

ولكن، كلما ازداد التقارب بين الكنائس ، كلما اصبح دور المجلس اكثر رهافة واصعب تعريفا. لان لغتنا اللاهوتية المعاصرة، ان كانت غنية بتعابير الانقسام والاختلافات، فهي لا تحتوي على الكلمات اللازمة لوصف الحالة النادرة التي نجد انفسنا فيها الان. فنحن بين التفكك والتماسك، بين الانقسام والوحدة، ولكن "ينبغي علينا بالاحرى ان نعيش

حقيقة تتعدى الالفاظ، على ان نعيش الفاظا اغنى من الحقيقة التي تضمها، كما قال الراعي فان هوفر، اول سكرتير عام للمجلس.

ان مجلس الكنائس العالمي هو، في الواقع، هذا "الشاهد النبوي" الذي يعمل "تحت تأثير الروح القدس ونعمته الفياضة"(٧)، بالصلاة والقول والعمل، للوصول الى ملء تلك الوحدة التي يريدها يسوع المسيح لتلاميذه.

مجلس الكنائس العالمي

١٩١٠– ادنبرة: الكرازة بالانجيل في العالم
١٩٢١– المجلس العلمي للكرازة

١٩٢٥– مؤسسة المسيحية العملية

– ستوكهولم: مؤتمر المسيحية العملية
١٩٢٧– لوزان: مؤتمر حركة الايمان والقانون

١٩٤٨– امستردام: تاسيس مجلس الكنائس العالمي (١٤٧ كنيسة)

١٩٥٢– اجتماع لوند (السويد)
١٩٥٤– المؤتمر ١: ايفانستن (اميركا)
١٩٦١– المؤتمر ٢: نيودلهي (الهند) ١٨١ كنيسة

١٩٦٣– المؤتمر ٣: مونتريال (كندا)

١٩٦٨– المؤتمر ٤: اوبسالا (السويد) ٢٢٣ كنيسة
١٩٧٥– المؤتمر ٥: نيروبي (كينيا) ٢٧٧ كنيسة

١٩٨٣– المؤتمر ٦: فانكوفر (كندا) ٣٠٠ كنيسة

الكنيسة الكاثوليكية والمجلس

١٩٢٨– بيوس ١١ يمنع الكاثوليك من المشاركة في المحاولات المسكونية
١٩٤٨– روما ترفض اشتراك مراقبين كاثوليك في مؤتمر امستردام

لاهوتيون يهتمون بالمجلس
١٩٥٢– المؤتمر الكاثوليكي لقضايا الحوار.
حضور مؤتمر لوند. حوار غير رسمي

١٩٥٨– للمرة الاولى حضور لاهوتي كاثوليكي في الاجتماع المركزي للمجلس
١٩٦٠– تاسيس سكرتارية اتحاد المسيحيين.
– روما ترسل رسميا لاهوتيين الى اجتماع لجنة "الايمان والقانون"

١٩٦١– مراقبون كاثوليك في مؤتمر نيودلهي
١٩٦٣– مراقبون ارثوذكس وبروتستنت في المجمع الفاتيكاني الثاني
١٩٦٤– قرار مجمعي في الحركة المسكونية
١٩٦٥– فريق مشترك دائم بين الكاثوليك والمجلس.. ثم تعاون وثيق مستمر..

---

(١) حركة دينية اصلاحية قادها في اكسفورد عام ١٧٢٩ تشارلز وجون ويزلي.
(٢) نظام متبع عند البروتستنت يقضي بأن يكون لكل ابرشية استقلالها الذاتي.
(٣) بضعة لآف في اوربا ممن لم يعترفوا بالمجمع الفاتيكاني الاول– ١٨٦٠.
(4) Yves Congar: Diversité et communion, Cerf, Paris, 1982, p. 236.
(5) Th. Sartory, Mut zur Katholizitat, Salsburg, 1962. P. 447.
(6) A. De Halleux, Pluralisme et scolastique, Exclusivisme dogma tique ou pluriformité théologique? in Revue Théologique, Louvain, 4, 1973, p. 409 ss.
(٧) قرار مجمعي في الحركة المسكونية رقم ٤.

□مفهوم الانسان على ضوء سر الافخارستيا(*)

كانون الثاني/ ص٣٣ — ٣٩ الاب عبد السلام حلوة

+ المشارقة، هراطقة ام مستقيمو الايمان؟

شباط/ ص٨١ - ٨٨ الاب لويس ساكو

- المسيحية في المغرب العربي

آذار/ ص١٢٩ - ١٣٦ الاب جرجس القس موسى

- هل سيكون لنا كهنة؟ أي نوع من الكهنة نريد؟/ مناقشة

نيسان — آيار/ ص١٧٧ — ١٨٤ الاب بيوس عفاص

- هولندا: كنيسة رائدة تعيش في قلق

حزيران/ ص٢٢٥ — ٢٣٢ الاب بيوس عفاص

- المسيح بين الانجيل وعلم اللاهوت

آب — ايلول/ ص٢٧٣ — ٢٨٠ الاب لويس ساكو

● عدد خاص: الانسان.. على صورته ومثاله(**)

ت١ — ت٢/ ص٢٨٩ — ٢٨٤

+ جماعات القاعدة في الكنيسة: جماعات مختلفة في كنيسة واحدة

كانون الاول/ ص٤٣٣ - ٤٤٠ الاب يوحنا عيسى

(*) نشر هذا الملف في "كتاب رحلوا"/ ص٤٣–٥١.

(**) اثبتنا في "المختار من الاعداد الخاصة" المقالات التالية: صورة الله والانسان عبر التاريخ (أ. يوسف توما)، الانسان مركز فكر المسيح من خلال الانجيل (أ. افرام سقط)، نظرة لاهوتية معاصرة للانسان (أ. لوسيان جميل)، الله وقيصر — او البعد الآخر للانسان (اوليفييه كليمان)، الاسرار من اجل الانسان (أ. يوسف عتيشا).

ملف شباط ١٩٨٤ .... الاب لويس ساكو

المشارقة هراطقة أم مستقيمو الايمان

"اقنوم"، "طبيعة وطبيعتان" "كيانا"، "فرصوفا" الخ... كلمات طالما تحارب من أجلها الاخوة في المسيح الواحد، وتراشق الاساقفة، خدام الانجيل الواحد، بالحرومات... حتى انشطرت الكنيسة الواحدة الى اجزاء متباعدة، متباغضة.. ومن ثم متجاهلة منكفئة على ذاتها.

اليوم، وفي اعقاب المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، وعلى ضوء قراءة جديدة لتلك العبارات في اطارها الثقافي والتاريخي وحتى السياسي والنفسي، وبروح الانجيل، نعود لنرى ان تلك الانقسامات ما هي الا انقسامات لفظية. انما الحوار البناء والقبول بالتعددية الفكرية واحترام خصوصيات هذا الفكر اللاهوتي او ذاك في اسلوبه التعبيري ضمن اطار وحدة الايمان.. هو الذي يوصلنا الى المسيح الذي لا يتجزأ ولا يجزئ.

هذا ما يتوخاه الاب لويس ساكو في محاولته التالية، وفي هذا المناخ الفكري ينبغي ان يقرأ مقاله؛ فهو ليس جدالا ولا خطابا دفاعيا، بل انفتاحا وتفهما.

ان العودة الى اصول فكرنا المشرقي وخصوصيتنا اللاهوتية أمر ضروري اذا أردنا ألا تذوب هويتنا الخاصة. فالاهتمام بالتراث المشرقي الفكري والتعمق فيه يسّهل علينا اكتشاف المنابع الاصيلة التي غذت اباءنا وساندتهم خلال تاريخهم المجيد، ويزيل كثيرا من الغموض والشبهات. كما ان السعي الجاد لاحيائه بعقلية ناضجة منفتحة يساهم في اثراء وتطور لاهوت الكنيسة الجامعة وروحانيتها.

ان التراث المنقول من الرسل قد قُبل بصور وطرق عديدة منذ فجر الكنيسة، وفُسر تفسيرا مختلفا وفقا لاختلاف العبقرية والحضارة والاوضاع الحياتية. ومع الاسف، عوض ان يكون ذلك باعثا للتفاهم المتبادل، غدا سببا للانقسام والتباعد، لان كل جماعة قيّمت الجماعة الاخرى بحسب وجهة نظرها الشخصية وبحسب مقاييسها الخاصة من دون ان تفترض بان بامكان الاخرين ان تكون لهم العقيدة نفسها، وانما في تعبير لفظي وفكري مختلف. ولكن، الحمد لله، قد تغيرت الاوضاع بسبب الدراسات التي تمت حول التراث الفكري المشرقي والانفتاح على الاخرين، والرغبة في وحدة الايمان بين المسيحيين، والايمان بالتعددية الفكرية حتى داخل الجماعة الواحدة. فما كان في الامس يعتبر هرطقة، اصبح اليوم امرًا مقبولا على الصعيدين الفكري والتطبيقي (انظر الاطار: المجمع الفاتيكاني).

ومحاولتنا هذه تسعى، وفق منهج علمي قويم، الى إلقاء الضوء على قضية رئيسية في الفكر المسيحي الشرقي والغربي معا، وهي: هل هناك اختلاف عقائدي بين المشارقة (النساطرة)[1] والكاثوليك حول الايمان بشخص المسيح، الاله الكامل والانسان الكامل، ام انه مجرد اختلاف تعبيري لفظي لا يمس جوهر العقيدة؟

المصطلحات الفلسفية - اللاهوتية

لندرس، قبل تناول لاهوت المسيح (الكريستولوجيا) عند المشارقة، المصطلحات الفلسفية، كي نرى هل هي مرادفة للمصطلحات اليونانية اللاتينية (الكاثوليكية) ام تختلف عنها؟ وهل يوجد اختلاف بين مصطلحات السريان المشارقة (النساطرة) والسريان المغاربة (السريان الارثوذكس)؟ ذلك ان غالبا ما ترجم اللاهوتيون الغربيون والمستشرقون هذه المصطلحات وكأنها مترادفة للمصطلحات اليونانية- اللاتينية، مما ادى الى اخطاء فادحة ونتائج وخيمة على الاصعدة اللاهوتية والكنسية.

ومن هذه المصطلحات التي تتعلق بلاهوت المسيح مباشرة العبارات التالية:

"كيانا" ܟܝܢܐ

يقابل لفظة "كيانا" في العربية عبارة "الكيان" و "الطبيعة". غير انها تختلف عن (physis) اليونانية و natura اللاتينية. "كيانا" السريانية المشرقية تشير الى **الطبيعة بشكل عام مجرد وليس الى الطبيعة الخاصة**. ويدعوها المشارقة احيانا بالجوهر العام (اوسيا كوانيثا)، وهي مفهوم معنوي غير موجود الا في العقل.مثلا: الطبيعة البشرية.

اما السريان الارثوذكس، فلفظة "كيانا" (كيونو)، **فتعني في لاهوتهم "الشخص"**، لذا من الخطأ تسميتهم بالمونوفيزيين او القائلين بالطبيعة الواحدة؛ فايمانهم قويم، ومرادف الطبيعة عندهم هو (اوسيا) أي الجوهر(٢).

"قنوما" ܩܢܘܡܐ

ان "قنوما" هو اكثر المصطلحات تعقيدا وأصله غير معروف. نجده عند الاباء المشارقة مستعملا خارجا عن اللاهوت. فالقديس افرام يجعل "قنوما" و "شرارا" مترادفين فيقول مثلا: "اقنوم السماء والارض"(٣).

ان "قنوما" ليس مرادفا للفظة (hypostasis) اليونانية و Hypostase اللاتينية والتي تعني بالضبط الشخص (Person)، وانما **يشير "قنوما" السرياني الى ذات الفردية، الى الطبيعة الخاصة**. والاقنوم غير مستقل بل الشخص هو المستقل(٤). يقول ايشوعياب الجدالي (توفي ٦٤٦) معرفا لفظة "قنوما": "ان "قنوما" يشير الى "كيانا" (الطبيعة)، ويسمى بالطبيعة الخاصة عكس الطبيعة العامة، و "قنوما" غير منفصل وغير منظور"(٥). وباباي الكبير (٥٥١-٦٢٨) يقول: "اننا ندعو الاقنوم جوهرا خاصا.. وهو لا يحتوي على الشمولية"(٦). الشيء نفسه يؤكده ايشوعياب الثالث الحديابي (توفي ٦٥٩) في رسالته الى سهدونا: "كيف تجرؤ على خلط لفظة "شخص" (فرصوفا) بلفظة "قنوما".. ان الشخص هو الذي يبلور الاقنوم.. والاقنوم لا يحتوي على معنى اخر غير الطبيعة"(٧).

اذن، في هذا الاطار، وبحسب هذه المفاهيم في المفردات، يفهم القول ان المسيح شخص واحد في اقنومين متميزين: الهي وانساني، وليس في هذا القول أي انحراف عن

العقيدة الصحيحة اذا ما أخذنا كل لفظة بمحتواها الاصلي الخاص. وجدير بالاشارة ان "قنوما" عند السريان الارثوذكس مرادف للشخص.

"فرصوفا" ܦܪܨܘܦܐ

ان لفظة "فرصوفا" -الشخص- هي اللفظة اليونانية.... اما اللفظة السريانية الاصيلة فهي "آفا" ܐܦܐ= وجه. يقول طيماثاوس الكبير (توفي ٨٢٣):

"كذلك كلمة الله مع ناسوته "وجه" (شخص) واحد بلا انفصال ولا امتزاج بين الجوهرين (الاقنومين)"(٨).

ان "الشخص"، حسب المصطلح السرياني، يختلف عن "الاقنوم". "الشخص" هو مجموعة الاعراض والخواص التي تميز اقنوما ما (طبيعة) وتجعله فردا واحدا متميزا. يقول باباي الكبير: "ان الشخص هو الذي يميز الاقانيم. هكذا اقنوم بولس ليس اقنوم بطرس، ولو ان كليهما متساويان في الكيان (كيانا) والاقنوم، لانهما جسد ونفس، وهما اذا حيان وجسديان، ولكن "الشخص" هو الذي يميز الاول عن الثاني"(٩).

وهناك الفاظ اخرى يستعملها المشارقة للدلالة على شخص المسيح، منها "الابن"، "الوحيد"، "يسوع المسيح"، "الرب" و "الله الكلمة".

صورة المسيح

ان صورة المسيح، حسب الفكر المشرقي، صورة كتابية وتاريخية تتفق والتقليد الكنسي الشريف. وبعبارة اخرى يعتقد المشرقيون ان المسيح انسان كامل واله كامل، انسان حقيقي واله حقيقي؛ انه صورة الله وصورة العبد، كما ورد في الرسالة الى اهل فيلبي: "هو القائم في صورة الله.. لاشى ذاته آخذا صورة عبد" (فيلبي ٢:٥-٧). هذا الاعتقاد هو حجر الزاوية في حياتهم الروحية وركيزة ايمانهم بالخلاص الذي منحهم اياه الرب. فلو كانت انسانية المسيح مجرد وهم وخيال، كما تدعي بدعة الظاهريين Docetists، فكيف دخل الله الى صميم الانسانية ليقدسها؟ ولو كان المسيح فقط انسانا حسب تعليم بولس الشيشاطي (توفي ٢٦٠)، فكيف يكون جسرا به تنتقل الحياة الالهية نفسها الى الانسانية؟ فاتحاد اللاهوت بالناسوت في شخص المسيح يمكّننا -كما يؤكد الاباء المشرقيون- من الاتحاد بالله من دون ان تذوب انسانيتنا وتمحى. يقول ايشوعياب الجدالي: "نؤمن بشخص واحد في المسيح: اله كامل وانسان كامل. اله صار انسانا ليخلصنا، وانسان صار الها ليرفعنا الى لاهوته"(١٠).

المسيح شخص واحد

يعتقد كل الاباء المشرقيون ان المسيح شخص واحد، ويرفضون بشدة الادعاء القائل بأنهم يؤمنون بشخصين في المسيح، احدهما الهي والاخر انساني، غير ملازمين بالضرورة احدهما الاخر. هذا الادعاء ناتج، باعتقادنا، عن سببين:

١- سوء فهم المصطلحات الفلسفية- اللاهوتية لكريستولوجيا المشارقة. لقد ترجمت هذه المصطلحات وكأنها مترادفة للمصطلحات الغربية. فكلمة "قنوما" ترجمت بـ "شخص" وكذلك "فرصوفا"، وهذا خطأ مبين.

٢- سوء فهم طبيعة الاتحاد في شخص المسيح. فعندما يقول المشارقة ان الاقنومين (بمعنى الطبيعيتين؟) متحدان في شخص المسيح دون مزج، لا يقصدون اتحاد شخصين او ذوبانهما الواحد في الاخر. واليكم بعض الشهادات عن وحدة شخص المسيح، مقتبسة من مجامعهم المقدسة:

يقول مجمع اسحق سنة ٤١٠: "نؤمن بالرب يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الاب، أي من نفس جوهر الاب، اله من اله، نور من نور، اله حق من اله حق.. من اجلنا نحن البشر ومن اجل خلاصنا صار انسانا"[١١].

ومجمع اقاق سنة ٤٨٦ يقول: "اذا لم يصن احد شخص مخلصنا الواحد بالاعتراف بأنه اله كامل وانسان كامل، فليكن محروما"[١٢].

ومجمع يوسف (٥٥٤) يؤكد وحدة الشخص هذه قائلا: "... كل من يعتقد بوجود مسيحين، او ابنين، لاي سبب كان، او يدخل بأي شكل من الاشكال رباعية الاشخاص (في الثالوث)، فليكن محروما"[١٣].

كذلك مجمع سبريشوع سنة ٥٩٦: "نؤمن بثبات وحسب قول الكتب المقدسة وروحها ووفقا لتقليد آبائنا القديسين، برب واحد هو يسوع المسيح، ابن الله الوحيد.. ونحرم ونقصي عن شركة ايماننا كل من ينكر طبيعتي المسيح: الالهية والانسانية ويدخل اليها المزج او الخلط او التركيب"[١٤].

ومجمع سنة ٦١٢ الذي فيه ترد لاول مرة لفظة "اقنوم" رسميا في كريستولوجيا المشارقة، يقول: "ان للمسيح طبيعتين (كيانين) واقنومين، غير انه (أي المسيح) واحد، ليس في الطبيعة والاقنوم، وانما في الشخص، الذي هو شخص الابن"[١٥].

وفي صورة ايمان البطريرك ايشوعياب الاول الارزني (توفي ٥٩٥) نجد التأكيد ذاته: "وحل في السيدة مريم العذراء من آل داود واتخذ له منها بفعل الروح القدس انسانا كاملا بالنفس والعقل، مثلنا في جميعها، سوى الخطيئة، واتحد به اتحادا لا انفصال له، وصار واحدا بالشخص والبنوة والقدرة مع بقاء الطبيعتين وخواصهما"[١٦].

اما ايشوعياب الجدالي، فيقول: "ان الطبيعتين متحدتان في شخص واحد برباط لا يزول"[١٧].

كذلك باباي الكبير: "يوجد في الاتحاد طبيعتان في المسيح، الهية وبشرية. ولكنه لا يوجد سوى ابن واحد وشخص واحد"[١٨].

وهذا الشخص الواحد مثبت من خلال ما يسمى في اللاهوت بتبادل الصفات (Communicatio idiomatum)، أي اننا ننسب الى شخص المسيح ما هو خاص

باحدى طبيعتيه، وان كانت هذه النسبة لا تقوم على المستوى ذاته، أي اننا نقول: تألم المسيح الاله، ونقصد بذلك انه تألم بالطبيعة البشرية. يقول الجدالي: "كل الالام والاوهان التي تخص الطبيعة البشرية تنسب الى اللاهوت شخصيا"[١٩].

في "اقنومين"

ان "كيانا" (طبيعة)، كما مر بنا، ليس له في الواقع وجود الا في الفكر، أي انه "فكرة منطقية في العقل للتمييز، و "كيانا" يوجد فقط في الاقنوم. ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن الكيانين البشري والالهي موجودان في اقنومين حقيقيين -أي في ذاتين خاصتين او طبيعتين خاصتين كما مر- يوحدهما شخص المسيح. وهذا الاتحاد ليس مجرد اتحاد ادبي او قانوني، وانما هو اتحاد صميمي في الشخص الواحد الاحد: المسيح. فالمشارقة لا يقبلون بالاتحاد الاقنومي بالمعنى الفيزيقي الذي يعني ذوبان طبيعة في طبيعة اخرى وزوال خواص احداها، بينما يؤكدون على ان **الاتحاد يتم في الشخص (فرصوفا)**، مما يجعلهم، بحسب مفرداتهم الخاصة، اكثر امانة على التقليدين الكتابي والكنسي.

ان الاتحاد في "الشخص" لا يعني اتحاد شخصين مستقلين او ابتلاع احدهما بالاخر، وانما اتحاد تحتفظ فيه كل طبيعة حقيقية ("اقنوم" بحسب القاموس المشرقي) بصفاتها وخواصها. يقول مجمع سنة ٦١٢: "ان اللاهوت والناسوت متحدان في شخص واحد هو شخص الرب يسوع المسيح"[٢٠]. ويقول الجدالي: "ينبغي صيانة الكيان والاقنوم الالهي في المسيح دون تغيير ولا تبديل.. كذلك يجب صيانة كيانه واقنومه البشري دون مزج ولا بلبلة.. هذا الشيء لم اقله جزافا، وانما اردت ا نابين من خلاله وجوب ظهور الاقنومين في شخص المسيح الواحد"[٢١].

واستعمل اللاهوتيون المشارقة الفاظا كثيرة اخرى للدلالة على الاتحاد، منها: "اتحاد"، "وحدة"، "سكن"، "لبس"، و "اتخاذ". وهذه العبارات يجب ان نفهمها في اطارها الحقيقي الذي وردت فيه وبحسب المعنى الذي استخدمه وقصده الكاتب. وفصلهما عن هذا الاطار يعتبر خيانة لفكر الكاتب وللعقيدة المعلنة، كما أسلفنا (انظر اطار الارفادي)

مريم والدة المسيح

يرفضون المشارقة تسمية العذراء مريم بعبارة "والدة الله" او "والدة الانسان" لان العبارة السريانية "يلداث الاها" ܝܠܕܬ ܐܠܗܐ بصورة مجردة غير دقيقة. فبامكان هذه العبارة ان تعني "والدة الله" او "والدة اللاهوت"، لان "الاها" ܐܠܗܐ اسم مشترك للاقانيم الثلاثة، لذا هناك خطر الالتباس من دعوتها كذلك، ويحبذون تسميتها "ام المسيح" لكون المسيح يجمع، في شخصه الواحد، اللاهوت والناسوت معا.

يقول مجمع سنة ٦١٢: "كيف يقدر من يدعو العذراء القديسة بالعبارة المجردة "والدة الله" ان يتجنب كفر الذين ينكرون بشرية المسيح؟ كذلك من يدعوها مجرد "والدة الانسان" كيف يقدر مخالفة اولئك الذين ينكرون لاهوته؟ وبما ان اسم المسيح يتضمن اللاهوت والناسوت معا، فمن يسميها "والدة المسيح" يمحي ويلاشي كفر من ينكرون لاهوته وكفر من ينكرون ناسوته"[٢٢].

شهادة علي بن داود الارفادي وهو سرياني ارثوذكسي (القرن الحادي عشر)

"فلما وجدت هذا الاختلاف (حول اتحاد لاهوت المسيح سيدنا بناسوته) الذي فرق بينهم -النساطرة واليعاقبة والملكية- وهو الذي ميز بعضهم من بعض..، نظرت في ذلك بحقيقة النظر دون الهوى والعصبية، فلم اجد في ذلك فرقا بينهم في حال من الاحوال. وذلك انهم اجتمعوا على تصحيح لاهوت المسيح سيدنا وناسوته واقروا باتحاده وانه لا فرق ولا انفصال بين اللاهوت والناسوت، وهم اجمعون يدفعون النقائص عن لاهوته ويلحقون الاوجاع والموت والالام عنه، من حيث لا يفرقون بينه وبين الناسوت عند حلول ذلك به.

وكان القائل بالاقنومين قد اقر لمن قال بالاقنوم الواحد من حيث قد اقر بالاتحاد وازالة الفرق والانفصال، وكان القائل بالاقنوم الواحد قد اقر لمن قال بالاقنومين باعترافه بوجود لاهوت المسيح وناسوته بغير استحالة ولا تغير. وكذلك ذو الطبيعتين قد اقر للذي الطبيعة الواحدة من اعترافه بالاتحاد وانه لا انفصال بين اللاهوت والناسوت، والقائل بالطبيعة الواحدة قد اعترف للقائل بالطبيعتين من اقراره بوجود اللاهوت غير المستحيل والناسوت غير الناقص. فمن حيث اختلفوا بالقول اتفقوا بالمعنى، ومن حيث تناكروا في الظاهر اجتمعوا عليه في الباطن، وكلهم الى ايمان واحد ينقادون وبدين واحد يؤمنون ولرب واحد يعبدون، ولا فرق في ذلك بينهم ولا انفصال الا من جهة الهوى والعصبية والرئاسة. ونعوذ بالله من ضلال الهوى وافراط العصبية".

"من كتاب اجتماع الامانة وعنصر الديانة وفخر الارثذكسية المجيدة، نشر وترجمة ترويو في مجلة "ملتو" ٣(١٩٦٩ ص ٢١١).

المشارقة ونسطوريوس

نسطوريوس هو بطريرك القسطنطينية (٤٢٨-٤٣١)، حرم في مجمع افسس سنة ٤٣١ لاسباب خارجية اكثر منها عقائدية. والمشارقة كانوا في الواقع منذ فجر تبشيرهم منعزلين عن بيزنطيا لاسباب سياسية، لذا فقد نشأ لاهوتهم مستقلا عن التأثير البيزنطي. يقول طيمثاوس الكبير: "ان مسيحيتنا هي قبل ميلاد نسطوريوس بنحو ٥٠٠ سنة، وكان لنا ملافنة عظام قبل نسطوريوس"[٢٣]. ويؤكد هذا القول عبد يشوع الصوباوي: "ان المشرقيين لم يغيروا مطلقا حقيقة معتقدهم، بل حافظوا عليها كما تسلموها من الرسل. ولقد سموا نساطرة ظلما. فنسطوريوس لم يكن بطريركهم ولم يكن لهم معرفة بلغتهم"[٢٤]. وأول مرة يرد اسم نسطوريوس في مجامعهم كان سنة ٦١٢ في اجتماع تم في بلاط كسرى، اكد فيه

الاساقفة صحة ايمانهم ببراهين من الكتاب المقدس وكتب ملافنتهم الذين سبقوا نسطوريوس[٢٥]. وفي الرسالة العقائدية التي كتبها كيوركيس الاول سنة ٦٨٠ يقول: ان عقيدة المشارقة ليست من استنباط نسطوريوس وتيودورس، ويؤكد صحتها بشهادات مقتبسة من ملافنة كثيرين، شرقيين وغربيين، دون ذكر نسطوريوس[٢٦].

تقييم

هذه هي الكريستولوجيا (أي لاهوت المسيح) التي عبر عنها الاباء المشرقيون والتي تعكس بوضوح نظرة كنيستهم الرسمية. وهذه الكريستولوجيا هي قويمة وتتفق مع التقليد الرسولي بالايمان الواحد في المسيح الاله الكامل والانسان الكامل، وليست اقل صحة من كريستولوجيا الغربيين. فالاختلاف هو اختلاف تعبيري لفظي لا يمس جوهر الايمان ابدا[٢٧]. وباعتقادنا ان هذا اللاهوت الذي تجمعت فيه الروح والاصالة هو جزء لا يتجزأ من لاهوت كنيسة خاصة استخدمت عبقريتها الشخصية وتصوفها الشرقي لتعبر عن ايمانها وتجعله اكثر حيوية وعمقا وثباتا، هذا الايمان الذي هو قضية حياتية اكثر مما هو مجرد ميتافيزيقية.

> **المجمع الفاتيكاني والتراث الشرقي**
>
> **"اما التقاليد الشرقية الصحيحة، فتعترف بانها كانت متأصلة تأصلا عميقا في الكتاب المقدس، معززة بالحياة الطقسية التي تعبر عنها، وتتغذى من تراث الرسل الحي وكتابات الاباء الشرقيين والمؤلفين الروحيين. وهي تفضي الى طريقة في الحياة مستقيمة، بل الى تأمل عميق في الحقيقة المسيحية... ان كنائس الشرق تملك منذ البداية كنزا استمدت منه كنيسة الغرب الكثير مما يتعلق بالقضايا الطقسية والتقليد الروحي والنظام القانوني. فنحن نقدر حق التقدير هذا الواقع".**
>
> **(قرار مجمعي في الحركة المسكونية ١٧ و ١٤).**

واليوم، اكثر من أي يوم مضى، وبعد انفتاح المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، على الكنائس الشقيقة والحضارات الاخرى المختلفة ان تؤمن بتعددية كهذه في الفكر المسيحي الذي يصب في اخر المطاف في الينبوع الواحد.

---

(١) يسمون اليوم بالنساطرة او الاشوريين، في حين ان التسمية الاصح هي "السريان المشارقة" كما وردت في الوثائق التاريخية.

(2) Wigram,W.A., The Separation of the Monophysites, London 1923, p. 199.

(3) Morris, J.B.,Select Works of S. Ephrem the Syrian, Oxford 1847, p. 382-383.

(٤) عن تقديم الثالوث الاقدس للمسلمين بواسطة لفظة "قنوما"، طالع رسالتنا للماجستير في الدراسات الاسلامية بعنوان "المناظرات بين المسيحيين والمسلمين في اللغة السريانية من القرن السابع وحتى الثالث عشر" (غير مطبوعة) ص٢٤.

(٥) طالع لويس ساكو، "رسالة ايشوعياب الجدالي عن شخص المسيح (وهي رسالتنا للدكتوراه)- بالفرنسية. روما ١٩٨٣ ص ١٥١.

(٦) باباي الكبير، "كتاب الاتحاد" ص ١٢٩.
(٧) ايشوعياب الحديابي، "الرسائل"، رقم ٦ ص ٩٧.
(٨) طيمثاوس الكبير، "الجدال مع المهدي"، نشر روبيرت كسبار في مجلة "اسلامو كريستيانا" عدد ٣ (١٩٧٧) ص ١٢٧.
(٩) باباي الكبير، "كتاب الاتحاد" ص ١٢٩.
(١٠) ساكو، "الجدالي" ص ١٢٢.
(١١) كتاب المجامع الشرقية، ص ٢٦٢.
(١٢) كتاب المجامع ص ٥٥.
(١٣) المصدر نفسه ص ٩٨.
(١٤) المصدر نفسه ص ١٩٤.
(١٥) المصدر نفسه ص ٢٠٩.
(١٦) المجدل، لعمرو، ص ٤٥.
(١٧) ساكو، "الجدالي" ص ١٥٣.
(١٨) باباي الكبير، "كتاب الاتحاد" ص ١٠٥.
(١٩) ساكو، "الجدالي" ص ١٥٣
(٢٠) ساكو، "الجدالي" ص ١٥١.
(٢١) كتاب المجامع، ص٥٧١ وكذلك طالع باباي الكبير، كتاب الاتحاد ص ٩٩ والصوباوي، كتاب الجوهرة، من تعريبنا، ص ٢٤.
(٢٢) بيداويذ، "رسائل طيمثاوس الكبير، النص السرياني لرسالته الى رهبان مار مارون" ص ٤٢.
(٢٣) المصدر نفسه.
(٢٤) الجوهرة، ص ٣٦.
(٢٥) كتاب المجامع ص ٥٩٢.
(٢٦) المصدر نفسه ص ٥٠٠
(٢٧) في مناسبتين رسميتين اقرت الكنيسة الرومانية بصحة كريستولوجيا المشارقة. الاولى لدى زيارة الراهب صوما للبابا نيقولاوس الرابع سنة ١٢٨٨ حيث اعلن ايمانه بكيانين واقنومين في المسيح متحدان في شخص واحـــد (شابو: قصة يابالاها الثالث والراهب صوما، ص ٩٤). والثانية في صورة ايمان سولاقا سنة ١٥٥١ عند اقتباله الرسامة الاسقفية في روما (فوستي، حياة سولاقا، ص ٢١٠-٢١١).

جماعات القاعدة في الكنيسة

"جماعات القاعدة" ليست مؤسسة بديلة للخورنات القائمة ولا نشاء ان تكون "كنيسة" بوجه الكنيسة الرسمية أو "سلطة" بازاء السلطة الكنسية، وانما هي حركة الروح في كنيسة تسعى قاعدها الى عيش الايمان في خضم التحولات التي طرأت وتطرأ على المجتمعات البشرية.

هذا الملف للاب يوحنا عيسى لا يهدف الى التعريف بجماعات القاعدة (راجع ف. م. حزيران ١٩٧٧)، وانما يعكس نماذج من مسيرة بعض هذه الجماعات في كل من البرازيل- امريكا اللاتينية، وزائير- افريقيا، والمجر- اوربا الشرقية، وكلها تسعى، مع اختلاف اوضاعها وتوجهاها، الى تجسيد الالتزام الانجيلي في الواقع الحياتي.

لقد كثر الكلام في السنوات الاخيرة، لا سيما عندما يأتي الحديث عن الكنيسة في امريكا اللاتينية أو افريقيا، عما يدعى بـ "جماعات القاعدة". فقد تحدث عنها البابا بولس السادس نفسه في رسالته حول اعلان الانجيل، كما اهتم بها كثيرا سينودس الاساقفة العام المنعقد في روما في ٦ تشرين الاول ١٩٧٤.

وأما ما نتوخاه نحن في هذا الملف حول جماعات القاعدة، فهو ليس التعريف بهذه الجماعات، ولا بيان الاسس اللاهوتية التي تقوم عليها[1]، وانما القاء الضوء على ايماها الذي تعيشه وكيف يتجسد في واقع البلدان التي نشأت وترعرعت فيها، معتمدين في ذلك مجلة A. R. M, "الشؤون الدينية الراهنة".

١ - جماعات القاعدة، ما هي؟

المقصود بجماعات القاعدة، ليس فقط جماعات الصلاة التي تجمع مؤمنين من فئات معينة في مناسبات معينة، وانما خاصة هذه الفرق المؤلفة من علمانيين يجتمعون بانتظام - بحضور كاهن أو من دونه- ويسعون الى عيش ايماهم المشترك في جماعة، وفي تضامن على مستوى انساني وربطه بمعانياهم الحياتية الفردية والجماعية.

وهذه الجماعات الاخذة بالازدهار تختلف عن بعضها البعض، من بلد الى اخر، ومن منطقة الى اخرى، وحتى في البلد الواحد؛ وهي متباينة كذلك من حيث عدد الاعضاء والحاجات التي تجاوب اليها، ومن حيث موقفها من الكنيسة الرسمية وموقف هذه منها. ففيما قامت وتقوم جماعات القاعدة في اوربا وكأها على هامش الكنيسة الرسمية أو مستقلة عنها، فلقد صرح احد الكهنة في البرازيل لمراسلة المجلة المذكورة اعلاه، مارلين توينكا، بان

جماعات القاعدة في البرازيل "جماعات واعية تماما بانتمائها الى الكنيسة وبالدور الذي يجب ان تلعبه في تغيير المجتمع". كما حددت رسالة صادرة عن مجلس الاساقفة البرازيليين بان جماعات القاعدة "ليست حركة كنسية، وانما هي الكنيسة المنطلقة من الالتزام مع الفقراء".

ولكي نكون على بينة من هذه الاختلافات في اساليب عيش الايمان المشترك والمحبة الواحدة، نسوق ثلاثة نماذج من جماعات القاعدة هذه، من امريكا اللاتينية وافريقيا، ونموذجا اخر من البلدان الاشتراكية في اوروبا الشرقية.

٢- جماعات القاعدة في امريكا اللاتينية: نموذج البرازيل

تعتبر البرازيل الموطن الام لجماعات القاعدة حيث نشأت في النصف الثاني من الخمسينات، انطلاقا من تجربتين: التجربة الاولى، كانت لقاءات الاحتفال بالكلمة، وكان ينعشها علمانيون من دون كاهن. وأما الثانية، فكانت الاجتماعات التي كان الفلاحون يعقدونها لمتابعة دروس محو الامية بالراديو.

ولكن جماعات القاعدة هذه -وهي الموضع الوحيد للتعبير الحر في المجتمع البرازيلي- لم تعرف ازدهارا واسعا الا في اعقاب الانقلاب العسكري الذي وقع عام ١٩٦٤ وابتعاد عدد متزايد من الاساقفة عن تأييد الحكم[٢]. فبعد ان نالت هذه الجماعات اعتراف بعض الابرشيات الشمالية الشرقية وتشجيعها، سرعان ما حصلت على دعم مجلس الاساقفة البرازيليين كهيئة كنسية رسمية. وتعد البرازيل اليوم وحدها ما بين ٨٠ الف- ١٠٠ الف جماعة قاعدة، ويتراوح عدد اعضاء كل جماعة ما بين ٢٠-١٠٠ عضو. وقد اصبحت جماعات القاعدة مكانا ملائما لوعي كتابي، بل حتى لاهوتي وسياسي.

ومن بين جماعات القاعدة هذه، هناك اكثر من ٧٠٠ جماعة في مدينة ساوباولو وحدها، سجلت حتى نهاية ١٩٨٣. وتزدهر هذه الفرق في الاحياء الشعبية واحياء البورجوازية الصغيرة، لمعالجة الاوضاع وتلبية شتى الحاجات.

وتنشأ جماعات القاعدة عادة بمبادرة من كاهن او راهبة، وقد يستغرق انشاؤها عدة سنوات، قد تمتد احيانا الى عشر سنوات، كتلك التي يتحدث عنها الاب دومنيك باربي، وهو كاهن فرنسي يعمل منذ ١٩٦٨ في المنطقة التابعة لاسقفية أوساكو: "عشر سنوات لتشكيل فريق مختبَر بالمحن الداخلية والصراعات الخارجية التي يجابهها الاعضاء سوية. عشر سنوات لانشاء جماعة واعية تماما لانتمائها الى الكنيسة، ولما يتضمن هذا الانتماء، وللدور الذي يمكن ان تلعبه لتغيير المجتمع".

ولكن تلك القاعدة ليست عامة. فثمة جماعة يستغرق انشاؤها اقل من هذه المدة بكثير، فالامر منوط بما تعنيه كلمة "الجماعة" ومتى تبدأ. اما البنية الاساسية لجماعات القاعدة، فتتكون من الاحتفال بالقداس، اذا كان الكاهن حاضرا، أو يقتصر الاجتماع على قراءة من الكتاب المقدس، ومنها ينطلق المجتمعون لتحليل الوضع الاجتماعي والسياسي

العام، ولا سيما الوضع المحلي؛ فتحاول جماعات القاعدة معالجته على ضوء كلمة الله وايمانهم. وأما المشاكل التي تعالجها والقضايا التي تتناولها، فهي عديدة ومختلفة باختلاف طبيعة حاجات الحي والمنطقة؛ فهناك جماعات تصب اهتمامها على حل المشاكل الاجتماعية والعائلية، كالسكن مثلا، أو تعالج المشاكل الثقافية والراعوية، كفتح مدرسة في الحي، أو توعية الاهالي للمطالبة بحقوقهم، كالحصول على معلم لمدرستهم.

ومعظم جماعات القاعدة مرتبطة بخورنة ما، باستثناء جماعة واحدة مرتبطة مباشرة بحركات العمل الراعوي في الاحياء، والعمل الراعوي في الاوساط العمالية التابعة لرئاسة اسقفية ساوبالو. وان جماعة "جارديم سينها" في منطقة "بلم" الاسقفية، فهي تضم أكثر من مئتي طفل من حي يعد ٣٠٠٠٠ نسمة. وقد أنشأ هذه الجماعة راهبتان وفريق من شباب حركة راعوية موجهة لخدمة الاطفال.

وبالرغم من هذا التنوع وهذه الحيوية التي تمتاز بها جماعات القاعدة، فان مسيرتها لم تخل من مشاكل ومصاعب، سواء كان ذلك في ساوباولو أو غيرها من المدن والمناطق البرازيلية. ولعل ابرز هذه الصعوبات هي الازمة الناشئة عن ضرورة توضيح الهوية الخاصة للجماعات. ولقد نشأت الازمة بسبب نزعة العلمنة السائدة الان في المدن وبسبب تعدد الاحزاب. فجماعات القاعدة لم تكن تعرف الصراعات قبل اطلاق سراح الاحزاب، اذ لم تكن قد تعودت على التعددية الفكرية التي اخذت تعيشها الان بمرارة احيانا. ولكن معظم المراقبين يؤكدون بان اعضاء جماعات القاعدة أخذوا يعرفون تدريجيا كيف يميزون بين الاشياء ويضعونها في مكانها، حتى بالنسبة الى الملتزمين منهم على الصعيد السياسي، وأولئك الذين ربطوا بشكل وثيق بين ايمانهم والتزامهم.

أما في ما يخص الاساقفة البرازيليين انفسهم، فهم حريصون على وضع حدود وضوابط لهذا الالتزام ضمن الجماعات لئلا يعرقل عمل الانجيل. فليس المقصود هو تسييس جماعات القاعدة، ولا تحويلها الى حزب سياسي، ولا خلق مسيحية "يسارية"، والا فقدت "الجماعات" نفحتها النبوية، هذه النفحة التي بامكانها ان تمارسها على اصعدة اخرى، كالتوجه نحو القاصرين والدفاع عمن هم اقل حظا في ان يأخذ احد الدفاع عنهم. وهكذا يود الاساقفة اعطاء اندفاعة جديدة لجماعات القاعدة لتكون، كما قال الاب دومنيك بابري، "امكنة يقظة انجيلية وكتابية أكثر فاكثر، أمكنة تبشير بالانجيل، وتبشير يكون معناه تدمير ما يمنع مجرى الحب في حياة الجماعة وفي الحياة العائلية او الاجتماعية".

٣- جماعات القاعدة في افريقيا: نموذج زائير

جماعات القاعدة في افريقيا حديثة العهد، اذ يرقى تاريخ انشائها الى عشرة او خمسة عشر عاما. وقد ظهرت في مرحلة كانت تمر فيها افريقيا بازمة اقتصادية وسياسية. لذا فهي تشكل، من هذه الزاوية، جوابا على علامات الازمنة. ومذ ذاك عرفت انتشارا واسعا في كل القارة الافريقية. ولنا خير دليل على ذلك في زائير.

لم يكن قيام جماعات القاعدة في زائير نتيجة عمل عفوي، وانما نتيجة خيار راعوي من قبل الاساقفة الزائيريين. وهذا الخيار هو خيار من اجل كنيسة متجددة، من اجل كهنة وخورنة من طراز مختلف. فمنذ ١٩٧٠، كان من بين الاهداف لابرشية كينشاسا انشاء الجماعات. فقد قال المواطن كاتومبا بنيامين، احد منشطي هذه الجماعات في العاصمة: "انه لمن الضرورة بمكان تطوير جماعات القاعدة حيثما وجدت، وانشاؤها حيث ينبغي إعطاء المسؤولية الى علمانيين". ولكن العلمانيين لم يعوا مسؤوليتهم في انهم يشكلون الكنيسة التي بقاؤها منوط بهم، الا في اعقاب التوتر الذي حدث بين الكنيسة والدولة بسبب القرار الذي اتخذته الدولة بتبديل الاسماء المسيحية الى اسماء زائيرية، في اطار سياسة الاصالة التي انتهجها الرئيس موبوتو، وكذلك بسبب تأميم المدارس الخاصة، الامر الذي عارضه الكردينال مالولا رئيس اساقفة العاصمة كينشاسا.

وانه لمن الطبيعي ألا تكون كل جماعات القاعدة المنتشرة في البلاد على نمط واحد. فيعضها لا يحمل منها الا الاسم. وأكثر الجماعات حيوية هي تلك التي تتواجد في المدن؛ وأما الاكثر شعبية، فهي التي تنتشر في اطراف المدن التي تتضخم باستمرار بسبب الهجرة من الريف الى المدينة.

وتحاول كثير من هذه الجماعات، في اسلوب عملها، تقليد البنى الموجودة في الخورنات، كتشكيل لجان طقسية، واخرى للتعليم، وغيرها للاعداد لقبول الاسرار؛ ويبقى احد الاهداف الرئيسة الذي تسعى اليه هذه الجماعات هو تجديد بنية الكنيسة الزائيرية نفسها. فالبنى السائدة حاليا في كنيسة زائير هي بنى وافدة لا تلائم الذهنية الافريقية، لذا تهدف الجماعات اعطاء وجه افريقي لكنيسة زائير، متأصل في حياة البلد وتقاليده وعاداته، هذا التأصل الذي يعد ثورة في تاريخ المسيحية الافريقية[٣]. فمن كنيسة متغربة في عقر دارها، تقرر كل شيء من فوق، تبرز جماعات القاعدة لتبني كنيسة من القاعدة. ويعتقد مجلس الاساقفة الزائيريين بامكانية بناء هذه الكنيسة الجديدة ضمن اطار الكنيسة الرسمية، وبالارتباط الوثيق مع السلطة الكنسية والكنيسة الجامعة. هذا ما حدا بالكردينال جوزيف مالولا الى القول: "لا بد من "تفجير" الخورنات الى جماعات صغيرة على مستوى انساني". وهذا المشروع يصطدم ببعض تحفظات من قبل اعضاء الاكليروس الزائيري نفسه، كما ان هناك خطرًا اخر وهو تقولب المسؤولين العلمانيين بقالب الاكليروس.

وأما الهدف الاخر الذي تنشده جماعات القاعدة في افريقيا، فهو سد الفراغ الذي يسببه نقص الكهنة، ولهذا يعهد الى علمانيين القيام بخدم كنسية، بصورة دائمة او مؤقتة، ومنهم من يدعوه الاسقف بصورة رسمية. وهؤلاء هم على ثلاثة انواع: الاول يتألف من رجال متزوجين، يمارسون مهنة مدنية، ويعهد اليهم الاسقف مسؤولية تامة في ادارة وتنشيط خورنة ما، ما خلا اقامة الاوخارستيا ومنح الاسرار. وهذا النوع من الخدمة موجود في معظم ابرشيات زائير البالغ عددها ٤٧ ابرشية. النوع الثاني يتألف من اشخاص متزوجين، هم ايضا، مع احتفاظهم بمهنتهم الاصلية، ويقاسمون خوري الرعية او المنشط

المتزوج المسؤولية، إما في الخورنة أو في نشاط من النشاطات الكنسية، أو في الريف. وأما الوظائف فهي متنوعة كالتعليم المسيحي والتنشيط الليتورجي. وأخيرا يأتي المنشطون الراعويون الدائميون، وهم ايضا متزوجون، ويعملون في خدمات تتطلب شخصا مقيما بصورة ثابتة، وهؤلاء العاملون الدائميون يحصلون على ثقافة دينية وانسانية جادة ومكثفة في مراكز الابرشيات.

٤- جماعات القاعدة في البلدان الاشتراكية لاوربا الشرقية: نموذج المجر

بخلاف جماعات القاعدة في امريكا اللاتينية أو افريقيا، فان جماعات القاعدة في البلدان الاشتراكية -أو "الجماعات الصغيرة" كما تدعى هناك- لم تقم بدعم السلطة الكنسية، كما ان اسباب ظهورها تختلف ايضا.

ففي المجر، قامت هذه الجماعات الصغيرة بمبادرة من المسيحيين الذين، بعد ان هب عليهم نسيم المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، ارادوا ان يأخذوا مصيرهم بيدهم (٤). فراحوا يجتمعون في فرق صغيرة، بين اصدقاء واسر، وبين جيران وشباب بالغين. وسرعان ما هب كهنة شجعان لمساندتهم وتثقيفهم. فان تكون هذه الحركة قد نشأت بمبادرة من العلمانيين وليس من السلطة الكنسية، لَسِمة من السمات الاساسية لهذا التيار في بلد اشتراكي تسيطر فيه الدولة على كل مرافق الحياة العامة.

واذا لم يكن بوسعنا عرض متكامل عن هذه الجماعات الصغيرة، فبامكاننا معرفة العناصر الاساسية التي تتكون منها: فالعنصر الاول هو حياة الصلاة، الصلاة الشخصية العميقة؛ فالاعضاء يجتمعون بصورة منتظمة في بيت احد الاعضاء ويمارسون صيغة الصلاة التلقائية، واذا وجد كاهن بينهم، فيحتفلون بالاوخارستيا، الامر الذي لا تسمح به لا السلطات المدنية ولا الكنسية، خارج الاماكن والاوقات الرسمية. كما ان السلطة الكنسية تخشى من ان يؤثر ذلك على حضور الناس قداديس الخورنية. أما العنصر الثاني، فيتكون من قراءة الكتاب المقدس، ولا سيما الانجيل، واعمال الرسل التي يستلهمونها في تعاملهم في المجتمع؛ وبما ان علاقات الكنيسة والدولة تتسمان بموازنة دقيقة وحذرة، فان كلتيهما تخشيان قيام نظريات جانبية، كما تخشى الكنيسة قيام تعاليم غريبة بسبب النقص في الثقافتين الكتابية واللاهوتية، كما يشكل تفسير سطحي لاستقلالية المسيحيين الاوائل تجاه السلطة تهديدا للسلطة الكنسية والمدنية معا.

اما العنصر الثالث الذي ترتكز عليه هذه الجماعات، فهو وعيها انها جزء من شعب الله، مما يدفعها الى تحديد دور ومسؤولية المسيحي في المجتمع والدولة، فالشهادة للانجيل ليست وقفا على السلطة الكنسية كمجموع، بل على كل عضو فيها ايضا كفرد. واذا كان ملكوت السماوات ملكوتا روحيا، فان على المسيحيين ان يناضلوا من اجل مجتمع العدل والسلام ايضا. من هنا جاء رفض الاستبداد والعنف والقمع جزءا من السلوكية المسيحية الملتزمة.

بسبب هذا كله تنظر السلطات الدينية والمدنية معا الى نشوء وتطور هذه الجماعات الصغيرة بقلق. فالنظام الشيوعي الحاكم في المجر لا يقبل كاطار شرعي للتعبير عن الايمان سوى اطار الخورنة التي تراقبها وتشرف عليها الدولة والكنيسة معا بصورة اسهل، حسب الاتفاقية المبرمة بينهما، بعد ان حول النظام حياة الكنيسة الى مجرد بقاء، وحل الرهبنات والحركات العلمانية. وهكذا أُرغم العلمانيون على الصمت والجمود.

ومنذ نشوء هذه الجماعات، سارعت الدولة الى اتخاذ اجراءات بحقها، ولكنها في الواقع، لم تكن اجراءات حاسمة، اذ ترددت المحاكم بالحكم على اناس "جريمتهم" الوحيدة قراءة الكتاب المقدس والصلاة سوية خارج الاماكن والاوقات الرسمية؛ فعمدت الى دفع الاساقفة، من خلال سكرتارية الدولة للشؤون الدينية، الى اتخاذ اجراءات لايقاف الحركة. ولكنها اليوم تبدو أكثر تسامحا: فلقد منحت اجازة تعليم الدين المسيحي في مراكز الخورنة اذا لم يكن بناء الكنيسة صالحا لذلك، و لم تعد المحاكم تطارد المشتركين في اجتماعات الكتاب المقدس.

ويتسم موقف الكنيسة الرسمي بالمناوأة! فكان الكردينال ليكاي (٥) اول الساعين الى اعادة النظام باسم الطاعة، فطالب كهنته برفض قاطع لهذه الحركة. وعندما لم تُجدِ كل المحاولات نفعا، لجأت الكنيسة الى روما؛ فجاءها جواب روما في رسالة باسم قداسة البابا يوحنا بولس الثاني الى الاساقفة، يحثهم فيها على تعليم الانجيل والسهر على صفاء التعليم، كما اوصى البابا العلمانيين بالحفاظ على ايمانهم والطاعة للسلطة الكنسية، داعيا الجميع إلى الوحدة في الايمان والمحبة والحوار داخل البنى الكنسية القائمة.

ولكن من الانصاف ان نقول بان الاساقفة ليسوا كلهم على الصرامة ذاتها. فقد كان المطران كسرهاتي، اسقف بيكس، أول الداعين الى الاصغاء والتفهم، مذكرا الاطراف المعنية بان ثمة حدودا لا ينبغي تجاوزها. كما ان الكردينال ليكاي نفسه حضر اللقاء السنوي الذي يقيمه شباب "ناجيماروس". واذا لم يكن هذا الحضور كافيا لخلق مناخ انفتاح حقيقي، فانه لم يعد بمثابة اعادة للاتصال، وقد ساهم في تهيئة جو المصالحة.

وتشهد الجماعات الصغيرة نفسها نضوجا واكتمالا. فالحركة تتجه نحو تعميق المعارف اللاهوتية لدى اعضائها، ونحو شهادة مسؤولة للايمان. لذا فان التطرفات اصبحت امرا استثنائيا. غير ان هذه الجماعات الصغيرة لم تحدد حتى الان موقعها من المجتمع المادي الالحادي الذي تعيش وسطه في المجر، مع اعتراف النظام دستوريا بمساواة كل المواطنين في الحقوق والواجبات.

مهما يكن من امر، فان ثمة خلاصة نخرج بها وهي، ان مجرد مناقشة هذه المشاكل بصورة علنية من قبل الجميع لهو دليل على ان المؤمنين المجريين يتمتعون ببعض حقوق لا زالت تجهلها الدول الاشتراكية الاخرى في اوربا الشرقية باستثناء بولونيا. ولكن لا ننسَ ان ٦٠% من المجريين هم كاثوليك.

٥- كلمة اخيرة

لا ندعي ان هذه النماذج تعطي فكرة كامة على جميع "جماعات القاعـــدة". فهنـــاك اوربا الغربية واسيا وامريكا الشمالية. ولكننا، اذا اكتفينا بنماذج من بلدان العـــالم الثالـــث ومن الانظمة الماركسية ذات الحزب الحاكم الاوحد، فانما لكي نرصد حركة الحياة وخميرة الايمان التي تعمل في هذه الكنائس التي تعيش في "بيئة معاناة" أليمة احيانا، تدفعها الى حـــل تناقضاته بنفسها والى شق موقع لها في الشمس، بالرغم من المعوقات الداخلية والخارجيـــة. فالحصيلة التي نخرج بها من هذا الاستعراض السريع هو ان "جماعات القاعدة" هذه تعمـــل، بالرغم من اختلاف اوضاعها وتوجهاتها، على قيام كنيسة متجددة ومتحركة، أي انها تعمل على تحديث ما عتق وتحريك ما ركد في الكنيسة، اعادة الحيوية والديناميـــة الى القاعـــدة. والكنيسة التي تنشأ على هذا النحو هي كنيسة "الشركة" و "المشاركة". وسواء قامت هذه الحركة بمبادرة من السلطة الكنسية، أو من علمانيين، فهي تشهد على تلك الحيوية وتلك الشركة.

ان لمثل هذا التطور قيمته اللاهوتية ونتائجه. فاكتشاف بُعد الشركة هذا يعني التقرب من الله بشكل جماعي. وأما نتائج هذا الاكتشاف وهذا التعمق اللاهوتي على الكنيسة، فهي انها، أي هذه الكنيسة (المتجددة)، تساعدنا على العبور من حالة نكرة في طيع كبير الى هوية انسان جديد واع ملتزم، والى مجتمع جديد يمسك زمام مصيره بيده. مثل هذا الوعي سيتيح للكنيسة تدريجيا ايجاد الحلول المتكافئة للخدمات الكنسية، ويلغي الهوة بين سلطة مفروضـــة وعلمانيين غير فعالين، اذ سيشترك الجميع في صوغ الحياة الجديدة والقرار الملائم. كمـــا ان مثل هذه المشاركة تسعى بصورة جماعية الى المساهمة الفعلية في تحرير النـــاس مـــن انـــواع الاستعباد والفقر والخوف.

ولكن ذلك لن يتم من دون تضحيات، ولربما من دون شهادة الدم: هذا هو -وهـــذا كان دوما- شأن الذين لا يكتفون بان تبقى الكنيسة مجرد فكرة، وانما تتجـــسد في واقـــع الحياة وصراعاته.

(١) حول جماعات القاعدة، انظر ف. م. حزيران ١٩٧٧.
(٢) حول كنيسة البرازيل، انظر ف. م. أيار ١٩٧٧.
(٣) حول تيار الاصالة في كنيسة زائير، انظر ف. م. كانون الثاني ١٩٧٨؛ وفي افريقيا، انظر ف. م. كانون الثاني ١٩٨٠.
(٤) حول كنيسة المجر، انظر ف. م. كانون الثاني ١٩٧٩.
(٥) مقابلة مع الكردينال ليكاي، انظر ف. م. كانون الثاني ١٩٨١.

- اندونيسيا... ملتقى الديانات

كانون الثاني/ ص١٧ — ٢٣ الاب بيوس عفاص

- الصلاة في حياة يسوع وحياة المسيحين الاولين

شباط — آذار/ ص٦٥ — ٧١ الاب افرام سقط

- فنزويلا او "البندقية الصغيرة"

نيسان/ ص١١٣ — ١١٩ الاب جرجس القس موسى

+ السبت ام الانسان؟

ايار/ ص١٦١ — ١٦٧ الاب جرجس القس موسى

- كندا، كنيسة تتوحد واتحاد فدرالي مهدد

حزيران — تموز/ ص٢٠٩ — ٢١٥ نجيب قاقو

+ الكنيسة، جماعة تحتفل بحضور يسوع المحرر

آب — ايلول/ ص٢٥٧ — ٢٦٣ الاب افرام سقط

● عدد خاص: الشباب.. وعي وطموح(*)

ت١ — ت٢/ ص٢٨٩ — ٣٨٤

- المغرب: خطوة على طريق الحوار المسيحي الاسلامي

كانون الاول/ ص٤٠١ — ٤٠٧ الاب بيوس عفاص

(*) اثبتنا في "المختار من الاعداد الخاصة" المقالات التالية: دور الثقافة في بناء الشخصية (أ. يوسف توما)، الشباب ازاء مغامرة الحب (أ. بيوس عفاص)، الشباب والايمان (أ. افرام سقط)، الشباب ازاء وصايا الله (أ. نعمان اوريدة)، الشباب والكنيسة (أ. يوحنا عيسى).

السبت أم الإنسان

"السبت من اجل الإنسان، وليس الإنسان من اجل السبت"! تلك هي السلوكية الإنجيلية تجاه الشريعة. وهي تلخص ببلاغة موقف المسيحي من القوانين والتشريعات والأنظمة الكنسية التي ما أن تسللت إليها الايديولوجية، أصبحت شكلا من أشكال العبودية والاستغلال، وأضحت أداة للردع وحق القمع...

على الصراع القائم بين الحرف والروح في البنية الكنسية، يضع هذا الملف الأصبع، في محاولة جادة للنظر إلى الكنيسة بصفتها "مؤسسة" تفرض ضوابط وتخضع لمؤثرات، وقد تنزلق نحو "شريعانية" تقتل حرية الروح!

تركيبة الكنيسة، نظام السلطة فيها، سياستها، اولوياتها، تعثراتها... يسلط عليها الأضواء الأب جرجس القس موسى، انطلاقا من وجهة النظر الاجتماعية، وعلى ضوء الفاتيكاني الثاني الذي أيقظ فيها روح النبؤة، سمتها المتميزة.

رجل يده يابسة، يستغل الفريسيون حاجته إلى العافية ليحرجوا يسوع. فيسألونه مراوغين: "هل يحل الشفاء في السبت؟". فيفضح يسوع إلتواءهم، هم الذين يضربون السبت عرض الحائط حين تقتضي مصلحتهم: "أي منكم له خروف لا يمسكه إذا سقط في حفرة يوم السبت ويرفعه. الإنسان أفضل أم الخروف؟" (متى١٢: ٩-١٤). وينقل لوقا حادثة مماثلة عن امرأة حدباء شفاها يسوع يوم السبت أمام احتجاج الفريسيين، فيستبدل الخروف بالحمار ويقول: "يا مراؤون! أليس كل واحد منكم يحل في السبت ثوره أو حماره من المذود وينطلق به فيسقيه؟ وهذه المرأة، ابنة إبراهيم، أما كان ينبغي أن تطلق من هذا الرباط يوم السبت؟" (لوقا١٣: ١٤-١٧). ثم يحذر تلاميذه بقوله: "إياكم وخمير الفريسيين!" (مر٨: ١٥).

ما هو "خمير الفريسيين"؟

انه هذه النزعة التي، من اجل الظهور بمظهر معين، وفي سبيل الحفاظ على واجهة المؤسسة وبناها، تكبل الإنسان وتستعبده باسم الشريعة، منتزعة منه كل مبادرة حرة أو فكر نقدي. وتصبح النزعة ايديولوجية تُرفَع الشريعة بموجبها فوق الإنسان، بينما "السبت جعل لخدمة الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت".

يسوع ينادي بإعادة ترتيب "الأولويات" وبنزع "هالة القدسية" عن السبوت والشرائع والأعراف ووضعها فوق رأس الإنسان وحده، لأنه هو وحده "على صورة الله". جاء ليحرره من كل ما من شانه أن يقمعه أو يستعبده -حتى باسم الله- ويخاطب قلبه وضميره وإنسانيته العميقة، ليقبل الله ويدخل معه في علاقة، طوعا وحبا. لذا كانت تعاليم يسوع إشارات وتوجيهات لا قواعد قانونية.

انها دعوة إلى الالتزام الداخلي والنضج في ممارسة الحرية بمسؤولية ووعي، إزاء "شريعة" ترتب كل شيء مسبقا للإنسان وتدعه في مرحلة الطفولة أبدا. أليست هذه هي "حرية أبناء الله"!

ولكن هل يعني ذلك إزالة كل تشريع ليتصرف الإنسان على هواه وحريته ؟ وهل بالإمكان بناء مجتمعات من دون قوانين؟ ما هي العلاقة بين السبت والإنسان في تركيبة وسياسة الكنيسة؟ هل من صراع فيها بين "الروح النبوية" التي عليها نشأت، و "الحرف التشريعي" الذي يستهدف ضبط شؤونها ؟ ما هو موقع المبادرات والحركات الهامشية في تاريخها ؟

أولا – الكنيسة كمؤسسة

الكنيسة مؤسسة تاريخية وجسم اجتماعي يتكون من ويتعامل مع أفراد مختلفين، وهذا الجسم ليس جزيرة معزولة محصنة، بل يتفاعل مع بيئته، ويخضع لما تخضع له من مؤثرات. هذه النظرة لا ترضي الذين يرون في الكنيسة، قبل كل شيء، "جسد المسيح السري" و "شعب الله" الذي لا ينبغي أن يصاب "بعدوى" العالم، ويريدونها أكثر روحانية ومتحررة من الجوانب السلبية والقمعية لتاريخها الماضي والحاضر؛ ولكن الواقع يبقى أن الكنيسة "كيان" موجود ضمن البشرية، ومن هذا المنطلق فهي خاضعة لنواميس الطبيعة البشرية. لذا لا بد لها من قوانين وضوابط لتنظيم حياتها الداخلية، من جهة، ولتحديد هويتها تجاه الخارج بتحديد طبيعتها وخصوصية أهدافها وسلوكية أعضائها، من جهة أخرى. وتمر هذه الضوابط، ضرورة، بعنصرين أساسيين وهما: القواعد الفكرية، والسلطة الإدارية. وهذان العنصران مشتركان بين جميع المؤسسات، ولا يتميزان إلا بخصوصياتهما.

١ – **خصوصية القواعد الفكرية للكنيسة هي أنها تنطلق من الإنجيل** الذي يعتبر أساسها ومرجعها في عملها وتنظيمها، بوصفه التعبير الحي لفكر مؤسسها. لذا كانت العودة إلى الإنجيل هي الوسيلة الأقوى لإصلاح مسارها، كلما انصهرت أكثر من اللازم في إطار حضارة خاصة، أو تحالفت مع نظام اجتماعي أو سياسي معين؛ وعلى الإنجيل أيضا (والكتاب المقدس عموما) تعتمد سائر صيغ التجدد الحديثة وحركات الإصلاح، مستلهمة خبرة المسيحيين الأولين والأصالة التي بها عاش المؤمنون الكبار تعاليم الإنجيل عبر التاريخ.

ولكن، إذا كانت القواعد الفكرية هي قياسات مسلكية للجماعة، للفرد المنتمي إلى هذه الجماعة وعلامة انتمائه إليها، فالخطر يأتي عندما "تشرع" هذه القواعد وتدخل في باب "المقدسات" التي لا تمس، أو الحلال والحرام، وتصبح "مواد قانونية" يعاقب عليها القانون. حينذاك يصبح القياس قمعا أو غبنا. مثلا: الدعوة إلى الصوم هي دعوة إلى التوبة والاهتداء، ولكن أن يعاقب غير الصائم بعقوبة أبدية (لكونه ارتكب خطيئة)، أو زمنية (السجن، الاحتجاز).. فلا بد أن هناك سببا آخر: الوصول إلى هدف معين عن طريق الردع. وبذلك نكون قد خرجنا عن الروح وأخذنا جانب الحرف، ثم لا نتأخر أن نعتبر هدفا ما كان وسيلة!

وكذلك الأمر في العزوبية الكهنوتية. فبينما جاءت العزوبية (أو البتولية) للكاهن عفوية وعن طريق الرهبان، "كنداء" إلى حب اكبر وكامل للمسيح واعتراف بأولوية الله،

استولى التشريع على هذه "العفوية" وصار ينظر إلى العزوبية، تدريجيا وفي واقع الحال، من منظور وظيفي، استثماري، لتمتين الروح الانضباطية، الانقيادية، في المؤسسة، ولكي يكون الكاهن "على أهبة" دائمة للخدمة. وجاء هذا التركيز على حساب الجانب الإنساني، حيث جرت عودة مبطنة إلى مفهوم "الطهارة الطقسية" كما عند اليهود، والتي بموجبها تعتبر العلاقة الزوجية -ومن ثم الزواج نفسه- نجاسة أو "تلوثا" (ومن المنطق ذاته جرى إبعاد مبدئي للمرأة عن كل ما يمتّ بصلة مباشرة إلى المذبح والقدسيات وعن الرجال"المكرسين" لخدمتها).

إن القاعدة الذهبية للضوابط المسلكية هي أن تكون منفتحة، أي نابعة من واقع وحاجة، مما يكسبها المرونة اللازمة في التطبيق. وإذا انتفت الحاجة أو تغير الواقع (الحضاري أو الفكري أو الاقتصادي)، فمن الطبيعي أن "يتطور" التطبيق بحسب هذه المتغيرات، للبلوغ إلى الهدف المنشود بصيغ أو بطرق مؤاتية حسبما تقتضيه حركة الحياة. لان الضوابط، أو القوانين، في كل الأحوال، ليست دساتير نهائية، ولا هدفا في حد ذاتها، وإنما وسائل خدمية متصلة بزمان ومكان. لذا ينبغي أن تشتمل على إمكانيات التغيير من داخلها وبصورة مشروعة ومقبولة في عيني السلطة والقاعدة معا. فهناك تجربة تراود السلطة في حقبات التغييرات الاجتماعية والفكرية السريعة خاصة -وهي أشبه بالنمو غير المستقر- للتركيز المفرط على القيم المطلقة للقواعد المسلكية أو الطقسية، وفرضها باسم الطاعة أو بالردع، وذلك خوفا من البلبلة وحفاظا على وحدة الصف، فتقع في مغالاة قد لا تخدم سوى الشكل أو الهيمنة التوجيهية (رسالة بولس ٦ في تنظيم النسل. يوحنا بولس الثاني ولاهوت التحرير في جوانبه التطبيقية).

٢ – **نظام السلطة**: إذا كانت وظيفة السلطة (وفي أية مؤسسة وفي الكنيسة أيضا) أن تدير شؤون المصلحة العامة وتحافظ على تماسك الجماعة ووحدها، **فخصوصيتها في الكنيسة تنطلق من كونها "خدمة"**، وبهذا المنظور جاءت على لسان المسيح ("من كان فيكم كبيرا، فليكن خادم الكل")، وهي خدمة **تمارس باسم المسيح** ("من سمع منكم فقد سمع مني"). أما سبل ممارستها، فخاضعة للمعطيات الاجتماعية وحركة التاريخ. فقد مرت في الواقع، وتمر، بصيغ متعددة مستوحاة أو متأثرة بالبيئة المدنية المحيطة بها. ففي الشرق مثلا تغلبت صيغة المجالس البطريركية بأعضائها المنتخبين لتكوّن، مع أساقفة الطائفة وبطريركهم، ما يشبه "مجلس عشيرة" (سينودس)، وهكذا ايضا المجالس الملية التي تُشرك العلمانيين في الإدارة الزمنية. بينما تغلّب على الكنيسة الغربية طابع هرمي ومركزية قوية حول البابا تذكرنا بالنظام الإمبراطوري.

غير أن الخطر في مؤسسة بعمر الكنيسة وتركيبتها، هو أن تتحول الخدمة وتوزيع المسؤوليات، مع تراكمات الزمن، إلى "تشكيلة" من المراتب المتدرجة اوالى مركزية مفرطة تستأثر بكل القيادة، الروحية والفكرية والتوجيهية والإدارية، بحيث تختنق الحرية وروح النبوة في حشد من النواهي والقيود والتوجيهات الفوقية. هذا الخطر وقعت فيه الكنيسة عندما قسمت الشعب المسيحي إلى صنفين منفصلين: صنف رجال الاكليروس الذين

يعلمون ويحكمون، وصنف العلمانيين الذين يسمعون ويطيعون ويصلون. مثل هذا الفصل يولّد الطبقية التي هي عكس روح الجماعة والاخوّة والشركة: وباسم وحدة الصف والفكر والسلوكية والعقيدة، تراكم التشريع في الكنيسة، لاسيما منذ القرن ٥، بحيث بدا الإنسان اصغر من "الحق القانوني"، واستخدمت السلطة الكنسية أجهزة تنفيذية وأخرى للسيطرة والمراقبة، لم يتردد بعضها من استخدام الردع والقمع.

أما اليوم، وقد أعاد المجمع الفاتيكاني الثاني مفهوم الخدمة إلى السلطة، وحررها من "غلوّ" أدواتها التنفيذية الردعية القديمة (المكتب المقدس Saint – office، والدوائر الرومانية Curia مثلا)، فإذا كانت القواعد التشريعية الأساسية للسلطة الكنسية لم تتحرك كثيرا، فصيغ المشاركة الفعلية ومفهوم "الجماعية" في السلطة المستمدة من المنظور اللاهوتي في المسؤولية المشتركة لأساقفة الكنيسة، تنعكس لا محالة، نفسيا واجتماعيا، على أسلوب ممارسة السلطة الذي يستلهم، أكثر فأكثر، أسلوب "القيادة الجماعية" و"المداولة".

من هذه الزاوية يجب النظر إلى الأجهزة الجماعية الجديدة التي نشأت بوحي المجمع مثل "سينودس الأساقفة العام"، والمجالس الأبرشية والخورنية ، أو التي حمَّلها المجمع زخما ومسؤوليات جديدة مثل "المجالس الأسقفية" الوطنية والإقليمية، ومن ضمنها سينودسات ومجالس البطاركة والأساقفة في الكنائس الشرقية.

هذه الهيئات لا زالت في اختباراتها الأولى، وقد لا يتجاوز وضعها "القانوني" أن تكون أكثر من أجهزة استشارية، غير أن مستقبلها منوط بكيفية إثبات وجودها. ولسينودسات الكنائس الشرقية، برأيي، دور تاريخي يجب أن تلعبه في هذا المضمار كنموذج للادارة الجماعية، ومسؤوليتها لا تقتصر على أن تكون مجرد "عيّنة" لنمط تراثي -كما تفعل حتى الآن-، وإنما أن تبرهن واقعيا وموقعيا على حيوية هذا النمط، وتقدمه كتجربة خلاقة منفتحة ومتجددة، لكنائسها وللكنيسة الجامعة.

ثانيا – صراع الروح والحرف

لاشك أن الذهنية العلمية الحديثة -وبالتحديد البايولوجي أو علم الأحياء والحياة، وعلوم الفضاء ، والتكنولوجيا- هي في أصل "القطيعة" التي قصمت وحدة الإنسان والطبيعة. فإذا أفاقته على طاقاته الكامنة واللامحدودة، جعلت منه سيد الكون الذي لا يروض الطبيعة ويسخرها وحسب، بل يريد أن يجعل منها مسرحا لتحقيق ذاته، بعد أن كانت أداة استلاب له. ثم تلتها العلوم الإنسانية لتعطيه هذا الإحساس العالي بقيمته الذاتية وبالاستقلالية والحرية. وفي هذه الذهنية الجديدة، تمرد الإنسان على قيود الماضي، ورفض الرضوخ لمصير يقرره غيره أو لنظام اعتبر حتى الآن ثابتا.

إزاء هذه التحولات، ومن اجل هذا العالم المتحرك، كان على الكنيسة أن تعيد ترتيب بيتها، هي التي " لم تحسن الإصغاء دوما إلى الوسط الحياتي الذي يغمرها من كل جانب، والذي طالما تحاشته بحذر مفرط وشجبت فيه كل مظاهر التطور والتغيير. فلقد بدت وكأنها

تريد إيقاف الزمن بإداناتها الصادرة عن مفاهيم أخلاقية لا تقبل المناقشة وعن روح قانونية متصلبة. وبذلك صارت وكأنها نسيت أنها هي التي حملت إلى العالم قيم التعاليم الأخلاقية المنفتحة وأسس القانون المبني على حاجات الإنسان الواقعي"[1]. وصار منطق المؤسسة الراضية على نفسها هو الطاغي على سلوكيتها مدة طويلة.

والحال أن التصادم بين منطق المؤسسة بصفتها عنصر الثبات والاستقرار، وأهدافها الديناميكية التي تعيد النظر باستمرار، وتحاجج لخلق الأفضل والخروج عن القوالب المرسومة مسبقا.. هذا التصادم حالة دائمة، وان بوتائر متفاوتة. وفي هذا الصراع، تمثل السلطة المؤسسة عادة؛ أما القاعدة، فتمثل القوى المتحركة. وإذا كان هذا التوتر ينتهي في المؤسسة السياسية والمدنية بانفجار الطاقات الداخلية المندفعة، على شكل ثورات وانقلابات سياسية واجتماعية -لربما عنيفة-، فهو يتعرض في المؤسسة الدينية لعاملين متناوبين، أو متزامنين، وهما: عامل باتجاه الخارج للإصلاح والتجدد والتعصرن، وعامل باتجاه الداخل للوقاية من التلوث الخارجي بالتقوقع والاكتفاء الذاتي. وبما أن الجميع لا يتفاعلون بالقوة ذاتها مع هذه التناقضات، وان التغيير أو اللا تغيير في المؤسسة الدينية هو رهن القناعات لا العنف، فحركة التجدد فيها بطيئة حتما -سيما وان المؤسسة الدينية تتمتع عادة بعمر طويل وتقيس أيامها خارج الزمن. فيبقى الدافع الحاسم لوتيرة هذه الحركة أو زخمها منوط، سلبا وإيجابا، بالمؤثرات الضاغطة، الخارجية والداخلية.

هذه المعطيات الاجتماعية طالما تعرضت لها الكنيسة في تاريخها الطويل، وأصابها منها ما أصابها من الرجات والضياع ولربما الانشطار. فالحركة التجددية التي رافقت المجمع الفاتيكاني مثلا، أعدها عوامل متناقضة ثلاثة وهي: التحولات الإنسانية والحضارية الخارجية الانفة الذكر؛ جمود التسلط وما يدعى بالعقيدانية الاكتفائية التي كانت تطغى على المؤسسة الكنسية؛ والقوى الدينامية والمتمردة داخل الكنيسة.

هذه الاخيرة هي التي صنعت المجمع -ولربما من وراء الكواليس- ونجحت في تفجير طاقات الكنيسة من الداخل في عملية تخميرية بطيئة ودؤوبة: كما نجحت في استصدار قرارات ومراسيم مجمعية عديدة، لم تأت إدانة لاحد او لبدعة، لأول مرة في تاريخ المجامع، وإنما عادت بالكنيسة إلى الينابيع، وفتحت حوارا مكشوفا مع العالم في عملية مصالحة حقيقية، لترى أن قيمه الأصيلة لا تتعارض وقيمتها. فكان من النتائج المباشرة ان تزعزعت الذهنيات والبنى إلى حد بعيد، وفقد البعض "صمام أمانهم" الفكري وثبات أقدامهم في سفينة طالما حسبوها بمنأى عن الرياح. واخذ صدام الروح والحرف، صدام المؤسسة والروح النبوية في كنيسة ما بعد المجمع، اخذ شكل الردّة، أو كبح الجماح على الأقل.

نسوق أمثلة على ذلك:

١ - حركة المحافظين التي يقودها الأسقف الفرنسي لفيفر الداعية إلى الاحتفاظ بالأطر التقليدية للكنيسة، والتي من فرط تحجرها في الماضي، رفضت كل ما أتى به المجمع من

قرارات ومفاهيم حول المنظور الجماعي في السلطة، ومفهـوم الكنيـسة كـشعب الله، والحرية الدينية، وترجمة الطقوس إلى اللغات الحية، والانفتاح المسكوني إلى الكنـائس الشقيقة والأديان الأخرى، وإشراك العلمانيين... وذهب بهم الرفض إلى شق عصا الطاعة للبابا والتكور على ذاتهم كجسم مستقل.

٢ – داخل المؤسسة الكنسية ذاتها، ومن دون الحاجة إلى إعلان العصيان، تيـار المحـافظين الجامدين حي يرزق، وقد اتخذوا مواقف سلبية –بالرغم من كونهم وقّعوا علـى وثـائق المجمع– إزاء التطبيقات العملية لطروحاته. وصاروا يتحذرون من كل جديد او تجديـد، خشية ألا يجرف معه كل شيء.. ويجرفهم هم أنفسهم! ولعل نزعة يوحنا بولس الثـاني إلى بناء كنيسة قوية متراصة، شجعت في السنوات الأخيرة، على ترسيخ بعض المواقـف التقليدية أو إعادتها.

٣– الجدل القائم –وقد وصل حد التحدي والمجابهة المفتوحة– بين مجمع عقيـدة الإيمـان ولاهوتيي التحرير في أميركا اللاتينية (أو ما يعادله في آسيا وافريقيا) من جهة، ومـع اللاهوتيين المحدثين في أوربا (هانس كونك، سكيلبكس، راهنر...)، من جهة أخـرى. وكذلك مواقف روما المتسمة بالتعنت والإدانة وفرض الصمت تجاه الرهبان والراهبات والكهنة الملتزمين اجتماعيا وسياسيا إلى جانب الفقراء في دول العالم الثالث (الكهنـة الوزراء في نيكاراغوا، الراهبات في الولايات المتحدة...). والقـضية ليـست مجـرد "تحذيرات" شخصية، وإنما قضية حرية البحث اللاهوتي بأكمله؛ بـل حريـة التعـبير والرأي، وعلاقتها بأساليب السيطرة والقمع الفكري المركزي على حساب الأوضـاع الخاصة للكنائس المحلية.

٤ – قضية زواج الكهنة، ومشكلة هؤلاء الذين، بالآلاف، تركوا الخدمـة، بـل تركـوا الكنيسة على أطراف أصابعهم (ولا نقل بان كنيسة العراق هي بمنجـى عـن هـذه الظاهرة). والقضية الحقيقية ليست قضية "مارقين" يحملون على أكتافهم كل اللـوم، كما يُدَّعى، بقدر ما هي قضية طاقات خلاقة، في اغلب الأحيان، تخـسرها الكنيـسة لأسباب ثانوية وعرضية، أو لسوء استخدام السلطة، وتشويه العلاقة بـين الكهنـوت والزواج والعزوبية الالزامية.

٥ – قضايا الإنجاب وتنظيم الحمل وتدخلات السلطة الكنسية لفرض وجهة نظرهـا في عدم استخدام الوسائل الاصطناعية حتى قبل ظهور الحياة (رسالة بولس الـسادس في "الحياة البشرية").

٦ – الجدل حول رسامة نساء قسيسات. والقضية الأساسية ليست في شرعية أو عـدم شرعية منح الكهنوت للجنس اللطيف، بقدر ما هي قـضية إبقـاء المـرأة في عـداد "القاصرين" وإقصائها (وإقصاء العلمانيين عموما) عن مـسؤولية صـنع القـرار في الكنيسة واخذ دورهم الكامل في حياتها الخ...

ثالثا – الخلاصة: هذه هي جدلية الحياة

هذه الظلال -وغيرها مما لم نأت إلى ذكره- لا تخفي وجه الشمس. فمظاهر "الردة"، أو الكبح، أو التوقف في التقليد الموروث، إذا كانت توحي أحيانا بتغلب روح السبت على الإنسان، فالروح النبوية لم تغادر الكنيسة أبدا، لا في الماضي ولا في الحاضر. فمبادرات الروح في كنيسة اليوم أكثر من أن تحصى، في القمة وفي القاعدة، وفي كل المجالات الراعوية والفكرية والروحية، وفي التزام جانب الفقراء بشجاعة بوجه الأنظمة القمعية والدكتاتورية (أميركا اللاتينية، جنوب إفريقيا، الفيليبين..). ونقصد بالروح النبوية، هذه الطاقة الداخلية التي تجري فيها من نبع الإنجيل ومن قوة الروح القدس للانطلاق دوما نحو أمام، ولتجاوز الذات في تعابير فكرية ومسلكية متجددة، ولتعميق خبراتها وتنويعها. أو هذا "البعد الثوري" الكامن في صلبها والذي يدفعها -تارة هنا، وطورا هناك، وأحيانا في كل أجنحتها كما في فترات المجامع- إلى تعديل مسارها باستمرار.

فالانشقاقات والانسلاخات نفسها في جسم الكنيسة، وحتى الرهبانيات والحركات الرسولية والروحية ضمن الكنيسة، وكذلك حركات التحرر المدنية ضد الوصاية الكنسية عبر التاريخ.. كلها ننظر إليها من زاوية كونها منطلقات نبوية تحررية من هيمنة المؤسسة الكنسية كمؤسسة أو سوء استخدام السلطة.. للبلوغ إلى صيغ متمردة، متجددة، تساير حركة الحياة وتعيد الأولوية للإنسان، ولروح الإنجيل.

قلنا "صيغ متمردة"! ولا ننسب هذه الصفة إلى الانشقاقات والحركات الانفصالية والتيارات التي تقاوم المؤسسة أو تشق عصا الطاعة وحدها، بقدر ما نصف بها كل المبادرات الايجابية والاحتجاجية ضمن الكنيسة، كالجمعيات الرهبانية، والحركات الشبابية والجماعات الرسولية والإنجيلية المعاصرة، وحتى الرهبانيات الكبرى كالفرنسيسكان والدومنيكان واليسوعيين. وكذلك التوجيهات التجديدية في الإصلاحات الطقسية، والبحث اللاهوتي، ودراسات الكتاب المقدس، واستخدام التقنية الحديثة (صحافة، سينما، فيديو...) في خدمة الرسالة المسيحية.

كل هذه المؤشرات والمبادرات تبدأ هامشية وبمثابة صيغ انقلابية على الواقع الراهن، ثم تندرج في صلب المؤسسة لتصبح علامة صحة لكل الجسم. ويتم ذلك عن طريقين: إما أن نفرض هذه المبادرة أو تلك نفسها على المؤسسة (الكنسية) بما تمثله من أصالة إنجيلية، مثبتة أقدامها شيئا فشيئا؛ وإما إن تحاول المؤسسة (الكنسية) احتواءَها أو رعايتها. وأية كانت الطريقة، فكل مبادرة تشكل، في حد ذاتها، عاملا إضافيا لإبقاء الباب مفتوحا أمام التجاوز والتغيير والنقد الذاتي وحركة الرأي، بالنموذج النبوي الخاص الذي تقدمه (الرهبانيات مثلا)، أو بطريقة التخمير البطيء كالخميرة في العجين أو كالملح (مثال المفكرين، تيار دي شاردان، واللاهوتيين الخارجين عن الخط التقليدي الذين أُقصوا ثم أعيدوا خبراء في المجمع الفاتيكاني الثاني: شنو وكونغار). وحدهم "المتمردون" على الواقع يخلقون الحياة، ولكن ليس بغير ثمن!

"فمن خلال هذا المسار الديالكتيكي بين روح المؤسسة والتغيير يتقدم المجتمع. فمن جهة، تميل المؤسسة إلى تجميد كل شيء: تقاليد العمل، المواقف، العقليات، الحرب ضد التغيير؛ ومن جهة أخرى يرى الإنسان نفسه كي يتقدم -والتقدم من طبيعته، لأنه روح، ولأنه فعل في أساسه وتكوينه، إذ يرغب في تسخير الطبيعة لخدمته، والله نفسه قد منحه هذه الطاقة- يرى الإنسان نفسه، اذن، كي يتقدم، مرغما على النضال ضد عوامل الشلل والجمود في المؤسسة"

فصراع المؤسسة والروح النبوية في الكنيسة هو جدلية الحياة، وهو الذي يحفظ التوازن ويضمن الاستمرارية بصورة معقولة. والخوف، إذن، ليس من الحركة، بل من الجمود، من أسبقية حسابات المؤسسة على حساب الروح. ومسؤولية ذلك، سلبا وإيجابا، مسؤولية مشتركة تقع على عاتق جميع أبناء الكنيسة، كل من موقعه.

(1) Raymond WINLING, théologie contemporaine, Le Centurion, 1982 p. 13

ملف اب - ايلول ١٩٨٥ .... الاب افرام سقط

الكنيسة جماعة تحتفل بحضور يسوع المحرر

"وكان لجماعة المؤمنين قلب واحد ونفس واحدة.. وكانوا مواظبين على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات"! تلك اروع شهادة ينقلها لنا القديس لوقا في سفر اعمال الرسل عن الكنيسة الناشئة، وهي جماعة المؤمنين الذين رأوا في يسوع "ربا ومخلصا" وراحوا، كل يوم، يحتفلون بحضوره في ما بينهم، عبر كسر الخبز والشركة -وهي من ابرز السمات التي تدل على أنهم تلاميذ ذاك الذي وهب حياته لهم: بهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي إذا كنتم تحبون بعضكم بعضا.

وكما كانت الجماعة المسيحية الاولى تحتفل بحضور يسوع في وسطها وتشهد له بحياتها وممارستها وتواصل عمل التحرير الذي اراده بشرى في الناس، هكذا ينبغي ان تعيش الجماعة المسيحية اليوم هذا الحضور وتشهد له عبر احتفالها بالاسرار، وبنوع خاص عبر الاوخارستيا، قمة الاحتفالات.

فمن منطلق الاحتفال بحضور المسيح وسط الجماعة المؤمنة، يلقي الاب افرام سقط اضواء على الابعاد التي تنطوي عليها اسرار الكنيسة.

الكنيسة جماعة الاخوة المؤمنين

كثيرون يتشكون من ان لا موقع لهم في الكنيسة، ويعتبرونها موضعًا لجماعة متميزة من الناس. واخرون يشعرون بانهم يعيشون على هامش كنيسة لا تحبهم ولا تحتضنهم لما يسببونه لرجالها من وجع الرأس بافكارهم وطروحاتهم. وغيرهم، وإن انتموا اليها، لا يرون انفسهم معنيين بها، وفي احسن الاحوال لا تبدو لهم اكثر من مؤسسة لا تختلف كثيرا عن سائر المؤسسات، فلا يقصدونها الا وقت "المراجعات الرسمية" لتمشية امورهم. فالإشكال والغموض ما زالا عالقين في فكر العديد من الناس حول المفهوم الصحيح للكنيسة. من جانب اخر، كل تحديد للكنيسة لا يعود الى الانجيل والى ممارسة الرسل وحياة المسيحيين الاولين يبقى تحديدًا من زواية معيّنة، وبالتالي ناقصًا.

كان الفكر اللاهوتي الكلاسيكي وما زال، ينظر، من اضيق زوياه، الى الكنيسة نظرة تتصف بالقدسية والتهيّب. وعندما ينعتها بصفة "مقدسة"، فيعني ان لها خاصيات قدسية فائقة الطبيعة ليست لسواها، وان الانضمام اليها "يضمن" الخلاص للانسان؛ ومن كان خارجًا عنها، آل مصيره الى الهلاك او كاد. لنتذكر مقولة "لا خلاص خارج الكنيسة" التي طالما استُغلّت ضد الكنيسة ولجانبها. وهكذا صار من انتمى الى الكنيسة يشعر بالاطمئنان والامان، وكأنه، لمجرد هذا الانتماء، في حالة نعمة تميّزه وتفصله عمن هم "في الخارج".

كما ان اللاهوت التقليدي قد ميز "نوعين" من الكنيسة، او قسم الكنيسة الى طبقتين متميزتين، ونظر اليها على شكل هرمي: كنيسة متعلمة وكنيسة معلّمة. والكنيسة المعلمة هي التي في قمة الهرم: البابا والبطاركة والاساقفة والكهنة (الاكليروس) الذين يضطلعون بالادارة ويأمرون وينهون ويوجهون؛ ثم بقية المؤمنين الذين ينبغي ان يسمعوا ويخضعوا

وينفذوا. ان مثل هذه النظرة الى الكنيسة هي نظرة مادية جامدة، منحازة وانكفائية، اذ انها تحصر الكنيسة في موضع وفي بنية ليست من الجوهر الا بقدر ما تخدم اهدافه. كما انها تعتبر ان الكنيسة قد بدأت بيسوع، وتواصلت من خلال خلافة تعاقبية وعلى شكل هرمي، على النحو الذي هي عليه الان تمامًا.

انني لا انكر ولا أقلل من اهمية هذا التتابع والتواصل؛ فجذور الكنيسة واساسها راسيان حقًا على شخص المسيح وارادته الصريحة. ولكنني اود ان اوضح ايضا ان الكنيسة، قبل ان تكون مؤسسة منسقة البنيان، هي جماعة حية تعيش شركة الاخوّة حول شخص حي هو المسيح؛ انها جماعة اشخاص مؤمنين يكتشفون انهم يستقون الحياة من ينبوع مشترك، وهذا الينبوع ليس وقفًا عليهم، لذا كانت حياتهم منه شهادة منفتحة وتبشيرًا بالنور الآتي لجميع الناس. فليست الكنيسة، اذن، مذهبًا او ايديولوجية او طائفة منغلقة ينبغي الانضمام اليها تحت طائل الرذل الالهي والحرمان من اي خير. ان الدخول في الكنيسة معناه الانتماء الفعلي الى يسوع، فيكتشف المؤمن وحدته مع جماعته التي هي جماعة يسوع، ويعيش هذه الوحدة في شركة واقعية، وليس كالمنبوذ او المنسي او كغصن يابس.

الكنيسة جماعة تحرر واحتفال

الكنيسة جماعة تعيش الانجيل، ويحتفل اعضاؤها بحضور يسوع المسيح. فالعيش والاحتفال عنصران هامان في تركيبة الكنيسة المعنوية البنيوية. فأنْ تعيش الجماعة الانجيل معناه، انها تعيش عمل التحرير اليوم بالذات ضمن الواقع الانساني الاجتماعي والسياسي والثقافي، وعلى الصعيد الفردي والجماعي.

كما ان فعل التحرير هذا قد اعلنه يسوع وحققه من خلال الانجيل كبشرى للانسان. وعندما تحتفل هذه الجماعة بعمل التحرير، فاحتفالها يعتبر عيدًا: انه احتفال بحدث، وجعل الحدث عيدًا يعني ان الجماعة كجماعة تقوم بافعال ورموز معبرة بوعي جماعي تعيشه او تطمح اليه. فالجماعة التي تعيش الانجيل وتحتفل به، ستصبح جماعة تحرر للمجتمع، أي بمثابة الخميرة التي تعطي قوتها لكل العجنة. فجماعة مثل هذه لا تعمل لكسب مؤيدين لها كما تفعل جمعية للرفق بالحيوان، او كما يفعل حزب ما، ولكنها تعمل من اجل تحرير الناس وتنقل اليهم البشرى بذلك، كلما دافعت عن كرامة المنبوذ وطالبت بحقوق المظلوم وبعثت الامل بالحياة، وبالحياة الفضلى، لمنكسري القلوب، واعادت الى الانسان المجروح انسانيته المستباحة، وأبت ان يكون الشر والظلام اقوى من الخير والنور. فكل مؤمن شعر بان هذه البشرى قد سرت في عروقه وحررته، سيشعر بانتمائه وتضامنه فعلاً مع الجماعة التي حررتها البشرى الانجيلية، ويطمح الى ان ينضم اليها اعضاء جدد ليستقوا من النبع ذاته. وما العماذ الا سر الدخول في الكنيسة واحتفال بالانتماء الى يسوع والى جماعته، ولكن شريطة ان تسبقه عملية اهتداء، وما الاهتداء الا بداية التحرر. وتتكفل الجماعة بقبول المؤمن الجديد لتواصل عملية تحرره الكامل.

على ضوء هذا المفهوم تعاش اسرار الكنيسة. فالسر هو احتفال بما يجري في الجماعة، وفي الاحتفال يستمد السر فاعليته من حياة الجماعة: من ماضيها وحاضرها ومستقبلها[١]. انه، أي الاحتفال، يجعل هبة الله واقعية "محسوسة"، ويجعل حضور المسيح في جماعته متميزًا. ولكن لا يكون كذلك، أي لا يكون احتفالاً، إلا لانه يتم بصورة جماعية ورمزية. لذا كان الاحتفال ايضا اعترافًا وشهادة، في الوقت ذاته، للطبيعة الجماعية للكنيسة وللشراكة بين الاخوة، هذه الشركة التي تنطلق من شخص المسيح وتقود اليه كمسبب ومرجع.

لتر هذه الابعاد الاساسية في الكنيسة من خلال سرّي: الاوخارستيا، والتوبة.

سر الاوخارستيا

يطرح سر الاوخارستيا تساؤلات عدة اهمها ما يسمى "**بالاستحالة الجوهرية**"، أي صيغة حضور المسيح في القربان المقدس. والسبب في طرح هذه التساؤلات يعود الى ان الكثيرين يفصلون الاوخارستيا عن الحياة اليومية وينظرون اليها من منظور مادي. ومن شدة ما يركزون على هذا الجانب المرئي الملموس الخاضع للقياس في مادة الاوخارستيا (الخبز والخمر)، يتركون في الظل الجانب المعنوي والروحي -وهو الاساس- في سر الاوخارستيا، كما رسمه المسيح وكما عاشته الكنيسة الاولى. لنوضح: بحسب مفهوم الفلسفة "السكولاستيكية" في القرن ١٣، وهي التي يعتمدها البناء اللاهوتي منذ القرون الوسطى في الغرب، لا سيما بعد ان كرسها المجمع التريدنتيني في القرن ١٦، تعني "**الاستحالة الجوهرية** -وهي عبارة وليدة من هذه الفلسفة- ان جوهر الخبز يتحول، بكلام التقديس، الى جسد المسيح، وجوهر الخمر الى دمه، لذا دعي "بالكلام الجوهري". أي ان ما كان خبزًا او خمرًا على الصعيد المادي يتحول الى جسد المسيح والى دمه بعد كلام التقديس.

اننا اذا احتفظنا اليوم بالمفردات ذاتها وبجوهر الايمان نفسه، "فالاستحالة" المقصودة لم نعد نفهمها كما كان يفهمها تلامذة أرسطوأو اللاهوتيون الذين بنوا على فلسفته. فعندما نقول بأن هناك "إستحالة جوهرية"، فاننا نشير أيضا الى ان ما يشكل المحور في الاحتفال الاوخارستي هو حضور المسيح حقًا في الخبز والخمر، ولكن ليس بطريقة مادية تحليلية، ولا حتى حلولية. أي اننا لا نرفع شيئا لنضع شيئا اخر محله: لا نرفع الخبز لنستبدله بالمسيح. لذا "فالاستحالة" بالمعنى التقليدي تعبيرغامض، او على اقل تقدير غير موفّق، برأينا، لان الكثيرين يفهمون هذه "الاستحالة" كتغيير، او كتحول من حالة الى حالة، بغضّ النظر عن الجماعة المحتفلة وعن الذكرى التي تعيشها مكثفة، وعن الايمان الذي تعبر عنه بصورة جماعية برموز الاحتفال، بينما الاوخارستيا هي احتفال متصل إتصالاً كيانيًا وعضويًا، بكل هذه العناصر. فاذا كانت الاوخارستيا قلب الجماعة المسيحية، أي الكنيسة، فالجماعة المسيحية هي إطارها الضروري. الاوخارستيا هي إحتفال الجماعة الملتزمة بعمل التحرير وبحضور المسيح فيها.

وهذا الاحتفال هو تجديد ذكرى ما فعله يسوع في العشاء الاخير وبالرموز التي استخدمها (الخبز والخمر) وبالكلمات ذاتها التي قالها، وتقييم ايماني للحظات الاخيرة من

حياة يسوع، أي تلك اللحظات التي فيها أولى المسيح الثقة، للناس، لا سيما اصدقائه: "اذ كان يسوع يعلم أن الساعة قد حانت لينتقل من هذا العالم الى أبيه، هو الذي احب خاصته الذين في العالم، أحبهم الى الغاية. ففي اثناء العشاء..." (يو١٣:١-٢). وقد ازداد احساسه هذا عندما شعر بان الجميع سوف يرفضونه: "ها انها تأتي الساعة -وقد أتت- حيث تتفرقون كل واحد من جهته وتتركوني وحدي..." (يو١٦:٣٢). واذا التزم بأسلوب خاص، أسلوب التضحية والامانة لما من اجله أرسله الآب، أي إعادة الانسان اليه كابن وتحقيق خلاصه وتحرره، واتجهت أنظاره نحو ابيه ملتزمًا بحب خالص لأحبائه، قرر أن يهب حياته للعالم عوض ان يسيطر بالقوة والعنف: "ليس لأحد حب اعظم من ان يبذل حياته عن اصدقائه" (يو١٥:١٣). وقد قرر، وهو بين اصدقائه، ان يهب حياته لهم مسبقًا وبصورة رمزية أثناء عشاء الوداع. فعندما قال "خذوا، كلوا، هذا هو جسدي الذي يعطى لكم. خذوا، اشربوا، هذا هو دمي الذي يُراق من أجلكم" (لو٢٢:١٩-٢٠)، فمعنى قوله هو "خذوا، حياتي كلها أعطيها لكم، خذوا حياتي أُضحّي بها من اجلكم. خذوا تغذوا مني (جسدي ودمي)، بذلك تنالون الحياة: "أنا الخبز الحي الذي نزل من السماء: ان أكل أحد من هذا الخبز، يحيا الى الابد، والخبز الذي سأعطيه انا هو جسدي (أي انا ذاتي) لأجل حياة العالم" (يو٦:٥١).

هذا هو المفهوم الصحيح الذي فيه نجدد ذكرى الاحتفال بالاوخارستيا: نتذكر المسيح معطيا حياته لنا وواهبًا اياها، لا بقرار قاس متأت من أب ناقم، كما لو كان ملزمًا بان يهبها، بل لانه شعر بأنها الطريقة الوحيدة التي فيها يكون بكامله لاصدقائه: "أبذل حياتي عن خرافي... ان ابي يحبني لاني ابذل حياتي، لكي استرجعها أيضا. لم ينتزعها احد مني، وانما ابذلها باختياري. فلي سلطان أن أبذلها، ولي سلطان ان استرجعها أيضا: تلك هي الوصية التي تلقيتها من ابي" (يو١٠:١٥، ١٧-١٨). وفي اللحظة التي شرع يهب حياته، كانت "ساعته" قد حانت! هذه هي قوة الحب، حسب تعبير دوستوفسكي، عندما يقول بأن الحب أقوى من اية قوة في العالم.

ففي الاحتفال الاوخارستي، تستذكر الجماعة وتعيش ما كان يشكل مركز اهتمام المسيح، أي الاختيار الذي عبر عنه حين وهب حياته، والذي تحدّى به اولئك الذين أرادوا إزاحته. ومن ثم فالاحتفال بالاوخارستيا وسط الجماعة هو التأكيد على ان هذه الجماعة المحتفلة ترغب في اقتفاء خُطى معلمها، وعلى انها تهتم بعمل يسوع الخلاصي الذي عبّر عنه بقوله: "هذا هو جسدي الذي يعطى لكم/ هيذي حياتي تعطى لكم". كما انه يَتمّ، عملا بوصية يسوع: "اصنعوا هذا لذكري"، وكأنه يقول: "انتم أيضا، تخليدًا لذكراي وعلى خُطاي، اعطوا حياتكم لمن تحبونهم". بهذه الوحدة التي تضمنا الى فعل المسيح، وبهذا الفعل الذي به نخلّد تضحية المسيح، نشعر بحضور المسيح الفادي وسط الجماعة، أي ان حضور يسوع الاوخارستي هو حضور عطاء وتحرير. وعندما نتناول من الخبز الاوخارستي (القربان) فاننا نعبّر، بأعمق إيماننا، عن اندماجنا الكلي وعن اتحادنا الوجداني مع المسيح

المخلص -الضحية- المنتصر على الالم والموت. فهو، إذن، فعل محبة ورجاء، وليس عملية أكل اللحم وشرب لدم مادّيّين! نحن لسنا أكلة لحوم البشر! والجماعة (كاهنًا ومؤمنين) باقامتها الأوخارستيا لا تقيم عملاً سحريًا، وانما تحيا حدثا روحيا نابعا من دينامية حياة محررة، ومن خلال الحياة المعاشة تحتفل الجماعة بهذه الحياة[٢].

نلاحظ، اذن، أن احتفالاً مثل هذا ليس مجرد طقس يقام، بمعزل عن الحياة اليومية: بل انه إحتفال فاعل وذو مضامين حياتية دينامية، لأنه إحتفال بهبة المسيح وهبة أعضاء الجماعة كلهم للذين يحبوهم؛ كما انه يتمحور حول قول المسيح: "حياتي أعطيها أنا أيضا لكم..."، فهو، اذن، شهادة إيمان ونداء الى العطاء والوحدة.

واذا كان التقليد قد سمّى الأسرار "علامات فعالة لعمل الله المجاني"، فهذا يدل على الها تحقيق فعل معين تعيشه جماعة المؤمنين بصورة رمزية مكثفة. وهذه العلامت هي فعالة ومؤثرة، لان ما يحدث في جماعة المسيحيين هو إحتفال مشترك [٣] بهبة الله الحاضر في حياة الجماعة التي تهب ذاتها من اجل العالم الذي تود تحريره. كما انه عمل الله المجاني، لان الجماعة تشعر بأنها قد تحررت "مجانًا"، لا بأعمالها الخاصة، بل برضى الله الذي يعطي هباته بلا مقابل.

• سر التوبة

ان الممارسات الخاطئة والسطحية لهذا السر جعلت البعض ينفرون منه. ولكي نفهم جوهر هذا السر المحرر، لننظر إليه على ضوء التاريخ.

ان ممارسة سر التوبة في صيغة الاعتراف الفردي في (منبر الاعتراف) لا ترتقي الى ممارسات الكنيسة الاولى كما جاءت في كتاب أعمال الرسل، ولا وردت في موقف المسيح وتوصياته الى الرسل بهذا الشكل. فعندما تحدث يسوع عن الاصلاح الأخوي وغفران الخطايا قال: "اذا خطيء إليك أخوك فاذهب إليه وصالحه بينك وبينه وحده، فإن سمع لك ربحت أخاك..." (متى١٨: ١٥).

كيف مارست الكنيسة هذه الوصية؟

في القرون الاولى، وكما جاء في شهادة الآباء الرسوليين، كان الاعتراف العلني أمام الجماعة يخص قسمًا من الخطايا التي تمس الايمان فقط، و لم تكن الحلة تمنح إلا نادرًا. وقد تساءل كثير من الآباء في الأجيال الاولى عن إمكانية منح السر عدة مرات، و لم يكن من جحد الايمان يُقبل إلا مرة واحدة، بعد أن كان قد هجر الجماعة: هذه الملاحظة تفيدنا جدًا لأن للاعتراف علاقة عميقة بحياة الجماعة. فلقد كان من الضروري أن يلتزم المرء بعلاقته بالجماعة خشية أن يطرد منها. وطرده منها يعني إبعاده وحرمانه من خيراتها وحياتها. وهذا المعنى يقول المسيح: "اذا لم يسمع منك فاصطحب شاهدا أو شاهدين، واذا لم يسمع لهما فاذهب الى الكنيسة"، أي الى جماعة المؤمنين التي لها السلطة في البت في الخلاف،

واصـــلاح ما قد هدم؛ لذا فانه يضيف: "وان أبى أن يسمع للكنيسة ايضًا، فليكن عنـــدك كالوثني والعشار، الحق اقول لكم: ان كل ما تربطونه على الارض يكون مربوطـــــًا في السماء..." (متى١٨-١٧-١٨). في كل ذلك، لا اثر للاعتراف الفردي الخاص في الانجيل ولا في ممارسة الكنيسة الاولى.

ولكن سرعان ما ظهرت ممارسات جديدة للتوبة، لا سيما بعد انتشار المسيحية بـــين الشعوب وامراء لم يتح الوقت الكافي لتنشئتهم، و لم يكن بالامكان تطويعهم في الاخلاقيـــة الانجيلية من دون ضوابط معينة، فظهرت أهمية الاعتراف الفردي. وقـــد لعب الرهبـــان الايرلنديون دورا هاما في ذلك، فهم الذين أدخلوا هذه الممارسة حتى انتـــشرت في اوربـــا، ومنها بلغت بلدانا بواسطة المرسلين[٤].

لنترك التاريخ جانبا ولنستخلص معنى التوبة المسيحية، على ضوء الانجيل:

كلنا معرضون للزلل أو لارتكاب الخطأ، فنلتجيء اذ ذاك الى اخوتنا ليصفحوا عنـــا ويقبلونا على ما نحن عليه من الضعف. وهكذا تتضمّن حياة كل إنسان أبعادا للغفران. فمن الضروري، اذن، لا بل ان إحدى ركائز حياة الجماعة وقوتها هي عندما يغفـــر أعـــضاؤها بعضهم لبعض. فالغفران المتبادل هو برهان عملي على سيادة المحبة، وهو قبـــول لـــضعف الاخرين، مما يجعل العلاقات سليمة، لأن خطأهم لن يشكل عائقًا في بناء علاقات جديـــدة، كما انه العلامة الحسية على أن الله يمنح غفرانه للناس.

فغفران الله لا يأتي من الخارج كشيء مستقل عن حياة الانسان والجماعة التي ينتمـــي اليها، بل يُمنح من خلال الغفران الذي يتبادله الناس. وبهذا المعنى يسعنا أن نقول بـــأن للانسان، كل إنسان، السلطة والقدرة أن يغفر الخطايا الموجهة اليـــه. هـــذا مـــا يؤكـــده الانجيليون حيث يقول المسيح: "إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضًا أبـــوكم الـــسماوي زلاتكم، ولكن إن لم تغفروا للناس زلاتهم، فأبوكم أيضا لا يغفر لكم زلاتكم" (متى٦:١٤-١٥). واذا كان الغفران يشكل محورا أساسيا لبشرى الانجيل، فلأنه يدخل في باب تحريـــر الانسان، أو "حل قيود الانسان" حسب تعبير الأنبياء.

لا شك ان المسيح لم يوجه كلامه هذا الى رسله فقط، بل الى كل الناس. كما ان هذه الاقوال تعكس جانبًا مهمًا من سلوكية المسيحيين الاولين في مجـــال التوبـــة حيـــث كانوا يقتسمون كل شيء: "وكان كل شيء مشتركًا فيما بينهم" (اعمال٢:٤٥). وهذا الاقتسام لم يقتصر على الامور المادية فقط. فنلاحظ الموازنة التي يضعها يسوع بين ما يجري "علـــى الارض" و "في السماوات"، في سياق حديثه عـــن النصح الاخوي والمصالحة: "الحق اقـــول لكم: ما ربطتم على الارض ربط في السماء. ومـــا حللـــتم في الارض حُـــلَّ في الـــسماء (متى١٨:١٨). فهذا لا يشير الى وجود سجلين منفصلين، وانما هو تأكيد على ان ما يحدث على الارض هو الشكل النهائي للامور، أي ان حصيلة الحياة الارضية هي الرصيد للحيـــاة الدائمة. وبهذا المعنى يمكننا ان نقول بأن **الغفران الذي يتبادله النـــاس علـــى الارض هـــو غفران كامل**، أي غفران اكيد ومستوفي الشروط، "يصادق عليه" الله بقـــدر مـــا يكـــون

صادقًا. فليس ثمة ميزان ارضي وميزان سماوي: من يغفر على الارض يعطى له الغفران كاملاً. اما الانسان الذي "لا يحلّ القيود"، أي لا يمنح الغفران لخصمه، فهو الذي يجعل خصمه يشعر بأنه شخص غير مرغوب فيه ومبتذل، ويوصد بوجهه ابواب حرية الانجيل التي لا تباع ولا تشترى بفضة. لذا فالغفران الذي يمنحه المسيحيون بعضهم لبعض لأمر جوهري في حياتهم الايمانية وتحررهم اليومي. هذا هو معنى سر التوبة.

ويبلغ الغفران اقصى مداه عندما يشعر المسيحي بانه اصبح أهلاً للاقتراب من المائدة الاوخارستية، أي انه قد تجاوز البعد الفردي للتوبة وشعر بأن الجماعة قد قبلته من جديد بين ذراعيها، وكأن الخطأ المرتكب لم يكن فرديًا بل جماعيًا. ولقد كان كذلك لان الفرد جزء من الجماعة، وقانون التضامن يجعل فعل الفرد فعل الجماعة. وهنا نأتي الى معنى الحلة التي يمنحها الكاهن. فعندما يمنح الكاهن الحلة، فهو يقبل باسم الجماعة وباسم شعب الله، ونيابة عنه، طالب الغفران ويدعوه من التقدم الى الوليمة. فمنح الحلة للتائب هو تعبير عن اننا نقول له بأنه عضو في شعب الله من جديد، ويتحقق ذلك فعلا عندما تغفر خطاياه ويشترك بالمائدة(٥). فهي من ثم علامة فاعلة للغفران الذي يمنحه الله ويحرر به الانسان، فيشعر هذا بانشراح كامل وتنقية روحية وباطنية. فالخاطئ التائب يشعر بهذا الانعتاق عندما يسمع الكاهن يخاطبه باسم المسيح واسم الجماعة: "يا بني مغفورة لك خطاياك"، أي باسم المسيح واسم الجماعة اقول لك بأنك مقبول بضعفك، هلم واقتسم الطعام على مائدة الرب.

ان كلامًا مثل هذا ليشبه كلام المسيح للمخلع: "يا بني احمل سريرك وامش". انه كلام يولي الثقة الكاملة للانسان ويشعره بتحرر كامل لان الله قد غفر له، أي انه فتح له ذراعيه واحتضنه مثل الاب لابنه الضال.

اما على الصعيد الجماعي، فسر التوبة هو اعلان واحتفال بوحدة الكنيسة، أي جماعة المؤمنين الخطأة. والوحدة لا تبنى بمجرد التماثل والتشابه في وجهات النظر والعمل، ولكن بتقبّل الاشخاص بعضهم لبعض؛ وهم الذين باسم البشرى الواحدة، يأخذون اختيارات متنوعة ومتباينة، ولربما متضاربة، ولكن سر الغفران هو الذي يحقق وحدة الاخوة بعد ان كانوا اعداءً أو خصومًا.

هذه بعض خطوط من وجه الكنيسة كجماعة اخوية تحتفل بسر تحررها، على ضوء الانجيل. فلن يكون ثمة جماعات مسيحية حقيقية إن لم تقم على اساس فعل التحرير الذي جاء به المسيح. هذه هي رسالتها وهذه هي بشراها الى العالم: بشرى فرح تشكل وحدتها الداخلية ومع العالم.

(١) حول معنى الاحتفال، أنظر ف. م. ك٢ ١٩٨٤: "مفهوم الانسان على ضوء سر الاوخارستيا"، ونيسان ١٩٨٢: "الاحتفال بيوم الرب".

(٢) حول أبعاد حضور المسيح في الجماعة عبر الاوخارستيا، انظر ف. م. نيسان ١٩٨٣: "القداس حدث ووظيفة"، وخاصة ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٣) أنظر ف. م. ك٢ ١٩٧٦: "دور الاوخارستيا في بنيان الكنيسة"؛ وأيلول ١٩٧٦: "البعد الجماعي للأوخارستيا".

(٤) أنظر ف. م. آذار ونيسان ١٩٧٢: "التوبة عبر الاجيال" (وقد نشر في هذا الكتاب).

(٥) انظر ف. م. حزيران/ تموز ١٩٨٣: "مفهوم الانسان على ضوء سر التوبة".

- كفن المسيح: حقيقة ام اسطورة؟

كانون الثاني/ ص٣٣ — ٣٩ الاب يوسف توما

+ نقاط الالتقاء بين المسيحية والاسلام

شباط/ ص٨١ — ٨٧ الاب لويس ساكو

- افريقيا: كنيسة في منعطف

اذار - نيسان/ص١٢٩ — ١٣٥ الاب بيوس عفاص

+ رسالة العلمانيين: قضية ولاهوت

ايار/ ص١٧٧ — ١٨٣ الاب لوسيان جميل

- كوبا: النسيم يهب على الكنيسة

حزيران — تموز/ ص٢٢٥ - ٢٣١ الاب جرجس القس موسى

+ العلامة ابن العبري والفكر السرياني

آب — ايلول/ ص٢٧٣ - ٢٧٩ المطران صليبا شمعون(١)

• عدد خاص: كنيسة العراق، ٢٠ عاماً بعد المجمع(*)

ت١ — ت٢/ ص٢٨٩ - ٣٨٤

- محاولة لإقامة منهج لاهوتي معاصر

كانون الاول/ ص٤٢٥ - ٤٣١ الاب لوسيان جميل

(*) اثبتنا في "المختار من الاعداد الخاصة" المقالات التالية: المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني بعد عشرين عاماً (أ. جرجس القس موسى)، خصوصية الفكر اللاهوتي في كنيسة ما بين النهرين (أ. لويس ساكو)، التعليم المسيحي بين جيلين (أ. يوسف حبي)، كهنة وعلمانيون لبناء كنيسة واحدة (أ. يوحنا عيسى)، نظرة إلى موقع كنيسة العراق من الحركة المسكونية (أ. افرام سقط).

(١) للمطران غريغوريوس صليبا شمعون ١٠ مساهمات (من بينها هذا الملف)، وبضمنها إجابتان.

نقاط الالتقاء بين المسيحية والاسلام

في اطار الحوار مع الديانات الذي أعلنه المجمع المسكوني، وانطلاقا من القيم المشتركة بين الديانتين الكبريين: المسيحية والاسلام، وتمشيًا مع أحد اهداف "الفكر المسيحي" في بعث الحوار المسيحي- الاسلامي، وفي منطق القناعة بأن للمسيحيين والمسلمين شهادة ينبغي ان يقدموها عن الايمان بالله في عالم يتنكر له، يأتي هذا المقال ليذكر المؤمنين من ابناء الديانتين بضرورة اسدال الستار على عهود التباعد والتجاهل والخصومات... ويضعهم ازاء مسؤوليتهم في دفع عجلة التلاقي والتآخي، بوجه موجة التزمت الديني المقيت التي تتصاعد في اماكن عديدة...

الى نقاط الالتقاء بين المسيحية والاسلام يلفت الانتباه الاب لويس ساكو -دكتوراه في التاريخ من جامعة السوربون (١٩٨٥)، وكان قد نال الدكتوراه في "آباء الكنيسة" (١٩٨٣) وحصل على ماجستير في الدراسات الاسلامية (١٩٨٤).

لقد حصلت مجادلات عديدة بين علماء مسيحيين ومسلمين خلال القرون الماضية، وغالبًا ما كانت مناقشات فكرية، حاول فيها كل طرف الدفاع بقوة عن معتقده، مبينا نقاط الضعف لدى المعتقد الاخر(١). هذا النوع من الجدل السفسطائي لم يكن البتة حوارا بناءً يستهدف فتح افاق جديدة للتلاقي بين المسيحيين والمسلمين، مبنية على ما هو مشترك بينهما، لذلك بقي كل طرف على تخوفاته وعدم ثقته بالطرف الاخر... أما الحوار الصادق الخصب، فهو حين يرى المسيحي أخاه المسلم جديرا بالاحترام والثقة وقادرًا على الدخول معه في مناقشة جادة. ومع استمرار الحوار يقتنع كل طرف أن الطرف الاخر ليس محرومًا حرمانًا كاملا من الحق. ويتطور هذا الحوار، شيئًا فشيئًا، فيغدو مصدر خير وبركة وغنى لكلا الطرفين.

ومثل هذا التقارب يتم بقراءة نزيهة صافية للماضي، بعيدًا عن الجدل اللاهوتي أو التعصب أو الطعن، سعيًا الى تبديد أخطاء شائعة وأحكام مسبقة بشأن الاخرين ومعتقداتهم. وإن نحن توصلنا الى معرفة موضوعية لكل من المعتقدين، نكون حقًا قد أدينا خدمة جليلة الى أبناء جيلنا، لا سيما في هذه المرحلة -والعالم يشهد موجة الحاد واباحية متصاعدة.

محاولتنا هذه تتناول، اذن، نقاط التقارب بيننا وبين المسلمين، باسلوب علمي رصين، مبني على ما جاء في كتبنا وكتبهم، وحسب الاطر التاريخية التي وردت فيها.

الوضع الديني في الجزيرة العربية أيام محمد:

قبل أن أتناول هذه النقاط، من المفيد أن أقدم بايجاز الحالة الدينية في شبه الجزيرة العربية ابان ظهور محمد ورسالته:

ان الديانة الأكثر انتشارًا في الجزيرة العربية أيام محمد كانت الوثنية. وكان لكل قبيلة أو مجموعة قبائل، صنمها المعبود[٢]، وقد وردت أسماء بعضها في القرآن: "أفرأيتم اللات والعزى ومنوة الثالثة الاخرى" (سورة النجم ١٨-١٩). وكان لهذه الآلهة معابد واحبار لهم وظيفة التنبوء، وكانت الذبائح تقدم لها في مواسم معينة (الاضحى). وكان في المراكز التجارية الكبيرة مثلا: (الكعبة في مكة) مجمع صغير لكل الهة القبائل المعروفة لكيما يتاح المجال للتجار لممارسة شعائرهم الدينية. وبالرغم من العدد الكبير للآلهة في الجزيرة العربية (حوالي ٣٦) (٣)، كانت هناك نزعة شمولية نحو التوحيد (الاله الواحد أو الاله الأكبر على نطاق القبيلة الواحدة أو مجموعة من القبائل).

ومن بين الديانات التوحيدية في الجزيرة العربية، كانت هناك جماعة لا بأس بها من اليهود، خاصة في يثرب (المدينة المنورة فيما بعد) وفي خيبر وفدك وحمير (اليمن). وكان اليهود متقوقعين على ذاتهم ويشتغلون في التجارة كعادتهم. كما كانت توجد في الجزيرة جماعة مسيحية صغيرة منقسمة على فرق ومذاهب تسكن في وادي القرى وفي نجران، ونعرف أسماء بعض هؤلاء المسيحيين كورقة بن نوفل (توفي عام ٦١١) خال خديجة زوج محمد، قس بن ساعدة الابادي[٤]. كما كانت هناك جماعات رهبانية عديدة تعيش في المنطقة وفي سوريا وسيناء، التقى بها محمد اثناء رحلاته التجارية، ومن هنا نجد ثناء القرآن عليهم: "لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا، اليهود والذين اشركوا (اهل قريش الوثنيون). ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا: إنا نصارى، ذلك منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون (المائدة ٨١). ففي هذا الوسط الهش ظهر محمد ومارس رسالته بين الاعوام ٦١٢-٦٣٢.

١ - الايمان باله واحد أحد

ان النقطة الجوهرية في مستوى الايمان بين الاسلام والمسيحية هو التوحيد. فالاسلام يدعو الى التوحيد الكامل في الله، أي التوحيد في الذات والصفات والافعال (٥). "قال: هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤ أحد" (الاخلاص ١-٤). هذه الآية بالرغم من ايجازها هي أجمل ما كتب عن توحيد الخالق. ويقابل التوحيد الشرك أي أن يجعل الانسان لله شريكًا فيما هو حقه وحده: "ان الله لا يغفر أن يُشرك به.. ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا" (نساء ١٦٦).

ولكن هل يمكن التوفيق بين التوحيد المحمدي والتوحيد المسيحي؟ سؤال طالما شغل بال المفكرين أمس واليوم.

لا جدال في أن المسيحيين لا يشكون ولا طرفة عين بأن الله واحد أحد. انهم يؤمنون باله واحد، اله حق، لا ينام ولا يمرض ولا يموت ولا يحقد، اله رحمن رحيم، اله محبة. ألا يقولون عند رسم اشارة الصليب: "باسم الآب والابن والروح القدس، الاله الواحد آمين"، حتى أصبحت هذه شهادتهم؟ وفي قانون ايمانهم ألا يؤكدون: "نؤمن باله واحد، الآب الضابط الكل، خالق السماء والارض وكل ما يرى وما لا يرى"؟ انهم لا يعتقدون ابدًا أن الله "اتخذ له

صاحبة" (مريم؟) أو أنه "ثالث ثلاثة"، ولا بوجود تزاوج وتناسل في الله! حاشا. ان كتبهم المقدسة تعلن بأن الله واحد، وتقاوم تعدد الالهة وعبادة الاوثان: "للجميع اله واحد ولا إله غيره" (افسس٤:٦)، "لكن لنا إله واحد" (١قورنثية ٨:٦)، "لأن الله واحد" (رومية٣:٣)، "ليس أحد صالحًا الا واحد وهو الله" (متى١٩:١٧) وغيرها كثيرة...

الاختلاف، اذن، في معنى "الواحد". ففيما يؤكد المسلمون بأن الله واحد من جميع الجوانب، راح المسيحيون يثبتون بأنه واحد من جانب، وكثرة من جانب آخر (واحد وثالوث). وشرحوا ذلك بأسلوب فلسفي منطقي، مستخدمين في شرحهم اسلوب المجانسة أو القياس. فقالوا انه واحد وثلاثة على غرار الشمس: فللشمس قرص وأشعة (ضوء) وحرارة (سخونة). انها ثلاثة اوجه لحقيقة واحدة هي الشمس، وهذه الاوجه متصلة وغير مستقلة البتة. فعندما نشاهد القرص نقول هيذي الشمس، وعندما تظهر اشعتها من خلال الغيوم نقول انها الشمس، ولما نشعر بحرارتها نقول ايضًا انها الشمس!

وحين يتكلم المسلمون عن صفات الله (اسماء الله الحسنى)، انما يتكلمون عن جوانب مختلفة موجودة في حقيقة واحدة هي الله، وهم اذن يسلمون بوجود الكثرة بشكل من الاشكال: فالله هو الجوّاد والحكيم والقادر؛ والجودة والحكمة والقدرة صفات متميزة ولو وجدت في شخص واحد، لان الجودة غير الحكمة والحكمة غير القدرة. وبالنسبة الينا: الله واحد، وهو آب أي الحياة، وهو ابن أي الكلمة، وهو روح قدس أي المحبة. وهذه الصفات الذاتية يقوم بها جوهر الله أي طبيعته الازلية التي يتميز بها عن كل ما سواه، ولا فرق في الله بين الجوهر والصفات الذاتية. الصورة فيه والطبيعة هما شيء واحد، و "كلمة الله" و "روح الله" هما وحدهما صفات جوهرية(٦). ويقول الباقلاني: "أعلم أن النصارى اذا حقّقنا معهم الكلام في قولهم أن الله جوهر واحد ذو ثلاثة اقانيم، لم يحصل بيننا وبينهم خلاف الاّ في الاسم".(٧).

عندما نؤمن نحن المسيحيين بالله واحد أحد، آب وابن وروح قدس (حياة ومحبة وحوار-شركة) لا نؤمن بثلاثة آلهة مستقلة، ونرفض مثل هذا الشرك ونعتبره كفرًا. والمسيح اعلن ان الله واحد، وقاوم تعدد الالهة، وذلك بشهادة الانجيل والقرآن: "ان الله واحد ليس آخر" (الانبياء ٢٤).

ولعل الإشكال الوارد في القرآن (سورة المائدة ١٨ وسورة التوبة ٢٩-٣١) بخصوص معتقد النصارى، حصل بسبب بدعة المرقونيين أو الابيونيين المنتشرة في شبه الجزيرة العربية. فالمرقونيون يزعمون أن لديهم الانجيل الحق وأن مرقيون صاحبهم هو أعلم الناس بتفسيره! ويؤمنون بثلاثة آلهة: أحدهم عادل وغضوب هو اله العهد القديم، والثاني رحوم وخير هو المسيح، والثالث ظالم وشرير هو الشيطان(٨). ايمان هؤلاء النصارى (ولا وجود لهم اليوم) هو من قبيل الميثولوجيا- الاساطير التي تحكي مغامرات الآلهة، وليس لهم صلة بمسيحيين اليوم. والكنيسة نادت قبل الاسلام وبعده بأن المقصود بالتثليث ليس ثلاثة الهة، وشجبت أهل البدع ونبذتهم.

٢- المسيح وأمه مريم

ورد اسم المسيح في ٩٣ آية قرآنية. والى هذه الايات يرجع التفكير الاسلامي كلما تناول شخص المسيح بالبحث. فلقد أضفى القرآن على المسيح صفات وكرامات تميّزه عن بقية البشر: "وجعلناه وأمه آية للعالمين" (سورة مريم ٢٠). وأرى بين الانجيل والقرآن تقاربًا في نقاط ثلاث:

أ- ولادته من مريم من دون زرع رجل: "اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه، المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والاخرة ومن المقربين. ويكلم الناس في المهد وكهلاً من الصالحين" (آل عمران ٤٥). فالقرآن ينفرد بدعوة المسيح وجيها عند الله دون بقية الانبياء (٩).

كما انه ليس من تقاليد المشرقيين ان يسمى الطفل باسم امه وانما دوما باسم ابيه. وتختلف ولادة المسيح عن الولادات التي نعرفها في "سجل المواليد": "والتي احصنت فرجها، فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين" (الانبياء ٩١).

ب- اتيانه بالمعجزات: "وقال عيسى لبني اسرائيل: قد جئتكم بآية من ربكم اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرًا باذن الله وابرئ الاكمه والابرص واحيي الموتى باذن الله" (ال عمران ٤٨). "وآتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس" (البقرة ٥٥). ويقول ابن جبير: روح القدس هو اسم الله الاعظم وبه كان عيسى يحيي الموتى.

ج- نسبته الى الله: ولد المسيح بتدخل رباني، كما رأينا، وبدون عملية تناسلية، وعندما يرفض القرآن صلب يسوع ويقول "شبّه لهم"، فمعناه ان شخصًا بمرتبة يسوع، وجيهًا عند الله، لا يمكن ان يناله الالم والصلب والموت: "وقولهم أنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وأن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينًا، بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزًا حكيمًا" (نساء ١٥٦-١٥٧). "اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك اليّ ومطهرّك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة"(آل عمران ٥٥). ومن هنا يطلق المسلمون على يسوع لقب "عيسى الحي"، وهذا يتماشى مع خط انجيل يوحنا. اما بالنسبة إلى مريم، فنكتفي بهذه الشهادة: "وإذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين" (ال عمران ٤٢). انها المرأة الوحيدة التي نالت هذا الانعام في القرآن دون سائر النساء.

٣- الايمان باليوم الاخر والقيامة

نحن والمسلمون واليهود نؤمن بقيامة الموتى وبالجزاء: "ويذهب هؤلاء -أي الاشرار- الى عذاب ابدي والصديقون الى حياة ابدية" (متى٢٥:٤٦). "ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم، يصلونها يوم الدين" (الانفطار ١٣-١٥). ويؤكد القرآن ايمان الاديان الثلاثة باليوم

الاخر: "ان الذين آمنوا والذين هادوا (اليهود) والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (البقرة ٦١).

شهادة البطريرك طيمثاوس الاول (٧٨٠-٨٢٣) عن محمد
(من محاورته مع الخليفة العباسي هارون الرشيد)

-وملكنا الحليم المملوء حكمة قال لي: ماذا تقول عن محمد؟

-فجاوبته قائلاً:

ان محمدًا يستحق المدح من جميع العرب وذلك لأجل سلوكه معهم في طريق الانبياء محبي الله، لأن سائر الانبياء قد علموا عن وحدانية الله، ومحمد علم ذلك فاذا هو ايضًا سلك في طريق الانبياء. ثم كما أن جميع الانبياء أبعدوا الناس عن الشر والسيئات وجذبوهم الى الصلاح والفضيلة، هكذا محمد أبعد بني امته من الشر وجذبهم الى الصلاح والفضيلة، فاذا هو أيضًا سلك معهم في طريق الانبياء. ثم ان جميع الانبياء منعوا بني البشر من سجدة الشياطين وعبادة الاوثان وحرّضوهم على عبادة الله عز وجل والسجود لجلالته، هكذا محمد منع بني أمته من عبادة الشياطين والسجدة للاوثان وحرّضهم على معرفة الله والسجود له تعالى الذي هو وحده ليس باله اخر سواه. فقد اتضح اذا ان محمدًا سلك معهم طريق الانبياء... فمن لا يمدح ويكرم ويبجل ذاك الذي حارب من اجل الله، ليس بالكلام فقط انما بالسيف ايضًا أظهر الغيرة لأجل الباري تعالى (١)

----

(١) طالع مجلة المشرق البيروتية: نشر الاب شيخو، عدد١٩ (١٩٢١) ص ٢٦؛ طالع ايضا مقالنا: البطريرك طيمثاوس الكبير رائد الحوار المسيحي الاسلامي في العهد العباسي: مجلة بين النهرين، عدد ١٤-١٥ (١٩٧٦) ص٢٤٢.

٤ - الاسلام يعترف بكتبنا المقدسة

يؤمن القرأن بالانجيل والتوراة. وهذه بعض الايات التي تثبت ذلك:

"قولوا آمنا بالذي انزل الينا واليكم، والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون" (العنكبوت٤٥).

"انزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس" (ال عمران ٣-٤).

"قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم. لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون" (البقرة ٣٦).

وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور. والذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ويعرفونه كما يعرفون ابناءهم. فاسألوا اهل الذكر (اليهود والنصارى) إن كنتم لا تعلمون (الانبياء ٧).

"فان كنت في شك مما انزلنا اليك فاسال الذين يقرأون الكتاب من قبلك" (يونس٩٤).

فالقول بأن الانجيل الذي في حوزتنا محّرف غير وارد ابدًا. ففي زمن القرآن، كما هي الحال الان، نستعمل نفس الانجيل، بدليل أن المخطوطات القديمة (ومنها ما يعود الى القرن الثاني الميلادي، الى جانب مخطوطات كاملة من القرن الثالث والرابع) تطابق النصّ الحالي. ولا مجال للتشكيك في صحة وتاريخية الانجيل، وهو من أكثر الكتب التي انكب عليها النقد العلمي بالتحليل والتمحيص، و لم يعد أحد ينكر سلامته من التحريف.

ويقول عباس محمود العقاد: "سواء رجعت هذه الاناجيل -متى ومرقس ولوقا ويوحنا- الى مصدر واحد أو أكثر من مصدر، فمن الواجب أن يدخل في الحسبان أنها هي العمدة التي اعتمد عليها قوم هم اقرب الناس الى عصر المسيح، وليس لدينا نحن بعد قرابة الفي سنة عمدة احق منها بالاعتماد" (١١).

واغلب الظن أن التحريف الذي يشير اليه القرآن، يقصد به الاناجيل الكثيرة المنحولة المنتشرة في سوريا والجزيرة العربية في زمن الجاهلية. أما انجيل برنابا (١٢)، فقد كتب في اسبانيا في القرن السادس عشر و لم يمر ذكره في القرآن، وهو في الواقع ضد المسلمين أكثر مما هو بجانبهم. انه يناقض القرآن من اوجه عديدة: كأن يعتبر المسيح هو محمد بن عبد المطلب في حين أن القرآن صريح بشأن هوية المسيح!

٥- القرآن يؤمن بالتعددية

يؤمن القرآن بالتعددية وعدم الاكراه في الدين واحترام الاخرين: "لا اكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي. فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، فقد استمسك بالعروة الوثقى انفصام لها والله سميع عليم" (البقرة ٢٥٦).

"لو شاء ربك لآمن من في الارض جميعًا. أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" (يونس ٩٩). وانطلاقًا من الايمان بهذه التعددية، عامل محمد أهل الكتاب معاملة الاخ والند، ما لم تحمله ضرورات حرب على سلوك آخر طارئ لم يلبث أن يزول بزوال تلك الضرورات (١٣).

"ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن، الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي انزل الينا واليكم، والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون" (العنكبوت ٤٦).

وهذه التعددية هي ثراء متبادل. فكل منا يشعر بحاجة الى الاخر كي يساعده ويقدم له مختلف الاساليب التي بها يتكلم الله اليه. وهذه ممارسة عملية يشارك فيها الجميع بأفق واسعة وصدر رحب وبحرية، وهذا ما سيوفر للطرفين الفرح والسلام والثقة والسعادة.

(١) طالع مقالة التوحيد ليحيي بن عدي، تحقيق الاب سمير خليل، جونيه ١٩٨٠؛
جدال البطريرك طيمثاوس الكبير مع الخليفة العباسي المهدي، تحقيق هـ. بوتمان، في كتابه: البطريرك طيموتاوس الاول او الكنيسة والاسلام في العصر العباسي الاول، بيروت ١٩٧٥؛
رسالة عبدالله بن اسماعيل الهاشمي الى عبد المسيح بن اسحق الكندي ورسالة الكندي الى الهاشمي، القاهرة ١٩١٢.
ولمعرفة المزيد من هذه الجدالات، طالع البيبليوغرافيا في مجلة اسلاموكريستيانا: الاعداد ١-٧.

(٢) قال ابن الكلبي: "كان لاهل كل دار في مكة صنم في دارهم يعبدونه. فاذا اراد احدهم السفر، كان اخر ما يصنع في مترله ان يتمسح به". واذا قدم من سفره كان اول ما يصنع اذا دخل مترله يتمسح به ايضا" (كتاب الاصنام، ط٢ ص ٣٣). كذلك كانت عبادة الاسلاف منتشرة عند عرب الجاهلية (طالع عفيف عبد الفتاح طبارة: روح الدين الاسلامي، ط٨، بيروت ١٩٦٩ ص ٩١).

(٣) روبير كسبار: اللاهوت الاسلامي ج١ ص ١٩ (بالفرنسية). طالع كذلك ابراهيم النعمة: ايماننا الحق بين النظر والدليل، الموصل ١٩٨٣ ص ٣٠.

(٤) من بين الطوائف المسيحية في الجزيرة، هناك فئة يهودية قبلت المسيحية سميت بـ "الابيونية". وسموا ايضا النصارى ولهم انجيل منحول يدعى انجيل العبرانيين.

(٥) الشيخ محمد عبده: رسالة التوحيد، القاهرة ١٩٦٥ ص ٣٢-٣٣.

(٦) يقول ابن العبري: "اما المعتزلة فالذي يعمهم من الاعتقاد بنفي الصفات القديمة عن ذات الباري تعالى هربا من اقانيم النصارى. فمنهم من قال انه تعالى عالم لذاته لا بعلم، وكذلك قادر وحي. وبالجملة نفي الصفات مقتبس من الفلاسفة الذين اعتقدوا ان ذات الله واحدة لا كثرة فيها... وبازاء المعتزلة، الصفاتية وهم يثبتون لله صفات ازلية من العلم والقدرة والحياة وغيرها (تاريخ مختصر الدول، ط٢ بيروت ١٩٥٨ ص٩٦).

(٧) الباقلاني: الطمس في الاصول الخمس، ص ٧٣.

(٨) ميمر في وجود الخالق والدين القويم، لثاوذروس ابي قرة، تحقيق ونشر اغناطيوس ديك، جونيه ١٩٨٢ ص ٢٠٨.

(٩) لقد اورد الامام الفخر الرازي حديثًا شريفًا قال فيه: "سمعت رسول الله يقول: ما من مولود ادم الا ونخسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا من نخسته اياه، الا مريم وابنها".

(١٠) طالع ف. م. هل من تحريف في الانجيل؟ (سلسلة- عدد ١٤)، الكتاب المقدس ومخطوطاته (ت١ و ت٢ ١٩٨٢- عدد خاص).

(١١) حياة المسيح: عباس محمود العقاد، من سلسلة كتاب الهلال، العدد ٢٠٢ لسنة ١٩٦٨،ص ٢٠١

(١٢) معا على الطريق، محمد والمسيح، خالد محمد خالد، ط٦، بيروت ١٩٧٩ ص ١٤٩. انه كتاب جدير بالمطالعة.

(١٣) طالع ف. م.: انجيل برنابا (سلسلة- عدد ٢٧)، آذار ١٩٧٣، حزيران/ تموز ١٩٨٢.

رسالة العلمانيين قضية ولاهوت

بمناسبة قرب مناقشة رسالة العلمانيين في مجمع الاساقفة المقبل، في روما، والبدء بدراستها منذ الان في مختلف كنائس العالم، سيحاول هذا الملف اعطاء فكرة عن هذه القضية وعن التطورات التي مرت بها عبر العصور، ليخلص الى تصور لاهوتي يجيب بوضوح عن حقيقة الامور.

موقع العلمانيين عبر العصور

لا شك بان خير وسيلة لفهم قضية ما، هي الرجوع الى تاريخها. اما قضية العلمانيين، فترقى بتاريخها الى ايام بدء البشارة الخلاصية، مرورا بكل الحقبات الحضارية المعروفة وحتى يومنا هذا. وقد ظل التاريخ هو العامل الاساسي المؤثر على المفهوم اللاهوتي كما سنرى تباعا.

العلمانيون في الكنيسة الاولى

في زمن المعلم، كانت الموهبة اساسا للتمييز بين القيادة والقاعدة. فيسوع كما نعلم لم يكن يحمل تفويضا شرعيا للبشارة بملكوت الله، لكن الموهبة عنده هي التي جعلت منه اعظم "رابي" في تاريخ البشرية. اما الرسل والجماعة الاولى، فكانت موهبتهم ان يكونوا احسن تلاميذ.

بعد ثلاث سنوات من بدء البشارة، تحول الرسل انفسهم الى قادة، فدخلنا عصر الكنيسة بكل تعقيداته، رغم البساطة الكبيرة التي كان يتصف بها في تلك الايام. ففي هذه الكنيسة نجد مستويات متعددة من السلطات، مثل سلطة بطرس الرئاسية وسلطة بولس الفكرية، الى جانب سلطة سائر الرسل الاعتيادية. ناهيك عن تأثيرات كثيرة جاءت من مصادر مختلفة وعملت على بلورة لاهوت يمكن تسميته بلاهوت الرسل. واذا كان دور القيادة متميزا في

صياغة هذا اللاهوت، الا ان دور القاعدة، بذهنيتها المختلفة، لم يكن اقل اهمية، الى درجة يمكننا ان نقول ان الاوضاع الحضارية للجماعات الاولى جعلت من الانجيل الواحد اناجيل اربعة.

ونلاحظ ان موقع التلمذة لم يلغ دور الجماعة وحماسها، وذلك لان الكنيسة كلها كانت "فكرا واحدا وقلبا واحدا"، أي الها كانت كلها باتجاه آمال واحدة في قلب الحياة. وهذا هو السبب الذي جعل القيادة تقيّم مواهب الكنيسة جمعاء وتعتمد عليها في بنيان ملكوت الله، حتى اننا نجد انفسنا امام لاهوت في العلاقات الكنسية هو ارقى ما جاءت به البشرية من فكر في مثل هذه المسائل. اما سبب هذا النجاح، فيعود الى الوفاق الايماني الحر بين الجميع، كما يعود الى التقدير العالي الذي كانت تحمله الكنيسة لجميع ابناء الله.

العلمانيون في حقبة الجدالات:

هذه الحقبة هي حقبة المجامع الكبرى بعد ان تنصر الملك قسطنطين، وفيها انصرفت الكنيسة الى تحديد الايمان عن طريق المفاهيم الفلسفية، حتى تحولت التعابير الفلسفية الى عقائد تدّعي الها تلم بتمام الحقيقة الالهية. فصار اتباع المدارس الفلسفية يكفّرون بعضهم بعضا ويحرمون بعضهم بعضا. فلا عجب ان يصمت العلماني في مثل هذا الجو او يتعصب لاحدى المدارس لسبب لا يمت الى الايمان بصلة.

العلمانيون في القرون الوسطى:

يمكن اعتبار هذه الحقبة من تاريخ الكنيسة فترة اكتمال لاهوتها التقليدي. وقد كانت عموما حقبة متسمة بالهدوء والاستقرار بفضل تآلف السلطتين الدينية والمدنية، وبسبب زيادة نسبة الجهل في الكنيسة نتيجة تنصر القبائل البربرية وامتزاجها بالشعوب اللاتينية. ولهذا اكدت الكنيسة في هذه الحقبة على الطاعة والانقياد وتعاملت مع الناس وكأنهم قطيع يساق بعصا الراعي. ولهذا نفهم كيف تقوّت وتضخمت سلطة الاكليروس في هذه الفترة حتى بات الكاهن مسؤولا عن ادق خفايا الفكر وخلجات القلب. اما التبرير اللاهوتي، فكان ينطلق من ثنائية الروحي والزمني حيث يرتبط الزمني بالروحي دون ان يبقى له أي استقلال واي كيان، ويحكم الكهنة بتفويض الهي في جميع الامور.

الثورة اللوثرية والثورة الفرنسية:

بالرغم من الفاصل الزمني بينهما، يمكن اعتبار الثورتين ظاهرتين لحقيقة واحدة. فالثورة الفرنسية حدث دشّن حضارة عالمية جديدة تختلف عن سابقتها وتتناقض معها. اما الثورة اللوثرية، فقد كانت الشيء عينه ولكن على صعيد الفكر الديني المتفاعل مع الحضارة والمعبر عنها، حيث يمكن ان نقول عن الثورة اللوثرية الها كانت مقدمة للثورة الفرنسية. وقد جاءت

كلتا الثورتين كنقيض للفلسفة اللاهوتية السائدة في القرون الوسطى وللنهج الاكليروساني المتحالف مع الفكر الاقطاعي.

لقد كان ممكنا ان لا تتأثر الكنيسة سلبيا بتلك الثورتين لو لم تكن هي نفسها جزءا من النظام الاقطاعي الاكليروساني قلبا وقالبا. كانت الكنيسة في الواقع قد ربطت وجودها مع الاقطاع كما ربطت ايمانها باللآهوت الاكليروساني، فصارت شريكة مباشرة في تلقي الضربات مع النظام الاقطاعي. ولهذا فقد مرت بفترة عصيبة متشنجة سلبية رفضت فيها أية حركة واي انفتاح، وصارت تقول "لا" لكل ما تشم فيه رائحة التغيير والعلمنة، حتى بات بوسعنا ان نبني منهجا لاهوتيا متكاملا من مجمل "اللاءات" التي قالتها الكنيسة في هذه الحقبة -وقد شهدت تمركزا شديدا للسلطة بيد الدوائر الفاتيكانية- سيما بعد ان شعرت بخطر آخر يداهمها هو خطر العلمانية المادية والالحاد المعاصر. وهكذا بقيت كنائس العالم اجمع تعيش على لاهوت تقليدي منفصل عن العالم، مغرق في العقائد والطقوس والتقاليد، وكأن المسيحية عقائد وطقوس وتقاليد، وليست شعبا مؤمنا يعيش ويعاني، يفكر ويريد.

عهد المجمع الفاتيكاني الثاني:

كان المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني حدثا كبيرا في تاريخ الكنيسة لما به فيه مصممه والداعي اليه البابا يوحنا الثالث والعشرون من روح نبوية دعت الى الاصلاح والتغيير، رغم انه جاء متأخرًا بحوالي مئة عام على الاقل. وقد كان الفاتيكاني الثاني مجمعا راعويا بالدرجة الاولى، وهو لم يحاول، ولاسباب عديدة، ان يقدم لاهوتا منسجما مع الحضارة المعاصرة، لكنه قدر ان يعصرن بعض المفاهيم ويتجاوز جمود مفاهيم اخرى لم يكن من الضروري ان تبقى كما كانت. وعموما نجح المجمع في فتح الطريق امام التغيير وفي خلق نوع من التطبيع بين اللاهوت التقليدي والفكر الماصر بعد ان نُقي هذا اللاهوت من بعض شوائبه.

الا ان ما تحقق بسبب المجمع وعلى هامشه كان اعظم مما حصل داخله، لا سيما في مسألة العلمانيين التي نحن بصددها. فالعلمانيون او بالاحرى القاعدة برمتها قد خرجت الى النور دفعة واحدة، واخذت تنطق بما عندها من مواهب وكأنها في عنصرة جديدة. وما كانت تقوله الى ذلك الوقت في الخفية، اخذت تنادي به على السطوح. و لم تكتف القاعدة بالقرارات والتوجيهات المجمعية التي ايدتها ورحبت بها، ولكنها راحت تعمق وتجذر تلك القرارات والتوجيهات لتوصلها الى نتائجها المنطقية والحتمية، ولتخرجها من غموضها وترددها. كما شرعت في صياغة الفكر الجديد الذي يجيب بوضوح الى كل هذه المستجدات. هذه الفترة سميت بفترة ما بعد المجمع، الا ان بوسعنا ان نسميها بحق فترة "ما وراء المجمع" على غرار ما وراء الطبيعة.

والجدير بالذكر ان هذه الفترة قد اغاضت الفئات المحافظة لانها شعرت بالخطر على عالمها، كما اقلقت الكنيسة الرسمية لانها لم تتمكن ان تسيطر عليها وتوجهها ولا ان تتنبأ بما يمكن ان تصل اليه.

موقع العلمانيين في كنيستهم

النظرة السريعة التي القيناها على الحقبات التاريخية التي مرت بها الكنيسة، تظهر بجلاء ان حركة التاريخ تسير وفق قوانين لا سبيل الى تجاهلها. وان اول مظهر من مظاهر هذه القوانين هو صراع المتناقضات حيث ينقسم الناس في كل حقبة الى فئتين اساسيتين: فئة تتشبث بالقديم ولا تتنازل عنه، وفئة تثور عليه وتريد تجاوزه. اما النتيجة، فهي دائما لصالح الفئة الثانية مهما طال الزمن او بلغت التضحيات وكثرت العراقيل. انها قوانين اثبت العلم وجودها تسمى بقوانين الجدل او الديالكتيك. وفي خضم الصراع المرير وفي قلبه، تحتل الكنيسة الرسمية عادة موقع الفئة الاولى بسبب بطئها في استيعاب وفهم حركة التاريخ وفي قراءة "علامات الازمنة" بروح نبوية، لان الكنيسة الرسمية غالبا ما تنغمس في حضارة ومفاهيم الطبقة التي تعيش وسطها، فلا تقوى على فك ارتباطها بها بسهولة. لذلك تتعرض الكنيسة باستمرار الى هزات عنيفة وانشقاقات مريرة والى فتور في الحياة المسيحية، ويكون العلمانيون هم دائمًا الطرف الثاني في الصراع، ويبقون هم وحدهم الادوات الحقيقية لاي تغيير، سواء شاءت الكنيسة الرسمية أم أبت. وعندما تقدم الكنيسة لاهوتا يرفض الاعتراف للعلمانيين بهذه المكانة الطبيعية في عالمهم، فانها لا تظلم العلمانيين وحدهم حسب، بل تظلم نفسها ايضا، لانها تعزل نفسها عن الواقع وتغمض عينيها عن فعل الروح القدس في العالم.

العلمانيون في الفكر اللاهوتي التقليدي

اذا تتبعنا الفكر اللاهوتي في مسألة العلمانيين، سنقتنع بان غاية هذا الفكر الاولى كانت تحييد فعل العلمانيين الديالكتيكي الرائد وشل فعاليته -بعدم الاعتراف بشرعيته- من اجل الحفاظ على وضع قائم اعتبر ملائما ومقدسا. ولا استثني من هذا القول فكر المجمع الفاتيكاني الثاني، لان هذا المجمع -رغم محاولاته الاصلاحية- بقي تقليديا في هذه المسألة ذات المساس بالسلطة الكنسية، فشدد على رسالة العلمانيين دون ان يقدم لاهوتا جديدا عن "موقع العلمانيين" ومكانتهم الحقيقية كصانعي الحياة.

ولكي يصل الفكر اللاهوتي التقليدي الى مأربه، كان لا بد له ان يعتمد على منطلقات تفصل الايمان عن الحياة. لذلك تبنى نظرة تقليدية غيبية وبدائية عن الله. وجعل من هذه النظرة مركز الحياة الدينية كلها. وتعتمد هذه النظرة على ثنائية صارمة تعزل الله عن العالم كليا رغم هيمنته التامة عليه. وهكذا قسم الفكر التقليدي الوجود الى طبيعي، ارضي، زمني من جهة، والى وجود فائق الطبيعة، سماوي، الهي من جهة اخرى.

كما تعتمد النظرة المشار اليها على السببية، وتعني ان الله هو علة كل شيء، ليس بالمعنى التوماوي الذي يعتبر الله "العلة الاولى" بكل ما في ذلك من عمق يسمح للخلائق المسماة بالعلل الثانوية بقدر كبير من الاستقلالية، ولكن بالمفهوم الشعبي الذي يخلط بين العلتين، فيتكلم عن الله العلة الاولى وكأنه يؤدي دور العلل الثانوية، أي كانه جزء من نظام العالم او كأنه انسان يتصرف بطريقة البشر.

ولعل القارئ يفهم كيف ادت هذه النظرية الى عزل العلمانيين اللاهوتيين عن مواقعهم، والى رفض أي اعتراف لهم بشرعية المبادرة الى تغيير العالم ومفاهيمه. فبموجب هذه النظرة تكون جميع قوانين العالم ثابتة، بما فيها القوانين التي تشرف على تصرف الانسان -المسماة بالشريعة الطبيعية- والتي يدّعي الاكليروس الوصاية على تفسيرها وتطبيقها، حتى سماها بالشريعة الالهية.

لكن عزل العلمانيين كان اقوى، حين اقام الفكر اللاهوتي التقليدي دينا مبنيا على ثنائية الارض- السماء، فجعل بين العالمين هوة لا يمكن تجاوزها الا بالوحي الالهي والنعمة. فلا علم حقيقيًا عن الالهيات بدون هذا الوحي، ولا خلاص للانسان خارج عنه. وقد استغل اللاهوت التقليدي علم المسيح، او كريستولوجيا الجامع، ليؤكد على نظرته الغيبية الثنائية. فالمسيح هو القادم من السماء، الهًا متجسدًا، جاء ليكشف لنا اسرار الله، وقد اعطي له كل سلطان، فصار لنا نبيا وملكا وكاهنا. لذلك فان كل ما يحتاجه الفكر اللاهوتي التقليدي هو التسليم بما كشفه لنا الله بيسوع المسيح وحفظه سليما ونقله "كما انزل" من غير زيادة او نقصان. وقد كان من المنطقي ان تناط مسؤوليات هذه الخدمة بالكهنة، بحكم كهنوتهم الخدمي الذي ينقل اليهم سلطان المسيح ويميزهم تمييزا جوهريا عن العلمانيين الذين اعترف لهم اللاهوت اخيرا بكرامة الشركة في كهنوت عام يلقي عليهم مسؤوليات الشهادة والتبشير، دون ان يكون لهم نصيب في الاجتهاد وتحديد ابعاد معاني الرسالة التي يبشرون بها.

موقع العلمانيين في اللاهوت المعاصر

عندما نتحدث هنا عن اللاهوت المعاصر، فاننا لا نعني منهجا معينا بل اتجاها عاما برز في عصرنا يستند الى اسس مخالفة تمام لاسس اللاهوت التقليدي ومتناقضة معها جدليا. فكما افرزت الحياة منطلقات ادت الى اللاهوت التقليدي، هكذا افرزت هذه الحياة عينها منطلقات جديدة تناقض ذلك اللاهوت وتؤشر الى بديله.

اما اهم هذه المنطلقات، فهي بروز الانسان كعالم مستقل يحمل في ذاته قوانينه واهدافه، بغض النظر عن "العلة الاولى" التي منحته اياها. لقد جاء هذا الانسان نتيجة حاجته الى الكرامة والتحرر والخلاص من القدر، مقرونة بشعور عام بالقوة، والاقتدار، تماما كما كان الانسان القديم قد جاء نتيجة لحاجته الى الحماية والرعاية، بسبب شعوره بالضعف والعجز. وكما استغل الفكر التقليدي حاجة الانسان تلك ليفرض عليه لاهوتا يضمن تحقيق حمايته ورعايته، ويضمن في مرحلة لاحقة بقاء الانسان تحت الوصاية، هكذا يلجأ الفكر المعاصر الى الاخذ بعين الاعتبار تطلع الانسان الى الكرامة والتحرر والخلاص، ليدخل لاهوتا جدليا متناقضا مع اللاهوت التقليدي يحقق للانسان امله وتطلعه.

من اجل ذلك رفض اللاهوت المعاصر مفهوم الايمان الغيبي وعاد الى مفهومه الانجيلي الاصيل، أي انه عاد الى صميم الحياة الانسانية ليرشدها الى المستقبل الافضل. فالايمان عاد الى

معنى البشرى التي تحرك المؤمن وتستقطبه، لتحوّل حياته الى مسيرة نحو الامل الموعود، تحت قيادة الروح القدس الذي يتجلى حيث يشاء.

في هذه المسيرة الحياتية الايمانية يكون دور القيادة والكهنوت محددا بوظيفتيهما. اما دور النبوة الذي يشمل تقييم المفاهيم الحياتية وقراءة علامات الازمنة وتوضيح المعاني الايمانية وتطبيقها والتعمق في فهم معطيات الايمان والكتاب المقدس، فهو امر يعود الى كل المؤمنين سيما الى اولئك الذين يملكون "الموهبة" في امر من هذه الامور. ومعنى هذا ان لا احد يحق له ان يحتكر تفسير الايمان، كما لا يحق لمن لا يملك الايمان والموهبة والدراية بان يشارك، باسم الديمقراطية او باسم الانتماء المسيحي، في قرار ايماني من قرارات الجماعة. وهنا نعود الى دور السلطة الشرعية المدعومة بموهبة القيادة لتمارس عمل التوحيد والجمع والتنشيط، ولتؤدي دورها في تمييز الارواح، أي التفريق بين الغث والسمين، بين الايمان والشعوذة، في شركة تامة مع كل الجماعة المسيحية وليس خارجا عنها.

لا شك ان ما عرضته في الفقرة الاخيرة يبدو مثاليا، وقد يقول البعض انه يؤدي الى فوضى بسبب تعددية حاجات الانسان ومفاهيمه. وجوابي ان الفوضى مع الحياة هي احسن من الف نظام خارج الحياة. ان النظام، في الواقع، شيء جيد شرط ان يلبي، في الوقت عينه، مطاليب الحرية المسيحية، حرية اولاد الله؛ فلا يحسن بنا ان نقتبس نظاما عن المؤسسات الزمنية لا يصلح لجماعتنا المسيحية التي لها اصالتها وخصوصياتها وتحتاج ال نظام اصيل. ومهما يكن فاننا نؤمن بفعل الروح القدس، فلتكن لنا ثقة كافية بانه قادر، بطرقه الخاصة، ان يقود العالم الى كماله ويبني ملكوت الله.

العلامة ابن العبري والفكر السرياني

في الذكرى المئوية السابعة (+١٢٨٦) لوفاة العلامة الكبير المفريان مار غريغوريوس يوحنا ابن العبري، كان لابد للكنيسة السريانية الارثوذكسية ان تحتفل بذكرى ذلك الذي كان، بشهادة الفلاسفة من المستشرقين، "دائرة معارف القرن ١٣". وتلبية لآثاره الروحية والعلمية الجليلة، قررت اعتبار عام ١٩٨٦ "سنة ابن العبري"، واصدر قداسة البطريرك الانطاكي مار اغناطيوس زكا الاول عيواص منشورا بالمناسبة حدد فيه بدء الاحتفالات في ٢٧ تموز..

سيادة الحبر الجليل مار غريغوريوس صليبا شمعون مطران الموصل وتوابعها للسريان الارثوذكس تلطف مشكورا واتحفنا بالمقال التالي الذي فيه رسم ملامح من وجه ابن العبري.

كلما دار الحديث عن قادة الفكر او بناة المجتمع الفاضل ودعاته، او رواد الحركة الانسانية او الفلسفة والفلاسفة او الادب والادباء، انتقلت بي الذاكرة فورا، وهفا الذهن الى ذلك الانسان الذي عاش ومات لربه ولاخوته في الانسانية، وقاد الفكر السرياني نحو الذرى، الانسان الذي كرس ذاته للعلم والمعرفة ليكون مشعلا وضاء ينير الدرب امام الاخرين نحو الكمال والقداسة والسعادة. كذلك تشتد فيّ الرغبة إلى الاصغاء الى صوته العذب الآتي عبر العصور، الذي رنّ داعيا الى المحبة والاخوة، وما زال رنينه يملأ اذهان الاجيال ومسامعها. واعني به العلامة الذائع الصيت ابن العبري، احد اقطاب الفكر الديني والعلمي والاجتماعي، الذي ترك لنا ثروة علمية عملاقة، وتراثا فكريا قيما ينم عن نبوغ يتيم وعبقرية متميزة، ويجذب اليه النفوس الظمأى الى افاويق الحياة المثلى لتروي ظمأها من روافد علمه وموارد تقواه وفضيلته.

اقول، كلما تذكرته، جاشت في نفسي احاسيس التقى، ورن في داخلي جرس الحب، وهزني الشوق الى ينابيع المعرفة التي اتخذ منها علامتنا قوته اليومي الذي لا ينفد ومشربه المنعش الذي لا ينضب، ولها كرّس جل اوقاته بل حياته. لقد هام بها وسكر من نشوتها حتى الثمالة، فامسك بناصيتها واحكم قيادها وكشف اسرارها، ونهم منها بلا هوادة، ليس فقط اشباعا لرغبة ذاتية داخلية، بل لكي يعكس مفاعليها على الغير، ويجعل منها منارا يسترشد به اولئك الذين هاموا على وجوههم في متاهات هذه الحياة المظلمة دون روية او رشاد، فيعودوا الى طريق الصواب، حيث النور والطمأنينة والسلام.

انك لتشعر بنشوة ذهنية عارمة وانت تقرأ أحد مؤلفاته، لا سيما الخلقية منها والروحية، او تقف على افكاره الوجدانية التي ضمنها قصائده الشعرية، فهو يسمو بك الى الذرى وينقلك الى عالم غير الذي تعيشه، عالم تسوده المحبة والاخاء، يحب الفضيلة ويمقت الرذيلة، ويتغزّل ابناؤه بمكارم الاخلاق ومحاسنها، عالم يعيش ربيعا لا يدركه خريف، ويتمتع بنغمات سحرية عذبة لا تعكر صفوها اصوات البوم او نعيق الغربان.

سيرته

في مدينة ملطية (تركيا) ابصر علامتنا النور عام ١٢٢٦م في بيت مسيحي يتضوع في ارجائه عبير الايمان والتقى، وترفرف في اجوائه الروح الانسانية، ويعشعش في ذهن كل فرد من افراده الذكاء الوقاد، واليه وجدت المعرفة سبيلا، واتخذت لها مكانا في كل زاوية من زواياه، فلا غرو ان ينشأ الفتى يوحنا نشأة مسيحية انسانية نقية. فمنذ صباه بدت عليه امائر النباهة والذكاء، فانكب على الدرس ونهل من العلوم الدينية واللغة السريانية والطقوس الكنسية، الشيء الكثير وهو ما يزال فتى.

لم يكن ليستقر لاسرته قرار، اذ كانت تلجأ الى التنقل من مكان الى اخر تحت ضغط ظروف قاسية، فتركت مسقط راسه قاصدة انطاكية ومن ثم طرابلس الشام، وفي كلتاهما ارتشف المزيد من ينابيع العلم، حتى غدا هو ذاته ينبوع عذبا تتشعب منه روافد الحكمة. وفي انطاكية، وهو في الثانية عشرة من عمره، انزوى في دير قريب منها عاكفا على الدراسة والمطالعة. ولما ترعرع وترعرت فيه المعرفة، تسربت انباء علمه ونبوغه الى كل مكان، وهل ترى تختفي مدينة مبنية على جبل؟ وربما، ولاول مرة في تاريخ الكنيسة السريانية، يرشح لرتبة الاسقفية شاب في مقتبل العمر لم يتجاوز العشرين ربيعا، فقد رشح ورسم اسقفا لجوباس القريبة من ملطية عام ١٢٤٦ وسمي غريغوريوس، بيد انه صرح بان البطريرك اضطره على قبول رئاسة الكهنوت في حين انه لم يكن ليفكر اصلا في ذلك. ولكن ما فتئ ان انتقل الى رعاية بلدة لاقبين القريبة منها، واخيرا استقر به المقام في حلب التي جاءها عام ١٢٥٢ وساس ابرشيتها بهمة ونشاط، وفيها اتم دراسته الفلسفية واتقن اللغة العربية ودرس ادابها. وبعد رعاية موفقة دامت اثني عشر عاما، وقع الاختيار عليه ليتسلم زمام كرسي مفريانية المشرق، فتمت رسامته سنة ١٢٦٤ وكان مقر الكرسي المفرياني يومذاك قد نقل من تكريت الى منطقة الموصل ونينوى، فامضى العشرين عاما التي دبر فيها هذا الكرسي متنقلا بين الموصل والقرى اللائذة بها، وقد طابت له الاقامة في دير مار متى، فامضى فيه فترة لا باس بها، محبِّرا ومصنِّفا، ومضيفا مآثر جديدة الى ماثر الدير العديدة. ولا بد ان ينال الدير قسطه من الازدهار بتواجده فيه، وبخاصة من حيث تنشيط الحركة الثقافية.

ولما كانت ولايته الروحية تمتد في العراق وفارس، كان عليه ان يقوم بزيارات راعوية تفقدية الى جميع الابرشيات. وفي اخر رحلة له لمدينة مراغة (شمال غربي ايران)، وافته المنية هناك على اثر حمى شديدة، في ٣٠ تموز١٢٨٦، وكان برفقته شقيقه برصوم الصفي، وقد سبق وأنبأه بحلول منيته في هذه السنة مثبتا ذلك في بيتين من الشعر مفادهما: "ايها العالم لقد اصطادتني صنارتك عام ١٢٢٦ واظنني باني ساغادرك عام ١٢٨٦". وقد شيع باحتفال مهيب اشتركت فيه كافة الملل والنحل. وبعد فترة، نقل رفاته الى دير مار متى الذي لا زال يحتضنه حتى يومنا هذا.

ومما تجدر الاشارة اليه، انه اتهم وهو على قيد الحياة، بانه من اصل يهودي استنادا الى كنيته "ابن العبري"، فسخر من هذا الاتهام ورده بابيات شعرية قال فيها: "ان كان السيد

(المسيح) قد رضي ان يُدعى سامريا فلا تخجل إن دعوك عبرانيا، علما بان هذا اللقب متأت من عبور النهر وليس من عقيدة معيبة"، وقد قيل انه ولد او احد ابائه اثناء عبور اسرته نهر الفرات.

شخصيته ومكانته الاجتماعية

تمتع ابن العبري بعبقرية فذة لم تقم على أي جانب من جوانب حياته او أي صنف من صنوف علومه، انما قامت قبل كل شيء على شخصيته الفريدة. صحيح انه كان عالما واديبا وفيلسوفا، ولكن قبل هذا وذاك، كانت شخصيته، تلك الشخصية المحاطة بهالة من الجلال والوقار، تفرض احتراما على الجميع، والتي احتلت مكانة مرموقة لدى كافة معارفه وقادري علمه وفضله. فكان موضع تقدير واجلال حيثما حل واينما دخل، وبخاصة من قبل السلاطين والولاة. فقد دخل يوما الى احمد بن هولاكو فرحب به ومنحه اقرارا خطيا بفضله، وسمح له ببناء ما يشاء من الكنائس. كما نال حظوة كبرى لدى هولاكو المغولي نفسه، حيث كان يتواجد في بلاطه احيانا كثيرة ولا سيما بصحبة الاطباء.

ولعل اروع تعبير عن شخصيته ما قاله احد اعيان المسلمين: "كلما سمعت خطابا من المفريان حسبتني اسمع الحكمة من ارسطوطاليس، لله دره حكيما مدققا وفيلسوفا محققًا". كما ان جاثليق السريان النساطرة بهت من شخصيته المهيبة لدى رؤيته اياه في بغداد، فما كان منه ان قال: "طوبى لشعب له مثل هذا". ومما يوثر عنه، الامر الذي رفع من مكانته كثيرا، زهده عن المادة حيث انه لم يفسح لها المجال لتأخذ مكانًا في نفسه، وقد اشار الى هذه الميزة الكريمة شقيقه برصوم حيث قال: "اني لم أره طيلة اربعين عاما يمسك درهما بيده، واذا ما قدم له مؤمن هدية مادية، تركها على المائدة حتى يدخل احد تلامذته فياخذها، بعد ان يوعز اليه بانفاقها على اعمال مفيدة". ولا ريب فانه كان من كبار دعاة النسك والتصوف، ومن المعلوم ان اهم صفات المتصوفين هي الفقر الاختياري.

لقد زي شخصيته بوشاح من التقوى والقداسة التي لم تأته عن طريق اعتزال الحياة واختيار صفاء الفكر ومناجاة الرب داخل صومعة ضيقة كما كان شأن معظم القديسين، بل كانت نابعة من وجدانه ومن فكره الذي لم يشغله شيء سوى حب الله والانسان، و لم يراوده سوى العمل على اداء رسالته الانسانية والروحية على اكمل وجه، جاءته وهو يعيش في معترك الحياة.

نظرته الى الانسان والمجتمع

يُعتبر ابن العبري احد الدعاة البارزين الى المجتمع الافضل، والعاملين على خلقه لتخفق في سمائه رايات الحب والسلام، وينعم ابناؤه بالهدوء والسعادة والاستقرار. لذا سعى، اسوة بمن سبقه من قادة الفكر الاجتماعي، الى ايجاد مجتمع تتوفر فيه كافة الخصائص والمزايا التي تجعله صالحا متكاملا، وتجعل الحياة فيه كريمة، كالتحلي بالمثل العليا والقيم الروحية والخلق الرضي. ومن هنا جاء اهتمامه البالغ بالانسان والانسانية. ومن تأمل كتاباته واتجاهاته الفكرية، وجدها

برمتها تشكل دعوة ملحة الى صيانة كرامة الانسان وسيادة الروح الانسانية، حيث كان يحمل في نفسه احساسا عميقا صادقا بضرورة ان يعيش الانسان حياة كريمة ترفل بالسلام ويسودها الوئام وتشدها اواصر الحب والوفاق، التي من شأنها ان تمهد امامه طريق الامان والكمال والقداسة، بلوغا الى الغاية القصوى في السعادة المنشودة ضمن مجتمع صالح.

ولكي يتحقق مثل هذا المجتمع لا بد من عنصرين هامين، هما العمل والسياسة الحكيمة. وقد جسد افكاره هذه عمليا بدأبه على العمل المستمر دون كلل او ملل، وقد كانت له فلسفته الخاصة في اهمية العمل من اجل بناء مجتمع امثل: تقوم على ان "من لا يعمل لا يستحق الحياة". فالعمل في نظره هو قوام الحياة السعيدة، لان المجتمع الصالح يقوم على اساس تبادل المصالح والخدمات بين سائر طبقات الشعب. وبناء على هذا، فهو يوجه انتقادا لاذعا للذين يركنون الى الكسل، غير آبهين لما يقضيه عليهم الواجب حيث يقول: "إن لم يدفع هؤلاء ثمن بطالتهم للحياة، فهم ظالمون. كل من لا يعمل، ولا يقدم عذرا شرعيا، هو ظالم في حق مجتمعه بل عالة عليه، فمثل هذا الرجل يجب الا يطعم خبزا".

اما العنصر الاخر فهو اتباع سياسة حكيمة في ادارة شؤون المجتمع او الدولة، وبث روح الديمقراطية فيها، لانها في نظره، احد اهم اركان الحياة الاجتماعية المثلى. وهو يرى انها لا تتم الا بسيادة روح التفاهم وتكامل عناصر الشعب المختلفة، فقوام الدولة او المجتمع لا يستقيم الا بالتعاون الوثيق ما بين السلطة وافراد الشعب على اختلاف طبقاتهم وعناصرهم وانتماءاتهم.

ومن هنا يجب ان تسلّم السلطة لمن هو جدير بها، ويستخدمها لصالح شعبه ومن اجل رفاهه وسعادته. ولا ينسى ان يشير الى بعض المزايا التي يجب ان يتصف بها ذوو السلطة، التي من شأنها ان تمكّنهم من بث روح الديمقراطية، مثال ذلك: الخبرة الجيدة، حسن الادارة، قوة الادراك، معالجة المشاكل بالصبر، حسن اختيار الاعوان، وما الى ذلك...

نظرته الى الاختلافات المذهبية

لقد نشأ على العقيدة السريانية الارثوذكسية ودرسها بعمق واستفاضة، فتمسك بها ايما تمسك عن قناعة تامة. وبالرغم من ذلك، فانه لم يستسغ الجدل العقائدي، فمؤلفاته الدينية تكاد تخلو من مثل هذا الجدل العقيم. وحيثما اقتضت الحاجة الى بحث اية عقيدة، فانه يطرحها طرحا موضوعيا دون ان يحاول المس في عقيدة مختلفة او مضادة، ايمانا منه بأن العقيدة المسيحية لدى مختلف الكنائس هي واحدة بالرغم مما يبدو فيها من اختلاف ظاهري، وقد كان يعاني كثيرا من هذه الاختلافات التي لا طائل تحتها، وكثيرا ما عبر عن معاناته هذه بسبب النزعات المذهبية في الكنيسة المسيحية، واليك رأيه بهذا الصدد: "بعد الدراسة والامعان تبين لي ان اختلافات المسيحيين مع بعضهم البعض لا تستند الى اية حقيقة، بل الى مجرد الفاظ ومصطلحات لا غير. فجميعهم يؤمنون بالمسيح الرب، الها تاما وانسانا تامًا دون اختلاط الطبيعتين او امتزاج او تبلبل. اما الاتحاد، فهذا يدعوه طبيعة، وذاك اقنوما، واخر شخصا. وقد

اكتشفت ان الطوائف المسيحية، رغم ما يبدو بينها من اختلافات، هي متفقة تماما. وهذا ما دعاني الى ان استاصل البغضاء من اعماق قلبي، وقد آليت على نفسي ألاّ اجادل احدا من الناحية العقائدية، لذا غضضت الطرف عن الجدل واجتهدت ان ادرك قوة حكمة اليونان من منطق وطبيعيات وعلم الفلك وحركة الكواكب. ولان الحياة قصيرة والعلوم واسعة، فقد تزوّدت من كل علم شيئا يسيرا".

آفاق معرفته

المعرفة لدى ابن العبري هي نور ساطع ينير الدرب امام الانسان ويبدد عن حياته سحف الظلام، وهي اساس لذته ومتعته. فالعقل البشري لا يشعر باللذة إلا في المعرفة، والانسان الكامل لا يمكن ان يكون الا بكمال المعرفة، ومن عدمها فهو اشبه بالحيوان، لا يملك من الصفات البشرية غير الاسم.

من هذا المنطلق هام بالمعرفة واجتهد في توسيع افاق علومه، حتى تشعبت الى كل الجوانب، وشملت كل الصنوف المعروفة يومذاك، وهذا ما دعا المستشرقين إلى ان يطلقوا عليه "موسوعة القرن الثالث عشر". ومن اجل توسيع افاق علومه، اتقن العديد من اللغات كالسريانية والعربية واليونانية والفارسية وألَمّ بالارمنية، وترك لنا تراثا ثرًّا يزخر بشتى صنوف العلوم اللاهوتية والفقهية والفلسفية والطبيعية واللغوية وسواها. وكان في كل منها الفارس المقدام، حتى ليتبادر الى الاذهان انه متخصص في كل منها وليس متبسطا في جميعها.

ولقد تميز عن سائر قادة الفكر السرياني في ما تطرق اليه من ابحاث وعلوم. اجل، لقد أولى الكثير من اولئك، الى جانب العلم الديني، اهتماما ببعض صنوف العلم الأخرى، الا انه فاقهم جميعا في هذا الميدان. وليس هذا فحسب، بل انه تطرق الى مواضيع اخرى جديدة لم يتطرق اليها غيره، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر، ما فعله بالنسبة الى الادب السرياني. فمن المعلوم ان الادب السرياني هو ادب ديني بحت، لان جميع رواده هم من رجال الدين، ومثلما ان لفظة "الارامية" ولغتها ارتدت بتنصرها ثوبا دينيا مسيحيا تحت اسم "السريانية" كذلك الامر بالنسبة الى ادابها. بيد ان ابن العبري ادخل عناصر جديدة الى الادب السرياني، متأثرا بالادب العربي، ولا سيما في الشعر. فبينما كان الشعر لدى معظم الادباء السريان مقتصرا على القضايا الدينية وما يرافقها من اعمال التوبة والندم، نراه يتعرض الى معظم أغراض الشعر كالمدح والهجاء والرثاء والاخوانيات ووصف الطبيعة والحكمة والاخلاق والمجتمع والفلسفة، وبخاصة فلسفة التصوف. وابرز قصائده الصوفية الحكمية هي قصيدة "الحكمة الالهية" التي عربها نظما المطران بولس بهنام.

ويكاد يكون المترجم، الوحيد بين فقهاء السريان ومشرّعيهم الذي بحث في الشرع الديني وكان موفقا فيه ومجيدا. فقد وضع كتابا نفيسا في التشريع الكنسي والمدني اسماه "الهدايات" نجد فيه كثيرا من القضايا التي ما تزال بعض المحافل الرسمية المختصة تمارسها وبنفس المفهوم والاسلوب. اضف الى هذا مُولّفه الفريد من نوعه في عالم الادب السرياني، الا وهو كتاب

"الطرائف" الذي وضعه في شبابه وجمع فيه نحو ٧٢٧ حكمة وطرفة من اقوال الحكماء والفلاسفة، ومن النوادر كنوادر البخلاء والبلهاء وغيرهم، شأن العديد من عمالقة الادب العربي كالجاحظ مثلا.

لنعد الان لإلقاء نظرة عابرة على الثروة العلمية النفيسة التي تركها لنا علاّمتنا في ٣٦ كتابًا، وقد احاط، كما اسلفنا، بجميع صنوف العلم وتضلع منها. وبالامكان حصر هذه العلوم بالمجاميع التالية: العلوم الدينية، الفلسفة والطبيعيات، الطب، التاريخ، واللغة.

العلوم الدينية

وتتضمن اللاهوت والتفسير والاخلاق والتصوف. وقد وضع فيا ستة كتب، ابرزها "مخزن الاسرار" في تفسير العهدين، ركز فيه على شرح ما يبدو غامضا فيهما، و "منارة الاقداس" ثبت فيه الحقائق اللاهوتية المسيحية في ما يخص النفس والقيامة والفردوس وسواها، واختصره بكتاب اسماه "الاشعة". و "الاثيقون" في فلسفة الاخلاق وحسن السلوك من ترويض الجسد وتقويم وتنظيم اعماله، وتنقية النفس من الميول الشاذة وتجميلها بمختلف الفضائل. وقد افرد فيه بابا خاصا وهاما في الموسيقى الكنسية محبذا اياها ومبديا ارتياحه بادخال بعض الالات الموسيقية في الترتيل الكنسي، وملمحا الى ضرورة اختيار النغمة الملائمة بحيث توحي بالخشوع وتسهل عملية التوبة. الا انه لا يحبذ الموسيقى الصاخبة او الاصوات العالية لان "الكاملين الذين لهم ذهن مسيحي لا يحتاجون الى نغمات صاخبة لانهم يناجون ربهم بكلمات روحية عقلية". اما اسباب ادخال الموسيقى في العبادة فهي، اولا لان رقتها تخفف الاعباء عن المتعبد وتجعل العبادة عذبة وتبعد عنه المؤثرات الخارجية، ثم لكونها عاملا مساعدا على فهم المعاني الروحية لكلمات التسبيح، واخيرا تعمل على تركيز الذهن وعدم الالتفات الى هنا وهناك وتجعل المصلي يشعر بلذة روحية فائقة.

التصوف

وقد خص به جزءا من كتاب الاثيقون وكتابه الموسوم بـ "الحمامة" وهو يتضمن المراحل التي يجب ان يمر بها طالب الكمال والاتحاد بالله، وما تشمله من عمل جسدي، الى سيرة روحية، الى معرفة الله وكيفية انماء الحب له، الى محاربة الاهواء الرديئة وما الى ذلك. و لم يضع هذا الكتاب الا بعد بذل جهود مضنية ودراسة وافية لحياة النساك والمتصوفين استغرقت سبع سنوات. غير ان اول مشروع قام به بهذا الصدد هو الشروحات التي عملها لكتاب ايرثاوس التصوفي.

الفلسفة والطبيعات

لقد شغف بالفلسفة وامعن في دراستها حتى تمكن منها فجلس على عرش الفكر السرياني الفلسفي متفوقا بذلك على سائر من خاض غمار الفلسفة من العلماء السريان.

وضع في هذا الحقل وترجم نحو ثمانية كتب، ابرزها وأعظمها شأنا ونفاسة، كتاب "زبدة الحكم" بمجلدين ضخمين ناهزت صفحاتهما الـ ٩٥٠، تناول في الاول علم المنطق، وفي الثاني، علم الطبيعيات. وقد لخصه بكتاب سماه "تجارة الفوائد في المنطق والفلسفة"، وله كتاب "حديث الحكمة" في المنطق والفلسفة. ورسالتان في علم النفس وضعهما باللغة العربية. كما نقل الى السريانية كتاب "زبدة الاسرار في الفلسفة" لاثير الدين الابهري. وفي علم الهيئة والفلك وضع كتاب "الصعود العقلي".

الطب

اخذ الطب عن ابيه هرون الطبيب الشهير وحذق فيه، ونال بسببه حظوة كبرى وكرامة لدى الملوك والاعيان. وضع فيه وترجم اربعة كتب ابرزها، "شرح كتاب حنين بن اسحق" و لم يتمه. وترجمة كتاب ديوسقوريدس في المفردات الطبية، ولخص كتاب "جامع الادوية المفردة" لاحمد الغافقي الاندلسي وغيرها.

التاريخ

يشكل ابن العبري الحلقة الاخيرة في سلسلة المؤرخين السريان البارزين في العصر القديم. وقد وضع كتابين هامين احدهما في التاريخ الكنسي والاخر في التاريخ المدني. وتميز بمنتهى الدقة في كتاباته، وقد اشار الى هذا ناشر كتاب "تاريخ مختصر الدول" بقوله: "روى كل ما روى عن خبرة، وذكره على الهيئة التي وقعت وكانه اخذ صور الوقائع والسير والتراجم على ضياء الشمس لا رسم القلم". والتاريخ الكنسي قسمان: يتضمن الاول تاريخ بطاركة انطاكية من عهد الرسول بطرس حتى عهده هو، والثاني يتضمن تاريخ مفارنة المشرق، وقد اورد فيه ايضا تاريخ جثالقة السريان النساطرة. اما التاريخ المدني فهو "تاريخ الزمان" منذ بدء الخليقة حتى عام ١٢٨٥، ويتضمن تاريخ الامم والشعوب والملوك، وقد اختصره منقولا الى العربية بكتاب "تاريخ مختصر الدول".

اللغة

لم يكن شأنه في اللغة السريانية اقل منه في الفلسفة او اللاهوت، فهو اللغوي البارع والشاعر المرهف. وضع كتاب "الاضواء" في النحو السرياني يعتبر افضل ما كتب في هذا المضمار، وتميز بادخال ابواب جديدة فيه اقتبسها من النحو العربي. وله كتاب "المدخل" وضعه منظوما على الوزن السباعي على غرار الفية ابن مالك، وكتاب ثالث اسماه "الشرارة" في خلاصة قواعد اللغة السريانية، لكنه مفقود. هذا وقد نظم عشرات القصائد البديعة نشرت في ديوان خاص، تفيض بالاحساس المرهف والشاعرية الرقيقة، ولغتها في ذروة السلامة ومتانة السبك.

نكتفي بهذا المقدار من الحديث عن الفيلسوف العلامة ابن العبري وافاق علومه، ذاك الذي استطاع، رغم كل الظروف العاتية التي واكبت حياته، ان يكوّن له شخصية تاريخية عالمية متميزة، بعلمه وايمانه وعزيمته التي ذلّلت كل الصعاب واحالت السلبيات الى ايجابيات، والدموع الى بسمات، ورحل عن حياة الدنيا بعد ان عاش في منتهى البساطة ستين عاما كلها حياة وعطاء وخلود.

– الكنائس الخاصة والكنيسة الجامعة

كانون الثاني/ ص٣٣ - ٣٩ الكردينال جوهانس فيلليبراند

– كنيسة اليابان: الاولوية للتبشير

شباط/ ص٨١ - ٨٧ الاب جرجس القس موسى

+ القديس افرام.. لاهوت، صدى للانجيل

اذار — نيسان/ ص١٢٩ - ١٣٥ الاب لويس ساكو

– تشيكوسلوفاكيا.. في انتظار ربيع آخر

ايار/ ص١٧٧ - ١٨٣ الاب بيوس عفاص

+ الكتاب المقدس والعلم.. تساؤلات

حزيران — تموز/ ص٢٢٥ - ٢٣١ الاب افرام سقط

– النمسا.. من آل هبسبورغ إلى فالدهايم

اب — ايلول/ ص٢٧٣ - ٢٧٩ الاب بيوس عفاص

● عدد خاص: ام الفادي (رسالة بابوية)(*)

تشرين الاول/ ص٢٩١ - ٣٤٤ البابا يوحنا بولس الثاني
(تعريب الاب البير ابونا)

– الاسس الكتابية للاهوت التحرير

تشرين الثاني/ ص٣٧٧ - ٣٨٣ الاب جرجس القس موسى

– تشاد: كنيسة حديثة العهد

كانون الاول/ ص٤٣٣ - ٤٣٩ نجيب قاقو

(*) كان البابا يوحنا بولس الثاني قد اعلن سنة ١٩٨٧ "سنة مريمية"، واصبحت رسالته العامة موضوعا للعدد الخاص، وهكذا كان للعذارء في الفكر المسيحي عدد خاص!

ملف أذار-نيسان ١٩٨٧ .... الاب لويس ساكو

القديس افرام لاهوت هو صدى للانجيل

لا يزال حيا في الذاكرة المهرجان الكبير الذي اقيم في بغداد في شباط ١٩٧٤ احتفاءً بالذكرى المئوية السادسة عشرة لوفاة مار افرام ملفان الكنيسة السريانية واحد ألمع آباء الكنيسة في الشرق. وفيما سبق للفكر المسيحي ان خصته بمقال في تلك الذكرى (آذار ١٩٧٣)، نعود إليه اليوم للتعرف على جانب من فكره اللاهوتي الاصيل الذي يرجع صدى الانجيل.

من خلال ابرز النقاط في الايمان المسيحي (وحدانية الله، شخص المسيح، العذراء مريم، المعموذية...) حاول الاب لويس ساكو ان يُدخلنا في فكر وروحانية ملفان الكنيسة الجامعة.

كانت نصيبين سياسيًا وتجاريًا وثقافيًا مدينة حدودية من الدرجة الاولى، تخضع لسيطرة الفرس تارة والرومان طورًا، وتلتقي فيها حضارة وادي الرافدين بالثقافة اليونانية. كما كان فيها، ايام افرام، فرق وثنية متأصلة وجالية يهودية متنفذة.

ان المصادر التي تحكي لنا حياة افرام كثيرة، الا ان الطابع الاسطوري يطغو على احداثها، وقد حيكت حوله قصص وامور نادرة بغية ابراز مكانته وشهرته(١). ووفقًا للمعطيات العلمية الاكيدة، ولد افرام في نصيبين حوالي سنة ٣٠٦ من والدين مسيحيين. تتلمذ ليعقوب اسقفها ونال العماذ وعمره ١٨ سنة حسبما كانت تقتضيه التقاليد الكنسية في زمانه(٢). رسمه يعقوب شماسًا انجيليًا وسلّم اليه التعليم الديني في مدرسة نصيبين؛ وراح افرام في المدرسة وخارجها يعد البالغين "الموعوظين" لاقتبال العماذ، شارحًا لهم باسلوب مشوّق ومباشر عقائد الايمان وقواعد الاخلاق المسيحية. وظل في هذه المهمة حتى بعد وفاة يعقوب أي في زمن خلفائه بابو (٣٣٨-٣٤٣) وولغاش (٣٤٣-٣٦١) وابراهيم. ولّما غزا شاهبور الثاني مدينة نصيبين عام ٣٦٣ وسقطت في يده، غادرها افرام الى مدينة الرها القريبة مع جمع كثير من المشردين، وأسس هناك، مع المعلمين اللاجئين، مدرسة اتبعوا فيها أسسًا جديدة للتعليم بسبب الظروف التي صادفوها. وفي هذه الفترة كانت شيع آريوس(٣) ومرقيون(٤) وماني(٥) وتلاميذ برديصان(٦) والغنوصية(٧) تعيث فسادًا، والجالية اليهودية تستغل الوضع لصالحها. فأخذ افرام ومعاونوه على انفسهم مهمة الدفاع عن الايمان القويم وتحدّي اليهود والمجوس. وكتب في جميع ميادين الادب الديني من تفسير الكتاب العزيز واللاهوت النظري والراعوي والتصوف والليتورجية، شعرا ونثرا. وهو خير شاهد لكنيسته القريبة من أصولها السامية الصافية. مات افرام في ٩ حزيران٣٧٣. وقد اعلنه البابا بندكتس الخامس عشر في ١٥/١٠/١٩٢٠ ملفان الكنيسة الجامعة.

تآليفه

ترك لنا افرام مؤلفات عديدة شبهت ببحر كبير يعسر البلوغ الى حافاته[٨]. ونسبت اليه نصوص دينية كثيرة؛ ولئلا نقع في خطر بناء صرح على أساس ضعيف، لا نذكر من مصنفات افرام الا ما نشر منها حديثًا وبطريقة علمية اكيدة: تفسير سفر التكوين والخروج، تفسير الاناجيل المختلطة "دياطسرون"، اعمال الرسل. والاناشيد التي نشرها ادمون بيك في مجموعة "الكتّاب المسيحيين الشرقيين" في لوفان وهي: الايمان، ضد البدع، الفردوس، الميلاد والدنح، مواعظ عن الايمان، الكنيسة، ترانيم نصيبينية، البتولية، الصوم، الفصح. كما يوجد هناك مؤلفات اخرى غير مثبتة في مخطوطات مكتبات لندن وبرلين والفاتيكان وباريس وغيرها[٩].

أسلوبه

اسلوب افرام بسيط ولغته صافية من الالفاظ اليونانية، وتفسيره للكتاب المقدس قريبٌ من الاتجاه الديني، وهو تفسير حرفي بالمفهوم الحقيقي والمجازي، ومنه ينطلق الى التطبيقات في الحياة المسيحية اليومية. معرفته عميقة بالعهدين القديم والجديد ويشير الى اسفارهما باستمرار؛ ولاهوته بعيد عن المناظرات الفلسفية، ويستعمل كثيرًا اسلوب المقارنة والصور.

تعليمه اللاهوتي

لقد شعر افرام، مثل آباء الكنيسة، بمدى حاجة المؤمنين بكافة مستوياتهم الى تعليم مسيحي رصين ومتين، وأن مستقبل المسيحية يتوقف أساسًا على نوعية ثقافة ابنائها وجدّية عيشهم ايمانهم، وقد قام بهذه المهمة بثلاث طرق:

١ - العظة:

وكانت انجح وسيلة، اذ كان المؤمنون يفدون الى الكنيسة، لا فقط ليصلوا، وانما ليتعلموا بعض الشيء عن ايمانهم وسبل عيشه. فراح يعطيهم دروسًا في الصلاة وفي تفسير نصوص الكتاب المقدس –والاكثرية لم تكن تملك نسخة منه– ويشرح لهم عقيدة ايمانية او عيدًا دينيًا او يدحض تعليمًا غير سليم، ويحذرّهم بشدة من الاساطير الوثنية والمشاركة في احتفالات الوثنيين.

٢ - تعليم الموعوظين:

ما عدا العظة، كانت وظيفته تعليم الكبار المهتدين الى المسيحية واعدادهم لنيل العماذ وقبولهم رسميا في الكنيسة. كان هذا النوع من التعليم يتطلب مقدرة فريدة، اذ ان هولاء المهتدين كانوا يحملون خلفيات دينية وفكرية مختلفة، وكان عليه ان يعلمهم أسس الدين الجديد ويجيب على كافة اسئلتهم. وكان الاحتفال بالمعموذية يجري يوم عيد الدنح وعشية عيد القيامة (سبت النور)، وكان المرشحون للعماذ يتلقون دروسا قبل وبعد الاحتفال.

٣- مدرسة الرها:

اهتم افرام بشكل مركّز باعطاء ثقافة متينة للطلاب الذين كانوا يفدون الى المدرسة التي اسسها، اولا في نصيبين، ومن ثم في الرها. وقد اعطت المدرستان كنيسة ما بين النهرين كبار قادتها ومفكريها.

هذا الاهتمام المتنوع بالتعليم الديني جعل لاهوت افرام عقائديا- راعويا. اما المواضيع الرئيسة التي تناولها فهي: وحدانية الله، الثالوث الاقدس، المسيح، مريم، الكنيسة واسرارها، قيامة الاموات، الخطيئة، الاداب المسيحية، ومواضيع اخرى كثيرة. وبالامكان تاليف كتاب كامل عن كل موضوع من المواضيع التي عالجها افرام، ولضيق المجال نعرض بايجاز اهمها:

١- وحدانية الله والثالوث

يدافع افرام عن وحدانية الله ويرفض بشدة وجود الهين او اكثر: لم يكرز المسيح و لم يعلم الا بوجود اله واحد. لا يوجد، كما يزعم مرقيون، اله عادل واخر رحوم. لا يوجد سوى اله واحد احد هو، في آن معا، عادل ورحوم (دياطسرون ١١-٢٣). ولتحديد هذه الوحدانية المطلقة، يستعمل افرام لفظة "ايثيا" الكائن الواجب الوجود، ضد نظرية الكائنات "اثيي" الالهية والعناصر عند الغنوصيين: "الكائن واحد ("حذ") وهو ازلي وغير خاضع للتغيير ("حشا") وقد خلق كل شيء من العدم" (ضد البدع ٥٣-٧).

كيف نعرف الله؟

يجيب افرام: "نعرف الله من خلال خليقته (بريثا). فالسماء والارض وكل ما فيها هي براهين عن وجود الخالق" (الكنيسة ٤٨-١٠). من الواضح ان مار افرام عندما يتكلم عن الله، لا ينطلق من البراهين الفلسفية، بل من خبرته الايمانية ومسيرة كنيسته نحو الله، ويؤكد بان سر الله لا يمكن كشفه كشفا تاما الا بواسطة الوحي.

اما عن الثالوث الاقدس، فيذكر صراحة الاب والابن والروح القدس: طبيعة واحدة (كيانا)-اي وجود واحد- واسم واحد في ثلاثة اقانيم (الكنيسة ١٥-٢). ويستعمل افرام مثل الشمس المالوف لدى الاباء: القرص والضوء والحرارة، لاظهار وحدانية الله، من جهة، وتعدد اقانيمه غير المنفصلة من جهة اخرى. ولو صح القول (وسمينا الاقانيم "ثلاث طرق وجود" لله الواحد، لما خنّا فكرة افرام. ويؤكد بان الابن مساو للاب وليس اصغر منه، وكذلك الروح القدس والذي يسميه احيانا "روح يسوع"، لربما لانه يواصل حضور يسوع بين الجماعة (الكنيسة).

٢- المسيح

لم يلجأ افرام الى استعمال الالفاظ الفلسفية، كالطبيعة والاقنوم والجوهر والشخص والاتحاد الشخصي، لشرح الايمان لمستمعيه، بل ظلّ في نفس الخط المعتدل الذي سلكه العهد الجديد. فهو يؤكد بان نصوص الاناجيل تظهر جليًا المسيح التاريخي الكامل وليس مسيحًا مجزءًا: اله من جهة وانسان من جهة اخرى: "هكذا في قانا (يوحنا٢:١-١٢)، المسيح مدعو الى

حفلة الزفاف مع الآخرين بنفس العنوان، لانـــه ظاهريًـا مثلـهم؛ الا ان المعجــزة الــتي اجترحهـا، بسبب طابعها الفوري ونوعية الخمر الجديدة التي قـدمها للمـدعوين، برهنـت علـى قوة الله – الحاضرة- فيه" (دياطسرون ٥:١-١١). وفي توبة المـرأة الخاطئـة (لوقـا ٧:٣٦-٥٠) يظهر في ذات الوقت الهًا وانسانًا: فمسح السيدة لرجليه برهـان علـى حقيقـة انسانيته، وكشفه عن افكار سمعان دليل على لاهوته (دياطسرون ٧-١٨).

انسانيته

يؤكد افرام حقيقة انسانية يسوع الملموسة الواضحة ضـد "الظـاهريين" الـذين كـانوا يزعمـون ان جسد يسوع لم يكن سوى مظهر "شبه لهم". يسوع انسان حقيقي مرتبط بوطن معين وقبيلة معروفة، وامه وابوه "آووه" يوسف، كلاهما ينتميان الى قبيلة يهوذا (دياطسرون ١-٢٥)، وهو لم يُخفِ ولم ينكر انسانيته؛ فقد ولد وله جسد واعتمذ وجـاع وعطـش وتعـب وبكـى وتألم ومات (دياطسرون ٢٠-٤)، انه ادم الجديد (الفردوس ٤-١٢).

علاقته مع الآب

بما ان المسيح هو كلمة الله "ملثا"، يوضح افرام أنه "حقيقة صورة (صمحا) الآب ومـساو له، مولود منه، وليس له مشيئة اخرى سوى ما يريده الآب" (الكنيسة ٢٧-٩). ويـضيف ان المسيح وحده قادر على كشف ابوة الله لنا: "بما أن المسيح هو ابن الله، فهـو وحـده قـادران يكشف لنا الآب" (دياطسرون ٨-١). ومن بين الالقاب التي يطلقها افرام على المسيح انطلاقا من العهد الجديد والتي تعكس مهمته وأعماله: الرَب، الطبيب، المعلم، الراعي، النبي، الكـاهن، الملك. ويتوقف مرارا على هذا اللقب الاخير مظهرًا نوعية ملكه وشموليته.

٣- مريم

في الواقع، كثيرة هي الاناشيد التي خَصَّ افرام بها مريم ام يسوع، وبها عبّـر عـن تعلقـه واحترامه العميق لها. وقد اعتبر بحق شاعر العذراء مريم.

لا يستعمل افرام العبارة "ام الله" التي استعملها قسم من المسيحيين في القرن الثالث وتبناها مجمع افسس عام ٤٣١، انما يستخدم التعبير الانجيلي، "ام يسوع"، وهذا يتماشـى ودور مـريم. ويقرّ بوضوح بان المولود منها هو ابن الله: "كوني عذراء -تقول مريم للمجوس- أنجبتُ ابنًا، هو ابن الله. إذهبوا وبشروا به" (الميلاد ١٠).

وينفرد افرام بجعل الحبل بيسوع قد تمّ عن طريق الاذن! ألسبب لاهوتي ام لكون العـذراء سماعًا سمعت البشرى؟ "باذنها شعرت مريم بالخفي الذي جاء مع صـوت المـلاك، وحلّـت في احشائها القوة التي جاءت الى البشر" (الميلاد ١٦-٣). الحبل والولادة تما بشكل عجائبي ولكن حقيقي (الفردوس ٧-١٥)؛ ويشير افرام في اناشيد الميلاد والدنح والبتولية الكنيسة والفـردوس والترانيم النصيبينية ان مريم هي عذراء قبل وبعد الولادة: "كانت مخطوبة، حسب الطبيعة، قبل مجيئك، وحملت بخلاف الطبيعة بمجيئك، ايها القدوس، ومكثت بتولاً اذ ولدتك بالقداسة" (الميلاد ١١-٣).

هل يمكننا ان نفهم ان بتولية مريم التي يشير اليها افرام حالة ادبية وليست فيزيولوجية، أي الها بتول في القلب وان الولادة تمت بشكل طبيعي، فنكون قد تجنبنا كثيرًا من الافتراضات والتخيلات؟ في كل الاحوال يؤكد افرام ان المسيح كان في الرحم ومنه خرج (الميلاد ١-١٥).

ويختار شاعرنا كيف يدعو مريم: "امك يا رب، لا يعرف المرء كيف يدعوها: بتولا؟ ها هو ذا ابنها حاضر. متزوجة؟ لم يمسسها رجل. فاذا كانت امك لا تُدرَك، فانت من يدركك؟" (الميلاد ١١-١). المسيح هو الولد الوحيد الذي انجبته مريم، ولم يكن لها ان تنجب اولادًا آخرين وهي هيكل الروح القدس (الفردوس ٢-٦، ٥-٧) وطاهرة من الدنس: "انت ووالدتك فقط تفوقون الجميع جمالاً. فلا عيب فيك يا رب ولا دنس في والدتك" (ترانيم نصيبينية ٢٧-٨). ويعتبرها حواء الجديدة ويقيم مقارنة متوازية بينها وبين حواء الاولى (الكنيسة ٤٩-٧).

٤- الكنيسة

في الترانيم النصيبينية (١٣-٢١) التي يقرّض فيها أفرام اساقفة نصيبين، يصف لنا الكنيسة بالها جسد المسيح الكبير وعروسته المحبوبة (١٧-٣)، وهذه اشارة الى الالفة والعلاقة الوثيقة القائمتين بين المسيح والجماعة. كما يذكر بالها واحدة، مقدسة ورسولية؛ ويشير صراحة الى الدرجات الثلاث الخدمية في الكنيسة وهي: الاسقفية والكهنوت - احيانا لا يميز بينهما- والشماسية. كما يعطي اهمية لخدمة العذارى المكرّسات (ترانيم نصيبينية ٢١-٥)، ربّما لالهن كن شماسات؟ والاسقف هو السلطة العليا في الجماعة ويعني الكنيسة المحلية، وهو قائدها ورأسها. وهو صورة لرعيته: "حسبما يكون الاسقف هكذا تكون رعيته" (١٩-٢)، الا انه لا ينبغي ان ينفرد الاسقف بالقرارات، بل عليه ان يختار مستشارين له (١٨-٩). ومهمته تقوم في التعليم وحفظ النظام وتوجيه الجماعة وادارة شؤولها (١٣-١). اما العلمانيون، فيسميهم افرام (شحيمي) أي غير المكرّسين لخدمة معينة (الفصح ٢-٩)، او ببساطة المؤمنين "مهيمني" -ولفظة العلماني لا ترد عنده البتة.

٥- المعموذية

يرى افرام في عماذ المسيح اساس عماذ المؤمنين وصورته (دياطسرون ٤:١-٣): "هوذا النار والروح في النهر -الاردن- وها هما ايضا في عماذنا" (الايمان ١٠-١٧) . الايمان شرط اساسي للمعموذية، وفي بعض الحالات، يعوض عن الماء كما في حالة اللص الايمن (الايمان ٨٤-١٩). عند افرام، كما في كتاب الديداكي (كتب حوالي سنة ١١٠)، يعود العماذ الى الاحتفال الفصحي، والصوم الاستعدادي ينهي مرحلة الموعوظين (البتولية٧-٢). ويترأس الاحتفال عادة الاسقف ويتم الغطس بالصيغة الثلاثية (باسم الاب والابن والروح القدس): "ها اسماء الاب والابن والروح القدس -تتلى- على الزيت والعماذ وكسر الخبز وكاس الخلاص" (ضد البدع ٢٧-٣). وتوجد هناك مسحة واحدة شاملة يسميها "ختم المعموذية" (البتولية ٢-٢ ، ٨-٢ ، ضد البدع ٢٧-٣)، ولا علاقة لها بسرِّ التثبيت الحالي. هذه المسحة تشير الى ان المعمذ هو مسيح وكاهن وملك ونبي، على مثال المسيح. يعتبر افرام العماذ ولادة ثانية، ومياه المعموذية

بمثابة الرحم. وهذا التشبيه نجده عند الاباء المشارقة الاخرين: "تبارك من كثر محاسنكم من مياه المعموذية. صارت المعموذية أمًّا تلد كل يوم روحانيين وتقيم اولادا جددا لله بقداسة. تبارك من ولدنا ثانية في حضن العماذ" (الدنح٣-١). "ان مياه المعموذية هي بمثابة رحم يلد بقوة الروح القدس انسانا جديدا مقدسا" (ترانيم نصيبينية ٢٧-٢٨، الميلاد ١٦-١١). ويتناول المولود الجديد غذاء روحيا وهو القربان المقدس: طوبى للمولودين الجدد الذين يتناولون حالا الخبز الكامل بدل الحليب" (البتولية٧-٨).

اما عن مفاعيل المعموذية، فيذكر افرام: مغفرة الخطايا، النعمة، تجديد الانسان الشامل، أي (الانا): "ان الموت -الادبي- يزول بالعماذ الحقيقي، لان الشخص المعمّذ في المسيح يلبس الحي الذي يحيي كل شيء" (ترانيم نصيبينية ٧٢-١٤). "المسيح شفى الانسان بشكل شامل لما عمَّده بالروح القدس" (ترانيم نصيبينية ٤٦-٨٤). "الذي من جسد فاسد ومائت يصبح بدم المسيح وموته وقيامته، جسدًا حيًا، يَحملُ عربون الخلود" (ضد البدع ١٧-٥).

٦- الافخارستيا

لم ترد لفظة الافخارستيا في كتابات افرام[١٠] انما نجد عنده الفاظا اخرى تحمل ذات المعنى، مثل دم المسيح، الخبز، السر، القربان -يشمل الذبيحة والتقدمة والاحتفال (الكنيسة ٢٥-١٤). اسمه يسوع نفسه، الحبر الاعظم؛ اما الذي يضمن استمراريته في الجماعة (الكنيسة)، فهما الروح القدس والكاهن (الايمان ٨-٨، ٤٠-١٠). والغاية من تأسيسه خلاص الانسان في وجوده الشامل: "ان جسده، بطريقة جديدة، قد اختلط بجسدنا، ودمه النقي امتزج بدمنا (بأوردتنا)، وصوته ولج آذاننا، وبهاؤه في عيوننا، هو كله صار بحنانه في وجودنا" (البتولية ٢٧-٢). خبزه، بدون جدل، يؤكد قيامتنا؛ فاذا كان قد بارك الطعام، فكم بالاحرى يبارك الذين يتناولونه"؟ (دياطسرون ٥-١٦). ويعتبر افرام القربان المقدس مركز التدبير الخلاصي، لذلك يجد صورًا ورموزًا له في الكتاب المقدس، في قرابين الاباء الاولين هابيل وابراهيم واسحق ويعقوب والفصح اليهودي والخروج والنبوءات وعرس قانا والصيد العجائبي وتكثير الخبز الخ... (ترانيم نصيبينية ٤٦-١١، الايمان ١٠-١٠، البتولية ٣٣-٧). حين يتكلم افرم عن القربان المقدس، يمزج النصوص الكتابية بالتقليد الليتورجي لكنيسته، فنجد عنده مثلا المصطلحات الطقسية المستعملة عندنا حتى اليوم مثل كسر (قْصا) ومزج (مْزغ) ورسم (رْشَم):

"الكسر" هو الفعل الذي يتم على الخبز، "والمزج" على الكاس، "والوسم" يرمز الى الاتحاد والقيامة، لان القربان هو رمز لموت ودفن وقيامة المسيح (الفصح ٧-٢، دياطسرون ٤٨-٢)، ولا يوجد لدى افرام المفهوم الغربي للاستحالة. والمناولة (شَوتابوثا) تتم في الخبز والخمر: ان الجسد المكسور في العلية، ها هوذا يقسم بيننا، والكاس التي ناولها تلاميذه ها هيذي شفاهنا تشرب منها" (دياطسرون ٤٨-٢).

٧- حرية الانسان والشر

يقول افرام ان الانسان حرّ وهو مركز الخليقة؛ ولكي يعيش حريته هذه، عليه ان يحارب الجهل والضلال (الفردوس ١٥-٥). والانسان مسؤول، في نهاية الامر، عن الشر الادبي في

العالم: "ان سبب الشر هو بوضوح سوء استعمال الحرية. فآدم والشيطان بحريتهما، ادخلا الشر بواسطة الارادة" (ضد البدع ٢٢-٧)، والانسان قادر على التغلب عليه ان شاء (الفردوس ١٥-١١، ١٢-١٨). اننا نجد صدى لهذا المفهوم في مجمع الجاثليق سبريشوع (٥٩٦): "اننا نرفض ونقصي عن اية شركة معنا كل من يعتقد ويقول ان الخطيئة موجودة في الطبيعة، وان الانسان يخطأ لا اراديًا، وكل من يقول ان طبيعة آدم خلقت منذ البدء غير مائتة" (كتاب المجامع ١٩).

وبامكاننا مواصلة عرض المواضيع الاخرى التي تناولها افرام كالخطيئة الاصلية والقيامة ومفهوم الانسان الخ... ونتوصل الى خلاصة لاهوتية شاملة. فان تعليم افرام باصالته المشرقية، القريب من الانجيل، والصافي من تأثيرات فلسفية يونانية، يثري مسيرتنا الايمانية، وبامكاننا الاستفادة من خبرته ونهجه لبناء تعليم ديني حي يكون امينًا على خصوصيتنا المشرقية وقادرًا على الاجابة الى الاسئلة التي يطرحها انسان اليوم.

---

(١) ينبغي اعتبار هذه القصص في تراجم كبار الاقدمين من قبيل الاساليب الادبية لا غير. فلكي يُعبّر كاتب قديم عن طهارة بطله، يجعله يجتاز تجربة اخلاقية عنيفة ويخرج منها منتصرًا. ولما يود إظهار سعة علمه، يجعله يسافر ويلتقي بمشاهير رجال العلم والتقوى ناسبًا اليه امورًا نادرة. وهذا الاسلوب كان مألوفًا عند المؤرخين القدامى.

(٢) كان من يبلغ الثامنة عشرة من عمره يعتبر قد حصل على قدر واف من النضج العقلي ليقوم باختياراته.

(٣) آريوس لاهوتي معروف ولد بليبيا وتوفي في الاسكندرية عام ٣٣٦. قال ان المسيح غير مساو لله الآب في كل شيء وانه مخلوق كسائر الناس. إلا انه ارفع منهم جميعًا لان الله قد جعله صورة حية له سمت به الى درجة الالوهية. حرم مجمع نيقية سنة ٣٢٥ آراء آريوس وأعلن المسيح "مساويا للآب في الجوهر".

(٤) ولد في بلاد بنطس (توفي ١٦٠) وعلّم بوجود ثلاثة الهة: الاول عادل وهو اله العهد القديم، والثاني رحمان رحيم وهو المسيح، والثالث ظالم شرير وهو الشيطان الرجيم.

(٥) فيلسوف فارسي (٢١٥-٢٧٣) اسس الثنائية القائلة بالنور والظلمة، وكان اله النور- الخير يسمى ميترا. وكانوا يحتفلون بعيده في ٢٥ كانون اول، بدء انتصار الشمس على الظلام وابتداء النهار بالطول. ويُرجّح ان المسيحيين تبنوا هذا التاريخ للاحتفال بميلاد المسيح نور العالم!

(٦) فيلسوف من الرّها (١٥٤-٢٢٢) له بعض الاراء حول القضاء والقدر، رفضها معاصروه ومن بينهم افرام.

(٧) الغنوصية (GNOSIS وتعني المعرفة) تيار فلسفي يوناني لتفسير الشر والخلاص. تعتقد الغنوصية بوجود اله اعلى لا يدرك، صدرت عنه ارواح، زوجًا زوجًا. ذكرًا وانثى، سموها ايونات او اراكنة وتضاءلت كلما ابتعدت عن الاله الاعلى مصدرها. وتقسم الناس الى ثلاث فئات: الروحانيون (الغنوصيون) وهم من اصل الهي، والماديون، والحيوانيون (الشهوانيون). وتقر الغنوصية بثنائية المادة والروح، والخير والشر، واله الخير واله الشر، وان العالم من صنع اله الشر.

(٨) اورتيزده اوربينا، الباترولوجيا السريانية ص٥٩.

(٩) نشر السمعاني وبيكل ومورس ولامي جانبًا كبيرًا من كتابات افرام، الا انها طبعات غير علمية. ولمعرفة المزيد عن مؤلفات افرام، طالع: البير ابونا (ادب اللغة الارامية) بيروت ١٩٧٠ ص٨٢-٨٨. وما كتب ونشر عنه في كتاب مهرجان افرام- حنين بغداد ١٩٧٤ ص٢٢٩-٢٧٧.

(١٠) أفضل ما كتب حديثا في هذا الموضوع: الاب بطرس يوسف، الافخارستيا عند افرام، روما- ١٩٨٥ (بالفرنسية)

الكتاب المقدس والعلم... تساؤلات

تساؤلات لا حصر لها، بعضها يلامس الشك في الوهية الكتاب المقدس وصحته، يطرحها مؤمنون ترسخت في اذهانهم مفاهيم تعكس رؤية خاطئة لكلام الله المنزل، وكثيراً ما تكشف صراعاً وتناقضاً بين ما يقوله او يريده الله بين ما يقوله الكتاب، وما يقوله العلم.

هذه التساؤلات وغيرها تجد حلاً في الاطلاع على "الاساليب الادبية" التي استخدمها الكتاب الملهمون للتعبير عن خبرة [illegible] المفتاح لاكتشاف ما اراد الله ان يقوله ولا يزال يقوله لنا اليوم.

هذا المفتاح الذي لا غنى عنه، يقدمه لنا الاب افرام سقط في هذا الملف.

الكتاب المقدس والعلم، عالمان لا يلتقيان وليس من السهولة معالجة التساولات التي تطرح حولهما. فالى الامس القريب حين كان العقل خاضعا لما تقوله الكنيسة، كان الانسجام قائما بين هذين العالمين: كان القدامى يتصورون بان الارض مسطحة وترتكز على اعمدة تطوف على المياه، وان السماء ليست الا خيمة والنجوم قناديل تضيء في الليل... و لم يجرؤ احد ان يلج الى اسرار هذا الكتاب الذي ظل مجهولا وغامضا طالما ظل مكتوبا بالعبرية واليونانية. ولكن الامور ساءت يوم اصبحت يسيرة قراءته باللغات المتداولة -وقد ترجم الى ١٨٢٩ لغة او لهجة محكية، واصبح من اكثر الكتب انتشارا.

كتاب محير، قبل ان نتصفحه، نؤمن انه الكتاب المقدس ونتوقع ان نجد فيه كلام الله المترل، وسرعان ما نجد فيه قصصا وروايات مشككة، ومزامير لا تحملنا على الصلاة.. ومنذ ان تطوّرت العلوم الحديثة، كعلم الآثار والتاريخ وغيرها من العلوم، اذا بالكتاب المقدس يمر باختبار قاس.

تياران متضاربان

يتميز العصر الحديث -عصر التقنية- بانه عصر الالحاد. فمنذ ما يقارب القرن، ظهر تيار جديد يقول بان العلم وحده هو مصدر المعرفة، ويرفض اصحاب هذا التيار كل ما لا يقع تحت الاختبار العلمي، ويعتبرون الكتاب المقدس كتابا يخضع للاختبار. وبموجب هذا المفهوم، لم تعد لله وللكتاب المقدس الكلمة الاخيرة.

اما التيار الاخر، فهو التيار الكنسي الذي ينطلق من الكتاب المقدس ويعتبره كتابا مطلقا يقود الى الحقيقة. وانصار هذا التيار، من اليهود المتطرفين ومن المسيحيين، قد شجبوا العلوم الحديثة لانها تشجع على الالحاد. كما كان التلموذ ومن بعده التعليم الكنسي قد حذّر من

البحث: انه خير للانسان الا يولد من ان يفكر في المسائل الاربع: ماذا يوجد فوق، وفي العمق والمستقبل والماضي! انه تيار خطير، لان انصاره يتمسكون بالحرف والقشور ويظلون مغلقين على ذواهم.

لقد اثبت العلم ان محاكمة غاليلو كانت اجحافا بحقه: فالشمس ثابتة لا تتحرك على خلاف ما يقوله الكتاب المقدس. غاليلو (١٥٦٤-١٦٤٢) الذي اثبت ان الارض ليست مركز الكون ولكنها كوكب يدور حول الشمس، مثل امام محكمة التفتيش، واقم بانه ينسف الكتاب المقدس، وسُلّم نصا تلاه امام المحكمة معلنا بان تعاليمه مغلوطة، وبعدما تلا النص الذي فرض عليه، اضاف لدى خروجه: ومع ذلك فالها تدور! ان الحكم على غاليلو لم يكن بسبب التناقض مع النصوص الكتابية، وانما بسبب الدفاع عن اللاهوت المدرسي (السكولاستيكي). فتبني تعليم غاليلو ينسف تعليم الكنيسة ويقضي على حضارة العصور الوسطى التي ارتكزت على الفلسفة الارسطوطالية... وها هي الكنيسة اليوم ترد الاعتبار لغاليلو ولآخرين ممن أُدينوا بسبب آرائهم او مواقفهم في زمن لم يكن لحرية الرأي مكان.

لقد كانت الطريق شاقة للعلم، ولكن النتيجة التي اتى ها فتحت افاقا جديدة للدراسات الكتابية. فمنذ القرن التاسع عشر، كان اللاهوتيون البروتستانت سباقين في هذا الميدان، و لم تخلُ دراساهم من اثارة الضجة، بينما اتّسم موقف الكاثوليك بالحذر والتريث. ونشأت محاولة للتوفيق بين العلم والكتاب المقدس باءت بالفشل. وفي اواخر القرن التاسع عشر اعلن البابا لاون الثالث عشر ان لا تناقض بين العلم والدين شريطة ان يظل كل من العالم واللاهوتي ضمن مجال عمله، وكان على الكاثوليك ان ينتظروا البابا بيوس الثاني عشر ليحثهم على الدرسات الكتابية بالاساليب الحديثة ويعلن بأن العلم هو في خدمة الكتاب المقدس.

لا للحرف

لا بد ان نشير الى كون الاب لاكرانج الدومنيكي موسس المعهد الكتابي في القدس، هو الذي وضع الاسس للنقد الكتابي، وقد توصل إلى ارساء قواعد نظريته في سنة ١٨٩٣، بينما كان يتنقل كالبدو على ظهر الجمل للاطلاع على صحراء فلسطين ورمالها ويقول: انه بالرغم من جمال شبه جزيرة سيناء وصخورها الحمراء والتطابق القائم بينها وبين نصوص سفر الخروج، الا انه ليس منطقيا ان يظل مليونان من البشر اربعين سنة بلا ماء! واردف قائلا جملته الشهيرة: علينا ان لا نقرا النص حرفيا، لأن العهد القديم قد حرره رجال، باسلوب لا ينسجم مع الاسلوب الذي به نكتب تاريخنا. وهذا ما اوضحه البابا بيوس الثاني عشر في رسالته الجامعة "الوحي الالهي" (١٩٤٣): "ان المعنى الحرفي في اقوال الشرقيين القدامى وفي كتاباهم، قلما يتضح بسهولة كما هي الحال في عصرنا. فالمعنى المقصود يمكن تحديده بمجرد الرجوع الى قواعد اللغة وفقهها، وليس بواسطة القرائن فحسب. لذلك يجب على المرء ان يعود في الفكر الى تلك العصور الغابرة من الحضارة الشرقية ويستعين بالتاريخ والانتروبولوجية وسائر العلوم. فالشرقيون لم يستعملوا دائما، للتعبير عن افكارهم، الاشكال والتعابير التي نستعملها اليوم، بل تلك التي كان الناس في عصرهم وبلادهم يستعملونها".

الاثار والكتاب المقدس: الحجارة تتكلم

ومنذ ما يقرب من القرن، لم تخلُ ارض فلسطين من البعثات الاثرية بغية "انتزاع الكتاب المقدس من تحت الرمال". انهم يبحثون عن اسرار هذا الكتاب الذي يقف شامخًا ليتحدى العلم، لا بسبب محتواه، وانما بسبب الايمان الذي لا يحلّل. وما اروع النتائج التي اطلعنا عليها هؤلاء العلماء الذين اتاحوا للحجارة ان تقول اكثر مما تقوله النصوص الكتابية. ومع ذلك تظل نظرياتهم متارجحة، واليك مثالا: تتكلم النصوص عن جبل سيناء حيث التقى موسى بالله وسلّمه الوصايا العشر، وما زال العلماء يبحثون عن هذا الجبل الذي سمي سيناء، وبحسب بعض التقاليد حوريب. ولكن اين كان موقعه؟ في جبل موسى حيث دير القديسة كاترينة في جنوب سيناء؟ ام بالقرب من برية قادش؟ ام شرق العقبة؟ ان خط السير هذا لم يصبح تقليديا الا منذ القرن الرابع ب. م.؛ ولا شك ان اقامة نساك عند سفح جبل موسى قد أثّرت في هذا الاختيار. وهكذا القول عن كثير من المواقع التي يذكرها الكتاب المقدس.

أو ليس من السذاجة القصوى ان ينطلق رحالة للبحث عن سفينة نوح التي ورد ذكرها في سفر التكوين بخصوص الطوفان، والتي يقول الكتاب بانها رست على قمة جبل ارارات في ارمينيا؟ (لقد نال احدهم السخرية يوم عاد من حملته الاستكشافية ومعه اربع كيلوغرامات من "حطام السفينة"! وبعد تحليل المواد ظهر انها لم تكن بقايا سفينة نوح بل حجارة...! وفي هذا المجال يتحدث الاب جاك بريان، عميد المعهد الكاثوليكي في باريس، والاختصاصي في علم الآثار: علينا، نحن علماء الآثار، ان نتريث قليلا قبل ان نطرح نتائج عملنا، لأن ذلك يسيء الى النصوص الكتابية. علينا ان نصغي الى الحجارة التي قد لا تقول ما نريد ان نقوله...

لم يكن علم الاثار هو الوحيد الذي خدم العلوم الكتابية. فان علم اللغات والتوبوغرافيا والطب وعلم النفس الخ... القت الكثير من الاضواء على هذا العالم الذي ظل مجهولا لمدة عشرين قرنا. ولا تخلو هذه النظرية التي توصل اليها العلماء من الخطورة على الكتاب المقدس[1].

لقد اصبح مألوفًا لدى الجميع اليوم من ان روايات الخلقة وتسليم الوصايا لموسى وقصة يونان وايوب وغيرها من النصوص التي تعتمد التاريخ في سرد احداث ابطالها، ليست كلها مطابقة للواقع، لانها ليست تقارير صحفي ينقل الحدث مباشرة، انما هي نصوص استخدم فيها الكاتب اساليب ادبية معروفة، لا بل ان قسمًا من هذه النصوص نقلت عن اصل نصوص بابلية وسومرية ومن كتب الحكماء.

ان القراءة المادية للكتاب المقدس التي تتبنى العوامل الخارجية لتفسير نصوصه، كما يفعل علماء النقد والآثار، تفيدنا من زاوية واحدة فقط، وهي ان الكتاب المقدس ليس ابتكار شعب معين، وانما اقتبس مما قبله او حواليه. وبالنسبة لهؤلاء لم يقدم الكاتب شيئًا جديدًا لانه كان ناسخًا للنصوص التي اطلع عليها من مكاتب الحضارات المجاورة.

وان مثل هذه القراءة يمكنها ان تقلل من قيمة الكشف الالهي: انه القناة الحية لايصال فعل التحرر من قبل الله للانسان عبر خبرة النبي وقلم الكاتب. فالكشف فعل الله والانسان معًا، ويأتي ضمن التاريخ وليس خارجًا عنه. نحن لا نُستَعبَد للحرف، انما نؤمن بالكلمة، بشخص، لا بالكتاب.

ايمان مثل هذا لا ينفي الموضوعية في دراسة علمية جادة. فالعلوم تحثنا على القول ان الكتب المقدسة هي موضوع سؤال ونقد. وفي حالة عثورنا على نصوص منقولة او مترجمة من كتب اخرى وعن اعمال ادبية اخرى، فهذا يدل على ان لا حدود "جغرافية- فكرية" للفكر والحضارات. ويكمن الفرق في النظرة الايمانية للكاتب الذي ينقل لنا خبرته وخبرة شعبه عبر مسيرة طويلة مع الهه.

الكتب ليست منزلة

لم يوح الله الكتب، لانه لم يوعز بفعل كذا او كتابة كذا، على شاكلة من "يأمر بتنفيذ" بالصيغة الفلانية، بل الهم، أي انار ذهن الكاتب. فالعصمة لا تشمل الا الله، والله لا يخطأ ولا يغش، اما التعبير عن الكشف، فيقع ضمن حدود الانسان. حين يتكلم الكاتب عن تصوره للكون والارض، فهو ينقل تصّور ابناء زمانه، وليس في نيته تقديم حقائق علمية. فالله لا يكلّمنا إلا من خلال لغتنا، وهو يحترم الانسان في كشفه للحقيقة وفي مراحل هذا الكشف. وللحقيقة اوجه متعددة، والتعبير عنها نسبي، ويمكن ان يكون هناك خطأ في احد الاوجه. فالكتاب المقدس يحتوي على اغلاط علمية، والاعتراف بها لا يقلل من قيمة الحقيقة.

ان الإشكال القائم في ذهن المسيحي هو جهله بالاساليب الادبية التي لولاها لاصبح النص جامدًا. فان دراسة الاساليب الادبية تقربنا الى فكر الكاتب، ومن ثم الى الله، إذ ان الله لا يخاطبنا الا من خلال بشر ومن خلال كلماتهم. ولا بد من ان نشير هنا الى بعض الاساليب الادبية، فهي مفتاح لا نستطيع بدونه ان ندرك معنى النصوص.

كل كاتب يطبع على صفحات كتابه قناعاته الفكرية، متأثرًا بالظروف والبيئة التي يعيش فيها، ويتبنى اسلوبًا يلائم عقلية الذين يكتب اليهم. فلا ينبغي ان نعجب من ان لكل محرر اسلوبه الخاص في التعبير عن الفكرة التي ينوي ايصالها الى مستمعيه. اليك مثلاً: لا نروي وقائع حادث سيارة بشكل واحد لصديق ولموظف شركة التأمين ولمحقق جنائي ولطبيب. وقد يختلف الاسلوب من شخص الى آخر في سرد الحادث نفسه. فمنهم من يبقى بسيطًا جدًا في اسلوبه، ومنهم من يروي الحادث وكأنه ملحمة، وكل اسلوب يعبر عن وجه من اوجه الحقيقة.

فكتاب مصور للاطفال لا تقل حقيقته عن كتاب التاريخ، وهكذا لا يمكن ان نقرأ الفصول الاولى من سفر التكوين وعبور البحر الاحمر كتحقيق مباشر للحدث، وانما كأسلوب للتعبير عن حقيقة يريد الكاتب ايصالها الينا.

كيف نتعامل مع النصوص؟

كل مجتمع يحتاج، لاثبات وجوده، الى انشاء ادب، وكل امة لها قوانينها وخطبها واحتفالاتها ورواياتها لماضيها وملاحمها وقصائدها واغانيها... والكتاب المقدس يحتوي على ادب متكامل بمختلف الاساليب، وهذه الاساليب تعكس ما لحياة مجموعة من حاجات مختلفة، إذ ان

كل مجموعة حية تنتج نصوصًا تلائم حياتها وتجيب الى تطلعاتها. واليك بعض الاحداث من العهد القديم التي روتها التوراة (الاسفار الخمسة الاولى) بشكل روايات وملاحم:

● نماذج من العهد القديم

الروايات عن الاباء ابراهيم، اسحق... انما هي تذكير بالماضي من شأنه ان يمنح عقلية مشتركة للجميع. فالانسان، اذا استمع الى قصص اجداده، يشعر الى انتمائه الى العائلة نفسها، وكذلك بالنسبة إلى الخروج من مصر، فهو لاهوت من انشاء ملحمي: هنا ايضًا يُروى الماضي، ولكن المقصود اثارة الحمية والاشادة بالابطال، وان ادّى ذلك الى زخرفة التفاصيل. فسفر الخروج قصيدة ونشيد معد للاحتفال، والصور المستعملة ولا سيما الكلام عن الله تثيرنا، ولكننا هنا في لغة الرموز، وعلينا ان نوضح معنى الحدث التاريخي: الحدث التاريخي هي الوقائع التي يمكن او امكن مشاهدتها، ولكن لا توجد وقائع "خام"، وانما هناك وقائع مُؤَوّلة. شخصان يرويان حدثًا واحدًا، ولكنهما يرويانه بطريقتين مختلفتين، أي انهما لا يرويان الواقعة في حد ذاتها، بل الواقعة كما شاهداها؛ والوقائع هي تاريخية لانها تؤوّل وتُعطى معنى. فالحدث التاريخي هو الحدث الذي يترك اثرًا في ذاكرة فرد او جماعة، الحدث الذي لا يزول في التاريخ لانه أكتُشف فيه معنى. هناك احداث قد تكون ثانوية ولكن من شأنها ان تصبح رمزًا، وهنا نقترب من المَلحمة حيث تختلط الوقائع وتتقارب الاحداث المختلفة وتتحمل وتُؤَوّل لتكوّن الرواية، ومن المستحيل ان تكون جميع التفاصيل المروية حقيقية. ومع ذلك فان هذه التفاصيل تنطلق من وقائع حقيقية وتدور حول شخصية معينة (موسى مثلاً، في الخروج) وتعبر عن شيء صحيح: ما اكتشفه الشعب بعمق عن أصله وقيمه وعمّا هو عليه. فالاحداث عن الخروج قد وضعت، لا لالقاء درس في التاريخ او في الجغرافية، بل لتحدثنا عن الله، ومن خلال هذه الروايات يظهر وجه اله يحرّر، اله يريد شعبًا حرًا يخدمه ويرتبط معه بعهد. هذا هو جوهر ايمان الشعب في العهد القديم وهذا هو جوهر حياة المسيحي ومحرّكها.

وهكذا القول بشأن رواية خلق العالم: هذه الرواية هي تفكير حكمي. انها ليست تحقيقًا مباشرًا ولا تعليمًا في التاريخ ونشأة الحياة، وانما هي حصيلة تفكير قام به حكماء كانوا يتساءلون عن المسائل البشرية الكبرى: من اين اتينا؟ الى اين نحن ذاهبون؟ لماذا الحياة والالم والموت؟ لماذا تجاذب الجنسين؟ ما هي صلة الانسان بالله وبالطبيعة وبالآخرين؟ ولكي يحاول الكاتب ان يجيب على هذه الاسئلة، يعتمد على تفكيره الشخصي، وعلى خبرته في الحياة، وعلى تفكير حكماء ينتمون الى حضارات اخرى. ولكنه يفكّر بنوع خاص انطلاقًا من ايمانه. ان المؤمنين الذين سبقوه تأملوا قبله في الخروج واكتشفوا في هذا الحدث وجه اله محرر. فانطلاقًا من هذه الخبرة عن الهه، يحاول الكاتب ان يجيب على هذه الاسئلة. فمن يقول ان آدم وحواء لم يوجدا قط، لم يفهم شيئًا من الاسلوب الادبي الذي ينتمي اليه هذا النص. لا شك ان البشرية كانت لها بداية. مع من؟ اين؟ كيف؟ من شأن العلم ان يجيب عن هذه الاسئلة، لا من شأن الكتاب المقدس. لكن الزوجين او الازواج الاولين الذين يقدمهم لنا العلم، بصفتهم اول الناس، يسميهما او يسميهم الكتاب المقدس "آدم وحواء". ومعنى هذين الاسمين في العبرية: انسان وحياة. فهما، اذن، اسمان رمزيان يدلان، في آن واحد، على الانسانين الاولين، وكل انسان، وجميع الناس.

واذا تحدثنا عن الارض التي يعتبرها الكاتب مسطحة وعن خلق الانسان... الها نصوص تعكس خبرة الكاتب وخبرة الحكماء في الحضارات المجاورة؛ ولكن الكاتب ينّقي الاساطير ويركز على التفاؤل في العلاقة التي تربط الله والانسان: لم يخلق الانسان (كما في الاساطير البابلية) بسبب حسد الالهة، و لم يحكم الله على الانسان! انه شريك الله في عمل الخلقة، ومدعو الى ايصالها الى كمالها. فالنص لا يناقض ابدًا نظرية النشوء والتطور التي تقول بان الانسان صادر عن الحياة الحيوانية، انما يعطي معنى دينيًا لظهور الانسان. فالكاتب يعالج مسألة الخلقة وهو يطرح علينا هذا السؤال: أي اله لنا؟ واي انسان اراد ان يخلق؟

فالنصوص التي تتحدث عن الخلقة والشر والالم والطوفان... نصوص متأخرة. هي ثمرة خبرة وجدانية طويلة. فقبل ان تكتب الرواية كانت حياة. لذا نرى الكاتب يهتم في وصف العلاقة بين الله وبين ابوينا الاولين آدم وحواء، لانه رجل مؤمن، ويعجز العلم عن تحليل هذه العلاقة. كما يقف العالم حائرًا امام حقيقة لا يشعر بها الا من يدعو ومن يجيب في هذه العلاقة. هل استطيع، في لغة العلاقة، ان ابرهن لماذا احب؟ ولماذا انا محبوب؟!

ان الكاتب، اذ تبنى الاساطير البابلية، عرف الها تتناول المسائل الكبرى التي نحملها في انفسنا. فالعلم يعالج هذه المسائل من زاوية، اما الكتاب المقدس فيعالجها بـ "شريط مرسوم". فالقصص الاسطورية رائعة وفي غاية الجدية، وهي في الوقت ذاته اعظم انتاج فكري بشري، لا بل هي تفكير البشرية الاول. فلا عجب ان يكون الكتاب المقدس قد تبنى هذا المنهج للتعبير عن تفكيره الخاص بعد ان حوله تحويلاً عميقًا. فالكتاب المقدس، باستلهامه هذه الاساطير الكبرى، ولا سيما في روايات خلق العالم، يعيد التفكير فيها وفقًا لايمانه باله واحد يتدخل في تاريخ الانسان ويريده حرًا. فالكاتب روائي رائع، ورواياته شديدة الحيوية والواقعية، وكثيرًا ما يصور الله بصورة انسان، ومن خلال صوره يكشف انه لاهوتي، فيقول لنا من هو الله ومن هو الانسان. الله انساني، والانسان يعيش بالفة معه ويلتقي بالله في حياته اليومية. لكن هذا الاله يختلف عن الانسان، انه يدعو.

- **نماذج من العهد الجديد**

هذه بعض الامثلة من العهد القديم، ولئلا نطيل، اليك امثلة من العهد الجديد:

الاناجيل تصف لنا تجلي يسوع على جبل (أي جبل هو؟)؛ كما تروى بشارة الملاك لزكريا والعذراء مريم، وحلول الروح القدس... وكلها تنتمي الى هذا الفن الادبي.

لا شك ان الانجيليين قد استوحوا فنهم الادبي من تجلي الرب في جبل سيناء لموسى وسط البروق والرعود والنار... لا ينبغي ان نأخذ الحدث كأنه واقعة تاريخية، فهذا الوصف يشير الى كون الله حاضرًا والى ان حضوره يثير الخوف عند الانسان. خاف التلاميذ لما رأوا يسوع اثناء تجليه، وهي نفس المشاعر التي كانت لموسى عندما كان في حضرة الله. المهم في هذا الاسلوب الا نتمسك بحرفية الوصف وكأن الانجيلي يصف وقائع حدثت بهذه التفاصيل، بينما هو يشير الى حضور الله. هكذا ينبغي ان نقرأ اشتراك الطبيعة اثناء موت المسيح: تشقق الصخور وتفتح

القبور وترائي القديسين في المدينة وانتشار الظلمة... لان موت المسيح ليس مثل موت رجل اعتيادي، وما اكثر الصور والعبارات التي نستعملها كل يوم للتعبير عن مشاعرنا العميقة.

وهكذا نتعامل مع نصوص البشارة لزكريا وللعذراء، ومع رواية الملاك الذي بشر النساء بقيامة المسيح، والقبرالخالي، وألسنة النار التي نزلت على الرسل في يوم العنصرة: هذه روايات لا تنقل الحدث كما جرى: الا ان فيها من الوصف ما يعبر عن حضور الله، وهذا الحضور يثير الدهشة والاعجاب. فمشاعر الخوف التي يعبر عنها الناس، هي صور تعبر عن كون هؤلاء الناس في حضرة الله، وهذا الحضور يتم عادة بمشاركة عناصر الطبيعة: لهيب النار في العلّيقة، البروق على جبل سيناء، وألسنة النار في العنصرة الخ...

وهكذا لا بد لنا من العودة الى هذه الاساليب لدى قراءتنا نصوص العهد الجديد، فهي تطلعنا على فكرة الكاتب: هل يروي لنا تاريخًا وتحقيقًا كشاهد عيان يريد ان ينقل الينا قصة ليفهمنا فكرة؟ فرواية الحدث في كثير من النصوص لا تطابق الواقع، ولكنها توصلنا إلى المعنى الذي اراده الكاتب. قد يبدو ذلك شديد التعقيد، ولكن لننتبه الى شيء جوهري، وهو ان الالفاظ تعني احيانًا غير ما تبدو في الظاهر، لذا قد يتوجب علينا ان نعيد النظر في تصورنا للكتاب المقدس. فكلمة الله لا تهبط من السماء بوجه منظور سحري، بل تصبح، بتواضع، واحدًا منا، ولا بد من الاهتداء اليها بعيون الايمان. ان المؤمن الذي يعترف بأن الكتاب المقدس هو كلمة الله يعترف، اذن، بأنه كلمة ملهمة، ويرى فيه عملاً من الروح القدس. فمن حلم بكلمة من الله، مجردة، تهبط من السماء فهو انما يريد ان يستغني عن الروح القدس وعن الايمان ايضًا!

خاتمة

العلم والكتاب المقدس يلتقيان في نقطة هامة وهي ان الاول يبحث لاكتشاف اسرار الخلقة واسرار الانسان؛ واما الكتاب المقدس، فيدعو المؤمن ليبحث عن الله وعن الانسان ايضًا، ويكتشف أي اله لنا واي انسان خلق وكيف يلتقيان من خلال الدعوة والجواب الحر.

اننا لم نخسر شيئًا عندما انتزعت العلوم الحديثة النصوص من قدسيتها؛ وبالعكس، فان الطرق العلمية الحديثة قربتنا من محرري الكتب المقدسة، وقد مضى عليها اكثر من عشرين قرنًا. فلقد عرفنا ان الله يكشف ذاته من خلال الحدث اليومي ومن خلال بشر يتحدثون عن الههم، بلغتهم وكلماتهم. ان حالتنا هذه تشبه حالة معاصري يسوع: انهم كانوا مندهشين بيسوع، ووعوا، بعد القيامة، انهم عاشوا في الفة ابن الله، لكنهم لم يروا ولم يسمعوا سوى انسان وسوى كلمات بشرية. "ان كلمة الله هي في قلبك لتمارسها" (تثنية الاشتراع ٣٠: ١٤). في قلب الانسان، اذن، وفي ممارسته وتصرفه اليومي، كما وفي اهم احداث العالم، يجب ان نكتشف هذه الكلمة. فكما تعبر الحركات والاشياء عن شيء ما حين نقول: "هذا الحدث بليغ"، "هذه البسمة شديدة التعبير" الخ... فعلى هذا النحو يجب ان نكتشف كلمة الله عبر الاقوال والمواقف والاحداث البشرية. فلو كانت كلمة الله قد هبطت من السماء في حال محض، لا يسعنا الا ان نكررها؛ ولكن اذا كانت اكتشافًا متواصلاً للاحداث البشرية تقوم به اجيال من المؤمنين، فانها

لا تزال في متناولنا في كل ما يحدث لنا اليوم، ولعل قراءة الكتاب المقدس دعوة الى تكرار ما اكتشفه اجدادنا في الايمان، اكثر مما هي دعوة الى فعل ما فعلوه؛ انها دعوة الى قراءة كلمة الله في حياتنا وحياة العالم.

لا ينبغي ان نسقط في التجربة التي مر بها آباؤنا لما كانوا "يحمون" الكتاب المقدس من هجمات الالحاد والعلوم. العلمنة ديانة حديثة العهد ولها اسرارها: التقنية والعلم، واذا فزع الكثيرون من هذا الاله الجديد، فليطمأنوا بأنه لن يستطيع ان يمس حقيقة هذا الكتاب. واذا اعطى العلم القدرة للانسان ان يصل الى ما وصل اليه من تقدم -وكان ذلك معجزة-، الا انه لن يستطيع ان ينسيه اله ابائه، اله يسوع المسيح. هذا ما حدا بباسكال ان يقول: "الله، الهي، لا اله الفلاسفة والعلماء، بل اله ابراهيم واسحق ويعقوب". هذا الاله الذي يدعو الانسان ليخلق مع الله ويجعل الكون جميلاً: "ورأ الله ان ذلك حسن".

ان سر الكون وسر الانسان الذي يسعى الى اكتشافه، يكتشفه الكتاب المقدس في سر الله المبدع. فما يبدو ضعيفاً هزيلاً عند الانسان، وهو إمام الفكر، نكتشف عظمته في الله الذي يتجلى في خلائقه.

المراجع

- دليل الى قراءة الكتاب المقدس: الاب اسطفان شربنتييه، دار المشرق، بيروت ١٩٨٣.
- التوراة جاءت من جزيرة العرب: الدكتور كمال الصليبي، مؤسة الابحاث العربية، بيروت ١٩٨٦.
- آفاق عربية: الاعداد ١٠، ١١، ١٢، سنة ١٩٨٦.
- ماذا كان في البدء: الاب جان دانييلو، تعريب الاب البير ابونا.
- الفكر المسيحي: عدد خاص ١٩٨٢.
- La Bible arrachée aux sables: W. KELLER, Plon 1975
- La Violence et le sacré: R. GIRARD, Grasset 1972
- Des choses cachées depuis la fondation du monde, Grasset 1972

(١) اكد مؤرخون من امثال جان بوتير، والدكتور الصليبي استاذ التاريخ في جامعة بيروت، في كتابه "التوراة جاءت من جزيرة العرب" بأن العهد القديم وتاريخ الشرق الادنى قد تمت دراستهما منذ البدء في ضوء التوراة. وقد كان اهتمام الانسان الغربي بتاريخ الشرق الادنى القديم، منذ البداية، منطلقاً من اهتمامه بتاريخية التوراة. وقد اثرت هذه القراءة في التراث المسيحي؛ وهذا امر طبيعي، لان الانسان الغربي ينظر الى التوراة على انها القوام الاساسي لتراثه الديني والحضاري.

ويطرح الدكتور كمال الصليبي نظرية خطرة جدًا لانه يعيد النظر في الجغرافية التاريخية للعهد القديم والعهد الجديد. وقد تبين لكمال الصليبي بما لا يقبل الشك ان الاماكن التوراتية تشير الى ان ارض التوراة لم تكن اطلاقًا في فلسطين او بين العراق ومصر، بل في غرب شبه الجزيرة العربية. ويضيف ان اورشليم العهد القديم ليست اورشليم التي عاش فيه السيد المسيح.

وفي مجال العلوم الطبية ايضًا، توصل الاطباء الى نتائج مثيرة: وليم ادوارد من مستشفى مايو في كاليفورنيا نشر مؤخرًا مقالاً عن موت المسيح، يشرح بالتفاصيل نزاعه الذي استمر ثلاث ساعات، وموته بسبب اختناق ونزيف وضعف في القلب. وهكذا بالنسبة الى "كفن تورينو" الذي ما زال العلماء يبحثون عن سره (راجع ف. م. ك٢ ١٩٨٦).

ملفات 1993

- رسالة المرأة في الكنيسة

كانون الثاني/ ص٣٤ - ٤٠ جورجيت بلاكيير

- المزارات المريمية وابعادها الروحية

شباط — اذار/ ص٨٢ - ٨٨ المطران كوركيس كرمو

- بوروندي، كنيسة التلال

نيسان/ ص١٣٠ - ١٣٦ الاب جرجس القس موسى

+ اللاعنف، روحانية وموقف

ايار/ ص١٧٨ - ١٨٤ الاب بيوس عفاص

- بيرو، بلد الفقراء وكنيسة الامل

حزيران — تموز/ ص٢٢٦-٢٣٢ الاب نجيب موسى[(١)]

+ الرؤيا، رسالة امل ورجاء

آب - ايلول/ ص٢٧٤ - ٢٨٠ الاب افرام سقط

● عدد خاص: الاطفال امل المستقبل[(*)]

ت١ — ت٢/ ص٢٨٩ — ٣٨٤

- كنيسة مصر، بين امجاد الماضي وتحديات الحاضر

كانون الاول/ ص٤٢٦ - ٤٣٢ الاب لويس ساكو

(*) اثبتنا في "المختار من الاعداد الخاصة" المقالات التالية: الطفل هدف وامل (أ. يوسف حبي)، اخلاقية الطفل (يوسف حنا للو)، اهمية الفن في حياة الطفل (ماهر حربي).

(١) للاب نجيب موسى الدومنيكي ٧ مساهمات (من بينها ملفّان)، وبضمنها إجابتان.

ملف ايار ١٩٨٨ .... الاب بيوس عفاص

اللاعنف، روحانية وموقف

اذا كان للعنف الثوري دوافعه ومبرراته بصفته وسيلة قصوى لتغيير بنى الظلم (أقرأ "المسيحية والعنف": ف.م. ايار ١٩٧٣؛ "العنف الثوري": ف. م. نيسان ١٩٧٤)، فإن اللاعنف يكتسب شرعيته ومصداقيته، ومن عين المنطلق؛ وقد تكون له الاولوية في مجمل النضال الذي يقوده البشر للتحرر من الظلم وكل اشكال القمع والاستلاب...

هذا الملف لا يدّعي الدخول في جدلية بين العنف واللاعنف، وانما يبغي التعريف بتيار اللاعنف بصفته نهجا حياتيا مشروعا، وموقفا متميزا اثبت فاعليته في قلب الصراعات والمشاحنات التي عاشها ويعيشها العالم، ويأتي بمناسبة الذكرى الاربعين على مقتل "ابي الهند" المهاتما غاندي، والذكرى العشرين على مصرع زعيم الحقوق المدنية مارتن لوثر كينك.

في ذكرى رائدَي اللاعنف...

غاندي، مارتن لوثر كينك.. نبيّا اللاعنف في ماض ليس ببعيد. جان غوس، ديسموند توتو، ادولفو اسكيفيل... وكثيرون اخرون، هم ورثة هذه الحركة او بالاحرى هذا التيار الذي كان وما زال موضوع تساؤلات في عالم يكتنفه العنف من كل جانب، ولا شك ان اكثر اشكال العنف ضراوة هي تلك المظالم التي تلحق بالبشر والتجاوزات الصارخة على حقوقهم وحرياتهم...

ويتخذ "اللاعنف" -بالرغم من سلبية المصطلح- قيمة ايجابية، كونه تيارا روحيا وموقفا ملتزما في مواجهة المظالم. ولنقلها بصراحة: في اطار الصراعات الراهنة، أليس اللاعنف علامة على تفوّق "اسلحة الروح" على "اسلحة الجسد"؟ أوَ ليس اللاعنف -ويزداد كل يوم مؤيدوه وروداه وشهوده- دليلا على ان البشر ادركوا فشل او محدودية الحلول التي تسعى الى معالجة الشر بالشر والعنف بالعنف، ولهم امثلة كثيرة في التاريخ، من قصة هابيل وقايين، الى صراع التمييز العنصري، مرورًا بالحروب، دينية كانت ام سياسية ام حضارية...

وفي الذكرى الاربعين على مقتل "نبي" اللاعنف المهاتما موهنداس غاندي (٣٠ ك٢ ١٩٤٨) والذكرى العشرين على استشهاد وريثه الروحي المعمداني مارتن لوثر كينك (٤ نيسان ١٩٦٨)، كان لا بد للفكر المسيحي ان تنكب على كشف الثقل الروحي والبعد الانساني الذي تحمله "حركة" اللاعنف في عالم اليوم، وكان غاندي وكينك من ابرز روّادها في العصر الحديث، وإن كانت -على حد تعبير غاندي ذاته- "قديمة بقدم الجبال"!.

ما هو "اللاعنف"؟.

اللاعنف؟! هل يمكننا ان نصف هذه "الحركة" بالسذاجة، وهي تبدو لأول وهلة وكأنها مرادف "اللاعمل"، إن لم نقل الجبن والتخدير او اللامسؤولية؟! ألم توح مواقف بعض روادها

ان اللاعنف ادانة غير مشروطة للحروب، حتى تلك التي حررت شعوبا برمتها من براثن الاستعمار والسيطرة والقمع...؟ هل اللاعنف مرادف لموقف "الحياد" او لموقف رافضي "التجند" وحمل السلاح كسبيل الى السلام؟ فإذا كان الحياد اليوم دليل الجبن واللامسؤولية، فان اللاعنف هو اليوم موقف يتسم بالانحياز الى جانب المقهورين والمظلومين... وإذا كان رواد حركات السلم يشجبون التسلح ويطالبون بالغاء "التجنّد" كوسيلة لازالة الحروب، فان رواد اللاعنف يحاربون اسباب الحرب ويسعون الى بناء اسس العدل والسلام. وستبقى عبارة "اللاعنف" تخفي غموضًا والتباسًا، كونها توحي انها ستراتيجية للتغلب على العنف، وهي بالاحرى "ممارسة" لمحاربة الظلم والمظالم المرتكبة بحق الانسان والشعوب. فاللاعنف هو، إذن، قناعة ترفض الاستسلام الى "قدرية" العنف، وهو موقف ايجابي جاد يدفع الى الالتزام والعمل. ألم يتكلم غاندي عن "ساتيا غراها" (قوة الحقيقة)، تلك القدرة التي تجعل الانسان يحّول العنف الى قوة سلام؟ ألم يتحدث كينك عن "الحب الانجيلي" الكامن في اللاعنف حين "يستعيض عن الهجوم الجسدي بهجوم روحي دينامي... ان المقاومة اللاعنفية لا تسعى الى دحر او تركيع الخصم، وانما الى كسب صداقته وتفهّمه... ففي قلب اللاعنف يكمن مبدأ الحب..."؟!.

اللاعنف هو، إذن، "فعل" يقوم –على حد تعبير مجلة MISSI في عددها بعنوان "اللاعنف بعد غاندي" (شباط ١٩٨٨) الذي استلهمناه واعتمدنا مراجعه– في "محاربة الظلم عبر المجاهرة بالحقيقة ودفع الثمن، اعني قبول نتائج هذا التشهير حبا بالخصوم. وبكلمة اخرى: الدفاع عن الحقيقة عبر الألم. فاللاعنف يرفض الخلط بين الشر الذي يحاربه بكل قواه، وبين مرتكبي هذا الشر: فهو انما يسعى الى تحرير الظالم والمظلوم، ويهدف الى الاقناع، لا الى السحق".

ولما كان اللاعنف نهجًا حياتيا اتخذه ويتخذه اولئك الذين يؤمنون بان "للحق لا للقوة والغلبة"، وقد أبلوا نضالات في ظروف سياسية واجتماعية متفاوتة، اسفرت عن تحرر اوطانهم وشعوبهم... كان من الضروري ان نتوقف عند بعض رواد اللاعنف ونعكس لمحة من اقوالهم وممارساتهم اللاعنفية، بدءًا بغاندي الذي قتل ضحية الوحدة بين الهندوس والمسلمين، والى بعض من وارثي رسالتهما من المعاصرين(١).

اللاعنف: مدرسة وممارسة

لم يدخل اللاعنف بعد في عداد النظريات، ومن حسن الحظ انه لم يصبح استراتيجية او ايديولوجية بالمفهوم السياسي، ولا عقيدة او مذهبا بالمفهوم الفلسفي والديني. ذلك لأن اللاعنف في اساسه "طريقة" في اتخاذ موقف ازاء اوضاع وظروف قاسية يتعرض لها البشر، افرادًا وجماعات وشعوبا؛ وهو اسلوب لمواجهة حالات العنف والظلم والقمع والاضطهاد... وطريقة اللاعنف في التعامل مع اشكال العنف، تتلون هي الاخرى باختلاف روّادها وظروف حياتهم والوسائل التي يستخدمونها... لذا كان لها طابع خاص من رائد الى آخر، ومن بلد الى آخر، ومن ظرف الى آخر... فقد تنجح مسيرة سلمية في بلد ولا تنجح في آخر، ويأتي اضراب

في مكان ما بنتائج تنعكس الى مآس في مكان آخر، وقد ينقلب اضراب عن الطعام الى قمع، ويتحوّل موقف الرفض تجاه قضية او وضع ما الى اختطاف او تصفية جسدية!

ومع ذلك يبقى اللاعنف "اسلوب حياة" يأبى أن يكون في عداد التقنيات او الوسائل، ويرفض ان يتقيد باستراتيجية موحّدة. انه اشبه بنهج حياتي يعتنقه اولئك الذين يؤمنون بقوة الروح الذي يعمل في المظلوم والظالم معًا. انه تلك الروحانية العميقة التي تدفع بالمظلومين الى مواجهة الظلم باسلحة غير اسلحة الظالمين. ومثل هذا الموقف البطولي يحمل الظالمين انفسهم على استجابة نداء الضمير الذي ايقظه فيهم "لاعنف" المظلومين(٢). وهكذا يتضح ان اللاعنف، متى اصبح ستراتيجية لدرء خطر العنف، او اقتصرت توجهاته على تكتيك معين او على مجرد وسائل لمجابهة العنف، فستنتفي منه صفة "النبوة" ويفقد ميزته الروحية الاصيلة، وقد يتحول بالتالي، هو الآخر، الى عنف من نوع جديد!

وجهان للاّعنف

ويمكننا، على خطى غاندي، ان نميّز في اللاعنف وجهين يكمل احدهما الاخر: "اللاعنف البنّاء"-وهو اخلاقية يتدرّب عليها الانسان لاكتساب ذهنية لا عنفية ازاء اشكال العنف التي يواجهها. والوجه الثاني هو "اللاعنف الاقتحامي"-ويقوم في تحويل اخلاقية اللاعنف الى افعال تتسم بسلوكية لا عنيفة وتعكسها مواقف وممارسات على صعيد علني وعام.

ذهنية اللاعنف: ان اكتساب ذهنية اللاعنف يتطلب سنوات من الجهد الجاد، يتمرس الانسان خلالها على الصوم والصلاة، ويتدرب على "اللاخوف" والصمود، ويختبر الفقر والتجرد والزهد... ومما لا شك فيه ان العيش مع الفقراء والمظلومين والمقهورين يمنح خبرة لا تُعوَّض، كون هذه المشاركة تجعل الانسان يتحسس بعمق كل اوجه المعانيات التي يخضع لها البشر. وازاء المظالم التي تتعرض لها الجماعات البشرية، يتوجب القيام بتحليل جاد للوقوف على اسبابها القريبة والبعيدة واكتشاف مدى المسؤولية التي تعود الى ضحايا الظلم كما الى مسبّبيه. وغني عن القول ان على دقة هذا التحليل وعمقه تتوقف قوة العمل وفاعليته.

وان رسوخ الايمان والقناعة بجدّية اللاعنف وفاعليته، يقترن بالتمرس على ردود فعل لا عنيفة ازاء اشكال العنف التي ستواجه اللاعنيف من جرى دفاعه عن الحقيقة: التدرّب على الألم، القبول بفقدان مركز او منصب، الاستعداد لتقبل الاهانات وكل اشكال الهزء والسخرية الخ...

افعال اللاعنف: وتنطلق المرحلة الاولى لفعل اللاعنف من "الشهادة للحقيقة" عبر الحوار، بما في ذلك تقييم الآخر في صفاته ومساوئه، وابراز الظلم الذي تخفيه او تعكسه مواقفه واعماله، واقتراح حلول لوضع حد لهذا الظلم الذي تخفيه او تعكسه مواقفه واعماله، واقتراح حلول لوضع حد لهذا الظلم. وإذا لم تفلح هذه المبادرات، يتخذ العمل مسارا علنيا وعاما، عبر مظاهرات ومسيرات واعتصام واضراب عن الطعام.. الى غير ذلك من افعال اللاعنف. ويحرص منظّمو هذه التظاهرات على امتلاك النفس والاحتفاظ بهدوء الاعصاب وتجنب الشعارات

الداعية الى العنف والحقد والانتقام... ومما لا شك فيه ان العصيان المدني (تحدّي القوانين المدنية الجائرة) ورفض التعاون (اللجوء الى اشكال المقاطعة) هما من "الاسلحة الثقيلة" التي يتبناها رواد اللاعنف كبديل للاسلحة التقليدية، ترافقهما اصوام وصلوات واعتكافات... وفي كل هذه المبادرات يبقى المبدأ قائما: النصر عبر الألم! ألم يعيشه رافضو العنف بالفرح والأمل.

الانجيل واللاعنف

حين نتكلم عن اللاعنف، تتبادر الى ذهننا القربى التي تشده الى الانجيل، ونمضي في البحث عن جذوره في الانجيل. ويطيب لنا ان نجد نقاط التقاء كثيرة بين مواقف اللاعنف وتوجهاته والقيم الانجيلية في الحب والبذل والتضحية والمغفرة والتسامح ومحبة الاعداء الخ... وإذا كانت هناك قربى لا ريب فيها بين مثل الانجيل وروحانية اللاعنف، الا انه ينبغي ان يحتوي احدهما الآخر! ويكون من قبيل المغالاة أن نرجع اللاعنف الى الانجيل، او لا نرى في الانجيل سوى وجه من اوجه اللاعنف! والافضل ان نقول بأن تيار اللاعنف هو ثمرة نضوج وتسام في ضمير البشر وخبرتهم وحكمتهم واحلامهم... وان هذا التيار "النبوي" أثرته اجيال من الخبرة الروحية لدى المؤمنين من كافة الديانات؛ ويضفي الايمان المسيحي عليه بعدًا متميزًا، إذ ان بوسع المسيحي ان يجد في اللاعنف نهجا يشده الى المسيح واسلوبا في اتباعه على طريق الصليب والقيامة.

لقد اتسمت مواقف يسوع، ولا شك، باللاعنف، هو الذي اكد في تعليمه على الحب والاخوّة والسلام[٣]؛ وطبع اللاعنف حياته كلها، هو الذي جاهر بالحقيقة ولم يخش نتائج مجاهرته بها وتشهيره باعدائها... فكان موته ثمن شهادته للحق، وهل من شهادة ابلغ من شهادة الدم؟ أوَليس الألم سبيلاً الى المجد، والموت طريقًا الى الحياة؟

فاذا كان شهود اللاعنف في العالم قد استقوا روحانيتهم من اعماق ايمانهم بالانسان وخبرتهم الروحية -وكلهم رجال صلاة وزهد- يسكنهم حب عنيف قادر ان يذهب بهم الى الموت، فان لشهود اللاعنف من المسيحيين دافعا اضافيا في نضالهم ضد الظلم بكافة اشكاله، ودفاعهم المستميت على الحق والحرية والعدالة... وان لهم في الآم المسيح وموته على الصليب دافعًا عميقا يحملهم على قبول الآمهم بحب وأمل، وكلهم ثقة من أن الألم هو الطريق الى النصر. ذلك هو سر الفصح الذي فيه يشترك المسيحي في الآم المعلم ومجده: "اما كان ينبغي لابن الانسان ان يكابد هذه الآلام ويدخل الى مجده؟".

ويطيب لنا ان نجد اليوم، الى جانب رواد اللاعنف الشهيرين، ملايين من المؤمنين باللاعنف ومن انصاره المغمورين وشهوده الصامتين، في كل البلدان، ومن كل الديانات والحضارات... لذا فان العنف الذي يحاربه كل انسان ويسعى الى احتثاثه من اعماق ذاته، سيتيح للبشرية يوما ان تعيش بسلام، في عالم اكثر عدالة واكثر انسانية. مثل هذا الحلم سيتحقق ولا شك حين يعود العالم فيصغي بجد الى كلمات غاندي: "اغلب الحقد بالحب، والكذب بالحقيقة، والعنف بالألم"؛ وحين يحوّل البشر حلم مارتن لوثر كينك الى حقيقة: "احلم ان يستفيق البشر يوما ويدركوا انهم خلقوا ليعيشوا سوية كاخوة...".

المهاتما غاندي

(١٨٦٩-١٩٤٨)

ان السنوات التي امضاها كمحام في جنوب افريقيا (١٨٩١-١٩١٤) اكسبته خبرة في النضال الاجتماعي- السياسي والذي واصله في الهند كي يعدّ افكار مواطنيه لاستقلال حقيقي يكون قادرا ان يحقق وحدة هذا الشعب ذي الديانات والحضارات المختلفة. ولقد ابى غاندي، بالرغم من مساهمته الفاعلة في عملية الاستقلال، ان يصبح "رجل سياسة: بل احتفظ بدور المهاتما- الدليل الروحي- الذي يدعو الى الصلاة والصوم والزهد، وفي الوقت ذاته يطلق برامج الاصلاح الاجتماعي وينظم المسيرات ويؤسس المجلات... ومما لا شك فيه ان حملة "العصيان المدني" التي اطلقها اسهمت بشكل نهائي في حصول الهند على استقلالها عام ١٩٤٧، هذا الاستقلال الذي اعتبره غاندي نقطة انطلاق لخلق "هند جديدة".

غاندي واللاعنف اسمان متلازمان. وسيبقى اللاعنف يستوحي اسمه ونهجه وممارساته من نضال المهاتما الذي طالما اكد ان اللاعنف هو اكثر من طريقة، وابعد من ان يكون استراتيجية، كونه مسيرة طويلة وشاقة يكتشف الانسان خلالها انه قريب من الله، وحكمة يعيشها الانسان ويختبر كل يوم عمقها واصالتها وديناميتها.

وترتكز روحانية اللاعنف بحسب غاندي على ثلاثة عناصر:

١- سارفودايا: العمل على سعادة الكل عبر الاصلاح الاجتماعي والالتزام الشخصي، سيرًا ضد تيار الافكار والمفاهيم الموروثة (اقصاء مبدأ "النبذ"، المساواة العنصرية، تقييم العمل اليدوي).

٢- اهيمصا: الحب الذي ينفي العنف ويقتضي تقبّلا اراديا لنتائج عنف الآخر، فيسفر عن تطهير الذات وعن علاقات اجتماعية جديدة. انه نضال واقعي ضد جذور العنف.

٣- ساتياغراها: الخضوع للحقيقة في كل عمل. وهذه الحقيقة هي موضوع بحث دائم ونضال مستميت يسعى الى قلب نتائج العنف. انها القدرة التي تجعل الانسان يواجه العنف ويحوّله الى قوة سلام وعدالة وثقة متبادلة تسهم في تحرير العنيف من عنفه الذاتي.

من اقواله

- "ان طريقة اللاعنف برهنت بشكل ساطع تفوّق الحق (حقيقة تتجسد في العمل) على القوة، تفوّق قوة النفس على القوة الوحشية، تفوق العقل على الحقد والنزوات".
- "ان طريقة اللاعنف تقوم في استخدام الألم الذي أُخضع له الضعيف، لايقاظ الرقة لدى القوي".
- "ليس اللاعنف سلاحًا للضعفاء والجبناء، وانما هو سلاح الاقوياء والشجعان. انه لا يقوم في عدم المقاومة تجاه الشر، بل بالعكس في مقاومته مقاومة قوية وحازمة حتى التضحية، يرافقها صفاء القلب وحب حي تجاه ذاك الذي نريد ان نقنعه".

لانزا ديل فاستو

(١٩٠١-١٩٨١)

شاعر وكاتب وعالم وموسيقار. واحد من ابرز تلامذة غاندي، بعد ان زاره في الهند عام ١٩٣٦. انشأ جماعة "الفلك" عام ١٩٤٤ التي استقرت في جنوب فرنسا عام ١٩٦٢، وهي تجسّد قيم الحب والعطاء والاقتسام... قاد اعمال لاعنف كثيرة، ابرزها صيامه مرات عديدة

ضد البؤس في صقلية، وضد التعذيب في الجزائر، وضد التسلح النووي في جنيف، ومن اجل استصدار تحريم السلاح النووي من قبل المجمع المسكوني (١٩٦٣)... له مؤلفات عديدة ذات عمق روحي متميز (انظر ف. م. شباط ١٩٨٤)

من اقواله:

- "... ندافع عن العدالة باسلحة العدالة، ونكون على استعداد لذلك في كل حين. نفضّ النزاعات ونوقف الانفجارات ونصلح الاساءة باللاعنف الذي هو قوة الحقيقة: نقنع ولا نسحق، نوقف ولا نسيطر، فنحصل على السلام".
- "... يتهمونني بالاستسلام للظلم، ولكني اقول لهؤلاء: ان كل محاولاتكم العنيفة ستبوء بالفشل. نحن ضد الحروب الاهلية والخارجية، ضد كل الدكتاتوريات بما فيها دكتاتورية البروليتاريا. ولكننا نريد الانتصار على الفقر وعلى كل المظالم...".
- "... الانجيل يدعونا الى ان نلتفت نحو المحبة والتضحية والعطاء، أي ان نحقق التحرر الداخلي. وعلى كل واحد يدفع ثمن انعتاقه، وهذا الثمن هو الألم والصعوبات التي لا تطفئ الامل والفرح العميقين فينا...".

مارتن لوثر كينك

(١٩٢٩-١٩٦٨)

عام ١٩٥٥ قاد الراعي المعمداني مارتن لوثر كينك ضد التمييز العنصري "مقاطعة الباصات" في مونتغومري لمدة ٣٨٢ يوما. ومنذئذ اصبح رائد الحقوق المدنية للزنوج عبر العديد من المسيرات السلمية وحملات التوعية في عدد من المدن الامريكية، وكان آخرها اضراب عمال التنظيف في ممفيس حيث لقي مصرعه، وكان قد سجن عدة مرات، ونال جائزة نوبل للسلام لعام ١٩٦٤.

من اقواله:

- **"التغييرات الاجتماعية الاكثر تميزا، هي تلك التي تحصل عليها باللاعنف".**
- **"العنف والحضارة كلمتان متضادتان. فعلى مثال الشعب الهندي، برهن زنوج الولايات المتحدة ان اللاعنف ليس عقيما ولا سلبيا، وانما هو قوة ادبية هائلة في خدمة التطور الاجتماعي".**
- **"الحب هو القوة الوحيدة على الارض التي بوسعها ان تعطي وتقبل، وبأقصى درجة، من دون ان ينتج عنها أي ضرر، لا للذي يعطي ولا للذي يقبل".**
- **"إذا استخدمنا هذه الطريقة (اللاعنف) بحكمة وشجاعة، سنخرج من الليلة الموحشة والأليمة التي يبدي فيها الانسان لا انسانيته تجاه الانسان، وندخل في فجر ساطع من الحرية والعدالة".**
- **"... لم يعد بوسع البشر في هذا العالم الاختيار بين العنف واللاعنف، وانما بين اللاعنف واللاوجود" (عشية اغتياله).**

المطران اوسكار روميرو

(١٩١٧-١٩٨٠)

تسلّم رئاسة اسقفية سان سلفادور عام ١٩٧٧ - وهي السنة التي وقع فيها مع عدة اساقفة من اميركا اللاتينية على شرعة اللاعنف في اعقاب لقاء دراسي مع جان غوس احد

اقطاب اللاعنف المعاصرين. اشتهر بمواقفه الجريئة، عبر مواعظه، في فضح التجاوزات واعمال القمع التي تعرض لها شعب السلفادور. وبرصاصة الغدر أُسكت هذا الصوت النبوي في ٢٤ اذار ١٩٨٠.

"ما ايسر ان نشهّر بظلم البنى، بالعنف المنظّم، بالخطيئة الاجتماعية! كل هذا موجود ولا شك، ولكن اين هو منبع الخطيئة الاجتماعية؟ في قلب كل انسان. فالمجتمع الحالي هو اشبه بمجتمع لا اسم له، حيث لا احد يعترف بخطأه والكل مسؤولون".

ادولفو بيريز اسكيفيل

(١٩٣١-   )

ارجنتيني من اسرة فقيرة اكتشف قوة اللاعنف ابان تفاقم الوضع الاقتصادي والسياسي في اعقاب الانقلاب العسكري لعام ١٩٦٩، فخصص كل قواه في "خدمة السلام والعدل" هذه الحركة التي ألهمها جان غوس واصبح اسكيفيل سكرتيرها لاميركا اللاتينية؛ كما قام بدور المنسق لحركات اللاعنف في القارة. ذاق السجن والاختطاف... نال جائزة نوبل للسلام لعام ١٩٨٠.

"... اني على يقين من ان اختيار قوة اللاعنف الانجيلية يشكل تحدّيا ويفتح آفاقا جديدة واساسية. وهذا الاختيار يعطي الاولوية لقيمة اساسية ومسيحية في العمق: كرامة الانسان... فمن اجل هذا الايمان بالمسيح وبالبشر، يمكننا ان نقدم مساهمتنا المتواضعة في بناء عالم اكثر عدالة واكثر انسانية، ويطيب لي ان اؤكد بقوة بأن هذا العالم ممكن!".

---

(١) لا يسعنا ان نلمح هنا الى كل رواد اللاعنف والمحبة في العالم، وقد سبق للفكر المسيحي ان تحدثت عن بعضهم، امثال المطران بروانيو (آذار ١٩٨٢) وديسموند توتو (شباط/ آذار ١٩٨٥) وجان فانييه (ايار ١٩٨٥) وجان غوس (شباط ١٩٨٦) الخ... وانما نكتفي بعيّنة من الرواد، ونشير الى المقالات التي نشرت عنهم (انظر الاطارات عبر هذا الملف).

(٢) كانت روز باركس الزنجية العجوز وراء توجهات مارتن لوثر كينك في اللاعنف، هي التي، ابان مقاطعة الزنوج الامريكان للباصات في مونتغومري، اجابت اولئك البيض الذين سألوها: اما تعبت من السير ايتها الام العجوز؟ - "نعم، وكيف لا؟ ان ركبتيّ العجوزتين لم تعودا تحملاني، ولكني اواصل السير تكفيرا عن خطيئتي وجبانتي، لكوني صرت شريكة في ظلم التفرقة العنصرية حين سكتُ عنها مدة طويلة؛ واني اواصل السير من اجلكم، لأني متى دفعتُ عنكم كما دفع يسوع عنا جميعا على الصليب، ستدركون انتم ايضا، ايها البيض، هذا الظلم الذي ندركه جيدًا نحن السود"! وعلى صعيد آخر كتب الفونس ديانو احد رواد التحرر في كاليدونيا الجديدة: "ان اساس اللاعنف في حرب التحرير لا يقوم في تحرير الذات او تحرير الشعب وحسب، وانما في حمل المضطهِد على التحرر حين نجعله يدرك انه في وضع المضطهد. انه التزام صعب...".

(٣) نجد في الانجيل آيات كثيرة تدعو الى تجنب شريعة "العين بالعين" والاساءة الى الآخرين... كما تدعو الى التسامي في الحب والمغفرة والتسامح: "... لا تقاوموا الشرير. بل من لطمك على خدك الايمن فقدّم له الآخر... وانا اقول لكم: احبوا اعداءكم وصلوا لاجل الذين يضطهدونكم، لكي تكونوا ابناء ابيكم الذي في السماوات، فانه يطلع شمسه على الاشرار والصالحين..." (متى٥:٣٩-٤٥). وكفى تُفسَّر هذه الدعوة بالضعف او الخنوع، بينما هي نداء الى موقف ايجابي يتسم بالشجاعة والقوة والبطولة...

واليكم تفسير رائد اللاعنف الشهير لانزا ديل فاستو لهذا النص:

"احمل خصمك على ان يؤذيك ضعف ما ابتغى! لماذا؟ لان الذي ضربك ظلما يدرك بخجل انه ظلمك... وان روح العدالة في اعماقه ينتظر ان تُرد اليه صفعته- فهو بحاجة اليها!- وستُبرّر هذه الصفعة تلك التي كالها لك، فيتصاعد القتال... اما طريقة اللاعنف، فتقوم على النحو التالي: حثّ خصمك وادفعه الى مضاعفة اساءاته... وانتظر بصمود ان يمتلئ كيل اساءاته ومظالمه، وحينذاك يتحرك شيء في نفسه المظلمة"!.

الرؤيا رسالة أمل ورجاء

"رؤيا يوحنا"! هذه العبارة لوحدها توحي بالغموض والغرابة والقلق، واكثر من واحد لم يفهم، كما قرأ فيها، سوى رائحة النار والكبريت وصور تساقط النجوم واختلاط العناصر في مشاهد مروّعة طليقة بنهاية العالم.

ولكنها "نهاية العالم القديم من اجل ظهور الخليقة الجديدة والارض الجديدة" كما يقول الاب افرام سقط الذي يكتب هذا الملف كخاتمة لدراسته الكتابية في العهد الجديد طيلة خمس سنوات، على صفحات "الفكر المسيحي". فسفر الرؤيا –بالرغم من اسلوبه الرمزي الملحمي، الغريب الصور والشخوص، والمأساوي اطر كلا– كتاب رجاء وتصور رؤيوي رمزي لمسيرة الكنيسة عبر الألم وصراع الأرض، فتجد نصرها في الله الذي لا ينكث بعهده ابدًا.

المقدمة

التاريخ في مسيرة متواصلة: تلك فكرة تقلق ذوي السلطة الذين يشعرون ان سلطتهم سوف تنتهي. فمن خلال سلطتهم يتخيّلون الهم خالدون، والتغيير بالنسبة لهم هو الموت. ولكن أي رجاء للذين يعانون الضيق والا لم والاضطهاد؟

هذا الرجاء يكلف ولا يشبه الرجاء الوهمي الذي ترسمه الروايات الخيالية التي تدفعنا الى ان نحلم بعالم وهمي لا وجود له في أي مكان، بعد ان نكون قد تلكأنا في التزاماتنا. الرجاء الذي يشير اليه كتاب الرؤيا هو رجاء واع وواقعي يمد ابصارنا نحو المستقبل، الى اورشليم السماوية، والارض الجديدة، حيث لا دمع ولا حزن. ولكنه رجاء مجبول بصراع الارض، ارض المخاض المزروعة بالتناقضات والمجابهات والمصادمات الدموية العنيفة. وهذا الرجاء واقعي لان الله يظل أمينًا في التاريخ، انه سيد المستقبل، هو الالف والياء. هذه هي رسالة كتاب الرؤيا[1].

ولكن قبل الشروع بتقديم كتاب الرؤيا وافكاره الرئيسية، لنلق نظرة خاطفة على الاسلوب الرؤيوي الذي كان شائعًا في الاوساط الفكرية اليهودية، وسنعطي موجزًا لبعض المفاتيح لفهم الرؤيا وقراءتها قراءة سليمة، ولفك بعض الغازها:

"الرؤيا" مشتقة من فعل (كَلا، ومصدره كليانا): جلى، أي اظهر وكشف، اما الكلمة اليونانية (Apocalypse)، فتعني: ازاحة الستار.

وفي هذا تصور بأن التاريخ يمر من خلال خط يختفي آخره في سر الله. ان نظرتنا، نحن الشرقيين، الى التاريخ تختلف عن نظرة الانسان اليوناني. فالزمن اليوناني هو دائري والسنون تدور على ذاتها والاحداث تعود من جديد. اما الانسان الشرقي، فيرى الزمن كخط، نهايته في الله، ولا يرى النهاية الا الذي له عيون الله. فالتاريخ يتطور ويتقدم نحو هدف محدد.

النبي ليس بالرجل الذي يرى المستقبل او يتنبأ عن المستقبل بقدر ما هو ذلك الذي يرى تدخل الله في هذا التاريخ وهو يتحدث الى الناس باسم الله، ورسالته دعوة لان نعيش حاضرنا وواقعنا حسب مخطط الله. ان كلمة الله ملتصقة بحاضرنا ولا معنى للمستقبل الا بقدر ما يعطي من معنى للزمن الحاضر، اي بقدر ما يسند رجاء الناس فيذكرهم بذلك اليوم الذي يقيم الله ملكه بشكل نهائي. غير ان ذلك اليوم سيبقى خفيًا.

لقد نشأ الاسلوب الرؤيوي في وقت الازمة، حيث يحس النبي ان كلماته لا تلقى تجاوبًا لدى الناس ولا تسند رجاءهم، لان الازمنة قاسية وهي تعارض مخطط الله ظاهريًا، فيريد الانسان الذي يعاني من الاضطهاد والمحنة ان يتأكد من صدق الله ومخططه، فينتظر من الله ان يزيح الستار الذي يحجب النهاية. كيف يرى كاتب الرؤيا آخر الازمنة؟ هل من خلال الرؤى التي يرسلها الله اليه؟ اذا كان الامر كذلك، فالله لا يتحدث الينا الا من خلال كلمات بشرية. فنضطر للبحث عن هذا الاسلوب الرؤيوي الغامض. لقد اصبحت كلمة "رؤيا" في اللغة المألوفة ترادف كلمة "غامض" و "مفجع" فعلاً. ومن المؤسف انه لم يحفظ الا هذا الوجه، مع ان الرؤيا هي نور ورجاء. فكاتب الرؤيا، مثلنا، لا يعرف المستقبل، ولكنه متأكد من أمر واحد وهو ان الله امين، ولكي يعرف كيف ينجز الله التاريخ، يكفيه ان يرى كيف حققه يسوع المسيح. فالكاتب يعود الى الوراء، فيتظاهر بانه يكتب في زمن سبق زمن الكتابة بثلاثين سنة (عند دانيال ثلاثة او اربعة قرون)؛ فيجتاز التاريخ بسرعة، وعند وصوله الى زمنه، يقفز الى الامام ويضع في آخر الازمنة ما اكتشفه في قراءته للتاريخ. غير انه لم يستطع ان يفصح عن هذه الامور الا بالصور.

فبالكلام، يعبر الانسان عن علاقته بالواقع، وعندما يريد ان يكون لواقعه معنى، فانه يفصح عنه بشتى الصور. اننا نحس احيانًا ان الكلمات عاجزة عن ترجمة مشاعرنا فنلجأ الى الصور والفن والشعر... فالصورة توحي الينا اكثر من الكلمة المجردة، ولكن شريطة ان نستخلص المعنى من الرموز، لا مما تعنيه الكلمات بحرفيتها.

فكاتب الرؤيا يستعمل اسمًا مستعارًا ويلجأ الى اسلوب التستر. اما رؤيا القديس يوحنا، فقد وقّعها كاتبها بعبارة "اخوكم في المحنة"، واعلن انه شاهد للمسيح الحي الآتي في تاريخ البشر.

الرؤيا تقتصر على المختبرين "المطّلعين"، لذا فهي تستخدم لغة وصورًا رمزية. هذه الصور كانت شفافة لمعاصري كاتب الرؤيا في القرن الاول المسيحي، وعلينا نحن ان نعمل جهدنا لفك الغازها. ولكن غالبًا ما نبقى حيارى امام النصوص، فلقد ظلت بشراه في الظلام ومغلفة بالسرية، عكس الاناجيل.

الرؤيا تسعى خاصة الى الحفاظ على الرجاء، وبما انها نشأت في ساعات الازمات، فهي متشائمة امام مصير العالم، حيث حكمت عليه بالهلاك لانه تحت تأثير "سيد هذا العالم". ولكنها متفائلة في النهاية رغم الاضطهاد ورغم استفحال الشر، ولا نستطيع من خلالها الا ان ننتظر شيئًا واحدا وهو ان يخلق الله عالمًا جديدًا، وارضًا جديدة وسماء جديدة.

ولكن قبل حلول هذا الزمان، سوف تكون الدينونة، وما لنا الا الانتظار. والانتظار لا يعني التهرب من قضايا العالم. فاذا كانت نهاية الازمنة قد جاءت في حدث الفصح، فلنشمر عن سواعدنا لنجعل ما اتمه يسوع مرة واحدة حاضرًا في تاريخنا.

والرجاء يلقي الضوء على الالم والاضطهاد: هذه هي مسيرة "الخروج" الدائمة. ولكي يقيم الله ملكه فينا وفي كل العالم، ينبغي ان تتم عملية تدمير كل ما يعارض الله: يجب ان نموت لنحيا. لذا فالصور المرعبة عن الزلازل والكوارث هي بالمعنى الرمزي، أي علينا ان نفهمها بمعنى انه عندما يأتي الله فينا وفي العالم، تتحطم كل الحواجز.

اخيرًا، رؤيتها للتاريخ حتمية، فكل شيء متوقّع مسبقًا ومدوّن في الكتب السماوية، ولا مجال للحرية. ولكن يوحنا نبي، وهو لا ينقل خطة جاهزة للتنفيذ لا رجوع عنها. فالتاريخ هو مسيرة البشر مع الله الذي يرافقهم ويخاطبهم، وحدث يسوع وموته وقيامته غيّر كل شيء. نهاية الازمنة أي يوم غلبة الله، لا ننظر اليها وكأنها امامنا. انها حدث في الماضي والحاضر، وبقدر ما نتحد به بقدر ذلك يحرّضنا على العمل والالتزام لانجاح عمل المسيح، وهكذا لا معنى للمستقبل الا بقدر ما نعيش الحاضر بعمق.

لماذ كتبت الرؤيا؟ الاطار الذي نشأت فيه رؤيا يوحنا

عبادة الله او عبادة الامبراطور

"ليخضع كل امرئ للسلطات": هذا ما قاله بولس في رسالته الى اهل رومية في شتاء ٥٧-٥٨م. ويوحنا[٢] يقول في كتاب الرؤيا بأن هذه السلطات وحش شرير. ترى ما الذي حدث خلال هذه الفترة؟

حالة الكنيسة في نهاية القرن الاول تشهد زمنًا مظلمًا. المسيحية انتشرت بسرعة في حوض البحر الابيض المتوسط. في سنة ٦٤م نيرون يشن اضطهادًا شرسًا. بطرس وبولس يذهبان شهيدي البشرى، ومع يوحنا نحن في نهاية حكم الامبراطور دوميثيانس (٨١-٩٦) الذي اخذ الحكم في عهده شكلاً قمعيًا واعلن نفسه إلهًا، فأطلق على نفسه لقب "السيد والاله"، وامر بالعبادة والسجود له في ارجاء الامبراطورية؛ واصبحت تادية العبادة والسجود للامبراطور كما لله العلامة المميزة للمواطن الصالح، ومن ثم الوسيلة الوحيدة للحياة المطمئنة والشرط الضروري لمزاولة بعض الوظائف.

وهكذا وجد المسيحي نفسه امام خيار لا مساومة فيه: اما ان يؤدي العبادة لقيصر، او يرفض هذه الصنمية، فيعيش خارجًا عن القانون ويستعد للاستشهاد في كل وقت.

في هذا الاطار تتخذ الهتافات الليتورجية كامل معناها، وفيها يعلن المؤمن ان الله هو الرب الاوحد، وان له وحده المجد والقدرة. فالفصلان ٤و ٥ هما بمثابة ليتورجيا حول العرش، عرش الله والحمل:

قدوس قدوس قدوس

الرب الاله المهيمن العزيز

كان وكائن ويأتي

لك يحق يا ربنا والهنا ان تلقى المجد والاكرام والقدرة، لانك خلقت الاشياء كلها وبمشيئتك خلقت وكان لها الوجود.

"وتوالت رؤياي، فسمعت ضجيج كثير من الملائكة وهي تحيط بالعرش وبالحيوانات والشيوخ، وكان عددهم ربوات ربوات والوف الوف، وهم يصيحون بأعلى صوتهم:

الحمل الذبيح هو أهل لان ينال القدرة والغنى والحكمة والعزة والاكرام والمجد والحمد".

هذه الهتافات هي صرخة الايمان، وهي في الوقت نفسه صرخة المقاومة العنيفة بوجه سلطة قمعية تتجاوز كل الحقوق. فالليتورجية تصبح، اذن، التزامًا في خدمة الحرية، وهي رسالة رجاء للانسان المظلوم.

كاتب الرؤيا يعتبر نفسه الشاهد الذي يخبر بما شهده وهو الامين في شهادته، والشهيد يقوم بشهادة الحق في امر الله، وهو القتيل في سبيل الله. ففي الرؤيا ننتقل من معنى الى آخر. من الشاهد الى الشهيد. هل الرؤيا، اذن، كتاب مقاومة؟ انه نبوّة وان تبنى الكاتب لغة سرية. ومثل كل نبوّة، فهي تحمل بذور الثورة لانقاذ حرية الانسان، أي حرية الروح. فالمسيحي يستمد القوة لانه مؤمن بأن الرب سينتصر، ويقبل الاستشهاد مثل معلمه: انه يواجه الموت بسلام. من جانب آخر، الآخرة حاضرة من خلال واقع تاريخنا ومصيرنا؛ والرؤيا تضع في اطار مسرحية رؤيوية سلطان المسيح الذي مات وقام ويملك، وهو الى جانب الله. فالرؤيا التي تنظر على الدوام الى مستقبل غير محدد، توجه ابصارها الى نقطة معينة في التاريخ: يسوع المسيح المذبوح الذي هو اساس رجائنا. وهذا المسيح ليس شخصية اواخرية غامضة تحقق لنا الخلاص، بل انسانًا من لحم ودم عاش مثلنا في التاريخ. فما حدث في يسوع المسيح ضمان لانتصار الكنيسة. الرب حاضر في اصفيائه من خلال الليتورجيا، وهم متحدون به: فالرؤيا بهذا المعنى، كتاب ليتورجيا، احتفال مستمر للكنيسة. وكل ما ننتظره، وكل ما يكشفه الله لنا في المستقبل، نتذوقه مسبقًا في العبادة. اذ ذاك تصبح الليتورجيا محرك التزامنا في العالم.

قراءة موجزة للرؤيا

يبدو الكتاب في وضعه الحالي وكأنه تأمل طويل في الكنيسة، كنيسة ترتبط حياتها بالله سيد التاريخ ويسوع الشاهد الامين والشهيد، وبالروح القدس الذي يصلي عبرها[٣].

بعد المقدمة الموجزة التي فيها يستعرض الكاتب الكشف الذي ينقله الينا ويرينا احداث نهاية الازمنة- هذه النهاية التي بلغت الينا في يسوع ويشارك المسيحي فيها من خلال الليتورجيا- نجد النقاط التالية:

١ - الكنيسة المتجسدة: كنيسة مؤلفة من بشر ضعفاء (١-٣)

يوجه يوحنا كلامه الى سبع كنائس في آسيا الصغرى (تركيا)- ورقم ٧ رقم رمزي يدل على الكل- ومن خلالها الى الكنيسة كلها. هذه الكنائس تشبه جماعاتنا التي تتصارع مع الشر

والضعف وتطمح الى القداسة ايضا. انه يكتب، لا الى كنيسة مثالية، وانما الى تلك الكنيسة المتجسدة في التاريخ، كنيسة القرن الاول وكنيسة القرن العشرين، بما فيها من مخاوف وخطايا ورغبة فاترة في خدمة الرب.

الكاتب يدخلنا منذ بدء الرؤيا في تصميم الله: الله ليس خارج الزمن، بل هو اله مغامر من اجل الانسان، والروح (الارواح السبعة)، بملئه، يواكب مسيرة الكنيسة. اما المسيح، فهو الشاهد الامين، يأتي كابن الانسان[٤] للدينونة. انه المطعون الذي انبأ عنه زكريا.

وينتهي العنوان بمشهد الله الذي هو بداية ونهاية كل شيء.

٢- الكنيسة تواجه مشاكل عصرها، أو الكنيسة الملتزمة (٤-٢٠)

هنا تبدأ رؤيا يوحنا عن الكنيسة، وكم الرؤيا صعبة الفهم. هذه الكنيسة تتصارع مع قوى الشر وتتخبط وسط مشاكل زمنها. واذا حاولنا ان نفك الغاز هذه الرؤيا في هذا القسم، سنجد ان هذه الكنيسة المعجونة بالجسد والخطيئة والحب، تواجه حدثين هامين في القرن الاول من نشأتها:

- انفصال الكنيسة عن اسرائيل (٤-١١)
- مجابهة الدولة المستبدة (١٢-٢٠)

أ- الكنيسة وعلاقاتها باليهودية

كان المسيحيون الاولون يطرحون هذا السؤال: ما هي صلة الكنيسة باليهودية؟ ويجيب يوحنا بأن الكنيسة هي بقية اسرائيل والذين هم امناء لله بايمانهم بيسوع. ويؤكد يوحنا على الشعب الجديد المنفتح على جميع الامم. واذا كانت الكنيسة تحل محل اسرائيل، فلا غرو ان يدخلنا يوحنا في الليتورجيا الجديدة التي حلّت محل العبادة في الهيكل. فالفصلان ٤-٥ هما بمثابة ليتورجيا سماوية حول العرش: الشيوخ هم رجال، لا ملائكة، ويرمزون الى قديسي العهد القديم، وقد رأى المسيحيون الاولون فيهم اباءنا في الايمان. والحيوانات الاربعة ترمز الى العالم. هذه الحيوانات هي في حضرة الله، ولكن الله لا يتنعم وحده في السماء، والسماء ليست بعيدة في عالم وهمي، انما هي ملتصقة مع الارض، والله موجود في قلب عالمنا. فمسرح الاحداث الذي يُشار اليه بالسماء، هو في الواقع الارض، وهذا هو مسكن الله بين البشر، أي الارض التي فيها الشر المتمثل بالتنين ووحشَي البحر والارض. والسماء هي القسم الخفي لهذا العالم الحاضر الذي لا تصل اليه عين الانسان الاعتيادي.

الكون كله مع جمهور الاحياء والاموات هم في حضرة الله. وهنا تتم الليتورجيا المهيبة حول العرش، حيث نحن امام "حمل مذبوح" هو اهل لان يفتح الكتاب المختوم؛ انه أسد يهوذا، يراه يوحنا في قلب الله والبشرية، والكون والبشرية ينشدون نشيدا جديدا:

"الحمل الذبيح هو أهل لان ينال القدرة والغنى والحكمة والعزة والاكرام والمجد والحمد... للذي على العرش استوى وللحمل الحمد والاكرام والمجد والعزة ابد الدهور"...

ثم يدخلنا يوحنا في سلسلتين من الرؤى الغامضة عن الختوم السبعة والابواق السبعة. يلمح يوحنا الى دمار اورشليم سنة ٧٠م، وقد عليش هو نفسه هذه الاحداث، ويقدم لنا الكنيسة التي ولدت من الشعب اليهودي، ولكنها منفتحة على كل البشر دون تمييز في العرق واللون.

اما الكتاب الصغير (ف ١٠)، فهو الانجيل، والملاك الذي يحمله يتحلى بصفات المسيح، وهو صغير لانه لا يتوسع الا في جزء من تعليم القديم ويهتم اول الامر بالوثنيين. لنلاحظ براعة يوحنا في تقديم الرؤيا. انه نبي يهتم بعلاقة الكنيسة باليهودية وبالعالم الوثني؛ وتبشير الوثنيين امر جوهري. انه الشعب الجديد.

ب- الكنيسة تواجه قوى التسلط (الدولة المستبدة)

ان رؤيا المرأة والتنين تقدم لنا السر بمجمله: الكنيسة التي تلد المسيح على الجلجلة. فلقد تمجّد يسوع وقهر الشيطان،

فيحاول هذا ان يسيء الى الكنيسة خلال مسيرتها على الارض، لكن الله يحميها.

اما القوى الحاضرة، فيقدمها الكاتب في عرض سابق للصراع ورهانه المخفي: في السماء ميخائيل يغلب التنين، أي ان الله ينتصر على الشر. والصراع بين الله والشيطان يظهر عمليا على الارض بالصراع بين القوى التي يتزعمها الشيطان ومؤمني الحمل. ويمثّل الكاتب القوى الشريرة بالوحشين: وحش البحر، وهو رمز الدولة المستبدة (رومة للمسيحيين في ذلك الزمان)، ووحش الارض، وهو رمز للايديولوجيات العاملة في خدمة الدولة المستبدة. وامام الوحشين ينتصب الحمل والذين يتبعونه (١٤٤٠٠٠)، وتعلن الدينونة على اربعة مراحل:

- اعلان انجيل الدينونة: يعرض الانجيل، وباعلانه تتم الدينونة، أي خراب بابل (رومة) وجميع الدول المستبدة، ويحصل المؤمنون على الراحة.
- انتصار المؤمنين يمر بالالام: فالشهداء هم عناقيد العنب التي تداس في معصرة الانتقام، ومع ذلك فالنصر اكيد ويجوز الاحتفال به.
- خراب الدول المستبدة (رومة وبابل رمزا الاستبداد بالنسبة للمسيحيين في ذلك الوقت)
- نشيدان يحتفلان بما حصل: رثاء بابل ونشيد المختارين الظافرين.

٣ – الكنيسة النازلة من السماء (٢١–٢٢)

بعد فصول الرعب ومشاهد النار والدم يدخلنا الكاتب في خاتمة الكتاب، في نشيد الفرح وسلام الفردوس، فردوس

سفر التكوين نفسه. الفردوس ليس حنينا الى الماضي والى حالة فقدت (فردوس خيالي لم يوجد ابدا)، انما هو رجاء يُفتح امامنا، وهو مشروع نبنيه ومسيرة متواصلة عبر دموعنا. اما مشهد الكنيسة، اورشليم السماوية النازلة من السماء، فهي كنيسة الارض التي نكوّنها نحن،

ولكن هذه الكنيسة المتكونة من خطأة ستتجلى، لان الله يعيد صنعها. ووفقا للرؤيا الكبرى التي يفتتح بها سفر التكوين، تصبح هذه الكنيسة، بعد ان يعيد الله خلقها، ملكوت الله حقا؛ وتلك المدينة التي يقيم فيها سكناه مع الحمل، تصبح ملكوتا كونيا تشعر جميع الشعوب فيها بانها في بيتها ويكون الله فيها كلا للكل:

"لا لعنة بعد اليوم، عرش الله والحمل ويقوم في المدينة فيعبده عباد الله ويشاهدون وجهه، ويكون اسمه على جباههم. لم يعد ثمة ليل ولا يحتاجون الى مصباح أو شمس ليستضيئوا، لان الرب الاله ينشر نوره عليهم ابد الدهور... ها أنذا آت على عجل ومعي الجزاء الذي أجزي به كل واحد بعمله. انا الالف والياء والاول والاخر والبدء والنهاية. طوبى للذين يغسلون حللهم، فانهم يتسلطون على شجرة الحياة ويدخلون المدينة من الابواب".

ولكن ذلك كله ليس سوى رؤيا. ان ما تعيشه الكنيسة بغموض منذ الان في حياتها اليومية يجعلها تعزّز طموحها في مسيرتها المؤلمة. فالروح ما زال يناديها لتظل امينة لرسالتها نحو البشر؛ ولذلك ينادي الروح العروس: "تعال. من سمع فليقل: تعال، ومن كان عطشان فليأت، ومن كانت له الرغبة فليستق ماء الحياة مجانا".

خاتمة:

كتاب الرؤيا رسالة الى بني جيلنا

صحيح ان كتاب الرؤيا صعب الفهم، وهو كتاب نار ودم وصراع وقتال على صورة عالمنا. صحيح انه صعب الفهم بسبب العناصر الغامضة التي استقاها الكاتب من الرؤيا اليهودية، ولكننا نقرأ الكتاب قراءة مسيحية. فالمؤلف يصف جهاد الكنيسة امام قوى الشر التي تتحداها، ونرى ذلك في الصراع القائم بين الله والحمل المذبوح واورشليم من جهة، وبين التنين والوحشين من جهة اخرى. هذا الصراع لا يدور في الآخرة، انما في واقع مسيرتنا وتاريخنا. فعوضا ان يسمس الكاتب الامور بأسمائها، يقدم في مسرحية رؤيوية -وهو اسلوب مألوف لدى معاصريه- سلطان المسيح، الذي هو حي وعلى العرش استوى، في اسلوب مسرحي رؤيوي. ان اعلان انجيله هو دينونة للعالم، والمؤلف يعرّف بنفسه كشريك للمؤمنين في الضيق والملكوت وانتظار يسوع.

فالكتاب كله يتمحور حول شخص يسوع الانسان التاريخي، ويقدمه لنا بمثابة الرجاء الذي ينعش انتظارنا. فالنصر النهائي هو لله، ولكن المسيرة طويلة وشاقة، فلا بد من قطاف العنب وعصرها في معصرة الالم والانتظار.

عاش يسوع المسيح في الزمان، ومنه يأتينا الخلاص والنصر والغلبة على الموت والقوى المعادية تكون لله (يسميها الكتاب الدول المستبدة)، وهذا النصر لن يتم بحدث اسطوري رؤيوي (أي بنهاية مفجعة كما اعتدنا ذلك في نظرتنا للامور، إذ ان رجاء الخلاص راسخ ومبني على ما حدث له في الزمن. فاذا تم لنا الخلاص بيسوع في الزمان، فذلك خير دليل على ان كل

الاحداث (المؤلمة منها والمفجعة) تحمل بذرة الخلاص بالله الذي له الغلبة، لانه سيد التاريخ، ولا حدث يحمل الخلاص الا به ومن خلاله.

تستعمل الرؤيا اصطلاحات رمزية اليك بعضها

الالوان:

الابيض يدل على الغلبة والنقاوة

الاحمر يدل على القتل والعنف ودم الشهداء

الاسود يدل على الموت والكفر

الارقام:

٧ عدد الملء والكمال (٧ كنائس= الكنيسة ككل)

٦ (٧-١): عدد النقص

٣،٥ (نصف السبعة: النقص والالم. زمن المحنة والاضطهاد. هذا العدد نجده تحت اشكال مختلفة: زمن وازمنة ونصف زمن، ثلاث سنوات ونصف السنة، ٤٢ شهرًا، ١٢٦٠ يومًا)

١٢: اسرائيل القديم، اسرائيل الجديد (١٢ اسباط اسرائيل، ١٢ رسولاً)

٤: الكون بجهاته الاربع

١٠٠٠: كمية كبيرة جدًا. (يمكن ان نضرب هذه الارقام بعضها ببعض، مثلاً: ١٤٤٠٠٠= ١٢× ١٢× ١٠٠٠)

الصور: القرن = القوة
الشعر الابيض: رمز الازلية، لا الشيخوخة/ القديم الايام = الله
اللباس الطويل = الكرامة الكهنوتية
الحزام الذهبي = سلطة ملوكية
التيوس = الاشرار
الخراف = الشعب، الاخيار

ماذا نستنتج من كل ذلك؟

ان التجربة قوية ويتعرض لها الكثيرون: فاما ان نختار روحية تهربية لا تلتصق بالتاريخ وبالواقع. فنرفض العالم وهمومه والتاريخ وواقعيته، لان كل ما فيهما يدعو الى التشاؤم. واما ان نختار الطريق الاخرى المحفوفة بالمخاطر، ولكنها قريبة من كتاب الرؤيا، أي ان نؤمن بمسيرة التاريخ الذي هو "خروج" دائم، أي الاعتراف بتاريخ يصنعه بشر، وتصنعه الكنيسة الخاطئة والضعيفة؛ هذا التاريخ هو التاريخ الحقيقي لانه منا، وهو الذي يحمل الخلاص. فان كنا نؤمن

بأن يسوع المسيح هو الالف والياء وهو سيد التاريخ، نعترف به مخلّصنا لهذا التاريخ وموصله الى اوجه. فمسألة الايمان هي هي وستظل قائمة: اننا لسنا مدعويين الى التهرب من التزاماتنا، لان خلاصنا يتم من داخل تاريخنا، وليس بالهرب من العالم ومن التاريخ.

اجل، ان الانتظار طويل والانسان يعيش في توتر مستمر، لان تاريخنا المليء بالكوارث والظلم لا ينسجم وتاريخ الخلاص، ولكن لا خلاص خارجا عن تاريخ البشر. اننا في انتظار اورشليم السماوية، ولكنها ليست مدينة في الخيال: انها سكنى الله بين البشر، وهي المدينة التي نكون قد بنيناها بعرق جباهنا ودموعنا، والفرح العظيم سيتم يوم يمسح الله الدمع من عيوننا، فنهتف فرحين مع الروح: "تعال ايها الرب يسوع. امين".

---

(١) يحتوي الكتاب المقدس على رؤيين فقط: رؤيا دانيال في العهد القديم ورؤيا القديس يوحنا في العهد الجديد؛ وهناك بعض النصوص من الانبياء تنتمي الى هذا التيار. وهذا التيار الرؤيوي انتج كتبا كثيرة بين سنة ١٥٠ ق. م. و ٧٠ ب. م. وكيّف عقلية المؤمنين وساعدهم على الحياة ومجابهة الازمات والاضطهاد، في الرجاء وانتظار تجلي الله في الاخرة.

فرؤيا دانيال دُوّنت في زمن اضطهاد انطيوخس لليهود سنة ١٦٥-١٦٤ ق. م. ولكي يسند رجاء شعبه تخيل دانيال نفسه في زمن صعب في الماضي، هو الاسر البابلي (٥٨٧- ٥٣٨)، واستعار اسما غريبا، دانيال، وكأنه في بلاط نبوخذ نصر. اجتاز الكاتب التاريخ بسرعة بين سنة ٥٣٨ وسنة ١٦٤، ولما وصل الى عصره طبّق على المستقبل ما اكتشفه في هذه النظرة التاريخية، انه لم يرَ احداثا محددة كما في رؤيا، وانما اتبع اسلوبا مالوفا ليقول للشعب المضطهد ان الله يظل امينا في إتمام مسيرة التاريخ.

(٢) مسألة الكاتب ثانوية ويمكننا ان نسلّم بالتقليد. وفيما يلي بعض الايضاحات حول الكاتب: جاء في مطلع الكتاب (١:٤، و ٨:٢٢) اسم يوحنا، ويقدم نفسه على انه نبي، رجل عالي الشأن في الكنيسة نفي الى جزيرة بطمس لاجل كلام الله وشهادة يسوع. هل هو يوحنا الرسول الذي يُنسب اليه الانجيل الرابع؟ التقليد القديم (يوستينوس وايريناوس وترتليانس) يعتبر ان كاتب الانجيل هو كاتب الرؤيا، ولكن بعض النقاد يميلون الى القول بأنه كاتب آخر، وذلك بسبب الاختلاف القائم بين الانجيل والرؤيا في ما يخص التعليم والاسلوب واللغة: فكتاب الرؤيا كتاب نار ودم. اللغة قاسية بعكس لغة الانجيل الرابع، و كل شيء يبدو غريبا في الرؤيا، من انشاء وصور ومنطق. اما بالنسبة الى التعليم، فهناك مواضيع هامة نقرأها في انجيل يوحنا (النور/ الظلمة، الحق/ الكذب، العالم الفوقاني والعالم التحتاني/ المحبة) لا نجدها في سفر الرؤيا. هناك تطابقات ثلاثة في كلا الكتابين: يسوع هو الحمل الذي يذكره اشعيا عندما يتكلم عن عبد الله المتألم، ويسوع هو المطعون الذي أنبأ به زكريا (١٢:١٠= رؤ١:٧ ويو١٩:٣٧)، وهو كلمة الله.

كتب سفر الرؤيا حوالي السنوات ٩٥-١٠٠، وتظاهر الكاتب بانه كتبه حوالي سنة ٦٠. صاحب الرؤيا يذكر انه رأى رؤاه يوم كان في جزيرة بطمس من اجل كلمة الله، أي في المنفى يقاسم اخوته محنتهم. فلقد عاصر اضطهاد نيرون ويلمح الى الاباطرة الرومان (١٧:٩-١١)، ولكن كل الاحداث تشير الى نهاية عهد الامبراطور دوميثيانس الذي شن اضطهادا عنيفا على المسيحيين الذين رفضوا ان يقدموا واجب العبادة له ويعلنوه "السيد" (كيريوس)، هذا اللقب الذي يحتفظ به سفر الرؤيا للمسيح فقط.

(٣) اعتمدنا في تقديم القراءة الموجزة لكتاب الرؤيا على مصادر ثلاثة:

"دليل الى قراءة الكتاب المقدس": الاب اسطيفان شربنتييه/ دار المشرق ص ٢١٩-٢٢٤، و "كتاب رؤيا القديس يوحنا" لمجموعة من الباحثين/ دار المشرق ١٩٨٦. والمقدمة التي تصدرت السفر في طبعة الكتاب المقدس (دار المشرق).

(٤) ابن الانسان تعبير خاص جاء في دانيال (١٣:٧) وهو تعبير اقوى من ابن الله، كتى الانجيلي يستخدم كثيرا عبارة "ابن الانسان". انه الكائن السماوي الذي يترل من السماء، وهنا يوحنا يقدم المسيح لا كما عرفه الرسل، بل كابن الانسان الممجد الاتي في نهاية الازمنة. ابن الانسان سيكون الملك والديان. لكنه الله نفسه واليه تنسب بعض ملامح الله كالشعر الابيض، وهو الاول والاخر، هو كاهن وملك، هو الديان بنظره الثاقب، وازلي وثابت. الكنيسة في يده وكلمته مثل سيف مسنن للدينونة. اما لقب "ابن الله" الذي لم يرد الا نادرا في العهد الجديد، فلا يدل على التعبير اللاهوتي كما نعرفه اليوم. "عبارة ابن الله" في الكتاب المقدس (ما عدا يوحنا) تعادل عبارة "ابن داود"، أي الملك الممسوح، وقد نقل هذا التعبير من المزمور ٢ الذي يعتمد على نشيد سومري كان يرتل اثناء تتويج الملك: "انت ابني وانا اليوم ولدتك".

- المنظمات الكاثوليكية الدولية

كانون الثاني/ ص٩ - ١٥   الاب جرجس القس موسى

- نظرة لاهوتية إلى سر الكهنوت

شباط — آذار/ ص٥٧ - ٦٣   الاب يوحنا عيسى

- رومانيا: في ظل نيكولاي شاوشيسكو

نيسان/ ص١٠٥ - ١١١   الاب بيوس عفاص

+ مريم كما عرفها مسيحيو القرون الاولى

ايار/ ص١٥٣ - ١٥٩   الاب لويس ساكو

- جولة في البلدان الاسكندنافية

حزيران — تموز/ ص٢٠١ - ٢٠٧   الاب نجيب موسى

- اسرار الكنيسة.. طلاسم ام علامات حياة؟

آب — ايلول/ ص٢٤٩ - ٢٥٥   الاب لويس ساكو

● عدد خاص: الفكر المسيحي / ربع قرن في خدمة الكلمة(*)

ت١ — ت٢/ ص٢٨٩ — ٣٨٤

- من هم كاثوليك كورباتشوف

كانون الاول/ ص٣٩٣-٣٩٩   بيير كاستيل

(*) البتنا في "المختار من الاعداد الخاصة" المقالين التاليين من عدد دسم حكى مسيرة ٢٥ عاماً: مسيرة الفكر المسيحي خلال ٢٥ عاماً (أ. جرجس القس موسى)، الفكر المسيحي، مبادرة من كهنة يسوع الملك/ مقابلة (ماهر حربي).

ملف ايار ١٩٨٩ .... الاب لويس ساكو

مريم.. كما عرفها مسيحيو القرون الاولى

احتلت العذراء مريم في الايمان والتقوى الشعبية مكانة مرموقة، كما احتلت المؤلفات عنها، على مر الاجيال، حيزا كبيرا حتى اصبحنا اليوم ازاء "لاهوت مريمي" ضخم وثري ما زال يتغذى..

ومن دون التنكر لكل الارث اللاهوتي والروحي الذي خلفته اجيال من المؤمنين حول مريم، ام يسوع وامنا، يذهب بنا هذا المقال الى القرون الاولى ليستجلي لوحة ناصعة في الملامح الرئيسة التي تميز بها، في وجدان المسيحيين الاولين ومؤلفاتهم، وجه العذراء التي -قبل ان تكون "ام الله"- هي البتول، الممتلئة نعمة، ام البشرية... وفيما نثبت هذا الملف، يطيب لنا ان نحيط قراءنا علما باننا كنا قد اصدرنا عددًا خاصًا (ت١- ت٢ ١٩٨٧/٥٦ ص) بعنوان "ام الفادي" كان، في الواقع، رسالة عامة للبابا يوحنا بولس الثاني، بمناسبة السنة المريمية.

نظرًا الى مكانة مريم في التقوى الشعبية وفي الصلوات العديدة التي يرفعها اليها المؤمنون، وليس في شهر ايار المخصص لتكريمها، أو ابان المحن لتحقيق الاماني فحسب، ولجوئهم اليها المتواصل لدوافع روحية ونفسانية، انما لكونها شفيعتهم بلا منازع. وبغية التوصل الى فهم افضل لدورها الحقيقي وحضورها في حياتنا كأفراد مؤمنين وككنيسة، احاول ان ارسم في هذا المقال صورتها كما عرفها مسيحيو القرون الاولى[١]، وتأملوها، وصلوا اليها، ونقلوها الينا في كتاباتهم من خلال ادراكهم التدريجي المتعمق لسر يسوع، يسوع هذا الذي لم يفصلوه قط عن المرأة التي ارتضى ان يولد منها (غلاطية ٤/٤).

لأمّ يسوع -وهذه تسمية الانجيل لها[٢] - دور بارز في عمل الخلاص. هذا ما يريد الانجيليون ولوقا بوجه خاص، اظهاره باعتدال. فهذه الفتاة العادية التي يختارها الله امًا للمسيح -كما اختار الآباء من قبلها كابراهيم وموسى...- تتمتع بشخصية قوية ذات تجربة متميزة، لا يمكن تحويلها الى دمية، ولا يجوز تهميش دورها ولا السقوط في المغالاة كما حصل في اللاهوت المريمي خلال مسيرته[٣].

مريم تسمع باهتمام صوت الرب وتسعى جهدها إلى ان تفهمه وتطيعه مهما كلف الامر، وهذا هو معنى قولها: "انا امة الرب، فليكن لي بحسب قولك" (لوقا ١:٣٨). كيف؟ بقبولها بوعي وحرية هذا "الجديد" في حياتها: يسوع، مسيح الروح، "وريث الموعد"، ابن داود، ابن ابراهيم، ابن ادم -ابن الانسان- ابن الله" (لوقا ٣:٣١-٣٨)، الذي جمع البشرية المولودة جديدًا في اسرة واحدة، "ملكوت الله"، في بنوة الله واخوّة بعضهم البعض، وشركة في غاية الفرح والسعادة، "بقوة الروح القدس".

هذه الفتاة -السيدة- العادية، جعلها ايمانها الناضج ومحبتها اللامتناهية "ممتلئة نعمة" حقًا و "بتولاً" بكرًا بقناعتها وسلوكها، أي بانضمامها قلبًا وفعلاً الى ابنها ومرافقتها اياه الى النهاية،

حتى غدت نموذجًا كاملاً للتلميذ: "ان امي واخوتي هم الذين يسمعون كلام الله ويعملون بـه" (لوقا ٨:٢١)، لا بل امًا شاملة للمؤمنين، اخوة يسوع، "بكر البشرية الجديدة" (روم ٨:٢٩)، هذه الامومة الروحية التي تمارسها داخل الجماعة منذ البداية، كما يشير سفر اعمال الرسل (١/١٤).

صورة ذات ابعاد ثلاثة

من المدهش جدًا الاّ نجد في القرون الخمسة الاولى بحثًا لاهوتيًا مستفيضًا يتناول الدور الذي تمثله مريم في عمل الخلاص[٤]. وان كل ما كتبوه هو اشارات مبعثرة في مواعظهم او لدى تفسيرهم لنصوص الكتاب المقدس. ويعود السبب الى عاملين: الاول، قناعتهم العميقة بأن يسوع ابنها هو "النجم الكبير"، البدء وبكر من قام من بين الاموات، وله ينبغي ان تكون الاولوية في كل شيء (قولوسي ١٨:١). والثاني، كون الالقاب والمعطيات الواردة في العهد الجديد تعبر كفاية عن دورها ومكانتها في تصميم الله. لذا جاء خطهم اللاهوتي معتدلاً، سليمًا، وواضحًا. يسوع هو المركز "الوسيط بين الله والناس" (١ طيموثاوس ٥:٢)، والاشخاص الآخرون يدورون في فلكه[٥]. وبمقدورنا حصر ما كتبوه في ثلاث نقاط رئيسة: ام البتول، ممتلئة نعمة -نموذج للتلميذ- وام شاملة.

١- بتولية مريم:

من المؤسف ان يكون بعض لاهوتيي القرون الوسطى، وبعض مسيحيي اليوم، قد حصروا بتولية مريم في عدم "تدنيسها" بعلاقة زوجية فقط، كأن العمل الزوجي إثم، وكأن المتزوجين قد ضيعوا "طهارتهم"! لم يكن قيمة للبتولية في العهد القديم حتى نشوء الحركة الاسينية في القرن الثاني قبل الميلاد[٦]؛ واذا كانت مريم قد قررت منذ البداية الحفاظ على "عذريتها"، فلماذا اقترنت بيوسف[٧]؟ مفهوم كهذا ناقص وسطحي!

انطلاقا من واقع مريم الخاص -تدخل الله في حياتها في البشارة- فهم الانجيليون والآباء الاولون بتوليتها كدليل على بنوة يسوع الالهية: لم يُحبَل به عن طريق علاقة جنسية، لذا ليس له اب سوى الله الآب[٨]. وكدليل على ايمانها وتكريسها لخدمة الله وابنها، يقول مار اغسطينوس: "حبلت بالابن في روحها قبل ان تحبل به في احشائها، وذلك بايمانها" (الموعظة٢١٥/٤). وهذا موقف روحي حر له قيمة كبيرة. يقول يوستينوس (١٠٠-١٦٥): "ان العذراء مريم تمخضت بالايمان والفرح، عندما بشرها الملاك جبرائيل بأن روح الرب يحل عليها وقدرة العلي تظللها، ولهذا فالمولود منها قدّوس وابن العلي يدعى، واجابت فليكن لـي بحسب قولك. لقد ولد، اذن، منها ذاك الذي تكلمت عنه كتب كثيرة" (الحوار مع تريفون: ١٠٠)، ويقول كتاب الدرجات (القرن الرابع): "طهر اكتسبته مريم بصلاتها" (الباترولوجيا الشرقية ٣/٤٤١). اما اعمال توما، فتؤكد على طهارتها ونقائها الادبي: "تتمتع بجمال -ادبي- لا تشوبه شائبة" (ص٢١٤)، ومار افرام الملقب بشاعر العذراء يحتار في تسميتها: "امك يا رب، لا يعرف المرء كيف يدعوها. أبتولاً؟ ها هوذا ابنها قائم. امتزوجة؟ لم يمسّها رجل قط. ان كانت أمك لا تُدرَك، فأنت من يقدر ان يدركك؟ (ترانيم

الميلاد ١١/١). ثم: "انت ووالدتك فقط، تفوقان الجميع جمالاً، فلا عيب فيك ولا دنس في والدتك" (ترانيم نصيبينية ٨/٢٧). قورلس (القرن الرابع) يثبت دور مريم وحريتها: "حواء سقطت، ومريم لم تسقط بارادتها"[٩]. نفس المفهوم نجده عند ايريناوس واوريجانس.

ان كان الحبل قد تمّ عجائبيًا، بدون مشاركة رجل، فلا يوجد نص من العهد الجديد ولا من اباء القرنين الاولين يجبرنا على التفكير بأن الولادة كانت عجائبية. يقول اغناطيوس الانطاكي (استشهد نحو ١٠٧): "ولد حقيقة من العذراء" (الرسالة الى ازمير ١/١)، ويذكر اقليميس الاسكندري (توفي نحو ٢١٥) ان بعض الاباء يعتبرون الولادة طبيعية (متنوعات ٢٦/٧)، ويصرح ترتليانس (توفي نحو ٢٢٠) نصًا: "كانت عذراء عندما حبلت به، الا الها لم تبقَ كذلك في الولادة" (جسد المسيح٢٣). لكننا نجد بعد منتصف القرن الثالث اتجاهًا يترسخ رويدًا رويدًا بين الآباء، وهو بقاء مريم عذراء قبل الولادة وفيما بعدها. يقول اوريجانس (توفي نحو ٢٥٣): "مريم حبلت وانجبت، الا الها مكثت بتولاً" (تفسير اللاويين ٢/٨). وافرام السرياني (توفي ٣٧٣)، بالرغم من تشبيهه رحمها بالقبر المختوم الذي خرج من المسيح (الحجر دحرجت)، يؤكد: "كانت مخطوبة حسب الطبيعة، قبل مجيئك، وحملت بخلاف الطبيعة بمجيئك، ايها القدوس، ومكثت عذراء، اذ ولدتك بالقداسة" (الميلاد ٣/١١). ثم "كوني عذراء -تقول مريم للمجوس- أنجبت ابنا هو الله؛ اذهبوا وبشروا به (الميلاد ١/١٠). ولقد فسر اوغسطينوس (توفي ٤٣٠) اعتراض مريم "لا اعرف رجلاً" على الها حافظت على بتوليتها.

الا يمكننا ان نستنتج، من اشارة هؤلاء الآباء الى بقاء مريم عذراء قبل الولادة وفيها وبعدها، الهم ارادوا التأكيد على عدم قيام علاقة زوجية في حياتها، خاصة وان بكارة البدن وحدها غير كافية للتعبير عن بكارة العقل والقلب؛ وهذه اكثر طهرًا وانسانية. أليست التفسيرات المتأخرة (اوغسطينوس وغيره) مرتبطة بمفهوم الجسد الخاطئ الذي هو تحت رحمة الشيطان، وباقتصار الانثى على الجنس، وان الزواج شر لا بد منه؟

ان الحبل العجائبي بيسوع والولادة الطبيعية، لا تقلل، باعتقادي، مثقال ذرة من سمّو بتولية مريم في كل معانيها وابعادها! لذا فضّل الاباء تسميتها "عذراء" على بقية التسميات.

٢- "ممتلئة نعمة" ونموذج للتلميذ:

"مريم ممتلئة نعمة"! هذه العبارة ينبغي ان نفهمها، قياسًا الى ما هو في المسيح "ملء النعم" (يوحنا ١٦/١)، عمانوئيل الذي ولدته. ان اتحادها الوثيق بابنها وتجاوبها وخدمتها الكلية ومحبتها جعلتها تكون ممتلئة نعمة. يقول نرساي: "ممتلئة نعمة، لانه حالٌ في قلبها" (المجلد ٢ص٣٧٠)، وممتلئة نعمة يعني منفتحة على هبة الله: "مريم في تواضعها وبساطتها استقبلت يسوع" (افراهاط ٥/٩). ويشرح معظم الآباء الاولون حالة مريم هذه من خلال قداستها وتغلبها على الخطيئة والشر، وذلك باقامة مقارنة متوازية بين حواء الخاطئة ومريم المنتصرة: يوستينوس، اوريجانس، ايريناوس، افرام. يقول ايريناوس: "ان العذراء... اصبحت بطاعتها سبب خلاص، لها ولكل الجنس البشري" (ضد البدع ٢٢/٣). اما افرام، فيقول: "واضح ان مريم هي ارض النور، بها استنار العالم وسكانه الذين اظلموا بحواء مصدر كل الشرور" (الكنيسة ٣/٣٧).

ان الآباء الاسكندريين، كأوريجانس واثناسيوس، يجعلون من مريم نموذجًا لتلميذ المسيح، ممهدين الطريق الى تطور لاهوتي يقدم عناصره امبروسيوس واوغسطينوس، فيه تغدو مريم صورة الكنيسة. فمثلما وضعت مريم نفسها كليًا في خدمة الله، بما تفرضه هذه الخدمة من غموض وتدرج، وانّ فيها وبواسطتها يعلن "المسيح- الخلاص"، هكذا التلميذ الحقيقي والكنيسة ينبغي ان يكونا في خدمة شعب الله بدون تحفظ، لان فيها وبواسطتها يعلن المسيح ويعاش الخلاص(١٠).

٣- الامومة الشاملة

لما كانت البشرية الجديدة قد شبهت بامرأة، "حواء جديدة"، صار المسيح "آدم الجديد" الرأس بكرًا لها (الرؤيا ١٢:٥). وينتقل معظم الآباء الاولين، من خلال المقارنة بين مريم وحواء، من مفهوم الامومة الجسدي الى مفهوم الامومة الروحي التي تتكون في الاصغاء الكامل الى كلمة الله وحفظها: "طوبى لمن يسمع كلمة الله ويحفظها" (لوقا ١١:٢٨)، ومريم هي الاولى من بين الذين يسمعون كلام الله ويعملون به؛ والدور الذي قامت به حواء في النظام الطبيعي كأمّ البشر، تحققه مريم على وجه اكمل في النظام الروحي. فمريم في نظر ايريناوس هي احشاء الانسانية والام الجديدة لجميع البشر؛ امّا ابنها البار القدوس، فقد ظهر من حشاها البتولي الطاهر، فجدد الانسان واشركه بحياة الله (ضد البدع ٤/٣٣). وافرام يقول: "رحمها غدا الهيكل الحقيقي لولادة البشرية الجديدة" (الميلاد ١١/٥)؛ ونرساي: "حملت في رحمها جنسنا البشري بكامله كأنما في باخرة، وقادته الى الميناء الذي هو ملكوت الله" (مخطوط بورجيا السريانية ٨٣، ١/٣٩). واليك نموذجان من هذه المقارنة المتوازية بين حواء ومريم:

"... ان كانت حواء قد عصت، واصبحت لها ولكل الجنس البشري سبب موت، فإن مريم العذراء اصبحت بطاعتها سبب خلاص لها ولكل الجنس البشري. ان الرب بكر الراقدين قد ضم في باطنه اباءه الاقدمين، اذ ولدهم الى حياة الله، وقد اصبح رأس الاحياء، وآدم قد اصبح رأس الاموات. ولهذا السبب عينه، نرى لوقا يبدأ النسب بالرب، ليعود الى آدم، ويدل على انه ليس الآباء هم الذين اعطوا الرب الحياة، وانما بالعكس، هو الذي ولدهم من جديد في بشارة الحياة.

ان العقدة التي ربطتها حواء بعصيانها، قد حلتها مريم بطاعتها؛ وان ما ربطته حواء بعدم إيمانها قد حلته مريم بايمانها؛ وان كانت الاولى، حواء، قد عصت الله، فالثانية مريم قد اطاعته، حتى ان مريم صارت شفيعة امها حواء، وكما ان الطبيعة البشرية قد اخضعت للموت بسبب عذراء، فقد تحررت ايضًا بعذراء، اذ كُفِّر عن معصية الاولى بطاعة الثانية" (ايريناوس، ضد البدع ٣/٢٢).

"ساذجتان بسيطتان، حواء ومريم وضعتا بالمقارنة: الواحدة علة موتنا والاخرى سبب حياتنا. حواء اذنبت ومريم اوفت. فأدت الابنة دين امها، وبها مزق صك الذي زأر في وجه كل الاجيال. بعينيها رأت حواء جمال الشجرة، فارتسمت في مخيلتها مشورة الغدّار، فبالتالي كانت الندامة. باذنها شعرت مريم بالخفي الذي جاءها مع صوت الملاك، وحلّت في احشائها القوة التي أتت إلى البشر، فتسأل الموت والشيطان ما عسى ان يكون شأنه؟ لبست حواء ببتوليتها اوراق العار، ولبست مريم ببتوليتها ثوب المجد الذي يكفي الجميع" (افرام، ترانيم الميلاد ١١/٣).

ولان مريم هي ام المسيح رأس البشرية الجديدة واخينا البكر. فهي بالتالي امنا جميعًا.

لقب "ام الله" ثيوتوكس

لا نجد في الكتاب المقدس ولا في كتابات الآباء الاولين، حتى القرن الرابع، لقب "ام الله". لكننا نجد مضمونه، مثلا في الرسالة الى غلاطية ٤/٤: "لما تم الزمان ارسل الله ابنه مولودًا من امرأة". وايريناوس: "ابن الله ولد من عذراء وهو المسيح المخلص الذي تنبأ عنه الانبياء" (ضد البدع ٣/١٦). وكانت التسميات المتداولة هي: "مريم العذراء"، "ام يسوع"، "الطوباوية"، "ام المخلص"، "القديسة مريم". وظلت الامور على هذا المنوال الى ان ظهر في القرن الرابع، في الاسكندرية، لقب "ام الله"، ولقد ورد على وجه الدقة في رسالة لاسكندر اسقف الاسكندرية موجهة الى تلاميذه، يحرم فيها اريوس، وذلك قبيل انعقاد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ (الباترولوجيا اليونانية ٥٦٨/١٨). والعبارة من اصل وثني، وكانت لقب الإلالهة ايزيس "مانوثي" بالقبطية، استعملها اسكندر لتبيان الوهية المسيح، ثم انتشرت رويدًا رويدًا في اوساط مسيحية مصرية وشرقية حتى وصلت الى العاصمة البيزنطية. ولما استولى نسطوريوس على كرسي القسطنطينية عام ٤٢٨، وجد نزاعًا قائمًا بين جماعته، وخاصة في صفوف الرهبان. فريق يدعو مريم "ام الله" وفريق آخر يدعوها "ام الانسان"؛ ولحسم النزاع وبغية مصالحة الطرفين، فضل تسميتها "ام المسيح". ولانها ام المسيح، فهي ام الله والانسان في آن واحد معًا، وشجب الذين يدعونها "ام الله"، وكذلك شجب الذين يلقبونها "ام الانسان" لكون اللقبين ملتبسين وغامضين. وان عبارة "ام الله" يمكن ان تجرنا الى السقوط في الميثولوجية، اما عبارة "ام الانسان"، فتبخر عمل الخلاص. ازاء هذا الطرح، ردّ الاسكندريون على نسطوريوس وشجبوه، فكتب قورلس اسقف الاسكندرية قائلاً: "اذا كان احد لا يعترف بان الله هو حقًا الهنا معنا، وبالتالي بأن العذراء القديسة هي ام الله (ولدت، حسب الجسد، كلمة الله الذي صار انسانًا) فليكن محرومًا" (ديتزنكر ١١٣). واشتد النزاع بين المدرستين، وتدخل قورلس لدى الامبراطور وخاصة الامبراطورة، بدبلوماسية متناهية، مما دفع الامبراطور بصفته "ممثل الله والمدافع عن الايمان وحافظ السلام في الكنيسة" الى الدعوة لانعقاد مجمع في مدينة افسس سنة ٤٣١[١١]. واعلن المجمع، في ظروف غير طبيعية وغير متكافئة (نسطور: ١٥ اسقفًا، وقورلس: ٥٠ اسقفًا، وغياب اساقفة الكنائس الاخرى) لقب "ام الله" كعقيدة ايمانية، وانقسمت كنيسة المسيح الى كنائس لاسباب ظاهرية لاهوتية (لفظية)، ولكن في الواقع لمصالح بشرية ونزاعات قديمة بين الكراسي "البطريركية"، بعيدة عن روح الله، روح المحبة.

تقييم

خط الآباء الاولين، باعتقادي، كان اقرب الى الخط الانجيلي واسلم، وبعيدًا عن كل التفاسير والشعائر والممارسات الغريبة التي تسربت الى المسيحية فيما بعد. وموقفهم لم يكن تعبديًا بقدر ما كان حياتيًا، أي ان مريم كانت نموذجًا ملموسًا يمكن تحقيقه في الواقع اليومي. ان

كان على صعيد الايمان: فمثال مريم يحثنا على اكتشاف الله والتعرف عليه باستمرار والحياة بــه اينما وجدنا، كأساس كياننا؛ وان كان على صعيد النقاء: فنضوج مــريم، في عقلــها وقلبــها ومواقفها، يجعلنا نحافظ على اصالتنا (بكارتنا)، منزهة عن كل قناعات غريبة. وأخيرًا مــريم الام الشاملة المحبة التي لا تفرق ابدًا، هي وحدها قادرة ان تجمعنا في عائلة واحدة، "كنيسة" واحدة، كما ارادها ابنها وصلى من اجلها. لذا، باعتقادي، حان الاوان لمراجعة "لاهوتنا المريمي" الحــالي بمنظور انجيلي وكنسي جديد؛ وهذا المنظور سوف يقربنا بدلاً من ان يبعــدنا، ويجمعنــا بــدلاً من ان يفرقنا!

---

(١) في هذه الدراسة استند الى مؤلفات اهم اباء الكنيسة واتوقف عند مجمع افسس (٤٣١) حيث اعلنت مريم رسميًا "ام الله- ثيوتوكس".

(٢) متى ١:٢٥، مرقس ٣١:٣، لوقا ٨:٢، يوحنا ٣١:٢. وللمزيد طالع معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦ ص ٧٢٧.

(٣) ان كان اللاهوت البروتستنتي قد قلص دور مريم، فان اللاهوت الكاثوليكي الغربي الكلاسيكي قد غالى في بعــض طروحاته، مثل وساطة مريم او نعتها بوسيطة مشاركة. وهذه النعوت، ان لم تشرح بشكل صحيح، فقد تقــود الى الميثولوجية، علمًا بأن هذه الالقاب غريبة عن اللاهوت الشرقي والارثوذكسي.

(٤) ان التعليم اللاهوتي المريمي يعود معظمه الى القرون الوسطى، وبخاصة القديس برنردس؛ وهو نتيجة عوامل روحيــة ونفسية. كما نجد قصصا غريبة عجيبة في كتب منحولة مثل: قصة مريم العذراء، ترجمة وتقديم المطران كــوركيس كرمو، ديترويت ١٩٨٦.

(٥) هذا الخط معتدل ايضًا بالنسبة الى اعياد العذراء: حتى القرن العاشر كان للعذراء عيد واحد عند الشرقيين وهو عيد تهنئتها، ثم بعده نجد عيد حافظة الزروع وعيد الانتقال.

(٦) معجم اللاهوت الكتابي، ص٧٢٧، معجم اللاهوت الكاثوليكي، ترجمة المطران عبده خليفة، دار المــشرق ١٩٨٥، ص ٣١٣.

(٧) غالبًا ما كان الاهل يزوجون اولادهم في سن مبكرة، ولكن لم يكونوا يعيشون معًا قبل سن الزواج أي قبل دخــول الفتاة رسميًا بيت زوجها. من هنا نفهم قول متى ١٨:١ "قبل ان يسكنا معا" وكذلك لوقا ٣٤:١ "كيف يكون هذا وانا لا اعرف رجلاً" أي "وانا لا اسكن مع زوجي".

(٨) نفس المفهوم نجده في القرآن (سورة مريم، آل عمران، الانبياء).

(9) ORTIZ DE URBINA, La mariologia nei Padri Siriaci, in OCP. (1935) p. 100-113.

(١٠) طالع اوغسطينوس، في البتولية المقدسة ٣/٣...

(11) GHARIB, G.,Il Concilio di Efeso e la sua dottrina Mariana, in NICOLAUS,No. 1: 1982, p. 75-101.

- الدعوة الرهبانية من خلال اخوة اخوات يسوع الصغيرات

ك٢ – شباط/ ص١٧ - ٢٤ اخوات يسوع الصغيرات

- كنائس في اوربا الشرقية

اذار/ ص٦٥ - ٧١ عن .A.R.M

+ القيامة في ايمان المسيحيين الاولين/١

نيسان/ ص١١٣ - ١١٩ الاب بيوس عفاص

+ القيامة في ايمان المسيحيين الاولين/٢

ايار/ ص١٦١ - ١٦٧ الاب بيوس عفاص

- ناميبيا: معركة الاستقلال

حزيران – تموز/ ص٢٠٩ - ٢١٥ الاب جرجس القس موسى

- مفهوم مسيحي للعائلة

اب – ايلول/ ص٢٥٧ - ٢٦٣ الاب لويس ساكو

● عدد خاص: الحركة المسكونية، ٢٥ عاماً بعد المجمع(*)

تا – ت٢/ ص٢٨٩ – ٣٨٨

+ الاماكن المقدسة والسلام

كانون الاول/ ص٤٠٥ - ٤١١ الاب يوسف حبي

(*) اثبتنا في "المختار من الاعداد الخاصة" المقالات التالية من عدد كان ولا يزال مرجعاً: الافاق المسكونية لدى القديس بولس (أ. منصور فان فوسيل)، الوحدة المسيحية، مشروع للتحقيق (أ. يوسف حبي)، نشأة الحركة المسكونية المعاصرة (أ. جودت القزي)، من رواد الحركة المسكونية (الاخت سانت اتيين)، الكنائس الشرقية الكاثوليكية، عقبة ام جسر؟ (أ. بيوس عفاص)، القيامة، عيد نحتفل به سوية (نجيب قاقو).

ملف نيسان ١٩٩٠/جـ١ .... الاب بيوس عفاص

القيامة في ايمان المسيحيين الاولين

"قام المسيح"! شهادة ايمان نرددها منذ الفي عام! واذا كانت هذه الشهادة في الصميم من ايماننا المسيحي، فلا بد لنا من ان ندخل في فهم اعمق لما ينطوي عليها من معان ومدلولات وابعاد... وعوضا عن ان نلقي اسئلة عن كيفية القيامة ومكانها وزمانها -وليس لنا اجوبة جاهزة عنها- علينا ان نطرح السؤال بالشكل التالي: ماذا اراد الرسل والمسيحيون الاولون ان يقولوه عبر الشهادة التي ادوها ليسوع الناهض من بين الاموات؟ وكيف عبر الرسل والانجيليون، في كرازهم وكتاباهم، عن قيامة المسيح، الحي والممجد ابدا؟

من الصعب ان يلمّ ملف بموضوع كالقيامة، لذا ارتأينا ان نتناول هنا القسم الاول منه (ايمان له جذور)، فيما ينكب القسم الثاني على (نصوص هي شهادات ايمان).

هذا الملف دراسة مكثفة هي حصيلة اكتشافات جادة في مفهوم القيامة خرج بها اختصاصيون في الدراسات الكتابية، نقدمها لقرائنا مع اليقين بانها تزيدنا رسوخا في الايمان بقيامة الرب.

- ايمان له جذور -

بقدر ما تبدو قيامة يسوع الاساس الذي يرسو عليه ايماننا المسيحي، بقدر ذلك تزدحم في مخيلتنا تساؤلات واستفسارات لانهاية لها حول كيفية هذه القيامة: في أي يوم واية ساعة نهض يسوع من القبر؟ هل كان لقيامته شهود عيان؟ هل راه الحراس؟ كيف كان جسد يسوع بعد قيامته؟ كيف ظهر وباية هيئة؟ وكيف راه الرسل والتلاميذ الخ... ومثل هذه التساؤلات التي ليس لها جواب قاطع تبعدنا كليا عن مضمون القيامة، وهو، في الاساس، مضمون ايماني نادى به الرسل والمسيحيون الاولون في اعقاب خبرة ايمانية عميقة جعلت منهم "شهودا" ليسوع الناهض من بين الاموات. ان قيامة يسوع من بين الاموات هي "حدث واقعي" اعلن في الكرازة الاولى انطلاقا من يقين اولئك الرسل الاوائل الذين اقامهم الروح القدس "شهودا" يوم العنصرة: "انكم ستنالون قوة بحلول الروح القدس عليكم فتكونون لي شهودا.. الى اقاصي الارض" (أعمال١:٨). وقد تضمن هذا الاعلان، في بداياته، عناصر ثلاثة: ١- حدث يسوع الذي مات وقام، ٢- لهذا الحدث صدى في اسفار العهد القديم التي تفسره، ٣- وله من ثم انعكاسات على حياتنا، كونه دعوة الينا الى الاختيار. ويمكننا بيسر ان نستجلي هذه العناصر في العديد من الخطب التي يلقيها بطرس وبولس لاعلان بشرى القيامة على مسامع اليهود والوثنيين، وقد نقلها الينا لوقا بعد ان اعاد صياغتها: "ان يسوع الناصري، الانسان الذي ايده الله لديكم بالعجائب والمعجزات والايات... قد اقامة الله... ونحن جميعا شهود. فليعلم اذن يقينا جميع بيت اسرائيل ان الله قد جعل يسوع هذا الذي صلبتموه انتم، ربا ومسيحا" (أعمال٢:٢٢-٣٦). ومما لا شك فيه ان هذا الحدث الكبير كان منطلقا للكرازة الرسولية التي كانت، هي الاخرى، وراء نشوء الجماعات المسيحية وانتشارها السريع في اورشليم وكل اليهودية

والسامرة... الى اقاصي الارض"! أليست نشأة "الكنيسة" -جماعة المؤمنين بيسوع الناهض- وازدهارها، بالتالي، الدليل التاريخي الاكثر وثوقا وقوة على مصداقية الشهود الذين ما انفكوا، منذ العنصرة، ينادون بان الذي"رأوه" مصلوبا قد "رأوه" من ثم حيا، او بالاحرى قد "اراهم نفسه حيًّا"(أعمال١:٣)؟

عودة الى البدايات

ان الايمان بقيامة يسوع لم يعبر عنه "خلوّ القبر" صبيحة "اليوم الاول"، بقدر ما عبرت عنه "ترائيات" يسوع للاحد عشر ولبعض التلاميذ، والتي ختم بها الانجيليون شهاداتهم عن يسوع الناهض. وهذا الايمان توجزه الرسالة التي ابلغها الملائكة للنسوة اللواتي اتين الى القبر: "لماذا تطلبن الحي بين الاموات؟ ليس هو هاهنا، لكنه قد قام" (لوقا٢٤:٥-٦). وتجدر الاشارة الى ان ما عكسه الانجيليون عن حدث القيامة وما تبعه من "ظهورات" لا يكاد يتجاوز فصلا لدى كل من متى ومرقس ولوقا، وفصلين لدى يوحنا. الا ان قراءة نبيهة ومكثفة في الاناحيل تكشف لنا ان الايمان بقيامة المسيح يهيمن على روايات الانجيليين برمتها، من اولها الى اخرها. وغني عن القول ان الانجيليين لم يكتبوا بهدف توثيق "تاريخي" لحياة يسوع، وانما كتبوا ليشهدوا لايمانهم بيسوع الحي وقد اخذوا يقرأون طفولته واقواله واعماله ومعجزاته وموته على ضوء قيامته. كما ان المسيحيين الاولين، وفي مقدمتهم الرسل والانجيليون، اخذوا يقراون الكتب المقدسة ويفسرونها في ضوء القيامة؛ وستعكس كتابات العهد الجديد، بدءًا برسائل القديس بولس، استذكارهم لكل حدث أو نبؤة أو قصة في العهد القديم رأوا فيها رمزًا او تحقيقا عن يسوع الناهض -هم الذين "فتح الرب اذهانهم ليفهموا الكتب" (أعمال٢٤:٤٥) بقوة روحه القدوس (انظر الاطار: الفصح).

ولقد سعى الانجيليون بنوع خاص، وبعد مضي حوالي ٤٠- ٧٠ سنة على الاحداث الى القول بان حياة يسوع وكرازته واعماله ومواقفه.. تتجه نحو القيامة، وانها لن تفهم إلا بنور القيامة. فلا يمكننا من ثم ان نتخيلهم يكتبون ما كتبوه من دون ان يكون ايمانهم بقيامة الرب حاضرًا وفاعلاً فيهم على الدوام. ولنا في الالقاب التي تُطلق على يسوع، عبر صفحات الانجيل، خير دليل باننا لسنا ازاء تسلسل زمني لحياة يسوع، وبان الانجيليين قاموا بعمل لاهوتي وتعليمي حين حاولوا ان يكشفوا لنا عن هوية يسوع، منذ طفولته وحتى قيامته بالمجد، فهم انما اضفوا على الاحداث حصيلة ايمانهم بيسوع الناهض[1].

وليس من قبيل الصدف ان يقدم الانجيليون يسوع -انطلاقًا من ايمانهم بقيامته- بصفته ذاك الذي، منذ البدء، يعرف ماذا ينتظره: فهو الذي يقود حياته ورسالته، لا بل الامه وموته... ويتضح ذلك بشكل خاص في انجيل لوقا الذي يضع مرارًا على لسان يسوع هذه التنبوات: "ينبغي لابن الانسان ان يتالم كثيرا... ويقتل وينهض في اليوم الثالث" (٩:٢٢، ٤٤؛ ١٣:٣٢؛ ١٧:٢٥؛ ١٨:٣١...) والتي ستجد تحقيقها ابان اللقاء مع تلميذي عماوس: "اما كان ينبغي للمسيح ان يكابد هذه الالام ويدخل الى مجده" (٢٤:٢٦). كما ينعكس هذا الايمان بقيامة

الرب على الاقوال التي يفوه بها بيسوع والتي يختارها الانجيليون -ولا سيما يوحنا الحبيب- لترسيخ ايمان الجماعات المسيحية الاولى: اليس الناهض من بين الاموات هو الذي يتحدث مع نيقوديمس (فصل ٣) والسامرية (فصل ٤).. ومع تلاميذه في خطابات الوداع (الفصول ١٤-١٧)؟ وهكذا الحال بالنسبة الى المعجزات حيث يبدو يسوع، لا صانع معجزات حسب، وانما ذاك الحي ابدًا الذي بوسعه ان يجعل تلاميذ ما بعد القيامة "يسمعون" و "يرون": أليس القائم من الموت هو الذي يسكن العاطفة التي تهدد الكنيسة؟ وهو الذي يقول لمؤمنين من خلال الاعمى وسواه: "ايمانك خلصك"؟ ومن خلال مرتا: "انا القيامة والحياة"؟ ومن خلال توما الرسول: "طوبى للذين امنوا و لم يروا"؟ اليست "ترائيات" يسوع ذاتها -كما سنرى فيما بعد- تعكس هذا الاهتمام بترسيخ الايمان لدى تلاميذ يريدون ان تتبدد شكوكهم، او لدى مسيحيين جدد يطالبون بادلة لايماهم بقيامة المسيح؟

الفصح - العبور

قصة خروج بني اسرائيل من مصر، على يد موسى، اشبه بملحمة تروي ولادة شعب افتقده الهه وحرره من العبودية: فالخروج هو عبور (فصح) وانتقال من الموت الى الحياة، من العبودية الى الحرية. هذا الحدث الذي يرجع الى القرن ١٣ ق. م.، وما اقترن به من قراءة، كان الاساس في ايمان شعب العهد القديم، كما ان قيامة المسيح (فصحه، اعني انتقاله من الموت الى الحياة، عربون انتقالنا من عبودية الخطيئة إلى حرية ابناء الله) هي الاساس الذي عليه يرسو الايمان المسيحي برمته: ألم يَر المسيحيون الاولون في يسوع "موسى جديدًا" انجز خلاصا كاملا وشاملا واعطى للبشرية شرعة جديدة عبر الموعظة عل الجبل؟

لقد كانت مغامرة الخروج، في حد ذاتها، موتا، لولا ان الله امسك بزمام الامور منجزا لشعبه الخلاص والنجاة؛ وحينذاك ادرك العبرانيون ان الله "خلقهم" كشعب إذ قطع معهم "عهدًا" في سيناء. وسيكون تاريخ هذا الشعب تاريخ انتظار تحقيق المواعيد، تخللته سلسلة من الخيانات والعودة الى العبودية... لعب خلاله الانبياء دورًا متميزا لاذكاء الامانة لديه وتوجيه انظاره نحو عهد جديد، في اخر الازمنة، حين يرتضي الله ان يقيم ملكه الشامل بواسطة "مسيحه" الذي هو "ابنه": "انت ابني وانا اليوم ولدتك" (مز٢)، "الجالس عن يمينه": "قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى اجعل اعداءَك موطئا لقدميك" (مز١١٠)، وهي مزامير سيرى المسيحيون فيها اشارات الى يسوع "الملك"، "سيد الكون"...

وفي اثناء الجلاء الى بابل انبأ اشعيا بتحرر يكون بمثابة خروج جديد من مصر... وستأتي نبوة حزقيال ورؤيا دانيال لتبعثا الامل في شعب سحقه الاضطهاد... الى ان يأتي يسوع" المسيح، ابن داود، ابن الانسان، ابن الله"، وقد أبرم بدمه عهدا جديدًا، وهو "الحمل" الفصحي الذي، بموته وقيامته، حقق "الفصح- العبور" من "عار" الصليب الى "مجد" القيامة، "لفدا الشعب الذي اقتناه لتسبيح مجده" (افسس١: ٤).

ايمان له جذور في العهد لقديم

لقد اعتبرت الكنيسة الناشئة بان المناداة بقيامة المسيح ركن اساسي في ايمانها، طالما انها وجدت فيها معنى وجودها، بصفتها شاهدة للمسيح الحي القائم في وسطها. الا ان السؤال

المهم الذي علينا ان نطرحه الان: ما هو مضمون هذه المناداة؟ ماذا اراد الرسل والمسيحيون الاولون ان يقولوا لنا عبر هذا الهتاف "قام المسيح"؟ ماذا يختفي وراء هذا الهتاف من مفاهيم وتعابير...؟[٢]. مما لا شك فيه ان قيامة الرب حدث هو من الاهمية بحيث لم يكن بوسع المؤمنين الاوائل ان يعبروا عنه بصيغة واحدة -صيغة "النهوض" من القبر- وهم الذين ادركوا جيدا، ومنذ البدء، ان قيامة يسوع تختلف كليا عن احداث "بعث" الموتى في العهد القديم (على يد ايليا واليشاع: ١ملوك١٧، ٢ملوك٤)، كما تختلف عن "احياء" موتى يروي الانجيليون ان يسوع انهضهم واعاد اليهم الحياة: ابنة يائير (مرقس٥:٢٢)، وابن ارملة نائين (لوقا٧:١١) ولعازر (يوحنا١١:١) الذين لم يقل احد عنهم انهم بقوا احياء او انهم دخلوا في المجد! (انظر الاطار: صورتان).

وإذا كان المؤمنون الاولون قد راوا في معجزات يسوع -ومن ضمنها اقامة موتى- علامة على ان الله أيّد فتاه يسوع بالآيات والعجائب وهي بالتالي علامة مجيء ملكوت الله -سبق الانبياء فانذروا بها- في المشيح الآتي لينجز خلاص الله، الا انهم لم يفهموا ما ينطوي من سر على حديث يسوع عن قيامته الشخصية (مرقس٩:٩-١٠؛ متى١٦:٢١-٢٣، ١٧:٢٢-٢٣؛ لوقا١٨:٣١-٣٤)، لا بل "حزنوا" و "استنكروا" و "تساءلوا".. لان هذا الكلام "استعصى" عليهم! فالمسيح الذي رأوه في يسوع لم يكن بوسع الموت، في نظرهم، ان ينال منه، ولذا وقعوا في حيرة كاملة امام موت يسوع -إن لم نقل منيوا بخيبة أمل قاسية- كما اصيبوا، ازاء قيامته، بدهشة بالغة اقترنت بالارتياب والشك والخوف... بخلاف ردّة الفعل التي احدثتها قيامة الموتى الثلاثة والتي كادت تخلو من علامات التعجب والدهشة[٣].

ان ايمان التلاميذ بقيامة يسوع يستند، هو الآخر، الى ايمان بالقيامة تغذّى في فكر اليهود عبر صفحات العهد القديم، ولا سيما في الاجيال الاخيرة قبل مجيء المسيح. لذا كان من الضروري ان نتوقف قليلا لنستعرض بايجاز كيف نشأ ايمان شعب الله بقيامة الموتى والتي سبقها ايمان برفع وتمجيد (ابن الانسان) الذي يمثل شعب المؤمنين المضطَهَدين. وفي هذا العرض سنتبع عن كثب تحليل الاب شربنتييه في كتابه "قام المسيح".

١ - "رفع" ابن الانسان

في القرن الثاني ق. م. عرف اليهود اضطهادا قاسيا بلغ ذروته في عهد انطيوخس الرابع ملك السلوقيين، وكان هذا الاضطهاد امتحانا لايمانهم بالله وامانتهم له. في هذه الفترة ظهر كاتب اتخذ اسم دانيال (عام ١٦٤) حاول ان يشدد عزيمة شعبه برسم ملامح المجد الذي ينتظره في الاخر، عبر رؤيا (٧:١-٢٧) خلصت الى القول: "واذا بمثل ابن انسان آتيا على غمام السماء... وأوتي سلطانا ومجدًا وملكًا...". وما هذا الانسان سوى صورة لشعب "القديسين" الذين تقبّلوا الموت بدافع امانتهم لإلههم، وسيُمنحون من ثم الغلبة والسيادة على العالم كله! ولسنا نغالي اذا قلنا بان الكتاب المقدس -عدا سفر ايوب- لم يسبق ان اعطى حلا لمعضلة الموت بهذه القوة.

ولما كان التصوّر السائد للعالم الروحي على شكل مكان، فقد اتخذ التمجيد الذي يعد به الله مختاريه صورة "رفع" (تحت/ فوق: من الارض الى الحياة مع الله). كما ان هذا الرفع هو

"اخيري" (يشير الى آخر الازمنة) اذ سيحظى به جميع القديسين في شخص ابن الانسان: الم تكن هذه الرؤيا منطلقا ليسوع حين اختص لنفسه لقب "ابن الانسان" -لقب يفوق في السمو لقب "ابن الله"- الذي سنراه على "عرش مجده" يوم الدينونة، في شخص كل انسان، ولا سيما المساكين والجائعين... (متى٢٥: ٣١)؟ ألم تصبح من ثم صورة ابن الانسان الجماعية صورة فردية في يسوع، بصفته "سيد" الشعب ورئيسه، حين قال امام المجمع: "... وسترون ابن الانسان جالسا عن يمين القدرة واتيا على سحاب السماء" (مرقس١٤: ٦٢)؛ وقد اعتبر اعداؤه هذا التصريح "تجديفا" يستوجب عليه الموت، كما سيجدون مبررا كافيا لقتل اسطيفانس حين قال: "ها أنا ارى السماوات مفتوحة وابن البشر قائما عن يمين الله" (أعمال ٧: ٥٦) (انظر الاطار: القيامة في نظر يسوع).

صورتان

كان اليهود يعتقدون ان "الجحيم" هي مثوى الاموات، وكان الانسان، في نظرهم، كيانا موحدا: فالنفس هي مبدأ الحياة الذي يحيي الجسد، وليست "سجينة في الجسم" كما في مفهوم الافلاطونية. ففي الموت تنحدر النفس الى الجحيم، وما القيامة الا عودة الحياة الى نفس الانسان ومن ثم الى جسده (اللحم والدم): فنحن امام خلق جديد!

- **القيامة: عودة الى الحياة (قبل/ بعد) الذي يموت ينزل الى مثوى الاموات وكانه في "رقاد" الى ان تأتي القيامة لتوقظه وتخرجه من "الجحيم" وتعيد اليه الحياة (لعازر نهض من الموت). من حسنات هذه الصورة انها تحدد الوضع في التاريخ وتشدد بوضوح على الاستمرارية: فالكائن الذي "اضجع" في رقاد الموت، ينهض ويوقظ. اما ضعفها، فيكمن في اننا لانعلم ماهية هذه الحياة المستعادة (يسوع نهض من الموت ولكنه لن يموت ثانية).**
- **الرفع: الدخول في المجد (تحت/ فوق) هذه الصورة رؤيوية ولا مكان فيها لفكرة الزمن، اذ ان التركيز هو على فكرة التمجيد وليس على زمانه. فالذي مات، أُدخل الى مقربة من الله، وما رفعه وتمجيده سوى جواب الله على امانته. وقد اغتنت هذه الصورة بفكرة "العبد المتالم" (اشعيا٥٣) وفكرة "ابن الانسان" (دانيال٧). من حسناتها التشديد على اننا لسنا ازاء عودة الى الحياة السابقة، وانما ازاء "زيادة" تقوم في التمجيد (لعازر قام ولكنه لم يرفع او يمجد!). اما ضعفها فيقوم في هذا التساؤل الدائم: أي استمرار بين هذا الكائن الارضي الذي يموت والكائن المرفوع والممجد؟ لقد شعر التلاميذ بحاجتهم الى استخدام هاتين الصورتين للتعبير عن قيامة يسوع!**

٢ - "قيامة" القديسين

الى جانب صورة "الرفع"، هناك صورة "القيامة" التي تعبّر، هي الاخرى، عن امانة الله تجاه محبيه، حين يعيد اليهم الحياة. ومن الجدير بالذكر ان فكرة "القيامة" اطلقت على الشعب ككل قبل ان تطلق على الافراد:

- **قيامة الشعب**: كان الشعب قد شعر انه "مات". بسبب خطاياه، اثر كرازة هوشع النبي (القرن ٨)، فتاب وكله رجاء بان "... الله ضرب وهو يعصب. بعد يومين يحيينا، وفي

اليوم الثالث يقيمنا" (٦:١-٦)؛ ولم تكن عبارة (يحيينا) تعني سوى ان الله سيعيد الحياة الى شعبه. وفي زمن الجلاء الى بابل، حين سحق الشعب وذُلّ ومات، اعاد الله اليه الامل عبر رؤيا حزقيال (فصل٣٧) في العظام التي دبت فيها الحياة من جديد، وكأن الله "خلقه" ثانية بكلمته ووهب له الحياة بروحه. وستصبح هبة الروح علامة آخر الازمنة، حين سيجد بطرس تحقيقها في يسوع الذي بعد ان "ارتفع بيمين الله، اخذ من الاب الروح القدس الموعود فأفاضه" (أعمال٢:١٦... =يوئيل٣:١).

القيامة في نظر يسوع

في زمن يسوع، كان الصدوقيون لا يؤمنون بقيامة الموتى، كونها دخلت التقليد اليهودي في وقت متأخر. اما الفريسيون فكانوا يؤمنون ويعتقدون انها ستتم بعد مجيء المسيح ويتوقعونها حياة جديدة محوّلة، حيث يكون الابرار "كالملائكة في السماء" (مرقس١٢:٢٥). وكان يسوع يشاطر الفريسيين ايمانهم بقيامة البشر، لان الله "ليس اله اموات بل اله احياء". ولكنه كان يشدد على التحول الجذري الذي يتسم به مجيء العالم الاتي : "في القيامة لايزوّجون ولا يتزوجون". وحينذاك تجري الدينونة ويتم الفرز بين المختارين والهالكين على يد ابن الانسان: "... ويشاهدون ابن البشر اليا على سحاب السماء في كثير من القدرة والمجد" (متى٢٤:٣٠). فالجديد هو في اختصاص يسوع دور ابن الانسان!

من هذا المنطلق، طبّق يسوع على ذاته كل الرجاء الذي عاشه الشعب اليهودي طيلة تاريخه: فقد تبنى -او طبّق عليه كتاب العهد الجديد- نصوص المزامير التي عبّر فيها الابرار عن ايمانهم باله ينتشلهم من قبضة الموت (مز١٦:٨-١١= اع٢:٢٥ الخ..) وسائر النصوص التي كان اليهود يرون فيها اشارة الى القيامة، كما تدل اشارة يسوع عن القيامة "في اليوم الثالث" لدى إنبائه المتكرر بالآلام والموت (مرقس٨:٣١؛ ٩:٣١؛ ١٠:٣٤ وما يوازيها في انجيلي متى ولوقا). ونظرا الى معنى عبارة "اليوم الثالث" في زمن يسوع (انظر الاطار: قام في اليوم الثالث)، يمكننا القول بان يسوع لم يتنبأ عن قيامته "غداة اليوم الثاني" من موته، وانما اراد التعبير، بالفاظ كتابية، عن يقينه الشخصي بالانتصار الاخير: ألم يُجب مرتا التي كانت تؤمن بان اخاها سيقوم وقت القيامة، في اليوم الأخير: "انا القيامة"؟

ان ايمان الشعب بان الله قادر ان "يعيده الى الحياة" اصبح يقينا يفوق يقين الشعوب بحياة "ما بعد الموت". فالحديث هنا هو عن قيامة ينجزها الله للشعب كله، وفاء بعهده لابراهيم. وسيبقى هذا الايمان منفتحا على رجاء باتجاه تجدد العالم باسره، حتى بعد ان اكتشف شعب الله القيامة الشخصية.

● **قيامة الانسان**: وكانت انطلاقة الايمان بقيامة البشر في هذا التساؤل: ما هو مصير اولئك الشهداء الذين ماتوا في سبيل الله وذهبوا الى "الجحيم" مثوى الاموات؟ فعلى ضوء هذا التساؤل، كان لابد ان تتوضح فكرة "الرفع" التي وعد بها الله قديسيه؛ وهذا التواضيح جاء به كاتب سفر دانيال حين قال: "وكثيرون من الرقدين في ارض التراب يستيقظون، بعضهم للحياة

قام في اليوم الثالث كما في الكتب

تاب بنو اسرائيل بكرازة هوشع النبي وآمنوا ان الله، بعد ان "ماتوا" بخطاياهم، سيعيدهم الى الحياة عن قريب: "بعد يومين يحيينا، وفي اليوم الثالث يقيمنا" (هوشع٦:٢). وتأتي هذه العبارة في الترجمة اليونانية: "يشفينا بعد يومين، وفي اليوم الثالث نقوم فنحيا امامه". اما في الترجوم (التفسير الارامي للنص العبري اعلاه)، فقد اصبح تفسير هذه العبارة في زمن يسوع، على النحو التالي: "يعيدنا الى الحياة في يوم التعازي الاتية، وفي اليوم الذي يحيي فيه الاموات يقيمنا فنحيا امامه". وهكذا نرى انتقالا من مجرد "النهوض" الى التأكيد على القيامة، ومن اشارة عن قرب الزمن (يومين او ثلاثة) اصبح "اليوم الثالث" ذا مدلول لاهوتي. ويواصل الاب شربنتييه تحليله بالقول: "فعبارة (اليوم الثالث) لم تعد تعني، في هذه الحالة، (غداة اليوم الثاني)، بل (يوم اخر الازمنة).

من هذا المنطلق، يمكننا التأكيد بان المسيحيين الاولين حين كانوا يتكلمون عن "اليوم الثالث كما في الكتب" لم يكونوا يقصدون البتة اشارة الى الزمن (غداة اليوم الثاني)، وانما كانوا يعلنون ايمانهم بان يوم القيامة العامة (اليوم الثالث)، قد جاء بقيامة يسوع، وهي قيامة لم يكونوا مطلقا يتوقعون حدوثها في ثالث يوم بعد موته! ولا نعرف متى حدثت: فالنصوص تصرح فقط بان النساء رأين القبر فارغا يوم الاحد صباحًا! وهكذا الحال حين تكلم يسوع عن "قيامته في اليوم الثالث": انه لم يقصد غداة اليوم الثاني لموته، وانما "يوم التعزيات" أي يوم دخوله في المجد والذي يتجاوز الزمن. هل ينتظر الله ثلاثة ايام "ليمجد فتاه"؟!

الابدية، وبعضهم للعار والرذل الابدي..." (دانيال١٢:١-٣). ولما كان الحديث عن اخر الازمنة، فان "قيامة" الراقدين لم تكن تعني "عودة الى حياة العالم الحاضر"، وانما دخولا الى عالم متحول نيِّر، الى عالم الله، الى الحياة الجديدة مع الله. مثل هذا الايمان بالقيامة سيعبر عنه ايضا كاتب سفر المقابيين الثاني (حوالي عام ١٢٠ ق. م.) حين يقول الاخوة السبعة للطاغية: "انت تقتلنا، لكن الله يقيمنا" (٧:١٤). وهكذا يصبح المؤمنون على يقين من ان امانتهم لله ستسفر، بعد الموت، عن حياة ابدية مع الله هي بمثابة "خلقة جديدة".

(ملف نيسان ١٩٩٠/جـ١)

تتمة الملف/ ايار ١٩٩٠/جـ٢

- نصوص هي شهادات ايمان -

بعد ان انكببنا على ايمان الرسل والمسيحيين الاولين بقيامة يسوع -ايمان له جذور في العهد القديم- آن لنا ان ننكب على الشهادات التي ادلى بها الرسل والمسيحيون الاولون عن يسوع الناهض، وقد نادوا بايمانهم به، واحتفلوا بذكراه الحية في اجتماعاتهم ولقاءاتهم الاوخارستية، ومن ثم رواه بعضهم كتابة عبر اسفار العهد الجديد. واول مايلفت انتباهنا في النصوص التي بين ايدينا ان اصحابها انفسهم لقوا صعوبة كبيرة في التعبير عن ايمانهم بيسوع الحي، ايمان احسوا به وخبروه، اكثر مما استطاعوا ان يفسروه. وغني عن القول ان هذه النصوص -وقد عكست خلفيتهم الايمانية بالقيامة وتضمنت فنا روائيا اصيلا، مقترنا بالتفكير اللاهوتي والحاجات الرعوية- حملت طابع الفترة التي كتبت فيها، وعكست حاجات مؤمني الخمسينات (رسائل بولس، وهي اولى الكتابات المسيحية) ومؤمني السبعينات والثمانينيات.

١- الشهادات الاولى: قانون ايمان، نشيد، تأمل

أ- اول قانون ايمان (١قورنثية١٥:١-١١)

في رسالته الاولى الى اهل قورنثية يدلي القديس بولس باقدم قانون ايمان كان قد تلقاه؛ ويبدو انه صيغ في حدود الخمسينات: "ان المسيح مات من اجل خطايانا، كما جاء في الكتب، وانه قبر وقام في اليوم الثالث كما في الكتب، وانه تراءى...". وغني عن القول بان فعل "قام" هو في صيغة المجهول، فليس يسوع هو الذي "اقام نفسه"، وانما الله اقامه كما جاء في النصوص اخرى، كما يلاحظ اهل الاختصاص بان فعل "قام" في هذا النص، دون غيره من الافعال، هو في صيغة الماضي الدائم -ويعني في اليونانية حدثا تم في الماضي وما زال مفعوله حاضرا- مما يدل على ان قيامة المسيح تمت مرة في التاريخ، الا ان نتائجها دائمة الحضور: فيسوع لا زال حيا لان الله اقامه. وتنسحب هذه النتيجة على المؤمنين الذين سيبقى المسيح لهم عربون حياة جديدة.

ب- نشيد (فيلبي٢:٦-١١)

يستشهد بولس هنا بنشيد عريق في المسيح، يعكس تفكيرا لاهوتيا لدى مؤمنين يحتفلون بقيامة "ربهم"، وهو ذاك الذي، بخلاف ادم الذي اراد ان يسلب مساواته لله، لم يتمسك بالوهيته "متخذا صورة عبد"، ملاشيا ذاته"، "مطيعا حتى الموت، موت الصليب" (راجع قصيدة "العبد المتالم" في اشعيا ٥٣). ولذلك "رفعه الله وانعم عليه بالاسم الذي يفوق كل اسم... لكي يعترف كل لسان بان يسوع هو رب لمجد الله الاب". فكما رفع الله عبده المتالم (اشعيا٥٢:١٢...)، هكذا قبل الله ذبيحة يسوع ورفعه واعطاه اسم "الرب"، بمعنى ان يسوع نال "القدرة التي تمكنه من اخضاع كل شيء لنفسه" (فيلبي٣:٢١). ففي هذا النشيد الرائع،

نرى سر المسيح مُلخَّصًا من دون ان ترد عبارة "قيامة": فالحديث هو عن "رفع" (تحت/ فوق- راجع الاطار: "صورتان") يذهب بنا توا الى صورة ابن الانسان (دانيال٧)

ج- تأمل في مزمور (افسس٤:٧-١٠)

ينطلق بولس من المزمور٦٨:١٩ ليبيّن ان الله يعطي كنيسته ما تحتاج اليه من المواهب للقيام برسالتها: "لذلك يقول: لما صعد الى العلى سبى سبيا واعطى الناس عطايا"-وكان "الترجوم" في زمن يسوع ينسب هذا الصعود الى موسى النبي الذي "تعلم اقوال الشريعة واعطاها لبني البشر". وإذ يتأمل بولس في هذا المزمور، يرى فيه، لا موسى بل يسوع (موسى الجديد) الذي صعد الى السماء بعد ان نزل الى مثوى الاموات. وهكذا نجد هنا سر الفصح مفسَّرا في صورة النزول والصعود (تحت/ فوق). وسيستخدم القديس بطرس هذا المزمور ذاته لتفسير العنصرة (أعمال٢:٣٣).

هناك نصوص اخرى لبولس او للوقا في اعمال الرسل ترسم صورا يؤكد بعضها على "الانبعاث" و"العودة الى الحياة" و"القيامة" (روم١٤:٩؛ ٢قور١٣:٤؛ عبر٧:٢٥ الخ..)، فيما يشير غيرها الى "الرفع" و"التمجيد" و"الصعود" (١تسا١:١٠، ٤:١٤؛ ١طيم٣:١٦ الخ...). ونستنتج من هذه النصوص تاكيدين على الاقل:

- **الله "اقام" يسوع**: حين يقول بولس: "... وامنت بقلبك ان الله اقامه من بين الاموات" (روم١٠:٩) او: "مات المسيح وعاد الى الحياة" (روم١٤:٩) الخ... فتلك شهادة ايمان بان يسوع الذي مات "فداء" عنا، قد اقامه الله واعاده الى الحياة. ولا يزال حيا كما كان من قبل الا ان وضوح هذه الصورة وتدرجها "التاريخي" (صلب وموت ودفن وقيامة وظهور وصعود) لا يخفي حدودها، حيث يبدو يسوع وكأنه استعاد حياته السابقة لا غير. لذا سرعان ما أُلحقت بها تاكيدات على ان المسيح "لن يموت ثانية" (روم٦:٩) وان قيامته هي عربون قيامة الاموات، كونه "بكر الراقدين" (١قور١٥:١٩...، ١تس٤:١٣...؛ قولسي١:١٨، ٢:١٢ الخ...)؛ إذ "إن كان رجاؤنا في المسيح في هذه الحياة فقط فنحن اشقى الناس اجمعين"!

- **الله "رفع" و"مجَد" يسوع**: حين يقول بطرس ان الله "مجد فتاه يسوع" (أعمال٣:١٣) و"... جعله ربّا ومسيحا" (أعمال٢:٣٦) و "رفعه بيمينه رئيسا ومخلصا" (أعمال٥:٣١)... وحين يقول بولس ان الله "رفعه" ومنحه "اسما" او انه "رفع في المجد" (١طيم٣:١٦) الخ... فليس المقصود اننا ازاء تعاقب في الزمن، كما توحي به قراءة سريعة لسفري لوقا. فالمسيحيون الاولون راوا في الرفع والتمجيد والصعود والجلوس عن يمين الله.. طريقة اخرى للتعبير عن السر ذاته، ولكنها طريقة اكثر عمقا وبعدا. وحين تقترن الصورتان (قبل/ بعد مع تحت/ فوق) يزول خطر التحجيم الذي يلازم صورة "الانبعاث"، وتكتمل بصورة "الرفع" و"الدخول في المجد" التي تكشف بان يسوع، بقيامته، دخل في حياة الله واصبح "رب المجد"، هو الذي "ينبغي ان تقبله السماء الى عهد تجديد كل شيء" (أعمال٣:٢١). كما ان اقتران الصورتين يجعل حدث القيامة يعنينا ويнادينا، ويجعلنا من ثم نرى قيامتنا في قيامة المسيح: "... في المسيح سيحيا الجميع"

(١قور١٥:٢٢). لان "الذين رقدوا في يسوع سيحضرهم الله معه" (١تس٤:١٤)... ولكون الله غنيا بالرحمة "احيانا مع المسيح.. ومعه اقامنا، ومعه اجلسنا في السماوات" (افسس٢:٤-٦). فلا يمكن من بعد "ان يحيا الاحياء لانفسهم. بل للذي مات وقام لاجلهم" (٢قور٥:١٥) الخ...

٢- شهادة الكنيسة عبر الروايات الانجيلية

ليست الاناجيل مجرد ذكريات عن يسوع، انما هي استذكار وتامل واحتفال بحدث يسوع الناهض من بين الاموات والحاضر في وسط الجماعة المؤمنة. انها ما زالت تعلن الحدث وتنادي به. ولكن باسلوب روائي لايخلو من تعليم ووعظ ودعوة... فالانجيليون يرددون ايمانهم بقيامة الرب. كل بحسب موهبته الخاصة ووفقا لحاجات قرائه وتساؤلاتهم.. وتشمل هذه الروايات: أ- القبر المفتوح ب- تراائيات يسوع للاحد عشر من جهة ولتلاميذ اخرين من جهة اخرى.

أ- القبرالمفتوح:

لا يشكل اكتشاف القبر فارغا برهانا على القيامة، كما يخيل الينا لأول وهلة.. الا انه يطرح سؤالا لم تجد المجدلية ولا النسوة جوابا له، بينما وجده(!) رؤساء اليهود حين سعوا الى اشاعة مقولة "سرقة الجسد" (متى٢٨:١٣)! فالله هو الذي سيعطي الجواب من خلال "تراائيات" يسوع الناهض من القبر. ولقد عكس الانجيليون جواب الله هذا عبر رواية "القبر المفتوح" التي نشأت -بحسب تحليلات المفسرين- في اعقاب حج المسيحيين الاولين الى قبر يسوع الفارغ. ان روايات القبر المفتوح، لدى الانجيليين الاربعة، لا تقول متى وكيف تمت قيامة يسوع من القبر، كما انها لا تذكر شهود عيان لها، ولا تعكس شهادة احد قال انه راى يسوع ينهض من الموت! -كما توحي بذلك اللوحات الفنية التي، منذ القرن١٠ فقط، اخذت تظهر يسوع ناهضا من القبر بثوب الارجوان الملوكي وبيده صولجان الظفر!- وانما تكشف عن ان القيامة هي وحي الله للجماعة المؤمنة، وليست ثمرة تفكير هذه الجماعة في الاحداث، وذلك عبر كلمات الملائكة الذين استخدموا عبارات الكرازة الرسولية ذاتها التي كانت تتردد في الكنيسة الاولى. ومما لا شك فيه ان رواية مجيء النساء الى القبر تضمنت، على حد تعبير الاب شربنتييه، شيئا من فن التحرير بهدف اعلان لحقيقة سر القيامة[٤]، متبنّيا ما يقوله اهل الاختصاص من ان هذه الرواية هي صدى "احتفال طقسي" كان يتم ابان الحج الى القبر، ومبينا -مع ج. ديلورم- بان زيارة قبر يسوع الفارغ هو احتفال "بذكرى حدث مجيء النساء الى القبر وعدم عثورهن على جثمان يسوع، استنارت، فيما بعد، بالايمان الذي نشا بفضل التراائيات، ثم صيغت في رواية تصلح للكرازة والتامل في سر القيامة عند قبر يسوع".

ومن خلال قراءة مقارنة بين الانجيليين، نكتشف بيسر ان الرسول الالهي (الملاك) يخاطب النساء، في انجيلي متى ومرقس، بالعبارات التي يستخدمها بطرس في خطبه: "يسوع الناصري المصلوب.. اقامه الله من بين الاموات" (أعمال٤:١٠)؛ وان ما وضعه لوقا على لسان الملاكين: "لماذا تطلبن الحي بين الاموات؟" يصدي لايمان بولس الذي اوجزه فستس الوالي للملك اغريبا: "... يسوع الذي مات ويدّعي بولس انه حي" (أعمال٢٥:٩). وبعد ان يخبر الملاك النساء

بالقيامة، ويلفت نظرهن الى فراغ القبر ويعهد اليهن ببلاغ موجه الى التلاميذ (متى ومرقس)، يفيد بان يسوع "يتقدمهم الى الجليل"، حيث يرونه (ويضيف مرقس: "كما قال لكم" مرجعا صدى كلام يسوع: "متى قمت اسبقكم الى الجليل" ٢٨:١٤)، بينما لوقا الذي لم يرو ترائيات يسوع في الجليل، فقد غيّر العبارة بمهارة: "اذكرن ما قاله حين كان في الجليل" ![٥].

وبوسعنا ان نكتشف بان وراء الاختلافات بين الانجيليين في تفاصيل الرواية، مدلولات ومضامين في فكرهم ارادوا ان ينقلوها الينا... ولا يسعنا هنا الا ان نستعرض بايجاز كيف اضفى كل انجيلي، على روايته، نظرته اللاهوتية الى حدث القيامة (انظر الاطار).

ب- ترائيات يسوع

في اعقاب رواية "القبر الفارغ"، يروي الانجيليون ترائيات يسوع بمثابة خاتمة لشهادتهم الايمانية عن يسوع الناهض. وحين يؤكد اهل الاختصاص بان انجيل مرقس كان يخلو اصلا من الترائيات، فذلك، في نظرهم، دليل على انها لم تكن ضرورية للايمان، اذ ان الايمان بالقيامة لا يعتمد على ادلة "تاريخية"، كونه فعل ثقة بكلام الله الذي يثبتها، كما سيقول يسوع في انجيل يوحنا: طوبي للذين امنوا و لم يروا! واذا فهمنا عبارة "تراءى" بمعنى "أرى نفسه"، دون التركيز على فكرة المشاهدة بالعين المجردة (انظر الاطار: تراءى)، ودون التفكير بان بوسع يسوع الحي والممجد ان "يظهر" ذاته لبعض الشهود المختارين (أعمال١:٣؛ ١٠:٤١) -مع تجنب الخوض في تفاصيل كيفية اتصال يسوع القائم من الموت بعالمنا- فسندرك بشكل افضل ماذا يعني اختبار الاحد عشر من جهة، واختبار بعض التلاميذ من جهة اخرى؛ وكلهم "راوا" الرب والتقوا به وشعروا بحضوره، وهو شعور لن يكون اقل شفافية من الشعور بحضوره اليوم في ما بيننا حين "يجتمع اثنان او ثلاثة باسمه" (يوحنا١٨:٢٠)، او حين نراه في شخص الجائع والعطشان والغريب الخ...

١- اختبار الاحد عشر:

يقصد الانجيليون من رواية ترائيات يسوع للاحد عشر، التاكيد على ان يسوع الحي اقامهم شهودا رسميين له. وتعكس هذه الترائيات، كما جاءت بريشة الانجيليين، صورتين تندمجان احيانا في سياق الرواية كما سبق لنا القول: صورة "القيامة" -وهي من الطراز "التاريخي" (قبل/بعد) التي كانت متداولة بين الجماعات المسيحية في اورشليم (لوقا ويوحنا)؛ وصورة "الرفع"-وهي من الطراز "الرؤيوي" (تحت/ فوق) التي كانت تتداولها جماعات الجليل بشكل خاص (متى،ونضرب صفحا عن خاتمة مرقس١٦:٩-٢٠ التي اضيفت في وقت لاحق، فغرفت من الاناجيل الثلاثة). لذا فمن العبث ان نبحث عن تسلسل زمني للترائيات، في محاولة توفيقية بين الروايات الانجيلية وبين الترائيات التي عددها بولس في ١قور١٥:٥-٨..

- **يسوع الناهض من الموت:** يستشف من الترائيات في انجيلي لوقا ويوحنا ان يسوع هو دوما صاحب المبادرة: فهو الذي "ياتي" ويبدد ارتياب الاحد عشر وشكوكهم. وما التعابير عن حقيقة قيامة يسوع بالجسد (يريهم يديه ورجليه وياكل معهم.. لدى لوقا؛ ويريهم يديه وجنبه لدى يوحنا) سوى للتاكيد بان الرسل ليسوا بازاء وهم جماعي، او ازاء شبح: " فالروح لا لحم

له ولا عظم كما ترون لي" (لوقا٢٤:٣٩). وقد تبددت "الهواجس" من قلوبهم وزال "الاضطراب" الذي غشيهم، بعد ان عرفوا يسوع الحي بعينه كما كان من قبل، وان كان حضوره الآن هو من نوع خاص. اما التراثيات لدى يوحنا، فهي اختبارات يتعاقب فيها الايمان بعد الارتياب: ففي مساء اليوم ذاته "يري" يسوع نفسه، اولا للرسل -هو الذي كان في "وسطهم" حين كانت "الابواب مغلقة"- فيمتلئون فرحا باكتشافه من خلال هذه "الرؤية". ومن ثم "يري" نفسه لتوما الذي سرعان ما يعلن ايمانه -ومن دون ان يضع اصبعه في جروحه!- لانه ادرك بان الايمان وحده قادر ان يدخله في الفة مع يسوع "الرب والاله": وتلك هي اعمق شهادة ايمان بالمسيح الناهض!

القيامة في تفسير الانجيليين

انطلاقا من خلفية مشتركة. وجوابا الى التساؤلات التي يطرحها اويفترض ان يطرحها قراؤه، توسع كل من الانجيليين في تفسير لاهوتي لحدث القيامة:

● مرقس (١٦:١-٨)

يضعنا مرقس ازاء السر الذي يعكسه "خوف" النساء وذهولهن: سر يكشفه الملاك، ونداء الى الكف عن مشاهدة يسوع بوجهه الانساني، والعدول عن الرغبة في "تصور" من لم يعد من هذا العالم، والانطلاق من اورشليم (رمز المنغلقين على افكارهم) الى الجليل ("جليل الامم" بالمعنى اللاهوتي وهو ارض الانفتاح على العالم). ذلك لان قيامة يسوع قد غيرت مجرى التاريخ: فهو الحي الذي سيحتم علينا السير على طريق اكتشافه واليقين من حضوره حتى نهاية التاريخ. ويوحي نص مرقس بالانتقال من الظلام الى النور، ومن الزمن الديني اليهودي القديم ("مضى السبت" لا يعني يوم السبت) الى الزمن الكوني (اليوم الاول من الاسبوع). كما يوحي بالانتقال من "القبر المغلق" الذي يحتجز الاموات، الى القبر المنفتح على الحياة. وما الشاب الذي "عليه حلة بيضاء" (نقيض سواد القبر) الا صورة للمسيح الممجد (جالس عن اليمين). فهو الذي يحول بحث النساء- وقد جئن ليمسحن جسده- اي ليحفظنه في الموت!- الى بلاغ يطلقنه: "سيرين ويرى الرسل" القائم من الموت في الجليل، حين يبدأ عمل التبشير به حتى اخر العالم.

● متى (٢٨:١-٢٩):

يرينا متى ان الله يأتي (زلزال. ملاك اتى ودحرج الحجر: منظره كالبرق مما يوحي بمجيء "ابن الانسان" في مجده، لباسه ابيض كالثلج، ومن الخوف يغدو الحراس كالاموات) ليعلن انتصاره على الموت ويكشف بان سلطان الموت قد دمر. وما صورة الزلزال الا اشارة الى اقتراب "اخر الازمنة" التي اتت بموت يسوع (٢٧:٥١...) -وقد اقترنت بخروج قديسين كثيرين من القبور... فنحن اذن ازاء ولادة عالم جديد يقوده الله بنجاح. وسيرى القارئ ان تراءي يسوع بصفة "ابن الانسان" الممجد (هو الذي "تسجد" له النسوة حين "يأتي" للاقائهن، كما "سيجد" له التلاميذ الذين "اتى" اليهم يسوع، ليوفدهم للرسالة بعد ان "دفع اليه كل سلطان في السماء وعلى الارض") سيعطي لرواية القيامة كل معانيها وابعادها.

وتخلص رواية التراثيات للاحد عشر الى "ايفادهم" للشهادة: "كما ارسلني الاب، أنا ايضا ارسلكم" (يوحنا٢٠:٢١)، وما نفخة الروح فيهم وتقليدهم من ثم سلطان "مغفرة الخطايا" سوى مؤشر الى ان الرسالة الموكلة اليهم هي رسالة الكنيسة التي سيسندها الروح. اما لوقا، فهو

يشدد على ان معرفة يسوع لا تكتمل الا على ضوء الكتب المقدسة،يقرأها من جديد ويفسّرها الناهض من بين الاموات: "عندئذ فتح اذهانهم ليفهموا الكتب" (٢٤:٤٥)، إذ كان لا بد ان يتم فيه ما كتب "في ناموس موسى، وفي الانبياء والمزامير". وحينذاك تصبح "الكرازة باسمه" ضرورة ملحة سيؤدونها بقوة الروح: وسيُظهر لوقا، طوال صفحات "اعمال الرسل"، عمل الروح في انتشار ملكوت الله!

• **يسوع المرتفع في المجد:** من بين الانجيليين، متى وحده يختم انجيله بترائي يسوع للنسوة اللواتي "يسجدن" له؛ وهذا السجود الذي يليق بمن هو "رب المجد" سيكرره الاحد عشر في الجليل، على الجبل، "للاتي" اليهم مجسدا شخصية "ابن الانسان" التي رآها دانيال؛ بعد ان تم رفعه وتمجيده، طالما قد دفع اليه "كل سلطان في السماء وعلى الارض" -هو الذي على الجبل اعطى شرعته الجديدة، وعلى جبل التجربة رفض السلطان الذي عرضه عليه الشيطان (متى٤:٨-١٠)- فاصبح بوسعه، وهو سيد التاريخ، ان يوفد تلاميذه الى الرسالة؛ كما اصبح بوسع التلاميذ ان يجعلوا "سيدهم" حاضرا في العالم عبر الكنيسة، من خلال نشاطها الرسولي "تلمذوا" والطقسي "عمذوا"... ولن يتكلم متى عن "صعود"(٦). لان يسوع "سيبقى معهم كل الايام"، محققا ذاك الرجاء العظيم الذي كان قد اطلقه متى في مطلع انجيله (١:٢٣): ويدعى اسمه "عمانوئيل" (الله معنا).

• **لوقا (٢٤:١-٥٢):**
ترسم رواية القيامة لدى لوقا "حيرة النساء" و " ذعرهن" و "دهشة" بطرس و "اتهام" الاحد عشر لهن "بالهذيان"... كما ترسم رواية تلميذي عماوس مسيرة الايمان التي سيتوجب على كل منا ان يقوم بها: فالتلميذان "أُمسكت اعينهما عن معرفته" لانهما انغلقا في مشهد الجلجلة. وعادا الى قريتهما بخيبة امل سيبددها المسيح "الحي" الذي لحق بهما، على الطريق، في شخص "الغريب" الذي لم يعرفاه الا عند "كسر الخبز"! فهناك وحدة بين الروايتين، خلاصتها: من العبث ان نبحث عن "الحي بين الاموات"، لانه سبق ان انبا انه "ينبغي لابن البشر ان يسلم الى ايدي الخطاة، ويصلب وينهض في اليوم الثالث" (٢٤:٧).
واذا شدد لوقا على الجانب "الواقعي" من القيامة (يراه الرسل ويلمسونه وياكلون معه...)، إلا انه يرجع فيؤكد بان حضور القائم من الموت هو من نوع اخر، طالما ان بوسعه ان "يظهر" و "يختفي".

• **يوحنا (٢٠:١-٢٩):**
يتبع يوحنا الانجيليين الازائيين في رواية "القبر المفتوح" حيث يكشف من خلالها سر "اختفاء" يسوع، الى جانب سر "الايمان" الذي يجعلنا "نراه". وقد لفت انتباهنا الى ذهاب بطرس والتلميذ الاخر الى القبر: دخل بطرس ولم يؤمن على الفور كالتلميذ الحبيب، لان الاولوية هي بالتالي للمحبة التي تربط يوحنا الحبيب بيسوع. وما الايمان الا فعل حب! وهكذا الحال مع المجدلية التي اكتشفت المعلم حين ناداها باسمها، هي التي ارادت ان تعيد معه صلة الالفة السابقة!

٢- اختبار تلاميذ اخرين:

ان روايتي "ترائي يسوع للمجدلية" (يوحنا٢٠:١١-١٨) و"لتلميذي عماوس" (لوقا٢٤:١٣-٣٥) تهدفان الى اشراكنا في فرح وسعادة تلاميذ لقوا "ربهم" واستعادوا معه حياة

الصداقة والالفة. واذا لم يعرفه التلميذان و لم تكتشفه المجدلية، فليس هو الذي تغير، بل هم الذين اقفلوا على انفسهم في تصور يسوع الذي كانوا يحلمون به.. ويسوع هو الذي فتح اعينهم! كما ترميان الى اشعارنا بان بامكاننا، نحن ايضا، ان نحصل على مثل هذه الخبرة: ففي رواية عماوس، يحاول لوقا ان يرسم مسيرتنا لاكتشاف يسوع عبر استذكار لاقواله واعماله.. وقراءتها على ضوء الكتاب المقدس الذي يفسره القائم من القبر، واكتمال هذه "المعرفة" و "الرؤية" في كسر الخبز (الاوخارستيا) وسائر الاسرار حيث نلتقي بالمسيح الحي دائما ابدا (اقرأ رواية عماذ الحبشي: أعمال٨:٢٦-٤٠ حيث ترينا يسوع يعمل بواسطة خدامه، فيلبس، وتجعل الحبشي يختبر اللقاء الشخصي بيسوع عبر المعموذية).

اما ترائي يسوع للمجدلية الباكية عند القبر، فانها هي ايضا، م تعرفه، لان عينيها كانتا متجهتين نحو ماضي يسوع، تماما كما امسكت عينا التلميذين عن معرفته لانهما كانا يجتران خيبتهما... و لم تنفتح عيناها الا حين ناداها باسمها لتكتشف بانها ازاء يسوع "ممجد"، وانها "ستراه" دوما من خلال التبشير به؛ لان المحبة التي تمكّن من معرفة يسوع واللقاء به "رايت الرب"، تقوم، اولا واخرا، في حمل بشراه (انجيله) الى الاخرين: "لا تلمسيني.. بل امضي وقولي لاخوتي...".

تراءى

في رسالته الاولى الى اهل قورنثية، يقول بولس ان المسيح "تراءى لكيفا ثم [illegible]، ثم تراءى لأكثر من ٥٠٠ اخ معا، اكثرهم باق حتى الان، وبعضهم رقد، ثم تراءى ليعقوب، ثم لجميع الرسل، وآخر الكل تراءى لي انا ايضا، كأنما للسقط " (١٥:٥-٨). وقد توحي عبارة "تراءى" بشبح او بحضور يمكن التقاطه بآلة تصوير! الا ان صيغة الفعل باليونانية لا تدل على المجهول "رُئي"، وانما تعني ان يسوع "أرى نفسه" مما يشير الى ان يسوع هو صاحب مبادرة الكشف عن ذاته. ولنا في كتابات الفيلسوف اليهودي فيلون، معاصر بولس، تاكيد في هذا الاتجاه بشأن ابراهيم: "ليس ابراهيم هو الذي راى الله، بل الله هو الذي أرى نفسه لابراهيم"..

ولصيغة الفعل في الكتاب المقدس مدلول يقوم في التشديد على المهمة الموكلة، اكثر مما على ما امكن رؤيته، سواء في العهد القديم بشأن تجليات الله (تكوين١٢:٧؛ قضاة١٣:٢١...) ام في العهد الجديد: رواية التجلي لدى الانجيليين الازائيين... وكثيرا ما يستخدمها لوقا لدى الحديث عن "ظهور" الملاك للرعاة وليسوع النازع، وفي اعمال الرسل لدى ظهور السنة نار يوم العنصرة (٢:٣)، او لدى الحديث عن ترائي يسوع لبولس [illegible] ولم يرَ من القوة شيئا! (٩:١٧). وكل ذلك يدعونا الى التروي: فالتلاميذ لا [illegible] ان يسوع "ظهر" بصورة منظورة، وانما يؤكدون على مبادرة يسوع في الكشف عن ذاته [illegible]، ويدعون المجال لإمكانية كون هذه "الترائيات" اختبارات باطنية قبل كل شيء، من شأنها ان تدفع "الشهود" الى اعلان البشرى: رأينا الرب والتقينا به.

والخلاصة...؟

لقد اتضح لنا، عبر هذا الملف، بان الغاية القصوى من الروايات الانجيلية في "القبر المفتوح" و "الترائيات"، انما هي نداء موجّه إلينا للقيام باختبارات مماثلة "لرؤية يسوع"، بأعين الايمان، حيا في ما بيننا؛ وللحصول على يقين من ان بوسعنا، نحن ايضا، ان نختبر حضور الناهض من بين الاموات: سنعرفه بقدر ما نحمل رسالته ونشهد لها؛ وسنختبر حضوره عبر لقائنا به في

الاسرار ولا سيما الاوخارستيا؛ وسنراه بقدر ما نبحث عنه في القريب ولا سيما الاكثر فقرًا.. وهذا الاختبار هو بالتالي اختبار الايمان الذي عاشه الشهود الاولون، وسنعيشه نحن ايضا بدورنا حين نكون على يقين باننا لم نضع عبثا رجاءنا في المسيح الناهض: ألا تؤكد خاتمة انجيل يوحنا (٣١:٢٠) بان كل ما كتبه من "آيات"، هي علامات حضوره، كان "لكي تؤمنوا بان يسوع هو المسيح، ابن الله". فيوحنا "رأى وآمن" (٨:٢٠)؛ ويواصل: "لانهما" -بطرس والتلميذ الآخر- لم يكونا بعد قد فهما الكتاب..."، بمعنى انهما لو سبق لهما أن فهما الكتب، لما احتاجا الى رؤية باعين الجسد، ولاكتفيا برؤية بأعين الايمان. اما نحن، فسنحصل على الطوبى إذا آمنّا من دون ان نرى.

بعد هذه الرؤية الايمانية لقيامة الرب- ولم نعد بحاجة الى طرح تساؤلات لا طائل تحتها- والتي عّبر عنها الانجيليون باشكال وصور كثيرة، وتغذت بخبرة ايمان المسيحيين الاولين طيلة القرن الاول الميلادي، يمكننا ان نخلص الى القول: لو اقتصرنا على تعبير "يسوع حي" وانه "قام"، بمعنى عاد الى الحياة، لوقعنا في خطر المساواة بين حياته قبل الموت وبعده؛ ولو اقتصرنا على تعبير "يسوع ممجّد"، نكون قد تناسينا انه يحمل في جسده الممجد آثار الآلام... لذا كان من الضروري ان نحتفظ بتعددية الروايات عن القيامة وبتعددية التعابير والصيغ عنها، كما نحتفظ بغنى الاناجيل الاربعة التي هي شهادات ايمان تلتقي في جوهر البشرى، دون ان نحجمها الى رواية واحدة أو الى صيغة واحدة في التعبير عن هذا السر الفصحي الذي فيه تم "عبور" يسوع من الموت الى الحياة، ومن الحياة على الارض الى حياة المجد مع الله... وسيتم فيه من ثم "انتقالنا" من الموت الى الحياة: "لاننا إذا كنا قد متنا مع المسيح نؤمن اننا سنحيا معه" (روم٦:٨). تلك هي خلاصة الايمان: يسوع قام وُمجِّد... وسنكون معه للأبد.

(ملف ايار ١٩٩٠/جـ٢)

المصادر

اسطيفان شربنتييه: دليل إلى قراءة الكتاب المقدس- دار المشرق، بيروت ١٩٨٣

اسطيفان شربنتييه: قام المسيح (دراسات في الكتاب المقدس/٤)- دار المشرق، بيروت ١٩٨٧

- La Résurrection: Fetês et Saisons, No. 362 (Fev. 1982).
- Parler de la résurrection: Les dossiers de la Bible, No. 27 (Mars 1989).
- Dictionnaire encyclopédique de la Bible, Brepols, 1987.

(١) لنا في انجيل لوقا، على سبيل المثال، شواهد كثيرة: هوذا الطفل يسوع "يدعى ابن العلي" (٣٢:١)، "ابن الله" (٣٥:١)، "الرب" (٤٣:١)، "ولد لكم مخلص... هو المسيح الرب" (١١:٢)، "مسيح الرب" (٢٦:٢) الخ... ويمكننا ان نطيل قائمة الشواهد لدى سائر الانجيليين: فلدى عماذ يسوع وتجليه يطلق عليه لقب "الابن الحبيب" (متى٣:١٧؛ ١٧:٥)، وغالبا ما يكتشف الشياطين في يسوع "قدوس الله" (مرقس١:٢٤)، "ابن الله" (مرقس٥:٧) الخ... وغني عن القول بان هذه الالقاب مشبعة بالايمان بيسوع ما بعد القيامة.

(٢) الى جانب العديد من الافتتاحيات حول القيامة، سبق للفكر المسيحي ان انكبت عليها: قيامة المسيح امل دائم (نيسان ١٩٧٨)، قيامة المسيح اليوم/ ملف (نيسان ١٩٨١)، قراءة الكتاب المقدس على ضوء القيامة (ت ١ وت٢ ١٩٨٢)...

(٣) في هذه الروايات الثلاث نرى ان الموت يبدو كانه "رقاد"، بوسع كلمة يسوع القديرة والمحيية ان تنهضهم منه، بصفته "سيد" الحياة، فيما تدهشنا خاتمتها التي تعيد هؤلاء "الناهضين" الى الحياة اليومية (يامر بان تعطى الفتاة طعاما.. يُدفع الشاب الى امه.. ويطلب ان يطلق سبيل لعازر)؛ كما يدهشنا سكوت الانجيليين عن ردود فعل هؤلاء الذين اعيدوا الى الحياة، وكانهم ارادوا ان يتركوا فراغا لنملأه، نحن القراء، بعبارت الايمان بذاك الذي يدعونا بكلمته الى الحياة: "استيقظ ايها النائم، قم من بين الاموات فيضيء لك المسيح" (افسس٥:١٤).

(٤) من غير المعقول ان يكون الرسل -وهم يبشرون بالقيامة في اورشليم- قد ابتكروا رواية "القبر الفارغ" دون ان يتعرضوا للتكذيب! ويبدو واضحا ان رؤساء الكهنة والشيوخ لم يكذبوا الامر. وانما اكتفوا بالبحث عن تفسير اخر له حين رشوا الحراس وطلبوا اليهم: "قولوا ان تلاميذ جاءوا ليلا وسرقوه"، وهي اشاعة انفرد متى بذكرها ضمن رواية "حراس القبر" التي هي من الطراز الدفاعي للرد على تهمة "سرقة الجثمان" التي راجت في الخمسينات، وابراز تدخل الله في قيامة يسوع -ولم يكن اعداء يسوع يتوقعونها، كما لم يتوقعها التلاميذ انفسهم!

(٥) كان الجليل يعرف بـ "جليل الامم" (الوثنيين) الذي انبأ اشعيا (٨:٢٣) بان الله سيتجلى فيه للوثنيين. اما اورشليم، فهي المدينة المنغلقة على ذاتها، كونها مركز التقليديين الواثقين بانفسهم... ففي الجليل "يرى" الرسل يسوع: ففيما بيّن متى ان قيامة يسوع هي "اخر الازمنة"، طالما ان الجليل اصبح ارض الانفتاح على العالم، وشدد مرقس بان كل شيء هو قيد العمل طالما ان الكرازاة ستبدأ من الجليل لتنطلق الى العالم اجمع، يضع لوقا اورشليم في المركز حيث يبتدئ الانجيل وينتهي في الهيكل (١:٥...؛ ٢٤:٥٢-٥٣). وما كرازة يسوع في الجليل سوى مرحلة "للصعود" الى اورشليم (٩:٥١، ١٩:٢٨) حيث يتم سر الفصح، ومنها ستنطلق البشرى وتمتد الى اقاصي الارض (أعمال١:٤-٨).

(٦) إذا ضربنا صفحًا عن خاتمة مرقس، يكون لوقا قد انفرد في الحديث عن "صعود" يسوع الى السماء، حين رواه مرتين: في الانجيل، وقد وضعه "مساء القيامة" (٢٤:٥١)، وفي سفر اعمال الرسل، حين حدده بعد القيامة بـ ٤٠ يومًا (١:٣). ويقول المفسرون باننا ازاء لغة رمزية ولاهوتية استخدمها لوقا للتعبير عن "ارتفاع" يسوع في المجد "ودخوله" في المجال الالهي: فالغمامة التي اخفت يسوع عن انظار البشر تشير الى ان يسوع دخل عالم الله، بعد ان ألغى معهم حضورًا منظورًا، وبدأ حضورًا روحيًا... (راجع "اعمال الرسل" في سلسلة "دراسات في الكتاب المقدس"/٨- دار المشرق: بيروت ١٩٨٧).

لقد كان لوقا عالما بان هناك اسلوبين للتعبير عن سر الفصح: يسوع "قام" و "رُفع"، وكلاهما وجهان لسر واحد، وجهان جوهريان لا ينفصلان؛ واختار ان يضعهما جنبا الى جنب حين قال بان يسوع "قام" و "صعد الى السماء". ويقول الاب شربنتييه: لعلنا اسرعنا في الاعتقاد باننا امام حدثين يتعاقبان في الزمن، بينما نحن امام وجهين لسر واحد؛ وما ذلك الا للدلالة بان الرسل انتقلوا من زمن "الرؤية" الى زمن "الايمان" و "الشهادة".

ملف كانون الاول ١٩٩٠ .... الاب يوسف حبي

الاماكن المقدسة والسلام

في منهاج اعمال "المؤتمر المسيحي للسلام في بغداد"، كانت هناك اربعة بحوث: فبعد "الكنيسة الشرقية والسلام" (للمطران غريغوريوس صليبا) و "المسيحية والسلام" (للاب لويس قصاب) و "الحصار الاقتصادي وحقوق الانسان (للخوري دانيال كيوركس)، كان مسك الختام لقضية ساخنة "الاماكن المقدسة والسلام" للاب يوسف حبي.

ورأينا ان ننشر هذا البحث -بمعظم فقراته- في وقت بلغ تحشيد القوات الاجنبية في ارض نجد والحجاز أَوَجَهُ، وفي منعطف لم يحصل فيه من قبل، وبهذه الكثافة، استقطاب للراي العام العالمي بشان الاحتلال الصهيوني للأراضي العربية، بعد ان لفتت مبادرة العراق السلمية انظار العالم الى ان "ازمة الخليج" لا تنفصل عن "القضية الفلسطينية" ...

والاب حبي الذي اتحف الفكر المسيحي منذ بداياتها، بمقالات دسمة، وافته المنية في حادث مؤسف عام ٢٠٠٠ (انظر ما عكسه عنه كتاب "كتاب رحلوا" مختارات الفكر المسيحي/٩).

لكل انسان مكانه المقدس، في اعماق الذات، وعش الدار، وقلب الديار، وعتبات السماء، يحيا فيه، يرتاح اليه، يتكامل فيه، ويحن اليه. انه مقدس، قبس من قدس الاله، وخدر من الاخدارالسماوية على ارضنا وفي عالمنا وواقعنا. ومن ليس له هذا المكان، فلا مكان له في الوجود الانساني العميق، لان ما يحدد علاقة الانسان بالله باريه وبالكون العظيم "قدسية" لا بد ان تتجسد في عالم الزمان والمكان والجسد، مع تجليها في الفكر والقلب والاعماق.

لذا كانت "الامكنة المقدسة" معروفة وقائمة في جميع المعتقدات والاديان، وفي سائر الازمنة والامكنة، ولدى كل الاقوام والشعوب. ولم تشذ عن ذلك ديانات التوحيد، مع تاكيدها، ولا سيما المسيحية، على العمق الروحي والباطني للمكان والقدسية، وصولا الى تجاوز الحيثيات المتحركة والواقع المادي الجامد، عبر تسام شفاف يدركه الاقرب الى الله، بحيث تترابط القدسية بالمكان، ويتحدان في وصال عميق وفيض، مع بقاء الفارق بين الباطن والروح من جهة، والظاهر والمحدود من الجهة الاخرى.

وطبيعي ان تؤكد الظاهرة الجماعية على تحديد المكان والزمان، فترسخ قدسية بعض الاماكن وما يترتب عليها من انظمة ورتب دينية، بينما يترع الافراد عادة الى قدسية تتخطى كل التجسيدات ال روحية ترفع الانسان الى ربه وتؤهله، باقل ما يمكن من عتبات وطقوس ومراحل، الى الحظوة بفيض نور الهي يغمر العقل والقلب والذات.

وفي هذا البحث نتطرق الى موضوع الاماكن المقدسة: دينيا، تاريخيا، وانسانيا.

اولا- قدسية الله والايمان به تجعل المكان مقدسا

الله قدوس، هو وحده القدوس، كلي القداسة، والقداسة بالكمال. هذا ما جاء في جميع الاسفار المقدسة، في آيات عديدة، وهو ما اقرته اديان التوحيد.

كل ما يمت الى الله بصلة يكتسب طابعا قدسيا مقدسا: اسمه، عرشه، مجده، كلامه، وصاياه، والدين، والاشخاص، والاماكن، نسبة الى المؤمنين بالله القدوس، سواء كافراد، ام كشعب، ام كبشر، وخاصة بشكل واع وحي، اذ يحقق الايمان عندئذ مشاركة بمن نؤمن به، أي بالله القدوس: "الرب عظيم... متعال على جميع الشعوب. ليعترف لاسمك العظيم المرهوب فانه قدوس... ارفعوا الرب الهنا واسجدوا لموطيء قدميه فانه قدوس... ارفعوا الرب الهنا واسجدوا لجبل قداسته فان الرب الهنا قدوس" (مزمور ٥٨).

اما قداسة البشر وما في الارض، فتعني فرز الاشخاص والمواضع والتعاليم والشرائع والعادات والرتب والادوات فرزا يميزها عن سواها، واستعمالها استعمالات خاصة، فيها من طابع القدسية والتقديس بحيث لا يجوز استخدامها الا لاغراض دينية تقرب الانسان من الله.

من ذلك "الاماكن المقدسة"، ارادها الله لحضوره والمتميز بين بني البشر، فيها يقتبل عبادتهم، لا سيما ذات الطابع الجماعي المنظور، ويشركهم في انعاماته وحياته. وقد يغدو المكان مقدسا بفضل كرامة نبي او ولي او شهيد لإيمان او قديس، فينال الموضع كرامة خاصة، ويشترك بالقدسية بحسب قرب صاحب المكان من الله. وتهدف جميع الاماكن المقدسة الى دخول الانسان مع الله، فهي آيات حضوره القدوس، بشكل مباشر او غير مباشر، فيها يدعو الناس باسم الرب، ويستقر الله وسط شعبه بحضور محجوب ومحسوس في آن واحد، فهي اماكن روحية ومادية، حجرية ومعنوية، طبيعية ومقدسة. لذا اقتضى الدنو من الاماكن المقدسة بمراعاة شروط خاصة، اهمها:

١- الاستعداد الديني الذي يفترض الايمان بالمكان وقدسيته.
٢- اتصال الانسان بالله بشكل اكثر مباشرة عن طريق المكان المقدس نفسه.
٣- الاشتراك في قداسة الله الفائقة الفائضة.
٤- توخّي مجد الله مباشرة، او بواسطة أنبيائه واوليائه وقديسيه.
٥- استبعاد كل ما يمنع القدسية او يقلل منها، لا سيما النجاسة والرجس والدنس.

فهي اماكن "مقدسة" بل "حرم" لا يحق لغير صاحبه واهل البيت ان يكونوا فيه، او يتصرفوا كما يشاوون، او يمارسون فيه افعالا مشينة ومؤذية مهما كانت، بل عليهم احترام المكان المقدس كما يحترمون حرم الذات الشخصي الذي لا يحل الا للشخص نفسه او لمن يريده ان يقتحمه؛ وكحرم البيت، لا يحل الا لاهل البيت، بل واكثر من ذلك، لانه حرم الله.

وكما ان المرء يظل على الدوام بحاجة لعيشه الى بيئة واجواء تلائم طبيعته البشرية وتكامله الانساني على جميع الاصعدة، من حضن ام تكتنفه بحنانها وترعاه كما ترعى الدجاجة فراخها،

وكالعصفور في عشه الامن، الى اسرة هي العش والحمى والجنة، ومجتمع اكبر هو القرية والعشيرة والمدينة والوطن، فيه من المقومات والمستلزمات ما يضمن للافراد سلامتهم وحقوقهم ونموهم... هكذا الناس جميعا بحاجة الى عالم سعيد، هو هدف الله في خلقه الدنيا وما فيها، تقوم فيه اماكن مقدسة هي واحات السماء على الارض، فيها من الحرمة والقدسية ما يشيع في النفوس انسام اجواء الراحة والفرح، يصبو اليها بوَلَه انسان عالمنا المعاصر، لا سيما في مثل هذه الايام المشحونة بسموم الانانية والجشع والمطامع والمهدِّدة بشبح حرب مدمرة وشاملة. لذا كانت الاماكن المقدسة اليوم اشد نفعا منها في الماضي وكان وجوب الحفاظ على قدسيتها امرا بالغ الاهمية.

يتم تعيين المكان المقدس، اما عن طريق التمعن في الايات المقدسة التي تامر الناس باتخاذ بمثابة مكان مقدس، او عن طريق التقليد المتواتر بين اصحاب الديانة الواحدة او الديانات، او بواسطة تكريس الموضع برتب طقسية وبركات خاصة. فيتخصص المكان لعبادة الله بشكل مطلق ونهائي.

ثانيا- موضع الاماكن المقدسة من المسيحة والاسلام

ثمة اشارات كثيرة وواضحة في الاسفار المقدسة ومعطيات التاريخ والواقع، تكشف عن قدسية امكنة عديدة، تتباين من حيث الموقع المكاني، ودرجة الاهمية، واكتساب الشهرة، سواء في اليهودية ام في المسيحية ام في الاسلام.

فهناك اماكن مقدسة في الجبل، والوديان، والصحراء، واخرى في المدن، والقرى، والارياف.. وتتميز قدسية الاماكن وفقا لما تتضمّنه من تجليات ووقائع ومآثر ورفات واثار. وتكتسب بعض الاماكن المقدسة شهرة كبيرة لاهمية الموضوع الذي يحتضنه، او بسبب ما يكون قد اضفي على الموقع من تفخيم وابهة واهتمام، بحيث ان ثمة اماكن:

١-تراءى فيها مجد الله بشكل او باخر.

٢-ولد فيها الانبياء والاولياء او اقاموا فيها او رُؤي فيها احدهم.

٣-تضم رفات احد الانبياء او الاولياء والشهداء والقديسين او اثرا من اثارهم.

٤-اقترنت بمرور الزمن بحدث يحمل طابعا قدسيا.

والمرء بحاجة الى مكان طبيعي يستقر فيه آمنا، هو البيت، وليس هذا البيت مسكنا ماديا وحسب، بل مخدعا وخدرا ومجتمعا ووطنا تتطلب مناخات اجتماعية وادبية وروحية. المحروم منها يظل ابد العمر تاعسا مغبون الحقوق.

والانسان بحاجة الى بيت الله، يدخل اليه بصفة عبد وابن، بالايمان والتقى وعمق الروح، يشاد من حجارة حية اضافة الى بنيانه الحجري المادي. فيلتقي البعدان، المادي والروحي، في عمق الذات والوجدان، بفضل مشاعر دينية وقناعات ايمانية وادعية حارة واتحاد روحي بالله.

يعزز هذا كله وعد الله الذي لا يخلف الميعاد. فهو الله مانح الاستقرار والارض والموطن والحضارة والازدهار في ذهنية ايمانية متدينة.

لذا كان اكبر عقاب منه تعالى هو تحطيم المساكن، للافراد والشعب، واقتياد النـــاس الى القفر وحالة البداوة، بينما اجزل نعمة السير به نحو مراع خصيبة وارض الميعاد، بحيث يكـــون الاستقرار الدائم في ارض ومدينة وحضارة هدفا ساميا، لن يبلغه المرء، كفرد ومجموع، وعائلـــة وقوم ووطن، الا في الله.

ويتسامى كل هذا حين نعرف، من معطيات الاسفار المقدسة، ان صورة هـــذا العـــالم في زوال، وان الاقامة الارضية ليست سوى خباء لا بد ان يهجره المرء ليتخذ له مـــسكنا لـــدى الرب. ولا تشذ عن ذلك وقائع العهد الجديد وآياته، اذ ستزول كلها ولا يبقى ســـوى المحبـــة، لان الله وحده باق، حي الى الابد، وكل ما على الدنيا فان. وحين يستوي الله على عرشـــه في السماوات التي لا سبيل اليها، حيث مسكنه القدوس الابديّ وصخرته الروحية الثابتة، فانه يمنح الثبات لكل شيء، ما على وجه الارض وفي عالم الطبيعة، وللاخلاق والايمان والفضائل، وممـــا في اخبية الروح والقداسة والكمال، فتدوم كلمته ويتحقق قصده ووعده وبره، ويستديم ملكـــه وحبه ابد الدهر، ويغدو الانسان البار شجرة صالحة راسخة تظل قائمة يوم القيامة، لان أساس البنيان صخرة الايمان، وحجر زاوية البيت والمكان المقدس امل ومحبة، والسعادة حيـــاة ســـلام وراحة وبركة.

ولتجسيد حضوره الروحي واللامرئي، يختار الله هيكلا له في بيت المقدس، يقيم فيه اسمه، ويعتلن فيه مجده العظيم. لكنه يخلو من مجد الله. اذ يدنسه المرء بشتى اشكال الخطايا، كما فعل الشعب اليهودي قديما، فحل به عقاب الله العادل، ولحق الفساد والدمار بالهيكل المقـــدس. واذ تشتت اليهود في الدنيا، تبع بعضهم تعاليم المسيح يسوع، واتخذت ارض فلـــسطين والامـــاكن المقدسة التي فيها ابعادا جديدة وعهدا وقدسية تختلف عما كانت عليه في الـــسابق. ثم كانـــت للاسلام حرمة خاصة لبعض مواقع القدس ولفلسطين ككل. اما ادعاء الصهاينة اليهود اليـــوم بحقهم في ارض فلسطين، فباطل من اساسه، وواهية هي الذرائع التي يتذرعون بها كادعائهم ان الله وعدهم بأرض فلسطين وأقطعهم اياها ميراثا، لان اسرائيل التاريخي قد اندثر وقـــام العهـــد الجديد، ولان الارض ارض، وملكيتها وقدسيتها فوق جميع الاعتبارات.

ولا ريب ان الوجه الاهم في القضية الفلسطينية، ان للمسيحية مصالح كبرى في الاراضي المقدسة، اذ ليس فيها شبر واحد ليس فيه اثر من اثار السيد المسيح وحياته ومعجزاتـــه، واثـــار رسله الحواريين وتلاميذه الاوائل واعمالهم، بحيث ينبغي اعتبار فلسطين كلها ارضًا مقدســـة، لا القدس وحدها وضواحيها.

وجميع الكنائس والديارات والمزارات واضرحة الشهداء والقديسين اماكن مقدسة متميزة، تأتي في مقدمتها كنيسة القيامة وقبر الخلاص ومذود بيت لحم.

وتتمتع المساجد والجوامع والمراقد الدينية في الاسلام بحرمة مقدسة، يأتي في مقدمتها البيت او المسجد الحرام في مكة، والمسجد النبوي في المدينة، وبيت المقدس في القدس الشريف حيـــث المسجد الاقصى وقبة الصخرة، فهذه الاماكن الثلاثة في القمة من التجلة التي يحملها جميع مـــسلمي الارض في اعماق قلوبهم نظرا لمكانتها وقدسيتها، ولارض الجزيرة العربية حرمة خاصة لدى المسلمين.

ثالثا- احترام الاماكن المقدسة وعدم تدنيسها

ان قدسية الاماكن المقدسة هي في اعتلان مجد الله واظهار آياته واكرام انبيائه واوليائه وقديسيه؛ وهذه واجبات اساسية على الناس المؤمنين بالله والاسفار المقدسة وكرامة الدين الالتزام بها. بل ان العمل على توقير الله واعلاء شأن الدين مسعى شريف، وتوخي مجد الله في الارض والسماء هدف اسمى للمؤمنين، وحق الانسان في ان يؤمن بالله ويعبده وفقا للقاعدة العادلة التي يمليها الضمير واحد من حقوق الانسان التي لها حرمتها الخاصة.

ويعني التقديس، كما رأينا، اتخاذ الشيء او الشخص في موضع اجلال واحترام، نظرا للمكانة التي يتمتع بها، كامتداد لقدسية الله القدوس وحده. وقد اكدت جميع الاسفار المقدسة والديانات على الطهارة كواحد من اهم الشروط المطلوبة لتقديس المكان وكل ما يمت الى العبادة بصلة.

الطهارة مفهوم مشترك في جميع الديانات، تقوم على الاستعداد المطلوب للتقرب من الاشياء والاماكن والاشخاص المقدسة؛ وتشمل النظافة الجسدية والادبية والروحية، وتنظم استعمال كل ما هو مقدس، عادة، بطقوس تزيل النجاسات، وتضفي على الاشياء والاماكن والاشخاص طابعا فيه من الحصانة ضد أي رجس وفساد، فتغدو محرمة بمعنى الفرز والتخصيص اولاً، وبمعنى ما يتوجب على ذلك من علامات احترام وتوقير ثانيًا، كما بمعنى تسامي هذه المقدسات واشتراكها بقدسية الله القدوس ثالثا.

هكذا تتعارض قدسية المكان مع أي فعل فيه من المساس بطهارته.

قال الرب لموسى: "اخلع نعليك من رجليك، فان الموضع الذي انت قائم فيه ارض مقدسة" (خروج ٣:٥). ويمضي السيد المسيح ابعد من هذا، فينادي بطهارة جذرية هي في التقرب والدنو من الله، ليس في هيكله المادي المنظور وحسب، بل في الهيكل السماوي وقدس الروح وخدر الملكوت، لان العبادة لله هي بالروح والحق؛ ومن اغتسل مرة لا يحتاج بعد الى غسل، فقد اصبح كله طاهرا، بنعمة كلمة الله الذي في ملء الزمن كلمنا الله به هدى ونورا وحقا. فكانت الخميرة الجديدة وتجديد وجه الارض بالروح القدس.

ولكننا ونحن على هذه الارض خاضعون لكل ما هو ظاهري ومحسوس وملموس. ومرفوضة هي، في فكر سليم معاصر، نزعة مثالية تصوفية تستهين بالمادة وتنتقص كرامة الجسد وتحتقر الدنيا وما فيها من اشياء ومظاهر واماكن، بل ان لهذه كلها قيمة في ذاتها لا يحق لاي كان نكرانها او التقليل من اهميتها، ولا يجوز بالتالي تدنيسها باي شكل من الاشكال.

موقف السيد المسيح من الاماكن والهياكل المقدسة جليّ في صفحات الاناجيل، فان هذه كلها بيوت لله، ينبغي احترامها وتقديسها. فيها تقام الصلوات والقرابين والرتب الطقسية بخشوع وقدسية، ولا يحق لاي كان الانتقاص من قيمة هذه الاماكن، ولا تدنيسها باي شكل وفعل، كتحويلها الى بيوت تجارة، والا جاء صوت المسيح مدويا وموبخا بشدة: "بيتي بيت صلاة يدعى لجميع الامم، وانتم جعلتموه مغارة لصوص" (مرقس١١:١٧)، بل نرى المسيح

يصنع سوطا من حبال، يطرد به جميع باعة البقر والخراف والحمام، وينثر دراهم الصيارفة ويقلب موائدهم، وهو يقول: ارفعوا هذه من ههنا، ولا تجعلوا بيت ابي بيت تجارة. فيذكر تلاميذه القول الكتابي: "غيرة بيتك اكلتني" (يوحنا ٢:١٤-١٧).

اما سفك الدم في بيوت الله المقدسة، فمن الافعال المذمومة جدا لانها انتهاك سافر لقدسية هذه الاماكن، وعلى الخصوص سفك دماء الابرياء، وقد حذر المسيح يسوع من هذا فعل التدنيس المشين بقوله: "الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون... فانكم تشيدون قبور الانبياء وتزينون مدافن الصديقين، وتقولون: لو كنا ايام ابائنا لما كنا شاركناهم في دم الانبياء. فأنتم تشهدون على انفسكم انكم بنو قتلة الانبياء...".

ويأتي احترام قدسية الاماكن التي يجلها اصحابها من وجوب احترام الانسان نفسه، واحترام كل ما يمت الى الانسان بصلة، وكل ما له قيمة انسانية، روحية كانت ام معنوية ام مادية ام دنيوية، بحيث ان من يدنس أي شيء من كل هذا يكون قد اساء الى الانسان نفسه، ومسّ شعوره وامتهن كرامته. ويتنافى كل هذا مع ابسط حقوق الانسان المتعارف عليها، ويسيء المرء الى الانسان والله في حالة تدنيس مكان ما مقدس له حرمته، متجاوزا هكذا حسن خلق الله للكون والمادة اذ "رأى الله جميع ما صنعه، فاذا هو حسن" (تكوين ١:٣١)، وماسًّا شعور الانسان الديني المؤسس على قناعة ايمانية وشواهد تاريخية واحداث واقعية تبرز بفضلها بعض الاماكن المقدسة بشكل متميز. فيكون أي فعل ينافي استعمالها الاعتيادي ويضاد طبيعتها الدينية مساسًا بالمعتقد وطعنا بالقيم وانتقاصا من الانسان وعلاقته بالله والمقدسات.

ينطبق هذا على كل الاماكن المعتبرة مقدسة لا سيما في درجات متميزة خاصة في جميع الديانات، وينطبق خاصة على القدس والاماكن المقدسة في فلسطين وارض نجد والحجاز وما فيها من احرام. فهذه معلومة القدسية ومحرمة بخصائصها المعروفة، لا يحق لغير الذين يحق لهم تجاوز قدسيتها وحرمها، لان الله والانبياء والاولياء واصحابها اتخذوها مواضع مقدسة، فلا يحل للآخرين امتهانها.

وعلى العكس من ذلك، ينبغي ان يتصف بالطهارة من يدخل بيت الله، وبالتواضع والتذلل، فهو في حضرة الله والمقدسات، وتقديم واجب الاكرام المفروض على الاولاد تجاه الاب الشامل، والتذلل والخشوع في بيوت الله والاماكن المقدسة، والتأمل في قدسيتها وصولا الى تعظيم الله وتكبيره، لان الصلاة المنبعثة من اعماق القلب والوجدان لا بد ان تبلغ عرش الله فيستجيبها برحمته، كقول المزمر:

"انا بكثرة رحمتك ادخل بيتك، واسجد في هيكل قدسك بخشيتك" (مزمور ٥:٨)؛ "يا رب من يحل في مسكنك ومن يسكن في جبل قدسك؟ السالك بلا عيب وفاعل البر والمتكلم بالحق في قلبه" (مز١٤:١-٢).

اما ابشع فعل تدنيس، فهي الحرب واراقة الدماء، سواء على الصعيد الفردي ام الجماعي، وبنوع اخص في الاماكن المقدسة، لذا قرت كل الاعراف عدم استعمال القوة في هذه الاماكن لتبقى ملاجئ آمنة لكل من يحتمي فيها، باعتبار القتل فعلاً مضادًا تماماً لمشيئة الله وصنيعه وتكوين الانسان والمجتمع. ورب سائل يعترض قائلاً: وهل القتل والحرب مسموح بهما في غير الاماكن المقدسة المحرمة؟ والجواب دوما بالنفي، لان الحياة اثمن عطية وقيمة، بل عليها تبنى القيم وكل ما في نظام الكائنات الحية والعاقلة من اسس عمران ورقي وازدهار. من ذلك السلام والخير العام والحقوق والحريات، وفق النظام الرائع الذي وضعه الله لخير الانسان، حين صنع كل شيء بحكمة وخلق الانسان عاقلا حرا، على صورته ومثاله، ونصبه سيدا على الكون عمل يديه (تكوين١، مز٨: ١-٦)، مؤيدا هذا النظام العمل الخيّر والتعاون والاتحاد بين البشر، بفضل محبة اخوية شاملة ترفض الانانية والتطاحن والحروب. ونلقى هذا النظام في اعماق الانسان، في ضميره الذي ينبغي ان يهتدي بنوره كل الحاكمين والانظمة والقوانين. فهو الذي يحقق التوازن حتى التطابق بين مشيئة الله وارادة البشر؛ ومعلوم بان جميع الشعوب والمؤسسات والدول تقر بحق الانسان، ايا كان، في ان يعبد الله وفقا للقاعدة العادلة التي يمليها الضمير عليه، وحقه في ممارسة ديانته على انفراد وجماعيا، بكامل حريته، دون اكراه وضغوط، ووجوب احترام ما يخصصه من اماكن ومظاهر لا تتعارض مع الحقوق المشروعة.

وثمة خصوصية للاماكن المقدسة التي اشرنا اليها قبل قليل، تلك التي يقدسها مسيحيون ومسلمون منتشرون في شتى ارجاء العالم. فلا عجب ان شعر المسيحيون والمسلمون في العالم اجمع بان أي فعل تدنيس لاي من مواقع الاراضي المقدسة والاماكن المحرمة هو تصويب طعنات نجلاء تؤذي مشاعرهم، وطعن بمقدساتهم ومعتقداتهم، ولا غرابة ان تثار حفيظتهم فينهضون صفا واحدا، رغم ميول بعض انظمتهم وتواطؤ حكامهم مع من لا يعبأ بهذه الحرمة. وطبيعي جدا، بل انه لواجب مقدس ان يطالب المسيحيون والمسلمون بالكف عن مثل هذه الاعمال والاعتداءات، ومطالبة الدخلاء مغادرة الديار والاماكن المحرمة، لا سيما اولئك الذين يبغون سفك الدماء وقتل الاخرين. فهؤلاء يقومون بأبشع فعل تدنيس لهذه الاماكن التي ينبغي ان تظل على الدوام في اعلى موقع من الاكرام والتقديس.

رابعاً: نداء لابعاد شبح الحرب وخطر الدمار عن الاماكن المقدسة

السلام، ووحده السلام، يليق بالاماكن المقدسة، وابشع فعل تدنيس لها هي الحرب. لذا كان واجب جميع من يقدس الاماكن المقدسة ان يبعدوا عنها شبح الحرب وكل ما يعكر صفو السلام فيها، وان يطالبوا بذلك حتى من لا يكنون لهذه الاماكن عين الشعور، لان هذا حق من حقوق الانسان المشروعة والمعترف بها عالميا، ولم يشك احد يوما بهذا الحق المقدس، كما لم

يدنس احد يوما مكانا مقدسا له مكانته الدينية وحرمتـه المقدسـة الا الكفـار والملحـدون والبعيدون عن روح الانسانية وقيمها.

لقد كان موقف المسيحية والكنيسة بشكل عام، والكاثوليك بشكل خاص، لا سيما بفم الفاتيكان هو عينه دائما: المطالبة بوجوب احترام الاماكن المقدسة والحفاظ عليها من أي تدنيس وامتهان وتشويه، عملا بما تقتضيه مشيئة الله وتعاليم الدين وحقوق الانسان والاعراف. وتـأتي فلسطين الحبيبة واماكنها المقدسة في مقدمة المواقع التي اكدت الكنيسة على وجوب تقديـسها. لذا شجبت الكنيسة دائما نزعات الصهاينة ومآربهم المختلفة ومحاولاتهم المتكررة لتدنيس هـذه الاراضي والاماكن التي قدسها السيد المسيح بكلامه وحياته ودمه وحبه للبشر، وطهرهـا الانبيـاء والاولياء والاتقياء بسيرهم وقرابينهم وادعيتهم، فاضحت مدينة السلام وواحة زيتون، وقمة مجد.

لعلنا اليوم اكثر من أي يوم اخر بحاجة الى مبادرات سلام، الى زيـارات الى الاراضـي المقدسة والاماكن المحرمة بروح حج ديني مقدس يشارك فيه الالوف والملايين، لكي لا يتناسـى بعض الحاكمين ان اناس عالمنا وعصرنا ايضا ما زالوا يقدسون هذه المقدسات والمحرمات، وانهم يُحلّونها، وتحتل في اعماقهم مكانة كبيرة، ويرفضون ان ينتقص كرامتها كائن من كـان ولاي سب كان، وهم حريصون بل متلهفون لابعاد شبح الحرب والدمار عنها، لانها اماكن سلام.

ونحن نعتقد اننا في مرحلة تاريخية حاسمة، امسى فيها انساننا المعاصر امام اختيارين لا ثالث لهما: اما السلام وتوخي سبله ورسائله وطرقه وبنيان الافراد والمجتمعات والدول والعالم بأسـره على السلام، بدعائم صلبة هي مبادئ العدل والحق، من غير التواء وازدواجية وانانية، فيرتفـع الكيان الانساني والعالمي وفق تصميم الله متناسقا متكاملا رائعا؛ واما السير في ركاب الحـرب ودروبها الملتوية، فالدمار والفناء الشامل وهو كابوس يقض مضاجع انسان اليـوم، ويـؤذي خاصة الضعفاء، الفقراء من الافراد والشعوب والدول؛ والوقوف الى جانب هؤلاء احـق مـن الوقوف الى جانب الاقوياء والاغنياء، وتوخي السلام هو المسعى الشريف والهدف الاسمـى، اذ "ما اجمل اقدام المبشرين بالسلام، المبشرين بالخيرات" (روم١٠:١٥).

ولا يتناسى احدنا من يفقد بيته، يفقد استقلاله، وبالتالي تأثيره الفعال ونفوذه، ويقـوده الامر الى الخضوع والخنوع حتى العبودية والاستلاب وفقدان الهوية والذات.، ويصيب ذلـك بنوع اكبر من يفقد قدسية بيته وحرم دينه، اذ يفقد معنى ايمانه، بل يمس الامر وجوده الاعمق، فيساق الى فقدان اتزانه، ويتصرف على غير هدى، بدافع من ايمانـه واعتـزازه بالمقدسـات والمحرمات. لذا كان من الضروري الامتناع عن أي فعل من شأنه ان يدنس قدسية الامـاكن، التي يقدسها اصحابها، من قدس اقداس الله في مساكنه الى بيوت المقدس والحرام في كل مكان، والى مقدس الذات. فان انتهاكها محظور على الجميع، ومساس بالـشعور الوجـداني وطعـن بالكرامة والدين، وخرق للحقوق المشروعة، ويقتضي الواجب والعدل احترام هذه المقدسـات

وتعزيز مكانتها والذود عنها. انه واجب ديني وروحـــي ومـــدني، علـــى الـــصعيد الفـــردي والاجتماعي والدولي؛ انه واجب الانسان الحق، ومن يسعى اليه، ويجدّ في سبيل تحقيقه، يباركه الله والتاريخ والناس.

فنعم للسلام، لان كل شيء ممكن مع السلام، ولا للحرب، لأن لا شـــيء ممكـــن مـــع الحرب. ونعم لقدسية الاماكن والاراضي المقدسة، لانها واحات ايمان وصـــلاة وقداســـة، ولا لتدنيسها وانتهاكها بأي شكل من الاشكال.

+ انجيل طفولة يسوع

ك٢ — نيسان/ ص١٠ — ١٦(*) الاب بيوس عفاص

+ قراءة ايمانية للحرب

ايار — تموز/ ص٥٨ - ٦٤ الاب بيوس عفاص

● عدد خاص: كشاف ١٩٨١ — ١٩٩٠ (**)

ايلول / ٦٤ ص

– دولة الفاتيكان

آب — ت١/ ص١٠٦ — ١١٢(**) الاب جودت القزي(١)

– الصلاة في كتابات آباء الكنيسة الشرقية

ت١ — ك١/ ١٥٤ - ١٦٠ الاب لويس ساكو

(*) في اعقاب حرب الخليج عام ١٩٩١، وبسبب الحصار الذي رافقها، اضطرت "الفكر المسيحي" إلى تقليص اعدادها الى اربعة —وكانت السبّاقة في الظهور فور انتهاء عمليات القصف والتدمير...

(**) في ايلول ١٩٩١، كانت "الفكر المسيحي" قد اصدرت كشافا ثانيا للاعوام ١٩٨١ — ١٩٩٠ غطى السنوات العشر من المسيرة التي كانت قد تميزت بالعمق والكثافة.

(!) للاب جودت القزي الدومنيكي ٧ مساهمات (من بينها ملف)، وبضمنها إجابة. نشر له مقال في "المختار".

إنجيل طفولة يسوع

لقد اصبح من المسلَّم به ان روايات طفولة يسوع، كما جاءت في كل من انجيلي متى ولوقا، هي من قبيل التفكير اللاهوتي ذي المغزى العميق والاهداف التعليمية، وليس من قبيل "التاريخ" بحصر المعنى. الدراسة التالية كانت قد أعدت لاعياد الميلاد، وها هي تظهر في اعياد القيامة! أليس في ذلك مصادفة سعيدة حين نعلم بان طفولة يسوع لم تُروَ الا على ضوء قيامته، حين جعله الله "ربا ومسيحا"..

الى هذا المناخ الذي يضفي على "انجيل الطفولة" بُعدًا طالما جُرد منه في ما مضى، تدخلنا هذه الدراسة المكثفة.

روايات الطفولة

لا نكشف سرًا اذا قلنا بان مشاهد طفولة يسوع العالقة في ذاكرتنا قد حيكت عبر عملية "تجميع ولصق ومزج" احداث، مصدرها الفصلان الاولان من انجيلي متى ولوقا -ولا اثر لها لدى مرقس ويوحنا- بحيث اصبحنا امام قصة نخالها متكاملة تبدأ ببشارة زكريا وتنتهي بلقيا يسوع في الهيكل، ويحتل الميلاد وظروفه مكان القلب فيها. ولكَم اقترنت بهذه القصة تفاصيل لا يمت بعضها بصلة الى نصوص الانجيل: فلا ذكر للمغارة، ولا للثور والحمار! والمجوس ليسوا ثلاثة! والرعاة لم يسجدوا للطفل! أوَليست اللوحة المتكاملة لـ "قصة حياة يسوع" هي من صنع اللوحات الفنية وبعض "سِيَر" يسوع والافلام؟!

لسنا نعتقد ان هناك من لا يزال يظن بان الانجيليين متى ولوقا كانا شاهدي عيان لاحداث الطفولة -وكلاهما كتبا في حدود الاعوام ٨٠ الى ٩٠- وقد بات واضحا اليوم بان كلاًّ منهما اضفى على روايته لاحداث الطفولة ايمان الجماعة المسيحية في زمنه بشأن يسوع الناهض من بين الاموات، وقد تحققت فيه كل الالقاب المشيحانية التي جاءت على لسان الانبياء. فمن هذا المنطلق سيمكننا ان نتعامل بعمق مع روايات الطفولة بحيث لن تبقى النصوص تحكي لنا قصة، بقدر ما تعرض علينا رؤية ايمانية لهذا الطفل الذي ما انكشفت هويته الالهية الا بعد العنصرة، حين كشف الروح القدس بان يسوع "الانسان الذي أيدهُ الله... قد اقامه.. وجعله ربا ومسيحا" (اعمال٢:٢٢-٣٦)، وفي هذا المناخ ستتخذ قراءتنا النصوص، لدى كل من متى ولوقا، بُعدًا لاهوتيا كان قد خفَت من جرى قراءة سطحية كانت تعطي الاولوية للحدث في ماديته، وتتناسى ما كان يختفي وراء رواية الحدث من معنى ومغزى -وغني عن القول ما كانت تثيره تلك القراءة من مشكلات تاريخية وفي مقدمتها مشكلة الاختلاف بين الانجيليين...

لذا كانت اولى خطواتنا في هذا البحث الاّ نخلط بين نصوص الطفولة، اذ لكل من متى ولوقا مخططه وهدفه في الكتابة، سيما وانهما لم يكتبا للتوثيق التاريخي وانما للكرازة والتعليم والوعظ؛ وبينما كتب متى لمؤمنين جاءوا من اليهودية، كتب لوقا لمهتدين من الوثنية ذوي ثقافة يونانية، فجاءت روايته في اطار تاريخي بهدف اثبات "قوة التعليم" الذي أُعلن قبل ان يُدوّن (لوقا١:١-٤)، لذا يصح ان ندعو روايات الطفولة بـ "انجيل الطفولة"، طالما انها بشرى بيسوع الذي هو منذ البشارة "ابن الله، عمانوئيل، المخلص، ابن داود، المسيح الرب"!

انجيل الطفولة بحسب متى

ينطلق متى من التفكير اللاهوتي ليقول لنا، منذ البدء، من هو يسوع، عبر سلسلة الأنساب (١:١-١٧) التي تكشف عن كونه "ابن داود"[(١)]؛ وللحال تضعنا رواية الطفولة لديه ازاء احداث تستند كلها الى العهد القديم: اطلاع يوسف على امر مريم، زيارة المجوس، الهرب الى مصر، مقتل الاطفال، الاقامة في الناصرة.

ابن داود.. عمانوئيل

بعد النسب يعرض لنا متى رواية الحبل البتولي -تقابلها رواية البشارة لدى لوقا- عبر وحي بواسطة "ملاك الرب" يكشف ليوسف ان "الذي حُبل به هو من الروح القدس". فليس المقصود اثبات الحبل العجيب او تبرير ساحة مريم بقدر ما هو اطلاع يوسف بان الله قد اختاره ليضطلع بأبّوة يسوع الشرعية ويمكّنه بالتالي من ان يكون "ابن داود": "يا يوسف ابن داود، لا تخف ان تأخذ مريم امرأتك". وهكذا يتضح ان متى يريد ان يؤكد على انتماء يسوع الى نسل داود بالرغم من الحبل البتولي الذي لم يكن موضوع شك، طالما ان مريم "وُجدت حبلى... من الروح القدس".

وينهي متى هذا المشهد بنبوءة اشعيا (٧:١٤): "ها ان العذراء تحبل وتلد ابنا ويُدعى اسمه عمانوئيل" ليعلن بان يسوع ينجز نبوّات العهد القديم. وهنا ايضا ليس استشهاده بالنبوءة (وقد قيلت اصلا في مولد حزقيا بن آحاز) لاثبات الحبل البتولي، وانما للتأكيد على مولد ابن من نسل داود -وقد اضفى صفة الالوهية على الطفل المولود من خلال التفسير الذي الحقه بالنبوءة: "أي: الله معنا"، وهكذا اعطى للمشهد بُعدًا لاهوتيا لا شك فيه.

اما الفصل الثاني، فهو يتضمن ٤ احداث ويشكل وحدة متراصة في بنائه حيث يضعنا متى بازاء ملكين: هيردوس ويسوع! فهو يحدد ميلاد يسوع قبيل وفاة هيردوس الكبير (+٤ ق.م)[(٢)] وفق معطيات تاريخية لا غبار على صحتها، ولا سيما في ما يتعلق بنفسية هيرودس وسلوكه العدواني. ولا بد ان اهتمامه بتبيان انحدار يسوع من سلالة داود حمله على جعل من بيت لحم وطنًا ليسوع (بخلاف لوقا الذي جعله في الناصرة، وجعل ولادته في بيت لحم بسبب امر الاكتتاب)، وعلى اعطاء الاولوية ليوسف الذي يظهر له الملاك ويحمل اليه رسالة الهية (بينما تحتل مريم الاولوية بين شخوص لوقا).

كما جاء في الكتب

يقول اهل الاختصاص بان رواية المجوس (قدومهم الى اورشليم ولقاؤهم بهيرودس وذهابهم الى مكان الميلاد يتقدمهم النجم...) تنتمي الى الميدراش[٣] الذي يهدف الى استقراء العهد القديم وابراز انعكاسات مواعيده ونبؤاته في الحاضر. وتجدر الاشارة الى ان اعتقادًا كان قد ساد الاوساط اليهودية بان البرج المسيحاني يحدده نجم بموجبه يولد المشيح، فلا عجب اذا توسع اليهود المتنصرون في هذه الرواية وفق الاسلوب الميدراشي الذي يظهر اعمال الله بشكل مدهش: فيكون المقصود من رواية المجوس ابراز المقاومة التي لقيها يسوع من جانب اليهود، ازاء ايمان الوثنيين في شخص المجوس، ويكون النجم كناية عن المسيح الذي في ضوئه تسير الامم، كما جاء في سفر العدد (٢٤:١٧).

ونكتفي هنا بذكر الموازاة التي جعلها متى بين احداث الطفولة وآيات من العهد القديم: فلدى استشارة هيرودس برؤساء الكهنة عن مكان ولادة المسيح، تأتي نبوءة ميخا (٥:١) عن بيت لحم التي خرج منها يسوع، ابن داود، راعي اسرائيل الجديد؛ اما الهرب الى مصر خوفا من هيرودس، فتقابله آية من هوشع النبي (١١:١): "من مصر دعوت ابني" -وذلك ولا شك توسع ميدراشي في الحدث الفصحي للاعلان بان يسوع هو اسرائيل الجديد الذي أنزله الله الى مصر واخرجه منها بذراع مبسوطة! وما مقتل اطفال بيت لحم والبكاء في الرامة (نبؤة ارميا٣١:١٥) الا لاظهار حنان الله في معاملة يسوع "بكر" اسرائيل اذ ينقذه من المذبحة. وتنتهي الرواية بالاقامة في الناصرة "ليتم ما قيل بالانبياء: انه يُدعى ناصريًا" -ولا اثر لهذه الاية في العهد القديم! فقد تكون اشارة الى تسمية يسوع بعبارة "نصير" بمعنى "فرع" تأكيدًا على تحدره من نسل داود (انظر اشعيا١١:١، زكريا٦:١٢...). وهكذا يتضح لنا بأن استخدام "الشهادات" الكتابية هو فن ادبي هدفه ان يستخرج من العهد القديم استشهادات من شأنها ان ترسخ الايمان بيسوع الذي هو المسيح الذي تحدث الانبياء عنه وأنبأوا بمجيئه ورسموا ملامحه -ولا عجب ان تجري الجماعة المسيحية تعديلات في النصوص الكتابية كي تصبح اكثر مطابقة لصورة يسوع.

انجيل الطفولة لدى لوقا

ان روايات الطفولة في انجيل لوقا (الفصلان١-٢) هي بالاحرى مقدمة لاهوتية مُحكمة تكشف لنا مسبقا وجه يسوع الممجَّد. انها اشبه بمقدمة فيلم يعرض فيها لوقا، منذ البدء، ابرز المواضيع التي سيتناولها في كتابه ذي الجزئين (الانجيل وأعمال الرسل)، ويوجز فيها خلاصة الايمان بيسوع "المسيح الرب" المخلص والسيّد.

بعد البشارة لزكريا الكاهن، يروي لنا لوقا بشارة العذراء ومن ثم ميلاد يسوع وختانته وتقدمته الى الهيكل، ويورد ثلاثة اناشيد على لسان كل من مريم ابان زيارتها لاليصابات، وزكريا بمولد المعمذان، وسمعان الشيخ بفرصة التقدمة.

١-بشارة العذراء (١: ٢٦-٣٨)

يستخدم لوقا في هذه الرواية فنا ادبيا معروفا في العهد القديم هو فن "البشارات"، استلهم فيه قصصا كتابية وتوسّع فيها، نخصّ منها بالذكر: بشارة سارة (تكوين ١٨) وبشارة حنة ام صموئيل (١صمو: ١-٢)... فالمقصود من رواية البشارة الكشف عن اختيار الله لمريم، وهي "عذراء" مغمورة من الناصرة مخطوبة ليوسف الذي "من بيت داود"، كي تصبح أمًا للمشيح! ومن هنا جاء التوازي بين طفولة يوحنا المعمذان وطفولة يسوع، بهدف الكشف عن دور المعمذان واولوية يسوع وتفوقه...

والبلاغ الذي ينقله الملاك جبرائيل الى مريم يتوجّه اليها بصفتها "ابنة صهيون"، رمز شعب الله، ليعلن عن الفرح بافتتاح الازمنة المشيحانية: "افرحي يا ممتلئة نعمة..."! طالما ان الطفل الذي ستلده وتسميّه يسوع هو "ابن العليّ= الملك" الذي "يعطيه الرب الاله عرش داود ابيه... ولن يكون لملكه انقضاء"، وهكذا يتضح بأنه "المشيح" المنتظر الذي سيولد من نسل داود وفقا لنبؤة اشعيا: "ولد لنا ولد: لسلام لا انقضاء له على عرش داود.." (٩: ٦-٧)، وذلك بالرغم من الحبل البتولي الذي سيتم "بحلول الروح القدس".

وتبلغ البشارة ذروتها حين يقترن البلاغ بالحبل العجيب بافتقاد الله لشعبه من خلال تلك القدرة التي "تظلّل" فتجعل العلّي ينصب خيمته في وسط شعبه! فنحن، إذن، ازاء طفل "يكون قدوسًا ويدعى ابن الله" بمعنى انه سيكون خاصّة الله ويجسّد في ذاته حضور الله بين البشر. ألا يلتقي هنا لوقا مع متى الذي طبّق على يسوع لقب "عمانوئيل"؟

٢-ميلاد يسوع (٢: ١-٢٠)

يتفق لوقا مع متى بتحديد بيت لحم مكانا لولادة يسوع، كونها"مدينة داود" الذي من نسله يأتي المشيح. وفيما يحمل الينا لوقا معطيات تاريخية -ولا شك انه تلقاها من الاوساط اليهودية المتنصرة وتوسّع فيها بهدف تعليمي مُستمد من الكرازة الاولى- في ما يتعلق بالتفاصيل المحيطة بالميلاد، فانه سرعان ما يضعنا وجهًا لوجه بازاء بشرى يحملها "ملاك الرب" الى "رعاة"، من اسفل السلّم الاجتماعي: ابشّركم بفرح عظيم يكون لجمع الشعب: ولد لكم اليوم مخلص، في مدينة داود، هو المسيح الرب"! ولسنا نغالي إذا قلنا بان هذه البشرى هي خلاصة الكرازة الانجيلية التي تقوم في المناداة بان يسوع هو "المسيح الرب".

فالفرح الذي يُبَشَّر به الرعاة هو فرح الحدث المشيحاني الذي يجد صداه في اشعيا (٦٠: ٦؛ ٦١: ١) والذي يُعلن "للشعب كله"، اليوم، وفي كل يوم! وإذا كانت عبارة "مسيح الرب" (راجع ١ صموئيل٢٤: ٧) هي المتداولة في العهد القديم، إلا ان المسيحيين الاولين أجروا عليها تعديلاً ليضفوا على يسوع لقب "المسيح" ولقب "الرب" معًا[٤].

ولقد اجاد لوقا حين وضعنا للحال بازاء ليتورجيا حية لتسبيح ذاك الذي بمولده حصل "المجد لله في العلى" وتم "على الارض السلام"، فكانت "مسرة لبني البشر". أليس هذا النشيد الملائكي تعبيرًا عن حضور الله في طفل المذود؟ ألا يرجعّ صدى نشيد طقسي يكرر بدوره

كلمات المزمور١١٧: مبارك الاتي باسم الرب، السلام في السماء والمجد في العلى"؟ -هتاف سيردده التلاميذ يوم السعانين "للملك الاتي" (لوقا١٩:٣٨). وتجدر الاشارة ايضا الى ان لوقا انفرد بعبارة "المخلص"، وقد يكون وضعها على لسان الملاك لتوضيح عبارة "المسيح الرب" لقرائه اليونانيين، علمًا بان لقب "المخلص" كان يُطلق في العهد القديم على الله، ولم يطلق مطلقا على المشيح!

ولعل اروع مشهد في رواية لوقا هو ذاك التناوب بين الملائكة والرعاة في التبشير بالحدث، وهم ممتلئون من "مجد الله": فالملاك "يبشّر" والرعاة بدورهم "يبشرون"، وقد اقبلوا مسرعين؛ فشاهدوا ومن ثم "اخبروا"! ألا يخيل الينا اننا بازاء عمل التبشير الذي يقوم به المرسلون المسيحيون منذ بدء الكنيسة؟ ألا يصح ان نقول بان لوقا رسم صورة للرعاة على مثال المرسلين الاوائل؟

ويبلغ المشهد هدفه حين نجدنا امام فئتين من السامعين تعكس كل منهما موقفها من يسوع ومن تلاميذه من ثم: فئة الذين "سمعوا فأُعجبوا" -اعني الذين تصلهم البشرى (الكلمة) من دون ان تتأصل فيهم- وفئة الذين يتلقوها ويتحاوبون معها، ونموذجهم مريم التي "كانت تحفظ الكلام وتتأمل به"، بحيث يتاح للكلمة ان تتجسد فيهم. ألسنا ازاء موازاة بين "كلمة حدثت؟ ألا يلتقي هنا لوقا بيوحنا الذي كتب في مطلع انجيله: "والكلمة صار جسدًا..."؟!

٣-الختانة والتقدمة (٢:٢١-٣٩)

يبرز لوقا في ختانة يوحنا (= حنان الله) الاتفاق العجيب على تسميته، بينما يُعطى يسوع (= خلاص الله) في ختانته الاسم الذي اطلقه عليه الملاك قبل الحبل به. وللحال ينطلق لوقا من عرف يهودي بشأن "التطهير" بعد الولادة (أحبار١٢:٦) ليدمج في روايته فريضة تكريس الابكار لله (خروج١٣:١)، مستبدلاً فكرة افتداء الطفل المفروضة بفكرة "التقدمة" التي لا تفرضها الشريعة، تأكيدًا منه على ان يسوع هو "قدوس الله"، وان تقدمته الى الهيكل تبرز طابعه الكهنوتي. فلا شك ان لوقا اعتمد معطيات تاريخية متداولة في الوسط الناصري بشأن زيارة مريم لاورشليم بفرصة "التطهير". فوظّفها في اضفاء صفة كهنوتية على يسوع، سواء عبر تقدمته في الهيكل ام عبر مناقشته مع العلماء في سن الثانية عشرة (٢:٤٠-٥٢) حين سيتحدث يسوع، ولاول مرة، عن شؤون "ابيه"!

اناشيد من وضع لوقا؟

ابان استعراضنا لرواية الطفولة بحسب لوقا، لفتت انتباهنا ولا شك اناشيد ثلاثة جاءت على لسان العذراء وزكريا وسمعان، ولا بد ان نتوقف عندها قليلاً لما تحمله من ابعاد لاهوتية استقاها لوقا من القراءة الجديدة التي كانت تقوم بها الجماعة المسيحية للعهد القديم؛ ولن نخطئ إذا قلنا بان بعض فقرات هذه الاناشيد كانت تتردد في صلاة المسيحيين الاولين ورجّع لوقا صداها على لسان شخوصه، إن لم نقل وضعها ونسّقها ووظّفها في خدمة ذلك "الكشف" عن سر المسيح.

أ- نشيد مريم: "تعظم نفسي" (١:٤٦-٥٥)

هذا النشيد الاول يرجّع صدى نشيد حنّة في سفر صموئيل الاول (١:٢-١٠) والذي يوجز، بعبارات مماثلة، عمل الله في تاريخ الشعب وتصرفه مع المساكين والجياع والمتواضعين..، خلافا لتعامله مع الاغنياء والاقوياء والمتكبرين. انه نشيد تشيد فيه مريم، بصفتها "ابنة صهيون"، بعظائم الله التي صنعها لها، ومن خلالها لكل "متقيه" الذين انتظروا خلاصه، وهو "القدوس"، ذو الرحمة من جيل الى جيل، الذي ذكر رحمته لابراهيم ونسله، مُجريًا خلاصًا كان قد وعد به الآباء وجدّده على لسان الانبياء. انه خلاص قلب فيه الله كل الموازين والقياسات البشرية حين أخذ جانب المساكين والوضعاء والمغمورين: "شتّت المستكبرين في قلوبهم"، "انزل الاقوياء عن عروشهم"، "صرف الاغنياء فارغين"... أليست تلك ملامح يسوع كما رسمها لوقا في رواية البشارة، وكما ستتوضح حين يفتتح يسوع رسالته في مجمع الناصرة مختصًا لنفسه صفات "مشيح الرب" التي أعلنها اشعيا الثالث: "روح الرب عليّ لانه مسحني لأُبشر المساكين، وأرسلني لأُنادي للمأسورين بالتخلية..." (لوقا٤:١٨ = اشعيا٦١:١)؟

ب- نشيد زكريا: "مبارك الرب" (١:٦٨-٧٩)

يستند هذا النشيد، كنشيد مريم، الى عبارات واضحة من العهد القديم ولا سيما اشادته باستمرارية رحمة "الرب اله اسرائيل" تجاه الآباء، وثبات "عهده المقدس" عبر "القَسَم الذي أقسمه لأبينا ابراهيم". فمواعيد الله هذه قد تحققت حين ارتضى ان "يفتقد" (يزور) شعبه، مقيما "قرن خلاص في بيت داود فتاه" في شخص يسوع "الشارق من العلى" الذي -وقد أعدّ يوحنا طريقه- جسّد رحمة الله وحنانه حين جاء "ليضيء للجالسين في الظلمة وظلال الموت ويسدّد خطاهم في سبيل السلام". وتجدر الاشارة الى ان نشيد زكريا يربط بين "القَسم" لابراهيم وبين "العبادة للرب بدون خوف، بالقداسة والبر، طوال الايام" بعد ان نكون قد "نجونا من يد أعدائنا"! ولا شك ان في هذا الربط دلالة على ان عبادة الله بحرية وفرح هي من علامات الخلاص المنجَز، بعد ان يكون المؤمنون قد نجوا من اعداء الماضي (الرومان) واعداء الحاضر (اليهود الذين يقاومون يسوع وتلاميذه).

ج- نشيد سمعان" اطلق عبدك (٢:٢٥-٣٥)

في كل الاناشيد، يملأ الروح القدس الاشخاص فينطقون! وها نحن ازاء رجل "نبي" كان ينتظر "تعزية اسرائيل" يمثل ولا شك تيار اليهود الاتقياء التائقين الى مجيء المشيح، وقد اوحى اليه الروح انه لن يموت "ما لم يعاين مسيح الرب". هوذا "يبارك الله" على انجاز مواعيده: "الآن ايها السيد، اطلق عبدك بسلام... فقد رأت عيناي خلاصك". وتشارك حنة النبية بتسبيح الرب والتحدث لمن "كانوا ينتظرون افتداء اورشليم". انه "خلاص" شامل يتوجه الى "كل الشعوب"، يصفه سمعان الشيخ بعبارات من اشعيا: نورا يتحلى للأمم ومجدًا لشعبك اسرائيل (٥٢:١٠؛ ٤٢:٦؛ ٤٩:٦). وازاء هذا الخلاص باتجاه الامم الوثنية، ألسنا في "زمن الكنيسة" كما سيرويه لنا لوقا في سفر الاعمال؟

ويختم سمعان نشيده بنبوة موجهة الى مريم:"انه جُعــل لــسقوط ونهــوض كــثيرين في اسرائيل..."! ذلك لأن "تعزية اسرائيل" لن يكتشفها الجميع، وستجعل الكثيرين في صراع (انه السيف!)؛ بين القبول والرفض بحيث "تنكشف الافكار من قلوب كثيرة"! فأن يكون يسوع آية معرّضة للرفض وبمثابة حجر عثرة، فذلك يصدي لنبوة اشعيا (٨:١٤؛ ٢٨:١٦) فيجعل مــن الخلاص قضية قبول وايمان، كما سيأتي على لسان يسوع للاشارة الى ضرورة الاختيار: "من لم يكن معي فهو عليّ" (لوقا١١:٢٣).

المصادر

- اسطيفان شربنتييه: دليل الى قراءة الكتاب المقدس/ دار المشرق- بيروت ١٩٨٣
- جان دانييلو: اضواء على اناجيل الطفولة/ دراسات كتابية، رقم ١، دار المشرق- بيروت ١٩٨٤
- اوغسطين جورج: دراسة في الانجيل كما رواه لوقا/ دراسات في الكتاب المقدس، رقم ١٥، دار المــشرق- بيروت ١٩٨٩

Donald Juel: Luc- Actes, Ed. du Cerf, Paris 1987

(١) ان سلسلة الانساب الموزعة على ٣ مجموعات من ١٤ جيلا تهدف الى استخدام التاريخ بهدف اعطائه معنى، وهــذا المعنى يكمن في ان يسوع، بميلاده، يحقق المقاصد الالهية كونه "المشيح" الذي يفتتح الازمنة المشيحانية: فهو "ابــن داود، ابن ابراهيم" الذي نحوه اتجهت كل الاجيال في انتظار "خلقة جديدة". ويسوع بحسب متى هو ابــن مــريم، ولكنه ابن داود بواسطة يوسف سليل داود، طالما انه ارتضى، بوحي من الروح، ان يكون ابا شرعيا ليسوع فيمكنه بالتالي من ان يتأصل في شعب الله -وليس من ثم حرج في ان يُدعى "ابن يوسف" طالما ان يوسف هو الذي يعطــي للطفل اسمه!

(٢) اصبح من الثابت ان التاريخ الميلادي، كما حدده ديونوسيوس الصغير في القرن السادس للمــيلاد تــضمن خطــأ حسابيا، فيكون ميلاد المسيح قد حدث في الاعوام ٦-٧ قبل التاريخ الميلادي المعتمد (راجع ف. م. ك٢ ١٩٨٦).

(٣) الميدراش (ومعناه "درس") هو اسلوب كان وعاظ اليهود يستخدمونه لحمل المؤمنين على البحث عــن "تحــديث" كلام التوراة والانبياء. فهو بمثابة قراءة جديدة للكتب المقدسة في ضوء الاحداث الراهنة. والميدراش على نوعين: ما يتعلق بالسلوك (هالاكه من فعل بمعنى "سار")، او ما يخص الرجال العظام (هجاده من فعل بمعنى "قــصّ، روى"). والى هذا الاسلوب الادبي الاخير تنتمي الروايات التي تجعل التاريخ الكتابي راهنًا، وقد استخدمه المسيحيون الاولون في رواياتهم لمشاهد من حياة يسوع: يمكننا ان نُرجع الى هذا التوسع الميدراشي في المعطيات التاريخية مشاهد ظهور الملاك في الحلم ليوسف وللمجوس، ورواية النجم الذي يقود المجوس، ولا سيما الاشارات من العهد القديم التي تدعم الاحداث.

(٤) في الترجمة اليونانية (السبعينية) للكتاب المقدس، ورد لقب "الرب" للدلالة على الله، واصبح من ثم اسما لله (يهــوه). هذا اللقب لم يطلقه متى (٣:٢١) ومرقس (٣:١١) على يسوع الا مرة واحدة، بينما استخدمه لوقا ١٩ مــرة في الانجيل و ٤٠ مرة في اعمال الرسل: وهكذا يصح ان نقول بأن هذا التعبير هو توسع ميدراشي تكــوّن في قلــب الجماعة المسيحية الاولى وعكسه لوقا من ثم، ولا سيما من خلال الخطب، وفي مقدمتها خطبة بطرس يوم العنصرة: "... ان الله قد جعل يسوع هذا الذي صلبتموه انتم، ربا ومسيحًا" (اعمال٢:٣٦).

قراءة ايمانية للحرب

لولا الظلام لما عرفنا النور، ولولا الجوع لما تذوقنا طعم الخبز، ولولا الفاقة لما عرفنا معنى الرخاء، ولولا الموت لما أدركنا قيمة الحياة الخ...!

والسؤال المطروح: ما هو المغزى الذي يتعين علينا ان نستخرجه من الحرب التي ذقنا ونذوق مرارتها ومآسيها...

هذا الملف يحاول ان يقدم، بانتظار قراءات اخرى، قراءة ايمانية للحرب في ضوء كارثة "سبي بابل" التي أعقبت خراب اورشليم عام ٥٨٧ ق. م. -وكان للنبيين ارميا وحزقيال قراءة فيها- سعيا وراء هذا السؤال: وكارثتنا، هل تحولت هي الاخرى الى معجزة؟!

... قصة ايمان!

"الآن ايقنت ان الرب ارسل ملاكه فأنقذني من، هيرودس ومما يتربص بي شعب اليهود"! تلك كانت صرخة ايمان وضعها لوقا على لسان بطرس الرسول الذي اكتشف في نجاته معنى (اعمال١٢:١-١١)! انها قصة كل مؤمن حقيقي يكتشف يوما ما اصبع الله في حياته فيعود يحيا من جديد! وهي، باولى حجة، قصة شعب العهد القديم الذي راح يجدد قراءة حياته في ضوء الايمان باله قاد مسيرته، قراءة عكستها اسفار الكتاب المقدس، ولن نفهمها إلا إذا حاولنا ان ندخل معهم في مغامرتهم الايمانية.. والغريب في هذه القصة اننا لا نفهمها جيدًا إلا بعد انقضاء الامر، ومثلنا في ذلك مثل من يُصاب بكارثة، فيأخذ باعادة قراءة حياته في ضوئها بحثا عن معنى! فكم من احداث لا يكون لها، لدى حدوثها، معنى في حد ذاتها، إلا إذا دخلت في قصة حياتنا ونظرنا اليها في وقت لاحق.. وكلما أعدنا النظر فيها اكتسبت معنى يزداد غنى كلما ابتعدنا عن زمن الاحداث! فالمهم إذ ذاك ليس اعادة صياغة الحدث وماجرياته، بقدر اهمية احيائه عبر استخراج المعنى العميق الذي يتخذه الآن بالنسبة لنا...

كارثة تاريخية قرأها انبياء!

لنا في العهد القديم نتاج ديني وُسِمَ بطابع كارثة عظمى ألّمت ببني اسرائيل: خراب اورشليم عام ٥٨٧ ق. م.! وكان معاصرِين لهذه الكارثة نبيان، ارميا وحزقيال، كان لهما دور فاعل في جعل ايمان اليهود يتخذ منعطفا باتجاه مزيد من العمق والروحانية، نوجزه هنا، مستوحين في عرضنا تحليلاً للأب شربنتييه[١].

ارميا، نبي قبل الجلاء: عرف ارميا ان الخطر قادم من الشمال، من بابل، وان خراب اورشليم قريب -هوذا نبوخذ نصر قد وصل اورشليم عام ٦٠٣- فراح يُعِدّ الشعب للمحنة، في محاولة لاعطاء الاحداث معنى؛ ويكمن فضله انه اعطاها معنى قبل حدوثها أي "قبل فوات الاوان"!

وليس غريبا ان يقف الشعب منه موقف الساخر والمقاوم، إذ لم يطب له ان يسمع منه وعيدًا وتهديدات، بينما كان هناك انبياء كذبة يفرشون له الطريق بالورود! و لم تكن كرازة ارميا سوى لفت الانتباه الى ان الشعب قد ابتعد عن الله، فكان عليه ان يعود إليه ويتوب.. ولكن بعد ان يتم سقوط اورشليم ويذهب العديد من اليهود اسرى الى بابل، يعود الشعب فيذكر ما كان يقوله ارميا، وراح يعطي من ثم للحدث معنى، ويستعيد -وهو في الجلاء- الأمل والرجاء، متجنبا الوقوع في خطر اليأس... (انظر الاطار).

في تموز عام ٥٨٧، بعد حصار دام سنة كاملة، استولى نبوخذنصر على اورشليم ووضع حدًا لمملكة يهوذا؛ وكان قد سبق الخراب احتلال دام عشر سنوات حين اخذ الملك البابلي يفرض الجزية على السكان ويجلي قسمًا منهم الى بابل ويقيم ملوكا يؤدون له الولاء.. و لم يكن الشعب آنذاك يصغي إلى نبيه الكبير الذي لم يكن يهمه ان يحثّ على الخضوع للبابليين بقدر ما كان يهمه ان تبقى الامة بارة، امينة لالهها، حرة في ممارسة شريعته.. وهكذا عُدّ ارميا خائنا، طالما لم يعلّل الشعب بالوعود الوهمية التي كان يكيلها له الانبياء الكذبة، وكان لا بد أن يختنق صوته ولن يعود يُسمع البتة!

حزقيال، نبي ابان الجلاء: وكان على هذا الكاهن ان يمارس رسالته النبوية في بابل، وهو في عداد المسبيين الاوائل الذين اسروا عام ٥٩٧! كان هذا النبي يحرّض اسرى شعبه على التعايش مع البابليين من دون ان ينسوا الههم الذي قادهم طيلة التاريخ "بيد قوية وذراع مبسوطة"، وهو يحنو عليهم حنّو الام على بنيها! وكما ذهبت كرازة ارميا في اورشليم ادراج الرياح، هكذا كان نصيب مواعظ حزقيال في بابل، هو الذي كان يعّنف الشعب على خيانته الدائمة ويلوم الامم على سوء سلوكها.. وحلّت كارثة عام ٥٨٧؛ ورأى المجلوون اخوة لهم قادمين، لا بصفة محررين، وانما بصفة مسبيين نجوا من القتل، وقد اعياهم الجوع والتعب والاهانة، بعد ان قطعوا مسافة ١٥٠٠ كم بمعية آخر ملك لهم فقئت عيناه! انها صدمة نفسية قاسية ستبقى محفورة في الذاكرة الجماعية...

ومنذئذ تحولت كرازة حزقيال الى رسالة أمل ورجاء بذاك الذي سيبقى الها امينا لشعبه، بالرغم من صغاراته وسقطاته.. وراح يحيي الثقة في نفس شعب مقهور ويؤكد له ان الهه لن يدعه فريسة لأعدائه، وان هذا الاله قادر ان يجعل الحياة تدب في العظام اليابسة (اقرا الفصل ٣٧). ولقد بلغت ثقة حزقيال ورجاؤه باله اسرائيل درجة بحيث أنه اخذ يرى بعين الامل اورشليم المستقبل تستعيد مجدها، حين سيرتضي إلهها ان يسكن فيها ويغيّر وجهها...!

"الله سيعاقبكم!"

قد تصدمنا رسالة الانبياء! فانما كثيرا ما تظهر الله الهًا يهدّد شعبه بالعقابات لأنه اخطأ. فهل الكوارث الطبيعية والحروب وظلم البشر.. عقاب من الله؟ لا نحتمل اليوم صورة إله ينتقم.

اليك مثلاً: هذا شاب مولع بالدراجة النارية. في ذات يوم وقع الحادث، وتلاه المستشفى والعناية مدة اشهر طويلة وسهر الاطباء والممرضات... وهناك ممرضة اعتنت به واظهرت له مشاعر غير مهنية! وفي احد الايام تزوّجا. قد يقول هذا الرجل للّتي اصبحت امرأته: "في الحقيقة، من حسن الحظ جرى لي ذلك الحادث، وإلا لما كنت تعرفت اليك". نحن نقبل هذه العبارة، ولكننا نستغل ان يستقبله المرشد الروحي فيقول له: "من حسن حظك...". لماذا؟ في الحالة الاولى يعطي المعنيُّ نفسه معنى لحادثه، من الداخل وبعد فوات الاوان، ولا يُفرض عليه ذلك من الخارج. وفضلاً عن ذلك، فان الحادث يبقى في نظرة شرًا؛ والامر الذي يعدّه حسن حظ هو النتيجة الصالحة التي صدرت عن هذا الشر.

لنحوّل القصة لنقارنها بنصوص الانبياء. لنفترض ان ذاك الشاب كان يعيش، قبل حادثه، حياة فاسدة انانية، وحمله الالم وأشهر العزلة الطويلة على التفكير في فراغ حياته. فخرج من المستشفى شابًا جديدًا عازما على تغيير حياته وعلى وضعها في خدمة الاخرين. وبعد ان يكون قد استعاد ايمانه، فقد يقول لله ذات يوم: "حسنا فعلت اذ سمحت بذلك الحادث، فقد استعدت به معنى لحياتي". نحن نقبل هذه الصلاة، ولكننا نستغل المرشد الروحي الذي يقول له: "ترى ان الله عاقبك...".

فالنبيان هما ذلك الشاب، لا المرشد الروحي. حُلي حزقيال مع الشعب، واضطُهد ارميا فحمل مسبقا عذابات الشعب. انهما يتأملان في الاحداث التي تبقى في نظرهما شرًا، ولكنهما يحاولان، من الداخل وبعد فوات الاوان (او "قبل فوات الاوان" عند ارميا) ان يعطيا معنى لهذه الاحداث، وان ينظرا الى النتيجة الصالحة التي قد تصدر عنها: انهما يحملان الشعب على الاعتراف بانه عاش عيشة سيئة وبان عليه ان يغيّر حياته. فهذه الاحداث ليست، في نظرهما -وان عبّرا عن ذلك بعبارات فجّة- عقابات الهية بقدر ما هي فرص لاكتشاف محبة الله الذي يدعوهم الى حياة جديدة.

أ. شربنتييه

... وكانت الكارثة معجزة!

لسنا نغالي إذا قلنا بأن محنة الجلاء المأساوية قد تحولت في وجدان الشعب المجليّ إلى معجزة! ففي الجلاء ادرك أنه فقد كل شيء، وهل كان في نظر الشعب اليهودي اثمن من الارض والملك والهيكل؟ فبخسرانه الارض التي طالما حلم بها -وهي عنوان بركة الله ورضاه- وبفقدانه الملوكية مع اسر آخر ملك -وهو في نظره ممثل الله لديه وكفيل وحدته-، وبخراب اورشليم ودمار هيكلها -وهو مكان حضور الله بين شعبه وفي مدينته-، هوذا الشعب وحيدًا، اعزل، لاحول له ولا قوة.. فلا عجب إذا ما تسرب إلى قلبه الشك من أن الهه ذاته قد تركه طالما انه اضحى الآن في رحمة او حماية الاله مردوخ ، إله بابل !!

ان المعجزة التي تمت تكمن في ان تلك الكارثة سرعان ما تحولت إلى يقظة إيمانية مكثفة: فعوضا عن ان تقضي على إيمان اسرائيل وتذهب بأحلامه وانتظاراته، ايقظته مُمْتَحَنا بالنار، مُمَحَّصًا، مُطَهَّرا! ولقد استطاعت خمسون عاما من الجلاء (٥٧٨-٥٣٨) او أكثر ان تذكي في ضمير الشعب ايمانا اصيلا باله انقذه مرتين (الخروج من مصر والعودة من الجلاء -وقد تمّت حين وقّع قورش الفارسي عام ٥٣٨ ق. م. المنشور الذي سمح لليهود بالعودة الى ديارهم). ولَكَم اصبح هذا الايمان المختبر بمحنة الجلاء عميقا وثريًّا، ولَكَم اكتسب مزيدًا من الروحانية والديناميكية! أوَلا يحق ان نقول: لولا كارثة الجلاء، لما عرف الايمان اليهودي ذلك العمق الروحي!

لقد كان للانبياء[٢] -وانبياء الجلاء بنوع خاص وفي مقدمتهم حزقيال واشعيا الثاني (الفصول ٤٠-٥٥)-، يعضدهم كهنة ولاويون، دور متميز في احياء الثقة لدى شعب كان بوسع اليأس ان يسحقه.. فعن هذا الدور، كتب الاب شربنتيه يقول: "... كانوا يحثون الشعب على تجديد قراءة تقاليده ليكتشف لرجائه اساسًا. فاستنبطوا معًا طريقة جديدة اشد روحانية لعيش الايمان: ألم يعد هناك هيكل ولا ذبائح؟ يمكنهم إذ ذاك ان يجتمعوا يوم السبت لاكرام الله والتأمل في كلمته. ألم يعد هناك ملك؟ أفليس الله هو ملك اسرائيل الحقيقي الأوحد؟ الم يعد هناك ارض؟ فختان الجسد سيضع حدودًا لمملكة ابعادها روحية..."[٣]

حين كان الشعب، في اورشليم، يمارس ديانته بحذافيرها (الهيكل، تابوت العهد، الذبائح، السبت، الختان الخ...) سبق لارميا ان أنبأ بان الله سيقضي على جميع هذه الممارسات/ الضمانات، مؤكدا بأنه يبتغي "ختان القلب" (٤:٤؛ ٩:٢٤)، وانه مزمع ان ينجز "عهدًا جديدًا" (٣١) يكون فيه لكل انسان مسؤوليته الشخصية (٣١:٢٩) الخ...؛ وكان حزقيال بدوره، في بابل، يرسم ملامح "ديانة" هي اشبه بسلوكية يهودية مستقيمة مع الله ومع الآخرين، يكون فيها لتوجهات العبادة والطقوس مكانة مرموقة.

وهكذا سجل هذان النبيان الكبيران منعطفا حاسما في حياة شعب الله: "كان ارميا يشدد على الوجه الباطني من الدين، وسيغذّي مثالُه تقوى "مساكين الله"، مع الخطر ان يصبح الذين روحيًا صرفًا. وكان حزقيال يعظ ايضا بدين باطني، مع التشديد على وجه مكمّل وهو ان الايمان لا بد ان يُعبَّر عنه بالجسم، في رتب، مع الخطر ان تُمارَس التوجيهات الطقسية ويبقى القلب غائبا عنها"[٤].

كارثة لا مثيل لها!

لأشهر خلت، عشنا كارثة لم يسبق لها مثيل في تاريخ العراق. فكانت لنا فيها خبرة بأصناف الخوف والرعب والقلق والفوضى... سرعان ما اضيفت اليها خبرة الحصار والحرمان والبطالة، والفقر والجوع... وحتى بسط اليد طلبا للمعونة! وكانت بوادر هذه المأساة قد ارتسمت منذ ٢ آب الماضي، وابينا آنذاك ان نصدّق بأن حربا مدمّرة ستنفجر في فجر يوم ١٧ ك٢ ١٩٩١، وكنّا نصف بانبياء الشؤم اولئك الذين قالوا بأن حربًا على الابواب!!

ليس الهدف من هذا المقال ان نبحث الاسباب القريبة او البعيدة التي كانت وراء هذه الحرب الضروس التي لم يكن يُخيّل لأحد أنها ستتمّ بتلك الضراوة، فتحدث تصدّعًا لا مثيل له في بنية العراق الفوقية والتحتية، وتترك جروحًا هيهات لها ان تلتئم، وتخلّف ازمات تصعب معالجتها...، وانما ان نلقي نظرة عميقة، في ضوء الايمان، على الآثار والمردودات التي كان لهذه الحرب في وجداننا الانساني وضميرنا المسيحي، منطلقين من قراءة ثانية لما حلّ بنا، على مثال القراءة التي قام بها مجلّوو بابل في اعقاب خراب اورشليم، تلك الكارثة التي ذهبت بكل ما كانوا يظنونه ضمانات أكيدة لايمانهم!

لقد أودت الحرب الكارثة ببنية العراق وحطمت أحلامه وتطلعاته وعرقلت فيه، لسنين طويلة، مسيرة البناء والتقدم... انها، من جهة، عرّضت وحدته وسيادته للخطر، وقد اخذنا نتوجس شرا في "احتلال" لا يعلن عن اسمه في الشمال، وفي "المطامع" التي ايقظتها خيراته وثرواته الغزيرة...؛ وهي من جهة اخرى احبطت لدى المواطنين مساعيهم التنموية، وقلبت رأسًا على عقب برامجهم ومخططاتهم، وحطمت فيهم كل أمل للعمل والبناء والتعلق بالارض... وقد كان وقعها اليما على العوائل الفقيرة او ذات الدخل المحدود، وقد سُدَّت امامهم سبل النهوض او التطلع الى ازمنة الخير والرخاء! ولكم كان اثرها بليغا على اولئك الذين كانوا يتطلعون الى مناخات ثقافية جادة يتاح فيها لمواهبهم وقدراتهم الفكرية والادبية والفنية ان تنمو وتزدهر!

واذا كانت الحرب لم توقظ، والحمد لله، النعرات الدينية بين المسلمين والمسيحيين، إلا انها افسحت الفرصة لبروز نعرات طائفية مستحكمة في جنوب العراق، واشتعال نار الفتنة القومية في شماله الحبيب!

وفي الفوضى التي تمخضت عنها تلك الحرب المأساة، كم تدنت الاخلاق وذهبت المثل وسُحقت المبادئ.. فكان العنف في احط اوجهه، وكان النهب في ابشع مظاهره، وكان الجشع في اعلى مستوياته.. فيما وصل الغلاء الى اضخم درجاته وبلغت الفاقة ذروتها!! وليس بغريب عن تاريخ الحروب ان تثرى طبقة -ولا سيما حين يتزاوج المال مع السلطة- وتنزل اخرى الى الحضيض! كما ليس بغريب ان يشعر المواطنون بانه لم يعد تحت اقدامهم ارض صلبة يرتكزون عليها، في غياب القانون والنظام. ونضرب صفحًا عن اولئك الذين اختاروا حل السهولة فهجروا الدار، غير مبالين بمسؤولياتهم الانسانية والوطنية والدينية..

هل تحولت كارثتنا الى معجزة؟

قلنا اعلاه اننا غالبا ما لانفهم الا بعد انقضاء الامر، ولا نقول بعد فوات الأوان، لانه لم يفت بعد! واذا كنا نقف احيانا مشدوهين ازاء هذه الحرب المحيِّرة، إلا اننا نعلم علم اليقين انها مسّتنا في الصميم واصبحت جزءًا من حياتنا وتاريخنا؛ فلا يمكن من ثم ألاّ يكون لنا فيها رؤية او قراءة بوسعنا ان نستخرجها الآن، وقد مضت عليها بضعة أشهر. وهذا البعد ذاته سيحملنا على اكتشاف المعاني العميقة التي تضمنتها الحرب وظروفها وملابساتها ومردوداتها... ولنقلها صريحة: انها قراءة في ضوء الايمان -وقد يكون لغيرنا قراءة او قراءات اخرى.. وكم نتمنى عليهم ان ينكبوا على دراسات وتحليلات تتناول الحرب من مختلف جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنفسية... وعلى الصعيدين الدولي والمحلي.[٥]

من رؤية قاصرة للايمان:

"انه عقاب الله لنا.. ألم نكن مستأهلين؟ أليس ذلك جزاء خطايانا وتمرداتنا؟..."! كم سئمت آذاننا مثل هذه المقولات الرخيصة، وهي تضرم النار في الحطب وتجعل من النار نارين! انها تحملنا ولا شك على التمرد على إله كله محبة، ولا يمكنه ان يتحول الى اله الانتقام، واي انتقام؟ بالصواريخ الموجهة باشعة ليزر والقنابل العنقودية..! فاذا كانت تلك هي الرؤية الايمانية للحرب، فانها تبعدنا لا محالة عن الايمان وتجعلنا نرفض ايماننا يرسم لنا صورة لاله يبعث إلينا من الشر -وهل من شر اعظم من الحرب؟!- بقدر ما يبعث من الخير! انها نظرة قاصرة ومشوهة الى الله، ورؤية للايمان مخيّبة بقدر ما هي مخدّرة(٦)!

الى رؤية ايمانية اصيلة:

وتقوم هذه الرؤية في التمييز بين علم الله وارادته، في محاولة لاكتشاف "اصبع" الله في الاحداث وعلامة حضوره فيها؛ وهذا لا يعني ان الحرب كان ينبغي لها ان تندلع لنحصل على هذه الرؤية الايمانية، ولا ان الله ارادها ليكشف لنا عما ينطوي عليها من معان لم تكن بادية في زمن الحرب!! فالرؤية الايمانية تتجلى في النتائج التي يخرج بها المرء، في ضوء الايمان، من الاحداث التي عاشها ولا زال يعيش تبعاتها.. وليس من شك في ان اولى النتائج التي خرج بها كل مراقب نزيه، القناعة بما تفرزه المطامع والمخططات الاستراتيجية، من جانب او من آخر، وما تولّده بعض الرذائل السياسية كالعناد والصلف والكبرياء والعنجهية الخ.. من مآس وويلات على الانسانية! غير اننا نحصر اهتمامنا هنا في لفت الانظار الى المردودات الايجابية التي نتجت عن الحرب، في ضوء رؤية ايمانية ذات ابعاد شمولية، نوجزها في النقاط التالية:

● احساس عنيف ازاء الموت الذي كان قد اصبح رخيصا، بحيث خُيل إلينا انه على الابواب لدى كل صفارة انذار او ابان كل انفجار! ولَكم شعرنا آنذاك بوهن الانسان وتأرجح حياته التي كانت من الموت على قيد شعرة! ولكم ادركنا اذ ذاك مكانة الله في حياتنا، فكان صراخ واستغاثة! وكان هذا الادراك حافزًا لكثيرين الى اعادة نظر جادة في ايمانهم حملتهم الى اهتداء حقيقي وعودة الى حياة الصلاة والالتزام، لا بدافع الخوف بل بدافع الحب! ولكم حملنا تماسُنا مع الموت الى التمسك بالامور الجوهرية في الحياة، بحيث بدت لنا التفاهات التي كانت تنسج حياتنا، وأخذنا ننظر نظرة اخرى الى انفسنا والى الآخرين. واتخذت لدينا بعض المفاهيم والقيم معاني جديدة كالحب والصداقة والمال والسعادة... وكم انتصبت امامنا آنذاك كلمات يسوع: ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟

● شعور عميق بالخير الذي كنا نتمتع به و لم نكن نقيّمه.. ولعلّ في مقدمة الخيور التي عرفنا قيمتها، عطية الحياة، الى جانب عطايا اخرى عديدة كالصحة والسعادة والفرح والانسجام والأمن والطمأنينة والرخاء... ألم نعلم آنذاك ماذا يعني النور والماء والخبز والدفء.. بعد ان حُرمنا من النور والماء، واخذنا نتذوق طعم الخبز والدفء، بكل اشكاله. ولكم اصبحت قريبة وبليغة تلك الصلاة التي علّمنا اياها يسوع: اعطنا خبزنا كفافنا اليوم...! ولكم تعلّمنا ان نفرح لكل عطية او بادرة حب او وقفة تضامن... وكم تعلّمنا بالاكثر ان نشكر - وكنا قد نسينا ان الشكر يزيد العطاء!

● ادراك مرهف لمعنى المحبة والاخوّة والتضامن والمشاركة والاقتسام، بعيدًا عن كل الاعتبارات الدينية او الطائفية او الاجتماعية، سرى في عروق العراقيين، وقد اصابهم الهرب والهلع فحمل الكثيرين من سكان المدن- وبغداد بالذات- الى الهرب من "الغضب الآتي"، في عز الشتاء، واللجوء الى القرى والارياف.. فكانت هزيمة مجنونة قابلتها استضافة رقيقة وحاتمية تميزت بالعطاء والكرم وروح الضيافة الاصيلة وغيرها من صفات المحبة! فلكم بقيت محفورة في ذاكرة الضيوف قصص تجلّت فيها المحبة باسمى درجاتها؟ وقد تجدد هذا التضامن الرائع في اعقاب اعمال الشغب والقمع، حين تجنّد الكثيرون في الوقوف الى جانب المتضررين وحمايتهم ومساندتهم.. ولِمَ لا نقولها: أليست بعض المبادرات هي من قبيل المعجزات؟! الم تكن كلمات يسوع حاضرة في فكر المضيِّفين والمضيَّفين: كنت غريبا فآويتموني.. كنت محبوسا فأتيم إليّ! أوَليست المعجزة هي حين يخرج الانسان من انانيته الضيقة ويدرك ان المحبة هي قضية حق وعدل...؟

●وعي عال راح ينمو يوما بعد يوم باولوية الوطن وقدسية ارضه وثرواته ومكتسباته ازاء الهجمات العدائية، اقترن بشعور عميق بالعزة والسيادة الوطنيتين تجاه الغطرسة الامريكية التي اصبحت سيدة الموقف في العراق وسائر دول المنطقة، كما في كافة دول العالم الثالث! فلكم تألمنا ونحن نرى اجواءَنا مستباحة وارضنا محتلة وخارطتنا معرضة للتجزئة! فبالرغم من الحرب التي كنا ضحاياها، سنبقى نحب هذا الوطن -ولو كان لآخرين خيار آخر اتخذوه تحت ضغوط او تأثيرات انفعالية آنية- وندود عنه، ونعتبر حبنا له امانة في عنقنا مهما كلّفتنا من ثمن! وسنعود، وعلى اسس جديدة، نتجنّد في عملية بنائه ونموّه وتقدمه، سيما وقد ادركنا بالكفاية عدم جدوى التسلّح! وسيسعدنا لو انتفت عنه كل اسباب الانقسام والتجزئة بين المواطنين، فتكون الاولوية في المواطنة لعراقية الفرد اكثر مما لخصوصياته الدينية والمذهبية والقومية... فنحن "جميعا اخوة"، و "الكبير فينا خادم"!

● ادراك اتصف بالشفافية تأصّل لدينا بان ليس للانسان اثمن من حريته، حرية يمارسها دون ضغوط او تأثيرات، وعلى كل صعيد: في الحياة الشخصية كما في الحياة العامة، في الايمان وممارساته المتعددة كما في الادب والفن والصحافة والرأي والتعبير... أوَليست الحرب فرصة لنا جميعا، من اعلى السلم الى أدناه، لإعادة النظر في اساليب التعامل بين الشعب والسلطة في كل اوجه النشاط الانساني، بعيدًا عن الدجل او الملاحقة او القمع، وسائر الرذائل التي ابتلي بها مجتمعنا وفي مقدمتها النفاق والمداهنة والتزلف والكسب الخسيس الخ...

وما ان قلنا "حرية" إلا ولازمتها كلمة "حقوق"! ذلك لان الحرية حق للانسان، ويا ليته يحصل على هذا الحق دون ان يضطر الى انتزاعه، مع حقوق اخرى ليست اقل شأنا: الحق في الحياة والحياة الحرة الكريمة، الحق في العيش بامان وسلام من دون رعب او عنف او قمع، اية كانت الدوافع والحجج... الى غير ذلك من الحقوق الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية... والتي، بضمانها، يضمن الوفاق الوطني! الم يكن يسوع في طليعة صانعي الحق والحرية: ولدت وأتيت الى العالم لأشهد للحق...!

● احساس عميق اخذ يترسخ شيئا فشيئا من ان العدالة يجب ان تأخذ الاولوية في العلاقات، على صعيد الافراد والجماعات والدول: فلا ابتزاز ولا سرقات ولا نهب باية حجة

من الحجج... وهل لنا حاجة ان نعكس ما افرزته وتفرزه المظالم الاجتماعية من شرور، او ان نعطي الدليل على ان الظلم، ايا كان شكله، لا يعمّر طويلاً طالما كان هناك من يفضح الظلم من اية جهة جاء؟! والعدالة، أليست هي ان يأخذ كل ذي حق حقه، دون استغلال او انتهازية او ابتزاز او جشع او احتكار الخ... وكلها اوجه للظلم لا بد ان تزول عن المجتمع العراقي كي يستطيع العراق ان ينهض، وينهض معه العراقيون ذوي عدل ونزاهة واستقامة وصدق واخلاص.

● قناعة مكينة تصاعدت في زمن ما بعد الحرب، حين استمر الحصار الاقتصادي على العراق ونفدت مؤونة الناس من الغذاء، واصبحنا نتلقى المعونات الغذائية الاساسية من اولئك الخيرين في العالم[٧]، والذين، بدافع انساني محض، يقتطعون من مواردهم او افواههم ليغيثوا العراقيين المحتاجين الى لقمة العيش... الا وهي تلك القناعة باننا اصبحنا كلنا "فقراء"، سيما إذا كنا من ذوي الدخل المحدود! قناعة سرعان ما اقترنت بوعي بضرورة التماسك والتضامن في ما بيننا: فكانت مبادرات خيرّة في كل مكان كم كلّفت من جهود وتضحيات، وكم استقطبت من همم ومواهب، خدمة لتلك الكلمة التي ستبقى تدوّي في آذاننا طالما كان هناك من حولنا اناس بحاجة الى قوت او كسوة او محبة او حنان: كنت جائعا فاطعمتموني! فلكم استحوذت علينا متطلبات محبة لا تعرف حسابًا او حدودًا او حواجز...! أليست تذلك هي المعجزة الكبرى؟!

بعد هذه اللوحة المليئة بالتفاؤل، قد نُتّهَم بالطوبائية او السذاجة، وكلنا يعلم ما خلّفته الحرب من مردودات سلبية في الخلق والسلوكية.. وما افرزته من رذائل وامراض، وليست الكآبة أقلها شأنا! فلئن كانت هناك سلبيات -وفي مقدمتها روحية الذل وفقدان معنى العز والكرامة والاباء.. فضلاً عن الميل الى الاستغلال والنهم...-، إلا الها لن تقوى، في نظرنا، على اخفاء ملامح المعجزة التي احدثتها الحرب الكارثة ولا تزال تُحدثها إن كنا نحسن قراءة علاماتها!

تلك كانت قراءتنا للحرب في ضوء خبرة ايمانية كالتي عاشها الشعب اليهودي في الجلاء وما بعده؛ وبوسع آخرين ان يكتشفوا جوانب اخرى لهذه الخبرة، سواء عشناها ام كانت معدّة للعيش. فبالرغم من كل ما أصابنا، يحق لنا أن نرجو ونتطلع، ويقيننا ان لهذا الرجاء، اساسًا ستكشف عنه الايام باذن الله! وإذا كنا نصر على الاحتفاظ بروحية الامل والتفاؤل، فلأننا نريد لعراقنا الحبيب ان ينهض، ونؤمن ان بوسعه ان ينهض إذا ما تضافرت في انبعاثه جميع القوى والارادات الصالحة، مسيحيين ومسلمين، عربا واكرادًا، شعبا وسلطة... وكل غد لناظره قريب!

---

(١) اسطيفان شربنتييه: دليل الى قراءة الكتاب المقدس (تعريب الاب صبحي حموي) دار المشرق- بيروت ١٩٨٣.

(٢) كان بودنا، لولا ضيق المجال، ان نرسم بعمق ملامحهم ونثبت مقاطع من اقوالهم الرائعة في الامل والرجاء، ونتمنى على القراء ان يغتنموها فرصة لقراءة ارميا وحزقيال على الاقل، مع المقدمة التي تتصدرهما في الطبعة الجديدة للكتاب المقدس (دار المشرق- بيروت).

(٣) الدليل- ص٦٤

(٤) الدليل- ص٦٦

(٥) نشير بطيب الخاطر الى مقال افتتاحي صريح للدكتور محسن الموسوي في مجلة آفاق عربية (ايار ١٩٩١) بعنوان "قضية الوطن: بين ضغوط المشروع السياسي الامريكي وبين مهمات النقد الذاتي الداخلي".

(٦) لا يسعنا ان ندخل في مناقشة فلسفية ولاهوتية بشأن "ارادة الله واردة البشر" وقد سبق للفكر المسيحي ان نشرت بهذا العنوان موضوعا للاب يوحنا عيسى (آب/ ايلول ١٩٨٤).

(٧) الى جانب الاعانات الدولية، كان للكنائس والمؤسسات الخيرية نسبة كبيرة من هذه المعونات، ونخص بالذكر مجلس الكنائس العالمي ومجلس كنائس الشرق الاسط ومنظمات الاغاثة الكاثوليكية والمجالس الاسقفية في العديد من البلدان.

- الكنيسة المارونية في لبنان والعالم

ك٢ — شباط/ ص١٠ - ١٦ الاب بولس صفير[1]

+ افسس وخلقيدونية والنظرة المسيحانية المعاصرة

آذار- نيسان/ ص٥٨ - ٦٤ الاب لويس ساكو

- الذكرى المئوية الخامسة لاميركا اللاتينية

ايار — تموز/ ص١٠٦ - ١١٢ الاب جرجس القس موسى

● عدد خاص: الاوخارستيا... شركة واقتسام[*]

آب — ت١/ ص١٤٥ - ١٩٢

- البيئة الثقافية لمسيحيي الشرق/ كتاب

ت٢ — ك١/ ص٢٠٢ - ٢٠٨ رنيه خوام
(تقديم الاب جرجس القس موسى)

(*) اثبتنا في "المختار من الاعداد الخاصة" المقالات التالية من عدد أحاط بالافخارستيا: الاوخارستيا في الكتاب المقدس: خبز للعالم (أ. منصور فان فوسيل)، الاوخارستيا في الجماعة المسيحية الاولى (أ. لويس ساكو)، تطور القداس في الطقوس واللاهوت (أ. يوسف حبي).

(١) للاب بولس صفير الماروني —امين المكتبة البطريركية آنذاك— مساهمة واحدة وهي هذا الملف.

ملف اذار-نيسان ١٩٩٢ .... الاب لويس ساكو

افسس وخلقيدونيا والنظرة المسيحانية المعاصرة

لم يعد خافيا ان انقسامات المسيحيين في الشرق ترجع الى انشقاقات احدثتها قرارات المجامع "المسكونية" الاولى، وبنوع خاص قرارات مجمعي افسس (٤٣١) وخلقدونيا (٤٥١) حيث تكونت في اعقاب افسس جماعات مسيحية اخذت بفكر نسطوريوس بطريرك القسطنطينية القائل باتحاد كائنين في المسيح، وتكونت في اعقاب خلقيدونيا جماعات مسيحية تقول بالطبيعة الواحدة في المسيح... إلا ان هذا الاختلاف في النظرة الى المسيح ترجع اسبابه العميقة الى صراع بين مدرستي انطاكيا والاسكندرية، والى اختلاف في النظرة اللاهوتية التي دافعت عنها كل من الكنيستين الكبريين: انطاكيا ذات النظرة "التصاعدية" التي شددت على انسانية المسيح، والاسكندرية ذات النظرة "التنازلية" التي شددت على التجسد الالهي... وغني عن القول ان هذه الاختلافات "العقائدية"، في ظاهرها، انما هي اختلافات في المصطلحات والمفردات الفلسفية التي تعامل معها اللاهوتان، زادهما حدة المنافسات والتوترات على اختلافها...

الاب لويس ساكو، إذ يدخلنا، في هذا الملف، الى سر هذه الاختلافات، فهو انما يحملنا على تجاوزها حين يرسم ملامح نظرة معاصرة الى لاهوت المسيح هي اكثر قربا من نصوص العهد الجديد.

يشعر المسيحي اليوم نفسه بعيدا كل البعد عن لاهوت المجامع المسيحية الاولى نيقية (٣٢٥) وافسس (٤٣١) وخلقيدونيا (٤٥١)، بسبب اختلاف الزمن والعقلية والثقافة والمفاهيم والاسئلة التي يطرحها سرّ المسيح على ضمير المسيحي. لقد انعقدت هذه المجامع في اجواء كنسية وسياسية واجتماعية وثقافية معقدّة، وراحت تعبر عن وديعة الايمان الواحد بلغة فلسفية اونطولوجية مركزة على كيان المسيح[١] ، وصاغت نظرتها المسيحانية بلغة عُقَدّية ثابتة بحيث غدت شركة الايمان كأنها شركة لغة، والامانة له كانها عملية اجترار؛ الامر الذي خلق تصدعا في الشركة بين الكنائس ولا يزال، في حين كان يمكن التوصل الى اتفاق على جوهر الايمان والقبول بتعددية التعبير اللاهوتي كما هي رغبة الكنائس المسيحية اليوم[٢].

ان لغة اللاهوت المعاصر هي لغة تاريخية تهتم بالحري بمعنى الاحداث وبعطاء الاشخاص والقضية التي يحملونها، وما يهمنا، اليوم، بشأن الايمان بالمسيح هو: ماذا يقول لنا عن الله، وماذا كان فعلُ الله عليه ومن خلاله لاجلنا، وما علاقة الانسان بالانسان، وكيف نقدر بالتالي ان نحقق دعوته لنا (ملكوته) في واقعنا الحياتي الحالي بكل ابعاده.. فكما ان من هذا المنظور تظهر بنوّة يسوع الالهية من خلال تاريخه أي حياته وموته وقيامته في حركة تجسد وصعود متكاملة، كذلك بنوّتنا يلزم ان تنمو تدريجيا حتى نبلغ الى ملء قامة المسيح. بهذا المفهوم لا يبقى الانجيل نصا تاريخيا جامدا ولا كرازة مبادئ فلسفية، انما نحكي بلاغه بلغتنا وظروفنا وفي اطار بيئتنا واهتماماتنا، لا سيما ان البشرى تحمل في عمقها الجاذبية والاستقطاب، وسلطانها نابع من ذاتها ومن حاملها الذي يصبح واياها واحدا، فلا تحتاج الى كل هذه الاساليب التنظيرية التي هي

اقرب الى عالم المثل (الاسطوري) منها الى الشهادة الحياتية. في هذا المقال احاول تحليل لغة وطروحات مجمعي افسس وخلقيدونيا مع رسم ملامح نظرة مسيحانية معاصرة.

• مجمع افسس ٤٣١

انعقد هذا المجمع في مدينة افسس (تركيا حاليا) بناء على طلب الامبراطور ثيودوسيوس سنة ٤٣١ لوضع حد للبلبلة التي اثارتها طروحات نسطوريوس كبير اساقفة العاصمة البيزنطية (قسطنطينية) وردود الفعل لدى الجماعات المحافظة التي تزعمها قورلس كبير اساقفة الاسكندرية (مصر)؛ وقد غذّت العوامل العرقية والسياسية والاجتماعية هذه البلبلة(٣).

اشكالية نسطوريوس كانت حول كيفية اتحاد كائنين اثنين اتحادًا كاملا: أي كيف تمّ في التجسد اتحاد الكلمة بالانسان يسوع. انه سؤال كياني يتعلق بذات المسيح؛ ونسطوريوس ينتمي الى كنيسة انطاكيا والى نظرتها التصاعدية (من الانسان الى الله) والمشددة على انسانية المسيح الحقيقية حتى يغدو بمقدور الانسان المؤمن ان يحذو حذوه(٤). اما خصمه قورلس الذي قاد المجمع بعنف، فينتمي الى كنيسة الاسكندرية ذات الاتجاه التنازلي (من الله الى الانسان) والمشددة على فعل التجسد الالهي كفعل فاصل، ومن هذا المنظور التوحيدي "الشخص الواحد الالهي" يسير منطقيا لقب مريم: "ام الله".

مشكلة المصطلحات

في هذه الاجواء المتوترة لم يدرك الخصمان مشكلة عدم وضوح المصطلحات الفلسفية-اللاهوتية وضوحا كافيا. فلفظة طبيعة استعملها قورلس والاسكندريون بمعنى عيني أي مرادفة للفظة الشخص والفرد؛ في حين فهمها نسطوريوس بمعنى مجرد شامل (فكرة نظرية كمثل الطبيعة البشرية) واعطى للفظة اقنوم معنى عينيا أي نفس المعنى الذي اعطاه قورلس للفظة طبيعة. وراح الاثنان يستعملان هذه التعابير الغريبة اساسا، من دون تمييز.. وفي النهاية اقرّ المجمع طروحات كيرللس ومصطلحاته في قرار عقائدي ملزم حتى قبل السماع الى وجهة نظر الطرف الاخر (قبل وصول الوفد الانطاكي) الذي رفض الانصياع الى القرارات. فعمّت الفوضى الى ان تمّ بين الطرفين (بين قورلس والوفد الانطاكي بزعامة يوحنا) اتفاق حول صيغة موحدة سنة ٤٣٣.

ان نص افسس دفاعي لم يتحاشَ المخاطر التي سرعان ما ظهرت (اوطيخا وخلقيدونيا) ولم يراع الوحدة والتمييز بين الانساني والالهي. وما لا نجده بالقدر الكافي هو كيف ان التجسد اظهر انسانية الله؛ ويعطي النص بالعكس انطباعا على ان الالهي يمتص الانساني ويذوّبه.

• مجمع خلقيدونيا ٤٥١

شدّد مجمع افسس على وحدة الشخص في يسوع المسيح الى حدّ بعيد، من دون ما يميز بدقة بين الالهي والانساني؛ ولم يتحاشَ اوجه الخلط بين الاثنين. وبرزت في هذه الاثناء شخصية

الراهب اوطيخس رئيس احد اديرة العاصمة والذي لم يكن لاهوتيا محنكا بل شخصا محدودا انفعاليا، فراح يرفض ان يكون للمسيح إلاّ طبيعة واحدة متجسدة، مستندا الى قول قورلس "طبيعة كلمة الله الواحدة المتجسدة" والذي اساسا يعود الى القديس اثناسيوس. وعمّ التوتر من جديد في الكنيسة والامبراطورية، فعقد مجمع اولي في افسس سنة ٤٤٩، وحصلت اعمال عنف بين الاطراف، لا بالكلام وانما بالايدي ايضا، ومات فلافيانس كبير اساقفة القسطنطينية من جراء الضربات مما اضطر الامبراطور الى دعوة مجمع اخر في مدينة خلقيدونيا الساحلية عام ٤٥١[٥]. وتوصل المجتمعون الى اعلان صيغة جديدة عقائدية تشدّد على التمييز بين الالهي والانساني مستندة الى وحدة الشخص، واليكم النص الذي يهمنا: "المسيح الواحد نفسه، ابن وحيد، رب، معترف به في طبيعتين اثنتين، دون اختلاط ولا تغيير، دون انقسام ولا انفصال.. بحيث ان اختلاف الطبيعتين لا يزول ابدا بسبب الوحدة.. بل ان خصائص كل من الطبيعتين تظل كاملة وتلتقي في شخص واحد"[٦].

مآخذ على خلقيدونيا

من بين المآخذ العديدة على قرارات مجمع خلقيدونيا اذكر ابرزها:

١- استعمل المجمع لغة تصورية خاصة بالعالم اليوناني غير وافية، واصبحت اليوم الغازا غير مفهومة؛ وتجاهل محاولات الكنائس الاخرى مما خلق انقسامات عميقة بين المسيحيين وجدالات عنيفة، على حساب الايمان الواحد والمحبة الاخوية التي اوصى بها المسيح تلاميذه.

٢- التطرف في دفع حركة المسيحية الاولى في انسانية يسوع الممجدة، على حساب الالقاب الاخرى المفعمة بالمعاني كلقب الرب والمخلص.. وكأن المسيح دخل في صور الالهة الوثنية المخلصة!!

٣- تجاهل المجمع البعد التاريخي الخاص بيسوع، فيقف، كما فعل مجمع افسس، عند ذكر ولادته ولا يأخذ بنظر الاعتبار هوية يسوع الكاملة التي لا يمكن اقرارها الا على ضوء حياته وموته وقيامته.

٤- استعمال مفهوم "الشخص" بالمعنى الضيق غير قادر، باعتقادي، على التعبير عن ما هو الرب الممجد القائم.. كونها لفظة عقلانية لا تستطيع ان تقول ما هو حاسم: سيادة الرب كما جاء في العهد الجديد: الوسيط، ابن البشر، الديّان...

٥- ان النهج الثنائي الخلقيدوني يحمل معنى احاديّا للفظة "الطبيعة"، وكأنه يميل الى وضع الاثنين في مستوى واحد ويترك الانطباع بان ١+١=٢ وهما مربوطان بقناة داخلية لتنسيق العمليات؟ في حين هناك اللاهوت والناسوت وهما ليسا متراصفين! وهل يمكن ان نتكلم عن طبيعة الله؟ اليس الجوهر والوجود قائم. وبحسب هذا المفهوم الثنائي تحرم الطبيعة البشرية من الشخص لان الشخص الالهي هو الذي يحل محلها!! نفس الاسلوب الثنائي نراه يطبق على القربان المقدس: فالخبز والخمر يفقدان جوهرهما ولا يبقى منهما

سوى الاعراض لكونهما يستحيلان الى جوهر جسد المسيح ودمه.. انه فكـر فلسفي متعرج وليس كتابيا، ونقبل اليوم الاستحالة بمفهوم المعنى أي: الخبز والخمر يحملان لنا عطاء المسيح وبذل ذاته لاجلنا، ويدعوانا الى ان نصبح بدورنا خبزا مكسورا لاخوتنا، وهذا يتماشى مع شهادة الانجيل.

٦- سيطرت هذه المصطلحات على العالم المسيحي وجمّدت الاجتهاد اللاهوتي حتى القرن العشرين تقريبا، وانحصر عمل اللاهوتيين في ترجمة خلقيدونيا بدلا من تفسير بلاغ الانجيل المسلّم الينا(٧).

• ملامح نظرة مسيحانية معاصرة

اننا اليوم غير ملزمين بقبول "عُدّة" افسس وخلقيدونيا كما هي من حيث التعبير اللاهوتي لا الايماني؛ كونها "عدة" زمانها وبنت ظروفها، حاولت ان تعبر عن الايمان بلغة الفلسفة السائدة انذاك في الاوساط الخاضعة للفكر اليوناني. وعلينا تقع حاليا المسؤولية في ايجاد "عُدّة" تتناسب وزماننا ولغتنا للمساهمة في تواصل "تسلم وتسليم" وديعة الايمان في الكنيسة؛ آخذين بنظر الاعتبار القواعد التي بها عبّر التقليد الكنسي عن الايمان. هكذا يصبح اللاهوت المعاصر جزءاً لا يتجزأ من التقليد الكنسي. فهو، الى جانب استخدامه العلوم الانسانية كالتاريخ وعلم النفس والاجتماع والفلسفة المعاصرة..، يرتكز على تفاسير الاباء واللاهوتيين السابقين، في امانة على الروحانية المسيحية والخلقيات والراعويات.

ان الرسالة الى مؤمني رومية ١:٣ تبرز بوضوح ملامح هذه المسيحانية: "يسوع ابنه الذي ولد من ذرية داود من حيث انه بشر، جعل ابن الله في القوة من حيث انه روح القداسة، بقيامته من بين الاموات". هذا النص يراعي، بشمولية، الوحدة والتمييز والحياة والقيامة، أي تاريخ يسوع المسيح الذي يصبح تاريخ الله: "من رآني فقد رأى الآب" (يوحنا ١٤:٩) بمعنى ان الله ينكشف في حياة يسوع. ففي يسوع علاقة الانسان بالله معاشة في الذروة وبشكل فريد ووحيد، وفيه نرى الله حاضرا تماما مع كل نتائج هذا الحضور. عاش يسوع كما عاش معاصروه في ظروف سياسية واجتماعية ودينية صعبة.. تأثر بالالم والفرح والعلاقات البشرية.. ولم يفعل شيئا ليسحق مقاوميه او للتغلب عليهم بالقوة.. لقد خضع لظروف حياته حتى النهاية (الموت) امانة على رسالته.. وهكذا ارتفع، بناسوته، طوال حياته، الى الله ابيه في حركة تصاعدية، وهو المعبر الى ما وراء كياننا الخاص الى عالم الله الاب: "انا هو الطريق والحق والحياة"، وبه يصير هذا الانتقال (الصعود) متاحا. هذه هي شهادة الانجيل: "اما يسوع فكان ينمو في الحكمة والقامة والنعمة امام الله والناس" (لوقا ٢:٥٢). وبالتالي اية نظرة لاهوتية الى الانسان، عليها ان تكون امينة للنظرة الى شخص يسوع المسيح نفسه. فالعلاقة داخل يسوع، بين الالهي والانساني، تصبح مقياس علاقة الانسان بالله، علاقة الابن بابيه. انها علاقة روحية وليس علاقة جسدية، كما يتصورها اخواننا المسلمون كنتيجة تزاوج على غرار الآلهة الوثنية..! فالانساني والالهي متميزان ومتحدان، والتمييز لا يلاشي الانساني، كما تدفع الوحدة بالانسان

الى الشوق.. الى الاتحاد بالله، وكما تصبح مقياس علاقة الانسان بالانسان (الاخ): فيسوع هو الابن البكر لاخوة كثيرين، ومن خلاله تسقط كل الحواجز والتمايز. انها فعلا بشرى وعملية نمو دائم، تدريجي، وانتقال متزن، رائع، من حياتنا الاعتيادية، بما فيها من اشخاص واشياء، الى الشركة الفائقة مع الله من خلال الابن يسوع. أليس هذا ما يشير اليه القديس ايريناوس احد كبار اباء الكنيسة (توفي نحو سنة ٢٠٢) بقوله: "جعل الله نفسه ما نحن ليجعل منا ما هو"!

ولكي تكون النظرة المسيحانية شاملة ومتكاملة يجب ان تنطلق:

١- من وحدة الشخص كنقطة الانطلاق والوصول، مع التمييز الواضح بين الالهي والانساني، والحفاظ على الحركتين: التجسد (من الاله الى الانسان) والصعود او القيامة (من الانسان الى الاله)، كي لا نقع في "النسطورية" التي تشدد على الانساني والمرئي على حساب الالهي، ولا في "الاوطيخية" التي تشدد على الالهي والابدي على حساب البشري.

٢- من الحدث: أي مما عاشه يسوع المسيح منذ البداية حتى النهاية، أي القيامة التي تثبت مصداقية رسالته وامانته في كشف الله الاب.

٣- من الخلاص الشامل للبشرية بكل ابعادها (التدبير= مذبرانوثا): فيسوع المسيح يجمع ويدمج البشرية... انها جسده وعروسه، وتاريخها يصبح تاريخه، وتكتمل هذه المسيرة عندما يسلم كل شيء الى الآب (افسس ١: ١٠).

٤- الايمان بيسوع المسيح ورسالته ايمان كنسي، وعملية تسلم هذه الوديعة وتسليمها هي مسؤولية الكنيسة أي الجماعة المؤمنة، لا خارجا عنها.

---

(١) نظرة اباء الكنيسة الاولين كانت نظرة خلاصية (مذبرانوثا) أي مرتكزة اساسا على علاقة المسيح بنا، بصفته بكر البشرية الجديدة. فهو قد حقق الكتب المقدسة ودعا البشر اخوته ليعيشوا بنوّتهم على مثاله، وراحوا من ثم يستعملون تعابير والقابا من الكتاب المقدس والتقليد للتعبير عن هذا الاختبار الايماني. اما المرحلة اللاحقة التي نحن بصددها، فقد اهتمت بكيان المسيح من حيث علاقته بالآب والروح، لذا سميت بالمرحلة اللاهوتية (Theologia) فاستخدمت تعابير فلسفية يونانية لشرح تعابير الكتاب المقدس، وبالغت في ذلك الى حدّ انها شوّهت احيانا مضمونه.

(٢) بسبب افسس انفصلت الكنيسة النسطورية (الاشورية)، والتصدع الذي حصل بسبب خلقيدونيا كان اكبر: فالسريان الارثوذكس والارمن والاقباط رفضوا مقررات خلقيدونيا وظلت الكنائس الاخرى متمسكة بها، فحصل انشقاق في الشركة ومُزقت المسيحية الى كنائس هي فروع من اصل واحد!

(3) Th. CAMELOT, Ephèse et Chalcédoine, Paris, p. 39ss.

(٤) اتجاه مجمع نيقية نفسه كان اتجاها تصاعديا أي من هذا الانسان المحدد زمانيا ومكانيا يسوع المسيح، يتخذ الله وجها بشريا؛ ومن خلال تمسكه بارادة ابيه وبرسالته يصعد (بقيامته) الى يمين الآب.

(5) CAMELOT, P. 80ss.

(٦) فاضل سيداروس: يسوع في تقليد الكنيسة، دار المشرق (بيروت) ١٩٨٩، ص٩٢-٩٤، وايضا: B.SESBOUE, Jésus- Christ dans la tradition de l' Eglise. Desclée 1982, p. 70.

(٧) من بين اللاهوتيين الكاثوليك البارزين الذين بينوا مساوى خلقيدونيا، نذكر كارل راهنر، كسبار، بوويه وهانس كونك... ومن بين البروتستانت: بولتمان وربينسون ومولتمان... للمزيد من هذه التحليلات اللاهوتية طالع:
Visages du Christ: Les tâches présentes de la christologie, in RSR, tome 65 (1977). pp. 2-66

- الكنيسة الانطاكية السريانية الارثوذكسية

ك٢ — اذار / ص٩ - ١٥ المطران اسحق ساكا(١)

- الفكر اللاهوتي المسيحي ومراحل تطوره

نيسان — حزيران/ ص٥٧ - ٦٣ الاب لويس ساكو

- بين روما واللاهوتيين

تموز — ايلول/ ص١٠٥ - ١١١ الاب البير لونشان اليسوعي

+ الصلاة الربية... صلاة المؤمنين

ت٢ — ك١/ ص١٥٣ - ١٥٩ الاب بيوس عفاص

(١) للمطران سويريوس اسحق ساكا مساهمة واحدة وهي هذا الملف.

الصلاة الربية صلاة المؤمنين

الصلاة الربية هي اول صلاة تلقّنها المسيحي منذ صغره، وتلاها ويتلوها مرارًا كل يوم، وهو واثق من انها "صيغة" صلاة تتمتع بالمهابة والقدسية طالما ان يسوع نفسه هو الذي علّمنا اياها، وحفظها لنا الانجيل من ثم. انها ولا شك اعظم صلاة يعتز بها المسيحيون كونها علامة وحدتهم. إلا ان عظمتها تكمن في كونها صلاة لا تنحصر في "صيغة" بقدر ما هي نموذج لما ينبغي ان تكون عليه الصلاة، والصلاة المسيحية بشكل خاص!

انها صلاة ذات مضمون في منتهى العمق، ويؤسفنا ان يكون التكرار والتلاوة السريعة قد حجّما هذا المضمون او اخفيا ابعاده. فكان لا بد لنا ان ننكب على تحليل دقيق لنصّها -وقد وصلنا بثلاث صيغ!- في محاولة جادة للاهتداء الى الصيغة الاكثر قرباً من الصيغة التي فاه بها يسوع، بلوغا الى اكتشاف المعاني العميقة التي تختفي وراء المفردات والتعابير.

لنقلها منذ الان اننا سنتبع عن كثب، وبدرجة رئيسة، دراسة مكثفة عن الصلاة الربية للاستاذ يواكيم جرمياس[١]، احد كبار المفسرين اللوثريين الالمان للعهد الجديد.

الصلاة الربية في ثلاث صيغ

نحن نتلو الصلاة الربية بحسب ما جاءت في انجيل متى، وقلما تساءلنا عن صيغتها المقتضبة في انجيل لوقا! وقد يجهل الكثيرون ان لنا صيغة ثالثة قريبة من متى جاءتنا في الديداكيه (تعليم الرسل) من نهاية القرن الاول، مذيّلة بحمدلة وقد جاء فيها تحريض على الصلاة "كما طلب الرب في انجيله"، وان يتم ذلك ثلاث مرات في اليوم! ومن الجدير بالذكر ان الصلاة الربية كانت، على حد تعبير جرمياس، "محفوظة لاعضاء الكنيسة الكاملين"، ولم يكن يحق للموعوظين ان يتلوها في اطار الاوخارستيا الاولى بعد عماذهم! ولذا فهي تدعى "صلاة المؤمنين" وتعد من كنوز الكنيسة الاكثر قدسية، تحيطها رهبة كبيرة، وتدلّل عليها التوطئة التي تسبقها في معظم الطقوس:... وامنحنا يا رب ان نتجاسر ونقول: ابانا الذي في السماوات...

وهذا جدول بالصيغ الثلاث[٢]

واول ما نلاحظه في هذا الجدول الازائي اقتضاب صيغة لوقا، مما يطرح على الفور مسألة النص الاصلي[٣]. ولنبدأ بوضع النصين في الاطار الذي جاءا فيه لدى كل من متى ولوقا، وهو اطار من الحديث حول الصلاة. ففي انجيل متى تأتي الصلاة الربية في اواخر "العظة على الجبل"، وفي اطار شجب لاشكال التباهي التي تتخذها الممارسات الثلاث (الصدقة والصلاة والصوم).

ففيما يخص الصلاة نجد تعليما بثلاثة عناصر: أ- عدم التظاهر، ب- عدم الثرثرة، ج- الغفران المسبق والمصالحة. وهكذا تصبح الصلاة الربية نموذجًا للصلاة التي يريد يسوع ان تمتاز بها صلاة تلاميذه.

لوقا (١١:٢-٤)	متى (٦:٩-١٣)	ديداكيه (٨:٢-٣)
ايها الآب	ابانا	ابانا
	الذي في السماوات	الذي في السماء
- لِيُقدس اسمك	- لِيُقدس اسمك	- ليتقدس اسمك
- ليأت ملكوتك	- ليأت ملكوتك	- ليأت ملكوتك
	- ليكن ما تشاء	- لِيُعمل بمشيئتك
	في الارض كما في السماء	على الارض كما في السماء
- ارزقنا خبزنا	- ارزقنا خبز يومنا	- اعطنا خبزنا اليومي
كفاف يومنا	اليوم	اليوم
- واعفنا من خطايانا	- واعفنا مما علينا	- واعفنا مما علينا
فأنناَ نعفي نحن ايضا كل من	فقد أعفينا نحن ايضا لمن لنا	كما أعفينا نحن غيرنا مما
لنا عليه	عليه	لنا عليه
- ولا تعرضنا للتجربة	- ولا تعرّضنا للتجربة	- ولا تدخلنا في تجربة
	- بل نجنا من الشرير	- لكن نجنا من الشرير
		لان لك القدرة والمجد
		ابد الدهور.

اما في انجيل لوقا، فنجدها مدرجة في اطار تعليمي حول الصلاة يتضمن اربعة عناصر: أ- استجابة لطلب تلاميذ رأوا معلمهم يصلي (١١:١)، ب- مثل في الصديق الذي يلح في الطلب (١١:٥)، ج- توجيهات بصيغة الامر: اسألو تعطوا.. (١١:٩)، د- خاتمة تكشف عن الآب الذي يمنح العطايا الصالحة لابنائه -لا بل الروح القدس (١١:١١).

وينسب جرمياس اختلاف الاطار بين الانجيلين الى اختلاف الناس الذين يتوجهان اليهم: ففيما يتوجه متى الى اناس تعلموا الصلاة منذ طفولتهم وهم بحاجة الى الخروج من الرتابة (جماعة مسيحية من اصل يهودي)، يتوجه لوقا الى اناس هم في بدء الطريق الى الصلاة ويحتاجون الى الدعم والتشجيع (جماعة مسيحية من اصل وثني). ويخلص الى القول باننا "بازاء نصينّ لكنيستين: فينقل لنا كل انجيلي الصلاة الربية بحسب النص الذي كان يتلى آنذاك في كنيسته". وفي بحثه عن "التأليف الاصلي"، يتناول جرمياس المسألة من وجهتين:

الاقتضاب يشفع في اصالة نص لوقا من جهة، والمضمون المشترك الذي، في نص متى، يتميز بتعابير ترجح اصالته من جهة اخرى.

نحو كلمات يسوع في الصلاة الربية

ان ما يرجّح الاصالة في نص لوقا هو ايجازه، سيما وان "اضافات" متى متضمنة كلها في صيغة لوقا القصيرة، إذ يستحيل ان يجسر احد على الاختزال في صلاة علمها يسوع. اما

الاضافات، فهي سمة ملازمة للنصوص الليتورجية التي تسعى الى التوسع وتهدف الى إحداث ايقاع في العبارات، وقد جاءت كلها في النهايات: في نهاية النداء (أبّا.. الذي في السماوات) وفي نهاية الامنيات (ليكن ما تشاء.. في الارض كما في السماء) وفي نهاية الالتماسات (... بل نجنا من الشرير). وهذه الاطالات هي التي جعلت نص متى ينقسم الى ٦ طلبات (وليس ٧): ٣ طلبات بصيغة الامنية، تقابلها ٣ طلبات بصيغة الالتماس، علما بان الطلب التضاددي الاخير "بل نجنا من الشرير" هو من قبيل التوسع في الفكرة ذاتها التي تتعلّق بالتجربة.

فاذا كانت كنيسة الامم قد حفظت لنا اقدم نص للصلاة الربية (لوقا)، فلقد اعطت الكنيسة اليهودية المسيحية صيغة جديدة لها بحيث "فرض نص متى ذاته على الكنيسة جمعاء كونه الاكثر زخرفة"، بحسب تعبير جرمياس الذي لا ينفي، مع ذلك، احتمال صيغتين علّمهما يسوع في مناسبتين مختلفتين! اما بشأن المضمون المشترك بين النصين. فان التحليل اللغوي الذي يقوم به يلقي ضوءاً على مسألة النص الاصلي؛ وتتمحور اكتشافاته حول بعض الاختلافات في ما يتعلّق بالخبز الكفاف من جهة، وباعفاء الدَين من جهة اخرى، وهذه الاكتشافات هي لصالح اسبقية صيغة متى:

أ- **الخبز الكفاف**: تنص صيغة متى "ارزقنا اليوم خبزنا كفافًا (للغد)" حيث يذهب التركيز الى التضاد "غدًا/ اليوم"، في حين ان صيغة لوقا "ارزقنا كل يوم خبزنا كفافًا" تجعل "اليوم" يمتد الى "كل يوم" بحيث يبدو ان التضاد "غدًا اليوم" قد أُزيل لصالح توسع في طلب الخبز لكل يوم!

ب- **اعفاء الدين**: يأتي موضوع الغفران بحسب متى بصيغة " اعفُ لنا ما علينا"، بينما يصبح في صيغة لوقا "اغفر لنا خطايانا". ففيما يترجم متى لفظة "حوبا" الارامية (ومعناها "دَين" بمعنى الخطيئة) بعبارة "ما علينا"، يستبدلها لوقا بكلمة "خطيئة" (وإن كانت لفظة "حوبا" لا تستعمل باليونانية بمعنى الخطيئة)، ولكنه يعود في الشطر الثاني فيترجم بعبارة توحي بوجود "الدَين" في الاصل: "... فاننا نعفو لمن لنا عليه"!

ويختم جرمياس تحليله الدقيق بتقريب التاليفين للصلاة الربية فيقول: "ان نسخة لوقا قد حفظت لنا الفحوى القديم، نظرًا الى الطول، بيد ان نص متى هو اقرب الى الاصل في صياغته للقسم المشترك". ويخلص الى اقتراح صيغة يحتمل ان يكون يسوع قد تلاها بلغته الارامية، حيث يبرز "البيان باشياء متوازية، والايقاع ذو الارتفاعين، والقافية في الخطين الثاني والرابع":

- أبّا (ايها الآب)	
- يتقدّش شماخ	**تيتي ملكوتاخ**
(ليُقدّس اسمك)	**(ليأت ملكوتك)**
- لحمان دْلَمحار	**هب لان يَوما دين**
(خبزنا للغد)	**(اعطنا هذا اليوم)**
- وشبوق لان حوبينَن	**كد شبقنن لحيّا بينَن**
(واعف لنا ديوننا)	**(كما نعفو للمدينين إلينا)**
- ولَنْ تعّلينَن لنسيون	**(ولا تدخلنا في التجربة)**

وبعد ان اصبحنا بازاء صيغة موحّدة تستند الى نص لوقا القصير مع مفردات مستقاة من نص متى، يجدر بنا ان ننكب على فحوى هذه الصلاة الرائعة فنكتشف اننا لسنا ازاء "صيغة" نتلوها ونرددها، وانما ازاء نموذج مثالي لما ينبغي ان تتضمنه كل صلاة نرفعها الى الله، حين نجسر ان ندعوه، على مثال يسوع، "آبّا" (ايها الاب الحبيب، بابا). ولذلك ينبغي ان نتمسك بالاطار الذي جاءت فيه الصلاة الربية في انجيل لوقا حيث نقرأ: "وكان يصلي في بعض الاماكن، فلما فرغ قال له احد تلاميذه: يا رب، علّمنا ان نصلي كما علّم يوحنا تلاميذه. فقال لهم: اذا صلّيتم فقولوا..." (١١:١). وهكذا لم يعلّم يسوع صيغة بقدر ما علّم اسلوبا ونهجًا في الصلاة ضمّنهما كل المشاعر والامنيات الاساسية التي ينبغي ان تحتويها كل صلاة حقيقية. وبهذا المنظار تصبح الصلاة الربية خلاصة لما تتسم به رسالة يسوع من ميزات، ولما ينبغي ان تتسم به حياة التلاميذ من سمات...

صلاة ذات اربعة محاور

في استعراضه لمعاني الصلاة الربية، يتناول الاستاذ جرمياس اربعة محاور رئيسة تكشف ما ينطوي عليها من أبعاد:

١-النداء الافتتاحي: "آبّا"- ايها الاب الحبيب

٢-الامنيتان المتوازيتان: ليُقدَّس اسمك.. ليأت ملكوتك

٣-الالتماسان المتوازيان: ارزقنا اليوم خبزنا للغد، واعفنا.. كما نحن نعفو لمدينينا

٤-الالتماس الاخير (طلب الحماية): ولا تدعنا نسقط في التجربة[٤]

١-النداء: "آبّا" ايها الاب الحبيب

إذا كان الله قد دُعي آبًا في ١٤ آية من العهد القديم، إلا انه لم يجرأ احد قط ان يناداه بلفظة الالفة الحميمة "آبّا= بابا" التي ينادي بها الطفل اباه! ذلك ما فعله يسوع في صلاته! وارجع الانجيليون صدى هذا النداء وترجموه بعبارة "ايها الآب، ابتاه، يا ابت" -وكان لوقا اكثر من أصدى لصلاة يسوع ومناداته للرب بلفظة "آبّا" (١١:٢٥؛ ٢٢:٤٢؛ ٣٤:٤٦...). ومناداة يسوع "الطفولية" للآب هي، على حد تعبير جرمياس، "بمثابة التعبير عن معرفة الله الفريدة التي كان يمنحه اياها الآب، وبمثابة التعبير عن سلطاته الكاملة لكونه الابن. ان لفظة [آبّا] هذه هي التعبير النهائي عن سر رسالته". وسيكون بوسع يسوع -وقد نال من الآب ملء معرفة الله- ان يمنح تلاميذه وكل اتباعه الحق في مناداة الله بدالّة، على مثاله، مُشركًا اياهم في بنوّته الالهية وفي القدرة على التحدث الى الله بثقة الابناء، من دون تكلف او تصنّع. وفي هذا الاطار نفهم ما كتبه القديس بولس الى اهل روما: "لم تتلقوا روح عبودية لتعودوا الى الخوف، بل روح تبنٍّ به ننادي "آبّا" يا ابت" (٨:١٥). ومن البديهي اننا لن نقوى على تلك المناداة ما لم "يرسل الله الى قلوبنا روح ابنه" لَينادي فينا "آبّا" (غلاطية٤:٦)[٥].

٢-الامنيتان المتوازيتان: لِيُقدّس اسمك.. ليأتِ ملكوتك

هاتان الامنيتان تمثلان وجهين لما ينبغي على الابن ان يقوله لأبيه السماوي. انهما يحملان مضمونا متكاملاً: فأن يُقدّس اسم الله، فذلك يفضي الى القول بان على البشر ان يمجّدوه ويسبحوه ويطلبوا اليه ان يوطد ملكه عليهم ويحقق فيهم مواعيده الخلاصية... وحين نقول ان الله يقدس اسمه. فمعناه انه يُظهر مجده ويكشف عن ذاته مخلّصا لشعبه. ويبرز جرمياس القربى الادبية القائمة بين الامنيتين وصلاة "قدّيش" الارامية القديمة التي كانت تختم بها الصلاة في مجمع اليهود: "ليتمجد ويتقدس اسمه العظيم في العالم الذي خلقه بحسب مرضاته. لينصرَ ملكوته في حياتك وفي كل ايامك وفي حياة كل الشعب، سريعا وفي وقت قريب. وقل: آمين".

فمن خلال اوجه الشبه هذه يتضح ان ما يتوخاه المؤمن في صلاته، هو اعتلان ملك الله في آخر الازمنة؛ ويقول الاستاذ جرمياس: كما يرافق الاكرام والتبجيل حفل التنصيب لملك ارضي، هكذا ستكون الحال بالنسبة الى مجيء الرب. فالناس سيستقبلونه ويؤدون له الاكرام الواجب ويقدسون اسمه: "قدوس، قدوس، قدوس، الرب الاله القدير الذي كان وهو كائن وسيأتي" (رؤيا٤:٨)، وسينطرح الكون كله من ثم على قدميه: "نحمدك ايها الرب... لأنك أعملتَ قوتك وملكت..." (رؤيا١١:١٧). وهكذا نرى ان الامنية الثالثة التي يلحقها متى بالامنيتين لا تضيف شيئا الى الجوهر، لأن الامنيتين تستدعيان "الاكتمال النهائي، الساعة التي فيها سيُمَجَّد اسم الله المهان والمدنّس، ويعتلن ملكه حسب ما كان موعودًا: "فاقدس اسمي العظيم الذي دُنّس في الامم..." (حزقيال٣٦:٢٣).

وفيما يصف جرمياس هذه الامنيات بانها صرخة من عمق البؤس، يرفعها تلاميذ يسوع من اجل اعتلان مجد الله، ومجد الله لا ينفصل عن خلاص البشر: فلا مجد لله إلا في خلاص البشر! يعود فيبرز الطابع الذي يميز صلاة المسيحي عن صلاة قدّيش اليهودية، قائلاً: "ان الجماعة التي تصلي بكلمات الصلاة الربية ذاتها، فهي تعلم ان المنعطف الكبير قد أُتخذ: فلقد باشر الله بعمل نعمته وخلاصه، وليس عليها من ثم سوى ان تطلب الاعتلان الكامل لما نالته".

٣- الالتماسان المتوازيان: الخبز والغفران

أ- خبزنا للغد اعطنا اياه اليوم:

يتكون الالتماسان -بخلاف الامنيتين- من جزئين تربط بين مضمونيهما صلة وثيقة، ويشكلان العنصر الجديد الذي

اضافه يسوع الى طلبات "قدّيش"، فيحتلان هكذا مكانة القلب من الصلاة الربية". ان الالتماس الاول هو باتجاه "الخبز اليومي"، إلا ان الاستاذ جرمياس -استنادًا الى شهادة القديس هيرونيموس (القرن٤)- يلاحظ ان لفظة "اليومي" تتضمن في الاصل الارامي معنى "الغد" (محار)، بحيث يصبح مضمون الالتماس على لسان المسيحيين الناطقين بالارامية: "خبزنا للغد اعطنا اليوم". كما ان لفظة "الغد" كانت تشير الى "الغد الكبير والاكتمال النهائي". ويضيف جرمياس بأن "خبز الغد" فُسِّر في الكنيسة الاولى "بمعنى خبز زمن الخلاص، خبز الحياة والمن

السماوي". ذلك لان خبز الحياة هو رمز للفردوس، ويمثّل، مع الماء الحي، ملء المواهب الالهية التي تحدّث عنها يسوع حين قال: "... فتأكلون وتشربون على مائدتي في ملكوتي" (لوقا٢٢: ٣٠)؛ ومما يدعم هذا التفسير هو "التوجه الاواخري" الذي اتسمت به الصلاة الربية.

قد يخيل الينا ان هذا التفسير الفريد ينزع عن الصلاة الربية الطلب الوحيد الذي هو من مستوى الواقع اليومي: الخبز!

ويجيب جرمياس بان لا اثر للتضاد، في فكر يسوع، بين خبز الارض وخبز السماء، وان "خبز الحياة" ينطوي على ابعاد عميقة في اطار مفهوم ملكوت الله حيث يتخذ كل شيء معنى جديدًا. من هنا كان الخبز الذي اقتسمه يسوع مع الخطأة، خبز كل الايام وعلامة لخبز الحياة في الوقت ذاته! وبهذا المنظور كانت كل وجبة طعام يتناولها مع تلاميذه تتضمن بُعدًا اواخريا طالما انها استباق للوليمة المسيحانية...؛ وكان "العشاء الاخير" فرصة ليسوع كي يعطي، في علامة الخبز، جسده المبذول للموت من اجل حياة الكثيرين...؛ كما كان اجتماع المسيحيين لكسر الخبز اشتراكا في "عشاء الرب" واستباقًا لمائدة ملكوت الله...! وهكذا يتخذ "خبز الغد" في هذا الاطار معنى يشمل كل شيء في الحياة، طالما انه يتضمن خبز كل يوم، ولكن من دون الاكتفاء به!

ويختم جرمياس بان هذا الادراك العميق لمعاني الخبز يعطي للتضاد "غدا/ اليوم" كل قيمته، فيذهب التركيز كله الى

"هذا اليوم"، مخلصا الى القول: "... ففي عالم منفي عن الله، عالم الجوع والعطش، بوسع تلاميذ يسوع ان يتجاسروا ويقولوا هذا (اليوم): منذ الآن، منذ هذه الارض، منذ اليوم، اعطنا خبز الحياة"!

ب- واعفُ... كما نحن ايضا نعفو

يأتي الالتماس الثاني بشأن الغفران في اطار الدينونة الاخيرة، حيث يتجلى الله عبر الغفران المجاني الذي يحظى به

المؤمنون. إلا ان الجديد في هذا الالتماس هو ان تلاميذ يسوع لا يطلبونه لساعة الدينونة حسب، وانما يلتمسونه منذ اليوم، ويقينهم ان زمن الخلاص والغفران قد أتى بيسوع: أليست قيامته افتتاحًا لزمن الغفران؟: "... وتعلن باسمه التوبة وغفران الخطايا لجميع الامم..." (لوقا٢٤: ٤٧).

ويتضمن هذا الالتماس وجهين يقومان على الصلة الوثيقة بين غفران الله لنا وغفراننا نحن لمن لنا عليهم، مما يشكل الطابع الفريد في الصلاة الربية: ذلك لان من يطلب الغفران من الله وينااله، يجب ان يكون هو نفسه على استعداد للمغفرة. ففي هذا الاطار نفهم الالتماس في صيغته الارامية الاصلية، على الشكل التالي: "واعفُ لنا ما علينا، كما نحن ايضا الآن، إذ نتلفظ بهذه الكلمات، نعفو لمن لنا عليهم"(٦). ذلك لانه لا يمكن ان نطلب غفران الله وننااله، ما لم نكن على اهبة للصفح عن كل من لنا عليه "دَين" (مرقس١١: ٢٥؛ متى٥: ٢٣...)، وكأن لسان حالنا يقول -مع جرمياس-: "اننا ننتمي الى العهد المشيحاني، عهد الرحمة. فالغفران الذي ننااله،

نحن مستعدون لمنحه. فوزّعْ علينا، ايها الآب الحبيب، غفرانك الذي هو نعمة زمن الخلاص، منذ الآن، منذ اليوم، منذ هذه الدنيا"!

٤- طلب الحماية: ولا تدعنا نسقط في التجربة

وجاء الالتماس الاخير وحيدًا، معزولاً، يحمل سمة السلبية "لا تدخلنا في التجربة" – وسيردفه متى بعبارة توضيحية "بل نجنا من الشرير"؛ انه الالتماس لطلب الحماية. ويلفت جرمياس الانتباه الى ان النص اليوناني يترجم "ولا تقدنا الى التجربة"، وان الفعل "قاد" المنسوب الى الله –وغني عن القول ان الله لا يجرّبنا بالشرور (انظر رسالة يعقوب١:١٣)– يجب ان نفهمه في ضوء صلاة المساء اليهودية القديمة: "لا تَقُدْ رجليّ الى سلطان الخطيئة، ولا تجرّني الى سلطان الهفوة ولا الى سلطان التجربة ولا الى سلطان العمل المشين"! فيتضح لنا ان عبارة "لا تقد" تعني "لا تسمح"، بحيث يصبح الالتماس طلبًا للحماية وقت التجربة: اذا تعرّضنا للتجربة، فلا تدعنا نسقط فيها. ذلك لأن التجربة اختبار لا بد من ان يمر به المؤمن، الا انه يتوسل الى الله كي يسنده ابان التجربة ليقوى عليها.

ويذهب الاستاذ جرمياس في تحليله الى القول بان المقصود بالتجربة هو، بالتالي، تلك التجربة الاخيرة الكبرى التي ستمر على العالم حين يتعرض تلاميذ يسوع للغربلة، وحين تصبح تجربة الجحود خطرًا يهدد ايمانهم، فيخلص الى القول: "فالطلب الاخير للصلاة الربية يتوخى القول، اذن: يا رب احفظنا من الجحود! وهكذا فهمها تقليد متى الانجيلي حين اضاف (بل نجنا من الشرير) بغية التماس الخلاص النهائي من القوة الشريرة التي تسعى الى زج الانسان في الهلاك الابدي".

وتختم الصلاة الربية حمدلة وردت للمرة الاولى في الدياكيه بهذه الصيغة: "لان لك القدرة والمجد"، ولم ترد لا في انجيل لوقا ولا في انجيل متى بحسب اقدم المخطوطات؛ وقد اصبحت حمدلة ثلاثية: "لان لك الملك والقوة والمجد". ويقول الاستاذ جرمياس بانه لا يعقل ان تنتهي الصلاة الربية بكلمة "التجربة" مضيفا: "كان من الشائع في الديانة اليهودية انهاء العديد من الصلوات (بختم) أي بتمجيد مقتضب يُترَك لمبادرة المصلي الحرة؛ وتلك كانت ولا شك نية يسوع بشأن الصلاة الربية".

---

(١) هذه الدراسة (١٩٦٢)، مع دراسة في "العظة على الجبل" (١٩٥٩)، نقلت الى الفرنسية عام ١٩٦٣ في كتيب يحمل عنوان "اقوال يسوع"، وقد نقله الى العربية الاب يوحنا عيسى (بغداد ١٩٨٦)، وهو مرجع ثمين ومتين من مراجع الدراسات الكتابية الحديثة. كما نقل له، بمعية الاب البير ابونا، "امثال يسوع" (بغداد ١٩٨٩)، وهو الآخر مرجع اساس.

(٢) اعتمدنا الترجمة الجديدة للكتاب المقدس (دار المشرق- بيروت ١٩٨٩)- غير اننا سنؤثر القول: "واعفُ لنا ما علينا.. كما نعفو ايضا لمن لنا عليه". وفي نص الديداكية اعتمدنا ترجمة الابوين: نصور/ ي. ثابت (الكسليك١٩٧٥).

(٣) في بعض الترجمات العربية القديمة لا تظهر الفروقات بين نصي متى ولوقا، ويصح ذلك في ترجمات جمعية الكتاب المقدس التي تستند الى ترجمة لوثر الذي لم يكن في حوزته سوى مخطوطات من اواخر القرن ٤ –وقد تجاوزتها في الدقة طبعة الاباء الدومنيكيين (الموصل ١٨٧١)- وبفضل المخطوطات العريقة في القدم اصبحنا اليوم بازاء ترجمات قريبة من الاصل، ونوصي باعتماد الترجمة العربية الحديثة للكتاب المقدس (دار المشرق، بيروت- ١٩٨٩).

(٤) يلفت جرمياس الانتباه الى ملاحظة قد تبدو ثانوية: فبينما تتجاور الامنيتان، نرى الالتماسات الثلاثة الاخيرة مقترنة بـ "واو العطف"، مما يشير الى اختلاف كبير في مستوى الطلبات حيث الاولوية للامنيتين!

(٥) نشير الى كتاب "الصلاة الربية" للاب فرنسيس يوسف المخلصي (بغداد ١٩٨٤) حيث يتناول قسمه الاول "ملاحظات لاهوتية" حول الصلاة الربية في فقراتها وعباراتها ومعانيها... فيما ينكب قسمه الثاني على "الصلاة الربية في التعليم المسيحي".

(٦) استخدم متى صيغة الماضي "عفونا" مما يحمل على الاعتقاد خطأ بان غفراننا يسبق غفران الله! ولكن جرميلس يوضح بان الصيغة الارامية الضمنية للماضي هي صيغة الحاضر التام وتدل على فعل يتم في اللحظة ذاتها. اما لوقا فقد بدّد الالتباس إذ استخدم صيغة الحاضر "لاننا نعفو... لمن اساء الينا"، وقد استخدم صيغة المفرد "أساء" ليدعونا الا نستثني احدًا من غفراننا.

- اثيوبيا.. ارض مسيحية

عن Ethiopia

ك٢ — اذار/ ص٩ - ١٥ (تر جمة ماري نور حبيب)

- ماذا من المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني/ بعد ٣٠ عاماً

نيسان — حزيران/ ص٥٧ - ٦٣ الاب لويس ساكو

● عدد خاص: المسيحي والمعاصرة(*)

تموز — ت١/ ص٩٧ — ١٦٧

+ عالم الرهبان والراهبات

ت٢ — ك١/ ٨٥ — ١٩١(**) الاب جرجس القس موسى[1]

(*) اثبتنا في "المختار من الاعداد الخاصة" المقالات التالية من آخر عدد خاص: آفاق المعاصرة في اللاهوت (أ. لوسيان جميل)، من اجل قراءة جديدة للكتاب المقدس (أ. بيوس عفاص)، الكنيسة وتحديات العالم المعاصر (أ. جرجس القس موسى)، طقوس حية معاصرة (أ. يوسف حبي)، البشرى الانجيلية لعالم اليوم (أ. يوحنا عيسى)، الانسان المعاصر والخلقية المسيحية (أ. لويس ساكو).

(**) مع هذا العدد الاخير (رقم ٣٠٠) من مشوار كهنة يسوع الملك مع مجلتهم، أُدرج في الوسط ملزمة (١٦ص) تضمنت الكشاف رقم ٣ للاعوام الاربعة الاخيرة ١٩٩١-١٩٩٤، وبه ختموا مسيرة ثلاثين عاماً من العمل الصحافي في خدمة "الفكر المسيحي" التي سلّموا ادارتها عام ١٩٩٥ إلى الاباء الدومينيكيين، بهدف ديمومتها لا غير.

ملف ت٢-ك١ ١٩٩٣............................. الاب جرجس القس موسى

عالم الرهبان والراهبات!

جيش عرمرم.. لو ادركنا اتساع انتشاره الجغرافي حيثما تواجدت الكنيسة في العالم اجمع، وتنوع انشطته في المجالات اللاهوتية والتبشيرية، والتيارات الفكرية والروحية، والمؤسسات الثقافية والتربوية والصحية والاعلامية، ومختلف اوجه التنمية والرقي الانسانيين؛ لو ادركنا هذا التنوع وعلمنا ان بعض هذه الانشطة لا ينحصر في الوسط المسيحي، لأدركنا الحجم الكبير الذي يحتله الرهبان والراهبات في حياة الكنيسة وتاريخها ورسالتها في العالم.

سينودس اساقفة عام برئاسة البابا انعقد في روما من ٢-٢٩ ت١ ١٩٩٤، خُصص لموضوع "الحياة المكرسة ورسالتها في الكنيسة والعالم"، دلالة على اهمية الموضوع، وفرصة لنا، في هذا الملف، كي نجيب الى اسئلة من مثل: الحياة الرهبانية ما هو تاريخها؟ ماذا يعني تنوع طرائقها؟ ما هي طبيعتها؟ ما موقع الرهبان والراهبات في حياة الكنيسة ورسالتها في العالم اليوم.

• منذ بدايات المسيحية.. التاريخ

منذ اواسط القرن الثالث، عرفت الكنيسة زهادًا من الرجال والنساء اعتزموا العيش بموجب روح الفقر والتجرد الانجيليين، في حالة العزوبية وسط جماعة المؤمنين. وكان يطلق عليهم في سوريا وبلاد ما بين النهرين اسم "ابناء وبنات العهد". وكانت اول صيغة منظمة لهؤلاء ان يعيشوا اثنين اثنين او ثلاثة ثلاثة بجوار كنيسة.

من هذه الصيغة الزهدية العفوية ولدت الحياة الرهبانية قبيل نهاية عهد الاضطهادات واعلان المسيحية دينًا رسميًا للامبراطورية الرومانية الجديدة مع قسطنطين الملك (٣٠٦-٣٣٧). فبرزت الحياة الرهبانية كظاهرة ملفتة للنظر في مختلف اقطار الشرق الاوسط القديم: مصر وسوريا وفلسطين وبلاد ما بين النهرين (العراق)، وقبدوقيا (غربي تركيا) واتخذت لها صيغا متنوعة.

* "**آباء الصحراء**": فهناك الاتجاه التوحيدي (آباء الصحراء في مصر) مع القديس انطونيوس المسمى بأبي الرهبان (+٣٥٦) هذا الفلاح الصعيدي الذي، لدى سماعه في كنيسة قريته، قول المسيح للشاب الغني: "اذا اردت ان تكون كاملاً، اذهب وبع كل ما لك وتعال اتبعني"، هجر الدنيا واعتزل الصحراء لحياة الصوم والصلاة وقراءة الكتاب المقدس والعمل اليدوي. من هنا تفرع النساك والحبساء مع القديس مقاريوس (+٣٩٠)، عندما تجمع بعض النساك في مناسك متجاورة وصاروا يلتقون يومي السبت والاحد للمشاركة في قداس الاحد وتقاسم طعام اخوي. وخطا القديس باخوميوس خطوة اخرى، نحو سنة ٣٣٠، حين جمع رهبانه في دير وفق قانون ينظم حياتهم المشتركة، وبروحانية النموذج الاخوي للجماعة المسيحية الاولى "اذ كان كل شيء في ما بينهم مشتركًا" كما يذكر كتاب اعمال الرسل (٢:٤٤).

* **"الرهبان السريان"**: اما في سوريا وبلاد ما بين النهرين، فقد ازدهرت الحياة الرهبانية في الفترة ذاتها، ولكن مع خصوصية متميزة وهي الروح الرسولية. فلطالما جعل الرهبان السريان من اديرتهم قاعدة انطلقوا منها للتبشير والتعليم، حتى بلغوا البلدان المجاورة كالجزيرة العربية وسواحل الخليج العربي جنوبا، وبلاد فارس شرقًا، وحتى الهند والصين، علمًا بان الاديرة نفسها كانت تستقطب المؤمنين للتبرك والاسترشاد.

ومن الاسماء الكبرى للحياة الرهبانية الرسولية لدى الشرقيين السريان مار افرام[1] (٣٠٦-٣٧٣) الذي وازن في حياته الرهبانية بين العزلة والنشاط الرسولي والتعليمي لجماعة المؤمنين في نصيبين ثم الرها؛ والقديس يوحنا فم الذهب[2] (٣٥٤-٤٠٧)؛ وابراهيم الكشكري (٤٩١-٥٨٦) الذي نظم اليحاة الرهبانية في بلاد فارس وشمال العراق؛ وقبله متى الناسك.. ولا يخفى ما كان للرهبان من تأثير كبير على حيوية مجريات حياة الكنائس الشرقية ذات التقليدين السرياني واليوناني والبيزنطي.

* **الرهبانية الغربية**: اما في الغرب، فقد انتشرت الرهبانية على يد اساقفة عظام ومؤسسين كبار، امثال القديس اوغسطينوس[3] (٣٥٤-٤٣٠) اسقف افريقيا الذي وضع مشترعات، بنى عليها مؤسسو الرهبنات الغربية اللاحقة؛ والقديس بندكتس او مبارك (٤٨٠-٥٤٧) الذي يعتبر ابا الرهبان في اوربا. وكان النهج البندكتي يتمحور حول قطبين جوهريين: الصلاة الديرية الاحتفالية المرتلة، والاعمال اليديوية والزراعية. فكان رئيس الدير في ان واحد أبًا روحيًا واشبه بمدير مزرعة كبرى، واسع النفوذ والسلطة. ولقد دفع رجوح كفة هذا القطب الثاني الى اصلاحات جذرية متتالية شطرت الرهبنة في القرن العاشر، والحادي عشر، والثاني عشر.

* **الرهبانيات الكبرى**: اما القرن الثالث عشر، فقد شهد ثورة في النهج الرهباني الغربي. فازاء تكدس الثروة بيد الكنيسة واتساع صفوف الفقراء، قامت من القاعدة حركات تدعو الى العودة الى صفاء الانجيل وروح المسيحية الاولى، وظهر ما عرف "بالرهبانيات المستعطية" حول شخصين ملهمين، هما فرنسيس الاسيزي[4] (١١٨٢-١٢٢٦) الذي جسّد روح الفقر والبساطة والفرح والمسالمة، فكانت الرهبنة الفرنسيسكانية التي تشعبت فيما بعد الى ثلاثة فروع كبرى: الفرنسيسكان، الكونفانتولين او الديرين، والكبوشيين؛ وعبد الاحد او دومنيك كوزمان[5] (١١٧٠-١٢٢١) الذي اختص رهبانه الدومنيكان بالتعليم والوعظ، لذا سموا بالاخوة الواعظين. وفي الاسرتين الدومنيكية والفرنسيسكانية فروع نسائية متعددة الاسماء والاهداف، وهي على اتجاهين متكاملين: تأملية وعاملة في الرسالة المباشرة.

كما ظهرت في العصر ذاته الرهبانية الكرملية على يد نساك لاتين على جبل الكرمل في فلسطين، وقد خضعت لحركة اصلاحية عميقة في القرن السادس عشر على يد القديسة تريزيا الافيلية[6] والقديس يوحنا الصليبي[7]، وكلاهما اسبانيان.

وفي هذا القرن ذاته الذي شهد عصر النهضة الفكرية والفنية والانسانية، واكتشاف العالم الجديد وبدء الرحلات الاستكشافية والاستعمارية الكبرى، اطلق اسباني آخر هو اغناطيوس دي لويولا[8] (١٤٩١-١٥٥٦)، رهبانية جديدة باسم "اليسوعيين" تختص بالتبشير ورعاية العلوم والتربية.

• الحياة الرهبانية... لماذا؟

اذا كان جميع المسيحيين، بعماذهم، مدعوين الى القداسة والعيش بمقتضى مبادئ الانجيل، "كاملين كما ان اباهم السماوي هو كامل" (متى ٥:٤٨)، فقد شعر بعضهم، من الرجال والنساء، وعلى مرّ العصور، ان الرب يدعوهم كي يعيشوا هذا النداء بترك كل شيء واتباع المسيح على طرقات البشرى الانجيلية (كما دعا يسوع الشاب الغني: متى ١٩:١٦-٢١)، وفي سبيل الاجابة الى هذه "الدعوة" و "تكريس" حياقم برمتها لله الذي يفوق حبه أي امر اخر، انتهج هؤلاء الرجال والنساء، بكامل حريتهم، نمط حياة خاص باركته الكنيسة ورعته.

هذا النهج الخاص هو الذي دعي بنهج "المشورات الانجيلية": "اذا اردت ان تكون كاملا..."، ".. تعال اتبعني"، يقول يسوع للذي سأله الكمال! أي: "كن تلميذي، تشبّه بي".. وكان مسيح الانجيل فقيرًا، وعفيفا، وطائعًا لابيه. فعلى خطى المسيح يلتزم الراهب او الراهبة ان يعيشا باسلوب مبتكر وخاص هذه الاوجه الثلاثة الاساسية من حياة الانسان وهي علاقته بالمادة، عواطفه، وحريته.

وهكذا، فعلاً، بعد فترة استعدادية (تدعى الرغوبية)، يليها زمن تهيئة مباشرة (تدعى الابتداء)، يلتزم الراهب (او الراهبة)، بنذور علنية، عيش المشورات الانجيلية الثلاث: الفقر والعفة والطاعة. وتكون النذور اول الامر لفترة زمنية محددة، ثم لمدى الحياة.

ولكن ما هي ابعاد هذه "النذور" في الحياة العملية للراهب او الراهبة؟

* **الفقر**: لقد أخلى المسيح ذاته وعاش فقيرًا، متضامنا مع الناس في معانياقم، متجردًا عن خيرات هذه الدنيا، وآثر الصغار والفقراء والمرذولين في زمانه، ولكن من دون ان يحتقر أي احد او أي شيء. ولقد قاسم يسوع كل شيء مع تلاميذه: وقته، وافراحه، واتعابه، وحتى رسالته وروحه.

وعلى خطاه يختار الراهب ان يعيش وضيعًا، فقيرًا في الروح وفي التطبيق العملي. فلا يمتلك شيئا باسمه الشخصي؛ يعمل بيديه او بمزاولة الاعمال الفكرية، ويضع كل "نتاجه" بتصرف جماعته الرهبانية او لخدمة الفقراء والمعوزين الذين يحظون باولوية اهتماماته.

* **العزوبية في العفة**: لقد كان المسيح عازبًا، ولم يعرف الزواج ولا الابّوة الطبيعية، ولكنه كان حرًا تماماً امام المرأة، ولم يُبد أي تمايز بين تلاميذه، رجالا كانوا ام نساء، وانما كان همه الاكبر ان يكشف للناس الوجه الحَقيقي لابيه السماوي، ويعيش معهم وبينهم اخًا لجميع الناس.

وبالعزوبية التي يختارها الراهب من اجل ملكوت الله، لا طعنًا بالزواج او ازدراء بقيم الاسرة والابّوة، وانما ابتغاء ان يعيش حبه الاكبر ليسوع المسيح ويعطي الاولوية القصوى في عاطفته لله، ويكون من ثم متفرغا لاخوته البشر.

* **الطاعة**: لقد جعل المسيح "طعامه ان يعمل بمشيئة من ارسله" وكان طائعا لله ابيه حتى الموت.

والراهب الذي ينخرط في جماعة رهبانية معينة، يلتزم بالطاعة للقوانين والمشترعات الخاصة بها، على يد الرؤساء المسؤولين عنها باسم الكنيسة. ولكي تكون هذه الطاعة بحسب روحانية الانجيل ومثمرة، ينبغي ان تكون واعية، حرة، وبروح الاسرة المتحابة التي يحركها هدف واحد لدى الرئيس والمرؤوس.

شجرة متشعبة الاغصان

منذ القرن ١٧ والى يومنا هذا، ولدت جمعيات رهبانية تعد بالمئات بل بالالاف، معظمها غربية، مجيبة الى مختلف حاجات الرسالة والتيارات الروحية في الكنيسة، منها ما يرتبط باسماء مؤسسي الرهبنات الكبرى، والبعض الآخر ينتمي الى اسماء بارزة في تاريخ الروحانية، من اساقفة وكهنة ورهبان وعلمانيين، من رجال ونساء.

* هذه بعض اهم الجمعيات الرسولية العاملة في الحقول التربوية والصحية والثقافية ولها انتشار عالمي:

– "اخوة مار يوحنا الالهي" للمستشفيات (١٥٧٣). راهبات "الزيارة" مع القديس فرنسيس السالسي وجان دي شانتال (١٦١٠). "اللعازريون" (١٦٢٥) مع القديس منصور دي بول[1] لتنشئة الكهنة والمرسلين، و"راهبات المحبة" اللواتي انشأهن مع لويز دي ماريساك للعناية بالمرضى. جمعية "الرسالات الاجنبية" في باريس للتبشير في اسيا (١٦٦٤). "اخوة المدارس المسيحية" (١٦٨٤) و"الاخوة المريميون" (١٨٥١) لتعليم الناشئة. "راهبات الحكمة" (١٧٠٣). "آباء الفادي الاقدس" مع القديس الفونس دي ليغوري (١٧٣٢). "المرسلون المتطوعون" (OBLATS) لمريم المحبول بها بلا دنس (١٨١٨). "اخوات الفقراء الصغيرات" (١٨٣٩). "الانتقاليون" (نسبة الى انتقال العذراء الى السماء (١٨٤٥) للحركة المسكونية وهم مؤسسو جريدة "لاكروا" اليومية الفرنسية. "السالزيون" مع القديس يوحنا بوسكو[2] لتربية الناشئة في الاوساط الشعبية وتأهيلهم المهني (١٨٥٩). و"المرسلون اللبنانيون" (١٨٦٥). "الاباء البيض" مع الكردينال لافيجري[3] (١٨٦٨) لحمل رسالة الانجيل في افريقيا والمغرب العربي. "الفرنسيسكانيات مرسلات مريم" (١٨٧٧). "الجمعية البولسية" مع الاب البيريوني[4] (١٩١٥) لوسائل الاتصال السمعية البصرية بمختلف انواعها. "اولاد ومعاونو المحبة" وهما جمعيتان توأمان للخدمة في الاوساط العمالية (١٩١٨) "اخوة واخوات يسوع الصغار" لرسالة الصداقة والاندماج بالاوساط الشعبية مع الاب فوايوم[5] (١٩٣٣) والاخت مادلين[6] (١٩٣٦) على خطى شارل دي فوكو. "جماعة تيزيه" (١٩٤٤) وتضم رهبانا بروتستنت وارثوذكس وكاثوليك لبث الروح الوحدوية. راهبات الام تيريزا[7] (١٩٥٠) لايواء المتروكين والمعدمين المنبوذين.. وغيرها وغيرها من الاف الجمعيات الرهبانية المحلية والاقليمية والطائفية، النسائية والرجالية.

* وبعد المجمع الفاتيكاني الثاني وبروحه، ظهرت عشرات الجماعات الجديدة الصغيرة تضم عزابًا ومتزوجين وكهنة.. تعطي للبحث الروحي والصلاة وعيش الاخوّة بروح البساطة الموقع الاول في شهادتها نذكر منها:

– جماعات "الفُلْك" مع جان فانييه[8] (١٩٦٤) للعناية بالمعاقين. "سيدة الحياة" لرسالة الصلاة والتأمل (لبنت في ١٩٧٣). جماعة "عمانوئيل" (١٩٧٢) للتعمق الروحي. "الطريق الجديد" (١٩٧١) للعمل المسكوني. "جماعات العالم الجديد" (١٩٧٤) لعيش الانجيل وحمل رسالته الى عالم جديد باساليب العصر. "خبز الحياة" (١٩٧٦) لحياة الصلاة والسجود وخدمة الفقراء. جماعتا "بيت لحم وانتقال العذراء" الحياة الرهبانية الديرية للراهبات (١٩٦٧) وللرهبان (١٩٧٦)، "أخوّات القدس الرهبانية والعلمانية" (١٩٧٥) لعيش روح الانجيل بالصلاة والحياة في بيئة المدن.. وهناك جماعة "الفوكولاري" مع كيارا لوبيش منذ الاربعينات.. الخ.. الخ..

(١) راجع ف. م. ك٢ ١٩٧٢
(٢) راجع ف. م. حزيران/ تموز ١٩٨٨
(٣) راجع ف. م. ت٢/ ك١ ١٩٩٢
(٤) راجع ف. م. ايار ١٩٧٢
(٥) راجع ف. م. ك٢ ١٩٧٣
(٦) راجع ف. م. ك٢ ١٩٩٠، ك١ ١٩٨٥
(٧) راجع ف. م. ك٢ ١٩٨٠
(٨) راجع ف. م. ايار ١٩٨٥

ومن اركان الحياة الرهبانية ايضا:

* **الحياة المشتركة**: فالرهبان (والراهبات) يستلهمون روح الجماعة المسيحية الاولى "اذ كان كل شيء مشتركًا بينهم.. بقلب واحد ونفس واحدة" (اعمال ٤:٣٢)، فيعيشون الحياة المشتركة ضمن جماعة ديرية (او في اخوّة صغيرة)، بصورة طبيعية وثابتة وفي بساطة العلاقات الاخوية. كما يشتركون معًا في الاوخارستيا، والصلاة والصمت، والعمل، والرسالة، والموارد، والطعام، واوقات المرح... ويعتبرون دوما ان المسيح حاضر في ما بينهم، هو القائل: "حيثما

اجتمع اثنان او ثلاثة باسمي، اكون انا في وسطهم" (متى ١٨: ٢٠). وهكذا، بالحب الذي يكنّه الرهبان لبعضهم البعض، يعطون الشهادة للايمان والرجاء والمحبة والغفران والتواضع والفرح.

* **الصلاة:** اذا كان الراهب رجل الله ومختصا بخدمته، فالصلاة هي طريقه الملوكي اليـــه، وينبغي ان تحتل الصدارة في حياته. وتتغذى صلاته من كلام الله في الكتاب المقدس وفي الليتورجيـــا والسجود الصامت والرياضات الروحية، ومن رسالته ذاتها.. وتشكل الاوخارستيا محور روحانيته.

* **الرسالة:** الراهب صوت ينادي بحياته قبل لسانه بان الانجيل هو بشرى خـــلاص لكـــل انسان، وهكذا تكون وظيفته الاساسية والوجه المرئي من حياته ان يشارك الكنيـــسة رســـالتها فعليا في حمل هذه البشرى الى العالم، في مختلف مرافق الحياة. فسواء كان نهج حياتـــه تأمليًـــا (كالنساك والمحصّنين)، او عمليا (كالرهبان العاملين في الحقول الانسانية والتربوية والصحية..)، فالراهب يبقى دومًا مبشرًا ودليلاً لأخوته، وقد لا يرى الناس منه سوى هذا "الوجه الرســـولي" الخارجي كمبرر لحياته المكرسة.

خاتمة

الرهبان والراهبات نعمة وضرورة للكنيسة. نعمة لانهم يمثلون "الذاكرة الحية لمثالية الانجيل في الكنيسة، وهم شهود لحب الله وقداسته لابنائها وللعالم؛ وضرورة لانهم يـــشكلون الرعيـــل المتحرك الامثل لحيويتها الفكرية والرسولية، ولقد مثلوا دوما في تاريخها الجناح المنفتح للتجديد والمبادرات وابتكار طرائق معاصرة دوما لتجسيد الاوجه المتنوعة لرسالة الكنيسة في العالم، سواء في ميادين الرسالة المباشرة، ام خاصة في ميادين الفكر والبحث اللاهوتي والروحانية. وحيويـــة كنيسة محلية ما، انما تقاس بحيوية رهبانها الى جانب اكليروسها.

١،٣٠٠،٠٠٠ راهب وراهبة في العالم

*** مليون ونيف راهبة، ربع مليون راهب**

٢٩٧٣ رهبنة نسائية
٤٩٢ رهبنة رجالية
١٦٥ مؤسسة غير ديرية
٣٩ جماعة رسولية حبرية

*** الاسر الرهبانية النسائية الكبرى:**

٢٠٠٠٠٠ فرنسيسكانيات
٢٩٠٠٠ راهبات المحبة
٢٥٠٠٠ راهبات مار يوسف
٢٤٥٠٠ كرمليات
٢٣٠٠٠ راهبات الرحمة
٢١٠٠٠ راهبات العناية الالهية

*** الاسر الرهبانية الرجالية الكبرى:**

٣٣٥٠٠ فرنسيسكان
٢٤٣٠٠ يسوعيون
١٧٠٠٠ سالزيون
٩٠٠٠ بندكتان
٧٥٠٠ دومنيكان

الرهبان والراهبات في العراق (١)

*** الرهبنات الرجالية: (٤٧ راهبا)**

٣٦ كلدان (الهرمزدية)
٤ دومنيكان
٥ كرمليون
٢ مخلصيون

*** الرهبنات النسائية: (٢٩٧ راهبة)**

١٢٣ دومنيكيات (للقديسة كاترينة)
١٠٤ كلدانيات (بنات مريم)
٢٣ راهبات التقدمة
٢٧ راهبات القلب الاقدس
١٢ اخوات يسوع الصغيرات
٣ الارمنيات
٥ راهبات الام تيريزا

(١) سبق للفكر المسيحي ان اجرت تحقيقات مع عدد من الرهبانيات في العراق: مع الرهبان الكلدان (اذار ٨٣)، والكرمليين (ك٢ ٩)، والدومنيكيين (ايار/ تموز ٩١)، وراهبات التقدمة (ايار ٨٨)، والدومنيكيات (ايار/ تموز ٩٢)، وراهبات الكلدان (نيسان/ حزيران ٩٣).

المصادر:

1- **Dossier Pélerin, 16 Sep. 1994.**
2- **Religieux et moines de notre temps. Cerf 1980.**
3- **F. LENOIR: Communautés nouvelles. Fayard 1988.**

(١) راجع ف. م. اذار ١٩٧٧: اذار/ نيسان ١٩٨٧
(٢) راجع ف. م. ك٢/ اذار ١٩٩٤
(٣) راجع ف.م. ك١ ١٩٨٦
(٤) راجع ف. م. ك١ ١٩٨١
(٥) راجع ف.م. ايار/ تموز ١٩٩١
(٦) راجع ف.م. شباط ١٩٨٢
(٧) راجع ف. م. اذار/ نيسان ١٩٩٢
(٨) راجع ف. م. ت٢/ ك١ ١٩٩١

المحتوى

كلمة الناشر		٧
تقديم		٩

ملفات ١٩٧١

منظمة الامم المتحدة/ حزيران	برناديت عفاص	١٤
الجوع والتقدم/ كانون الاول	الاب يوحنا عيسى	٢٠

ملفات ١٩٧٢

التوبة عبر الاجيال/١ — اذار	الاب جاك اسحق	٢٦
التوبة عبر الاجيال/٢ — نيسان	الاب جاك اسحق	٣٣
جان رودان/ايلول	نجيب قاقو	٣٨
الاله المجهول/ تشرين الاول	سالم اسعد الخياط	٤٤
المسيحيون وفلسطين/١ – تشرين الثاني	الاب جرجس القس موسى	٥٠
المسيحيون وفلسطين/٢– حزيران ١٩٧٣	الاب جرجس القس موسى	٥٦
المسيحي والسينما/كانون الاول	الاب فرنسيس فان ستابن	٦٤

ملفات ١٩٧٣

معهد مار يوحنا الحبيب/ نيسان	الاب افرام سقط والاب جرجس القس موسى	٧٢
هل نحتاج بعد إلى راهبات/ايار	الاب خليل قوجحصارلي	٧٨
مفهوم الثورة في الفكر المسيحي المعاصر/ كانون الاول	الاب عبد السلام حلوة	٨٤

ملفات ١٩٧٤

المسيحية والقيم الاشتراكية/شباط	الاب لوسيان جميل	٩٢
مشكلة الاجهاض في المجتمع العصري/ آذار	الاب يوسف عتيشا	٩٧
العنف الثوري/ نيسان	الاب عبد السلام حلوة	١٠٢
معهد شمعون الصفا الكهنوتي البطريركي الكلداني/ ايار	الاب بطرس حداد	١٠٦

ملفات ١٩٧٥

المرأة في العهد الجديد/آذار	الاخت ماريان – ابراهيم	١١٢
مفهوم الخطيئة الاصلية وتطوره في الفكر المسيحي/ نيسان	الاب لوسيان جميل	١١٨
الكهنوت اليوم: حيرة وتطلع/ ايار وحزيران	الاب حبيب باشا البولسي	١٢٣
التثقيف المسيحي في العراق، إلى اين؟/١ – حزيران	الاب جرجس القس موسى	١٣٥
التثقيف المسيحي في العراق، إلى اين؟/٢– ت١	الاب جرجس القس موسى	١٤٣
الصراع الطبقي واثره على فكر الكنيسة ووحدتها/١ –ت٢	الاب لوسيان جميل	١٥٠
الصراع الطبقي واثره على فكر الكنيسة ووحدتها/٢ –ك١	الاب لوسيان جميل	١٥٥

ملفات ١٩٧٦

الثنائية وابعادها في الفكر/١– شباط	الاب عبد السلام حلوة	١٦٠
الثنائية وابعادها في الفكر/٢– آذار	الاب عبد السلام حلوة	١٦٥
دور الاسرة في التثقيف المسيحي/ كانون الاول	الاخت ماركريت حنا	١٧٠

ملفات ١٩٧٧

العنصرية/ شباط	الاب عبد السلام حلوة	١٧٦
الخلاص او التحرير بيسوع المسيح/ كانون الاول	الاب لوسيان جميل	١٨٣

ملفات ١٩٧٨

الايقونة/ ايار	الاخت ماريان – ابراهيم	١٩٢
بوذا والبوذية/ تشرين الاول	الاب لويس ساكو	١٩٨
الرأي العام في الكنيسة/كانون الاول	الاب بيوس عفاص	٢٠٥

ملفات ١٩٧٩

لاهوت التحرير في الميزان/ شباط	الاب عبد السلام حلوة	٢١٢
الله يلتقي بالانسان في المسيح/ نيسان	الاب عبد السلام حلوة	٢١٨
الاجهاض... ثمن الحياة/ كانون الاول	الاب بيوس عفاص	٢٢٥

ملفات ١٩٨٠

يسوع والحرية/ شباط — الاب جرجس القس موسى — ٢٣٦

المسيحي ازاء الالحاد/ اذار — الاب لوسيان جميل — ٢٤٤

ملفات ١٩٨١

حرية الانسان بين الاختيار والقدر/ ايار — الاب يوسف توما مرقس — ٢٥٢

ملفات ١٩٨٢

الانسان بين معطيات العلم ومعطيات الدين/ اذار — الاب يوسف توما مرقس — ٢٦٠

الخطيئة في الكتاب المقدس/ ايار — الاب افرام سقط — ٢٦٧

ملفات ١٩٨٣

والنسيم صار تيارا: ٢٠ عاماً بعد المجمع المسكوني/ك٢ – شباط — الاب جرجس القس موسى — ٢٦٧

الكنيسة الكلدانية، قديما وحديثا/ ايار — المطران كوركيس كرمو — ٢٨٤

مشاعر النمو الديني لدى المراهقين/حزيران – تموز — صباح حنا هرمز — ٢٩٤

مجلس الكنائس العالمي/ كانون الاول — الاب يوسف توما مرقس — ٣٠١

ملفات ١٩٨٤

المشارقة، هراطقة ام مستقيمو الايمان؟/شباط — الاب لويس ساكو — ٣١٠

جماعات القاعدة في الكنيسة: جماعات مختلفة في كنيسة واحدة/ ك١ — الاب يوحنا عيسى — ٣١٨

ملفات ١٩٨٥

السبت ام الانسان؟/ايار — الاب جرجس القس موسى — ٣٢٦

الكنيسة، جماعة تحتفل بحضور يسوع المحرر/آب – ايلول — الاب افرام سقط — ٣٣٤

ملفات ١٩٨٦

نقاط الالتقاء بين المسيحية والاسلام/شباط — الاب لويس ساكو — ٣٤٢

رسالة العلمانيين: قضية ولاهوت/ ايار — الاب لوسيان جميل — ٣٤٩

العلامة ابن العبري والفكر السرياني/آب – ايلول — المطران صليبا شمعون — ٣٥٥

ملفات ١٩٨٧

القديس افرام.. لاهوت صدى للانجيل/اذار – نيسان — الاب لويس ساكو — ٣٦٤

الكتاب المقدس والعلم.. تساؤلات/حزيران – تموز — الاب افرام سقط — ٣٧١

ملفات ١٩٨٨

اللاعنف، روحانية وموقف/ ايار — الاب بيوس عفاص — ٣٨٠

الرؤيا، رسالة امل ورجاء/حزيران – تموز — الاب افرام سقط — ٣٨٧

ملفات ١٩٨٩

مريم كما عرفها مسيحيو القرون الاولى/ايار — الاب لويس ساكو — ٣٩٨

ملفات ١٩٩٠

القيامة في ايمان المسيحيين الاولين/١– نيسان — الاب بيوس عفاص — ٤٠٦

القيامة في ايمان المسيحيين الاولين/٢– أيار — الاب بيوس عفاص — ٤١٣

الاماكن المقدسة والسلام/كانون الاول — الاب يوسف حبي — ٤٢٢

ملفات ١٩٩١

انجيل طفولة يسوع/ك٢ – نيسان — الاب بيوس عفاص — ٤٣٢

قراءة ايمانية للحرب/ايار – تموز — الاب بيوس عفاص — ٤٣٩

ملفات ١٩٩٢

افسس وخلقيدونية والنظرة المسيحانية المعاصرة/آذار– نيسان — الاب لويس ساكو — ٤٤٨

ملفات ١٩٩٣

الصلاة الربية... صلاة المؤمنين/ت٢ – ك — الاب بيوس عفاص — ٤٥٤

ملفات ١٩٩٤

عالم الرهبان والراهبات/ ت٢ – ك١ — الاب جرجس القس موسى — ٤٦٢

فهرس الكتاب

• الاب افرام سقط الدومنيكي

– معهد مار يوحنا الحبيب/ نيسان ١٩٧٣ ... ٧٢
– الخطيئة في الكتاب المقدس/ ايار ١٩٨٢ ... ٢٦٧
– الكنيسة، جماعة تحتفل بحضور يسوع المحرر/ آب – ايلول ١٩٨٥ ... ٣٣٤
– الكتاب المقدس والعلم... تساؤلات/ حزيران – تموز ١٩٨٧ ... ٣٧١
–الرؤيا، رسالة امل ورجاء/ حزيران – تموز ١٩٨٨ ... ٣٨٧

• برناديت عفاص

–منظمة الامم المتحدة /حزيران ١٩٧١ ... ١٤

• الاب بطرس حداد(+)

–معهد شمعون الصفا الكهنوتي البطريركي الكلداني/ ايار ١٩٧٤ ... ١٠٦

• الاب بيوس عفاص

–الراي العام في الكنيسة/ كانون الاول ١٩٧٨ ... ٢٠٥
–الاجهاض.. ثمن الحياة/ كانون الاول ١٩٧٩ ... ٢٢٥
–اللاعنف، روحانية وموقف/ ايار ١٩٨٨ ... ٣٨٠
–القيامة في ايمان المسيحيين الاولين/ نيسان ١٩٩٠؛ ايار ١٩٩٠ ... ٤٠٦
–انجيل طفولة يسوع/ ايار – تموز ١٩٩١ ... ٤٣٢
–قراءة ايمانية للحرب/ ايار – تموز ١٩٩١ ... ٤٣٩
–الصلاة الربية، صلاة المؤمنين/ تشرين الثاني – كانون الاول ١٩٩٣ ... ٤٥٤

• الاب (المطران) جاك اسحق

– التوبة عبر الاجيال/اذار ١٩٧٢؛ نيسان ١٩٧٢ ... ٢٦

• الاب (المطران) جرجس القس موسى

– المسيحيون وفلسطين/تشرين الثاني ١٩٧٢؛ حزيران ١٩٧٣ ... ٥٠
– معهد مار يوحنا الحبيب/ نيسان ١٩٧٣ ... ٧٢

-التثقيف المسيحي في العراق، إلى اين؟/حزيران ١٩٧٥؛ تشرين الاول ١٩٧٥ ١٣٥
- يسوع والحرية/ شباط ١٩٨٠ ٢٣٦
- والنسيم صار تيارا: ٢٠ عاماً بعد المجمع المسكوني/ك٢ – شباط ١٩٨٣ ٢٧٦
- السبت ام الانسان؟/ايار ١٩٨٥ ٣٢٦
- عالم الرهبان والراهبات/تشرين الثاني – كانون الاول١٩٩٤ ٤٦٢

• **الاب (المطران) حبيب باشا البولسي** (+)

- الكهنوت اليوم.. حيرة وتطلع/ ايار ١٩٧٥؛ حزيران ١٩٧٥ ١٢٣

• **الاب خليل قوجحصارلي الدومنيكي** (+)

- هل نحتاج بعد إلى راهبات/ايار ١٩٧٣ ٧٨

• **سالم اسعد الخياط**

- الاله المجهول/ تشرين الاول ١٩٧١ ٤٤

• **صباح حنا هرمز بشي**

- مشاعر النمو الديني لدى المراهقين/ حزيران – تموز ١٩٨٣ ٢٩٤

• **المطران غريغوريوس صليبا شمعون**

- العلامة ابن العبري والفكر السرياني/ آب – ايلول ١٩٨٦ ٣٥٥

• **الاب عبد السلام حلوة الدومنيكي** (+)

- مفهوم الثورة في الفكر المسيحي المعاصر/ كانون الاول ١٩٧٣ ٨٤
- الثنائية وابعادها في الفكر/ شباط ١٩٧٦؛ آذار ١٩٧٦ ١٦٠
- العنصرية/ شباط ١٩٧٧ ١٧٦
- لاهوت التحرير في الميزان/ شباط ١٩٧٩ ٢١٢
- الله يلتقي بالانسان في المسيح/ نيسان ١٩٧٩ ٢١٨

• **الاب فرنسيس فان ستابن المخلصي**(+)

- المسيحي والسينما/ كانون الاول ١٩٧٢ ٦٤

• **المطران كوركيس كرمو** (+)

- الكنيسة الكلدانية، قديما وحديثا/ ايار ١٩٨٣ ٢٨٤

• **الاب لوسيان جميل**

– المسيحية والقيم الاشتراكية/ شباط ١٩٧٤ ٩٢
– مفهوم الخطيئة الاصلية وتطوره في الفكر المسيحي/ نيسان ١٩٧٥ ١١٨
– الصراع الطبقي واثره على فكر الكنيسة ووحدتها/ت٢ ١٩٧٥؛ ك١ ١٩٧٥ ١٥٠
– الخلاص او التحرير بيسوع المسيح/ كانون الاول ١٩٧٧ ١٨٣
– المسيحي ازاء الالحاد/اذار ١٩٨٠ ٢٤٤
–رسالة العلمانيين: قضية ولاهوت/ايار ١٩٨٦ ٣٤٩

• **الاب (المطران) لويس ساكو**

– بوذا والبوذية / تشرين الاول ١٩٧٨ ١٩٨
– المشارقة، هراطقة ام مستقيمو الايمان؟ شباط ١٩٨٤ ٣١٠
– نقاط الالتقاء بين المسيحية والاسلام/شباط١٩٨٦ ٣٤٢
– القديس افرام.. لاهوت صدى للانجيل/ اذار – نيسان١٩٨٧ ٣٦٤
– مريم كما عرفها مسيحيو القرون الاولى/ ايار١٩٨٩ ٣٩٨
– افسس وخلقيدونية والنظرة المسيحانية المعاصرة/ آذار– نيسان١٩٩٢ ٤٤٨

• **الاخت ماركريت صنا (راهبات القلب الاقدس)**

– دور الاسرة في التثقيف المسيحي/ كانون الاول ١٩٧٦ ١٧٠

• **الاخت ماريان كوفويل الدومنيكية**

– المرأة في العهد الجديد/ آذار ١٩٧٥ ١١٢
– الايقونة/ ايار ١٩٧٨ ١٩٢

• **نجيب فاقو** (+)

– جان رودان/ ايلول ١٩٧١ ٣٨

• **الاب يوحنا عيسى**

– الجوع والتقدم/ كانون الاول ١٩٧١ ٢٠
– جماعات القاعدة في الكنيسة:جماعة مختلفة في كنيسة واحدة/ ك١ ١٩٨٤ ٣١٨

• **الاب يوسف توما الدومنيكي**

– حرية الانسان بين الاختيار والقدر/ ايار ١٩٨١ ٢٥٢

– الانسان بين معطيات العلم ومعطيات الدين/ اذار ١٩٨٢ ٢٦٠

– مجلس الكنائس العالمي/ كانون الثاني ١٩٨٣ ٣٠١

• **الاب يوسف حبي** (+)

– الاماكن المقدسة والسلام/ كانون الاول ١٩٩٠ ٤٢٢

• **الاب يوسف عتيشا الدومنيكي**

– مشكلة الاجهاض في المجتمع العصري/ آذار ١٩٧٤ ٩٧

ملفات الكتاب المقدس

مجلة بيبلية متخصصة مصورة، معربة عن الفرنسية *Les Dossiers de la Bible* تصدر منذ عام ٢٠٠٠ عن دار بيبليا للنشر بوتيرة اربعة ملفات في السنة.

السنة الاولى: ٢٠٠٠
١- الحديث عن القيامة/أيلول
٢- الافخارستيا/ كانون الأول

السنة الثانية ٢٠٠١
٣- ايليا واليشاع/كانون الثاني
٤- امثال يسوع/نيسان
٥- ما وراء الموت/تموز
٦- عجائب يسوع/تشرين الأول

السنة الثالثة ٢٠٠٢
٧- قراءة في انجيل متى/كانون الثاني
٨- اعمال الرسل/نيسان
٩- قراءة في مؤلف لوقا/تموز
١٠- حزقيال النبي/تشرين الأول

السنة الرابعة ٢٠٠٣
١١- اناجيل الطفولة/كانون الثاني
١٢- القديس بولس/نيسان
١٣- سفر يونان/تموز
١٤- كنيسة البدايات/تشرين الأول

السنة الخامسة ٢٠٠٤
١٥- القديس مرقس/كانون الثاني
١٦- سفر المزامير/نيسان
١٧- النبي عاموس/تموز
١٨- صلاة الابانا/تشرين الأول

السنة السادسة ٢٠٠٥
١٩- انجيل يوحنا/كانون الثاني
٢٠- الروح القدس/نيسان
٢١- الاناجيل المنحولة/تموز
٢٢- اشعيا النبي/تشرين الأول

السنة السابعة ٢٠٠٦
٢٣- سفر ايوب/كانون الثاني
٢٤- ارميا النبي/نيسان
٢٥- سفر الرؤيا/تموز
٢٦- الغفران في ك. م. /تشرين الأول

السنة الثامنة ٢٠٠٧
٢٧- اشعيا الثاني وتلاميذه/كانون الثاني
٢٨- أوجه يسوع/نيسان
٢٩- الآلام بحسب يوحنا/تموز
٣٠- سفر الخروج/تشرين الأول

السنة التاسعة ٢٠٠٨
٣١- لا فقراء بعد اليوم!/كانون الثاني
٣٢- الآلام بحسب انجيل لوقا/نيسان
٣٣- روح العنصرة/تموز
٣٤- العهد: من سيناء الى يسوع/تشرين الأول

السنة العاشرة ٢٠٠٩
٣٥- العماذ في ك.م.+عدد خاص/كانون الثاني
٣٦- بولس وقورنتس/نيسان
٣٧- حين يتكلم الله/تموز
٣٨- مريم، ام يسوع/تشرين الأول

السنة الحادية عشرة ٢٠١٠
٣٩- اورشليم مدينة السلام/ كانون الثاني
٤٠- كما في الكتب/ نيسان
٤١- واعطاها اسما (الحيوانات في ك.م.)/نيسان
٤٢- روايات الكتاب المقدس/ تشرين الاول

السنة الثانية عشرة ٢٠١١
٤٣- الجبل في الكتاب المقدس
٤٤ – الحرب والسلام
٤٥ – ابراهيم خليل الله
٤٦ – طرق لتفسير الكتاب المقدس

تتوفر مجموعات من الملفات باسعار مخفضة

مجموعة ٧ اعوام (٢٠٠٥ – ٢٠١١)	الملفات ١٩ – ٤٦	٣٠٠٠٠ د.
مجموعة ٦ اعوام (٢٠٠٦ – ٢٠١١)	الملفات ٢٣ – ٤٦	٢٥٠٠٠ د.
مجموعة عامين (٢٠٠٦ – ٢٠٠٧)	الملفات ٢٣ – ٣٠	٥٠٠٠ د.
مجموعة عامين (٢٠٠٨ – ٢٠٠٩)	الملفات ٣١ – ٣٨	١٠٠٠٠ د.
مجموعة عامين (٢٠١٠ – ٢٠١١)	الملفات ٣٩ – ٤٦	١٠٠٠٠ د.

سلسلة ابحاث كتابية

وبضمنها سلسلة تفاسير

١. قراءة مجددة للعهد الجديد — تأليف: أ. بيوس عفاص — ٥٤٠ص/١٩٩٩ — (٤٠٠٠ د)

٢. يسوع الذي من الناصرة، بقلم مرقس الانجيلي — تعريب: أ. بيوس عفاص — ٢٣٤ص/٢٠٠٢ — (١٠٠٠ د)

٣. قراءة في العهد القديم/ج١: قبل الجلاء — ٢٤٠ص/٢٠٠٣ — (١٥٠٠ د)

٤. قراءة في العهد القديم/ج٢: من الجلاء الى يسوع — ٢٧٢ص/٢٠٠٤ — (٢٠٠٠ د)

٥. قراءة في العهد الجديد/ ج١: الاناجيل الاربعة — ٢٥٦ص/٢٠٠٤ — (٢٠٠٠ د)

٦. قراءة في العهد الجديد/ ج٢: اعمال الرسل، الرسائل، الرؤيا — ٢٥٦ص/٢٠٠٤ — (٢٠٠٠ د)

وتؤلف الاجزاء الاربعة الاخيرة من تعريب الأب بيوس عفاص [وتضمها علبة خاصة]
مدخلا متكاملا الى الكتاب المقدس بسعر ٨,٠٠٠ دينار

(سعر خاص للجزئين من "قراءة في العهد الجديد": ٣٠٠٠ د. فقط)

٧. الكنيسة التي ورثناها عن الرسل — تأليف: أ. ريموند براون — ت: م. جرجس القس موسى — ٢٠٨ ص/٢٠٠٥ — (٢٠٠٠ د)

٨. لوقا – الاعمال/ وعد التاريخ — تأليف: دونالد يوئيل — تعريب: أ. البير ابونا — ٢٠٠ص/٢٠٠٦ — (٢٠٠٠ د)

٩-١٠. روايات الآلام والقيامة/ بحسب الانجيليين الاربعة — تأليف: أ. بيير بنوا — تعريب: أ. بيوس عفاص — ٣٣٦ص/٢٠٠٦ — (٣٥٠٠ د)

١١. يسوع الذي هو المسيح — تأليف: أ. برنار راي — ت: م. جرجس القس موسى — ١٣٦ص/٢٠٠٧ — (٢٠٠٠ د)

١٢. من اجل ايمان جاد/ الايمان بحسب القديس يوحنا — تأليف: ك. كارلو مارتيني — تعريب: أ. ألبير أبونا — ١٧٦ص/٢٠٠٨ — (٢٠٠٠ د)

١٣. الانجيل بحسب القديس متى/ سلسلة تفاسير ١ — تأليف: كلود تاسان — تعريب: أ. بيوس عفاص — ٢٨٨ص/٢٠٠٨ — (٣٠٠٠ د)

١٤. مذكرات مريم، فتاة الناصرة — تأليف: جاكلين هوري — ت: م. جرجس القس موسى — ٢٨٨ص/٢٠٠٩ — (٣٠٠٠ د)

١٥. الانجيل بحسب القديس يوحنا / سلسلة تفاسير ٤ — تأليف: آلان مرشدور — تعريب أ. بيوس عفاص — ٢٨٠ص/٢٠٠٩ — (٣٠٠٠ د)

١٦. رسائل القديس بولس/ج١: ١و٢ قورنتس/سلسة تفاسير ٦ — تأليف: بول دي سرجي، موريس كاريس — ت: م. جرجس القس موسى — ٢٣٢ص/ ٢٠١٠ (٣٠٠٠د)

١٧. رسائل القديس بولس /ج٢: (روما وغلاطية) / سلسلة تفاسير ٧ — تأليف: جان– بيير ليمونون — تعريب: الاخت باسمة الخوري — ٢١٦ص/ ٢٠١٠ (٣٠٠٠د)

١٨. رسائل القديس بولس / ج٣: (الرسائل التسع الاخرى)/سلسلة تفاسير ٨ — تأليف: شانتال رينييه، ميشيل تريماي — تعريب: أ. البير ابونا — ٣٤٠ص/٢٠١١ (٣٠٠٠د)

(وتؤلف الاجزاء الثلاثة الاخيرة "ثلاثية" تغطي رسائل بولس الثلاث عشرة تباع بسعر خاص : ٧٠٠٠ د. فقط)

١٩. الرسائل الاخيرة/ سلسلة تفاسير ٩ (عب، يع، ١و٢ بط، ١-٣يو، يه) — تأليف: ادوار كوتنيه، ميشيل موركن، البير فانوا — تعريب: أ. فادي مسلم — ٢٤٨ص/ ٢٠١١ (٣٠٠٠د)

سيظهر تباعا

٢٠. الانجيل بحسب القديس مرقس– سلسلة تفاسير ٢ — يظهر في اوائل ٢٠١٢

٢١. الانجيل بحسب القديس لوقا– سلسلة تفاسير ٣ — يظهر في خريف ٢٠١٢

٢٢. سفر أعمال الرسل– سلسلة تفاسير ٥ — يظهر في اوائل ٢٠١٣

٢٣. سفر الرؤيا– سلسلة تفاسير ١٠ — يظهر في خريف ٢٠١٣

سلسلة تفاسير

(Commentaires)

عشرة اجزاء تغطي اسفار العهد الجديد، صدرت عن الخدمة البيبليـة "انجيـل وحياة" (Evangile et Vie) بقلم اختصاصيين في العلوم البيبلية. تنـشرها دار بيبليا على مدى ٥ أعوام.

ظهر منها:

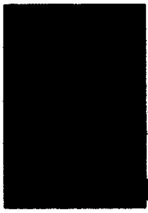

① كلود تاسان
تعريب الاب بيوس عفاص
٢٠٠٨/٢٨٨ص – ٣٠٠٠د.

④ آلان مرشدور
تعريب الاب بيوس عفاص
٢٠٠٩/٢٨٠ص– ٣٠٠٠د

⑥ بول دي سيرجي وموريس كاريز
تعريب م. جرجس القس موسى
٢٠١٠/٢٣٢ص–٣٠٠٠د

⑦ جان بيير ليمونون
تعريب الاخت باسمة الخوري
٢٠١٠/٢١٦ص–٣٠٠٠د.

⑧ شانتال رينييه وميشيل ترعماي
تعريب الاب البير ابونا
٢٠١١/٣٤٠ص–٣٠٠٠د.

وتؤلف هذه الاجزاء الثلاثة "ثلاثية" برسائل بولس الثلاث عشرة

(تباع بسعر خاص: ٧٠٠٠د. فقط)

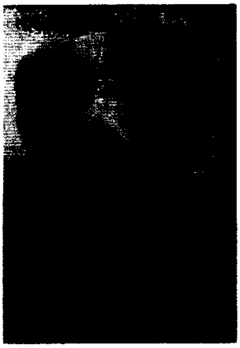

⑨ ادوار كوتنيه – ميشيل موركن – البير فانوا
تعريب الاب فادي مسلّم
٢٠١١/٢٤٨ص–٣٠٠٠د.

- **ترقبوا ظهور الاجزاء الاربعة الباقية لتكتمل السلسلة.**

② الانجيل بحسب القديس مرقس (يظهر في اوائل ٢٠١٢)
تعريب الخوري بولس الفغالي

③ الانجيل بحسب القديس لوقا (يظهر في خريف ٢٠١٢)
تعريب الاب بيوس عفاص

⑤ سفر اعمال الرسل (يظهر في اوائل ٢٠١٣)
تعريب الاب ايوب شهوان

⑩ سفر الرؤيا (يظهر في خريف ٢٠١٣)
تعريب الاب بيير نجم

مختارات الفكر المسيحي

سلسلة توثق ما نشرته مجلة الفكر المسيحي بين الاعوام ١٩٧١-١٩٩٤، لا سيما في ابوابها الثابتة

صدر منها سابقا:

(-) تاريخ الكنيسة الشرقية (الموصل ١٩٧٣)، همسات ابو فادي /ج١ (بغداد ١٩٨٥)، ابت هذه مشكلتي (بغداد ٢٠٠٤)

ومنذ عام ٢٠٠٦ عمدت دار بيبليا للنشر إلى مواصلة إصدار كتب هي بحق "مختارات الفكر المسيحي".

ظهر منها

٣

٢٩٠ص/٢٠٠٦(٢٥٠٠د.)

٤

٥٠٠ص/٢٠٠٧(٣٥٠٠د.)

٥

١٨٠ص/٢٠٠٧(٢٠٠٠د.)

٦

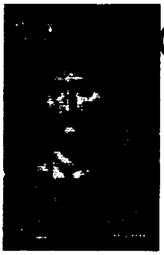

٢٨٤ص/٢٠٠٨(٢٥٠٠د.)

الكتب السبعة معا

الصادرة عن دار بيبليا ١٥،٠٠٠د. عوضا عن ١٨٥٠٠د.

٧

٢١٠ص/٢٠٠٩(٢٠٠٠د.)

٨

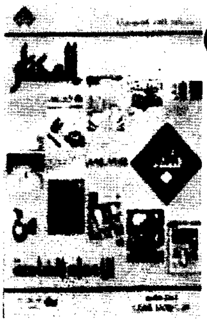

٥٠٨ص/٢٠١٠(٣٥٠٠د.)

٩

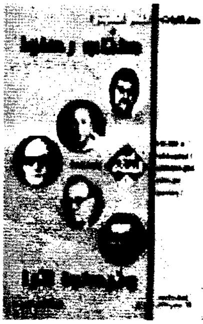

٢٩٢ص/٢٠٠٩(٣٠٠٠د.)

١٠ ملفات الفكر المسيحي

(وفي النية إصدار كتابين تؤامين يوثقان مقالات المطران جرجس القس موسى والاب بيوس عفاص على مدى ٢٤ عاما، يزفان إليهما بمناسبة يوبيلهما الكهنوتي الذهبي عام ٢٠١٢).

اعلان: تتوفر اعداد من مجلة الفكر المسيحي للسنوات ١٩٧١-١٩٩٤في شكل مجموعات:

• المجموعة الكاملة (بكمية محدودة)	٢٤ عاماً	٢٥٠٠٠٠د.
• المجموعة الكاملة (عدا ١٩٧٥-١٩٧٧)	٢١ عاماً	١٠٠٠٠٠د.
• مجموعة إعداد ١٩٨١-١٩٩٤	١٤ عاماً	٥٠٠٠٠د.
• الاعداد الخاصة للاعوام ١٩٧٨-١٩٩٤	(١٦عدداً)	٨٠٠٠د.

تطلب من مكتبة بيبليا/ كنيسة مار توما-الموصل، ومن مكتبات الكنائس

أنجزت مطبعة الديوان
طبع الجزء العاشر من "مختارات الفكر المسيحي"
في العاشر من شهر كانون الاول ٢٠١١